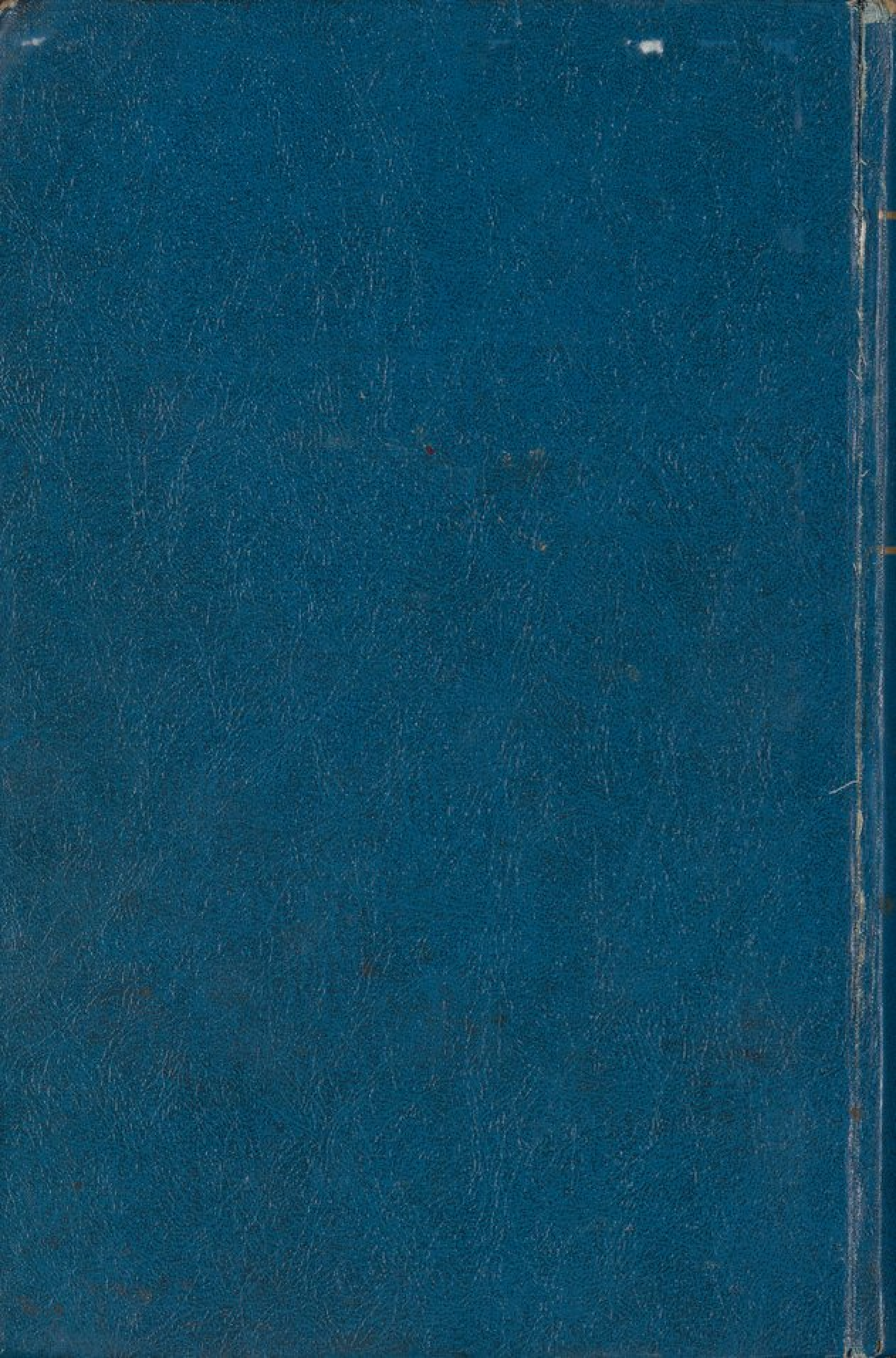




مذكرات نقولا ترك

عفت



مطبوعات المكتبة الخاصة
لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

٢

مذكرات نقولا ترك

نشرها وترجمها وعلق عليها

جاستون ڤييت
مدير دار الآثار العربية

القاهرة
مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية
١٩٥٠

الكتـاب والمؤلف

اقتنت مكتبة جلالة الملك فاروق ، فى مستهل عام ١٩٤٨ ، المخطوط العربى المنشور مع ترجمته فى هذا السفر ، من احدى مكتبات القاهرة . وانى التمس خاضعا ، من مقام جلالته ، وقد اذن لى بطبعه ، ان يتقبل منى اسمى آيات الشكر والعرفان ، لهذا الجميل المسدى الى التاريخ ورجاله .

ويشتمل هذا المخطوط على ٢٥٩ صفحة ، كتبت بخط ثابت معتدل ، عـدا بعض صفحات فى آخره لم تراعى العناية الـكافية فيها .

وقد جاء غفلا من العنوان ، كما غفل اسم كاتبه ، الا انى استطعت التحقق ـــ على ضوء ترجمة «كردان»[١] من ان الـكتاب هو عبارة عن تاريخ نقولا ترك ، او على الاقل احدى روايتيه ، حيث ان الرواية الاخرى نشرت وترجمت بمعرفة «ديجرانج»[٢] .

فالمتن العربى اذن ، لم يسبق طبعه ، وحيث ان «كردان» انتهى فى ترجمته عند حوادث الشهر التالى للجلاء الفرنسى ، فان كمالة هذا التـاليف غير معروفة اطلاقا . وهذا الجزء الذى يصل بنا الى شهر اغسطس سنة ١٨٠٤ ، يجعلنا نقف على معلومات تتصل باوائل ظهور محمد على ، ونجد فيه تفاؤل نقولا ترك وحسن ظنه به ، الامر الذى يتعارض مع راى الجبرتى فى ذلك ، مما يكسو التاريخ المصرى صبغة هامة .

---

(١) نشرت فى ذيل *Journal d'Abdurrahman Gabarti* ولها ترقيم خاص (٦٩ صفحة) باريس ١٨٣٨

(٢) *Histoire de l'expédition des Français en Égypte par Nakoula el-Turk*. Paris 1839.

وهذا الكتاب الذى اقوم بطبعه اليوم ، يتضمن متن المخطوط فى اسلوبه الذى شط فيه عن قواعد النحو والصرف ، مهتما بتحقيق الفكرة التى يرمى اليها فى كتابه هـذا بجمل مسجعة . فاستحسنت نشره على طبيعته دون أى تنقيح . والترجمة التى قمت بها ، قارنتها عند الشرح ببقية الوثائق التاريخية المعروفة ، كما عززتها بشرح واف لـكلمات اجنبيه كثيرة ، اعتاد كتاب ذلك العصر استعمالها .

ولسنا نعرف الكثير عن حياة نقولا ترك . والمعلومات الوحيدة التى جمعناها عنه ، نشرها «ديجرانج» اخذا عن صاحب الترجمة وعن «كردان» وهى كما يسردها الاول : «كان نقولا ترك بن يوسف ترك ، يدين بالكاثوليكية (طائفة الروم الملكيين) . ولد سنة ١٧٦٣ فى دير القمر بسوريا ، حيث عرفته هناك . وقضى نحبه سنة ١٨٢٨ . وتحدر اسرته من قسطنطينيه كما يخبرنا هو نفسه بذلك فى قصيدة نظمها فى مدح بونابارت ، وقام المسيو «مارسيل» المدير السابق «للمطبعة الاميرية» ، بترجمتها وطبعها على الحجر مع صورة منها بخط ناظمها .

ونقرأ فى اعلى هذا المديح : «قام بنظم اشعار هذه القصيدة ، نقولا ترك بن يوسف ترك القسطنطينىّ الاصل .»

«كان نقولا ترك من اتباع الامير بشير ، زعيم الدروز . فاوفده سيده الى مصر ابان فترة حملتنا فلبث فيها ثلاث سنين ، احتلت جيوشنا اثناءها هـذه الولاية . وانه جمع فى هذه البقعة ، العناصر والمواد التى مكنته من تحرير كتابه التاريخى [1] » .

وعلى كل فان مايضيفه «كردان» من بعض بيانات جـديدة ، فهى ذات اهمية قليلة . «ولد المعلم نقولا الترك فى دير القمر بجبل الدروز سنة ١٧٦٣ ، وتوفى سنة ١٨٢٨ . وجاء آباؤه واجداده ، وهم من يوناني قسطنطينيه ، لسكنى الجبل ، واعتنقوا الديانة الكاثوليكية .»

---

(١) انظر ايضا Chauvin, *La légende égyptienne de Bonaparte* ص ١٣ ؛ و Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte*, IX, p. 2. و Guémard ص ١١ و ٦٩ ؛ و

«كان المعلم نقولا شاعرا مكرما فى بلاط الامير بشير ، امير الدروز ، وانه ، وان لم يكن له مرتب ثابت منه ، فانه كان يصرف عليه وعلى اسرته بسخاء .»

«وكان فى استطاعة الحملة الفرنسية ان تترك اثرا ظاهرا منها فى حياة الدروز الذين يزعمون انهم منحدرون من اصل فرنسى . فكان من الاهمية الكبرى لدى زعيم هذه الامة الحربية ، ان يقف على كل صغيرة وكبيرة تتصل بحوادث مصر . فلذلك اصدر امره الى المعلم نقولا بالتوجه الى دمياط والمكث فيها ، وهى افضل بقعة لمراقبة الحوادث بين مصر وسوريا . وكان لاستيلاء «الجزار» على رسالة من المعلم نقولا ، ما ادى الى نزول الكوارث باحد اخوته القاطنين فى عكا .

«وبعد خروج الفرنسيين ، عاد المعلم نقولا الى دير القمر وانحى ناحية الشعر من جديد . وعندما فقد بصره فى اواخر ايامه ، كانت ابنته «وردة» تكتب ما يمليه عليها من اشعاره .

«والكتاب الذى يجد القارىء ترجمته الى الفرنسية فيما بعد ، ماهو الا اختصار لمراسلاته ، تراءى له تحريره نثرا مسجعا .

واحاط «جبرييل جيهار» بترجمتى نقولا ترك . ويذكر عنهما مايلى : «ان كاتم سر الامير بشير او بالاحرى جاسوسه صاحب الشعر الغنائى فى بونابرت ، كان ككثير من اهل المشرق فى ذاك الوقت ، يميل الى الفرنسيين . ولم يلفت نظره بالنسبة الى علمائنا ، الا سكناهم فى قصور المماليك الفارين ، ويذكر اسم «كفارللى» دون بقية الاسماء . ولقد بلغت سذاجته درجة جعلته يعتبر يوم ١٨ برومير ، يوم مظاهرة بسيطة للماليك ، ولكنه صور بعض الشرقيين — لاسيما السوريين الذين خدموا فى سلك جيشنا كجنود «رديف» ، او فى قيادتنا العليا كمترجمين — بصورة مكنت من معرفه حقيقتهم ، وبصفة خاصة عن شخص يدعى «بترو سافرلى» ، لم يعرف فى مصادر اخرى[١] .»

---

(١) Guémard, *Histoire et bibliographie*, p. 111-112.

ومع كل ، فهذا الشخص لم يكن مجهولا ، والواجب يطالبنا ان نوضح ما فيه لبس فى المتن العربى ، من غير ان يكون فى ذلك عناء او تعب ، من واقع الجملة الآتية[1] :

« الرجل السافرلى المدعو باترو وهذا الذى كان يدعونه اهل مصر فريد الزمان السافرلى . » فاذا ضربنا صفحا عن الاهتمام مؤقتا بالاسم وهو مغلوط ، وبادرنا بتصحيح لفظ « سافرلى » الى « ساقزلى » ، ثم عدنا فقرأنا « فرط الرمان » بدل « فريد الزمان » ، لتوصلنا الى الحقيقة . فالرجل الساقزلى (نسبة الى جزيرة ساقز) المكنى بفرط الرمان ، ليس الا « برطلى » المشهور : ولا يرى فى هذا الحل الذى نبديه شائبة من الافراط فى التصرف ، الا الذين لم يدرسوا اللغة العربية .

وكثيرا ما طبع شعره الغنائى فى بونابارت[2] . وهو عبارة عن قصيدة املتها الظروف ، توحى بميل نقولا الى محاباة الفرنسيين . ونظرة امعان فاحصة الى المتن الذى ننشره اليوم ، كفيلة باظهار خلاف هذا الظن : فنقولا ترك يعجب بالشجاعة الحربية فى اى معسكر كانت . فهو يشيد بذكرها عند الفرنسيين ، كما ينوه عنها لدى المماليك . وانما كل ما يمكن ان يقال فى هذا المقام ، انه كان يبغض الاتراك .

ويذكر الاب شيخو — فى « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر »[3] — نقولا ترك كشاعر له مكانته واحترامه[4] ، ويزيد بانه صاحب فذلكة تاريخية عن

---

(1) DESGRANGES ص ٦٤ من النص العربى

(2) CHAUVIN, *La légende égyptienne de Bonaparte* ص ٤٣ وكذلك على هامش هذه الصفحة (رقم ١) ؛ حيدر شهاب ، الجزء الثانى ص ٣٤١ و ٣٤٢ ؛ JEHAN D'IVRAY, *Bonaparte et l'Égypte* (ذكره MUNIER فى *Tables de la Description de l'Égypte* ص ٣١٥ رقم ٢٠١) .

(3) الطبعة الثانية ص ٢٣ و ٢٤ . انظر بشر فارس : يوم فى خزانة عيسى اسكندر معلوف ، المقتطف سنة ١٩٤٢ ص ٧ .

(4) اخبرنى المسيو كوستى ك. زريك ان مخطوط ديوان نقولا الترك مودع مكتبة الجامعة الامريكية ببيروت .

الدكتور قسطنطين زريق

نابوليون تتضمن الفترة الواقعة بين وفاة لويس السادس عشر ووفاة الامبراطور سنة ١٨٢١ ، ويقول انها تقع فى ٤٥٠ صفحة تقريبا ، كتبت بقلم محايد وذوق سليم ؛ الا ان الاب شيخو يعود فيذكر تحقيقا واهنا ، حيث يقول بان الجزء الاول من هذا الكتاب طبع بمعرفة «ديجرانج» . ولا يمكن ان نسلم بان المتن الذى نشره «ديجرانج» يختص بتاريخ نابوليون ، وانما هو قصة الحملة الفرنسية فى مصر .

ويجمل بنا ان نكون على حذر مما ورد عن ترجمة حياة احمد الجزار الموجودة ضمن مجموعة جامعة القديس يوسف ببيروت . واشير هنا الى ما قاله الاب شيخو نفسه (١) :

«لايوجد اسمه فى اى موضع . وفى رأينا انها ترجمة حياة نقولا ترك .»

---

(١) Cheikho, *Manuscrits historiques, Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth,* VI, p. 240-241.

فاتحة الكتاب

الحمد لله الحى القيوم الأبدى . الازلى الدايم السرمدى الرب العلى المتعال القوى الفعال . القدير القهار العزيز الجبار . الرحمن الرحيم المدبر الحكيم . الواحد الاحد لا رب غيره وسواه لا يعبد . من خلق السموات وزينها بالكواكب السايرة والنجوم الزاهرة . وبسط الارض واتقنها بحكمته الباهرة وقدرته القادرة . وصنع الانسان وولاه على ساير ما أبدع فى دنياه وجمله بجوهر العقل الفايق والذهن الرايق وامره بالشبر على الحق وحفظ السنن وخلوص الود للخلق . وترك الفتن

نحمده سبحانه جل شانه حمداً يليق بعزته تعالى . ما طلع بدر واشرقت غزاله

ثم

اما بعد فيقول العبد الضعيف صاحب هذا التاليف راجياً عفو مالك الملك احقر خلق الله الغير المستحق ان يذكر اسمه .

انه اذ قد جرت عادة الاوايل بتاليف الكتب والرسايل وتاريخ ذكر ما يمر عليهم من الحوادث الكونيه والحركات الكليه كقيام دولة على دوله واشتهار الحروب المهوله وما يتعلق بها من المواقع المريعه والامور الفظيعه . فحق لنا ان نذكر فى هذا الكتاب لانتفاع الطلاب ذكر ما اجرته يد الاقدام بهذه الامصار منذ اذ بتت العزة الالهيه بظهور المشيخة الفرنساويه وما تاتى بسببها من الفتن فى البلاد الافرنجيه حتى عمت ساير الافطار وشملت كامل الامصار وقتل سلطانهم وخراب بلدانهم وانتشار شانهم

وربحهم بعد خصرانهم وذلك بظهور فرد افرادهم وقايد اجنادهم البطل الصنديد ذو البطش الشديد الامير بونابرته .

وذكر الحروب التى ثارت فى تلك الممالك ووقوع الشرور والمهالك . وقهر تلك البلاد التى اتصلوا اليها والانتصارات العظيمه التى حصلوا عليها . وانتقالهم العجيب من الغرب الى الشرق مرور اسرع من البرق . ونزولهم على جزيرة مالطا كالصواعق الساقطه . وتوجههم ثغر الاسكندريه واستيلايهم على الاقطار المصريه . والتخبير عما وقع لهم من التمليك وحروبهم مع دولة الغز المماليك وركوبهم على الاقطار الشاميه وحصارهم لمدينة عكا القويه ورجوعهم الى ارض مصر وجميع ما تم لهم فى ذلك العصر . وحروبهم مع الدولتين العظيمتين الدولة العثمانيه والدولة الانكليزيه وملاقاتهم للعساكر البحريه والبريه ومصادماتهم مع التجاريد الهمايونيه الخنكاريه وخروجهم من مصر القاهرة بالتسليم من بعد حروب وافره وهول عظيم . من بعد مكثهم بالكنانه ثلثة اعوام بالتمام ابتداوها شهر محرم سنة ١٢١٣ واخرها شهر صفر سنة ١٢١٦ وكانت ترا اعجب العجايب واغرب الغرايب .

وفى هذا الكتاب ايضا ذكر دخول الدولة العثمانيه من بعد خروج الدولة الفرنساويه وذكر ما تم لهم مع دولة الغز المحمديه . وذلك من بعد تملكهم دار الكنانه . فنقول وبالله القوة والاستعانه

*

* *

بسم الله الازلى السرمدى الرحمان الرحيم وبه نستعين نبتدى بعون الله وحسن توفيقه بتاليف تواريخ ظهور المشيخة الفرنساويه فى العالم بعد قتلهم ملكهم وذلك من ابتدا عام الف وسبعماية واثنين وتسعين مسيحيه الموافق سنة الف ومايتين وسبعة للهجرة الاسلاميه .

فنقول وبالله المستعان انه فى هذه السنة هاجت شعوب مملكة فرانسا الهيجان

الكلى وقامت على ساق وقدم ضد الملك والامرا والاشراف متطلبين ترتيباً جديداً ✓
ونظاماً حديثاً ضد الترتيب الموجود الكاين فى مدة الملك . بادعاء اثبتوه ان وجود
الملك بصوت منفرد احدث خراباً عظيماً فى هذه المملكة وان والامرا والاشراف
متنعمين فى خير هذه المملكه وباقى شعوبها فى غاية الذل والهوان . فلاجل ذلك
نهضوا جميعهم بصوت واحد قايلين لا راحة لنا الا فى نزول الملك وقيام المشيخه .
وكان يوماً عظيماً فى مدينه باريس وارتج الملك وباقى ارباب دولته من الامرا
والاشراف ودخلوا على الملك وافهموه غايتهم . وهو ان الملك لا يستطيع ان يبت
حكماً او يقدم راياً من تلقاء نفسه بل يكون بت الاحكام وباقى ترتيب نظام المملكة
براى مشايخ الشعب بموجب ديوان عظيم وجمعيه ويكون الملك له الصوت الاول
ومن بعده مشايخ الشعب وان بهذه الواسطه يصطلح حال المملكة . فهذا ما ارتاته
شعوب مملكة فرانسا وقدموه الى الملك فحين نظر الملك قيامهم هذا العظيم وهيجانهم
واحمرار اعينهم خاف خوفاً عظيماً وقال لهم انا مطيع بكامل ما تروه مناسب لاننى
انا ايضاً احب واود عمار المملكة ونظامها وخيرها . فقالوا له ان كنت حقاً كما تزعم
فاختم اذاً على هذه الشروط . وكانت الشروط متضمنة قيام المشيخة وابطال صوت
الملك وحده . فختم حالاً الملك على الشروط التى قدموها له وفرح الشعب فرحاً
عظيماً بنفوذ كلامهم . وبعد ايام قليلة جداً جهز الملك نفسه وفى ذات ليلة خرج من
مدينة باريس مع باقى اصحابه ورجاله هاربا من بين ايدى الشعب قاصدا بلاد النمسا
عند الانبراطور اخو امراته . فبلغ مشايخ الشعب ذلك فحالاً جدوا فى طلبه والتقوا
به فمسكوه واحضروه رغماً وادخلوه الى مدينة باريس بكل ذل وهوان وقام شعب
فرانسا قياماً تاماً . وبدوا جميعهم يعجوا بصوت واحد صارخين فليقتل الملك على
موجب شريعة المشيخة كون انه خان عهده مع مشايخ شعبنا ولا هرب منا الا لكى
يلتجى الى الانبراطور اخو امراته ويستعين به علينا فاذاً يقتل شرعاً مع امراته التى
بسببها حصل عليه وعلينا هذا الخراب

حالاً واحضروه جهاراً امام الشعب مع امراته واولاده وقتلوهم جهراً وكان يوما عظيم فى مدينة باريس عند جميع الذين هم من حزبه مثل امرا واشراف واعيان وفى قتل الملك قتلوا جملة اناس من ارباب الدولة والذين هم من حزبه وعيد شعب فرانسا عيداً عظيماً فى ذلك اليوم . وقالوا ان هذا العيد يعمل سنوياً تذكاراً لقتل الملك وانتصار المشيخة وابتدت الفرنساويه تصنع هذا العيد سنوياً وجعلوه بدو سنينهم فى قيام المشيخه وغيروا الاشهر النصرانية القديمة وعملوا اشهر جديدة وسموها باسامى جديدة مختلفة وعملوا الشهر كعادته ثلثون يوماً والسبة عشرة ايام خلافاً عن المعتاد وكل ذلك لكى يغيروا الاشيا القديمة .

واخرجوا الرهبان من اديرتهم والكهنة من كنايسهم وقفلوا الاديرة والكنايس وهاجت مملكة فرانسا هيجاً عظيماً وصار خراباً جسيماً وما بقى من حزب الملك الا اناساً قليلين وقوى جداً حزب المشيخة وضعف حزب الملك للغاية لانهم قتلوا منهم كثيرين ، وبدا فى كل مدة يقع بينهم فى باريس وقايع الى ان ضعف حزب الملك جداً كما اشرنا وقوية شوكة المشيخة

وكتبت الى الدولة العثمانية بذلك وعرفتها بما حصل وارسلت الشى الى القسطنطينية وانقبلت كتاباتهم .

ثم كتبوا الى باقى ملوك اوروبا وعرفوهم عما حصل وهذه كانت مضمون كتاباتهم

انه كلمن يقر بمشيختنا فهو محب لنا وكلمن لا يقر بمشيختنا فهو عدو لنا فليستعد لمحاربتنا لان مشيختنا هى مستعدة ان تحارب المسكونة باسرها .

فحين بلغت هذه الكتابة الى ماوك اوروبا فقامت كلها على ساق وقدم وقالوا لانفسهم نحارب هذا الشعب الهايج العاصى ونبيد ذكره من العالم لكى لا تتشبه به باقى شعوب الممالك ويقوموا على ملوكهم ويقتلوهم ويخرجوا نظير هؤلاء الخارجين فبدوا الملوك يجيشوا عليهم . فاول من تحرك لقتالهم الانبراطور ملك النمسا ومملكة اسبانيا

والانكليز والفلمنك وباقى سلاطين بلاد ايطاليا وبالجملة كامل بلاد اوروبا قامت ضدهم وتعرت مشيخة فرانسا من صحبة وصداقة كامل البلاد الافرنجية .

ولكون ان شعب هذه المملكة هو أوفر عدداً من كامل الشعوب ونظروا ان جميع البلاد الافرنجية صارت ضدهم فاعتصبوا كلهم عصبة واحدة من ابن سبع سنين وما يعلوه ونذروا انفسهم للحرب لكل من يكون ضدهم وخرجوا الى الحروب وبدوا يحاربوا مدينة بعد مدينة واقليماً بعد اقليم ويلقوا جيوشاً ويصادموا عساكراً الى ان انتصروا على جملة بلاد واقاليم واخذوا جملة قلاع وحاصروا بلاد ايطاليا وتملكوا جانب منها واتصلوا الى حدود بلاد النمسا بعد اخذهم جملة قلاع ومدن من ملك النمسا وهنالك عقد سارى عسكرهم الكبير بونابرته صلح مع الانبراطور سلطان النمسا .

ثم نهض من ارض النمسا الى ايطاليا ودخل الى مملكة البندقيه دخولاً عجيب غريب لان مدينة البندقيه هى بكر الابكار لكون انها من حين ما بنيت وقامت مشيختها قط ما دخلها دخيل ولا سطا عليها عدو ودخلت الجيوش الفرنساويه الى هذه المملكة وقلبوا كرسى مشيختها وسلبوها واستولوا على كنوزها واخذوا جزرها وباقى مدنها وسلموا مدينة البندقيه الى ملك النمسا ومن هناك نهضوا واتوا الى روميه العظما وملكوها وقلبوا كرسى البابا وطردوه خارج المدينة واستولوا على كنوزها ووضعوا بها عسكراً فرنساوياً واتوا الى مدينة باريس وكان مدة حروبهم فى البلاد الافرنجية ستة سنوات وطاعتهم غالب البلاد المذكورة .

ثم ابتدوا الى تجهيز عمارة عظيمة وحارت جميع الناس كون انهم ما قدروا يعلموا هذه العمارة لاى مكان ولاى بلاد متوجهة الى ان تمت العمارة وكانوا مراكبها مقدار ثلاثماية وثمانون مركب ومشحونها مقدار ثلثون الف صلدات حربيه وايضاً مقدار ثلثة وعشرون الف جناراليه وكومنضاتيه وفسياليه وكومساريه وكتبه ونسا واولاد وبحريه جملة ذلك نحو ثلثة وخمسون الف وكان سارى عسكر عليهم امير الجيوش

بونابرته وكان عمره نحو ثلثين سنة وكان هذا الجنرال شديد البطش وسعيداً جداً فى الحروب وهو الذى فتح بلاد ايطاليا والبندقيه وغيرهما .

وحين تمت العمارة كما اشرنا واقلعت من مدينة طولون فما زالت سايرت حتى اتصلت الى جزيرة مالطا وحاصرتها واخذتها وقبل ان ذلك كان بولس الكويليريه الفرنساويين الذين كانوا موجودين بها ودخلوا الى جزيرة مالطه الغنيه جدا وسلبوا منها اموالأغزيرة ورفعوا الكويليريه الحكام الذين هم من قبل الملوك ووضعوا بها ستة الاف فرنساوى واخذوا من البلد عوضها مالطيـه واطلقوا جميع الاسرا الاسلام الموجودين بها من كامل البلاد وسرحوهم الى بلادهم .

وقاموا عن جزيرة مالطا قاصدين مدينة الاسكندرية والاقطار المصريه .

فقبل وصولهم فى شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٢١٣ للهجرة الاسلاميه فى ثالث عشر يوم منه ظهرت على ثغر الاسكندريه نحو اثنى عشر بيليك من عمارة الانكليز ونزل منها جماعة الى البر فحضر لمقابلتهم جمركجى البلد الذى هو السيد محمد كريم الذى كان متقدم على الديوان والبلد فى ذلك الوقت فاستخبر منهم عن سبب حضورهم .

فقالوا له نحن حضرنا لهذا الطرف لكى نفتش على العمارة الفرنساويه اعدائنا لانه بلغنا انهم قادمين الى هذه المملكة ومقصودهم ان يتملكوها ونحن حضرنا نصدهم ونمنعهم ومقصودنا نقيم هاهنا ننتظرهم هنا .

فالسيد محمد كريم اتخذ كلامهم انه مخادعة ومخاتله .

فقال لهم ان الفرنساويه غير ممكن انهم يحضروا لبلادنا ولا لهم فى ارضنا شغل ولا بيننا وبينهم عداوة وهذا كلام غير ممكن ان نصدقه . وما انتم فما لكم اقامه فى ارضنا ولا معنا اجازة ان نقبلكم جملة كافيه فانظروا الذى تحتاجوه من الماء والذخيرة خذوه واذهبوا عنا بالسلامه وان كان الفرنساويه كما تزعمون قاصدين اخذ بلادنا فنحن منا لهم نصطفل .

فقالوا له الانكليز انتم ما صدقتم كلامنا سوف تعاينوا ما يحل بكم وتندموا على عدم قبولكم ايانا .

وانصرفوا على هذه الصورة . فرجع السيد محمد كريم وبالحال والساعة حرر مكتوب الى امير اللوا مراد بيك بمصر واخبره بصورة ما وقع وللحين عند ما حضرت هذه الخبريه للمشار اليه ففاح الخبر بمدينة مصر وتبلبلت البلاد نوعا وبدت الناس تضوج .

هذا ما كان من امر مصر . فلنرجع الى ما كنا فى صدده . وهو انه من بعد قيام مراكب الانكليز من ثغر الاسكندرية تلك الليلة وثانى يوم العصر بانت اثر مراكب الفرنساويه وانفرد منهم مركب ودخل البوغاز ونزل قبطانه الى البر وطلب قنصل الفرنساويه الذى كان موجود بالاسكندرية فى ذلك الوقت ضاجت البلد وعملوا ديوان واتفق الراى على عدم تسليم القنصل وكان يوميذ فى الاسكندرية موجود مركب البيليك رياله بيك فالمذكور حين نظر كثرة المراكب من بعد اراد اطفا نار الشر وعظم عنده الوهم فقال لاهل البلد اعطوهم قنصلهم وان حصل سوال عن ذلك فعلى الجواب فسلموهم القنصل فاخذوه فى المركب وراحوا ثم فما اغربت الشمس الا والعمارة تكاملت على الثغر المذكور ومقدارها حسب تعريفهم عنها ثلثماية وثمانون مركب مقلعه .

فاهل اسكندرية ما عادوا نظروا بحر بل سماء ومراكب فوقع عليهم خوف عظيم ووهم جسيم شى لا يقدر ففى الحال والساعه ضاجت البلد وعملوا ديوان وكتب السيد محمد كريم الى امير اللوا مراد بيك بمصر يعرفه عن حضور العمارة فى هذه الالفاظ .

سيدى ان العمارة التى حضرت مراكب عديدة مالها اول يعرف ولا اخر يوصف لله ورسوله داركونا بالرجال .

وباتوا اهل اسكندرية تلك الليلة فى خوف لا يوصف وثانى يوم حين لاح الصباح نظروا عساكر الفرنساويه على البر جيوش مالها عدد فاستعدوا الى الحرب وقصدوا يحاصروا فى البلد لاجل المغازاه ولكن ياالخسافة رايهم لان فى قلعة اسكندرية التى هى بوغاز مملكة مصر ما التقا سوا جرة واحدة مملوة بارود فقط .

فهجمت عليهم عساكر الفرنساويه هجمة واحده ودخلوا البلد فقتل من اهل البلد نحو اربعين نفر ومن الفرنساويه اقل من ذلك وانجرح الجنرال كليبير .

وتملكوا الاسكندرية وثانى يوم اطلق المنادى فى البلد الجنرال بونابرته السارى العسكر الكبير بالامن والامان وقلة المعارضة وفى الحال سرح العساكر الفرنساوية على دمنهور لناحية مصر وعلى بندر رشيد فوصلوا الى رشيد واخذوها وملكوها واخذها كان على اهون سبب من غير حر ولا شر لان حين اقبلت الفرنساويه عليهم خرجت اهل البلد لمقابلتهم فلاقوهم وسلموهم البلد لان رشيد لم تحمل حصار .

ثم ان السارى عسكر الجنرال بونابرته حين تملكهم الاسكندريه ارسل فرمان مطبوع الى اهل مصر يعرفهم عن سبب حضوره وهذه نسخة الفرمان

بسم الله الرحمان الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه

من طرف الجمهور الفرنساوى المبنى على اساس الحرية والتسوية السارى عسكر الكبير بونابرته امير الجيوش الفرنساويه يعرف اهالى مصر جميعهم

ان من زمان مديد السناجق الذين يتسلطنوا فى البلاد المصريه يتعاملوا بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساويه ويظلموا تجارها بانواع البلص والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وحصرتاً من مدة عصور طويله هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الابازا والكرج يفسدوا فى الاقليم الاحسن الذى يوجد فى كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شىء قد حتم على انقضا دولتهم .

يا ايها المصريين قد يقولوا لكم اننى ما نزلت فى هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم . فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفتريين اننى ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين . واننى اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه محمد والقرآن العظيم .

وقولوا ايضاً لهم ان جميع الناس متساوين عند الله وان الشى الذى يفرقهم من بعضهم بعضا فهو العقل والفضايل والعلوم فقط .

وبين المماليك ما العقل والفضايل والمعرفة التى تميزهم عن الاخرين وتستوجب انهم يتملكوا وحدهم كلما يحلوا به حياة الدنيا .

حيثما يوجد ارض مخصبة فهى مختصة بالمماليك والجوارى الاجمل والخيل الاحسن والمساكن الاشهى فهذا كله لهم خاصاً .

ان كانت الارض المصرية التزام للمماليك فليورزون الحجج التى كتبها لهم الله . فلكن رب العالمين هو راوفاً وعادل على البشر . بعونه تعالى من اليوم فصاعداً لا يستثنى احداً من اهل مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها .

سابقاً فى الاراضى المصرية كانت المدن المعظمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر وما زال ذلك كله الا الطمع وظلم المماليك .

ايها القضاه والمشايخ والايمة ويا ايها الشورباجيه واعيان البلد قولوا لامتكم أن الفرنساويه هم ايضاً مسلمين خالصين . واثباتاً لذلك قد نزلوا فى روميه الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دايما يحث النصارا على محاربة الاسلام . ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكواليريه الذين يزعموا ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساويه فى كل وقت من الاوقات صاروا المحبين الاخلصين لحضرة السلطان العثملى واعداء اعدايه ادام الله ملكه وبالمقلوب المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما طاعوا اصلاً الا لطمع انفسهم .

طوبى ثم الطوبى لاهالى مصر الذين يتفقوا معنا بلا تاخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم طوبى ايضا للذين يقعدوا فى مساكنهم غير مايلين لاحد من الفريقين المحاربين فاذاً يعرفونا بالاكثر يتسارعوا الينا بكل قلب .

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم فى الحرب علينا فما يجدوا طريق للخلاص ولا يبقا منهم اثر .

المادة الاولى

جميع القرى الواقعة فى دايرة قريبة بثلثة ساعات عن المواضع التى يمر بها العسكر الفرنساوى فواجب عليها انها ترسل للسارى عسكر بعض وكلا من عندها لكيما يعرفوه المشار اليه انهم طاعوا وانهم نصبوا السنجق الفرنساوى الذى هو ابيض وكحلى واحمر .

المادة الثانية

كل قرية التى تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار .

المادة الثالثة

كل قرية التى تطيع للعسكر الفرنساوى الواجب عليها نصب السنجق الفرنساوى وايضاً نصب سنجق السلطان العثملى محبنا دام بقاه .

المادة الرابعة

المشايخ فى كل بلد يختموا حالاً جميع الارزاق والبيوت والاملاك بتاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكيلا يضيع ادنا شى منها .

المادة الخامسة

الواجب على المشايخ والقضاه والايمة انهم يلازموا وظايفهم وعلى كل واحد من اهالى البلد ان يبقا فى مسكنه مطمان وكذلك الصلوة قايمه فى الجوامع على العادة والمصريين باجمعهم يشكروا الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك قايلين

بصوت عالى ادام الله اجلال السلطان العثملى ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية .

تحريراً بمعسكر اسكندريه فى ثالث عشر من شهر مسيدور سنة السادسة من اقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجريه .

هذا ما كان من امر اسكندريه ورشيد . فلنرجع لما كنا فى الابتدا ان السيد محمد كريم حين اقبلت الجيوش الفرنساويه على اسكندريه اعرض الى امير اللوا مراد بيك وعرفه عن حضورهم مع ثلثة عشر ساعى فى ليلة واحدة . فياله من يوم كان مهول وساعة كانت عظيمة حين اقبلت السعاه ورى بعضها بهذا الخبر الشنيع والامر الفظيع فانقلبت مدينة مصر قلبه واحده وركبت السناجق والحكام والعلما والمشايخ والعوام ونزل الوزير من القلعه وطلبوه الى الديوان فى قصر العينى وكان يوميذ السناجق الموجودين . ابراهيم بيك شيخ البلد . مراد بيك . مصطفى بيك . ايوب بيك الكبير . سليمان بيك . عثمان بيك الشرقاوى . ايوب بيك الصغير . سليم بيك ابو دياب . احمد بيك كلارجى . عثمان بيك الاشقر . رشوان بيك . مرزوق بيك . محمد بيك الالفى . عثمان بيك طنبرجى . عثمان بيك البرديسى . محمد بيك المنفوخ . قاسم بيك ابو سيف . قاسم بيك امير البحرين . قاسم بيك المسكوبى . ابرهيم بيك الصغير . ومراد بيك الزغير . ومحمد بيك المبدول . عثمان بيك طويل . صالح بيك كان مسافر بالحج لمكة جملة ذلك اربعة وعشرين سنجق . وعدة العلما الكبار بمصر يوميذ . كان الاستاذ العظيم الشيخ عبد الله الشرقاوى . الشيخ السادات . الشيخ خليل البكرى . الشيخ محمد المهدى . الشيخ سليمان الفيومى . الشيخ مصطفى الصاوى . الشيخ العريشى . الشيخ الامير . السيد عمر مكرم نقيب الاشراف . واما المشايخ الصغار فلا عدد لهم .

فهولاء المشايخ التسعة مع السناجق المعدودين اعلاه توجهوا مع حضرة الوزير الى قصر العينى وعقدوا ديوان عظيم وكانت الوجاقات السبعة مع الكشاف الكبار والصغار والكواخى والمتقدمين وارباب العكاكيز وجماة من العوام ارباب الصوت

والكلام . وبدوا يتداولوا فى امر دخول الفرنساوية الى بلادهم فامير اللوا مراد بيك بما انه عارف ان خاطر الدوله العليه متغير عليه فالتفت الى الوزير فى الديوان

وقال له ان الافرنج ما حضروا الى هذه البلاد الا باذن من الدولة العليه ولا بد انت ايها الوزير عندك الخبر والعلم بذلك ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم .

فقال له الوزير لا يصح منك هذا الكلام ايها الامير ان الدولة العلية لا يمكن ان تسمح بمثل هذا الامر على بلاد الاسلام فدعوكم من هذا الحديث والكلام وشدوا همتكم وصمموا نيتكم وانهضوا نهضة الابطال واستعدوا للحرب والقتال وقدموا ذواتكم للغازاه وفوضوا الامر لله .

ثم بدوا يتفاوضوا فى امر الافرنج الموجودين فى مصر . فقال لهم الوزير الحكم والعادة ان يحازوا فى القلعه هم واتباعهم ويقع التفتيش على السلاح عند كامل النصارى . فقال البعض من السناجق والعلما لا بد نقتل جميع النصارى بالسيف قبل ان نخرج الى حرب الكفار . فقال الوزير وشيخ البلد ابرهيم بيك غير ممكن اننا نسلم فى هذا العزم والراى لان هولاء رعية مولانا السلطان صاحب النصر والعز والشان . وهذا الراى كان بته الاستاذ والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف وايوب بيك الصغير الدفتردار والبعض من سناجق وكشاف صغار وعلما واعوام صغار . واما حضرة الوزير عالى الشان مع شيخ البلد ما سلموا بهذا الامر الجسيم والراى الوخيم وختم الديوان على ان الامير مراد بيك يتوجه مع جملة السناجق بعساكر معده لملاقات الفرنساويه عند دمنهور . وسعادة الوزير باكير باشا مع شيخ البلد ابرهيم بيك بجملة من العساكر يعسكروا فى بولاق .

ويوم الجمعة المباركه بعد صلوة الجمعة ركب امير اللوا مراد بيك مع بقية السناجق والكشاف والسراجين والبلضاشات والسبع وجاقات والاغوات والعربان عساكر تنيف عن عشرين الف عسكرى وتوجه الى الرحمانيه لملاقات العساكر الفرنساويه .

هذا ما كان من امر امير اللوا مراد بيك . واما ما كان من امر سعادة الوزير

السلطانى مع امير اللوا ابراهيم بيك وعيلته فجمعوا بقية العساكر ونزلوا الى بولاق للحلى . واولاد البلد تماماً لبست السلاحات واستعدوا الى ملاقات الكفار والى المغازاه فى سبيل الله .

واما ما كان من امر النصارى فوقع عليهم وهم عظيم وخوف جسيم وبدوا الاسلام يتهددوهم بالقتل والسلب . ويقولوا لهم يا ملاعين اليوم يومكم قد حل قتلكم ونهبكم وسلبكم . وكانت مده مهوله مرعبه ونار تايره ملهبه ولكن يالمراحم المولى عز شانه اذ انه قد عطف وحنن عليهم قلب الوزير وشيخ البلد وكانوا فى كل يوم يرسلوا اليهم سليم اغا مستحفظان اغات الانكشاريه حالاً يطمنهم فى محلاتهم على ارواحهم واموالهم ويطلق المناداه فى كل البلد على حفظ الرعايا وعدم المعارضة لهم .

واما طايفة الافرنج فجمعوهم تماما وارسلوهم الى القلعة وكانوا نحو عشرين نفر من فرنساويه ونمساويه وبنادقه وكان القنصل الكبير فيهم كاروروشيتى فهذا الرجل كان له مده فى مصر وهو قنصل النمسا واصله من البندقيه وكان له فى مصر ينيف من خمسة وثلثون سنه من قبل مدة على بيك الكبير وهذا الرجل جليل القدر وذو مكارم واخلاق رضيه وله على الناس كرم وجوده وصاحب معروف وطبعه مالوف ويانى له كلام .

فلنرجع الى ماكنا فى صدده وهو ان امير اللوا مراد بيك مع عساكره فما زال ساير حتى وصل الى الرحمانيه وهنالك قابل العساكر الفرنساويه قادمين كالبحر الزاخر والسيل القاطر وكان المشار اليـه قد ارسل الجبخانه بالذهبيات مع عسكر الاروام والكرتليه فى بحر النيل وهو ساير بالعساكر على البر امامهم فحين وصلوا الى الرحمانيه ورات غلايط الفرنساويه فى بحر النيل فتقابلوا الذهبيات مع الغلايط وبدوا يرموا على بعضهم المدافع ثم رموا الغلايط بمبه واحده فجات فى الذهبيه الذى فيها الجبخانه فاحترقت واحرقت باقى الذهبيات من حولها وصعدت النار من الذهبيه الذى فى البحر ووقعت فى الجبخانه التى على البر فشالت فيها النار فيالها من ساعة كانت مهولة وبدت

تطاير الرجال من الذهبيات كالعصافير من شدة النار . فحين نظرت عساكر البر هذه الحالة فنهضت وارتجعت الى ورى فداهمتهم الفرنساويه بالكلل والرصاص فما زالوا موليين الى ورى ونهضوا نهضه واحده الى جسر الاسود الذى هو بعيد من مصر مسافة نصف نهار وركزت هناك عساكر الغز تماما . واتى الخبر الى مصر بعدم النصره . ثم بعد ذلك صمموا الراى انهم يتقربوا جهة مصر فانتقلوا من جسر الاسود الى بر انبابه امام بولاق وبدوا هناك يبنوا متاريس ويضعوا المدافع عليهم . وصار ابرهيم بيك وعساكره فى بولاق ومراد بيك وعساكره فى انبابه امام بعضهم والبحر ما بين الجهتين احتسابا بان الفرنساويه اذا اتوا بحراً يتلقاهم ابرهيم بيك واذا اتوا براً يتلقاهم مراد بيك .

فاسمع ما جرى انه فى سابع يوم من شهر صفر نهار السبت حصة العصر اقبلت الجيوش الفرنساويه براً وكشفت عساكر الغز ودقت طبول الحرب وتقدم الى المحاربه والمضاربه احد الجنراليه الجنرال دبوى البطل العظيم المعد فى الحرب بالف صنديد وهجم على عساكر الغز فهجمت الغز عليه بعد ضرب مدافعها واتصل الضرب والطعن وساعد الفرنساويه على النصره تلك الريح الشديد التى خرج فى ذلك الوقت ضد الغز تلطمهم فى وجوههم فانكسرت عساكر الغز من شدة النار التى امطرت عليهم . لان الغز ما اطلقت مدافعها سوى مرة واحدة وكانوا نحو ثمانون مدفع لان الفرنساويه كانت الكلل تنزل عليهم وهم هاجمين على المتاريس الى ان ملكوها ودوروا مدافعها على عسكر الغز . فصارت الغز اعداهم امام وجوههم ومن وراهم البحر . وقتل امير اللوا ايوب بيك الصغير الدفتردار بمصر حالاً وضاع بين ارجل الخيل وابرهيم بيك الصغير القا نفسه فى البحر فاختنق وكان سبب ذلك ان احد المراكبيه ضربه فى مدره على راسه فغرقه وقال له يا ظالمين انتم سبب هذه الداهيه . واما امير اللوا مراد بيك مع باقى السناجق فر هارباً الى الجيزه حيث كان هناك اقامته دايماً والقى النار فى مركبه الكبير الذى كان هناك وشال هارباً الى الصعيد وتفرقت تلك الجماهير وكان اقامت الحرب مدة ساعتين فقط ويالها من ساعه لا يقدر الواصف ان يوصف عظم الخمول الذى وقع

على اهل البلد تماماً ولا سيما حين سمعوا تلك النار الدايمه التى هى رعدا متصل غير منفصل لان الفرنساويه كانت نحو ثلاثون الفا تضرب نار دايمه الى ان ارعدت وارعبت المدينة .

وحين نظر الوزير مع امير اللوا ابرهيم بيك شدة هذه الحرب المهول وكثرت النيران المتصلة وكانوا ينظروا غالب الناس القت حالها فى البحر .

فحالاً رجعوا من بولاق الى المدينه واخذوا اعيالهم وما تيسر لهم من مال وامتعه وخرجوا من المدينة . ثم اهل البلد رجعت من بولاق الى المدينه فى بكاء ونحيب يلطمون وجوههم ويقولون ياويلنا قد وقعنا فى يسر الافرنج فبالحقيقه كانت ساعة مهوله كاد الطفل الرضيع يشيب منها فحين نظر مشايخ البلد وعلماوها الحال الذى وقع وان الحكام انهزمت والمصيبة عظيمة فحل بهم الخوف وخشيوا ان الفرنساويه تهجم بالنار وياخدوا المدينة بالسيف ويحوق بالناس الحيف فاجتمعوا مع بعضهم ثانى يوم وعمد رايهم ان التسليم اوفق لان ارباب السيف ولت ولم بقى الا ارباب الثبوت وحرم فى البيوت . فارسلوا حالاً وطلبوا الافرنج الذى كانوا حبسوهم في القلعه وتداولوا معاهم فى شان ذلك . فمنهم كان التاجر بوديف والحكيم الخواجه كلوه وهذين الاثنين هما فرنساويه وكان بالجمعية رجل يقال له محمد كاخيه وهذا اصله ارمنى واسلم فى مصر فياتى له كلام . ثم بعد المفاوضه والمداوله نزلوا الى بولاق حضرة العلما ومحمد كاخيه والاثنين الفرنساويه وركبوا فى بياده صغيره ودخلوا الى البر الثانى وذلك كان نهار الاحد حصة المغرب وقابلوا الجنرال دبوى . واما الصارى عسكر الكبير بونابرته كان توجه الى الجيزة مسكن مراد بيك .

ثم ان الذين توجهوا لمقابلة الجنرال دبوى محمد كاخيه وكلوه الفرنساوى واما المشايخ بقيوا فى بولاق فسالهم الجنرال دبوى عن البلد والحكام الباقين فى المدينة .

فقالوا له الحكام هربت ونحن اتينا من طرف العلما الكبار واهل البلد فالمذكورين ما لهم استطاعه الى حربكم فتفضلوا تسلموا المدينه ولكن بحيث انه لا يصير اذيه على الرعيه .

فقال لهم الجنرال دبوى عليكم وعليهم الامان وقلة المعارضة لان من القا سلاحه حرم قتاله . فارجعوا الى المشايخ وطمنوهم وارسلوا لى المعادى لاجل تعدى العسكر الى بولاق .

فحالا رجعوا واخبروا العلمـا بما شاهدوا وعاينوا وقالوا لهم ان الصارى عسكر دبوى طالب المعادى . فبالحال امروا المعادى بالذهاب الى البر الثانى لكى يعدى العسكر فكان الامر كما قالوا . وحضر فى تلك الساعة الجنرال دبوى المذكور مع ماية صلدات وقابل العلما فى بولاق وركب وركبوا قدامه والمشاعليه امامهم وكان ذلك حصة العشا ودخلوا المدينه وسيوفهم مسلوله والمنادى امامهم امان واطمان يا رعايا . وما زال ساير حتى وصل الى بيت ابرهيم بيك الصغير وبات هناك وارسل بعض عسكر الى القلعه واستلمها وثانى يوم نهار الاثنين تاسع شهر صفر اطلق المنادى فى البلد فى الامن والامان وبدوا اهل مصر واكابرها يتوجهوا الى الجيزة لمواجهة الصارى عسكر الكبير بونابرته ويوم الثلثا عاشر شهر صفر دخل الصارى عسكر الكبير بونابرته الى مصر وسكن فى بيت محمد بيك الالفى الكاين فى بركة اليزبكيه وبدت الناس تتوارد عليه وامتلت اراضى مصر من عساكر الفرنساويه ووقع النهب فى بيوت الغز فقط نحو ثلثة ايام وبعده اطلق السارى عسكر منادى وامر برفع النهب من بيوت الغز .

ثم امر بالمناديه بان جميع الناس تحط الكوكاردا اى النيشان الفرنساوى .

هذا ما كان من امر دخول الفرنساويه الى مدينة مصر القاهرة .

واما ما كان من امر الوزير وابرهيم بيك وبقيـة الغز اتباعهم فانهم توجهوا الى مدينة بلبيس طريق غزه . ومراد بيك مع باقى عسكره توجه ناحية الصعيد . وحين خرج ابرهيم بيك من مصر فتلك الليلة خرج من مصر قوم لا يحصى عددهم وخرج الشيخ السادات فعروه العرب ورجع ثانى يوم وخرج السيد عمر مكرم نقيب الاشراف وكثيرين من العوام الذين خرجوا من المدينه عروهم العرب وبعضهم قتل وبعضهم رجع وبعضهم تشتت فى البرارى والقفار وبعضهم سافروا الى بلدان شتا .

فلنرجع الى ما كنا فى صدده وهو ان الصارى عسكر الكبير بونابرته بعد ان استقر فى مدينة مصر بدى يفرق الجناليريه على الاقليم وامرهم ان كل بلده يحاربهم يحرقوها بالنار حسب الفرمان الذى قد كان ارسله من اسكندريه مطبوعا وتفرق على كل البلاد حتى عم كامل بلاد الشرق . فنقول انه قد ارسل الجنرال ديزه المدبر العظيم الى اقليم الصعيد مع جملة عساكر ورتب الجنرال ميراد الى اقليم القليوبيه والجنانار فيال الى بندر دمياط والجنرال دوكا الى اقليم المنصوره والجنرال لانوس الى اقليم المنوفيه وشيخ بلد الى مصر الجنرال دبوى الذى هو من دخل الى مصر لكونه انه هو كان الاول فى حرب الغز والنصره كانت على يده وبسببها اخذ مشيخة البلد وفى مدينة رشيد رتب الجنرال منو وهذا المذكور ياتى لى نص .

وايضاً اقام فى مدينة مصر من العلما الكبار مع اثنين من التجار الكبار عدتهم ثمانية انفار وسماهم ديوان وافرز لهم محل معين يستمعوا فيه دعاوى اهل البلد وعليهم واحد فرنساوى يحرر ما يوقع ويقدمه لحضرة السارى عسكر الكبير وعين لهم جامكيه شهرى وهذه اسماوهم . السيد خليل البكرى نقيب الاشراف . الشيخ عبد الله الشرقاوى ريس الديوان . الشيخ محمد المهدى كاتم سر الديوان . الشيخ مصطفى الصاوى خادم العلم . الشيخ سليمان الفيومى خادم العلم . على كاخيه باش اختيار مستحفظان . يوسف باش جاويش تفكجيان . السيد احمد المحروق هولاء الثمانية انفار كانوا يدعونهم الديوان الخصوصى .

وايضا رتب ديوان آخر وسماه محكمة المتجر سبعة انفار تجار وعليهم رجل فرنساوى تاجر وذلك لاستماع دعاوى تخص التجار المتسببين وذوى الديوان وما شابه ذلك .

وفى غضون ذلك طلب من تجار البهار الاسلام مايتين الف فرانسا سلفه وطلب من طايفة الاقباط مباشرين الاقاليم وكتبة البلاد مايتين الف فرانسا سلفه ثم طلب من التجار الشوام مايه الف فرانسه جملة ذلك خمسماية الف فرانسه وقبضها . واوعد

الاقباط انه يخصصها لهم من اصل الميرى واوعد تجار البهار انه يخصصها لهم من جمارك البن الذى يورد لهم . واما تجار الشوام فسدهم بها اراضى ومساكن كانوا ضبطوها من متخلفات الغز .

فهذا ما وقع فى شهر صفر فى دخولهم الى مدينة مصر ثم بعد ذلك ارسل احضر القنصل كارلورشيتى الذى ذكرناه سابق وارسله الى مراد بيك يقول له انه اذا كان يقدم طاعه الى المشيخة الفرنساويه فيسمح له الجنرال بونابرته فى مدينة جرجه ومقبل ويكون مع الفرنساويه حال واحد ويوفر عليه الحروب . فتوجه القنصل المذكور الى عند مراد بيك واعطاه المكتوب وافهمه باللسان . فكان جواب مراد بيك ان هذا الكلام نحن لا نقدر ان نسمعه ولكن قول الى الجنرال بونابرته ياخذ عساكره ويرجع الى اسكندريه ونحن ندفع له عشرة آلاف كيس ويتوجه الى بلاده . وبما ان القنصل المذكور كان محب الى مراد بيك بزياده وله عنده جانب من المال فلزم ان مراد اكرمه غاية الاكرام واعطاه غلال وخلافه ورجع بالجواب كما ذكرنا . فلما سمع الجنرال بونابرته جواب مراد بيك فحالاً عين الجنرال ديزه المذكور سابق بجانب عسكر وتوجه الى الصعيد لمحاربة مراد بيك .

وفى شهر صفر المذكور نزل الجنرال فيال الى دمياط وخرجت العلما الى مقابلته وسلموه دمياط وفيما هو نازل الى دمياط وضع فى بندر المنصوره مايه وثلثون عسكرى بكومانضا عليهم وابقا معه ثلثماية عسكرى وضبط مدينة دمياط وحضر الى عنده شيخ اقليم المنزله الشيخ حسن طوبار ولبس من الجنرال فيال وحضره لعنده شيخ الشعرا هذه قريه عند دمياط ولبس منه ورجع الى بلده وطاعت الارض تماماً الى الفرنساويه .

وتوجه الجنرال ميراد الى اقليم القليوبيه وتوجه الجنرال لانوس الى اقليم المنوفيه وطاعت تلك الارض .

ثم فلنرجع الى ما كنا فى صدده وهو ان الصارى عسكر بونابرته بعد ان رتب ديوان الحكم وديوان المتجر الذى ذكرناهم . ثم احضر محمد كاخيه المسلمانى الذى

ذكرناه سابقاً ولبسه اغاة الانكشاريه واطلق سيفه فى البلد ولبس محتسب رجل وجاقلى من عيله قديمه . ولبس والى رجل وجاقلى اسمه على اغا وحين هرب السيد عمر مكرم فاحضر عوضه الشيخ خليل البكرى ولبسه نقيب الاشراف .

وجهز السارى عسكر بونابرته جانب عسكر وتوجه به الى بلبيس لكى يطرد ابراهيم بيك ومن معه وتقابلوا العساكر فى بعض عند الصالحيه وحصل بينهم موقعه وقتل من الفريقين وشال الوزير وابرهيم بيك ومن معاهم الى غزه . ورجع السارى عسكر بونابرته بعساكره الى مصر .

وفى هذا الشهر بلغ امير الحاج الشريف امير اللوا صالح بيك دخول الفرنساويه الى ارض مصر واستيلايهم عليها وهو فى ارض مكة فضاج وضاجت الحجاج وغالبهم حضروا على طريق الشام واما امير الحاج صالح بيك فانه توجه من طريق اخرى ونفد الى غزه وتوجه الى القدس وسلم المحمل الشريف الى الحرم بالقدس وفى حين دخوله عزرته اهالى القدس وكانوا يصرخون فى وجهه ويقولون اخرجوا عنا يا ملاعين انتم الذين سلمتم بلاد الاسلام الى الكفار وبسببكم وبسبب ظلمكم خربتم البلاد المصرية والشاميه . فهذا السنجق من شدة قهره على خراب مصر وخراب بيته واعياله وذهاب بيته وامتعته وماله وزاد عليه غزارة اهل ذلك البر له فمرض مرضاً شديداً ومات وهكذا جرى بكامل الذين توجهوا الى الديار الشاميه لانهم ذاقوا انواع العذاب من تعزير ذلك الارض لهم .

والوزير توجه الى الروملى .

وبقى ابرهيم بيك وباقى الغز فى ارض غزه واراضى الشام فهذا ما كان من امر الغز الذين توجهوا الى الديار الشاميه .

فلنرجع ونقول ان فى شهر صفر بذاته من بعد خروج العساكر الفرنساويه من مراكبها وطلوعها الى بر الاسكندريه وحضورهم الى مدينة مصر فالصارى عسكر الكبير بونابرته قال الى الصارى عسكر البحر .

ان اقامة العماره هنا يخشا عليها خذها واقلع بها الى فرانسا .

فقال له صارى عسكر البحر ان هذا ليس هو شغلك بل شغلى فانت صارى عسكر البر دبر عساكرك بعقلك وانا ادبر مراكبى بعقلى .

فقال له تعرف خلاصك .

وكانت المراكب البيليك والحربيه نحو ثلثه وعشرون مركب وكان بينهم المركب الكبير المدعو بنصف الدنيا فهذه السفينة العظيمه كان محمولها ماية وثمانون مدفع وكان ثلثة الاف عسكرى مشحونها ففيما ان هذه العمارة العظيمة مقيمة على البوغاز واذاً وافت اليها العمارة الانكليزيه وهجمت عليها هجمة واحده بالمدافع والكلل والبنبه ووقع الحرب بينهم واشتد القتال اربعة وعشرين ساعة وانتصرت عمارة الانكليز على العمارة الفرنساويه واحترق ذلك المركب الكبير المدعو بنصف الدنيا وعدم به اموال ما لها عدد وامتعه كانت باقيه فيه مسلوبه من روميه العظمى ومن مدينة مالطا لان الفرنساويه الذين حضروا لهذا البر هم بذاتهم الذين خربوا بلاد ايطاليا وسلبوها وخربوا روميه وسلبوها واخذوا مالطا وسلبوها . ومن مسافة يومين كانوا ينظروا الناس نور حريق ذلك المركب الكبير واستقام اربعة ايام والنار قايده فيه فى جوف البحر . وحضر هذا الخبر الى الفرنساوية بمصر فانقطعت عزايمهم وصار عندهم غم عظيم . ومن ذلك الوقت انقسمت قلوبهم وقطعوا الاياس من امداد ياتيهم من بلادهم . ثم ان احد الناس تفوه بهذا الخبر فبلغ ذلك الى امير الجيوش بونابرته فاحضره لديه وكان مراده قتله فحصلت له شفاعه فاخذ منه ستمايه فرانسا واطلقه . وامر امير الجيوش ان كل من يتفوه بهذا الشان قصاصه ستماية ريال ومات فى المراكب نحو ستة الاف نفر من البحريه فهذا ما كان من امر حرق العماره .

ثم فلنرجع لما كنا فى صدده ونقول سابقا اخبرنا انه كان فى الاسكندريه الرجل الذى يقال له السيد محمد كريم فهذا الرجل بعد دخول الفرنساويه الى اسكندرية احضره امير الجيوش ولبسه كرك واعطاه سيف مكلف وقيده فى البلد حكم ما كان

على مدة الغز وهذا المذكور كان خاصة مراد بيك فلاجل ذلك وقع منه مكاتيب الى مراد بيك بها يهيجه على حرب الفرنساويه ويوعده بغدر الذين هم فى اسكندريه من جماعة الفرنساويه فارسل احضره امير الجيوش الى مصر على صورة غير مرضيه وسلمه الى شيخ البلد لكى يفحصوه فانكر فاظهروا له المكاتيب واثبتوا عليه القتل نظراً لانه خان عهده مع المشيخة وعلى هذا الشكل بندقوه وكان حزن عظيم عند اهالى مصر لانه رجل شريف من الاشراف . ومن ذلك الوقت فزت قلوب الرعايا الاسلام من الفرنساويه واخذوا يضمروا الضماير الخبيثة .

وفى شهر ربيع اول سنة ١٢١٣ حصل حركه كبيره فى مدينة دمياط وكان السبب فى ذلك ان الشيخ حسن طوبار شيخ اقليم المنزله المذكور سابقاً كان حضر الى دمياط وقابل الجنرال فيال كما ذكرناه سابقاً ولبس من المذكور وقدم له طاعه . فهذا المذكور حضر له بيورديات من طرف احمد باشا الجزار الكاين فى مدينة عكا وبها يهيجه على العصاوه ضد الفرنساويه ويتوعده بكل خير وحضر له ايضاً مكاتيب من ابرهيم بيك فى شان ذلك . فالمذكور حالاً اظهر العصاوه على الفرنساويه وعصا اهالى تلك البلاد جميعها التى هى قريبه الى بندر دمياط وحزموا رايهم انهم يكبسوا على بندر دمياط ويعدموا جميع الفرنساويه الموجودين بها وفى ذات ليلة نصف الليل كبست اهل المنزله وفارسكور والشعرا والبحيره وكل اهل تلك الارض نحو ثمانية الاف نفر وكان اهل دمياط عندهم الخبر فى ذلك وكانت عساكر الفرنساويه فى الوكايل على ساحل البحر فى حومه واحده فكبست عليهم الفلاحين المذكورين ليلاً ووقع الحرب بينهم ومن كون ان نار الفرنساويه شديده ما قدروا الفلاحين ان يهجموا عليهم لان فى حين هجمتهم مات منهم نحو عشرون نفر من رصاص الفرنساويه فارتجعوا مكسورين خايبين الامل وكانوا يهجموا ويهيجوا اهل البلد للقيام معهم . فاهل البلد ما حركت ساكن بل كانوا منتظرين ان الفلاحين الواردين يقضوا لهم غرض . فحين نظروا ان اوليك الجماهير ولوا من غير ان يقدروا ساحة الحرب حيث كانت الفرنساويه مجتمعين

فلزم انهم لبثوا فى بيوتهم . وحين اشرق النهار ما بقى من اوليك الفلاحين احد بل ذهبوا الى قرية الشعرا التى هى فوق دمياط مسافة ساعة وتجمهروا هناك وكانت ليلة مهولة عند النصارى لكونهم فى دمياط ساكنين فى الوكايل جهة البحر حيث سكنت الفرنساويه وكانوا اوليك الفلاحين يعجوا ويصرخوا كلهم الله الله عليكم يا نصارى وعلى الفرنسيس فى هذه الليله نذبحكم كلكم ونغنم اموالكم وحريمكم . وكانت هذه الاصوات فى آذان النصارى وحريمهم تماماً لذلك وقع عليهم خوف عظيم لا يقدر . ولكن يا لحكمة الله كون ان الله عز شانه اهملهم ولا اعطاهم مرادهم بل انكسروا مولين مخزولين خايبين الامل .

وكان صباح الاحد قبل شروق الشمس ذهبت امراه مسلمه عجوز من دمياط الى العزبه التى هى البوغاز واخبرت اهل العزبه ان المسلمين فى هذه الليله اهالى البرور هجموا على الافرنج الذين فى دمياط وقتلوهم جميعهم وايضا قتلوا جميع النصارى الموجودين فى دمياط ولم بقى منهم احد . فقام شيخ بلد العزبه والبوغاز مع اهل البلد على الافرنج الذين كانوا فى العزبه وذبحوهم وكانوا خمسة انفار فقط وكان فى القلعة الغربيه نحو عشرون صلدات فهجموا عليهم فقفلوا فى وجوههم باب القلعه وضربوا عليهم مدفع فرجعوا الفلاحين الى العزبه . ومن بعد ساعه حضر خبر الى العزبه ان اهل البرور الذين هجموا على الافرنج فى دمياط انكسروا وولوا مخزولين والافرنج والنصارى ما جرى عليهم شى لحين سمع حسونه شيخ العزبه هذا الخبر خاف جداً وندم على ما فعل ومن شده خوفه اخذ اعياله ونزل فى احد النقاير وكذلك اهل البلد تماماً نزلوا حريمهم بالنقاير وخرجوا من البوغاز وتوجهوا الى بر الشام .

وبعد شروق الشمس حضر الخبر الى دمياط الى الجنرال فيال بان حسونه شيخ البلد ذبح الفرنساويه الذين هناك ولم بقى احد منهم فركب حالاً وراح الى العزبه فوجد البلد خاليه ونظر بعض نصارى قبط كتبه فى البوغاز فاستخبر منهم .

فقالوا له يا سيدى ان شيخ البلد بعد ما ذبح الفرنساويه حضر له خبر ان

الفرنساويه فى دمياط طيبين منتصرين ما جرى لهم شى فاخذ اعياله واهل البلد تماماً ونزل فى النقاير وسافر .

فامر حينيذ الجنرال بحرق بيته وهدمه وحرق بيوت الذين هربوا ونهبوا ما كان باق فى بيوت البلد .

ومن ذلك الوقت بدوا يحصنوا العزبه ويبنوا بها اسوار ومتاريس وقلعه وصارت محل للعسكر . ورجع الجنرال فيال الى دمياط .

فهذا ما كان من امر العزبه ومن بعد رجوعه من العزبه كما ذكرنا اراد الجنرال فيال حاكم دمياط المذكور انه ياخذ العسكر الموجود عنده ويخرج يضرب مدينة الشعرا حيث اجتمعت فيها جماهير الفلاحين المذكورين . فجمع كافت المتشوشين والعميان من الفرنساويه الذين كانوا موجودين فى الصبيطال ونزلهم فى احد المراكب وحضر كامل موجوداته حتى حوايجه وصناديقه ووضعها فى مركب وطلب يتوجه يضرب الشعرا وكان قصده فى ذلك احتساباً انه ينكسر فتقوم اهل البلد تقتل العميان والمتشوشين وينهبوا موجوداته لان المذكور عظم عنده الوهم لمعرفته ان البرور تجمع عساكر كثيره واما هو فعسكره لا يغلق على مايتين نفر والباقى عدمانين كما ذكرنا فضاجت النصارى وحضروا لديه .

وقالوا له ايها الجنرال انت مقصودك تذهب الى مصر وترمينا بين ايدى هولاء الغيلان الذين لا رحمة لهم ولا تمييز لكونهم جاعلينا اننا منكم ونحن من جنسكم وانتم نصارى نظيرنا . فلهذا السبب نحن خايفين وخوفنا هو عين الصواب لانهم يقيناً لا يبقوا منا احد نظراً لفكرهم ورايهم وعدم تمييزهم .

وصاروا يبكوا وينوحوا ويتدخلوا عليه انه يبقا عندهم لحينا يعرف لمحروسة مصر وينتظر الجواب .

فقال لهم الجنرال انه عار عند المشيخة ان كنت لم اهارج لهولاء الاوغاد الفلاحين واكسر روسهم ولكن قد صعب على خوفكم هذا . فلاجل خاطركم احرر الى بندر المنصوره واطلب عسكر .

وفى ذلك الوقت حرر الى المنصوره الى الجنرال دوكا حاكم المنصوره فارسل له مابة عسكرى ففى حين حضورهم ركب الجنرال فيال المذكور بنحو مايتين وخمسون عسكرى وتوجه بهم الى قرية الشعرا فوجد الجمهور المذكور هناك فاشار عليهم واثار نار الحرب فولوا منهزمين ودخل البلد ونهبوا بعض بيوت وحرقوا بيت شيخ البلد الذى يقال له احمد ابو دبس ورجع بنصر عظيم وعملوا شنك .

فهذا ما كان من امر دمياط ووقعت الشعرا فلنرجع لما كنا ونقول اننا قد قلنا ان الجنرال فيال حين حضر الى دمياط وهو جايز على المنصوره وضع مابة وثلثون صلدات بكومنضا عليهم فاهل المنصوره احمرت عينيها من الفرنساويه ونظروهم اناس قلايل وبندر المنصوره حوله بلاد كثيره فلاحين وعربان عصاه وفى كل جمعه نهار الخميس يصير فى بندر المنصوره سوق عظيم وتجتمع فيه خلق كثير واهل مصر لم قبلوا هذا الجنس بالكليه لانه اولاً مضادد الى ديانتهم ثانياً مضادد لغتهم ثالثا مضادد كسمهم رابعاً عداوه قديمه بين اهل مصر والفرنساويه من عهد السلطان الظاهر بيبرص والسلطان لويس الفرنساوى حين وصل الى المنصوره وهنالك عساكره انكسرت وعساكر الاسلام انتصرت فلاجل ذلك دعوها من ذلك الوقت المدينة المنصوره فجال فى خاطر اهل هذه المدينة ان يقوموا على العسكر الفرنساوى ويقتلوه فكان الامر . لانهم فى ذات يوم قاموا عليهم وهجموا على محلاتهم وبدا الحرب بينهم فخرجوا الفرنساويه خارج المدينه فحصلتهم جيوش عربان وفلاحين نحو عشرة الاف وينيف وكانت تقاتل وتضرب بالنار وما زالوا يحاربوا حتى انتها امرهم على اخر واحد حين خلص بارودهم ورصاصهم ولكن قتلوا نحو خمسماية نفر على موجب اقرار اهل المنصوره . فحين بلغ ذلك الى امير الجيوش بونابرته حالاً ارسل الجنرال دوكا الى المنصوره بثلثة الاف عسكرى وامر فى حرقها وقتل اهلها حسب شريعتهم فحين نزل الجنرال دوكا الى المنصوره فوقعوا اهل البلد فى عرضه واحضروا له ناس كثيرين شهدوا وادعوا ان اهل المنصوره ليس لهم ذنب بذلك بل الذين فعلوا هذا الفعل هم بعض فالاتيه

واهالى البر فالجنرال المذكور قبل كلامهم واعرض الى امير الجيوش بمصر وحننه عليهم لكون ان شريعة هولاء القوم لاتأمر بشى من دون فحص واثبات وشهود فلزم الامر انه ارسل لهم العفو وقالوا الفرنساويه خساره مدينه مثل هذه تعدم لانهم كانوا قاصدين التملك واستعوضوا دية الماية وثلثون فرنساوى مايتين الف فرانسا .

وفى غضون هذه المدة اظهرت العصاوه على الفرنساويه كامل الاقاليم الشرقيه والبحيره وسبب ذلك ان احمد باشا الجزار كانت بيلورديانه متصلة الى كامل البلاد على يد حسن طوبار شيخ اقليم المنزله .

وبدت الفرنساويه تحارب فى كل جهة من جهات مصر وتحرق فى بلاد وتنهب فى عباد .

فالجنرال ميراد كان يحارب اقليم القليوبيه وكانوا يدعونه مراد بيك الفرنساوى وهكذا كان يكتب اسمه فى كتاباته فهذا الجنرال كان شديد البطش جداً وكان شاباً فى العمر وجميل الصوره وقتل من العربان قوم كثير ومع هذا كله كان حين يفارق الاقليم كان يعصا ثانياً . وايضا الجنرال لانوس الذى كان يحارب فى اقليم المنوفيه فهذا المذكور ايضاً كان بطلاً شجاع وطيع اقليم المنوفيه على ما ينبغى ولكن فى حضوره فقط .

والجنرال دوكا من بعد ما استقر حاله فى المنصوره ورتبها فاخذ عساكره براً وبحراً ونزل على اقليم المنزله وكان طريقه على شيخ عرب كبير من العربان العصاه المعدوده فحاربه جملة امرار وولت تلك العربان من وجهه ودخل الى المنزله فقبل دخوله هرب حسن طوبار شيخ اقليمها وراح الى عند احمد باشا الجزار ودخلت الفرنساويه الى المنزله دون حرب بتسليم اهلها وضبطت الفرنساويه المراكب الصغار التى فى البحيره التى تصطاد بها اهل ذلك البر السمك من البحيرة التى بها كانوا يشحنوا ويصلوا الى دمياط . وهكذا كان ناوى عليه ومدبره حسن طوبار انه متى اجت العساكر عن طريق غزه تاتى شردمه كبيره الى المنزله وينزلوا فى هذه المراكب ويصلوا

الى دمياط يملكوها فلاجل ذلك عملت الفرنساويه غاية جهدها وملكوا المنزله وضبطوا هذه المراكب خوفاً مما ذكرناه وهذه مراكب البحيره بحيرة المطريه وقيل انها تنوف من خمسماية قطعه وارتاح حاكم دمياط من هذه الجهة واطمان . هذا ما كان من امر دمياط والمنصوره والمنزله .

فلنرجع الى ما كنا سابقاً ونقول اننا قلنا ان امير الجيوش من جملة ما رتب فى مصر لبس محمد كاخيه المسلمانى اغاة انكشاريه كذلك حين خرج من مصر الوزير مع امير اللوا ابراهيم بيك والغز كما ذكرنا سابق بقى فى القلعة كاخيه محمد باشا الوزير المشار اليه فهذا المذكور حين دخل بونابرته امير الجيوش اخذه ترجمان القنصل وقابله بامير الجيوش فحصل له غاية الاكرام .

وقال له لماذا حضرة الوزير توجه مع الغز نحن ما حضرنا الى هذه البلاد الا باتفاق مع حضرة السلطان ونحن وياكم حاله واحده فاكتب له يرجع ويكون فى مقامه وفى محله وجلالته . واما انت عملت غاية العقل والفطنه الذى بقيت فانشا الله تعالى ما لك الا ما يسر خاطرك ومن الآن انت امير الحاج الشريف .

والبسه كرك سمور عظيم .

وقال له انزل من الآن باشر امور الحاج وكامل لوازمه وما يتعلق به .

فنزل الكاخيه المذكور منشرح الخاطر ولكن متعجب غاية العجب من هذه الامور والاوهام الداخلة عليه وبقى هذه حالته نحو عشرين يوم وكان دايماً يتردد على محمد كاخيه المسلمانى ففى يوم من ذات الايام ركبوا الاثنين وهربوا على طريق غزه فمحمد كاخيه حين وصل الى غزه اقتضا رايه ان يتوجه الى عكه فحين واجه احمد باشا الجزار .

قال له انت الذى كنت اغاة انكشاريه فى مصر على زمان الفرنساويه .

قال له نعم ذلك ولكن هربت وجيت الى عندك .

فامر بشنقه .

لخين بلغ امير الجيوش هروب الكاخيه والاغا فارسل احضر رجل يقال له مصطفى اغا فهذا كان مملوك عبد الرحمان اغا الذى كان على مدة على بيك هذا كان رجل مشهور بالفطنه وله سمعه ومصطفى هذا كان مملوكه فاحضره امير الجيوش والبسه كرك وعمله اغاة انكشاريه .

وقال له بلغنى عن سيدك وافعاله فمرادى تكون نظيره .

فقبل يده ونزل وهذا الرجل خدم الفرنساويه فى وظيفته خدمة نصوحه وكان يكره جنس المماليك الذين هم من عيلة محمد بك ابو الذهب واعدم جملة مماليك من المذكورين وذلك سراً لكون المذكور كان مملوك عبد الرحمان اغا الذى قتله مراد بيك وهذه عداوة قديمه بين عيلة على بيك وعيلة محمد بيك ابو الذهب .

فلنرجع ونقول عما كنا فى صدده ان الفرنساويه من بعد دخولهم الى مصر وحرق عمارتهم ربط الانكليز عليهم بوغاز الاسكندريه وبوغاز دمياط ولا عاد خارج ولا داخل ولا طير يطير وفى غضون ذلك كانت حضرت اوامر سلطانيه الى الجزار بها يحرضوه من الفرنساويه وارسلوا له ولاية مصر وان يكون صارى عسكر مصر والشام وصيدا وجميع تلك الاقطار . واوعده بارسال عماره خنكاريه وعساكر بريه وان يسير بها على مملكة مصر ويخلصها من ايدى الكفار وبذلك اشتدت قوته وكانت بيلوريدياته متصله الى الاقطار المصرية لمشايخ العربان والفلاحين وبها يهيجهم على القيام ضد الكفار ويوعدهم انه قادم لمعونتهم . وكانت ايضاً الغز المماليك تكتب هذه الكتابة لاهل مصر ويوعدونهم بالحضور عن قريب . فمن هذه المكاتبات بدت اهالى الارض تبدى العصاوه على الفرنساويه ولا سيما اذ فهموا جيداً ان الانكليز قفل عليهم البواغيز باقفال انكليزيه وانقطع املهم من امداد ياتيهم من بلادهم . فقالوا فى ذواتهم نحن نصاضدهم ونحاربهم ورويداً رويداً يخلصون لان الذى لا يزيد ينقص وكانت ظنونهم حقيقيه لان الفرنساويه من حين دخلوا الى مصر فى مدة ثلثة اشهر فقد منهم جانب عظيم . فاولاً ان المذكورين ظنوا ذواتهم انهم فى مدينة باريس فكانوا

دايماً فى وسط المدينة يدورون من غير اسلحة ونسا مصر خوارجها كثيرين فكانوا بهذه الواسطة يدخلوهم الى بيوتهم ويهلكوهم . وبهذه الواسطة فقد منهم ناس كثيرين ثم ان المذكورين قصدوا يعملوا بوصطه اعنى سعاه فرنساويه يوصلوا المكاتيب من مصر الى رشيد ودمياط وباقى البنادر . فكان كل مركب بوصطه يوجد نحو عشرين فرنساوى او اكثر فكانت المراكبيه يوصلوهم تحت احد الجروف وتأتى عليهم العربان والفلاحين باشاره من المراكبيه فينزلوا عليهم فيعدموهم وبهذه الواسطة فقد منهم اناس كثيرين ثم وايضا اهوية القطر المصرى ما وافقت اطباعهم فعمى منهم جملة خلق ومرض منهم كثير فى تشويش الجدام من قبل الفساد لان هذا المرض وجوده فى مصر كثير لكثرة النسا الخوارج والفرنساويه كانوا يحبوا الفساد جداً فمن هذه الاسباب المذكوره ضعفت قوة الفرنساويه .

واهل مصر حين نظروا ان اهل المنصوره قاموا ضد الفرنساويه وقتلوا الذين كانوا عندهم ولا جرى عليهم خلاف وكذلك اهل اقليم دمياط ولا جرى عليهم شى فدبروا اهل مصر هذا التدبير الاتى ذكره وهو انه فى ذات يوم نهار الاحد فى عشرين ربيع آخر نزل احد المشايخ الصغار وكان من مشايخ الازهر وبدا ينادى فى المدينة ان كل مومن موحد بالله عليه بجامع الازهر لان اليوم ينبغى لنا ان نغارى فى الكفار وكان اغلب اهل البلد معهم الاس بذلك . واما الفرنساويه فكانوا متغفلين عن ذلك ففى الحين والساعه قفلت البلد فبلغ الخبر اولا الى شيخ البلد الذى هو الجنرال ديوى . وهذا الرجل كان صعب جداً فقام من ساعته .

وقال ما الخبر .

فقالوا له ان جعيدية البلد قايمين على ساق وقدم ومجمهرين نحو خان الخليلى والنحاسين .

فركب واخذ معه خمسة خياله فقط بناء انه يكشف الخبر ويهجعهم ففيما هو جايزاً عند خان الخليلى حيث كانت هناك بعض جماهير وعمالين يبنوا متاريس فبرز

له احد اليلضاشات من احد العطف وضربه فى خاصرته بخشب فوقع من ظهر الحصان فحملوه جماعته واتوا به الى حارة الافرنج القديمه فمات بالطريق ودفنوه بالجنينه وقامت البلد فى تلك الساعه القيام الكلى على ساق وقدم وصاروا كلهم كلما يلتقوا فرنساوى او نصرانى يقتلوه وقتل من الفرنساويه كثيرين لانهم كانوا دايرين كما ذكرنا سابقاً من غير اسلحة ولا هم عارفين الذى صاير لعدم اللغه . فبهذه الواسطة مات منهم كثير وهجمت الاسلام على حارة الجوانيه التى هى مسكن الروم وفيها دير رهبان طورسينا فقتلوا الذين التقوه من الرجال وسبوا النسا والبنات ونهبوا جميع ما فيها وباعوا النسا والبنات لبعضهم وكان شى مهول . فامير الجيوش فى ذلك الوقت كان فى الجيزه فحضر حالاً واحتاط العسكر الفرنساوى حول المدينة وابتدا الحرب بينهم اربعة ايام وانتصرت الفرنساويه على اهل البلد ودخلوا الى جامع الازهر حيث كانت فيه اكثر الجماهير وكانوا وادعين فيه جملة ودايع لانه جامع كبير واسع فنهبوه وسلبوه وقتلوا البعض فيه وربطوا خيلهم فى الجامع وبدوا ياخذوا متراس بعد متراس والخلق تهرب للبيوت وتمكنت الفرنساويه داخل البلد مثل الاول .

فقامت العلما وجات لعند امير الجيوش ودخلوا على يديه ورجليه وترجوه ان يسمح لهم بقيام العسكر من الجامع المذكور فلم قبلت رجاواتهم ووبخهم التوبيخ الكلى فهم انكروا ان ليس عندهم علم ولا خبر بالذى حصل فما امكن ان يقبل رجاهم فراحوا وارسلوا له الشيخ محمد الجوهرى فهذا الشيخ كان من العلما الكبار ولكن كان متعبد متوحد وفى كل حياته ما قابل احد من الحكام ولا يقبل رشوه ولا هديه من حاكم وفى مدة الغز قط ما قابل احد منهم بل كانوا يطلبوا رضاه ودعاه وهو فى بيته . فهذا الشيخ توجه بذاته وقابل امير الجيوش .

وقال له انا قط فى حياتى ما ترجبت حاكم ولا قابلت ظالم والان اتيت اليك فلاجل خاطرى افرج عن الازهر لكى ارضا عليك وادعيلك .

فانشرح منه امير الجيوش وامر برفع العسكر من الازهر وخامس يوم اطلق

المنادى بالامن والامان وفتحت البلد ثانية الا ان ذاك الشيخ الذى نادى فى البلد تلك المناداه وانهض البلد اخذوه وقتلوه وقتلوا معه جملة خلق من الذين كانوا سبب ذلك . ورجعت الفرنساويه واصطلحت على اهل البلد وكانوا ضامرين ضماير خبيثة على اهل البلد نظراً لهذه الخيانه ولكن ليس لهم قدره لانهم نظروا ذواتهم انهم بقوا قلايل ولا عمال يحضر لهم امداد بل كلما على نقص من غير زياده . فما امكنهم الا المساواه والمواساه وكانوا يقدموا لاهل البلد كل محبه لكى يجلبوهم الى محبتهم ولكن هذا شى ضد الطبيعه .

ومن ذلك الوقت ابتدا الجنرال كفارلله المهندس الكبير الذى ما سمح الدهر بمثله معلم وهذا الرجل كان برجل واحده والثانيه مقطوعه من ساقه وملبسها خشبه لذلك كانوا يدعونه الجنرال ابو خشبه فهذا المذكور ابتدا بهندسة قلاع حول البلد فوق الكيمان الذى حول القاهره فاول قلعه بنوها فى كوم ورى جامع الازهر وسموها قلعة الغريب وثانى قلعه فوق كوم العقارب فوق الناصريه . وثالث قلعه فى جامع الظاهر بيبرص خارج باب النصر . ورابع قلعه فوق كوم قنطرة الليمون خارج اليزبكيه . وخامس قلعه فوق الكوم الذى جنب الرضوانيه خارج اليزبكيه . وكل ذلك خيفة من قيام اهل البلد ثانية لان الفرنساويه ما كانوا خايفين من العدو الخارج بمقدار ما كانوا خايفين من اهل البلد وكانوا يفتكروا ان قوتهم هى كافيه لمقابلة اعدايهم البرانين بحيث ان البلد لا تكون معهم ولا عليهم فلاجل ذلك اعتنوا فى بنا هذه القلاع المذكوره حول البلد وكانوا دايماً يبنوا ويحددوا محلات حصار فى القلعه الكبيره وفى كل يوم كانوا يرسلوا لها المشاق وبتاتى الزيت والمدافع والكلل والبنبات ويروا اهل البلد انهم اذا تحركوا يحرقوا بهم البلد . ومع هذا جميعه فكانوا اهل البلد منتظرين احد يحضر من خارج لكى يساعدوه من داخل . لان هذا الامر يصعب على اهل مدينه مثل هذه لها فى يد الاسلام من ظهور النبى وفى القديم قصدوا النصارى الافرنج الاستيلا عليها جملة امرار فما قدروا وآخرهم السلطان لويس الفرنساوى الذى انكسر

فى المنصورة كما تخبر التواريخ فلهذا السبب صعب جدا دخول الافرنج على المصريين الى هذه الديار ولا سيما اذ كانوا يروا نساهم وبناتهم مكشوفين الوجوه مملوكين من الافرنج جهاراً ماشيين معهم فى الطريق نايمين قايمين فى بيوتهم فكانوا يكادوا ان يموتوا من هذه المناظر وناهيك تلك الخمامير التى اشتهرت فى كامل اسواق المدينة جهاراً حتى وفى بعض الجوامع ايضا هذا الرويا والمنظر كانت تجعل الاسلام يتنفسوا الصعداء ويطلبوا الموت فى كل ساعه . ولكن فى مدة الفرنساويه كانت الناس الدون فى احسن حال من بياعين وشيالين وارباب صنايع وخمير وسياس وقوادين ونسا خوارج وبالنتيجه الاناس الادنيا كانوا منشرحين وسببه كان اطلاق الحريه . واما الشطر الثانى الاعلى والاوسط شديد التعب جداً من كامل الملل لسبب وقوف الحـال من عدم الداخل والخارج ولكن مع هذا جميعه ان هذه المملكة العظيمة ما افتقرت الى شى بل فى كل هذه المده كان موجود بها ما يكفيها . واما من القوت فزادت رخاء لان اغلالها ورزها بقى فيها لاجل ذلك كانت رخيه بزياده عن العاده . ومن عادة هذه المملكة ان حطبها يجلب من ارض الروم فمع هذا ما افتقرت الى حطب بل كانوا يقطعوا من الصعيد حطب الصمت وحطب الجميز وهذين الصنفين فى ارض مصر وجودهم كثير . واما الخمر غلى جداً حتى كانت المربعه تباع بثمانية غروش رومى . واما العرق كانوا يخرجوه من البلح لاجل ذلك انوجد كثيراً .

هذا ما كان من امر مصر . فلنرجع ونتكلم عن امر الصعيد قلنا ان امير الجيوش بونابرته فرق الجناناريه على الاقاليم وارسل الجنرال ديزه الى اقليم الصعيد اولاً لكى يحارب مراد بيك ومن معه ثانياً لكى يرقد ويهجع هيجان البلاد . فهذا الجنرال المذكور كان من الجناراليه المعده فى الحروب وكان متفنن جداً فى امور الحرب فقلنا سابق انه اخذ معه اربعة الاف صلدات وتوجه بها الى الصعيد وكان معه احد الكتبه من الاقباط رجل يقال له المعلم يعقوب القبطى فهذا كان صعيدى الاصل وكان مباشر بلاد سليمان بيك وهذا الرجل كان بطل شجاع وياتى له كلام فيما بعد .

فنقول ان الجنرال ديزه حين وصل الى المنيه مسافة يومين عن مصر فالتقا بعساكر مراد بيك لان مراد بيك حين خرج من مصر جمع جموع كثيره واجتمعت عليه عربان وفلاحين وغز قدم ومماليك كانت مشتته فى اقليم الصعيد وكان فى اعلا الصعيد ببلاد اسنه السنجق السلطانى عثمان بيك حسن ورفيقه حسن بيك الجداوى وهذين السنجقين كانوا مطرودين من مصر سابق من ابراهيم بيك ومراد بيك بعد موت اسماعيل بيك . وبالنتيجه ان هذين السنجقين كاتبهم مراد بيك وحضروا لعنده وتقابلوا مع بعضهم بعض وقروا الفاتحه واصطلحوا وبقوا جموع كثيره نحو عشرين الف فتقابلت هذه العساكر مع العساكر الفرنساويه ووقع بينهم الحرب والطعن فسمح الله بالنصر للفرنساويه وانكسرت تلك العساكر وهربت الغز لان نار الفرنساويه لا تطاق وحربهم مر المذاق ولهم فنون كثيره فى الحروب التى لا تدركها لا الغز ولا العربان لان الغز والعربان ما عندهم سوى السيف والرمح والخيل والفرنساويه كانت فنونهم فى النار غريبه وكان لهم شجاعه غريبه وكانت قلوبهم صخريه لا يهابون الموت ولا يخشون الغوث ولا سيما اذ تحققوا انقطاعهم فى الديار المصريه فكانوا يحاربوا بقلوب صخريه لاجل ذلك فى كل اقامتهم فى الاقطار المصريه قط ما رجعوا الى الورى بل دايماً كانوا ينتصرون لانهم تجردوا فى الحروب لان ولا يوم واحد راقت الفرنساويه من الحروب فى مملكة مصر . ثم انه بعد وقعت المنيه وقعت اللاهون وبدا يصير من ذلك الوقت وقعه بعد وقعه الى ان مات خلق كثير من الغز والعربان والفلاحين وكل مراد بيك من الحروب وارتفع الى اصوان مسافة اربعون يوم عن مصر . ولكن هذا الجنرال المذكور روق بلاد الصعيد وطيبها بحسن عقله وتدبيره وفراسته وشجاعته وقوة باسه وكثرة جودته وكرمه وبقيت بلاد الصعيد اروق من بحرى .

ثم انه فى مدة هذا الجنرال المذكور ضاجت الاشراف بمكه وصعب عليها اخذ مصر فاشهر نفسه رجل شريف من الاشراف ذوى مال يقال له الشيخ محمد الجيلانى واتى من مكه الى الصعيد بنحو ثمانية الاف من اهل مكة وهيج اهل الصعيد وادعى

الولاية وانه يحذف الرمل فى وجه الكفار فيعمون فقامت معه اهل الصعيد وصار له جمع وعسكر كبير فبلغ ذلك الى الجنرال ديزه فتوجه وكبس عليهم وقتل الجيلانى المذكور وتشتت تلك الجموع . وجمهروا ايضاً فى محل آخر فتوجه لهم عسكر وشتتهم وحارب هذا الشجاع فى اقليم الصعيد حروب كثيره وله وقايع غزيره مع الغز والعربان والفلاحين واشراف مكه فكلت من حروبه اهل تلك الاقاليم وطاعته رغماً وبدت الفرنساويه تبنى قلاع وابراج وحصون وحصارات فبنوا فى مدينة قنه قلعه عظيمه وفى القصير قلعه نظيرها وفى مدينة اسيوط قلعه وحصارات وفى بنى سويف قلعه وابراج وحصارات وفى المنيه قلعه وابراج وحصون وحصارات وحصنوها بالمدافع والبنبات .

فهذا ما كان من امر الصعيد . فلنرجع ونتكلم عن امر مصر ونقول انه ظهر ايضاً فى نواحى اسكندريه رجل مغربى اسمه الشيخ محمد وادعى انه ابن سلطان الغرب وان فيه الولايه فهذا المذكور جمع جموع كثيره من عربان وفلاحين ومغاربه واشهر نفسه على الحرب فتوجهت اليه الفرنساويه وبدوا يحاربوه ويحاربهم وما زالوا وراه حتى شتتوه فى القفار وبددوا تلك الجماهير وراقت تلك الاراضى .

ثم فلنرجع لما كنا فى صدده من الابتدا ونقول ان امير الجيوش بونابرته بعد استقراره فى مصر فى غايه شهر صفر الذى دخل فيه الى مصر كتب كتابه الى احمد باشا الجزار وارسلها مع قاصد فرنساوى رجل اسمه باظان وهذا الرجل كان اقامه قاضياً فرنساوياً فى مصر عند دخوله فهذا المذكور توجه من طرف امير الجيوش بونابرته قاصداً عكا فنزل الى دمياط وقابل الجنرال فيال حاكم دمياط واخبره بالغرض ففى ذلك الوقت كانت البركنده بتاعة احمد باشا الجزار موجوده فى دمياط لانها حضرت قبل دخول الفرنساويه وحين دخلوا ما عاد امكن قبطانها ان يخرج من البوغاز . فلزم ان الجنرال فيال حالاً احضر قبطانها ان يخرج من البوغاز . فلزم ان الأمر فقال جهز حالك واوسق مركبك كما تريد لانه متوجه صحبتك الجنرال باظان من

طرف الدولة الفرنساويه لمقابلة احمد باشا الجزار لاجل عقد الصلح والسلام فكان الامر كما ذكر والقبطان المذكور جهز حاله ووسق مركبه ونزل صحبته الجنرال باظان ومعه رجل ترجمان وصحبته اثنين تجار حضروا معه من مصر لانهم كانوا اصحابه وارفاقه واخذوا معهم جملة ارادب رز وتوجهوا فحين وصلوا الى مدينة عكا وارموا المراسى فى البحر وحين نظر الجزار ان البركنده مقبله عليه ففرح جداً . فنزل القبطان العيدروسى ومعه كتابه من الجنرال باظان الى الباشا بها يخبره فى حضوره وانه قاصد مقابلته فوصل القبطان امام حضرة الوزير المشار اليه واعطاه الكتاب .

فقال له الباشا ما هذه الكتابه .

فقال له انا حضر معى قاصد من طرف الدولة الفرنساويه ومراده المواجهة .

فقال له ومن معه ومن هولاء الذين صحبته .

فقال له ان صحبته ترجمانه وايضاً معه اثنين تجار اصحابه ابنا عرب .

فقال له الوزير حالاً اخرج التجار وارزاقهم من البركنده ونزل هذا الكافر مع ترجمانه فى احد النقاير واخبره بان يرجع الى حيث اتى وان كان لم يرجع فى هذه الساعه والا احرق فيه النقيره .

واظهر الغيظ الشديد . ففى الحال رجع ذاك القبطان واخبر الفرنساوى المذكور بما وقع وحالا نقله الى احد النقاير الفارغه وقال له اقلع فى هذه الساعه . وقال الى التجار انتم مطلوبين الى حضرة افندينا انتم وارزاقكم وكان الامر كما ذكرنا فالرجل الفرنساوى رجع الى دمياط مع ترجمانه والاثنين التجار نزلوا الى مدينة عكا بارزاقهم . وحالاً وقع عليهم القبض وارسلوهم الى الحبس وكان احدهم اسمه انطون زغيب والثانى حنا عطيه وهذين الاثنين بقيوا فى الحبس لحينما قتلهم احمد باشا فى وقت اخر سوف نذكره فيما بعد . ثم وصل الجنرال باظان الى دمياط وتوجه الى مدينة مصر واخبر امير الجيوش بونابرته بما عاين وشهد فاغتاظ امير الجيوش غيظا شديداً وابتدى من ذلك الوقت يجهز ويحضر فى جباخانات وقومانيات واستعدادات للقيام على بر الشام

وكان السبب فى عدم قبول هذا القاصد المذكور عند احمد باشا الجزار هو انه فى ذلك الوقت بعينه كانت حضرت الاوامر السلطانيه من طرف الدولة العثمانيه الى الوزير المشار اليه التى بها يحرضه ويهيجه على حرب الفرنساويه كما ذكرنا فى اول التاريخ . والسبب الثانى هو ان هذا الوزير قد كان فى الزمن السابق طرد قنصلهم من مدينة عكا وحتم ان لا يكون فى مدينته فرنساويه وقد قيل ان هذا السبب هو من جملة الاسباب التى اددعت بها الفرنساويه فى حضورهم الى مدينة مصر .

فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول ان الفرنساويه بدوا كما ذكرنا فى التجهيز والتحضير وكذلك الوزير احمد باشا من بعد طرد قاصدهم ابتدا يحضر عساكر ويجهز دساكر ويرسل رجال ومدافع وكلل الى مدينة يافا وغزه وحتى الى قلعة العريش التى هى حدود مملكة مصر وما زال التحضير والتجهيز واقع من الطرفين الى خامس يوم من شهر رمضان سنة ١٢١٣ خرج الجنرال بونابرته بعساكره من مدينة مصر قاصدين العريش وكانت عده عساكره اثنى عشر الف صلدات معده خاص العسكر الفرنساوى الموجود فى مصر وقبل قيامه من مصر احضر علما البلد واعيانها وكبرايها واوصاهم الوصية التامة على حفظ مدينة مصر .

وقال لهم انى قد وبلت عوضاً عنى حاكم عليكم الجنرال دوكا قيم مقام . وشيخ البلد الجنرال ضدستين وامرتهم انه اذا كانت اهالى المدينة تتور اقلها حركه فى غيابى نظير عوايدهم فيطلقوا النيران فى البلد من كامل القلاع ويحرقوا المدينه ويدوروا السيف .

فقالوا له العلما والاعيان المذكورين نحن ايها الجنرال متكفلين متضمنين من هذا الوجه ورقابنا تسد بذلك فكن مطمان القلب والخاطر من هذا القبيل .

ثم ودعهم وسار وتقدمته العساكر وكان المتقدم على الجيوش المتوجه الى بر الشام الجنرال الكبير المعدود بالحروب الجنرال كليبير . فهذا المذكور كان وقتها فى مدينة دمياط وهذا ثانى بونابرته بالرتبه . وقد قيل عنه انه فى ظهور المشيخة بعد قتل الملك

كان هو الصارى عسكر الاول فى حروب بلاد الافرنج . فهذا الرجل كان طويل القامه كبير الهامه وله صوت مرعب مرعش جداً فهذا اول من صار بجيشه ووصل الى قطيه ومن هناك تاهوا عن طريق العريش وسار ثلاثة ايام من غير قومانيه فذبحوا الخيل والجمال واكلوهم وحين اهتدوا الى الطريق ووصلوا الى العريش كانت بعض عساكر واردين بقومانيه الى قلعة العريش فحين نظروا عساكر الفرنساويه قادمه فولوا هاربين وابقوا كل شى معاهم من القومانيه فوصلوا الفرنساويه وروا القومانيه ففرحوا واكلوا وشربوا ورابع يوم حضر الجنرال بونابرته وتكاملت العساكر على القلعه .
وكان فى قلعة العريش نحو خمساية نفر وكان معهم احمد كاشف الكبير تابع عثمان بيك الاشقر وابراهيم كاشف الاسود رفيقه وبعض مماليك والباقى سكمان واولاد عرب وغيرهم . فارسل امير الجيوش يطلب منهم القلعه فلم ارتضوا ان يسلموا فاطلق عليهم المدافع وبدوا يضربوهم ايضاً على عرضى الفرنساويه المدافع لانه كان عندهم بعض مدافع وبارود واستقام الحصار على القلعة ثمانية ايام وحين فرغ بارودهم ومونتهم طلبوا يسلموا فارسلوا مراسيل إلى الصارى عسكر بونابرته يطلبوا منه الامان فاعطاهم الامان وانهم يخرجوا من غير سلاح فما قبلوا فرجعوا الى القلعه ووقع الحرب ومن بعد وقوع الحرب بيومين حضر قاسم بيك المسكوبى من غزه ومعه جملة ذخاير الى القلعه .
وحط فى موضع بعيد من القلعه حتى ان الفرنساويه لا ينظروه وكان مقصوده انه فى الليل يتسرق ويدخل الى القلعه . فاستمعت به الفرنساويه فحالاً فى الليل ارسلوا ربطوا عليه الطرق وكبسوا عليه فى الليل وقتلوا قاسم بيك المسكوبى وجملة من الكشاف والمماليك الذين كانوا معه والذين بقيوا هربوا واخذوا الفرنساويه جميع الجمال والذخاير الذى كانت معه . فحين سمعوا الذين كانوا فى القلعة انقطع ظهرهم ودخل عندهم الخوف . لكن ليس يمكنهم يسلموا القلعه ويطلعوا من غير سلاح . واستقاموا الى اربعة عشر يوم فارسل لهم امير الجيوش بونابرته بانكم تخرجوا من القلعه وسلمونى اياها واطلعوا بسلاحكم لان امير الجيوش لم يمكنه ان يستقيم على القلعه ولا يمكنه

ان يسيبها فى قفاه ويتوجه الى بر الشام فاعطاهم الامان امير الجيوش ونزلوا من القلعه بكل امان وقابلوا امير الجيوش وترحب بهم واطلق سبيلهم . واما احمد كاشف وابراهيم كاشف وجماعتهم نحو عشرين طلبوا المجي الى مصر لعند اعيالهم فاعطاهم الاجازه وارسل معهم صلدات فركبوهم وحضروا بهم الى مصر واتوا بهم الى قدام الجنرال دوكا فالمذكور ترحب بهم وارسلهم الى عند شيخ البلد والمذكور ايضاً ونسهم وارسلهم الى بيوتهم وفى ذلك اليوم حضرت غالب اهل البلد تتفرج عليهم لانهم دخلوا بمصر راكبين حمير وثيابهم رثه والكشاف المذكورين حين نظروا فرجة اهل البلد عليهم وهم داخلين بدوا يبكوا وشق عليهم ذلك جداً . ومن بعد وصولهم الى بيوتهم فاحدهم الذى هو احمد كاشف من شدة قهره مات ثالث يوم .

فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول ان الجيوش الفرنساويه من بعد ان استلموا قلعة العريش وضعوا بها جانب عسكر وساروا الى غزه وحين وصلوا إلى غزه فكان موجود بها جانب عسكر من عساكر الاسلام من طرف احمد باشا الجزار فولوا من غير محاربه ودخلوا الفرنساويه مدينة غزه وثانى يوم ساروا الى مدينة يافا فجميع العساكر التى كانت فى العريش وآمنهم امير الجيوش وعاهدوه بان ما بقيوا يحاربوه . ومن بعد ما فارقوه راحوا صحبة العساكر الذى كانت فى غزه ودخلوا مدينة يافا وقفلوا ابواب البلد فاحتاطت الجيوش الفرنساويه حول يافا وانتظروا حضور امير الجيوش فحضر لعندهم رابع يوم واستخبر عن العساكر الموجوده فى البلد فقيل له انها نحو ثمانية آلاف فكاتبهم امير الجيوش ان يسلموا المدينة اول وثانى فمسكوا المراسيل وقتلوهم فبلغ امير الجيوش قتل المراسيل فآمر بضرب المدافع والبنبه عليهم وبدا الحرب من الساعة الثالثه من النهار الى الساعة التاسعة من النهار خالاً فتحوا ثغره من الصور من ناحية حارة النصارى خالاً امير الجيوش أمر ان يهجموا على المدينه وهجمت الفرنساويه هجمة واحده فيالها من ساعه كانت مرعبه مرهبه ودوروا السيف فى العسكر الموجود وفى اهل البلد ونهبوا وسلبوا وسبوا النسا وفضحوا البنات وذبحوا الاولاد وحصل

فى تلك الليلة فى مدينة يافا ما يكل عن وصفه اللسان . وكان اخذها ليلة عيد رمضان . والذين مسكوهم بالحيوه احضروهم ثانى يوم قدام امير الجيوش فأمر بقتلهم جميعهم ما عدا البعض منهم مثل شوام وحلبيه واولاد عرب ومصرليه وما بقى اخذهم على السيف جميعهم ومن بعد ذلك ما زال النهب والسلب داير فى البلد الى ثالث يوم الى ان تركوها كجوف حمار .

ثم بعده نادوا بالامان وحطوا بعض عساكر لمحافظة المدينة وذهبوا نحو مدينة عكا لمحاربة الجزار وكان مسيرهم من الطريق الفوقانيه فحين وصولهم ارض قاقون كانوا النوابلسيه مع عسكر الجزار رابطين فى الوادى فحين اقبلت العساكر الفرنساويه الى ارض السهل خرج عليهم مقدار خمسماية خيال من فم الوادى وصاروا يرمحوا من بعيد وكان مرادهم ان يجروا عسكر الفرنساويه ويدخلوه فى الوادى وحالا يكبسوا عليهم ويذبحوهم . فلما علم امير الجيوش ان هذه نيتهم فقسم عسكره ثلثة اقسام قسمين منهم طلعوا على جبلين نواحى الوادى والقسم الثالث هجموا على الوادى وضربوا المدافع وقاتلوهم وكانوا نزلوا الذين طلعوا على الجبال عليهم وهجموا على عسكر الاسلام وقتلوا منهم مقدار اربعمايه نفر من عسكر الاسلام . فلما راوا ان الفرنساويه احاطوهم ففروا هاربين منكسرين ومشيوا عساكر الفرنساويه مطمانين الى ان وصلوا مطرح اسمه عيون الاساور وباتوا هناك وثانى يوم مشيوا الى ان وصلوا الى فم باب وادى الملك او مرج بنى عامر .

فحين سمع الجزار بقدومهم فحالاً ارسل اخذ العسكر والجبخانه الموجوده فى مدينة حيفا وسابها وحين اقبلت الفرنساويه حالاً اهل حيفا اخذوا مفاتيح القلاع والبلد وخرجوا قابلوا امير الجيوش واخذوا منه الامان ولم جرى عليهم شى ثم دخلوا الفرنساويه الى حيفا فالتقوا هناك قارب من مراكب الانكليز فتحاوطوه بالحيله واخذوه وكان به عشرين نفر .

ثم فلنرجع ونقول اننا سابقـا حررنا ان الانكليز ربطوا البواغير وكان صارى

عسكر عند الانكليز الجنرال سميث وهذا الرجل كان مدبر عظيم وشجاع فى حرب البحر ومتفنن جداً وهذا المذكور فى بحر هذه المده ما كان يكل لا ليلاً ولا نهاراً ساهراً على عكوسات اعدايه الفرنساويه فهذا الرجل فى هذه المدة كان يتردد على مدينة عكا متفق مع احمد باشا الجزار واليها وكان هذا الوزير المشار اليه دايما يود ويقدم الى الانكليز كل محبه ووده لان الجهتين اعداء الفرنساويه فهذا الجنرال حين بلغه قيام بونابرته من مصر وتوجه على بر الشام حضر بمراكبه الى مدينة عكا وبدوا يدبروا فى متاريس ومحلات حصار جديده الى حين وصلت الفرنساويه الى عكا ثم ان الفرنساويه حين حضروا على البر ما قدروا ان يسحبوا معاهم المدافع الكبار الطوال بل اصحبوا معاهم مدافع صغار لبعد الطريق وصعوبة المسافة لان الطريق من مصر الى غزه صعب جداً لكثرة الرمال وقلة الماء فلزم ان بونابرته ارسل المدافع الكبار والجبخانه والبنبات الكبار فى ثلثة مراكب موسوقه من دمياط فالتقت بها مراكب الانكليز واخذتهم بريزه. فهذا اول عكس عكسوه للفرنساويه الذى به قطعوا عزمهم وهذا كان اكبر سبب فى عدم اخذ هذه المدينة ولكن كل هذا لكى تتم ارادة الله تعالى.

فلنرجع ونقول ان عساكر الفرنساويه قامت من حيفا وتوجهت على عكا الى ان وصلوا الى مقام يقال له ابو عتبه وهو قدام مدينة عكا ونصبوا عرضيهم هناك. وكانوا ارسلوا مراسيل الى كامل مشايخ البلاد بان يحضروا ويقابلوهم. فثانى يوم حضروا جميعهم مشايخ شفا عمر والناصره وعبلين وكامل البلاد فقابلوا امير الجيوش بونابرته واخذوا منه الامن والامان على كامل ما تملكه يدهم وارسلهم الى بلادهم وحالاً ارسل الجنرال كليبير والجنرال جنو الى مدينة الناصره وارسل كومنضا حاكم على شفا عمر.

فلنرجع انه ابتدا الحرب على مدينة عكا من الفرنساويه من خامس يوم من شهر شوال سنة ١٢١٣ وكان الجنرال كليبير الذى توجه الى الناصره فما استقام سوى

مده قليله وقد اقبلت على مرج ابن عامر عساكر وارده من الشام مثل هواره ومغاربه وشوام وانكشاريه وكان معهم كامل غز مصر وعربان وكامل رجال جبل نابلس وكانوا جميعهم نحو ثلثون الف فعسكروا جميعهم فى ارض مرج ابن عامر . فحين بلغ الخبر الى الجنرال كليبير فحالاً جمع عسكره وكانوا مقدار الف وخمسمايه صلدات وتوجه لمحاربتهم فى مرج ابن عامر فحين نظروا العثملى ان الفرنساويه قابله عليهم وسعوا من وجوههم الى قدام الى ان وصلوا الى مطرح يقال له ارض الفوله وهناك ضربوا حلقة الفرنساويه وهناك الجنرال المذكور قسم عساكره اربعة اقسام وفى كل قسم منهم اربعة مدافع وتراكمت عليه كامل جيوش الشام وابتدا الحرب بينهم فحين شاهدوا اهل الناصره ان الجنرال كليبير متضايق قوى فحالاً ارسلوا مراسيل الى بونابرته يخبروه بهذا الخبر . فحين بلغه ذلك حالاً ارسل ورى الجنرال ترك وامره بتحضير ثلثة الاف عسكرى بالعجل فما استقام ساعه واحده الا وحضرت العساكر وجابوا معهم اربعة مدافع . ومن هناك حالاً مشاهم على وادى اعبلين ومن بعد مشيهم بثلثة ساعات كان بعد العصر فتعشى الجنرال بونابرته وركب بمايتين خيال ولحق العساكر وبقوا سايرين فى الليل الى ان وصلوا نصف الليل الى موضع يقال له بير البداويه وهذا البير ملان ماء فحطوا هناك يرتاحوا فلكن اكل لم معاهم وكان قبالهم بلد يقال لها صفوره فارسلوا لها حالاً وجابوا منها كامل ما يحتاجون من سمن وبقر وخلافه وباتوا تلك الليلة الى ان اصبح الصباح فحالاً شالت العساكر ومشيوا فى طريق يقال لها الغابه ومن هناك نفدوا على طرف مرج ابن عامر ونزلوا فى ارض بلد يقال لها سمونه فمشوا شى قليل فى ارض المرج الى قبال تل فطلع امير الجيوش بونابرته الى التل ونظر الى ارض المرج فنظر هناك الجنرال كليبير والعساكر محاوطينه والحرب واقع . فحالاً نزل بونابرته ونظر الى الجبل الثانى يقال له جبل اللجون وكان موجود هناك عرضى الغز بتمامه جميعه وجميع ما تملكه يدهم وكانوا الغز يحاربوا فى ارض المرج بعيدين عن عرضيهم مقدار ساعتين فحالاً الجنرال بونابرته قسم من عسكره خمساية صلدات وارسلهم على

عرضى الغز يكبسوه واما بونابرته والعسكر الذى تبقا معه قسمهم ثلثة قسمات قسمتين منهم الف الف وقسمه خمسمايه . فاخذ منهم قسم الف وتوجه بها بذاته واخذ مدفع واحد . والقسم الثانى الف تبعته بعيدين فكان هو وصل الى ثلثين المرج والقسم الثانى وصل الى الثلث والقسم الثالث الذين تبقوا خمسماية صلدات ومعهم مدفعين فهم الذين آمرهم الجنرال بونابرته بان يمشوا الى الحرب من الطرف الثانى حتى يكونوا عساكر الاسلام محتاطين بالوسط فمشيوا واقبلوا على عسكر العثملى فحين نظروهم عساكر العثملى ارتجوا جداً فحالاً الكومنضا ضربهم مدفع فحين سمع بونابرته وهو فى ثلثين المرج ضربهم مدفع فحالاً ارتجوا كامل عساكر العثملى وبدوا يهربوا فحالاً لما نظرهم الكومنضه ضرب عليهم مدفع ثانى فكامل العسكر حالاً هربوا وبدوا يتجاروا فى الجبال والوديان مسرعين جداً والفرنساويه يتفرجوا عليهم من بعيد ويضحكون لكون عوايد الافرنج حين ينكسر العسكر الذى قبالهم فلم يتبعوه بل يتركوه يولى هارباً .

ومن هناك حين انكسرت تلك العساكر اقبل الجنرال بونابرته على الجنرال كليبير وقابلوا بعضهم وتعانقوا سوا وفرحوا فرحاً عظيما وهم فى الكلام فرحانين واذا اقبلت عليهم الخمساية صلدات الذين توجهوا على عرضى الغز كسبانين عرضى الغز بتمامه وفيه خيرات لا توصف مع جماله وخيامه ففرحوا بذلك وباتوا تلك الليلة فى ارض المرج الى ان اصبح الصباح فارسل خمساية صلدات الى بلد يقال لها جنين وهى من كراسى جبل نابلس وامرهم بان ينهبوها ويحرقوها . فحالاً توجهوا اليها فما وجدوا فيها احد فحرقوها وحضروا . فحالاً بونابرته امر الجنرال كليبير بان يتوجه الى بلد يقال لها الطيبه ينهبها ويجيب كامل ما فيها من غنم وبقر وغلال لاجل معاش العساكر وكان سبب نهب هذه المدينة لكون ان مشايخها لم نزلوا قابلوه ولا اخذوا منه الامان ومن هناك بونابرته احرق بلد يقال لها نورس واحرق مزار عالى يقال له وزر ومن هناك توجه الى الناصره فنزل فى دير الافرنج وكان دخوله بعد العصر فعمل له العشا ريس الدير واتعشا عنده واذان المغرب حالاً ركب من الناصره وتوجه الى

العرضى على عكا فرابع ساعه من الليل دخل على العرضى وبقى الجنرال كليبير فى تلك الاراضى .

وارتجت ساير اقاليم بر الشام من الفرنساويه حتى الشام الكبيره وحلب وكانوا منتظرين اخذ مدينة عكا ومن بعد اخذها كانوا جميعهم ناويين على التسليم من دون حرب ولا رفع سلاح .

وحضر الى عند امير الجيوش بونابرته عباس ابن الضاهر عمر وهذا كان والده حاكم بلاد عكا قبل الجزار ومن بعد حضور الجزار تضعضعت احواله وبقى منفى فى البلاد يشحد من مشايخها وياكل فحين قابل امير الجيوش حالا لبسه واعطاه سيف وجوز طبنجات والعده الكامله وامر له بالف ومايتين فرانسا واعطاه فرمان انه يكون شيخ مشايخ بلاد صفد وبعدها حين بلغ مشايخ المتاوله الذين هم مطرودين من الجزار من مدة اثنين وعشرين سنه وهم دايرين فى الجبال والبرارى فحالاً جميعهم نزلوا الى عند امير الجيوش بونابرته فحين وصلوا استقبلهم بكل اكرام والبسهم خلع واعطاهم فرمانات بان يكونوا حكام فى بلادهم كما كانت ابهاتهم واجدادهم . فحالاً ركبوا وتوجهوا واستلموا صور وطلعوا الى الجبل واستلموا قلعة تبنين وهونين وكامل قلاع بلاد المتاوله ومن بعد تسليمهم البلاد اطلقوا منادى فى كامل البلاد ان جميعهم يقدموا ذخاير مثل غنم وبقر وعيش وكامل ما يلزم الى العرضى الفرنساوى وكل بلد لا تقدم تحرق بالنار . فحالاً كامل البلاد قدمت ذخاير .

ثم فلنرجع ونقول ان امير الجيوش بونابرته ارسل جاب رجل من جبل طرشيحا اسمه مصطفى بشير ولبسه فروه وامره انه يجمع له عسكر من الفلاحين ويتوجه الى صفد ويملكها فحالاً جمع مقدار خمسين راجل وتوجه بهم فحين سمعت اهل صفد بقدومه فحالاً طردوا عساكر الجزار الذين فى القلعه وحين اقبل سلموه القلعه لانه رجل منهم وليس غريب .

ومن بعد ما استلم القلعه بخمسة ايام حضرت عليه عساكر من الشام مقدار

الفين خيال وصارى عسكرهم رجل اسمه ابن عقيل ونزلوا على جسر بنات يعقوب ومن هناك طلعوا على صفد ودخلوا الى صفد ونهبوا حارة اليهود وبعض بيوت من اهل البلد وحاصروا القلعة فلكون ان مصطفى بشير لم عنده عسكر كثير حتى يخرج يحاربهم بل التزم ان يحاصر داخل القلعه هو والخمسين الذين معه ووقع الحرب بينهم وهجموا على القلعه هجمه واحده ملعونه فضربوا عليهم من فوق نار شديده الى ان اهلكوا منهم جمله وواحد من الذين بالقلعه ربط حاله من شباك القلعه ونزل وراهم فقوص واحد بيرقدار منهم فقتله وخطف البيرق منه وتوجه الى القلعه فحالاً سحبوه جماعته بالحبل وطلعوه الى عندهم . وحين بلغ خبر هذه العساكر الى بونابرته حالاً ركب الجنرال ميراد بعسكر خياله مقدار خمسمايه خيال وتوجه الى صفد بالعجل فحين سمعوا عساكر الشام ان الفرنساويه اقبلت عليهم فحالاً سابوا صفد وهربوا ونزلوا الى جسر بنات يعقوب فاقبل الجنرال ميراد على صفد وسال عن عسكر الشام فقالوا له انهم هربوا الى جسر بنات يعقوب . فحالاً مشا خلفهم بالعجل ووصل الى جسر بنات يعقوب فما وجدوا احداً بل هربوا على ديرة الشام فاستقام الجنرال ميراد على جسر بنات يعقوب . واما مصطفى بشير حالاً خرج من القلعه وجاب معه الرجل الذى خطف البيرق وابقا جماعته فى القلعه محافظين واتى الى العرضى والبيرق معه فحين اقبل على امير الجيوش بونابرته وسلم عليه واحكا له بالذى وقع واوراه الرجل والبيرق الذى خطفه بشجاعة قلبه . فحالاً بونابرته آمر الى الرجل بثلاثين ريال فرانسا انعام وامر مصطفى بشير بان يجمع فلاحين من اهل البلاد ويجعلهم عنده عسكر بجامكيه فحالاً خرج مصطفى بشير وطلع الى جبل طرشيحا وعين ثلثون رجل وكل واحد له كل يوم ثلثين فضه مكفايه . فاخذهم وتوجه بهم الى جسر بناب يعقوب فحين وصل الى هناك وضعهم فى الجسر محافظين والجنرال ميراد حضر الى عكا .

ثم بعد ذلك ان مدينة طباريا كانت ملانه من عساكر الجزار فتوجه الجنرال

جنو ومعه اولاد الضاهر عمر عباس وصالح وكان عسكره ثلثماية خيال ووصلوا الى بلد يقال لها الشجره فحين بلغ الخبر الى العسكر الموجود فى طباريا وكانوا مقدار الفين حالاً خرجوا من البلد وحضروا الى ارض الشجره يحاربوا الافرنج . فحين سمع بهم الجنرال جنو خرج لهم واشتبك الحرب بينهم حتى ان الجنرال المذكور اهلك اكثرهم . وان هذا البطل الشجاع لحق رجل دالاتى وعبطه فى كتفه وضربه بالسيف قسمه نصفين وهو على ظهر الحصان وبدا يذبح بهم الى ان فوتهم بلد اسمها لوبه وتوجهوا الى طباريا هاربين مكسورين مطرودين مرعوبين خوفاً شديداً ودخلوا طباريا فما باتوا سوى تلك الليله فقط وثانى يوم بدرى توجهوا على الشام هاربين من شدة الخوف الذى احتوا عليهم . وثانى يوم حضر الخبر الى الجنرال جينو ان عساكر طباريا هربوا ولم بقى فيها احد فحالاً ركب وتوجه الى طباريا بعسكره ودخلها بالامن والامان من غير حرب وحالاً رمى الضبط على الموجود فى طباريا فوجد حواصل قمح داخلهم الف غراره وحواصل داخلهم ستماية غراره درا واربعمايه غراره شعير وشوية نحاس قديمه وارسل بهم قايمه الى بونابرته بهذا العلم فحالاً امر بونابرته ان القمح والدره جميعه يودوه الى الطواحين يطحنوه ويجيبوه دقيق الى العرضى لكون امير الجيوش حين حط على عكا ووضع عرضيه فى ابو عتبه وجاب بنايين وعمر عشرين فرن وبدوا يعجنوا ويخبزوا فى العرضى ويفرقوا على العسكر حسب عوايده لكون ما بقوا محتاجين الى عيش برانى بل الخير كثر عليهم جدا .

ولكن اذ مضا مدة ايام على الفرنساويه وهم محاصرين مدينة عكا ومن بعد هجمات كثيرة وحروب غزيره ما استفادوا فايده فبدت تضعف قوتهم . لان اولاً لكون ان مدينة عكا هى مدينه حصينه الى الغاية واحمد باشا الجزار له خمسة وعشرين سنه وهو فى بناية حصون وابراج وقلاع وترتيب مدافع وتحضير جباخانات وجعلها باسرها قلعه واحده يكل الوصف عنها وساعد فوق هذا التحصين وجود مراكب الانكليز على حافة البحر فكانت حين تهجم الفرنساويه تبدى عكا تضرب

من ابراجها وقلاعها واسوارها ومراكب الانكليز تضرب الكلل والبنبات تحيط فى عرضى الفرنساويه . ولاجل ذلك هجمت الفرنساويه جملة امرار واتصلت الى اصوار المدينه وارتجعت من عظم النيران التى كانت تتراكم عليهم وفقد منهم خلق كثير وقتل على الصور الجنرال بون فهذا الجنرال كان بطل شجيع ومشهود له فى الحروب وكان قصير القامه غليظ الجثه وله صدر نافر كقطعة صخر وفى صدره كان له عرق نافر كغلظ الباهم . فهذا البطل تعلق على الصور وحين لم عاد يتصل اليه الرصاص فالقوا عليه الحجاره الكبار من على الصور فاصابته فى راسه فوقع فحملوه اصحابه ورجعوا به فمات معاهم بالطريق . وقتل ايضاً الجنرال كفر لله المهندس الكبير المكنى بابو خشبه فهذا الجنرال الشجاع اصابته كله فى كتفه فوقع فشالوه وحملوه وبدت الجرايحيه تداوى جرحه .

فقال لهم هل ان جرحى هذا يطول الى ان يبرى .

فقالوا له يطول مده .

فقال لهم انا مرادى انهض سريعاً لكى اجاهد فى حب المشيخه .

فقالوا له يحتاج ان تقطعه .

فقال لهم اقطعوه لكى اقوم سريعاً وادبر شغلى .

فقطعوا كتفه وبعد يومين نهض وبدا كعادته يمشى قدام الطبجيه ويريهم الاماكن التى يضربوا عليها المدافع والبنبه لان هذه كانت من وظايفه وكان بكتف واحد ورجل واحده فتورم كتفه المجروح جديداً من وقوفه فى الشمس هذا كله ولم كان يكل حتى اصابته ايضاً كله فى صدره فوقع ومات وعدمت مشيخة فرانسا مدبر عظيم مثل هذا .

ومات ترجمان امير الجيوش الكبير وكان اسمه منتوره(١) وكان المذكور يفهم باللغة العربيه وكامل اللغات فمرض ومات .

واما المجاريح الذين كانوا من الفرنساويه كانوا يرسلوهم الى شفا عمر والى حيفا والى دير مارى الياس الكرمل لان المجاريح كانت كثيره وكانوا يداووهم الجرايحيه

(١) Venture

الذين معهم فالذى يموت يدفنوه والذى يطيب يطلع ساغ يرسلوه الى العرضى والذى يطلع سقط يركبوه ويودوه الى الطنطوره ومنها ينزلوهم فى الشختاتير فى البحر المالح ويرسلوهم الى يافا ومن يافا يرسلوهم فى النقاير الى دمياط .

وفى هذه المده ابتدا الطاعون فى مدينة يافا واشتغل فى اهل البلد والفرنساويه الموجودين بها .

وقلنا ان الفرنساويه هجمة جملة هجمات على مدينة عكا وفى اواخر حصارهم حين كانوا يهجموا على اصوار المدينة فكانوا يلتقوا اوراق مكتوبه معلقه على ابواب المدينة والاصوار واوراق واقعه قدام الاسوار باللسان الفرنساوى وكانت هذه من الانكليز ومضمون هذه الاوراق كان هذا النص .

وهو ايها الفرنساويه انكم لمغرورون ومنخدعون كون انكم عمالين تلقوا ذواتكم فى المهالك ومومّلين التملك فى هذه البلاد ومنتظرين الامداد من بلادكم وطايعين لمتقدمينكم الجنراليه العصاه الذين قد ارسلتهم مشيخة فرانسا الى هذه الديار الغريبه لكى يهلكوا ويرتاحوا من شرورهم . وها انتم ناظرين انكم من حين حضوركم لهذه البلاد ما حضر لكم من بلادكم احد يسعفكم وطالما نحن موجودين فغير ممكن اننا ندع احد من بلادكم يحضر لمساعدتكم ولازم انكم تموتوا جميعكم فى هذه البلاد طالما انتم طايعين لروسايكم العصاه فاكسبوا انفسكم واطلبوا الاقاله من الحروب ولا تسمعوا كلام امير جيوشكم الرجل العاصى المحتوى على كامل العصاه . واذا انتم طرحتم عنكم طاعة صوارى عسكركم وتطلبوا السفر الى بلادكم فنحن نسفركم ونوصلكم الى بلادكم بكل امان وطمانيه .

فهذا هو النص والكتابه التى كانوا يلقونها الانكليز امام عساكر الفرنساويه حين كانت تهجم على الاسوار ومن هذه الكتابات ضعفت قلوبهم . ونظروا ان هذه الكتابه هى عين الواقع وهو ان طالما الانكليز حاجز عليهم الوارد ورابط الطرق فغير ممكن ان ينجحوا الفرنساويه .

ثم ان الفرنساويه ما زالوا يحاربوا ويهجموا الى ان كلوا وفقد منهم نحو ثلثة الاف وخمسمايه صلدات وفى اواخر المحاصره ارسلوا خبر الى الجنرال كليبير وقالوا ان هجمة الجنرال كليبير هى الهجمة الاخيرة فحضر المذكور وهجم بعساكره على الصور وثار فى ذلك اليوم حرب عظيم تشيب منه الاطفال ودخلت الفرنساويه الى داخل الصور ووصلوا الى الجامع ونظروا الاسواق والعطف والزقاقات مبنيه اسوار وحيطان وكانت النيران من الاسطحه والمرمايات تنزل عليهم ويغمسوا اللحف بالزفت والقطران ويولعوها بالنار ويحدفوها عليهم فما قدروا ان يمكثوا فرجعوا وخرجوا وكان فى مدة الحصار تخرج لهم العساكر من المدينه ويحاربوهم وكانت الانكليز ايضاً تخرج الى البر وتحارب الفرنساويه وقتل من عسكر الانكليز الكومنضا ابن اخت الجنرال سميت وحزنت عليه الانكليز حزن عظيم واطلقت فى تلك الليلة على عرضى الفرنساويه مدافع كثيره واستقامة الفرنساويه محاصره مدينة عكا ستون يوماً .

وفى اواخر الحصار فى شهر القعده سنة ١٢١٣ حضر بريك صغير من فرانسا ودخل اسكندريه وكان فيه رجل مرسل بمكاتيب من الفرنساويه من باريز من الذين هم من طرف بونابرته واسم هذا الرجل بطرس بكتى شامى الاصل مولده مصر متربى فى البلاد الافرنجيه وبها يخبروه عن الخراب العظيم الذى وقع فى مملكة فرانسا من بعد غيابه وان الانبراطور ملك النمسا فتح عليهم الحرب ثانيةً باتحاد سلطان المسكوب وجردوا عليهم عساكر كثيره واخذوا منهم البلاد التى كان اخذتها الفرنساويه سابقاً وان بلاد ايطاليا عصيت ثانيةً على الفرنساويه ورفضوهم وانه ان كان لم يحضر اليهم قريباً والا بزمان قليل توخذ مملكة فرانسا وان عدوهم الانكليز هو الذى هيج عليهم الملوك المذكوره مع الدولة العثمانية .

ثم وفى غضون ذلك كانت الفرنساويه اخذوا مركب فى البحر من مراكب العثملى ووجدوا فيه مكاتيب واناس اروام اخبروا ان عمارة العثملى قادمه على اسكندريه نحو مايه وثمانون مركب .

فمن مكاتيب باريس ومن خبرية الاروام ومن طول الحصار قلق امير الجيوش القلق الكلى ونهض بالعساكر الفرنساويه من مدينة عكا فى ليله واحده فى احدى عشر يوم من شهر الحجة ختام سنة ١٢١٣ وثانى يوم بدرى وصلوا الى حيفا فوجدوا هناك جملة حواصل قطن الى الجزار فاحرقوها وشالوا من حيفا الى ان وصلوا الى الطنطوره وباتوا هناك ومن الطنطوره شالوا الى ان وصلوا الى يافا واخذوا ما كان لهم من امتعا واما المدافع فدفنوها فى الرمل وبعضها مع البندق الذى كانوا اخذوه من عسكر العثملى مقدار اربعة عشر الف رموه فى البحر جميعه واما مركب البيليك العثملى الذى كانوا اخذوه وهو مركب عظيم حرقوه مع مركبين كانوا موجودين فى يافا . واما العسكر تباع المركب كانوا مايتين وسبعين نفر فهولاء حين قاموا الفرنساويه عن يافا فاجابوا المجاريح والمتشوشين من الفرنساويه وعملوا لهم اخشاب وربطوها باحبال ووضعوا على كل خشبه رجل من المتشوشين وجابوا العسكر العثملى وكل اربعه حملوهم واحد على اكتافهم ومشاهم قدام العسكر وحين كان امير الجيوش بونابرته مراده القيام من يافا ارسل جاب السيد يحيه مفتى يافا وكمش حسين وجمعه المناخلى وثلثة اخرين من تجار يافا وطلب منهم مال فما رضيوا يدفعوا فجابهم معه فحين وصل الى غزه خلص كامل اشغاله والكومنضا الذى كان موجود فيها حين قيامه من غزه ارسل مسك خمسه من تجار غزه وطلب منهم مال فما كان عندهم ساعتها مال يدفعوا فجابهم معه وشال من غزه الى ان وصل للعريش فوضع هناك جميع المتشوشين والعسكر العثملى مشاه قدامه الى ان وصل الى قطيه وكان حضر معه جملة ناس من اولاد بلاد صفد فهناك عمل جمعيه الجنرال بونابرته وارسل الجنرال كلبير بعسكره على دمياط وارسل معه ولاد بلاد صفد وشال بونابرته من قطيه الى ان وصل مصر وكان مسافة الطريق كلها اربعة عشر يوم وقاسوا فى الطريق انواع العذاب من كامل الوجوه وكان جملة الذى فقد من العسكر جميعه فى حرب عكا وفى الطاعون وفى التشاويش خمسة الاف صلدات .

ووصل العسكر الفرنساوى الى مدينه مصر صحبة امير الجيوش بونابرته فى عشرة ايام خلت من شهر محرم افتتاح سنة ١٢١٤ وكان يوماً عظيماً فى دخوله لان اكابر مدينة مصر تماماً من علما وتجار ومشايخ ووجاقات واهل البلد تماماً مع كامل العسكر الفرنساوى الموجودين فى مصر خرجوا الى ملاقاته ودخل بموكب عظيم يفرتك مرارة الاسد .

ومن بعد دخوله واستقراره عمل ديوان عظيم .

وقال لهم انه قد بلغنى ان الاعدا قد شاعوا على باننى مت فانظروا الى وامعنوا النظر هل انا بونابرته ام لا .

فقالوا له يعيش رأسك انت هو بذاتك وصفاتك .

فدخل الى مخدعه واخرج لهم كتابه وقال لهم استخرجوا هذه من اللغة الفرنساويه الى اللغة العربيه واطبعوها وعلقوها فى شوارع المدينه لكى تتطلع عليها جميع اهل مصر ويحيطون علماً بان بونابرته طيب لم يمت الان لانه باقى عليه اخذ ممالك وفتوحات وغزوات كثيره . فاخذوها من يده ودعوا له بالنصر ودوام العز. ثم فسروها من الفرنساوى الى العربى وارسلوها الى المطبعه وطبعوها عربيه وعلقوها على حيطان شوارع المدينة لكى تطلع عليها جميع اهل مصر ويحيطون علماً بان بونابرته طيب لم يمت الآن لانه باقى عليه غزوات كثيره . وهكذا كان يفعل دايماً فى كامل الاخبار التى كان يريد اشاعتها والتخبير لكامل اهل مملكة مصر فكان يقدمها الى الاستخراج من الفرنساوى الى العربى ثم تتقدم الى المطبعه وتتفرق على حكام الخطوط والمذكورين يعلقوها على حيطان الشوارع .

وكان المذكور قد احضر معه مطابع عظيمه من باريس ومن روميه بخمسة لغات عربيه وفرنساويه وتليانيه ويونانيه وسريانيه وحفروا فى مصر احرف فارسيه لاجل طبع كتب واوراق تركيه . واحضر معه ناس رومانيين من روميه الذين كانوا يطبعوا بكل هذه الاحرف .

والكتابه المذكوره التى طبعها وعلقها بالشوارع من بعد وصوله من بر الشام ترى صورتها فى هذا الكتاب وهى هذه .

الجمهور الفرنساوى

من محفل الديوان الخصوصى بمحروسة مصر خطاباً الى اقاليم مصر الشرقيه والغربيه والمنوفيه والقليوبيه والجيزه والبحيره .

النصيحة من الايمان

قال الله تعالى فى محكم القرآن لا تتبعوا خطوات الشيطان . وقال تعالى ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون فعلى العاقل ان يتدبر الامور قبل ان يقع فى المحذور . يخبركم معاشر المومنين انكم لا تسمعوا كلام الكذابين فتصبحوا على ما فعلتم نادمين .

وقد حضر الى محروسة مصر المحميه امير الجيوش الفرنساويه حضرة الجنرال بونابرته محب الملة المحمديه ونزل بعسكره فى العادليه سلماً من العطب والاسقام شاكراً لله موحداً للملك العلام . ودخل الى مصر من باب النصر يوم الجمعة عاشر شهر محرم الحرام سنة الف ومايتين واربعة عشر من هجرته عليه السلام فى موكب كبير عظيم وشنك جليل فخيم وعسكر كثير جسيم وصحبة العلما الازهرية والسادات والبكرية والعنانية والدمرداشية والاحمدية والخضيرية والرفاعية والقادرية والوجاقات السبعه السلطانية وارباب الاقلام الديوانية واعيان التجار المصرية . وكان ذلك يوماً مشهوراً عظيماً لم يقع نظيره فى المواكب السابقة قديماً وخرجت سكان مصر جميعاً لملاقاته فوجدوه هو الامير الاول بونابرته بذاته وصفاته وظهر لهم ان الناس يكذبون عليه شرح الله صدره للاسلام ونظر بعين لطفه اليه .

والذى اشاع عنه الاخبار الكاذبة العربان الفاجره والغز الهاربه ومرادهم بهذه الاشاعة هلاك الرعيه وتدمير الملة الاسلاميه وتعطيل الاموال الديوانيه لا يحبون راحة العبيد وقد ازال دولتهم من شدة ظلمهم . ان بطش ربك لشديد .

وقد بلغنا ان الالفى توجه الى الشرقيه مع بعض المجرمين من عربان بلى والعبايده الفجره المفسدين يسعون فى الارض بالفساد ويذهبون اموال المسلمين . ان ربك لبالمرصاد . ويزورون على الفلاحين المكاتيب الكاذبة الفاجرة ويدعون ان عساكر السلطان حاضره والحال انها ليست بحاضره فلا اصل لهذا الخبر ولا صحة لهذا الاثر وانما مرادهم وقوع الناس فى الهلاك والضرر مثلما كان يفعل ابرهيم بيك فى غزه حين كان ويرسل فرمانات بالكذب والبهتان ويدعى انها من طرف السلطان ويصدقوه اهل الارياف خسفا العقول ولا يقرون العواقب فيقعون فى المصايب . واهل الصعيد طردوا الغز من بلادهم خوفاً على انفسهم وهلاك اعيالهم واولادهم فان المجرم يوخـذ مع الجيران وقد غضب على الظلمه . ونعوذ بالله من غضب الديان .

فكانوا اهل الصعيد احسن عقولاً من اهل بحرى بسبب هذا الراى السديد .

ونخبركم ان احمد باشا الجزار سموه بهذا الاسم لكثرة قتله الانفس ولا يفرق ما بين الاخيار والاشرار وقد جمع الطموش الكثيره من عسكر العثملى ومن الغز والعرب واسافل العشيره وكان مراده الاستيلا على مصر واقاليمها واحبوا اجتماعهم عليه لاخذ اموالها وهتك حريمها ولكن لم تساعده القدره . والله يفعل ما يشا ويختار الطاف خفيه والكلام على صفو النيه .

وقد كان ارسل بعض هذه العساكر الى قلعة العريش ومراده يصل الى قطيه فتوجه حضرة صارى عسكر امير الجيوش الفرنساويه كسر عسكر الجزار الذين كانوا فى العريش ونادوا الفرار الفرار بعد ما حل باكثرهم القتل والدمار وكانوا نحو ثلثة الاف وملك قلعة العريش واخذ ما فيها من ذخاير الجزار .

ثم توجه صارى عسكر الى غزه فهرب من كان فيها من عسكر الجزار وفروا منها كما يفر من الهرة العصفور والفار ولما دخل قلعة غزه نادا فى رعيتها بالامان وامر باقامة الشعاير الاسلاميه واكرم العلما والتجار والاعيان . ثم انتقل الى الرمله واخذ

ما فيها من ذخاير الجزار من بقسماط ورز وشعير وقرب اكثر من الفين قربه كبار كان جهزها الجزار لذهابه الى مصر ولكن لم تساعده الاقدار .

ثم توجه الى يافا وحاصرها ثلثة ايام ثم اخذها واخذ ما فيها من ذخاير الجزار بالتمام ومن نحوسات اهلها انهم لم يرضوا بامانه ولم يدخلوا تحت طاعته واحسانه فدور فيهم السيف من شدة غيظه وقوة سلطانه وقتل منهم نحو اربعة الاف او يزيدون بعد ما هدم صورها فعل الله الذى يقول للشى كون فيكون واكرم من كان من اهل مصر واطعمهم وكساهم وانزلهم فى المراكب الى مصر وغفرهم بعسكره خوفاً من العربان واجزل عطاياهم وكان فى يافا نحو خمسة الاف من عسكر الجزار هلكوا جميعاً وبعضهم ما نجاه الا الفرار .

ثم توجه من يافا الى جبل نابلس فكسر من كان فيها من العساكر بمكان يقال له قاقون وحرق خمسة بلاد من بلادهم وما قدر الله كان سبحان مالك الملك الحى القيوم .

ثم اخرب صور عكا وهدم قلعة الجزار التى كانت حصينه ولم يبق فيها حجر على حجر حتى انه يقال كان هنا مدينه وقد كان بنا حصارها وشيد بنيانها فى نحو عشرين سنة وظلم فى بنيانها عباد الله وهكذا عاقبة بنيان الظالمين .

ولما توجه اليه اهل بلاد الجزار من كل ناحية كسرهم كسره شنيعه فهل ترى لهم من باقيه نزل عليهم كصاعقه من السماء . فان قال الشام لما قلنا كما تم .

ثم توجه راجعاً الى مصر المحروسة لاجل سببين الاول انه وعدنا برجوعه الينا بعد اربعة اشهر والوعد عند الحر دين والسبب الثانى انه بلغه ان بعض المفسدين من الغز والعربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور فى بعض الاقاليم والبلدان . فلما حضر سكنت الفتنه وزالت الاشرار مثل زوال الغيم عند شروق الشمس وسط النهار . فان همته العليه واخلاقه الرضيه متوجهة فى البكره والعشيه لا زالت الاشرار الفجرة من الرعيه وحبه لمصر واقليمها شي عجيب ورغبته فى الخير لاهلها ونيلها وزرعها

بفكره وتدبيره المصيب يحب الخير لاهل الخير والطاعه ويرغب ان يجعل فيها احسن التحف والصناعه .

ولما حضر من بر الشام احضر معه جملة اسارى من خاص وعام وجملة مدافع وبيارق اغتنمها فى الحروب من الاعداء والاخصام فالويل ثم الويل لما عاداه والخير كل الخير لمن والاه .

فسلموا يا عباد الله لقضا الله وارضوا بتقدير الله فان الارض لله وامتثلوا لاحكام الله فان الملك لله يوتيه من يشا من عباده هذا هو الايمان بالله ولا تسعوا فى سفك دمايكم وهتك اعيالكم ولا تتسببوا فى قتل اولادكم ونهب اموالكم ولا تسمعوا كلام الغز الهاربين الكاذبين ولا تقولوا ان فى الفتنه اعلا كلمة الدين حاشا لله لم يكن فيها الا الخذلان التام وقتل الانفس وذل امة النبى عليه السلام .

والغز والعربان يطمعونكم ويغروكم لاجل ان يضروكم فينهبوكم . واذا كانوا فى بلد وقدمت عليهم الفرنساويه يفروا هاربين منهم كانهم جنود ابليس .

ولما حضر صارى عسكر الى مصر اخبر اهل الديوان من خاص وعام انه يحب دين الاسلام ويعظم النبى عليه السلام ويحترم القران ويقرا فيه كل يوم باتقان وامر باقامة شعاير المساجد الاسلاميه واجرا خيرات الاوقاف السلطانيه وسلم العوايد الوجاقليه وسعى فى حصول اقوات الرعية . فانظروا هذه الالطاف والمزيه ببركة نبينا اشرف البريه وعرفنا انه مراده يبنى لنا مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له فى الاقطار وانه يدخل فى دين النبى المختار عليه افضل الصلوه والسلام .

السيد خليل البكرى نقيب السادات الاشراف .

الفقير عبد الله الشرقاوى ريس الديوان .

الفقير محمد المهدى كاتم سر الديوان .

الفقير مصطفى الصاوى خادم العلم .

الفقير سليمان الفيومى خادم العلم .

على كاخيه باش اختيار مستحفظان .

يوسف باش جاويش تفكجيان .

السيد احمد المحروقى .

طبع بمطبعه الفرنساويه العربيه بمصر المحروسة .

ثم فيما امير الجيوش بونابرته فى ذلك دخلت عليه الهجانه من مدينة اسكندريه بها يخبروه عن قدوم العماره العثمانيه وعدت مراكبها وانهم حالاً حاصروا قلعة ابو قير وتملكوها وكان فيها نحو ماية عسكرى صلدات فبالحال والساعه نهض امير الجيوش بونابرته عن صفرة الطعام وفرق اوراق العلم بذلك على كامل الجنراليه اصحاب الديبزونات الكبار ومنهم الجنرال ميراد البطل الشجاع وسار على مدينة اسكندريه واهل البلاد لم عندهم اطلاع بذلك لحينما وصل الى رشيد وارسل الى الجنرال كليبير فى دمياط فالمذكور حالاً جهز عسكره وسار الى اسكندريه عن طريق البرلس فهذا ما كان من امر الفرنساويه .

فلنرجع الى ما كنا فى صدده وهو انه حينما وصلت العماره العثمانيه الى ابو قير حاربت القلعة التى هناك واخذوها واسروا بعضاً وقتلوا بعضاً وهرب منهم بعضاً ونزلوا الى البر وبنوا متاريس عظيمه ووضعوا عليها ثمانون مدفع كبار وكان عدة العساكر خمسة وعشرين الف وعليهم سارى عسكر مصطفى باشا كوسا وولده وايضاً عثمان خوجه الكرتلى الذى كان سابقا جمركجى رشيد من طرف مراد بيك وحين طلعوا على البر حالاً كتبوا فرمانات الى كامل البلاد بها يهيجوهم على القيام ضد الفرنساويه وحضر لعندهم بعض مشايخ عربان فلبسوهم الاكراك واوعدوهم بالخير وتمكنوا من البر امام اسكندريه وكان امير الجيوش بونابرته حين وصل الى الرحمانيه قرب رشيد ارسل فرمان الى الديوان بمصر وهذه صورته .

لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نخبر محفل الديوان بمصر

المنتخب من احسن الناس واكملهم بالعقل والتدبير عليهم سلام الله ورحمته وبركاته امين .

بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الاشواق اليكم . نخبركم يا اهل الديوان المكرمين العظام اننا وضعنا جماعة من عسكرنا بجبل الطرانه وبعد ذلك سرنا الى اقليم البحيره لاجل ما نرد راحة الرعايا المساكين ونقاصص اعدانا المحاربين . وقد وصلنا بالسلامه الى الرحمانيه وعفونا عفواً عمومياً عن كامل اهل البحيره حتى صاروا اهل هذا الاقليم فى راحة تامة ونعمة عامة وسكنت فتنته واطمانت رعيته .

وفى هذا التاريخ نخبر عن انه وصل ثمانون مركبا كباراً وصغاراً حتى ظهروا بثغر الاسكندريه وقصدوا ان يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البونبه وكلل المدافع النازله عليهم فرحلوا عنها وتوجهوا يرسوا فى ابو قير وابتدوا ينزلوا فى بر ابو قير وانا الان تاركهم وقصدى انهم يتكاملوا الجميع فى البر وانزل عليهم واقتل من لا يطيع وابقى بالحيوة الطايعين منهم واتيكم بهم ماسورين تحت اليسق . لاجل ان يكون فى ذلك شان عظيم فى مدينة مصر .

والسبب فى مجي هذه العماره الى هذا الطرف هو العشم بالاجتماع على المماليك والعربان لاجل نهب البلاد وخراب الاقليم المصرى وفى هذه العماره خلق كثير من المسكوب الافرنج الذين كراهتهم ظاهره لكل من كان موحداً بالله وعداوتهم واضحه لمن كان يومن برسول الله . يكرهون الاسلام ولا يحترمون القران وهم نظراً لكفرهم فى معتقدهم يجعلون الالهة ثلثة . وان الله ثالث تلك الثلثة تعالى الله عن الشركا ولكن من قريب يظهر لهم ان الثلثة لا تعطى القوه وان كثرة الالهة لا تنفع لانه باطل . بل ان الله الواحد هو الذى يعطى النصره لمن يوحده هو الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين المبدد الماحق راى المفسدين المشركين وقد سبق فى علمه القديم وقضايه المستقيم وتقديره العظيم انه اعطا فى هذا الاقليم وقدر وحكم بحضورى الى مصر لاجل تغييرى الامور الفاسده وانواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم .

وبرهان قدرته العظيم ووحدانيته المستقيمة . انه لم يقدر للذين يعتقدون ان الالهة ثلثة . قوة مثل قوتنا لانه ما قدروا يعملوا الذى عدناه فنحن المعتقدون وحدانية الله ونعرف انه العزيز القادر القوى القاهر المدبر الكاينات المحيط علمه بالارض وما بالسماوات والقايم بامر المخلوقات هذا ما فى الايات والكتب المنزلات ونخبركم بالمسلمين ان كانوا بصحبتهم فيكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم لوصية النبى عليه افضل الصلاه والسلام . بسبب اتفاقهم مع الكفره الليام لان اعدا الاسلام لا ينصرون الاسلام وياويل من كانت نصرته باعداء الله وحاشا لله ان يكون المستنصر بالكفار مويداً وان يكون مسلماً ساقهم التقدير للهلاك والتدمير مع السفالة والرذاله وكيف يسوغ لمسلم ان ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب ويسمع فى حق الواحد الاحد الفرد والصمد من الكفار فى كل يوم كلام التحريف والاحتقار فلا شك ان هذا المسلم فى هذا الحال هو اقبح من الكافر الاصلى فى الضلال .

نريد منكم يا اهل الديوان ان تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين فى هذه البلدان لاجل ان يمتنعوا اهل الفساد من الفتنة بين الرعيه فى ساير الاقاليم والبلاد . لان البلد التى يحصل فيها الشر يحصل لها مزيد الضرر والقصاص فانصحوهم يحفظوا انفسهم من الهلاك خوفاً عليهم ان نفعل فيهم كما فعلنا فى اهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب سلوكهم المسالك القبيحة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تحريرا فى الرحمانيه نهار الاحد ١٧ فى صفر سنة ١٢١٤ .

وكان قصد امير الجيوش بونابرته فى هذه الكتابه ترقيد البلاد وعدم الشلش ولكن مع هذا كله كانوا المسلمين عارفين يقيناً ان هذه الكتابه كاذبه وان العماره هى عثمليه لا ريب فيها لان بيلورديات مصطفى باشا وعثمان خوجه املت ارض مصر . فبالاقتصار نقول ان بونابرته ما زال ساير فى طريقه حتى وصل الى ابو قير وكشف العساكر وجمع الجنراليه وقال لهم كيف التدبير فى حرب هولاء فقال له الجنرال ميراد ان عساكرنا غالبها مشاه فاذا هجمت على المتاريس فيفنونا بمدافعهم الثقال .

ولكن ان كنت تريد ايها الجنرال فانا اتقدم بعسكرى الخياله امام الصفوف والمشاه من وراى واهجم بخيلى على المتاريس فيطلقوا علينا المدافع فتحكم كللها بالخيل وتسلم الرجال ونكبس على مدافعهم كبسه واحده فناخذ المتاريس وبهذه الحيله ايها الامير نتنصر عليهم فعجب هذا الراى لامير الجيوش وقال له رايك سديد ايها الجنرال وهكذا يكون وعلى هذا الاسلوب رتبوا الصفوف وتقدم الجنرال ميراد بالخيل كما وصف وهجم فضربت المدافع فقتلت الخيل وهجمت الصفوف على المتاريس هجمه واحده فملكوها ودوروها على العرضى ووقع الطعن والضرب وكان يوم مهول . فمنهم من القا نفسه فى البحر واختنق ومنهم سبح وعام وطلع الى المراكب والذى قتل قتل ومسكوا ثمانماية اسير واحد الصلدات هجم على خيمة مصطفى باشا واراد قتله دون معرفه فقالوا له هذا الباشا صارى عسكر العماره فرفع يده عنه ولكن كان ضربه فى طرف السيف فقطع احد اصابعه وحين نظر انه هو الكبير فاخذه وقدمه الى امير الجيوش بونابرته وافهمه وتوجه معه ابنه والذين كانوا فى خيمته . فحين عرفه امير الجيوش اكرمه غاية الاكرام واخذ منديلاً رفيعاً من عبه وربط اصبعه المجروح وقدم له كل موانسه وحين فرغ الحرب وتم كل شى ارسلوا جانب اسرا الى اسكندريه وارسل جانب اسرا الى مصر .

وحينئذ الجنرال دوكا قيم مقام مصر قدم هذه الكتابه الى الديوان بمصر يخبره عن كسرة العماره الوارده من اسلامبول الى اسكندريه واخذ قلعة ابو قير منهم واهل الديوان علقوها بالشوارع وهى هذه .

بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الاشواق اليكم لا يخفاكم انه قد وصلنى الخبر الصحيح بان العساكر الفرنساويه ملكت قلعة ابو قير فى اربعة عشر يوم من شهر ترميدور الموافق لغاية شهر صفر سنة ١٢١٤ وانهم استاسروا فيها ثلثة الاف نفس ومن جملتهم ابن مصطفى باشا وغاية ما وقع ان العماره التى نزلت فى ابو قير كانت خمسة عشر الف عسكرى وان الجميع تلاشوا وهلكوا ولم يخلص منهم احداً . ثم اخبركم عن

لسان حضرة السارى عسكر الكبير بونابرته انكم بالحال تشهروا هذا الخبر بين الخاص والعام وتظهروه فى جميع اقاليم مصر لان فيه الفرح والسرور والزمكم انكم تعرفونى بالحال عن اشهار هذا الخبر سرعه واخبركم ايضاً ان حضرت السارى عسكر الكبير بونابرته عن قريب يحضر اليكم والله تعالى يحفظكم والسلام .

تحريراً فى ٢٢ ترميدور سنة ٧ الموافق الى سبعة شهر ربيع الاول سنة ١٢١٤ .

الفقير الشيخ عبد الله الشرقاوى ريس الديوان .

الفقير الشيخ محمد المهدى كاتم سر الديوان .

ثم فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول واما عثمان خوجه فهذا المذكور بقى فى قلعة ابو قير والفرنساويه محاصرينه اربعة ايام وحين ارموا عليه البونبات وهدموا جانب من القلعة وقتل من الذين داخل القلعة جملة اناس فالتزم عثمان خوجه المذكور ومن معه سلموا القلعه واخذوهم اسارى وارسلوا عثمان خوجه بالقيد الى بندر رشيد وهناك دوروه فى البلد ثلثة ايام مجرص بكل اهانه ثم اخذوا فتوه فى قتله من الحاكم الشرعى برشيد .

هذا صورة حكم الشرع الشريف الذى صدر من اهل محكمة رشيد دام جلالها على عثمان خوجه فهو خطاباً الى حضرة الجنرال الحاكم فى البلد المذكوره مورخ بتاريخ اربعة وعشرين من شهر ترميدور سنة السابعه من اقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى اليوم الثامن من شهر ربيع الاول سنة ١٢١٤ .

وصل لنا مكاتيبكم بالامر اننا نستخبر ونكشف على جميع الاعمال التى حصلت من طرف عثمان خوجه كريدلى وننظر ان حصل منه الشر اكثر من الخير وبموجب هذا الامر بحضور حضرة سيدنا شيخ الاسلام العالم المتورع الشريف احمد الخضارى مفتى حنفى . ونقيب الاشراف المكرم المحترم الشريف بدوى وقدوة الاعيان الحاج احمد اغا السلدار والمكرم على جاويش كتخدا وقدوة التجار احمد شحال والمكرم سليم اغا والمكرم ابراهيم الجمال والشريف ابرهيم سعيد والمكرم محمد الغارم والحاج

باش سالمان وبحضور جماعة المسلمين خلاف المذكورين اعلاه . حضر رمضان حموده ومصطفى الجيار واحمد جاويش عبد الله والحاج حسن ابو جورى والحاج بدوى المقرال وعلى بوزداده وبدوى دياب وحسن عرب . وثبت من اقرارهم ومن شهادتهم ان عثمان خوجه المذكور كان ظلمهم ظلماً شديداً بالضرب والحبس من غير حق ونهب الاملاك بتاعهم وخلاف ذلك سيل من جماعة المسلمين الحاضرين فى المجلس ان كان حصل من طرف عثمان خوجه الشر اكثر من الخير وكلهم قالوا بلسان واحد ان حصل من طرف عثمان المذكور الشر اكثر من الخير وبسبب ذلك انقطع راس عثمان خوجه حاكم رشيد سابقاً .

مطابق لاصله وممضى باسم حاكم رشيد والاثنين .

طبع بمطبعة الفرنساويه العربيه بمصر المحروسة .

ثم ان العساكر الفرنساويه رجعت الى مصر بنصر عظيم ورجع امير الجيوش وصحبته مصطفى باشا كوسا مع ابنه وبعض اتباعه وحصل قهراً عظيما عن ذلك عند المصريين بانكسار هذه العماره .

فعرف ذلك امير الجيوش بونابرته وحين دخلت العلما عليه لكى يهنوه بقدومه . فقال لهم كنت اظنكم ايها المصريون انكم تحبونى وتفرحوا بنصرتى وتحزنوا لحزنى والان رايتكم بضد ذلك فانا قدمت لكم كل محبه وقلت لكم اننى انا احب النبى محمد وذلك لكون انه كان بطل صنديد نظيرى وصاحب فتوحات فذاك غزى عشرون غزوه واما انا غزوت وامامى غزوات كثيره وسوف تشاهدوا وتسمعوا والان انتم متضجرين من الفرنساويه ومقهورين فسوف ياتيكم زمان الذى به تفتشون على عظام الفرنساويه .

وتبكون عليها ومثل هذا الكلام وغيره كلمهم به عدة امرار . وكان فى مدة اقامته فى مصر دايماً يكلمهم باللسان ويكتب لهم اوراق ويعلقها على حيطان المدينه بالاسواق لكى يقراها الشارد والوارد وكان يوعدهم بالاسلام وبناية جامع باسمه وبكل خير

يتعلق بالامة الاسلاميه . واما هم فكانت قلوبهم غير امنه ولا مطمانه وكانوا يقولوا كل هذا خداع ومخاتله لبينما يتملك واما هو نصرانى ابن نصرانى .

وفى خمسة وعشرين ربيع عمل لهم مولد النبى بشنك عظيم بزياده عما كان يصير فى مدة الغز . وكانت فى كل مواسم الاسلام والاعياد والموالد وجبر بحر النيل تصنع الفرنساويه احتفالاً عظيماً وتضرب مدافع كثيره وحراقات عظيمه التى ما كانت تصير فى مدة الاسلام وكل ذلك لكى يجذبوهم الى محبتهم . واما هم كما اشرنا سابق كانت قلوبهم نافرت منهم مع ان غالب الفرنساويه واكثرهم كانوا اشهروا ذواتهم بالاسلام وبدوا يتعلموا العربيه ويدرسوا الكتب والقران الشريف وكانت بيوتهم مشحونة من بنات الاسلام ونسايهم لا سيما من الجوارى البيض الذين كانوا فى بيوت الغز المماليك واما الجوار السود فكانوا بزياده وكانوا يلبسوهم كسم بلاد الافرنج ويركبوهم الخيل ويدوروا فى المدينة مكشوفين الوجوه جهاراً وكانت حريت مطلقه الى جنس النسا والبنات وخرجت النسا من بيوتهم خروجاً عظيماً لكون ان الجنس الفرنساوى له مداخله وموانسه ومسايره لجنس النسا بنوع اخر عن باقى الجنوس الموجوده فى العالم باسره .

ثم استقام امير الجيوش فى مدينة مصر من بعد حضوره من وقعة اسكندريه الى شهر ربيع اخر سنة ١٢١٤ واسكن مصطفى باشا مع وارفاقه فى محل وعين له العلايف والجرايات وعلق المكاتبة على يد المذكور مع الدولة العثمانية وكان فى ذلك الوقت ظهر خبر خروج سعادة الوزير الاعظم من مدينة اسلامبول وانه قادم بعساكر وجيوش على مملكة مصر فعلق ايضاً المكاتبه لسعادة الوزير على يد مصطفى باشا المشار اليه ومضمون ذلك عقد الصلح والسلام وتسليم مملكة مصر الى الدولة العثمانيه وتوجه بهذه المكاتبه رجال من طرف مصطفى باشا وكان الوزير الاعظم يوسف باشا فى طريق حلب .

وبعد ان علق المكاتبه امير الجيوش كما اشرنا ففى نصف ربيع الاخر سنة ١٢١٤ ركب بعسكره الخاص الخياله لباسين الاخضر نحو ثلثماية خيال وادعى انه مراده يتفرج

على اقليم المنوفيه وسار وما زال ساير حتى وصل الى اسكندريه وكان صحبته الجنرال ميراد حاكم اقليم القليوبيه والجنرال اسكندر برتيه الذى كان وزيره ومدبر ثانى له وبعض كومنضاتيه وفسياليه واقام فى اسكندريه مدة خمسة ايام ودعا سارى عسكر الانكليز الذى كان واقف فى بوغاز اسكندريه وصنع له وليمه عظيمه وقدم له هديه مفتخره وكان قد هيا سراً ثلثة مراكب وجهزها بقومانيه وجبخانه ونزل ليلاً واقلع فى المراكب وفى صباح ذلك اليوم اخذت خبر الانكليز وجدت فى طلبه حتى وصلوا الى جزيرة سيسيليا .

ومن هناك نفد امير الجيوش المشار اليه ودخل الى بلاد فرنسا . فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول انه حينما نوى امير الجيوش على السفر سراً فكتب الى الجنرال كليبير الذى كان فى مدينة دمياط واقامه عوضاً عنه امير جيوش الفرنساويه فى مملكة مصر وكان هذا الجنرال مدبر عظيم ولا سيما فى امور الحرب وارشده الارشاد الكلى فى كيف يكون سيره فى مدة غيابه وعرفه انه علق مكاتبة الصلح ما بينه وبين الدولة العثمانيه وذلك على يد مصطفى باشا الماخوذ اسير بمصر وكذلك عرفه عن المكاتبه الذى صدرت منه الى الوزير الاعظم بعقد الصلح والتسليم وارشده ان يحادف الامور مقدار اربعة اشهر فان كان لم يحضر له فى هذه المسافة معونه ومساعده من فرانسا فيعقد صلحاً تاماً بما يقتضيه نظره ومعرفته بحيث تخرج الفرنساويه من مدينة مصر بشرفهم سالمين غانمين وان كان يحضر له اسعاف وامداد من بونابرته بعد توجهه او فى وصوله ففى ذلك الوقت يضادد ويحارب مقدار جهده لكامل من يقصد حربه .

فحين وصلت هذه المكاتبه الى الجنرال كليبير فنهض بالحال وحضر من دمياط الى مدينة مصر وكان حزناً عظيماً عند جميع الفرنساويه فى غياب بونابرته لان جيوش الفرنساويه كانوا عاشقين بونابرته كما تعشق الرجال النسا لانهم كانوا مستبشرين به والمشار اليه ابقا لهم كتابات خصوصيه التى بهـا يوعدهم بالامداد ويقويهم ويشددهم ففى حين وصول الجنرال كليبير الى مصر عقد ديوان عظيم ودعا اليه كامل الجنراليه

والكومنضاتيه والفسياليه وباق الجيوش الفرنساويه وقرى عليهم كتابة امير الجيوش بونابرته فبكوا جميعهم وبكى الجنرال كليبير . وبعد ذلك هنوه وباركوا له بالامرية وضربت المدافع .

وثانى يوم عقد ديوان آخر ودعا به العلما واغاة الانكشاريه والوالى والمحتسب والوجاقات وباق الحكام وارباب العكاكيز وقرى عليهم الكتابه التى هى خطاباً من بونابرته وهى هذه .

من محفل الديوان الخصوصى خطاباً لساير الاقطار المصرية والاقاليم من الجهات القبليه والبحريه وكامل رعاياها وفقهم الله آمين .

نخبركم انه حضر الى الديوان مكتوب من حضرة صارى عسكر دوكا قيمقام مصر المحميه حالاً مضمونه ان حضرة صارى عسكر الكبير بونابرته امير الجيوش الفرنساويه توجه وسافر الى بلاد الفرنساويه لاجل حصول الراحة الكاملة الى الاقطار المصريه كانه حضر له استعجال من الجمهور فى بلاده لطول غيابه عنهم واخبرنا صارى عسكر دوكا بان صارى عسكر الكبير قبل سفره اقام بدله رجلاً عاقلاً كاملاً فى الحكم فيه شفقه ورحمه على الرعيه واقامه اميراً على الجيوش الفرنساويه عوضه وفيه حسن التدبير. هكذا اخبرنا قيمقام بذلك واخبرنا اننا نكون فى غايه الطمان والامان على ديننا واعراضنا ومتاجرنا واموالنا واسباب معايشنا كما كنا فى زمان حضرة صارى عسكر الكبير وزياده . فننصحكم ايها الرعايا انكم لا تطيعوا اهل الفساد وتتركوا الفتن والعناد وتمتثلوا امر خالق العباد والسلام . ختام .

الفقير السيد خليل افندى البكرى نقيب الاشراف حالاً

الفقير عبد الله الشرقاوى ريس الديوان

الفقير محمد المهدى كاتم سر الديوان حالاً

الفقير مصطفى الصاوى الشافعى

الفقير سليمان الفيومى المالكى

السيد احمد المحروقى

الفقير على كتخده مجرلى باش اختيار مستحفظان .

الفقير يوسف باش جاويش تفكجيان .

لطف الله المصرى .

يوسف فرحات .

جبران السكروج .

وولمار .

بودوف .

زلفقار كتخده كوميسار الاسلام .

نظر وعلم وكيل الفرنساوى جلوتيه .

طبع بمطبعة الفرنساويه العربيه بمصر المحروسة .

ثم بعد ما قرى عليهم هذا الفرمان حينيذ هنوا السارى عسكر كليبير بالامرية واوصاهم الوصية التامة على البلد واوعدهم بكل راحه طالما هم مطيعين اوامر المشيخه الفرنساويه ونزلوا من قدامه وهم مختشين خايفين هايبين سطوته . لان هذا الجنرال المشار اليه كان مهاباً جداً كما ذكرنا عنه سابقاً نظراً الى قده وقامته وخشانة صوته .

وكان سفر امير الجيوش بونابرته فى خمسة وعشرين ربيع اخر سنة ١٢١٤ ووصل الجنرال كليبير الى مصر فى اول شهر جماد الاول سنة تاريخه ورقدت البلاد من الهيجان فى مدة هذا الامير لان من طبعه يحب السكون والهدو وثقل الراس ووقع له هيبه فى كل البلاد .

وكان قبل حضوره اقام عوضاً عنه فى مدينه دمياط الجنرال برديه ففى مدة هذا الجنرال المذكور فى دمياط كانت العماره العثمانية التى فرغت عساكر مصطفى باشا على ابو قير رجعت الى بر الترك واشحنت عساكر واقبلت على بوغاز دمياط وفى ذات ليلة نصف الليل بدرى بدت ترمى العساكر على البر فحضر الخبر من العزبه الى

دمياط فركب برديه وقت السلام بجانب صلدات مقدار خمساية نفر وسحب المدافع وقبل شروق الشمس قابلهم على ساحل البحر فوقع الحرب بينهم وكانت العساكر التى طلعت على البر نحو ثلثة الاف واشتد الحرب بينهم فانكسرت عساكر الترك فمنهم من رجع الى البحر ومنهم من قتل ومسكوا ثلثماية اسير بالحيوه واقامت الحرب كانت ساعتين فقط وكانت مراكب الانكليز تضرب كلل على عساكر الفرنساويه لكى يرجعوهم عن عسكر الترك . وحضر بالاسارى الى دمياط وعمل شنك عظيم لانتصاره واعلم بذلك الجنرال كليبير ومن بعد يومين قامت العمارة عن بوغاز دمياط وسافرت وكانت الفرنساويه مسكوا رجل كبير من جملة الاسرا وهو الدورناجى باشى وكان مجروح جرح بليغ فمن بعد كم يوم مات من جرحه فعملت الفرنساويه له مناحه عظيمه مع اهل البلد بموكب عظيم امام نعشه لان هذه كانت عوايدهم فهذا ما كان فى دمياط والوقعة التى صارت مع الجنرال ديزه .

ثم بدت الاخبار تتوارد فى حضور الوزير الاعظم على طريق بر الشام ووصل الى مدينة دمشق بجيش عظيم وبدت فرماناته تتوار الى الاقطار المصرية واذ كان امير الجيوش بونابرته علق كتابات الصلح مع الوزير الاعظم على يد مصطفى باشا كما ذكرنا . فابتدى امير الجيوش كليبير يرسل ويكاتب الوزير حكم ارشاد بونابرته له واستقامت المراسله على يد مصطفى باشا من الجنرال كليبير الى الوزير جماد اول وجماد ثانى ورجب واشتهر فى الاقطار المصريه والشاميه امر الصلح وشاع عند جميع العساكر الاسلاميه والفرنساويه .

وكان فى قلعة العريش الجنرال غزال فجات العساكر العثمانيه الى تحت القلعه وبدوا يتسايروا مع الفرنساويه الموجودين بها ويتكلموا معاهم ويقولوا لهم نحن صلح سوى سوى فامنوا لبعضهم وصاروا ينزلوا لعند بعضهم . فاقتضى راى الجنرال الذى فى القلعه ان يصنع ضيافه الى سارى عسكرهم الذى هو رجب باشا فدعاه ذات يوم الى القلعه وانه يحضر بمقدار عشرة انفار فقط فالمشار اليه كان ضامر على اخذ القلعه

فاوصى عساكره انه متى فتحوا باب القلعه ودخلت انا فاهجموا من وراى وبهذه الواسطه نملك القلعه وكان الامر كما ذكر لانه حين دخل رجب باشا ومن معه هجمت العساكر على باب القلعه وكان امام باب القلعه جسر وتحته خندق والجسر حين يريدوا يضعوه وحين يريدوا يرفعوه بالحبال . فلاجل ذلك انهم حينما فتحوا الباب ووضعوا الجسر ما عادوا ملكوا يرفعوه اذ هجم عليه العسكر وحين دخلوا دار ضرب السيف والحرب بينهم فحين نظر احد الفرنساويه هذه الخيانه حالاً القا ناراً فى الجبخانه فشالت النار فى القلعه واحترق جملة خلق ووقع باب القلعه ومات رجب باشا ومات من الفرنساويه اناس والذى بقى اخذوهم اسارى ومقدارهم مايه نفر وكان جملة الذين فى القلعه من الفرنساويه ثلثمايه صلدات .

وحضر الخبر الى مصر لامير الجيوش كليبير وهاجت الفرنساويه وكانوا الذين فى مراسلة الصلح اثنين افنديه من طرف الوزير الاعظم واثنين من طرف امير الجيوش احدهم الجنرال ديزه الذى كان فى اقليم الصعيد والثانى بوسلج الذى كان مدبر الحدود فى مشيخة الفرنساويه وهذا كانت جميع الاقلام الميريه وحسابات البلاد بيده وكانوا يدعونه اهل مصر الوزير اى وزير المشيخه الفرنساويه وهذا الاسم كان مشاع عليه . فهولاء الاثنين كانوا مراسيل الجنرال كليبير بالصلح وذلك لاجل عقد الشروط واستقامة هذه المراسله اربعة اشهر لحينما تمموا شروطهم الفرنساويه وختم عليها سعادة الوزير الاعظم وريس افندى وشهد عليها الجنرال سميت سارى عسكر عمارة الانكليز لان المذكور كان عند سعادة الوزير فى ذلك الوقت وكان هو الواسطه بتتميم الصلح ما بين سعادة الوزير وما بين امير الجيوش ومن بعد ختمها من الوزير الاعظم ختم عليها امير الجيوش كليبير .

هذا ما كان عن امر الشروط وتمامها فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول انه حين بلغ امير الجيوش الفرنساويه اخذ قلعة العريش على الصوره التى ذكرناها فاعتجب غاية العجب من هذه الخيانه . وبالحال نبه على العساكر وعمل ديوان واخبرهم بما حصل وجمع ديوان العلما ومن الجمله كان مصطفى باشا . وقال لهم انا

متوجه لحرب الوزير الاعظم . واوصاهم الوصية التامة على حفظ البلد وركب بعساكره وسار على الصالحيه وكانت العساكر العثمانيه فى قلعة العريش والعرضى من مدينة يافا الى العريش . واما الفرنساويه فكانوا من قطيه الى الصالحيه وبلبيس لحدود مصر وحين وصل امير الجيوش الى الصالحيه دخلت الوسايط وقالوا ان مادة العريش ليست هى بعلم الوزير واطفوا نار الشر . ولكون ان امير الجيوش عرف حقيقة الحال بان العساكر الفرنساويه طالبه السفر الى بلادها ولا هى طالبه الحرب . لان الميعاد الذى اعطاه لهم بونابرته انتهت ايامه ولا حضر لهم من طرفه امداد كما اوعدهم فلاجل ذلك كانوا طالبين السفر وامير الجيوش كليبير نظر منهم عين الولس على انفسهم لكون فى وقت واحد اخذت قلعة العريش بولس كومنضتها اذ انه فتح باب القلعه لاعداه من غير امر عسكرى عسكره الكبير ثانياً الذين كانوا فى قلعة قطيه نهضوا على الكومنضا الذى هناك وقالوا له نرجع الى ارض مصر ثالثاً الجنرال الذى كان حاكم دمياط فى ذلك الوقت جمع العسكر وطلبهم يتوجهوا الى قطيه حسب امر السارى عسكر فدقوا ارجلهم على الارض وصاحوا بصوت واحد قايلين لا نذهب الى الحرب ابداً رابعاً الذين فى اسكندريه نظروا بعض من الفرنساويه توجهوا الى فرانسا بامر السارى عسكر مثل كوميساريه واناس كبار فهاجوا عليهم واوقفوهم عن السفر وقالوا لهم اما نموت سوية واما نسلم سوية انتم عمالين تهربوا واحد بعد واحد وترمونا نحن الصلدات الصغار فى هذه الغربه فغير ممكن اننا ندعكم تروحوا خامساً احد الجنراليه كان نواحى السيد البدوى وهو جايز بالطريق التقا بجملة عساكر من عربان وفلاحين نحو عشرة الاف فضربوا عليه الرصاص واحترشوا به واما هو فما ارتضى ان يحرك ساكن مع ان عسكره كان نحو ثلثة الاف وكانوا قادرين ان يضربهم بخمسماية صلدات حكم عوايدهم ولكن ما ارتضى ان يحاربهم متقصداً ذلك .

فكل هذه الاخبار تواردت الى امير الجيوش بوقت واحد ومنها فهم جيداً ان العسكر الفرنساوى فى مملكة مصر غير ممكن انه بقى يحارب ابداً فلاجل ذلك بعد

وصوله للصالحيه كما ذكرنا انفاً قبل الصلح وختم على الشروط كما ذكرناه سابقاً وختم الشروط كان فى حدود العريش والذين ختموا عليه ريس افندى ديوان الدولة العليه وراشد افندى والاثنين من طرف الدولة العثمانيه ومن طرف الفرنساويه الجنرال ديزه جنرال متفرقه ومدبر الحدود بوسلك وهذه الشروط كانت واحد وعشرين شرط فى اللغة العربيه مطبوعه وفى اللغة التركيه وفى اللغة الفرنساويه ثلثة لغات والختم على الشروط كان فى ثمانية وعشرين شهر شعبان سنة ١٢١٤ .

وهى هذه .

ان الجيش الفرنساوى بمصر عند ما قصد ان يوضح ما فى نفسه من وفور الشوق لحقن الدما ويرى نهضات ونهاية الخصام المضر الذى حصل ما بين المشيخة الفرنساويه والباب الاعلى فقد ارتضى ان يسلم بخلو الاقليم المصرى حسب هذه الشروط الاتى ذكرتها بامل ان بهذا التسليم يمكن ان ينجه ذلك الى الصلح العام فى بلاد الغرب قاطبة .

الشرط الاول

ان الجيش الفرنساوى يلزمه ان يتنحى بالاسلحة والعزال والامتعه الى اسكندريه ورشيد وابو قير لاجل ان تتوجه وتنتقل بالمراكب الى فرانسا ان كان ذلك فى مراكبهم الخاص بهم ام فى تلك التى يقتضى للباب الاعلى ان يقدمها لهم بقدر الكفايه ولاجل تجهيز المراكب المذكوره باقرب نوال فقد وقع الاتفاق ان من بعد مضى شهر واحد من تقرير هذه الشروط يتوجه الى قلعة اسكندريه نايب من قبل الباب الاعلى وصحبته خمسون نفر .

الشرط الثانى

فلا بد عن المهله وتوقيف الحرب بمدة ثلثة اشهر بالاقليم المصرى وذلك من عهد امضا الشروط والاتفاق هذه واذا صادف الامر ان هذه المهلة من ذى قبل ان

المراكب الواجب تجهيزها من قبل الباب الاعلى تحضر جاهزت فالمهلة المذكوره يقتضى مطاولتها الى ان ينجز الرحيل على التمام والكمال ولمن الواضح انه لا بد عن اصراف الوسايط الممكنة من قبل الفريقين لكيلا يحصل ما يمكن وقوعه من السجن ان كان ذلك للجيش ام لاهل البلاد اذ كانت هذه المهلة قد حصل الاتفاق بها لاجل راحتهم .

الشرط الثالث

فرحيل الجيش الفرنساوى يقتضى تدبيره بيد الوكلا المقامين لهذه الغاية من قبل الباب الاعلى وسارى عسكر كليبير واذا حصل خصام ما بين الوكلا المذكورين بوقت الرحيل فى هذا الصدد فينتخب من قبل حضرة سيدنهى سميت رجل لينهى المخاصمات المذكوره بحسب قواعد السياسة البحرية السالكون عليها فى بلاد الانكليز .

الشرط الرابع

فقطيه والصالحيه لا بد عن خلوهما من الجيش الفرنساوى فى ثامن يوم واعظم ما يكون فى عاشر يوم من امضا شروط الاتفاق هذه . ومدينة المنصوره يكون خلوها من بعد خمسة ايام واما دمياط وبلبيس من بعد عشرين يوم . واما السويس فيكون خلوه ستة ايام قبل مدينة مصر واما المحلات الكاينة فى الجهة الشرقيه من بحر النيل فيكون خلوه فى اليوم العاشر . والدلطا اى الاقاليم البحرية يكون خلوها خمسة عشر يوم من بعد خلو مصر . ولكن من حيث انها لا بد ان تستمر بيد الفرنساويه الى ان يكون انحدر العسكر من جهات الصعيد . فجهة الغربيه وتعلقاتها كما ذكر لممكن انه لا يتيسر خلوها الا من بعد انقضا وقت المهلة المعين اذا لم يمكن خلوها قبل الميعاد والمحلات التى تترك من الجيش فتتسلم الى الباب الاعلى كما هى فى حالها الان .

الشرط الخامس

ثم ان مدينة مصر ان امكن ذلك يكون خلوها بحر اربعين يوم واكثر ما يكون بمدة خمسة واربعين يوماً من وقت امضا الشروط المذكوره .

الشرط السادس

انه لقد وقع الاتفاق صريحاً على ان الباب الاعلى يصرف كل اعتناه فى ان الجيش الفرنساوى الموجود فى الجهة الغربية من بحر النيل عند ما يقصد التنحى بكامل ما له من السلاح والعزال لنحو معسكرهم لا يصير عليه مشقة ولا احد يشوش عليه ان كان ذلك مما يتعلق بشخص كل واحد منهم ام بامتعه او بكرامه وذلك اما من قبل اهل البلاد واما من جهة العسكر السلطانى العثملى .

الشرط السابع

وحفظا لاتمام الشرط المذكور اعلاه وملاحظته لمنع ما يمكن وقوعه من الخصام والمعاداه فلا بد من استعمال الوسايط فى ان عسكر الاسلام يكون دايماً متباعداً عن العسكر الفرنساوى .

الشرط الثامن

فمن بعد تقرير وامضا هذه الشروط فكلمن كان من الاسلام او من باقى الطوايف من رعايا الباب الاعلى بدون تمييز الاشخاص اوليك الواقع عليهم الضبط او الذين واقع عليهم الترسيم ببلاد فرانسا أو تحت امر الفرنساويه بمصر يعطى لهم الاطلاق

والعتق وبمثل ذلك فكل الفرنساويه المسجونين فى كامل البلاد والاساكل من مملكة العثملى وكذلك كامل الاشخاص من ايما طايفه كانت اوليك الذين كانوا فى تعلق خدمة المراسلات والقناصل الفرنساويه لا بد عن انعتاقهم .

الشرط التاسع

فترجيع الاموال والاملاك المتعلقة بسكان البلاد والرعايا من الفريقين ام دفع مبالغ اثمانها لاصحابها فيكون الشروع به حالاً من بعد خلو مصر والتدبير فى ذلك يكون بيد الوكلا فى اسلامبول المقامين بوجه الخاص من الفريقين لهذا القصد .

الشرط العاشر

فلا يحصل التشويش لاحد من سكان الاقليم المصرى من اى ملة كانت وذلك لا فى اشخاصهم ولا فى اموالهم نظراً الى ما يمكن ان يكون قد حصل من الاتحاد ما بينهم وبين الفرنساويه بزمن اقامتهم بارض مصر .

الشرط الحادى عشر

ولا بد انه يعطى للجيش الفرنساوى ان كان من قبل الباب الاعلى او من قبل المملكتين المرتبطين معه اعنى بها مملكة انكليتيره ومملكة مسكوبيه فرمانات الاذن واوراق المحافظه بالطريق وبمثل ذلك السفن اللازمة لرجوع الجيش المذكور بالامن والامان الى بلاد فرانسا .

الشرط الثانى عشر

وعند نزول الجيش الفرنساوى المذكور الكاين بمصر الآن فالباب الاعلى وباقى الممالك المتحدة معه يعاهدون باجمعهم انه من وقت الذى ينزلون بالمراكب الى حين

وصولهم الى اراضى فرانسا لا يحصل عليهم شى قط مما يكدرهم وبنظير ذلك لحضرة الجنرال كليبير سارى عسكر العام يعاهد من قبله وصحبته الجيش الفرنساوى الكاين بمصر بانه لا يصدر منهم مما يأول الى المعاداة على الاطلاق ما دامت المدة المذكورة وذلك لا ضد العماره ولا ضد بلده من بلدان الباب الاعلى وباقى الممالك المرتبطه معه وكذلك ان السفن الذى يسافر بها الجيش المشار اليه ليس لها ان ترسى فى حد من الحدود الا بتلك التى تختص باراضى فرانسا ما لم ذلك فى حادث ما ضرورى .

الشرط الثالث عشر

وبنتيجة ما قد وقع الاتفاق عليه من الامهال المشترط اعلاه بما يلاحظ خلو الاقليم المصرى . فالجهات الواقع بينهم هذا الاشتراط قد اتفقوا على انه اذا حضر فى بحر هذه المدة المذكوره مركب من بلاد فرانسا بدون معرفة غلايين الممالك المتحده ودخل بمينا اسكندرية فلازم عن سفره حالاً وذلك من بعد ان يكون قد تحوج بالماء والزواد اللازم ويرجع الى فرانسا وذلك بسندات اوراق لاذن من قبل الممالك المتحده واذا صادف الامر ان مركباً من هذه المراكب يحتاج الى الترقيع فهذه لا غير يباح لها بالاقامة الى ان ينتهى اصلاحها المذكور وفى الحال من ثمة تتوجه الى بلاد فرانسا نظير التى قد تقدم القول عنها عند اول ريح يوافقها .

الشرط الرابع عشر

وقد يستطيع حضرة الجنرال كليبير سارى العسكر العام ان يرسل خبر الى ارباب الاحكام الفرنساويه فى الحال ولمن يصحب هذا الخبر لا بد ان تعطى له اوراق الاذن بالاطلاق كما يقتضى ليسهل بهذه الواسطة وصول الخبر الى اصحاب الحكم فى فرانسا .

الشرط الخامس عشر

وانه قد اتضح ان الجيش الفرنساوى يحتاج الى المعاش اليومى ما دامت الثلثة الاشهر المعينة لخلو الاقليم المصرى وكذلك لمعاش الثلثة الاشهر الاخرى التى يكون مبداها من يوم نزولهم بالمراكب فقد وقع الاتفاق على انه يقدم له مقدار ما يلزمه من القمح واللحم والرز والشعير والتبن وذلك بموجب القايمه الذى تقدمت الان من وكلا الجمهور الفرنساوى ان كان ذلك مما يخص اقامتهم او ما يلاحظ سفرهم والذى يكون قد اخذه الجيش المذكور مقدار ما كان من شونه وذلك من بعد امضا هذه الشروط فينخصم مما قد الزم ذاته بتقدمته الباب الاعلى.

الشرط السادس عشر

ثم ان الجيش الفرنساوى منذ ابتدا وقوع امضا هذه الشروط المذكوره ليس له ان يفرد على البلاد فردت ما من الفرايد قطعاً بالاقليم المصرى لا بل وبالعكس فانه يخلى الباب الاعلى كامل فرد المال وغيره ممن يمكن توجيه قبضه وذلك الى حين سفرهم وبمثل ذلك الجمال والهجن والجبخانه والمدافع وغير ذلك مما يتعلق بهم ولا يريدون ان يحملوه معهم ونظير ذلك شون الغلال الواردة لهم من تحت المال. واخيراً مخازن الخرج فهذه كلها لا بد عن الفحص عنها وتسعيرها من اناس وكلا موجهين من قبل الباب الاعلى لهذه الغاية ومن امير البحر الانكليزى وبرفقة الوكلا المتصرفين بامر الجنرال كليبير سارى العسكر. وهذه الامتعة لا بد عن قبولها من وكلا الباب الاعلى المتقدم ذكرهم بموجب ما وقع عليه السعر الى حد قدر مبلغ ثلثة الاف كيس التى تقتضى للجيش الفرنساوى المذكور لسهولة انتقاله عاجلاً ونزوله بالمراكب. واذا كانت الاسعار فى هذه الامتعة المذكوره لا توازى المبلغ المذكور

المرقوم اعلاه فالخسس والنقص فى ذلك لا بد عن دفعه بالتمام من قبل الباب الاعلى على جهة السلفه تلك التى يلتزم بوفايها ارباب الاحكام الفرنساويه باوراق التمسكات المدفوعه من الوكلا المعينين من الجنرال كليبير سارى عسكر العام لقبض واستلام المبلغ المذكور .

الشرط السابع عشر

ثم انه كانت تقتضى الجيش الفرنساوى بعض مصاريف لخلوهم مصر فلا بد ان يقبض وذلك من بعد تقرير صك الشروط المذكوره القدر المحدود اعلاه بالوجه الاتى ذكره .

اعنى فمن بعد مضى خمسة عشر يوم خمساية كيس .

وفى غلاق الثلثين يوم خمساية كيس اخرى .

وبتمام الاربعين يوم ثلثماية كيس اخرى .

وعند كمال الخمسين يوم ثلثماية كيس اخرى .

وفى الستين يوم ثلثماية كيس اخرى .

وفى السبعين يوم ثلثماية كيس اخرى .

وعند تمام الثمانين يوم ثلثماية كيس .

وعند غلاق التسعين يوم خمساية كيس اخرى .

وكل هذه الاكياس المذكوره هى عن كل كيس خمساية غرش عثملى . ويكون قبضها على سبيل السلفه من يد الوكلا المعينين لهذه الغاية من قبل الباب الاعلى ولكى يسهل اجرا العمل بما وقع عليه الاعتماد فالباب الاعلى من بعد وضع الامضا على النسختين من الفريقين يوجه حالاً الوكلا الى مدينة مصر وفى بقية البلاد المستمر بها الجيش .

الشرط الثامن عشر

ثم ان فرد المال الذى يكون قد قبضه الفرنساويه من بعد تاريخ تحرير الشروط المذكوره وقبل ان يكون قد اشتهر هذا الاتفاق فى الجهات المختلفة بالاقليم المصرى فقد تخصم من قدر مبلغ الثلثة الاف كيس المتقدم القول عنها .

الشرط التاسع عشر

ثم انه لكى تسهل خلو المحلات سريعاً فالنزول فى المراكب الفرنساويه المختصة بالحموله والموجوده فى المين بالاقليم المصرى مباح به ما دامت الثلثة الاشهر المذكوره المعينه للمهلة وذلك من دمياط ورشيد حتى الى الاسكندريه . ومن اسكندريه الى رشيد ودمياط .

الشرط العشرون

فمن حيث انه للطمان الكلى فى جهات البلاد الغربيه يقتضى الاحتراص الكلى لمنع الوبا الطاعونى عن انه يتصل هناك فلا يباح ولا لشخص من المرضى او من اوليك الذين مشكوك بهم برايحة من هذا الداء الطاعونى ان ينزل بالمراكب . بل ان المرضى بعلة الطاعون او بعله اخرى ايتما كانت تلك التى بسببها لا يقتضى ان يسمح بسفرهم بمدة خلو الاقليم المصرى الواقع عليها الاتفاق يستمرون فى بيمارستانات المرضى حيث هم الان تحت امان جناب الوزير الاعظم ويعالجونهم الاطبا من الفرنساوية اوليك الذين يجاورونهم بالقرب منهم الى ان يتم شفاهم يسمح لهم بالرحيل الشي الذى لا بد عن اقتضا الاستعجال به باسرع ما يمكن ويحصل لهم ويبدو نحوهم ما ذكر فى الشرطين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الاتفاق نظير ما يجرى على باقى الجيش . ثم ان امير الجيوش الفرنساويه يبذل جهده فى ابراز الاوامر الاشد صرامة لروسا

العساكر النازلة بالمراكب بالا يسمحوا لهم بالنزول بمينا خلاف المين التى تتعين لهم من روسا الاطبا تلك المين التى يتيسر لهم بها ان يقضوا ايام الكارنتينا باوفر سهولة من حيث انها من مجرى العاده ولا بد عنها .

الشرط الحادى والعشرون

فكلما يمكن حدوثه من المشاكل التى تكون مجهولة ولم يمكن الاطلاع عليها فى هذه الشروط فلا بد عن نجازها بوجه الاستحباب ما بين الوكلا المعينين لهذا القصد من قبل جناب الوزير الاعظم وحضرة الجنرال كليبير سارى العسكر العام بوجه يسهل ويحصل الاسراع بالحلو .

ختام الشروط

وهذه الشروط لا تعد صحيحة الا من بعد اقرار الفريقين وتبديل النسخ وذلك بمدة ثمانية ايام ومن بعد حصول هذا الاقرار لا بد عن حفظ هذه الشروط الحفظ اليقين من الفريقين كلاهما .

صح وثبت وتقرر بختوماتنا الخاصة بنا بالمعسكر حيث وقعت المداولة بحد العريش فى شهر بلويوز سنة ٨ من اقامة المشيخة الفرنساويه وفى ٢٤ شهر كانون الثانى غربى من سنة ١٨٠٠ الواقع فى شهر شعبان هلاليه سنة ١٢١٤ هجريه .

الممضيين

الجنرال متفرقه دورزيه

بوسلج

وجناب مصطفى رشيد افندى دفتردار

ومصطفى رايسته افندى ريس الكتاب

صح وجرى بمحل المعسكر العام بالصالحيه — ممضى

الجنرال كليبير

الجنرال المتفرقه

الجنرال داماس

وهذه الشروط نقول بالاختصار انهم اتفقوا ان الفرنساويه من بعد ختم الشروط يقيموا فى مملكة مصر ثلثة اشهر تسعون يوماً ويقبضوا ثلثة الاف كيس تحت ما يبقوه فى مصر من مدافع وكلل وقنابر وبارود ورصاص وعجل مدافع وما شابه ذلك وميعاد التسعون يوماً لبينما يقبضوا الفلوس اولاً وثانياً لبينما يجهزوا حالهم ثالثاً لبينما تحضر لهم مراكب لاجل سفرهم وقدرها ثلثماية مركب لاجل سفرهم الى بلادهم رابعاً لكى تحضر لهم ذخاير وقومانيه فى بحر هذه المدة المذكوره وهكذا كان الاتفاق انه كلما اخلت الفرنساويه محلاً من حد قطيه الى مدينة مصر تتسلمه العساكر العثمانيه لحد ما يصلوا إلى مدينة مصر فتخرج الفرنساويه من مصر الى الجيزه طريق اسكندريه ويتسلمها سعادة الوزير الاعظم وبدت الفرنساويه تخلى قلعه بعد قلعه الى ان اتصلوا الى قرب مصر بثلثة ساعات وركزت هناك العساكر العثمانيه مع سعادة الوزير الاعظم وكانت الفرنساويه اجتمعت من كل البلاد واخلت الاقاليم البحريه واقاليم الصعيد وسار غالبها على طريق رشيد واسكندريه وباعوا خيلهم وجميع اثقالهم وبقوا متحضرين لنزول المراكب فقط .

وكان سعادة الوزير الاعظم بعد الامضا على الشروط وكل فى مدينة مصر مصطفى باشا الذى كان ماخوذ من الفرنساويه واقامه قيم مقام قبل دخوله . وبدا المشار اليه اى مصطفى باشا يجمع فى اموال ويقدمها الى الفرنساويه من اصل الثلثة الاف كيس .

فلنرجع الى ما كنا فى صدده وهو ان سعادة الوزير الاعظم حين وصل الى قرب مصر حضرت جميع الغز المماليك من كامل الاقطار المصريه وقابلته والامير مراد بيك حضر بعيلته من بر الصعيد وقابل سعادة الوزير والبسه كرك فاخر وبدت الاسلام

تخرج من مصر الى ملاقاته ومقابلته من وجاقات واغاوات وعلما ومشايخ واعيان وتجار ورعايا صغار وكبار وكان فرح عظيم عند المصريين لا يوصف وكلهم شكروا الله تعالى على خلاص مملكة مصر من يد الكفار ورجوعها الى الاسلام ثانية ولا سيما من دون حر ولا شر وكان وصول عرضى الدولة العثمانية الى قرب مصر قبل الميعاد الذى وقع عليه الشرط فابتدا يدخل بعض عساكر منهم الى مصر ففى ذات يوم كانوا خمسه انكشاريه جالسين فى احد الاسواق واذا ببعض الصلدات الفرنساويه جايزاً عليهم فنهض احد الانكشاريه وضربه بالسيف على قفاه فقتله فشاع الخبر بالحال وهاجت الفرنساويه وقفلت البلد وراح الخبر الى مصطفى باشا فحالاً ركب ودار بالمدينة وبدا يرقد العساكر الفرنساويه وذهب الى عند امير الجيوش واخذ خاطره وبرد ناره وقال له من الان وصاعد ما بقى احد من عساكرنا يدخل الى البلد وانا فى هذه الماده اعرض لحضرة الصدر الاعظم بانه يمنع العسكر عن الدخول ونحن ايضاً اذا دخل احد ناخذ سلاحه وقام من ساعته وفتش على اوليك الانكشاريه الخمسه ومسكهم وحالاً خنقهم وارسل رماهم امام بيت صارى عسكر الذى هو بيت محمد بيك الالفى فى بركة اليزبكيه وطفيت النار .

فهذا ما كان ثم بدا الوزير الاعظم يطلب الدخول الى مصر على يد مصطفى باشا . فقال له امير الجيوش ان ميعاد خروجنا من مصر ما حضر ولا ذخايرنا ولا مراكبنا جهزت فكيف يمكننا الخروج فقالوا له ان عساكرنا كثيره جداً ولا بقى يمكننا ان نحجزها عن الدخول الى مصر فانت اخرج بعساكرك الى بر الجيزه ولا تعرف الا راحتك واما هو فكان يقول لهم غير ممكن اسلم المدينة من دون ان ارى جميع لوازم العساكر جهزت حكم الشروط .

واستقامت هذه المراسله جملة ايام حتى قرب ميعاد خروجهم الى الجيزه فى ١٨ شهر شوال ففى ذلك اليوم حضر مكتوب من السارى عسكر سميت قبطان عمارة الانكليز خطابا الى الجنرال كليبير يقول له .

انه قد حضر لى مركب من طرف مشيخة الانكليز من انكليتيره به يعرفونى اننى لا اسمح لكم بالخروج من مملكة مصر الا على هذه الصوره وهو انه تسلمونى جميع سلاحكم وامتعتكم وتنزلوا اسارى مقيدين بمراكبى وارسلكم الى بلاد الانكليز. واما الصوره الذى وقعت ما بينكم وبين الوزير الاعظم بحضورى وشهادتى ومواسطتى فهذه لا تتم كلياً . وقد حررت لكم هذا الكتابه قبل تسليم المدينه ليلا بعد خروجكم من المدينه وتسليمكم الحصون تصلكم هذه الكتابه وتظنوها مقصوده منا وتدعوها خيانه من الانكليز فها نحن قد عرفناكم فاعرفوا خلاصكم .

فحال ما وصلت هذه الكتابه الى امير الجيوش الجنرال كليبير فبدا يعج كالجمل الهايج وجمع ساير الجناراليه الموجودين والكومنضاتيه والفسياليه وعمل ديوان وقرى عليهم كتاب السارى عسكر سميت وقال لهم ما قولكم يا مشيخة فرانسا اتريدوا ان تلقوا سلاحكم وتتركوا جميع مالكم وامتعتكم وتسلموا انفسكم اسارى بيد اعدايكم الترك والانكليز او كيف ترتاؤن فعجوا كلهم صارخين بصوت واحد وقالوا ان الذى عقدت معه الصلح والسلام يحتاج انه يرجع الى حيث اتى ويجيب لنا بازابرط من دولة انكليتره ليس من الجنرال سميت فقط بخروجنا حكم الشروط التى حصل عليها الاتفاق وان كان لم يرجع ولا يقوم بشروط فنحن نحاربه ولو فنينا جميعنا على آخر واحد لان الاوفق لنا ان نموت تحت السيف من ان نسلم انفسنا لاعدائنا باليسر فقال لهم امير الجيوش وهل فيكم مقدره الى محاربة هـذه العساكر العديده فقالوا له انت تعلم ايها الجنرال اننا قط ما رجعنا الى ورى من وجه اعدائنا فقال لهم نعم انا اعلم ذلك جيداً اذا كانت قلوبكم غير مقسومه وبدا يذكرهم فى الولس الذى وقع من العساكر فى العريش وقطيه واسكندريه ودمياط وما شابه ذلك فقالوا له نعم ولكن الان جميعنا قلب واحد وكلمه واحده فدبر ايها الجنرال كما تشا بحسن معرفتك فنحن جميعنا فى قبضة يدك .

فحالاً ارسل ورجع المدافع الى القلعه الكبيره لانه قبل بليله واحده كان نزل

المدافع وارسل خبر الى مصطفى باشا يطلع يتسلم القلعة وكان صباحية تلك الليله نهار الخميس فقال له مصطفى باشا نهار الجمعة بعد الصلوة يطلع ويتسلم القلعه فنهار الخميس المذكور بعينه حضر مكتوب الجنرال سميت وهذا الخميس كان واقع فى ١٨ شهر شوال سنة ١٢١٤ .

فلنرجع ونقول انه حالاً رجع المدافع الى القلعه الكبيره ويخرج العساكر خارج المدينه وارسل احضر العساكر التى كانت سافرت الى رشيد واسكندريه وحالاً ارسل احضر مصطفى باشا وقرى عليه المكتوب الذى حضر من سميت وقال له اذهب اخبر حضرة الوزير الاعظم انه يرجع بالعرضى الى بلبيس التى هى بعيده عن مصر يوم ويقيم هناك ويكاتب دولة انكليتيره ويجب لنا منها بازابرط فى خروجنا من مصر على حكم الشروط الذى ختمنا عليها لان عساكرنا غير ممكن ترتضى تروح اسارى بيد الانكليز فخرج من عنده مصطفى باشا وهو مغموم من هذه الخبريه واعرض ذلك لسعادة الوزير فحضر له الجواب يقول له سلموا على الجنرال كليبير وعرفوه يسلم البلد لكم ويخرج الى بر الجيزه وهناك ندبر له كلما يطلبه لاننا ما نحن قادرين نضبط العساكر ونحجزها عن الدخول والهجمه على مصر . فقولوا له يحقن دمه ودم العباد ويخرج .

فاخبر مصطفى باشا الى امير الجيوش بالجواب . فحرر له امير الجيوش منه مكتوب وبه يقول له ارجع الى بلبيس وهناك دبر الذى مقصودك تدبره واما انا غير ممكن اننى اسلم البلد من دون ان تتم كامل الشروط التى امضيت عليها انت وانا وان كنت لم ترجع فتعرف خلاصك انا غير ممكن اسلم البلد .

فراح هذا الخطاب واتى الجواب على المنوال الاول وبدا من ذلك اليوم يروح خطاب ويأتى جواب والخطاب والجواب كلام واحد وروح واحده وعرفوا الفريقين بان الحرب لا بد منه لان سعادة الوزير غير ممكن ان يرجع من بعد ان وصل الى ابواب مصر . وكليبير غير ممكن ان يسلم من دون ان ينظر وجه راحه فبدا الوزير يجمع فوق عسكره عساكر من البرور ويكتب الى العربان والفلاحين . وبدا كليبير

يصف الصفوف خارج المدينه ويرسل المدافع واستقامت المكاتبه ثمانيه ايام من الخميس الى الخميس فى ٢٦ شوال ١٢١٤ وليلة الخميس ارسل الوزير طلب واحد معتمد من طرف امير الجيوش فارسل له المساعد له الجنرال بدو فحين وصل شتمه الوزير والقا عليه القبض فبلغ الخبر فى تلك الليله الى امير الجيوش فنبه على العساكر ليلاً واخبرهم بان الحرب صباح الخميس وركب امير الجيوش نصف الليل بعد ما كان ارسل احضر مصطفى باشا ورسم عليه . وقبل السلام سير العساكر وركب امامها ومعه ثلثون مدفع وحين قرب الى عرضى الوزير فضرب اول مدفع وثانى وثالث تنبيهاً لهم فسمع ذلك امير اللوا مراد بيك فارسل نبه ناصيف باشا ابن العظم قايلاً له انهض النصارى هاجمه علينا فقال ناصيف باشا ان النصارى ما لهم استطاعه ان يهجموا على عساكر السلطان فما كان من مراد بيك الا حالاً ركب بخيله وانفرد لكون ان المذكور كان عارف حرب الفرنساويه وكثرة نارهم . ثم فى ثالث مدفع نهض نصوح باشا لانه هو كان فى اول العرضى مع الانكشاريه وكانت الفرنساويه قادمين عليهم يضربوا بندق فقط واما المدافع فكانت من ورى المشاه . والمشاه الذين كانوا قدام المدافع فكانوا ثلثة الاف صلدات وباقى العساكر من ورى المدافع فهجمت عليهم العساكر الاسلاميه فبدوا يرجعوا الى ورايهم وهم يضربوا البندق الى حينما بدا الرصاص يحصلهم فانقسموا شطرين وظهرت المدافع وبدت ترمى كلل وقنابر نار دايمه فسقطوا الذين امام وجه العسكر فانكسر العسكر الذى ورى وولوا راجعين فبلغت الكسره الى الوزير الاعظم فنهض حالاً ورجع الى ورايه وبدت العساكر الفرنساويه من وراهم تطردهم . واما الغز مع ناصيف باشا فخولوا من طريق الفرنساويه وتداروا فى كهف الجبل الى ان فاتت الفرنساويه ورى العرضى فبعد فوتهم دخلوا الى مدينة مصر واما امير الجيوش كليبير وعساكره فما زال ساير حتى وصل الى مدينة بلبيس حيث كان الوزير وصل الى هناك وكان نصوح باشا ارسل ساعى لحضرة الوزير يخبره بان نحن دخلنا الى مصر وملكناها فشد حيلك ورد على الفرنساويه وناخذهم مواسطه لاننا

ملكنا البلد منهم . فارسل حينيذ سعادة الوزير الاعظم السلام اغاسى الى امير الجيوش يقول له ان مصر ملكوهـا الغز وناصيف باشا الى متى انت مطاردنا ومصر راحت من يدك فارجع ودعنا على ما نحن عليه من الشروط وروح اجلس فى الجيزه ويصلك كامل مطلوباتك حكم الشروط والذى مضا لا يعاد هذا ما كان مقدر من الله وخلينا على ما نحن عليه فقال له امير الجيوش كليبير انا كلمته بهذا الكلام قبل هذه الموقعه . واما الان ما بقى يفيد الكلام وغير ممكن اننى ادعه يستقيم فى القطر المصرى فيرجع الى قلعة العريش ويقيم هناك كون انه اخذها بالسيف فيقيم بها وهناك يخاطبنى بامور الصلح . واما هذه الاماكن انا سلمته اياها تسليم فغير ممكن اننى اخليه يقيم بها واما من قبل الذين دخلوا الى مصر فاوليك انا اعرف شغلى معـاهم فرجع السلام اغاسى ورد الجواب على الوزير فقال له سعادة الوزير ارجع ثانياً وخذ له مكتوب ناصيف باشا ربما يكون ما هو مصدق كلامى بان مصر ملكوها منه وهو بقى مطرود . فرجع السلام اغاسى واعطاه مكتوب ناصيف باشا وقال له ربما تكون ما قصدت ان مصر ملكوها منك وبقيت انت الان مطرود من مصر فاغتاظ امير الجيوش من ذلك وقال له ارجع وقول له الكلام الاول وان كان لم يخرج هذه الليله والا احرق البلد فيه فرجع السلام اغاسى واخبر الوزير بذلك فبالحال نهض بعساكره من قلعة بلبيس وسار وسارت الفرنساويه وراه

ومن ذلك الوقت اى من مدينة بلبيس ارسل امير الجيوش ثلثماية خيال الى الى مصر معونه للعسكر الذى بقى فى بيته . وهو ما زال ساير ورى الوزير الى ان فات الصالحيه وقطيه . ومن قطيه ارسل الجنرال بليار الى مدينة دمياط يملكها ثانية وحين فات الوزير اراضى القطر المصرى متوجهاً نواحى غزه . رجع السارى عسكر كليبير بالعساكر الى مصر وابقى جانب عسكر فى قطيه وجانب بالصالحيه وجانب فى بلبيس بالقلاع والحصون التى كانت شيدتها الفرنساويه هنالك .

فهذا ما كان من امر الوزير . فلنرجع لما كنا فى صدده من الاول ونقول اننا

قد قلنا ان بدى الموقعه كان نهار الخميس فى ٢٦ شوال وقلنا ان ناصيف باشا والغز تداروا فى كهف جبل الجيوشى مع عثمان كاخيه وجملة عسكر ولما فاتت الفرنساويه دخلوا الى مصر من باب النصر ضحوة النهار فيالها من ساعه كانت مهوله ويوم كان عظيم من ايام القيامه لانهم فى حين دخولهم قامت البلد على ساق وقدم وما وجدوا احد قدامهم ينتقموا منه سوى النصارى الرعيه المسكينه الضعيفه . فاولاً هجموا على حارة الافرنج التى هى مسكن التجار الفرنساويه القدم الذى كان لهم مدة سنين فى مدينة مصر وكان فى هذه الحاره نسا وبنات واولاد ورجال نحو خمسون نفر فكسروا باب الحاره وهجموا عليهم وبدوا يذبحوهم كالغنم وسبوا النسا والبنات وباعوا الاولاد وما سلم من الرجال الا القليل وسلبوا من هذه الحاره من مال وامتعه ما يساوى نحو الفين كيس وبدوا اهل البلد يتعصبوا عصب عصب ويهجموا على المحلات التى فيها النصارى وقتلوا كثيرين ونهبوا كثيرين وكان يوم الخميس يوم عظيم على النصارى ما هو الا من اهوال يوم القيامه وكثيرين ماتوا من الخوف فبلغ ذلك الى الحكام اعنى الى ابراهيم بيك وباقى السناجق الذين دخلوا والى ناصيف باشا وعثمان كاخية الدولة فهذا الرجل كان راووف جداً وفطن للغايه فقال الى الحكام المذكورين .

ان نهب وسلب الرعايا النصارى وقتلهم ليس هو جائز فى كامل الاديان ولا حضرة مولانا السلطان يرتضى بذلك وهذه فيها تهم كثيره فانا لا ارضى بذلك ولا لكم اذن منى بذلك ولا اجازه جمله كافيه . واما اذا كان مقصودكم المغازاه فدونكم وبيت السارى عسكر الذى موجود فيه الكفار اعدايكم فالشطاره عليهم ليس على الرعيه المسكينه التى هى كالغنم بغير سلاح . وايضاً دونكم وقصر العينى حيث اعدايكم هناك ودونكم والقلعة الكبيره وباقى القلاع الموجودين فيها الفرنساويه ومن بعد ذلك اذهبوا الى الجيزه وحاربوا الفرنساويه الذين هناك .

فبهذا الكلام كلمهم عثمان كاخيه لكى يرجعهم ويهجعهم عن الرعايا النصارى وحالا ارسل قلقات لكامل المحلات التى فيها النصارى الباقيين مثل درب الجنينه ودرب

الحين مسكن الشوام وحارة سنقر وحارة السقايين مسكن الاقباط وحارة الاروام مسكن بطركهم وحارة الجوانيه التى كانت انتهبت سابق فى قتل دبوى . وحارة زويله التى هى مسكن الارمن وبعض اقباط . ولكن قبل حضور القلقات كانت تهجم عليهم اولاد البلد المتعصبين مع بعض العساكر ونظروا اهوال القيامه فى تلك الهجمات فى نهار الخميس والجمعه حين حضروا القلقات اطمانوا نوعاً واما باقى الحارات التى موجود بها بيوت النصارى مثل الخرنفش وبين الصورين والرمله وبيوت كثيره خارجه عن هذه المحلات فهذه جميعها نهبوها وعروا اهلها وقتلوا الذى قتلوه ومن الجملة ذبحوا عبود ابن ابراهيم صباغ العكاوى الذى كان وقف سابقاً معلم ديوان مدة سبعة اشهر فذبحوه على باب بيته . وما بقى من نسا وبنات واولاد ورجال كانوا ياخذوهم عرايا الى وكالة زلفقار فى خط الجمليه حيث كان موجود هناك عثمان كاخيه والعلما والحكام الذين ذكرناهم ما عدا امير اللواء مراد بيك لان هذا الامير ما دخل مع الغز الى البلد بل بقى خارج المدينه وفيما هو جايز عند مصر القديمه بالخلا لحقه بعض عساكر من طرف الفرنساويه وهذه العساكر كانوا كلهم من اهل شفا عمرو وعكا فرجع عليهم احد الكشاف وقطع راس واحد منهم وهذا كان له اخ فلما شاف اخوه قتل هجم على الكاشف فهجم عليه الكاشف وقطع راسه مثل اخيه والبقيه هربوا ثم ان مراد بيك توجه لمكان جهة الجيزه وكان الجيزه فى يد الفرنساويه ومحصنه غاية التحصين فكان هو برجاله امام الجيزه من بعيد منتظرين كيف يتم الامر . واما النصارى الذين كانوا ياخذوهم اسارى لوكالة زلفقار جمعهم عثمان كاخيه وارسلهم مع عمر اغا ملاطيلى الى درب الجنينه ودرب الحين وكان رجال ونسا واولاد وبنات عريانين بجلودهم جيعانين ينوحوا ويبكوا وكان عمر اغا المذكور يبكى عليهم وهو معاهم فى الطريق وادخلوهم الى الحارات المذكوره وحالاً النصارى كسوهم وقبلوهم فى بيوتهم وكانت حالتهم تلين الصخر الاصم فهذا ما كان من امر الحارات التى فى البلد .

واما حارة النصارى الذى باليزبكيه فهى طرف البلد وكان باليزبكيه بيت

الصارى عسكر الكبير الذى كان سابقاً بناه محمد بيك الالفى واما حارة النصارى فهى سوق عظيم وبيوت كثيره وفيها من النصارى الاقباط ما ينيف عن ثلثة الاف نفس وفيها بيت المعلم يعقوب القبطى الصعيدى الذى كان كاتب يد امير اللواء سليمان بيك وفى مدة الفرنساويه كان مع الجنرال ديزه المذكور منا سابقاً الذى قلنا انه ياتى له كلام فهذا اوانه .

فاسمع ما جرى وهو انه نهار الجمعه ثانى يوم الموقعة هجمت اهل البلد والعساكر على بيت السارى عسكر وبدا الحرب بينهم وهجموا ايضاً على حارة الاقباط المذكوره فقفلوا فى وجوههم باب الحاره وقالوا لهم

نحن ناس رعايا مالكم ومالنا فان كان مقصودكم تدخلوا تنهبوا وتذبحوا كما فعلتم فى المدينه فهذا لا تملكوه ابداً لكون اننا لا نسلمكم ارواحنا من تلقا ذواتنا تفعلوا بنا كما تريدوا فان كنتم تكفونا شركم فها نحن رعية لكلمن تولى ونحن قاعدين فى بيوتنا ما نقارش احد وان كان مرادكم تفعلوا بنا كما فعلتم بنصارة المدينه فما عندنا الا رصاص وبارود .

فقالوا لهم يا ملاعين يا كفار مقصودنا نقتلكم وتبقا اموالكم واعيالكم غنيمة لنا فافتحوا ابوابكم ودعونا ندخل .

وبدا الحرب بينهم وكان المتقدم عليهم المعلم يعقوب الصعيدى المذكور لان الخطاب كان معه وكان هذا الرجل بطل صنديد فى الحروب وله قلب كالصخر الجلمود وكان غنياً جداً وكان عنده اسلحة وبدا يحارب الذين كانوا يهجموا عليهم .

وكان نهار الخميس والجمعه اول الموقعه نهارين عظيمين على اهل اليزبكيه لانه كانت الوف معدة تهجم عليهم ونظروا اهوال القيامه . وفى هذين اليومين ضاجت الثمانون صلدات الذين كانوا فى بيت الصارى عسكر لانهم كانوا يلقوا العساكر الهاجمه عليهم من اربعة جهات وهم ثمانون فقط فايسوا وكانوا اعتمدوا ليلة السبت انهم يروحوا الى قصر العينى ومن هناك يعدوا الى الجيزه بالبر الثانى وارسلوا قدامهم مصطفى باشا

كوسا والقنصل كارلورشيتى الذى كانوا محبوسين عندهم تحت الترسيم بامر الجنرال كليبير قبل طلوعه الى الحرب كما ذكرنا سابقاً واعتمدوا على الهرب الى الجيزه وفى عصرية تلك الليله ورد عليهم احد الخياله الفرنساويه من البر واخبرهم بانه قادم اليهم ثلثماية خيال وراه وان الوزير وعساكره راحوا الى غزه والعساكر الفرنساويه تحضر الى مصر رويداً رويداً ففرحوا جداً وشدوا انفسهم . وثانى يوم السبت دخلت الثلثماية خيال واشتدت قوة الفرنساويه فى هذه الخياله . وبدت تهجم اهل البلد على اليزبكيه حكم العاده وتفرقت الثلثماية خيال الذى حضرت الى القلاع وبيت السارى عسكر وفى حارة يعقوب القبطى وبدت القلاع ترمى كلل وقنابر على البلد وكانت العساكر واهل البلد تهجم على القلاع وبيت الصارى عسكر وعلى حارة الاقباط المذكوره وجلادة يعقوب القبطى فى حارته مع جماعته هى التى صانت بيت الصارى عسكر من الاخذ فى ذلك اليومين وشهدت له الفرنساويه بالفروسيه ومن بعد اليومين ابتدت العساكر الفرنساويه ترجع رويداً رويداً الى مصر وبعد ثمانية ايام حضر السارى عسكر الجنرال كليبير الى مصر فنظر المدينه محاصره ومشحونه من العساكر الذين دخلوا بعد كسرة الوزير ومقدارهم نحو خمسة عشر الف واهالى البلد تماماً قايمين معاهم على ساق وقدم وكانت مدينه مصر تحوى نصف مليون من الخليقه فبالحال آمر القلاع ان تضرب القنابر والكلل على المدينه وبدت الخمسة قلاع تضرب قنابر على البلد . وهم القلعه الكبيره وقلعت الغريب وقلعة الظاهر بيبرص وقلعة كوم العقارب وقلعة كوم الليمون واحتاطت العساكر الفرنساويه داير البلد وبقية البلد محاصره من الفرنساويه القلاع من فوقها والعساكر من حولها وكانت العساكر الفرنساويه المحاوطه البلد مقدار عشرة الاف فقط .

لان جميع الفرنساويه الذين كانوا بقيوا فى مدة كليبير من كبيرهم الى صغيرهم رجال ونسا واولاد مقدار اثنين وعشرين الف والعسكر الذى ضارب الوزير كان ثمانية عشر الف صلدات حربيه وكان عرضى الوزير ينيف من ستين الف وغالب

هذا العرضى تلف فى الطريق من الجوع والعطش والتعب ومن العربان لان طريق غزه من مصر شنيع جدا وصعب للغايه لكثرة الرمال وشدة الحر وقلة الماء .

ثم فلنرجع الى ما كنا فيه ونقول انه من بعد حضور السارى عسكر دار الحرب على البلد كما ذكرنا . وبدت القنابر من القلاع تضرب على البلاد ليلاً ونهاراً وهجمت اهل البلد على بيت مصطفى اغا اغات الانكشاريه الذى كان لبسه بونابرته اغا على مصر ومسكوه وقدموه الى ناصيف باشا فآمر بشنقه فشنقوه ونهبوا بيته وحريمه وفتشوا على عبد العال كاخيته فالمذكور هرب وعبد العال هذا كان رجل من ابنا البلد وفى الاصل كان خدام وكان صاحب مصطفى اغا المذكور وجاره فى بيته فحين ترقا مصطفى اغا عمله كاخيه عنده فحين شنقوا مصطفى اغا فتشوا على عبد العال لكى يشنقوه فهرب . وهذا ياتى له كلام فيما بعد وقتلوا عبد القادر البغدادى الذى كان يميل الى الفرنساويه وقتلوا جملة خدامين مسلمين ادعوا انهم خدموا الفرنساويه وكبسوا على بيت الشيخ خليل البكرى وهذا كان جعله بونابرته نقيب الاشراف عوض السيد عمر مكرم الذى ذكرناه سابق فهذا المذكور نهبوا بيته وجابوه عريان بالجلد الى قدام عثمان كاخيه الدولة وقالوا له ان هذا فرنساوى ليس هو مسلم لانه يشرب المنكر مع الفرنساويه فعذره عثمان كاخيه وحصلت له شفاعه وخلصوه من الموت من بعد نهب بيته وتعزيره .

هذا والحرب قايم على البلد من كل جهة وناحية . وسهى علينا ان نخبر عن مدينة بولاق التى عصيت ايضاً ونهضت على النصارى الموجودين بها وكانوا اناس قلايل وفقرا ساكنين فى الوكايل فنهبوهم وسلبوهم وقتل منهم البعض واخذوا الباقين ووضعوهم فى محل وقامت اهل البلد على ساق وقدم وكل ذلك كان من بدو موقعة الوزير وقاموا هذه القومة اذ بلغهم دخول ناصيف باشا والغز الى مصر . وحين حضره الفرنساويه من بعد ضرب الوزير ونظروا ان بولاق ايضاً قايمه ضدهم فارسلوا لهم خبر وقالوا لهم ما هذا الجناب الذى انتم فيه الوزير الاعظم صار فى غزه والعرضى

تضعضع وانتم ناس رعايا مالكم مقدره الى الحرب فارفعوا متاريسكم والقوا سلاحكم اخير ما يهجم عليكم العسكر وتروحوا جميعكم تحت السيف ويجرى فيكم كما جرى فى مدينة يافا فما ارتضوا بذلك فارسل لهم امير الجيوش ثمانية امرار هذه المخاطبه فلم كانوا يرتضوا . فامر حينيذ الجنرال بليار الذى كان ارسله من قطيه الى مدينة دمياط فهذا المذكور سار على دمياط وفتحها ووضع بها عسكر مع كومنضا ورجع الى مصر فنظر مصر وبولاق محاصرين فقال له امير الجيوش ازل وحارب بولاق فنزل الجنرال المذكور وسالهم بان يسلموا فما ارتضوا كون انهم ناس فلاحين وعقولهم غليظه فدور المدافع عليهم فما استحملوا نصف ساعه ودخل عسكر الفرنساويه الى بولاق فصاحوا كلهم الامان يا جنرال بليار فرفع القتل وبدوا ينهبوا فى البيوت والمخازن والوكايل والحواصل ويسبوا نسا وبنات وكان غالب مال تجار النصارى والاسلام مودوع فى بولاق من قطن وبن ورز وقطن وصر فلوس وغير اشيا كثيره بنحو عشرين الف كيس وزياده الذى تلفت فى هذه الموقعه واحترق ثلث بولاق بالنار وكانت موقعه مهوله جداً وخراباً عظيماً لا يقدر الذى يذكر جيلاً بعد جيل .

هذا والحرب داير على مدينة مصر فتضايقت اهل البلد من الجوع والعساكر وكل ذلك ولا كانوا يسلموا وبدت الفرنساويه تهجم ليلا بالنار والقنابر من اربع جهات مصر ويحرقوا فى البيوت ويهجموا والقنابر تشتغل من القلاع ولله در هذه الايام المهولة وكانت النسا والاولاد يخبون ويحتمون تحت العقوده الحجر خوفاً من القنابر . وكانت قنابرهم اثنين وثلثين اقه اين ما كانت تقع تهدم وكنت تسمع فى الليل صريخ النسا والاولاد والنار والعة فى اربع جهات البلد فى البيوت واستقام الحرب على هذه الصوره اربعة وثلثون يوماً وقبل ذلك بيومين تداولت علما البلد مع الامرا وعثمان كاخيه وناصيف باشا وقالوا لهم ان الرعايا ما بقت تحمل حصار والبلد ما فيها قوت والاعدا محتاطه بها واذا دخلوا على المدينه بالسيف فما يبقوا منا احد وتموت الرعايا فهذا ما هو راى . بل والتسليم بقا اوفق واصلح وعلى ذلك اعتمد رايهم

وانتخبوا عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الاشقر ونزلوا العلما معهم الى بركة اليزبكيه ومعاهم بيرق ابيض اشارة الصلح ورفعوه فابطل السارى عسكر الحرب وارسل لهم الجنرال داماس وزيره واجتمعوا فى بركة اليزبكيه وطلبوا الامان وانهم يسلموا البلد والعساكر جميعها تخرج من البلد ولكن يكون لهم امان كافى وللبلد ايضاً امان كافى فرد الجواب على امير الجيوش فارسل لهم حالاً امان كافى الى ناصيف باشا والغز وباقى العساكر الغربيه انهم يطلعوا بسلاحهم ورجالهم وكامل تعلقاتهم وانه يرسل معاهم الجنرال رينيه الى حد الصالحيه ويقدم لهم ما يحتاجوه بالطريق . وقال لهم اما من قبل البلد فهذه بلدى وانا اعرف شغلى بها ولا رضى ان يعطيهم امان . فقالوا له نحن باقى لنا اشغال ومعنا مجاريح ومرادنا نهي قومانيه . فقال لهم ارتفعوا الى طرف البلد الى قاطع الخليج فى رقعة الجمليه طريق باب النصر المودى الى بر الشام وهناك دبروا ذخايركم واشغالكم ومعكم اجازه ثلثة ايام وعساكرى تتسلم الجهة الثانية من الخليج الى جهة اليزبكيه واما من جهة مجاريحكم فعليهم الامان . وكان الامر كما ذكرنا وفى رابع وثلثون يوم بعد الظهر ارتفعت العساكر الى خط الجمليه ودخلت الفرنساويه وتسلمت الخط الثانى شقة الخليج وبدوا يجهزوا حالهم ويخرجوا ويبرزوا خارج باب النصر وهنالك كان واقف الجنرال رينيه باربعة الاف صلدات على باب النصر ولا يدع احد منهم يخرج الا بسلاح واحد فقط . والذى يرى معه سيفين فياخذ الواحد منه وعلى هذه الصوره خرجت جميع العساكر من باب النصر وساروا متوجهين الى بر الشام والجنرال رينيه من وراهم باربعة الاف صلدات وما زال صاير معاهم حتى فاتوا الصالحيه وصنع معاهم غاية الاكرام فى الطريق . لانه كان ينقطع منهم فى الطريق اناس فكان هو يحملهم على خيل وجمال من عنده واما هم فكانوا ظانين ظن غير هذا انهم متى وصلوا الى الخلا فتطبق عليهم العساكر الفرنساويه ولا يبقوا منهم احد لانهم بقوا مثل الغنم فهذا كان ظنهم واما الفرنساويه فبضد ذلك فتعجبوا غاية العجب من امان الفرنساويه . وخرج معهم من اهالى مصر خلق كثير ومن الجمله سافر معهم

السيد احمد المحروقى فهذا الرجل كان شابندر تجار مصر وهذا كان فى مدة الفرنساويه فى الديوان الذى كان رتبه بونابرته ديوان الحكم وفى وقت الصلح كان حضر له اوامر من سعادة الوزير الاعظم ان يكون مباشر الامور صحبة مصطفى باشا كوسا وهذا الرجل فى مدة الاربعة والثلثين يوم الحرابه اظهر نفسه وقدم اموال وذخاير وسعفه الى عثمان كاخيه والى ناصيف باشا وخدم هذه الدولة خدمه نصوحه وبقى له دوام ذكر واسم وهذا ياتى له كلام فيما بعد .

واما مصطفى باشا كوسه فقد قلنا عنه انه كان تحت اليسق فى الجيزه لان كلبير القا عليه اليسق قبل طلوعه للحرب فهذا المشار اليه ارسله امير الجيوش الى دمياط من بعد فتوح مصر ثانيةً فاستقام مدة قليله فى دمياط ومرض مرضاً شديداً من قهره ومات وصنعت له الفرنساويه موكب عظيم وميتم فخيم ومشيت جميع العساكر امام نعشه منكسين البندق وضربوا له المدافع ومشيت مشايخ وعلما البلد واكابرها تماماً وكان يوم عظيم لان هذه كانت عادة الفرنساويه عند ما يموت احد من روسا العساكر الكبار .

فهذا ما كان من امر مصطفى باشا كوسا وموته فى دمياط واستقر امر الفرنساويه فى مصر ثانيةً وبدوا يرتبوا بيوتهم كالاول وينظموا احوالهم وبعد ثلثة ايام من دخولهم عمل السارى عسكر ديوان وجمع العلما كلهم وقال لهم .

ايها العلما اننى كنت اظنكم انكم اناس عقلا على شيخوختكم وكبر سنكم والان قد تحققت انكم اناس جهلا قليلى العقول لانه كيف مع معرفتكم اننى طردت الوزير الاعظم وانتصرت عليه وعرضى الوزير ما وقف امامى بل ولا هارباً فكيف انتم تقبلوا اناس مطرودين من سيفى ومكسورين من سطوتى وتتحدوا معاهم وتحاربونى لاجل خراب المدينه وموت اهلها وصرتم سبب لخراب وهدم ما ينيف من عشرين الف روح ولا سيما انكم هجمتم على الرعايا الضعفا وهم النصارى الذين لهم سنين عديده وهم تحت حكمكم وملتجيين لكم ومتحدين معاكم فبالحقيقه اننى لا اقدر اتصور غباوتكم هذه الفظيعه . فقد كنت قادر انى لا ابقى منكم احد الان قصاصاً لذنبكم هذا

ولكن من حيث ان هذا صادر من غباوتكم وجهلكم فقد صفحت عنكم . فادفعوا انتم مع اهل البلد مليونين ريالات فرانسا . واما النصارى لا يساعدوكم بذلك كون يكفاهم ما فعلتم بهم من قتل وسلب ونهب واما قولكم اننا امرنا النصارى ينقلوا سلاح لاجل ان يحاربوا معنا والحال ليس نحن محتاجينهم يساعدونا بل لاجل ان يحاموا عن انفسهم منكم . وايضاً تدفعوا عشرين الف بندقيه وخمسة عشر الف جوز طبنجات وعشرة الاف سيف واربعماية بغل ومايه عدة حصان . ثم قال اما الشيخ السادات يدفع ماية وخمسين الف ريال . والشيخ مصطفى الصاوى يدفع خمسين الف ريال والشيخ العنانى يدفع ثلاثين الف ريال ويخصم ذلك من اصل المطلوب .

فهذا قصاص لذنبهم وتركهم ودخل الى مخدعه وبقوا المشايخ قاعدين فى القصر تحت اليسق ثم امير الجيوش ارسل حالاً ورى المعلم يعقوب الصعيدى ووكله بقبض المال فنزلوا المشايخ ومن بعد نزول المشايخ والعلما من عنده ارسل حالاً ورما القبض على شيخ السادات واخذه الى القلعة الكبيره وختم بيته ومحلاته وبدوا بعد ذلك يبيعوا فى امتعته وطلب منه ماية وخمسين الف ريال وهذا شيخ السادات كان له ذنب مع الجنرال كليبير وكانت شده عظيمه على الاسلام . واحضر الشيخ خليل البكرى والبسه كرك فاخر واوعده بتعويض ما نهبوه من اهل البلد والعسكر فى مدة الحصار كما ذكرنا وظهر عبد العال كاخية مصطفى اغا الذى شنقوه فى الحصار والبسه امير الجيوش كرك وعمله اغاة انكشاريه عوضاً عن مصطفى اغا . ثم طلب من اهل بولاق خمسماية الف ريال فرانسا قصاصاً لذنبهم من بعد نهبهم من العسكر الفرنساوى .

واكرم المعلم يعقوب الصعيدى الذى ذكرناه سابق غاية الاكرام واعطاه السيف ووضع له الشراريب الذهب على كتفيه واوهبه الجنراليه وصاروا يدعونه الجنرال يعقوب وامره ان يجمع عساكر قبطيه ويعلموهم فنون حرب الافرنج وكان الامر وبدا الجنرال يعقوب يجمع من قبط البلد شباب ويكتبهم عساكر وعليهم فرنساويه يعلموهم الحرب وكان فى كل يوم التعليم فى بركة اليزبكيه .

وكذلك امير الجيوش احضر نقولا قبطان والبسه حوايج فرنجيه واعطاه السيف ووضع على كتفيه شراريب الذهب علامة الجنراليه وصاروا يدعونه الجنرال نقولا .

وكان فى البلد رجل رومى اسمه ينى الخمار فهذا فى مدة الغز كان يضمن الخمامير وفى مدة الفرنساويه ايضاً . فهذا فى وقت الحصار اظهر الفراسه مع نقولا قبطان فلاجل ذلك عملوه كومنضا .

واما نقولا قبطان فهذا الرجل له قصه لسبب وجوده فى مصر . وهو انه فى سنة ١٢٠٠ حين حضر حسن باشا قبطان الى مملكة مصر وطرد الغز مماليك محمد بيك ابو الذهب وحكم اسماعيل بيك ففى ذلك الوقت مسك عثمان بيك طنبرجى ومعه سنجق اخر من مماليك مراد بيك وارسل حبسهم فى قلعة بغجاده قرب مدينة اسلامبول . فنقولا قبطان كان فى ذلك الوقت ريس فى قايق وكان يطلع الى القلعه ويجتمع على السنجقين المحبوسين فاعتشر بهم وفى ذات يوم قال لهم اننى اقدر انزلكم من هذه القلعه ليلاً واهرب بكم الى مصر فالمذكورين قالوا له ان كنت تصنع معنا هذا المعروف وتودينا لعند سيدنا مراد بيك فيحصل لك منه الانعام الوافر ويبقا لك ذكر دايم واتفقوا على ذلك . وفى ذات ليلة احدرهم من شبابيك القلعه الى البحر بالحبال وسار بهم فى قلب البحر وهو يسبح وهم فوق ظهره حتى وصل الى القايق الذى له فوضعهم به واقلع وبالاختصار اوصلهم الى مصر لعند مراد بيك وحصل له انعام وافر من المشار اليه ومن ذلك الوقت بقى فى خدمة مراد بيك وعين عنده عسكر اروام نحو ثلثماية نفر وكانوا دايماً فى الجيزه ومد هذا القبطان مركباً كبيراً فى الجيزه الذى قلنا انه حرقه مراد بيك فى دخول الفرنساويه ومراد بيك المذكور كان عنده ايضاً جملة مراكب صغار وذهبيات وكانوا دايماً فى بحر الجيزه امام قصره وكان هذا القبطان فى خدمته دايما لحد دخول الفرنساويه وفى وقتها كان فى دمياط فارسل له مراد بيك خبر فحضر برجاله اروام وكرتليه مقدار ثلثماية نفر وحضر قرب الفرنساويه فى انبابه وهو الذى كان برجاله على المدافع فوق المتاريس فهذا فى وقت

الكسره القا نفسه فى البحر وعام للبر الثانى ودخل الى بولاق وحين دخل بونابرته فتوجه لعنده وقابله فاكرمه غاية الاكرام ومن ذلك الوقت قيده فى خدمة المشيخه وقال له كما كنت تخدم مراد بيك اخدم المشيخه فهذه قصة المذكور نقولا قبطان .

ثم فلنرجع الى ما كنا فيه ونقول اننا قلنا ان امير الجيوش لبس الجنرال يعقوب والجنرال نقولا والكومنضا ينى . وايضاً لبس رجل شامى اسمه يوسف الحموى وعمله كومنضا على النصارى الغريبة الذين هربوا من بر الشام وحضروا مع بونابرته وهم صفديه ومقادسه وتلاحمه وعكاويه ومن يافا وما شابه ذلك نحو ماية وخمسون نفر .

وعمل ايضا برتولمين الساقزلى كومنضا على بعض مماليك من مماليك الغز كانوا خدموا عند الفرنساويه وبعضهم كانوا اخذوهم اسارى وهذا المذكور كانوا اهل مصر يدعونه فرط الرمان وهذا كان فى مدة الغز يركب الخيل وكان خادم عند محمد بيك الالفى . فهذا من حين دخلت الفرنساويه الى مصر تعلا عندهم وكان فارس فى ركوب الخيل ومهاب فى القامه ويعرف فى اللغة التليانيه وصار له اسم وذكر كبير فى مصر .

ثم فلنرجع لما كنا فى صدده ونقول انه بدا الجنرال يعقوب يجمع فى عسكر من الاقباط من مصر ومن الصعيد وكانت الفرنساويه تعلمهم امور الحرب الى ان صار ثمانماية نفر صلدات والبسوهم البرانيط والكسم الفرنساوى وصاروا كالفرنساويه بل واشد منهم باساً واخف وتعلموا بزمان قليل وفرحت بهم الفرنساويه فرحاً عظيماً .

فهذا ما كان من التدبير الذى وقع فى مدة دخول الفرنساويه بعد كسرة الوزير وعظم اسم الجنرال كليبير جداً ووقع له اهابه ورجه فى البلاد وارتجت الارض من كسرت ذلك العرضى العظيم الذى كان محتوى على غالب رجال الدولة العثمانيه وكبراها وكان شي مهول .

وقد قلنا انه بعد كسرة العرضى ودخول كامل الغز المماليك مع ناصيف باشا وعثمان كاخيه الدولة وخلافهم . بقى امير اللوا مراد بيك خارجاً عنهم فهذا المشار اليه

بعد طلوع الباشا والغز من مصر ارسل مراسيل ووسايط الى امير الجيوش الجنرال كليبير واتفقوا على المقابله وكان الامر فحالاً حضر الامير مراد بيك الى مكان يقال له جزيرة الذهب برات الجيزه فهذا المحل كان محل مراد بيك وبانى فيه قصر عظيم ومن بعد حضوره حضر عثمان بيك الاشقر وعثمان بيك البرديسى الى مصر وركبوا صحبة امير الجيوش الجنرال كليبير وتوجهوا الى بر الجيزه ومن هناك توجهوا الى جزيرة الذهب وحالاً دخل الجنرال كليبير على امير اللواء مراد بيك فقام له على حيله ومشى الى نصف المحل وصافحه واخذه بيده واجلسه جنبه وقدم له بشاشه زايده . فحالاً الجنرال كليبير قال الى الامير مراد بيك .

ايها الامير طيب عيشاً وقر عيناً طالما المشيخه الفرنساويه موجوده فى مملكة مصر فانت امير وحاكم اقاليم الصعيد ولا لك بها شريك وتدفع الاموال الميريه حكم قديمها .

ثم اعطاه محلات مالكانا يا كل فوايضها وميريها وقال له .

هذا اذا دامت مملكة مصر الى الفرنساويه واذا كان الامر بضد ذلك اى اننا نعمل صلح مع الدولة العثمانيه فلا يكون تسليم مملكة مصر الا لك والى باقى الغز . فنحن اخرجناكم من هذه البلاد ولا نسلمها الا لكم .

فانشرح من ذلك مراد بيك وطاب قلبه وقدم مراد بيك سفرة الماكل والمشرب فاكلوا وشربوا وقام الجنرال كليبير فقدم له مراد بيك سيف وخنجر مرصعين بالجواهر وقدم الى داماس وزيره خاتم الماس واعطا الى الترجمان سيف . وحين ركوبهم قدموا الى الجنرال كليبير حصان بطقم مكلف والى الجنرال داماس حصان مثله وودعه وسار على الصعيد بكل طمانينه ومعه عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك طنبرجى وعثمان بيك الاشقر مملوك ابراهيم بيك الكبير . ثم كتب مراد بيك الى ابراهيم بيك واخبره بما حصل بينه وبين السارى عسكر وانه مرتاح الراحة التامة وان السارى عسكر عرفه ان يخبر ابراهيم بيك وباقى السناجق ان يحضروا الى الصعيد ويكون عليهم الامان وكما

حصل لمراد بيك يحصل لهم لحين وصلت كتابة مراد بيك الى ابراهيم بيك فارسل اعتذر بالحريم لان حريمه فى وقتها كانوا فى دمشق الشام .

فهذا ما كان من امر مراد بيك وصلحه مع الفرنساويه فاسمع ما جرى من بعد ذلك وهو انه فى ٢١ شهر محرم الحرام افتتاح عام سنة ١٢١٥ حصة قبل العصر اذ كان السارى عسكر الكبير الجنرال كليبير فى الجنينه التى هى من داخل بيته يمشى فى احد المماشى ويضرب مشاوير كعادة الافرنج بالقميص واليلك الذى فوقه فقط من شدة الحر وكرشه مندلق قدامه لانه كان سمين . فبينما هو يضرب مشاوير واذا بشاب فقير بملابس رثه صعد من ارض الجنينه الى الممشى ومد يده وطلب صدقه فنفر به امير الجيوش فرجع ثم فى المشوار الثانى صعد له ومد يده كالعاده فنفر به فرجع وصعد له فى ثالث مشوار واخرج له ورقه من عبه مكتوبه وقدمها له فوقف الجنرال كليبير واخذها من يده وبدا ينظرها ليرى هل هى عرضحال فى العربى او فى الفرنساوى او هل هى خبريه فبينما هو عمال ينظرها فكان ذلك الشاب اخف من النسيم اخرج سكينا من جنبه مسنونه مستحضر عليها وضربه فى مشعره فالحال اندلقت امعاه وصرخ صرخه عظيمه اقلقت البيت جميعه وسمعوه اهل تلك الحاره القريبه ثم ضربه ثانى وثالث ففى حين صرخته خرج وزيره داماس لينظر ما ذلك الصوت فراى السارى عسكر مطروح ودمه فاير وفيه الروح قليلا فنتف شعره وقال له من عمل معك هذا العمل ياحبيبى فرفع يده واومى باصبعه فالمحل الذى اوما باصبعه عليه كانت هناك النجارين والبنايين الذين كانوا يشتغلوا فى البيت فحالا ارموا عليهم القبض وكان قبل وصول داماس وصل المهندس الكبير الفرنساوى ونظر ذلك الشاب عمال يضرب ثانى ضربه فى بطن السارى عسكر فهجم عليه وبيده الجوكلان فقط فهم ذلك الشاب وضرب ذلك المهندس بالسكين وجرحه جرحاً بليغاً والقاه على الارض ورجع ضرب السارى عسكر الضربه الثالثه وهرب لحين حضر داماس ونظر السارى عسكر مطروح ونظر المهندس ثم انه بعد ان مسكوا النجارين كما ذكرنا فصاحت عليهم امراة من احد

الشبابيك التى كانت تطل على الجنينه وقالت لهم ان الجارين برين والقاتل دخل الجنينه متخبى كون الامراه نظرته وكانت العساكر الفرنساويه فى تلك الصرخه احتاطوا حول البيت والجنينه فدارت الصلدات بالجنينه فراوا القاتل فى احد السواق والسكين بيده فهجم احد الفسياليه عليه فجرحه بالسكين فى يده فمسكه ذلك الفسيال واتى به الى داماس ووقع خوف عظيم على البلد ولكن مراحم الله تعالى وتعطفاته الذى اعمت قلب القاتل عن الهروب ووقع فى ايديهم ولولا ذلك لكافت الفرنساويه دورت ضرب السيف فى المدينه لانه هكذا كانوا اعتمدوا . ثم اخذوا القاتل وبدوا يقرروه ويسالوه عن سبب ذلك وعن اصله .

فقال لهم .

انا حلبى واسمى سليمان وانا الذى قتلت السارى عسكر لا تتهموا غيرى وهذه السكين تشهد على بانى انا الذى قتلته .

فقالوا له لماذا فعلت ذلك وما مقصودك ومن الذى اغراك على هذا الفعل القبيح .

فقال لهم نحن كنا فى حلب جملة شباب فقال لنا الاغا من منكم يا شباب يقدر يروح يقتل سلطان الفرنساويه فى مصر فقلت له انا وحيات بيرى اقدر اروح اقتله واجى فقال لى ان كنت تقدر تقتله وتخلص امة محمد من شره يحصل لك انعام كبير من الوزير ثم اعطونى كم غرش خرجيه وجيت اشتريت هذه السكين ولى مدة كم يوم وانا انتهز فرصه ولما كان فى الجيزه رحت لعنده وما وقع لى فرصه وما زلت اترصد حتى وقعت لى هذه الفرصه وقتلته وخلصت امة محمد من شره .

وكان يكلمهم بكل وقاحه .

فقالوا له هل لك شريك فى ذلك .

فقال لهم ما احد عنده خبر سوى ثلاثة مجاورين فى الازهر غزازوه .

واعطا اساميهم فبالحال احضروهم وحين اثبتوا عليه من اقراره واثبتوا ذلك على

المجاورين من شهادته عليهم فاثبتوا عليهم القتل وكتبوا فى شان ذلك كتاب وطبعوه فى مطبعتهم نسختين نسخة عربيه ونسخة تركية تجدها مطبوعه فى هذا الكتاب .

ثم فلنرجع الى ما كنا فى صدده وهو انه من بعد ما رفعوا جسد السارى عسكر حالاً غسلوه من الدم وشقوا جوفه واخرجوا قلبه فطلبه وزيره داماس فاخذه ووضعه فى قزازه من داخلها ارواح . واما الجسد فصبروه ودبروه بارواح وغيرها وسكبوا له صندوق من رصاص ووضعوه به .

وبعد ذلك عملوا ديوان ما بينهم وولوا عليهم امير جيوش الجنرال منو الذى ذكرناه سابق الذى كان فى رشيد فى اول التاريخ . وهذا المذكور كان طاعن بالسن والمذكور حين تولا امر بموكب عظيم لنقل جسد كليبير من المدينه الى قصر العينى فكان الامر وفى ثالث يوم اجتمعت كافة الفرنساويه الذين فى مصر ومشوا ووضعوا الصندوق الرصاص فى تابوت وركبوه على عربانات الخيل ولبسوا الخيل الحلل السود وسحبوا جميع خيله قدام التابوت وكافت الصلدات والكومنضاتيه والفسياليه وارباب المراتب وايضاً الجنراليه امامه جميعهم ماشيين منكسين البندق روسها الى تحت وامامهم علما البلد ومشايخها وحكامها تماماً وسحبوا قدامه سليمان القاتل مع ارفاقه الثلثة الى ان وصلوا الى قصر العينى ثم اصعدوهم الى كوم العقارب وهنالك قادوا ناراً واحرقوا يد سليمان وهو بالحياة ومن بعد ذلك وضعوه على خازوق وقطعوا ارقاب ارفاقه الثلثة ووضعوا كل راس على خازوق وحرقوا اجسادهم الثلثة بالنار ثم وضعوا التابوت فى قصر العينى وهنالك عملوا مناحه عظيمه وموعظه ومن بعد ذلك ضربوا المدافع امام التابوت وبنوا مصطبه عاليه ووضعوا بها التابوت الرصاص الذى فيه الجسد وزرعوا حوله الخضره ووقفوا احد الصلدات والبندقيه فى يده حول تلك المصطبه ليلاً ونهاراً .

ورجعوا الى مصر بالالاى قدام امير الجيوش الجنرال منو لانه ثبت سارى عسكر .

وهذا الجنرال لما كان فى رشيد تزوج بامراه مسلمه شريفه وادعى الاسلام وارسل

احضرها من رشيد الى مصر وكان يكتب اسمه خالص الفواد عبد الله منو والجنالاريه الذين كانوا فى مدته كان الجنرال رامبون حاكم فى دمياط والجنرال لاينوس والجنرال رينيه والجنرال داماس والجنرال بليار شيخ البلد فى مصر والجنرال دور الذى كان دفتردار وباقى جنالاريه صغار واما الجنرال ديزه الذى كان اولاً فى الصعيد وهو الذى حضر صلح كليبير مع الوزير هو وبوسلج مدبر الحدود فهذين الاثنين سافروا فى تلك الفسحة التى هى ما بين الصلح والوقعه ولكن مع ذلك ما نفدوا من يد الانكليز بل اخذوهم اسارى ومن بعد ذلك خلصهم بونابرته من يد الانكليز .

هذا ما كان من امر كليبير امير الجيوش ومدة اقامته فى مصر وموقعته مع الوزير وكيفية موته وتولى الجنرال منو من بعده وجلوسه فى مصر كان فى اواخر شهر محرم سنة ١٢١٥ فلنرجع الى ما كنا فى صدده من الاول ونتكلم عن امير الجيوش بونابرته فنقول اننا قد قلنا ان امير الجيوش بونابرته نزل من مدينة اسكندريه بثلثة مراكب وتوجه قاصد بلاد فرانسا وجميع الناس كانوا يقولوا انه غير ممكن انه يقدر ينفد من يد الانكليز اعداه لانهم رابطين كل الطرق ومراكب الانكليز كانت فى ذلك على البوغاز ولكن جميع الفرنساويه كانوا يقولوا ان بونابرته من لازم الضروره انه ينفد ويصل الى فرانسا بكل سلامه لانه رجل سعيد للغايه ومدبر وصاحب فتوحات وكانوا ينشدوا به بكل خير وكان الامر كما قالوا وهو انه فى مسافة اربعين يوم وصل الى بلاد فرانسا وكان اخذ من مدينة مصر اموالاً غزيره من جواهر وامتعه واسلحه واخذ معه هجن بطقومها ومماليك زغار بكسمهم من مماليك الغز وذلك للافتخار بها وحين بلغ وصوله الى روسا المشيخه الخمسه الكبار فصار عندهم حزن عظيم لان اثنين منهم كانوا اصحابه فقط والثلثة فكانوا اعداه وهم الذين عجزوا عنه الامداد وبواسطة فساد رايهم وحسدهم من سعوداته وفتوحاته اتلفوا المملكة وانفتحت عليهم اعين الملوك اعدايهم فهولاء حين بلغهم خبر حضور بونابرته فبالحال عملوا ديوان وقطعوا فتاوى بان بونابرته رجل مفسد بالمملكه وهو الذى هيج على المشيخه الحروب وانهض

الملوك ضدها . فهذا قصاصه ان يتنزل عن رتبته ويرجع صلدات وتكون وظيفته ورديان على باب ديوان المشيخه وكان الامر وهو انه اذ وصل مع اصحابه الى مدينة باريس ودخل على المشيخه الخمسه واخبرهم بما صار فى مدينة مصر وحرضهم على الامداد والسعفه للعساكر الفرنساويه الذين فى مصر فنهروه وقالوا له اسكت هذا شي لا يخصك بل يخص المشيخه وحينئذ قدموا له الفتاوى لحين قراها فقدم الطاعه لامرهم ووقف ورديان الى حين ما طبخ له طبخه وعمل له حزب . وفى ذات يوم هجم على المشيخه مع اصحابه الجنرال اسكندر برتيه الذى كان وزيره فى مصر والجنرال ميراد وقتلوا ثلثة من المشايخ وابقوا الاثنين وقيل ان ذلك كان بولس الاثنين اصحابه وصاح شعب باريس كله بصوت واحد فليعيش بونابرته ريس شعبنا ومشيختنا لان شعب فرانسا كان له عشق زايد فى بونابرته نظرا الى فتوحاته وحالاً صار ديوان عظيم وانتخب المذكور راس المشيخه الخمسه واقاموا اثنين عوض الذين قتلوا ورجعوا الاثنين الذين بقيوا فى الحيوه وصاروا يدعوا بونابرته القنصل الاول لمشيخة فرانسا وحالاً بدا يباشر بتجهيز العساكر وتعليم عساكر جديده وبدا يفرق العساكر على بلاد ايطاليا حيث كانت موجوده العساكر النمساويه والمسكوبيه التى كانت اخذت جميع المدن والقلاع التى كانت اخذتها الفرنساويه سابق وحين وصلت عساكره الى ايطاليا وبدا ياخذ منهم قلعه بعد قلعه ومدينه بعد مدينه واقليم بعد اقليم الى ان رجع واسترجع جميع البلاد الماخوذه وشاعت نصرته بالعـالم ووقع له رجه عظيمه وتعلقت به شعوب فرانسا وامر بفتح الكنايس وقيام اساقفه وقسوس وعقد الصلح مع الپاپا بيوس السابع ورجعه الى كرسيه فى روميه وواسا كثيرين كانوا من حزب الملك ورتب لهم علايف وزهزهت مملكة فرانسا وقالوا الان قد ثبتت مشيختنا ودعوا بونابرته القنصل الاول كما كانت مشيخة الرومانيين فى الازمنة السابقة حسب تواريخهم القديمة وكل ذلك فى مدة قليله قد اشهر هذه الانتصارات ومع ذلك ما كان يتوفق له ان يسعف الفرنساويه الذين فى مصر وذلك لقلة المراكب ثانياً من عدوه

الانكليز التى قد كان اشحن البحر مراكب حربيه ولا سيما اذ اخذ جزيرة مالطا منهم اذ حاصرهم بها وملكها بالجوع وجعل قوته بها .

ولكن جملة امرار حضر منه مكاتيب مع مراكب صغار وسعاه ودايماً كان يوعدهم بالاسعاف والامداد ويخبرهم عن انتصارات المشيخه ومن بعد تولى الجنرال منو فى مصر ارسل له جملة امرار ويحرصه على مصر وفى آخر تعريف اخبره ان الانكليز اعدائنا مجيشين على مصر بعشرين الف عسكرى بحراً مع الدولة العثمانية فكونوا متحرصين على مصر غاية الحرس .

فهذا ما كان من امر القنصل الاول بونابرته . فلنرجع الى ما كنا فى صدده من امر مصر والجنرال منو فهذا المذكور حين تولى شرع ايضاً فى بناية قلاع وابراج وحصون حول مصر فوق الكيمان وبدوا يصونوا باسوار ومسكوها من باب النصر فوجدوا صوراً قديماً قيل انه من زمان قديم فبدوا من امامه ومن وراه يهدوا بيوت لان البيوت مع تمادى الزمان ركبت الصور وضاع ما بين البيوت فلزم الامر انهم يهدموا من امامه ووراه حاره يقال لها الحسينيه تفوق عن خمسة الاف بيت ومسكوا الصور واتبعوه من باب النصر الى اليزبكيه وكان صوراً عظيماً وبنوا من فوقه مقدار عشرة ابراج وحصنوها بالمدافع وكانت البنايات فى كامل الاقطار المصريه وصارت الابراج التى هى من حول مصر نحو خمسة وعشرين برج غير الاسوار والابراج الصغار وكذلك فى مصر القديمه وفى الروضه والمقياس وحصنوا مدينة الجيزه تحصيناً عظيماً وهذه البنايات والتحاصين من حين دخلوا الى مملكة مصر لانهم قط ما كلوا ولا هجعوا عن البنا ولا يوم واحد وكذلك فى مدينة دمياط بنوا ابراجاً وحصوناً ومتاريساً عظيمه فى البوغاز واما مدينة الاسكندريه فصارت اعظم من جزيرة مالطا من جهة البحر والبر وبالنتيجة ان الفرنساويه اتلفوا خزاين كثيره فى البنايات واموالاً لا يحصى عددها لانهم اين ما كانوا يقيموا كانوا يبنوا ابراجاً وحصوناً وسبب ذلك ان الفرنساويه فضلوا اناس قلايل ومملكة مصر كلها ضدهم واعداهم محيطة بهم من كل الجهات

وبحرهم وبرهم مربوط عليهم ومملكة مصر تنوف عن خمسة ملايين خليقة وهم بقوا فى مدة الجنرال منو مقدار ثمانية عشر الف من كبيرهم الى صغيرهم منهم الصلدات الحربية مقدار ثمانية الاف فقط والباقى نسا واولاد وكومساريه وكتبه وارباب صنايع وما شابه ذلك من الذين لا يدخلون ساحة الحرب فلاجل ذلك جعلوا كل قوتهم فى الابراج والحصون وكذلك الجنرال يعقوب القبطى بدا يبنى داير حارة الاقباط فى اليزبكية سوراً بابراج وحصون وحصنها بالمدافع وصار حول داير مصر ابراج وقلاع واسوار .

وبدا الجنرال منو يتمكن من وظيفته وكانت غالب العساكر الفرنساويه فى مصر تشماز منه لانه كان رجل عنيد فى رايه ومتكبر . وقوم حدبته لانه كان رجل اختيار . وسبب اكراه العساكر فيه كون انه كان يدعى الاسلامية وذلك من غير مقتضى لكون ان اسلام مملكة مصر غير ممكن انهم يصدقوه ولا يظنوه الا مخادعه ومخاتله . والجنرال بونابرته من قبل منه كان يتفوه بهذا الكلام وكانوا الاسلام يضحكون من كلامه هذا وكانوا يقولوا كل هذا خداع لنا وللشعب .

ثم ان الوزير الاعظم من بعد رجوعه من مصر استقام فى مدينة يافا وبدا يجدد عساكر وصار عنده عرضى عظيم ثم ان سعادة الوزير الاعظم كتب لامير اللوا مراد بيك فى الصعيد وقال له ان الجنرال كليبير كان اوعدكم بالسابق بتسليم مملكة مصر لكم ومن بعد ذلك جرى الذى جرى وقتل الجنرال المذكور وتولى عوضاً عنه الجنرال منو فارسل وطالب منو بوعد كليبير لكم واذا ارتضى بذلك فنحن نرسل لكم التصريف حكم القديم ونرسل لكم باشا الى القلعه حكم العاده ونتوجه بالعساكر راجعين فحين وصل هذا الخطاب الى امير اللوا مراد بيك فارسل عثمان بيك البرديسى الى الجنرال منو بمصر مع جانب مال من الميرى الذى عليه فحضر المذكور الى مدينة مصر وقابل الجنرال منو وقدم له مال الميرى واخبره بكلام الوزير الى مراد بيك فجاوبه الجنرال منو اننا متى نوينا على الخروج من هذه البلاد نفعل ذلك واما الان لهذا الوقت ما نحن ناويين على الخروج من مصر هكذا اخبر مراد بيك يعرف الوزير ومكث امير

اللوا عثمان بيك البرديسى نحو خمسة عشر يوم فى مصر ورجع الى الصعيد واخبر الامير مراد بيك بذلك ومراد بيك اعرض لسعادة الوزير بجواب منو .

وفى شهر شوال سنة ١٢١٥ حضر من الجنرال الذى بالاسكندريه الى منو مكتوب يخبره بان عمارة الانكليز اقبلت على ثغر اسكندريه مقدار مايه وخمسون مركب فداركونا بالعساكر . فحين وصل هذا الخبر ضاجت الفرنساويه فى مصر وحالاً ارسل العساكر على طريق الاسكندريه ومن بعد يومين حضر له كتابه ثانيه من الجنرال بالاسكندريه يقول له ان المراكب اقلعت عن البوغاز وسارت فلا يقتضى ارسال عساكر فحالاً الجنرال منو ارسل رجع العساكر التى كان ارسلها على طريق اسكندريه فرجعت واطمان الجنرال منو وكتب الى البلد يخبرهم ان اعداينا هربت . فبينما هو مطمان واذ وردت عليه الاخبار من اسكندريه ان المراكب رجعت واخرجت عساكرها على البر وبنت متاريسها وتوجه لها جنرال اسكندريه بثمانماية صلدات ووقع الحرب بينهم وكان يوم مهول وانكسر عسكر الفرنساويه ورجع الى اسكندريه فحين وصلت هذه الخبريه الى السارى عسكر منو فضاجت الفرنساويه وحالاً ركب منو واخذ معه جانب من العساكر وابقا فى مصر جانب عند شيخ البلد الجنرال بليار . وكتب الى الجنرال رامبون فى دمياط ان يحضر عن طريق البرلس ويخلى دمياط ويحتفظ على قلعة البوغاز فقط وحصونها ويوضع بها جانب عسكر ويحضر اليه وبدت الفرنساويه فى مصر تخلى بيوتها ومحلاتها ويطلعوا الى القلعه الكبيره والى قلعة الجيزه . وبانت عليهم اماير الخراب لانه حينما قالوا لهم ان الانكليز تسلم البر عرفوا ان الامر ثقيل عليهم كون انهم عارفين ان الوزير الاعظم يحضر عليهم من طريق البر والبلاد ايضاً ليست معاهم بل ضدهم وكبر الوهم عليهم جداً كون ان الاعدا احتاطت بهم من كل جهة . ثم وصل الجنرال منو بالعساكر الى بر اسكندريه فوجد ان الانكليز تقدموا الى قدام وبنوا متاريسهم واستقروا على البر . فبدت الفرنساويه تبنى متاريس امامهم ثم هجمت عليهم الفرنساويه ووقع الحرب بينهم وكان حرباً مهولاً وانكسرت عساكر الانكليز ثم تقوت

ثانية وكبست بالمدافع على الفرنساويه وغلبتهم فانكسرت الفرنساويه ورجعوا الى ورى متاريسهم وقتل جانب من الفرنساويه وقتل سارى عسكر الخيـاله وهذا كان بطل عظيم وانجرح الجنرال لاينوس البطل الصنديد وحملوه مجروح الى خيمته وكان جرحه صعب جداً ودخل عليه الجنرال منو وقال له سلامتك ايها البطل وبكى عليه . فقال له لانوس الذى مثلك ايها الجنرال لا يليق ان سارى عسكر فى مشيخة فرانسا بل يكون خدام يقشر البصل فى مطبخ المشيخة لان هذا جميعه صادر من فساد رايك وكبرياك لانك لو كنت خليت العساكر سايره فى طريقها من اول خبر الذى حضر لك ومسكت البرور لما كانت اقتدرت اعدائنا الانكليز ان يتمكنوا فى البرور ولكن هذا الذى كان ثم مات هذا الجنرال من جرحه ومن بعد ذلك ايضاً حصل بينهم موقعه ثانيه وكانت الانكليز تكسب عليهم ولكن قتل من عساكر الانكليز خلق كثير وقتل سارى عسكرهم الكبير وفى هذه المواقع قتل من الانكليز اربع سوارى عساكر اذ كانوا يغيروا واحد بعد واحـد وتمكنت الانكليز من البرور جداً وفى اخر موقعه ركب السارى عسكر منو وسار على اسكندريه بجانب عسكر وابقا ورى المتاريس جانب عسكر وذلك فى الرحمانيه ودخل الى اسكندريه وبدا يحصن بالمتاريس . ودخلت الانكليز الى بندر رشيد واخذوه وكان قبل دخولهم حضر سعاده حسين قبطان باشى سارى عسكر الدولة العثمانية ودخلت الانكليز والعثملى الى رشيد والفرنساويه فى الرحمانيه ورى المتاريس . وكان الجنرال منو ارسل احضر العساكر التى كانت فى طريق غزه من قطيه والصالحيه وبلبيس واخلوا هذه القلاع جميعها وانحصرت العساكر الفرنساويه فى اسكندريه جانب وفى الرحمانيه جانب وفى مصر جانب وفى ثلثة مواضع فقط وكان ما بين اسكندريه ورشيد طريق مصر سد من بحر المالح فجاءت الانكليز وقطعوه لكى يقطعوا طريق مصر وبقيت مدينة اسكندريه وبرها شبه الجزيره وانقطعت الطرق والاخبار من اسكندريه . ثم ان الذين كانوا فى متاريس الرحمانيه اخلوا المتاريس من بعد حرب عملوه مع عسكر الانكليز وعسكر العثملى وحضروا الى مصر

الى عند الجنرال بليار . وفى غضون ذلك كان بدا عرضى الوزير يتقدم رويداً رويداً وبقيت الفرنساويه شطرين الواحد فى اسكندريه والشطر الثانى فى مصر . فالذين كانوا فى مصر مقدار ثمانية الاف والذين فى اسكندريه كانوا مقدار خمسة الاف وانقطعت اخبارهم عن بعضهم . وكان الجنرال بليار فى بحر هذه المدة بنا متاريس عظيمه من سور اليزبكيه الى مدينة بولاق بخندق امام المتاريس وحصن هذه المتاريس بابراج ومدافع تحصين عظيم وحين وصل عرضى الوزير الى بلبيس وتقدمت وجوه العساكر الى نواحى مصر مسافة يوم نخرج الجنرال بليار ليلاً بالفين وخمسماية صلدات وسار مسافة يوم وقابل العسكر وكان مقصوده بذلك كشف العرضى والعساكر وكميتها نحاربهم وقتل منهم جانب وراى ان العساكر كثيره فرجع ثانى بالحال الى مصر . وقيل انه تبرطل من الوزير الاعظم بماية وخمسون الف محبوب اسلامبولى وحين وصل الى باريس قدمها الى بونابرته القنصل الاول . ثم بعد رجوع الجنرال بليار الى مصر صارت العساكر تتوارد من بر الشام وعساكر القبطان باشى وعساكر الانكليز تحضر رويداً رويداً .

وطالت هذه المده مقدار اربعة اشهر ووصلت عساكر القبطان باشى وعساكر الانكليز واحتاطت جميعها على مدينة مصر من خارج والعساكر الفرنساويه تنتظرهم بالنظارات وتتفرج عليهم وسارى عسكر الانكليز وضع عرضيه فى بر الجيزه امام عرضى الفرنساويه الذى فى الجيزه . وكانت الجيزه قد حصنتها الفرنساويه تحصيناً عظيم وبقيا الجيشين امام بعضهما بعض نحو خمسة عشر يوم لا محاربه ولا مضاربه واستقامت هذه الحركة من شهر شوال سنة ١٢١٥ الى شهر صفر سنة ١٢١٦ وفى شهر صفر المذكور ارسل سارى عسكر الانكليز وطلب من الجنرال بليار ان يرسل احد من طرفه لاجل المداولة والمفاوضه فارسل له احد الكوميساريه مع واحد ارمنى اسمه يوسف الترزى يعرف اللغة التركيه فتوجهوا الاثنين الى بر الجيزه وقابلوا سارى عسكر الانكليز والقبطان باشى وتداولوا فى امر الصلح والتسليم وقالوا لهم ارجعوا وردوا على الجنرال بليار فرجعوا وردوا عليه . فعمل ديوان جنراليه وكبار العسكر

وقال لهم ما رايكم بهذا الامر

فقالوا له التسليم اسلم عاقبة لنا وللرعايا

فقال لهم اعطونى خط يدكم

فاعطوه . فقال لهم هذه صورة الشروط الذى مقصودى اطلبها ثم ارسل الشروط مع المراسيل ثانية وبدت تصير المفاوضه والمداوله فى ذلك الى ان تصححت الشروط وختم عليها القبطان باشى والوزير الاعظم وسارى عسكر الانكليز .

وهذا كان مضمون الشروط الاتفاق الذى حصل بخصوص التخليه من بر مصر من كامل البلوكات عساكر فرنساويه بمصر وبغير جنس المتحدين معهم اعنى الذين هم تحت حكم اوامر الجنرال بليار . انعقدت بواسطة الستويان خرزلوا الجنرال برجاده . ومورنتد الجنرال برجاده . وطريدي انشيف برجادا المتعينين من طرف الجنرال بليار . وكذلك الجنرال برجاد هو المعين من طرف سارى عسكر الانكليز العام . وايضاً عثمان بيك المعين من طرف حضرة الصدر العالى الوزير الاعظم . وايضاً اسحاق بيك المعين من طرف قبطان باشى . هولاء المباشرين اجتمعوا فى محل ما بين الفريقين وبعد ما اومروا به بالتوكيل قد اتفقوا على هذه الشروط الآتى بيانها .

الشرط الاول

ان البلوكات عساكر الفرنساويه براً وبحراً وبلوكات العساكر الغريبة المتحدة معهم الذى تحت اوامر الجنرال بليار يسلموا مدينة مصر والقلعة الكبيرة وكامل القلاع الصغار ببولاق وكامل اطراف مصر الموجود بها الفرنساويه الآن

الشرط الثانى

كامل بلوكات عساكر الفرنساويه وكذلك العساكر المتحدين معهم يتوجهوا براً الى ثغر رشيد من طرف شمالى النيل بسلاحهم وعزالهم ومدافع البر وصناديق الجباخانات

لاجل يوسقوهم من ثغر رشيد يتوجهوا الى اساكل بلاد فرانسا الموجوده بالبحر الابيض وكامل مصاريف ما ذكر تقوم بها الدولة المصالحه

ونزول صفر العساكر المذكورين والمتحدين معهم ونزولهم الى المراكب يكون باسرع وقت وغاية ما يكون من العاقه الى حد خمسين يوم اولها من تاريخ هذه الشروط المحرره ومن غير شك ان العساكر المذكوره يوخذون بالمراكب الى اى اسكلة كانت الى الطريق الاعدل والاقرب الى بلاد فرانسا

الشرط الثالث

من ابتدا هذه الشروط تكون العداوه مرفوعه من الطرفين بالكليه ثم ويتسلم الى الدولتين المتحدين قلعة الظاهر وباب مدينة الجيزه المسمى باب الهرامات وعلى الوكلا المشار اليهم ان يضبطوا الحدود وعدم التخطى عن الحدود واحتراص من وقوع الخلل

الشرط الرابع

بعد اثنى عشر يوماً من هذا التاريخ مدينة مصر وقلاعها القلعة الكبيره والباق ومدينة بولاق متخلون من عساكر الفرنساويه والمتحدين معهم ويتوجهوا الى قصر العينى والروضه واتباعها والجيزه واطرافها ومن هناك يسافرون على غاية جهدهم الى مسافة خمسة ايام لكى يتوجهوا الى محل المراكب الذى يسافروا بها وكامل حكام الانكليز والعثملى يلتزمون يقدموا مراكب ويقدمون مصاريفهم ولزومهم بحر النيل لاجل وسق عزالهم ومونتهم الى حد مراكب بحر المالح

وجميع هذه المراكب تكون محضرة بغاية السرعه والاهتمام ويسلموهم الى عساكر الفرنساويه بالجيزه .

الشرط الخامس

مشى العساكر ومحطاتها يكون معين لها جناراليه واهل مراتب من الطرفين وكذلك الايام المعينة للمشى من الواجب المدبر فيها الجنراليه وكذلك العساكر الفرنساويه المذكورين والذين متحدين معهم يكونوا مصطحبين بطريقهم من كوميساريه الانكليز والعثملى وهم الذين يقومون بتقديم المعاش الضرورى فى مسافة الطريق ومحطاتهم .

الشرط السادس

كامل العزال والجبخانات الذين ينوسقوا فى مراكب بحر النيل يكونوا مغفرين من بعض عساكر ومراكب حربيه من طرف الدولتين المتحدتين .

الشرط السابع

فيكون محضر الى العساكر الفرنساويه والمتحدين معهم واتباعهم والذين صحبتهم المونه المرتبه حسب قانونهم من يوم نزولهم فى المراكب من الجيزه الى يوم طلوعهم الى بلاد فرانسا .

الشرط الثامن

ويحضر من طرف حكام الانكليز وحكام العثملى فى براً وبحراً من مراكب الضروريه الطيبه المريحه لاجل سفر عساكر الفرنساويه وكامل ما يلوذ بهم لاجل وصولهم الى اى اسكلة كانت من بلاد فرانسا .

فلاجل تمام ذلك فى ما يخص المعاش يكون باهتمام وتدبير الكوميساريه المعين فى ذلك من قبل الجنرال دفازيون بليار ومن قبل صوارى عسكر من الدولتين المتحدتين ان كان براً او بحراً .

ومن بعد تاريخه يجب ان الكوميساريه المتعينين من الطرفين يتوجهون الى رشيد وابو قير لاجل تحضير كامل المطلوبات الى السفر .

الشرط التاسع

الدولتين المتحدين يجب يحضرون اربعة مراكب او اكثر ان امكنهم لاجل نقل الخيول واللوازم لهم الى حين وصولهم .

الشرط العاشر

يجب ان يتقدم الى العساكر الفرنساويه وكل المتحدين معهم من الدولتين المتحدين مراكب حربيه كفايه لاجل تغفيرهم ووصولهم سالمين الى فرانسا .

والدولتين المتحدين يضمنوا عدم وقوع الخلل والعداوه من طرف عساكرهم الى حين وصول العساكر الفرنساويه والذين برفقتهم الى بلاد فرانسا سالمين وكذلك الجنرال بليار يوعد ويتعاهد مع جميع العساكر الذى تحت اوامره ان لا يحصل منهم ادنى خلل للعماره وبلاد حضرة دولة الانكليز فى هذه المسافة وكذلك لا يحصل ادنى تعرض وخلل ببلاد الباب العالى ولا جميع المراكب المتعينه لسفر الفرنساويه وغفرهم . ما لهم ان يتوقفوا فى اسكلة من الاساكل فى مسيرهم بل يقصدون بلاد فرانسا ما عدا ان حصل امر تدعوه الضروره .

روسا عساكر الفرنساويه والانكليز وال عثمان يكون مشهور عندهم جميع ما ذكر اعلاه ومحفوظ طول ما عساكر الفرنساويه موجوده فى ارض مصر . وكذلك من هذا التاريخ الى دخولهم المراكب .

وان حضرة الجنرال بليار حاكم عساكر الفرنساويه والعساكر المتحدين معهم يتعاهد عن حكام دولة فرانسا ان جميع المراكب المغفره والمراكب الموسوقه الذين مسافرين

بها بعد وصولهم يخرجوهم جميعا وترجع جميعها ولا ينعاق منها ولا مركب واحد وان القبابطين بالمراكب المذكوره يشترون بمالهم المونه الضرورية الى رجوعهم والجنرال بليار يتضمن رجوع هذه المراكب الى مواضعهم سالمين من حيث انهم لم يتداخلوا فى امور حرب بالكلية فى رجوعهم .

الشرط الحادى عشر

جميع حكام السياسه وارباب الحرف والصناعات وجميع الاشخاص المتعلقة بعساكر دولة فرانسا يحصل لهم سوية ما يحصل لنفس عساكر الحربيه وان ارباب العلوم والصنايع يصحبون معهم جميع الاوراق والكتب ليس الذى تخصهم فقط بل وكل ما يروه نافعاً ومفيداً لهم .

الشرط الثانى عشر

جميع سكان مصر من اى طايفة كانت من اراد منهم يتبع العساكر الفرنساويه مسموح لهم ذلك من حيث ان بعد سفره لا يحصل لعيلته ولبيته اذية ما .

الشرط الثالث عشر

جميع سكان مصر من اى مذهب كان لا يحصل الى احداً منهم اذية ما لا فى مالهم ولا فى اعيالهم ولا فى انفسهم بسبب رفق الفرنساويه اذ مشيوا فى اديهم حسب قانون وشريعة البلاد .

الشرط الرابع عشر

جميع المتشوشين الذين ليس لهم طاقه الى السفر يقيموا بمصر فى بيمارستان ويبقا عندهم حكما من الفرنساويه وخدما يداوهم الى حين شفاهم وبعد ذلك يرسلوا الى

فرانسا جميعاً بالحفظ والصون حسب ما ذكرنا من الشروط الماضيه فى حق العساكر الفرنساويه وان حكام الدولتين المتحدين يتعهدوا تحضير كامل الامر هذا المشوشين من كامل النظام .

الشرط الخامس عشر

فى وقت فروغ المده يسلم المدينة والقلاع كما ذكر قبله يحضروا الكومساريه لكى يستلموا المدافع والجبخانات والحواصل وقوايم واوراق ومحلات وجناين وغير اشيا عموميه التى للفرنساويه الى الدولتين المتحدين .

الشرط السادس عشر

حاكم البحر لازم ان يحضر قبل ساعه مركب يسافر الى فرانسا وياخذوا واحد فسيال وكومسارى الى طولون ياخذوا صورة هذه الشروطات الى المشيخه الفرنساويه .

الشرط السابع عشر

جميع الذين يخالفون هذه الشروطات يحصل قصاصهم على يد الكوميساريه المذكورين وكذلك اذا وقع اختلاف فى الامر يكون نظامه واصلاحه بيد المذكورين .

الشرط الثامن عشر

بحال تمام هذه الشروط جميع يسرا الحرب من انكليز وعثملى الموجودين عند الفرنساويه يحصل لهم الاطلاق والحرية . وكذلك حكام عساكر العام الدولتين المتحدين يعتقون كامل يسرا الفرنساويه الموجودين فى عرضيم المعتبر .

الشرط التاسع عشر

واحد من اكابر عساكر الانكليز وكذلك واحد من اكابر الوزير الاعظم وكذلك واحد من اكابر عساكر قبطان باشى يكونوا موجودين عند الفرنساويه رهينه ويعطا بدلهم ثلثة من مقامهم من الفرنساويه ولما ينتهى وصول العساكر الفرنساويه الى بلادهم يرجعوا الرهاين المذكورين ويروح بدلهم وكل منهم الى محله .

الشرط العشرون

وهذه الشروط ترسل مع واحد فسيال الى الجنرال منو بالاسكندريه وله مهلة عشره ايام من بعد وصولها بيده ان كان يرضى على هذا الاتفاق بذاته وعساكر الفرنساويه المتحدين معه فهو مخير لذلك بشرط انه يحرر قبوله ورضاه بخط يده الى صارى عسكر الانكليز الذى مقيم قدام اسكندريه لغاية عشرة ايام بعد تاريخ وصول هذه الشروط ليده .

الشرط الحادى والعشرون

صورة هذه الشروط ان هذا السند يعلم عليه حضرة حكام صوارى عسكر العام من طرف الثلثة دول ويرجع بعد اربعة وعشرين ساعة وينتهى كل ذلك وقد تحرر اربع نسخ مختومه فى محل المسافة ما بين العرضين فى تاريخ متيدور سنة ٩ فى نصف النهار الموافق فى ٢٧ حزيران سنة ١٨٠١ الموافق فى ١٦ شهر صفر سنة ١٢١٦ .

امضا ذنزلوه جنرال دبرجاده .

امضا موريه جنرال دبرجاده .

امضا تريوه نشيف دبرجاده .

امضا جنهوب جنرال دبرجاده انكليز

امضا عثمان بيك وكيل يوسف باشا .

امضا اسحاق بيك وكيل قبطان باشى .

وقد سبت ذلك جان هلى هونتون سارى عسكر العام .

وايضاً اسبت ذلك لورد كاتب وغيره جاستيمنين الذى هو قبطان المراكب الكبير .

نحن قد اسبتنا جميع الشروط الواقعه فى هذا الاتفاق لاجل خلو مصر وتسليمها الى الباب العالى باب همايون المشير يوسف الوزير الاعظم .

ونحن قد شهدنا واسبتنا جميع هذه الشروط الواقعه فى هذا الاتفاق لاجل خلو مصر وتسليمها الى الباب العالى . حسين قبطان باشى .

لقد اسبت وحققت هذه الشروط فى ٩ مسيدور سنة ٩ للمشيخه الجنرال دفازيون بليار .

(طبعة فى مطبعة مصر) .

فهذا ما حصل عليه الرضا من الثلثة دول اى العثملى والانكليز والفرنساويه وبدت الفرنساويه تجهز امورها ويدخلوا الى بر الجيزه وفى غلاق الخمسة عشر يوم خرجوا من مدينة مصر ودخلوا الى بر الجيزه والذين سافروا معهم الجنرال يعقوب القبطى باعياله واقرباه والكومنضا ينى الرومى باعياله والكومنضات برتولومين ويوسف الحموى الذين كان كومنضا على العسكر الذى كان من بلاد صفد بمقدارماية نفر باعيالهم وعبد العال الذى كان اغاة انكشاريه وبعض نسا من نسوان مصر من مسلمين ونصارى وكان ذلك فى اواخر صفر سنة ١٢١٦ .

وفى صباحية خروجهم بدا عسكر الوزير الاعظم يدخل وفى ذلك اليوم بعينه بعد صلوة الجمعة دخل سعادة الوزير ودخلت عساكر القبطان باشى ودخل بعض عساكر من عسكر الانكليز . واستقامت الفرنساويه فى بر الجيزه اربعة ايام لحينما جهزت لهم مراكب الى السفر وسافروا براً وبحراً فى النيل الى رشيد وسافر معاهم حسين قبطان

باشى وسارى عسكر الانكليز بعساكرهم وحين وصلوا الى رشيد كانت تهيت لهم المراكب فى ابو قير ومن هناك نزلوا وسافروا .

واخذوا معهم جسد الجنرال كليبير فى صندوق رصاص وحين وصلوا الى باريس احضروا الصندوق الذى فيه جسد كليبير الى ديوان الحكم واثبتوا عليه الذنب وهو انه حين كان بمصر امير الجيوش طلع واحده الى الجنينه من غير ان ياخذ معه احد الصلدات وبما انه منفرد وبغير سلاح قتل كما ذكرنا سابقاً وبرز القصاص عليه من ديوان الحكم بأن يحبس سنتين بمكان ويقف على باب المكان ورديان حامل البندقيه ليلاً ونهاراً ينظره وبعد السنتين يعمل له نهار عظيم بزياح بمدينة باريس وحينيذ يقبروه بكل اجلال واكرام .

ثم فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول انهم قبل ما انهم يسافروا من رشيد كتبوا الى السارى عسكر منو واخبروه عن الصلح الذى عملوه وارسلوا له صورة الشروط مع ستيفو الخزندار الذى هو خزندار المشيخه فى مصر التى جميع اموال المشيخه ومداخيلها كانت تحت يده ومن يده كانت تتفرق وهذا من حين دخلت الفرنساويه الى مصر ما تغير من رتبته لانه كان رجل متفنن فى علم الحساب والضبط فهذا حين وقع الصلح مع الجنرال بليار والدولتين المذكورتين فكان من جملة الشروط كما ذكرنا ان الخزندار ستيفو يدخل الى اسكندريه بالخزنه التى معاه وكان الامر كما ذكرنا وهو ان المذكور اخذ الخزنه ودخل بها الى اسكندريه لعند السارى عسكر الجنرال منو واعطاه صورة الشروط التى تمت مع بليار فى مصر .

فاما السارى عسكر المذكور فما زال مصر على عدم التسليم لانه كان متحصن بزياده كما ذكرنا سابق وكان عنده قومانيه زايده وجبخانه كثيرة لان الفرنساويه لما حضروا الى مصر احضروا معهم جبخانه تكفيهم عشرة سنين اذ كانوا كل يوم يحاربوا من كلل ومدافع وبارود ورصاص ومع هذا جميعه فى حين دخولهم الى مصر حالاً اصطنعوا معمل بارود فى جزيرة الروضه وفى الجيزه كانوا مدورين ورشه عظيمه مقدار خمساية

فرنساوى لعمل القنابر وسكب الكلل والرصاص وشغل عجل المدافع لانه فى اواخر مدتهم جعلوا اتكالهم فى الحرب على المدافع وكانوا يضربوا فى المدافع نار دايمه كما كانوا يضربوا نار دايمه فى البندق وبنوا طواحين تشتغل من الهوا وكانت هذه الطواحين تشتغل فى النهار والليل شغل عظيم الذى كان يكفى هذه العساكر دقيق وكانوا مدورين افران للخبيز تكفيهم عيش وبقسماط وكل ذلك كان صنعة يدهم ورجالهم هى كانت تشتغل وكانوا متقويين جدا . ولكن كانت رجالهم قليلة على مملكة مثل هذه التى تحتوى على خمس ملايين من الخليقة هذا عدا العساكر التى تورد عليهم من البرور والبحور من الدولتين اى العثمانية والانكليزية لان فى سنة ١٢١٥ حضرت العساكر لمحاربتهم العساكر براً وبحراً حتى ان الانكليز جيش عليهم من الهند ايضاً وحضرت العساكر براً وبحراً بيض وسود نحو ثمانية الاف وذلك من بحر الهند على طريق القصير والسويس واحتطاتت بهم اعداهم من كل جهة وناحية ففى الاسكندريه كانت عمارة العثملى وعمارة الانكليز بعساكر بريه وبحريه . ومن طريق غزه عساكر الوزير الاعظم بعرضى عظيم مع عرضى سناجق دولت مصر ومن الصعيد عساكر الانكليز الوارده من الهند هذا واهل البلاد ضدهم واعداهم فلله درهم من ابطال وفرسان لا يهابون الموت ولا يخشون من الفوت .

ثم فلنرجع الى ما كنا فى صدده وهو ان السارى عسكر منو صمم على عدم تسليم اسكندريه فمن بعد سفر الجنرال بليار مع عساكره الخارجه معه من مصر احتاطت عساكر الانكليز مع عساكر القبطان باشى حول مدينة اسكندريه وكانت العساكر الفرنساويه بنت متاريسها خارج المدينه وبدا الحرب بينهم وبين الانكليز والعثملى واشتدت الحروب جداً من البحر والبر وبالاختصار نقول انه قد حصل بينهم جملة مواقع واشتد الحصار على مدينة الاسكندريه وتضايقت اهل المدينه جداً من قلة المونه وعدم وجود القمح من بيوت الرعايا ولكن كان موجود رز بزياده فكانوا يعملوا الرز عيش ويخبزوه ومن زيادة اكل الرز بزياده من غير حنطه مرض اناس

كثيرين وماتوا وصار جوع عظيم فى مدينة الاسكندريه فى هذا الحصار . واما الفرنساويه فكانت مونتهم عندهم لانه قبل الحصار واحتياط العساكر حول المدينه كانت عربان ذلك البر تجلب لهم الحنطه وياخذوا ثمنها منهم بزياده فلاجل ذلك العربان ادخلت الى الفرنساويه غلال كثيره وفى اواخر هذا الحصار عدم وجود اللحم والسمن والقوت وهرب خلق كثير من البلد الذين اطلقوا سبيلهم الفرنساويه وصارت البيضه تباع باربعين فضه وقاست اهل البلد اهوال عظيمه لا تحد ولا توصف ومن بعد حروب كثيره ووقايع من البر والبحر من بعد ضيق عظيم سلم السارى عسكر منو مدينة اسكندريه وسافر حكم ما سافر الجنرال بليار من مصر وذلك من بعد ستون يوم ودخلت عساكر الانكليز وتسلمت مدينة الاسكندريه مع عساكر القبطان باشى هذا ما كان من امر مدينة اسكندريه وحصار الفرنساويه بها وخروجهم منها .

ثم فلنرجع لما كنا فى صدده ونقول اننا قد قلنا ان سعادة الوزير الاعظم فى ابتدا شهر ربيع الاول سنة ١٢١٦ دخل الى مدينة مصر بعد خروج الفرنساويه منها واطلق الامن والامان وطمن الرعايا ولا سيما النصارى واخرج فرمان ان جميع الدعاوى التى حدثت فى مدة الفرنساويه من المسلمين والنصارى فهذه بطاله ولا تقوم فى المحاكم لان حضرة مولانا السلطان قد عفا وصفح عن الجميع ومن الان وصاعد كلمن اذنب يوخذ بذنبه واطمانت الرعايا الاطمنان الكلى وفرق قلقات على كامل الخطوط وعلى الحارات واما مساكن النصارى فكان على كل باب حاره قلق وكانت النصارى اذا ارادت تمشى فى شوارع مصر فكان لا بد لكل واحد منهم ياخذ له عسكرى من القلق يمشى معه لاجل غفارته من باقى العسكر ومتى رجع الى بيته يدفع له اجرته من ثلثة غروش الى غرش ونصف على قدر مقامه .

ودخل مع سعادة الوزير الاعظم السيد احمد المحروق الذى ذكرناه سابق فى التاريخ الذى هو شابندر تجار الاسلام فى مصر فهذا المذكور صار له قبول عظيم

عند الوزير الاعظم بزياده واتصل اسمه وذكره الى الدولة العلية فهذا فى دخوله الى مصر صار له احتفال عظيم من الاسلام والنصارى .

ودخلت مع الوزير الاعظم السناجق حكام مصر سابق وهم ابراهيم بيك الكبير وعثمان بيك الاشقر ومرزوق بيك وعبد الرحمان بيك وعثمان بيك الطنبرجى وعثمان بيك البرديسى واحمد بيك الكلارجى ومحمد بيك المنفوخ ومحمد بيك المبدول وسليم بيك ابو دياب والباقى من كشاف واغاوات وخزنداريه ومماليك . واما محمد بيك الالفى فهذا بقى فى بر الجيزه بعيداً عن مصر . ودخل ايضاً معهم عثمان بيك حسن الذى كان من الغز قديماً ومقيم فى الصعيد فهذا حين دخلت الفرنساويه ارض مصر ندر على ذاته وقسم يمين معظم انه لا يحلق شعر راسه طالما الكفار فى ارض مصر وبقى ثلثة سنين ما حلق راسه وكانوا يدعونه ابو شوشه .

واما مراد بيك فالمذكور من شهر الحجه سنة ١٢١٥ حصل طاعون عظيم بارض الصعيد فمات بالطاعون قبل خروج الفرنساويه بشهرين ومات سلمان بيك ومات جملة كشاف ومماليك ومراد بيك عند موته جمع مماليكه السناجق والكشاف والاغاوات والمماليك وودعهم واقام عليهم كبير عوضه الامير عثمان بيك الطنبرجى وسلم الخزنه الى عثمان بيك البرديسى واوصاهم الوصية التامة بانهم يكونوا مع بعضهم قلب واحد وقال لهم لا تخرجوا من خاطر اخى ابرهيم بيك والذى يجرى عليه يجرى عليكم ومات وناحت عليه الغز تماماً . وقالوا قد انطفى سراج دولة المماليك وكان كلامهم هذا بالصواب .

كون انه من بعد دخول السناجق الذى ذكرناهم الى مصر مع الوزير الاعظم ومن بعد اخذ مدينة الاسكندريه ارسل حسين قبطان باشى خبر لسعادة الوزير الاعظم وطلب منه السناجق اولاد مراد بيك بموجب فرمان خطابا منه لهم فحين وصل الفرمان الى الوزير الاعظم احضرهم وقال لهم ان اخى القبطان باشى طالبكم تروحوا لعنده فى سوال وجواب فلا تخشوا من باس جمله كافيه فقالوا السمع والطاعه

نحن عبيد مولانا السلطان وكان مطمانين من وجهين الاول السلطان ارسل لهم عفونامه وذلك فى مدة مراد بيك قبل موته الى مراد بيك والى كامل جنس الغز ثانياً ان السناجق قبل دخولهم الى مصر مع الوزير كانوا قابلوا سارى عسكر الانكليز ووقعوا فى عرض دولة انكليتيره والسارى عسكر المذكور قابل فيهم الوزير الاعظم والقبطان باشى واخذ لهم امان كافى بموجب عهد وميثاق ومن قبل دخولهم الى مصر ايضاً حين كانوا فى بر الشام فى مدة القبطان سميت سارى عسكر عمارة الانكليز كان ابرهيم بيك وقع فى عرضه والمذكور قابل فيه سعادة الوزير الاعظم واوصاه عليه الوصية التامة وايضاً حضر وصيه على الغز المماليك من دولة انكليتيره خطاباً الى سارى عسكر الانكليز بان يحادى ويحامى عن السناجق وجميع المماليك كون انهم بقيوا فى عرض المشيخه حكم ما كان معرفهم القبطان سميت فمن هذين الوجهين كانت السناجق المذكورين متطمنين الطمان الكلى فحين حضر لهم الطلب من سعادة القبطان باشى قالوا سمعاً وطاعه وركبوا السناجق اولاد مراد بيك وهم عثمان بيك طنبرجى وعثمان بيك البرديسى ومحمد بيك المنفوخ وعثمان بيك الاشقر مملوك ابراهيم بيك وابرهيم كاخيه السنارى الذى كان كاخية مراد بيك وانتقل عند عثمان بيك طنبرجى وركب معهم جملة اغاوات وكشاف ومماليك عيلتهم وساروا الى بندر رشيد ومن رشيد الى عرضى قبطان باشى الذى كان قدام اسكندريه وقابلوا سعادة القبطان باشى فاراهم كل بشاشة وترحب بهم وانتقلوا الى عند سارى عسكر الانكليز وسلموا عليه والمذكور ترحب بهم كثيراً ثم اختلوا به سراً وقالوا له ان سعادة القبطان باشى ارسل طلبنا ونحن خايفين من الغدره ولا حضرنا الا بسبب اطمنانا فيكم فنحن من الابتدا فى عرض دولة الانكليز فيكون عندك خبر لا تتهامل عنا اذا حصل لنا امر لاننا نحن خايفين جداً فقال لهم السارى عسكر لا تخافوا كونوا متطمنين الطمان الكلى لانه غير ممكن ان يحصل عليكم ولا اقلها شر لان نحن بيننا وبينهم عهود ومواثيق على شانكم فكونوا فى غاية الامن والامان لا تخشوا من باس جمله كافيه .

فانصرفوا من عنده وذهبوا الى خيامهم واقاموا نحو اربعة ايام وفى ذات يوم حين دخلوا صيوان القبطان باشى فقال لهم المشار اليه تفضلوا بنا ننزل الى المراكب نتوجه الى اسكندريه من البحر نتنزه فقالوا له تفضل وسار وهم ساروا وراه فنزل هو فى مركب وهم فى مركب وسبقوه وهم فى نيتهم رايحين الى اسكندريه وهو راسلهم الى مركب البيليك الكبير فحين وصلوا قرب البيليك عرفوا انها ملعوب عليهم فما رضيوا يطلعوا البيليك بل انهم حطوا ايديهم على سلاحهم وتحاربوا مع الذين كانوا معهم فى المركب من العثملى وصارت عساكر البيليك تضرب عليهم البندق من فوق فالامير عثمان بيك البرديسى انجرح ورمى حاله فى البحر وطلع الى بر اسكندريه واما الثلثة سناجق الاخرين مع ابرهيم كاخيه السنارى قتلوا ولما وصل عثمان بيك البرديسى الى البر فصار يجرى وهو مجروح حتى وصل الى صيوان سارى عسكر الانكليز واخبره بما وقع وان السناجق جميعهم ماتوا وكان سارى عسكر الانكليز قد سمع ضرب الرصاص فحالاً نبه على عساكره واصطفت العساكر وحين فهم حقيقة الحال من عثمان بيك فاغتاظ غيظاً شديداً وامر العساكر ان يضربوا حلقة العساكر العثمانيه وحول صيوان القبطان باشى وهيوا المدافع والكلل وارسل خبر الى مراكبه بان تضرب حلقة العماره العثمانيه وارسل خبر الى القبطان باشى يطلب منه جميع الغز الذين عنده ان كان هم احيا ام موتى فارسل له الجميع فحين وصلوا لعنده فعمل مناحه عظيمه للسناجق القتلا ومشوا قدامهم الاى حسب عوايد الافرنج ودفنوهم .

ثم فى غضون ذلك حضر خبر الى عثمان بيك البرديسى ان السناجق ابراهيم بيك وجماعته وقع عليهم الضبط فحبسوا مع كامل الغز الموجودين بمصر فازداد سارى عسكر الانكليز غضب ونوى ان يهم بعساكره ويحضر يضرب مصر .

هذا ما كان من امر اسكندريه وموت السناجق وقيام الانكليز على ساق وقدم . فلنرجع ونتكلم عن امر مصر وما جرى وهو انه من بعد توجه الامرا عيلة مراد بيك الى اسكندريه وموتهم بميقات واحد ارسل سعادة الوزير الاعظم وطلب ابراهيم بيك

وباقى السناجق الموجودين الى المقابله فحضروا لديه فالقا عليهم اليسق وارسل فرق العساكر على كامل بيوت الغز الموجودين بمصر من كشاف واغوات وسناجق وقال لهم انكم مطلوبين لحضرة مولانا السلطان فوصل هذا الخبر الى عثمان بيك والانكليز بالاسكندريه كما ذكرنا اعلاه وازداد الشر فى اسكندريه فحالاً ارسل سارى عسكر الانكليز مرسال من طرفه واحد جنرال ودخل على الوزير وقال له يقول لك السارى عسكر ان القبطان باشى قتل السناجق وبلغه خبر انك انت ايضا حبست باقى السناجق فالسارى عسكر القا اليسق على القبطان باشى وعلى مراكبه وعساكره ويقول لك ان كنت لم تطلق السناجق الموجودين عندك فيحتاج يحضر الى مصر بالعساكر ويحاربك فان كان لم يحصل اطلاق للسناجق وجميع الغز الموجودين بمصر فما يصير بينكم وبينه خير . ففى ذلك الوقت حصل مزيد الغم عند سعادة الوزير لكون ان القبطان باشى فعل هذا الفعل لكون كان الاتفاق ان يرسلوهم الى اسلامبول بالحيله ويبقا هناك الامر الى مولانا السلطان فحين نظر ان الماده اختلفت والفتنه نهضت والنار اشتعلت نخشى ان يصير بهم كما صار فى الاول بوقعة كليبير بل ونظراً ان هذه اكبر شراً من تلك لكون ان الانكليز كانوا كثيرين ومتقويين جداً وعمارتهم حاضره فى اسكندريه وخشى على العماره وكان يوسف باشا الوزير الاعظم عاقلاً فطناً جدا ومهذب الاخلاق وصاحب راى شديد وفكر مديد فلذلك حالاً اكرم الجنرال المرسل اليه غاية الاكرام واظهر له كل بشاشه وقال له سلم على السارى عسكر واخبره انه قد حصل لى مزيد الغم من القبطان باشى فى قتل السناجق ولا ذلك كان بخاطرى او برضاى ولكن هذا امر مقدر من الله واما من قبل السناجق الذين عندى فهم فى مقامهم واكرامهم على ما ينبغى وانما حضر لى امر من الدولة العلية ولهم ايضاً بأن يتوجهوا الى اسلامبول لمواجهة حضرة مولانا السلطان وهناك يصير لهم كل مقام ويرتب لهم معايش ويعطا لهم وظايف وينعم عليهم مولانا السلطان باطواخ ويصيروا باشاوات ويحكمهم فى الاراضى الذى يريدها واما فى مصر ليس له اراده فى اقامتهم وانا الضمين

فى سلامتهم وحفظ حياتهم وان كان لك اراده تقابلهم قم ادخل الى عندهم فتراهم فى كرامتهم ومقامهم محفوظ وايضاً تسمع منهم انهم ذاتهم لهم اراده فى التوجه الى اسلامبول ثم ارسله بالحال مع ترجمانه الى عند السناجق حيث كانوا موجودين وقد كان ارسل خبر الى السناجق انهم يتكلموا مع الجنرال كما تكلم الوزير والزمهم ان يكتبوا مكتوب الى السارى عسكر بانهم فى مقامهم وكرامتهم ولا جرى عليهم شى من المخالفات وان لهم اراده ومرام فى التوجه الى اسلامبول وهم فى غاية الحفظ والصون فالتزموا انهم يكتبوا الى السارى عسكر هذه الكتابه المذكوره وقابلهم الجنرال ونظرهم كما اشار سعادة الوزير واخذ الجواب وتوجه الى اسكندريه واخبر بما عاين وسمع فاشتد غيظ السارى عسكر جداً وارسله ثانياً الى الوزير الاعظم بالكلام الاول انه ان كان لم يطلقهم والا لازم اصنع حرب

وكان من بعد توجه الجنرال من عند الوزير بالجواب فحالاً سعادة الوزير الاعظم احضر الى عنده القنصل كارلو رشيتى الذى ذكرناه سابق بالتاريخ واخبره بما حصل بالاسكندريه وقال له هذا وقتك انت رجل محب خاص الى الدولة العلية ومحسوب من رجالها فانهض وسافر الى اسكندريه وصالح ما بين السارى عسكر والقبطان باشى ودبر هذه الماده بحسن رايك ولا اعرف حل هذا المشكل الا منك .

فنهض المذكور وبالوقت والساعه سافر الى اسكندريه وحين وصل نظر العساكر متحضرة فدخل على السارى عسكر فرآه فى شدة الغيظ والغضب فاخذ يكلمه ويرطبه فنفر فيه السارى عسكر وقال له كلمه واحده انكليزيه ان كان الوزير الاعظم لم يطلق كامل جنس المماليك الذين فى مدينة مصر والا لازم انى اعمل حرب فى مملكة مصر واخرب هذه المملكة لانه لا حيوة لدولة الانكليز فى الدنيا ان كانت لا تحمى عرضها لان هؤلاء المماليك هم فى عرض مشيخة الانكليز من ثلثة سنوات واخذنا خاطر الدولة العلية قبل هذا الوقت واخذنا لهم ايضاً من القبطان باشى ومن الوزير الاعظم جملة امانات كافية وهؤلاء اناس مقصودهم كسر عرض مشيخة الانكليز بين

ملوك العالم فانا غير ممكن انني ارتضى بذلك ولو فنيت جميع عساكرى وعمارتى فارجع لمن ارسلك ورد له هذا الجواب ولا معك اجازه تبات هذه الليله فى هذه الارض .

فحين نظر القنصل حماقة السارى عسكر وعرف انها فتنه عظيمه وغوايلها رديه وياتى من ذلك خراب عظيم فاخذ اذن من السارى وقال له مرادى اقابل القبطان باشى وانشا الله تعالى ما بيصير الا كل شى على مرادك وكان مع القنصل احد الافندية من طرف الوزير فسمع الخطاب الذى حصل جميعه وخرجوا الاثنين وتوجهوا قابلوا القبطان باشى ونصوا له ما سمعوه من السارى عسكر وبدوا يتداولوا فى بعضهم وقالوا بقا الاوفق اطلاق الغز والمماليك واطفا نار هذه الفتنه الآن فكتب القبطان باشى الى الوزير وايضاً القنصل وارسلوا الافندى الذى عاين وسمع فاخبر حضرة الوزير فاقتضى الراى اطلاقهم .

وكانت يوميذ الانكليز فى الجيزه مقدار خمسماية نفر صلدات ومعهم جنرال كبير عليهم فحضر له خبر بان يعدى الى مصر ويتسلم السناجق وكان الامر ودخل قابل الوزير وخرج الامر باطلاق كامل جنس المماليك من سنجق الى مملوك وركبت السناجق بكامل عيلتهم وكانوا مقدار خمسماية نفر وعدوا من مصر الى بر الجيزه بجملتهم وكامل تعلقاتهم وتوجه الخبر الى اسكندريه ففى ذلك الوقت حصلت الصلحه بين السارى عسكر وبين القبطان باشى . ثم ان القبطان باشى اخذ كامل عساكره وسار بالعماره الى مدينة اسلامبول وبقيت الانكليز فى مدينة اسكندريه ورشيد وفى الجيزه .

ومن بعد وصول القبطان باشى الى مدينة اسلامبول عكس امور الغز والانكليز الذين فى مملكة مصر وذلك بواسطة الشي الانكليز الذى فى اسلامبول لان المذكور ارسل الى السارى عسكر بمصر يقول له انك لا بقيت تقارش امور الغز منهم لسلطانهم ولدولتهم يصطفلوا وعلى هذا الموجب حضرت اوامر من الدولة العليه الى الوزير انه يطرد الغز من ارض مصر .

ولكن كانت الغز خرجوا من مصر وعدوا الى الجيزه كما ذكرنا فبلغ ذلك اليهم فخافوا.

فقال لهم جنرال الانكليز لا تخافوا ولا تخشوا من باس غير ممكن اننا نسلم فيكم.

فقالوا له ان الوزير بعد هذا الخبر لازم يشيع علينا تجريده.

فقال لهم الجنرال لكم علينا اننا نحميكم من الجيزه الى ان تسيروا مسافة يومين ومن بعد ذلك انتم كفايه لان بروركم واسعة ومعاكم اقليم الصعيد واسع.

فقالوا له نحن مقصودنا تحمونا مسافة ساعتين فقط بعد الجيزه ونحن بعون الله تعالى كفايه لحماية انفسنا.

وكان الامر وركبت الغز من بر الجيزه وتوجهوا نواحى الصعيد ومن بعد ما ركبوا الغز كما ذكرنا رجع ابرهيم بيك وحده وطلب مقابلة الجنرال مره ثانية وقال له ايها الجنرال لا تغشونا ان كان انتم ايضاً علينا فاعطونا خبر لكى نسلم انفسنا بيدكم من الان لانه اذا كان يخرج ورانا تجريده وننظر بها عشرة انفار انكليز فغير ممكن اننا نحاربها بل نسلم ذواتنا للسيف وان كان لم يحصل منكم مساعده لهم ولا يخرج احد منكم ورانا فنحن بعون الله قد حزننا وفرحنا فقال له الجنرال كونوا مطمانين من قبل ذلك غير ممكن اننا نساعد احد عليكم وعدا ذلك ان مشيخة الانكليز تفوتكم او تنساكم من المساعده والمعونه فكونوا فى غاية الامان من ذلك وانا لازم اننى الان اعرض الى المشيخه جميع ما جد الان فتوجهوا بالسلامه.

فودعه ابراهيم بك ولحقوا الغز ارض الصعيد وصارت تشتغل الكتابات ما بين الانكليز وبين العثملى على شان تدبير امور الغز هذا وسعادة الوزير الاعظم مقيم فى مدينة مصر والبس محمد باشا ابو مرق حاكم على مصر فاشمازت العساكر العثمانية من ذلك كون انه ابن عرب وتبلبلت الباشاوات الذين كانوا معه لانه كان معه ابرهيم باشا المحصل وطاهر باشا ارناؤط وابرهيم باشا والى عنتاب وبلغ ذلك الى اسلامبول

فاخرج قبطان باشى امر من حضرت السلطان سليم بعزل محمد باشا ابو مرق والبس والى على مصر محمد باشا الذى كان كاخية القبطان باشى وذلك بموجب خط شريف فوصل الخبر الى الوزير الاعظم بمصر فقال السمع والطاعه واعطا محمد باشا ابو مرق باشاوية القدس وغزه ويافا وبدا يهم على السفر الى مدينة اسلامبول وفى شهر رمضان دخل محمد باشا الى ابو قير ومن ابو قير الى رشيد وفى اواخر هذا الشهر المبارك دخل الى مصر واستقام فى البر الثانى وحضر قابل الوزير الاعظم والصدر المفخم البسه كرك ورجع الى البر الثانى وفى غرة شوال خرج سعادة الوزير الاعظم من مدينة مصر بالعساكر وابقا فى مصر عساكر الارناؤط مع طاهر باشا وجانب انكشاريه وبعض لموم.

وتوجه معه محمد باشا ابو مرق وابراهيم باشا والى حلب وابرهيم باشا والى عنتاب وكان مدة اقامت الوزير فى مصر سبعة اشهر وخرجت معاه العلما ورجال مدينة مصر واكابرها وودعوه ورجعوا . ثم توجهوا لعند محمد باشا القادم من اسلامبول والى مصر وهنوه وركب بموكب عظيم ودخل الى مصر وسكن فى بيت محمد بيك الالفى الذى هو فى بركة اليزبكيه ودعا البنايين والنجارين وبدا يكمل عمارته لان هذا البيت بناه فى الاصل محمد بيك الالفى مملوك مراد بيك وحين تم بناه قطن فيه اقل من جمعه ودخلت الفرنساويه فسكن فيه امير الجيوش بونابرته سنه كامله وسافر ومن بعده سكن فيه امير الجيوش كليبير عشرة اشهر وقتل فيه ومن بعد ذلك ابتدا السارى عسكر منو يبنى فيه فقبل ان يكمل بناه دخلت الانكليز والعثملى وراح لمحاربتهم فى اسكندريه ومن هناك سافر الى فرانسا . واما الوزير الاعظم حين دخل لمصر قطن فى بيت داخل البلد وبعده لما حضر محمد باشا سكن فى بيت محمد بيك الالفى كما ذكرنا وصار هذا البيت عظيم الى الغاية لان فى ستة سنين ما خرجت منه البنايين ولا النجارين وكان جنبه جملة بيوت محروقة من زمان الاربعة وثلثين يوم الحرابه كانوا الفرنساويه حرقوهم . فاراد محمد باشا ان يعمر موضعهم فسخر جميع اهل مصر فى شيل التراب من عسكر وعلما وتجار ونصارى شوام واقباط واروام وجميع المسلمين

لغايه جميع الحرف شالوا التراب حتى ما بقى ولا واحد ان كان غنى او فقير الا وشال التراب . ثم بعده عمر جانب السرايا اسوار وابراج وحصنها بالمدافع والقنابر وعمر ايضاً وكاله ودايرها من خارج دكاكين وقهوه والغايه صارت تلك الرقعة ظريفة للغايه وعمل جبخانه عظيمه ونقلها لتلك الابراج وايضاً كان قدام سرايته بارض بركة اليزبكية نحو ثمانين مدفع كبار وصغار على العجل مصفوفين وعين عبيد من تكرور واشترى جملة عبيد جلب وكان عنده نحو ثمانين نفر فرنساويه صلدات وطوبجية فهولا هربوا من الفرنساويه وخدموا عند السناجق وبعد سفر الفرنساويه من مصر فاجتمع البعض منهم وحضروا لمصر وخدموا عند محمد باشا والبقيه استمروا عند الغز فى الصعيد لابسين كسم المماليك . فهولاء الثمانون صلدات كانوا يعلموا العبيد والتكارنه السود ومماليك بيض كانت عند محمد باشا عموما علموهم حرب الافرنج على الارض وعلى الخيل فى كل يوم مرتين بدرى وعشيه وصار عنده من المماليك والعبيد والتكارنه والفرنساويه مقدار خمساية نفر . ومن بعد شهرين من دخوله الى مصر بدى يجرد على الغز تجاريد ويرسل عساكر وبدت تصير ما بينهم الوقايع والحروب الكثيره .

وسهى علينا ان نخبر انه من بعد خروج الوزير الاعظم من مصر للقبه التى هى مسافة ساعه واحده من مصر كان محمد باشا متخفى وداير فى البلد فقتل فى طريقه الوالى والمحتسب الذى كان الوزير الاعظم لبسهم ومن بعد عشرين يوم قتل السيد احمد الزرو التاجر النابلسى فى وكالة الصابون فارعش بقتل هولاء المدينه وكان فى كل يوم يختفى ويدور فى المدينه وقتل خلق كثير سراً . وقتل ايضاً من النصارى والشوام اثنين احدهم كان تاجر وكان يقدم الجوخ فى مدة الغز الى ابرهيم بيك ومرزوق بيك وغير امرا وفى دخول الوزير الاعظم كان يقدم له الجوخ والقماش وحين دخل محمد باشا صار يقدم له الجوخ والقماش والثانى فى مدة الغز يضمن الدواوين ويخدم الامرا فهولاء الاثنين احدهم اسمه ابرهيم زيدان والثانى اسمه بركات وقتل ايضاً معهم رجل قبطى اسمه انطون ابو طاقيه فهذا الرجل كان مباشر بلاد وهو من اكابر القبط فالثلاثة

امر بحذف رقابهم فى يوم واحد وكان اخر يوم فى الخماسين نهار اثنين العنصره عند النصارى ووقع خوف عظيم عند جميع النصارى وعظم عندهم الوهم جداً ثم رموا اجسادهم فى بركة اليزبكية واجتمعت جعيدية مصر واسلام ما ينيف عن عشرة الاف يتفرجون ويتهللون ونسايهم يزلغطون ويهللون فنظر محمد باشا هولاء من الشبابيك فسال ما هولاء هكذا يفعلون وماذا يقولون فقالوا له اهل مصر المسلمين فرحانين على موت هولاء النصارى فحين نظر خفة عقول المصريين ورداوتهم فأمر حالاً برفع الاجساد وطرد هولاء القوم المجانين ورقدت مدينة مصر رقوداً كلياً وثانياً انزل المنادى ينادى ليس احد يعارض احد امن وامان وقلت المعارضه للنصارى وتوضبت العساكر واهل البلد وصار الديب والغنم يرعى سوا .

هذا والتجاريد متصلة وكان بعد دخول محمد باشا لمصر اعطا الامان لاحد السناجق اسمه عثمان بيك حسن قد كان لبسه سنجق حسن باشا قبطان الجزايرلى ووعد هذا السنجق انه اذا حضر لمصر يلبسه امير حاج فلما حضر فما لبسه بل خزبله فى بيته فحين كان يجرد العساكر على الغز الذين فى الصعيد فامر حينيذ عثمان بيك المذكور بان يجمع الغز الموجودين فى مصر ويطلع بهم لمحاربة الغز الذى بالصعيد فجمع رجاله فكانوا ينيف عن خمساية نفر شجعان ضرابة سيف واخذ ذخايره وجبخانته وهرب الى الصعيد ولا رضى يحارب بقية الغز وكانت التجاريد متصله ولكن قط ما ربحوا ولا انتصروا على الغز ولا مره واحده بل بعكس ذلك .

هذا والانكليز الموجودين بمدينة الاسكندرية ما كلوا ولا فتروا عن المكاتبه الى الدولة العلية فى شان الغز وراحتهم وكانوا كلما نظموا لهم امر واخرجوا لهم اوامر وفرمانات براحتهم ودخولهم الى مصر فكان يظهر اوامر ضدها وفرمانات بعكسها وفى آخر هذه المدة قامت الغز بجميع عساكرهم وكانوا نحو ثمانيه الاف لانه اجتمع عليهم عربان كثيرين وهواره وطموش واما جنس المماليك كانوا نحو الف وخمساية فقط والباقى كما ذكرنا فهولاء قاموا من الصعيد وانتقلوا الى براسكندريه قريباً من الانكليز ،

فحصلتهم العساكر العثمانيه من مصر وكان السارى عسكر عليهم يوسف كاخيه الذى هو كاخية محمد باشا ومحمد على بين باشى ارناؤط ومصطفى اغا باش جوخدار الباشا الذى كان وقتها باش تبذيل فى مصر وكان مدبدب البلد ومرعشها فهولاء الثلثه كانوا سوارى عسكر محمد باشا واما طاهر باشا ارناؤط فهذا قط ما خرج لحرب الغز بل كان حد ما يبرز لبر الجيزه فقط وكان يقول انا لا اغازى باناس مسلمين . وحصل جملة مواقع بين الغز وعساكر محمد باشا فى بر اسكندريه وقط ما ربحوا على عساكر الغز .

ثم وفيما بعد ان الغز فى بر اسكندريه واذا باوامر حضرة من دولة انكليتيره خطاباً الى السارى عسكر بالاسكندريه يامره بالقيام من مدينة اسكندريه بالعساكر والعماره وان يتوجه ويقيم فى جزيرة مالطا فاخبر الغز بذلك وقال لهم ارجعوا الى مواضعكم بالصعيد فرجعت الغز حالاً للصعيد وسافرت عساكر الانكليز بالعماره من اسكندريه فى شهر شعبان سنة ١٢١٧ واخذوا معهم محمد بيك الالفى لكى يدبروا امر للغز وكان مدة اقامة الانكليز فى القطر المصرى من حين دخولهم لوقت خروجهم سنتين . وارتجعت العساكر العثمانيه الى مصر لعند سيدهم محمد باشا .

وقد كان قبل خروج الانكليز من اسكندريه بمدة شهر حضر واحد كوموساري من بلاد فرانسا واسمه سافستيانوس وحضر الى مصر وعمل له محمد باشا ملاقاه عظيمه ومشى العساكر امامه وضرب المدافع ولما وصل واجه محمد باشا كم مره باشيا سريه ثم واجه بعض العلما وقعد سبعة ايام فى مصر وسافر على طريق دمياط لانه لما حضر اتى على اسكندريه ولما وصل الى دمياط صار له ايضاً اكرام زايد ومراكبه توجهة له من اسكندريه الى بوغاز دمياط فنزل فى المراكب وسافر الى عكا عند احمد باشا الجزار ولم نعلم ان كان قابله ام لا ومن هناك سافر الى فرانسا ولم كان احد يعرف فى ايش حضر .

ثم فى هذا الزمان حضر من اسلامبول خليل رجايي افندى دفتردار مصر من قبل الدولة العلية وحين حضر صار يظلم الناس ما خلى احد لا مسلم ولا نصرانى

الا واخذ منه دراهم يقول سلفه ومن الجمله اخذ من النصارى الشوام اربعمايه كيس يقول انها سلفه وفيما المذكور بهذه الاحوال دخلت العساكر الذى كانت بالتجريده على الغز وطلبت جوامكها وعلايفها فبدوا يجمعوا لهم مال ويتسلفوا كما ذكرنا ويدفعوا لهم وكل ذلك ما وفا جوامكهم وتبقا لهم جانب وكان الباشا قطع جوامكهم فطلبوا منه باقى جوامكهم لكى يسافروا من مصر فقال لهم محمد باشا اخرجوا من مصر وبرزوا خارج المدينه وانا اغلق لكم علايفكم وكان باقى لهم كسر تسعماية كيس تماماً فقالوا له نحن لا يمكن اننا نطلع من المدينه ان لم نقبض ما تبقا لنا من جوامكنا على آخر جديد وكان المتكلم فى روسا العساكر محمد على بين باشى وكان له حزب كبير فاشتغلت الفتنة ما بين محمد على وباقى العساكر حزبه وما بين محمد باشا وبدت تتولد الامور الى ان تنافرت العساكر ونهار الجمعة سادس شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٢١٨ هجمت روسا العساكر المذكورة وكانوا ثمانية عشر بين باشى وراسهم محمد على بعساكرهم على بيت الدفتردار وكان جنبهم بالبزبكيه ومسكوه وحبسوه ونهبوا بيته وجميع الاموال والامتعه وحين راى محمد باشا ذلك ففى وقت الظهر بعد صلوة الجمعه بدا يضرب المدافع عليهم فى بيت الدفتردار وهم بدوا يضربوا عليه البندق لان وقتها ما كان عندهم مدافع . فكثر عليهم الضرب بالمدافع من بيت الباشا حتى احترق بيت الدفتردار وتم الحرب بينهم ذلك النهار كله .

وثانى يوم السبت من صباح النهار بدا الحرب بينهم كما كان قبل . ثم ان طاهر باشا نادى بالمدينه امن وامان يارعايا لا تخشوا من باس هذه عساكر فى بعضها كلمن غلب هو حاكمكم كونوا مطمانين . ثم ان طاهر باشا نهار السبت ثانى يوم الحرابه مسك يوسف كاخيه الذى هو كاخيه محمد باشا والمذكور كان وقتها محافظ على بيت السيد احمد المحروق فنهبوا البيت المذكور ومسكوا يوسف كاخيه واخذه طاهر باشا وطلع به الى القلعه وكان موجود بالقلعه عثمان اغا خزندار محمد باشا ماسك القلعه ومحافظ عليها فلما طلع طاهر باشا عمل حاله انه جاى من طرف محمد باشا وقيل ان عثمان الخزندار

والس معه وسلمه القلعه فعلى اى حال اخذ طاهر باشا القلعه الكبيره وحط بها عسكر ارناؤط ونزل مدافع وقنابر وجبخانه من القلعه واظهر حاله مع محمد على وبقيت عساكر الارناؤط وصاروا كلهم صوت واحد وكلمه واحـده وكان فى المدينه جملة عساكر انكشاريه فاتفقوا مع الارناؤط والغاية صار حزبهم كبير جداً . ثم جروا المدافع والقنابر وحطوهم قدام بيوتهم عند باب الهوى باليزبكيه وغير مواضع وصاروا يضربوا على بيت محمد باشا فعسكر محمد باشا الذى كان قدام السرايا يضرب بالمدافع الذى بارض البركه على الارناؤط فلما صاروا الارناؤط يضربوا عليهم فهربوا ودخلوا بيت الباشا وبطل عمال الثمانون مدفع وما بقى عند محمد باشا ضرب سوى من الابراج الذى جنب بيته ومدفع واحد عند قنطره الدكه يضربوا به على الارناؤط وصار يومها حرب مهول وصارت المدافع والقنابر تضرب على المدينة والناس تتهارب من تحت الضرب وخربوا جملة مواضع وتم الحرب على هذه الجهة يوم السبت كله وليلة الاحد ويوم الاحد لبعد الظهر والحرب قايم كانه القيامه قايمه شىء مهول جداً وقد قوى حزب الارناؤط جداً وضعفت عساكر محمد باشا وبالخصوص من قلة الذخايرلان ما بقى عنده شي يطعم العساكر فبقا يلم من النصارى الاقباط الذى كانوا ساكنين ناحيته ويطعم عسكره القوت الضرورى ولكن اى شىء يكفى العساكر الذى عنده ونهـار السبت احضر حريمه من البيت الذى كانوا به وبعد طلوع الحريم من البيت نهبوه عسكر الارناؤط وقفلت المدينه والرعايا تحفظوا على حاراتهم ومحلاتهم وقفلوا ابواب الحارات وكان شى مهول جداً على الرعايا من الخوف والرعب الذى شملهم وكانوا تحت الخطر من النهب والموت ومن الكلل والقنابر الذى كانت تقع عليهم والسيد احمد المحروق كان هرب لبيت الباشا ومعه جملة مال ثم اشتد الحرب على محمد باشا . فيوم الاحد بعد الظهر من زود ضرب القنابر اشتعلت النار فى بيت محمد باشا وشالت بوقته شيله عظيمه فحين نظر محمد باشا ان بيته احترق والضرب قوى عليه ولا عاد عنده شى من القوت فخرج من السرايا نهار الاحد بعد الظهر بساعتين ومعه حريمه مركبهم

على الخيل مثل المماليك وركب معه مماليكه والفرنساويه والعبيد وباقى عيلته . وطلع رامح الحصان والسيف مسحوب بيده وينده طريق ياناس وكانت الارناؤط محاوطاه من كل جانب وحين سمعوا العساكر انه هرب فهجموا على البيت وبدوا ينهبوا فى الامتعه والذخاير والاسلحة والملابس والفروشات العظيمة لان محمد باشا اقتنا ذخاير كثيره وطاب له الوقت وراق له الزمان وخزن امتعه عظيمه من كامل الاصناف وكان مدة اقامته من حين دخوله الى القاهرة لحين خروجه هذا الخروج خمسة عشر شهر من شوال سنة ١٢١٦ الى غاية الحجة سنة ١٢١٧ واحترق ذلك البيت وهدم حتى الى الارض وبقى الابراج والصور والوكالة الذى عمرهم محمد باشا لم صابهم شى لا من النار ولا من الهدم . ثم انتهبت جملة بيوت اقباط كانوا جنب السرايا مثل بيت المعلم جرجس الجوهرى وغيره وبيت صراف باشى وترجمان بيك وغيره وكانت رايحه تنتهب بيوت النصارى بالرضوانيه وحارة الاقباط وغير مواضع لولا طاهر باشا ومحمد على الذين ارسلوا عساكر حافظة ذلك المواضع وكانت ساعة الذى هرب محمد باشا من ساعة اهوال القيامه . ثم تولى الاحكام فى مدينة مصر فى تاسع يوم من شهر محرم سنة ١٢١٨ طاهر باشا ارناؤط وتحت يده روسا العساكر مقدار ثمانية عشر بين باشى والكبير عليهم محمد على . وهذا كان مقارب طاهر باشا بالاحكام وعملوا ديوان وجمعوا فيه العلما والمشايخ والاغا والوالى وباقى ارباب العكاكيز وكتبوا الى اسلامبول كتابه ملايمه ومذمه فى حق محمد باشا واعرضوا ان طاهر باشا تولى الاحكام لبينما تحضر اوامركم وارسلوا نسختين بختومات جميع المذكورين النسخة الواحده مع ططرى خاص لاسلامبول والثانية مع احد المشايخ على طريق البحر .

ثم بدا طاهر باشا فى كل يوم يطلق منادى بالامن والامان واما محمد باشا توجه بعساكره منهزماً بحريمه وعيلته على طريق المنصوره قاصداً دمياط وكان خرج من مصر خرج معه السيد احمد المحروقى الذى ذكرناه سابقاً وهذا المذكور كان معه جانب مال فوقع بالطريق عن ظهر البغله وكانت العساكر محصلينه فوقع بايديهم فاخذوا منه المال

الذى معه وحبسوه فى بولاق وثانى يوم احضروه الى طاهر باشا المشار اليه طمنه والبسه كرك وارسله الى بيته . وارسل ايضاً احضر المعلم جرجس الجوهرى وهذا الرجل كان اكبر الاقباط الموجودين بالقطر المصرى وحساباتها جميعها تحت يده وهذا المذكور حين دخل سعادة الوزير الاعظم اكرمه غاية الاكرام والبسه كرك وقال له انت رجل معلوم الدولة العلية لكون انه بلغ مسامع الدولة ميلك وودك الى الاسلام والمعروف الذى حصل منك مع الاسلام فى دولة الكفار فكن فى خير وامان من كامل الوجوه وكذلك من بعد الوزير الاعظم فى مدة محمد باشا ايضاً زاد مقاماً واكراماً ، فالمذكور ارسل وراه كما قلنا طاهر باشا وطمنه وقال له جميع ما انهب من بيتك انشا الله تعالى يتعوض عليك .

فهذا ما كان من طرد محمد باشا وتولى طاهر باشا فى مصر الى عشرة محرم سنة ١٢١٨ ثم تولى الاحكام فى مصر طاهر باشا ارناؤط واما محمد باشا فانه سار فى طريقه مع رجاله مقدار خمساية نفر الى بندر المنصوره وفى خمسة عشر يوم من شهر محرم المذكور عين طاهر باشا جانب عسكر ارناؤط وارسلهم الى المنصورة لاجل طرد محمد باشا وكان السارى عسكر عليهم اخو طاهر باشا لان هذا المذكور كان له جملة اقارب ما بين اخوه واولاد اخته . وكانت الارناؤط يوميذ بمصر مقدار ستة الاف وفى ذلك الوقت صاروا كلهم عصا واحده وكلمه واحده وكانت عساكر الانكشاريه اولاد الترك نحو اربعة الاف ولكن جميع العساكر صارت تحت طاعة طاهر باشا . وانفرد بالاحكام وطاعة له جميع اهالى مصر من عساكر ومن رعايا وفى حال جلوسه ارسل الى الغز واخبرهم بطرد محمد باشا وطمنهم غاية الطمان واذن لهم بالحضور الى مصر واظهر لهم ان مقصوده الاتحاد معهم من بعد طرد عدوهم محمد باشا فحين بلغ ذلك الى امير اللوا ابرهيم بيك وجماعة الغز حالاً نهضوا من ارض الصعيد واتوا الى بر الجيزة وكانوا مقدار الف ومايتين جندى فقط واما العربان والطموش الذين كانوا معهم مقدار خمسة الاف وبدوا بعض كشاف ومماليك يدخلوا الى مدينة مصر يقضوا اغراضهم ويدخلوا

الى بيوتهم ويرجعوا الى عرضيهم فى بر الجيزه فهذا ما كان من امر الغز وحضورهم الى مصر باذن طاهر باشا .

واما ما كان من امر المذكور فانه حينما راق له الزمان وانفرد بالاحكام بين الخاص والعام . فابتدا ان يبرز منه ما كان كامنه فى ضميره من الشرور وما انطوت عليه سريرته من الظلم والجور وسلب المال وتيتم الاعيال وقد تم به القول بالمثل الساير الظلم كمين بالنفس القوة تظهره والعجز يخفيه فهذا المذكور وهو جايز فى احد الطرق ونظر اثنين حواه يلعبون فى الطريق فامر بقتلهم وبالحال قطعوهم بالسيوف وذلك بغته من غير ذنب ولا سبب ورات الناس بذلك عجب .

ثم ارسل طلب عشرة انفار من اكابر التجار من طايفة النصارى الشوام وطلب منهم الف كيس تمام وسجنهم فى بيت السلحدار وبدا يتهددهم ويتوعدهم بالموت ان كانوا لم يوفوا هذا المقدار وطلب اكابر طايفة القبط وعم البلا وحاط وحبس الجميع وارعش الشيخ والرضيع . وارسل ورق على جملة من اعيان الاسلام فمنهم السيد احمد المحروقى ومصطفى اغا الوكيل ويوسف كاخيه الذى كان كاخيه محمد باشا فهذا المذكور توخر عن الذهاب مع سيده وعلى كبرا الوجاقليه بمصر وطلب منهم اموال غزيره فمنهم من طلب منه الف كيس ومنهم اقل من ذلك على حسب مراتبهم وقتل من الوجاقليه اثنين كبار احدهم احمد كاخيه على والثانى مصطفى كاخيه خنقهم فى القلعة يوم الثلثا فى ٢ صفر وبان للجميع انه رجل سلاب المال ميتم الاعيال وفى عاشر يوم من جلوسه ارسل الى الحبس وطلب واحد من التجار الشوام وواحد من القبط الكتبه وامر بقطع اعناقهم وكان الامر وحصل خوف عظيم عند جميع النصارى وباتوا من هذا الامر المهول حيارى سكارى وكانوا المقتولين احدهم حنا الصبحانى الشامى والثانى ملطى القبطى وختم على محلاتهم ومنازلهم . وبدا هذا الحاكم الظالم فى قتل وسلب من غير سبب ولا ذنب مع انه فى حين تولا بعد طرد محمد باشا احضر العلما تماماً واظهر لهم كل وداعه وذكرهم افعال محمد باشا حين قهر الاسلام والنصارى واليهود فى حمل

الحجاره ونقل التراب الى العماره وذلك الذل والهوان وكثر الظلم والعدوان وقتل الوالى والمحتسب وقتل السيد احمد الزرو والفتك بزيدان وبركات الاثنين النصارى وان كل ذلك ناتج من الظلم والجور وان محمد باشا ظن انه استقر له الحال . وعلى موجب ذلك اذنهم بكتابة عرضحال الى الدولة العلية وان يذكروا بها سجايا محمد باشا الردية وانهم قد ارتضوا بان يكون المتولى امرهم وحاكم قطرهم طاهر باشا لبينما تحضر من الدولة العلية الاوامر الكافيه والمرسومات الشافيه وبان الى مشايخ الاسلام وعلمايها انه رجل صالح وصلاحه انه خلاق متمسك باحد طرايق الدروشة وكانت احواله مخادعه مغشه لانه قد فتح عيناه واذناه واحضانه لاستقبال اهل العناد والشقاق واستماع الدعاوى الخبيثة والامور القديمه والحديثة واضمر فى قلبه لاناس كثيرين القتل والسلب . ولكن الويل ثم الويل لمن لا يتذكر عواقب الامور .

وكان يحب القتل لانه قتل احمد كاخيه على ومصطفى كاخيه الرزاز كواخى الوجاقات العزب والانكشاريه كما ذكرنا سابق وكان السبب فى قتلهم انه لما عمل ديوان العلما وامرهم بكتب العرضحال الى الدولة فطلب من اغات الانكشاريه وكواخى الوجاقات المذكورين انهم يختموا له على العرضحال فقالوا له سلمنا مفاتيح القلعة حكم العوايد ونحن نختم لك على العرضحال فالمذكور ما ارتضى ان يسلمهم القلعة وقاموا من قدامه على غير رضى فالمذكور توعد لهم بكل كراهيه ومن بعد ذهابهم من عنده امر بالقبض عليهم وقتل الاثنين المذكورين .

وكان ايضاً ناوى على قتل من النصارى فلكن الويل لمن لا يخاف الله ، لانه كان متداخله الكبر والغرور ويداوم على ظلم العباد ولا يدرى بان الله بالمرصاد . لانه قد قال بالامثال ان دار الظالم خراب ولو بعد حين .

فاسمع ما تم لهذا المشار اليه وما جرى عليه وهو انه فى ثلثة ايام خلت من شهر صفر الخير نهار الاربع تعصب زمرة من الانكشاريه مقدار خمسماية نفر ودخل منهم نحو ماية نفر بالتدريج الى بيت طاهر باشا المذكور وكان المتقدم عليهم بين باشى اسمه

قاسم اغا وطلع الى المحل الذى كان جالساً فيه طاهر باشا وتبعه البعض من رجاله ودخل على المشار اليه وطلب منه علايف العسكر الذى من الانكشاريه واخذ يرادده المذكور وهو يجاوبه بقساوه وما زال قاسم اغا يرادده ويجاوبه حتى تملك منه وكان بيده قرابينه فاطلقها فى صدره فوقع على الارض فهجمت اصحابه ايضاً على الجالسين مع طاهر باشا وبدوا يطلقوا الرصاص ويذبحوا فيهم وقطعوا راس طاهر باشا ونهبوا جميع ما فى البيت وخرجوا وكان الوقت ضحوة النهار وصارت فى مصر ساعة مهوله وهربت جميع الارناؤط الى بولاق وبعضهم عدوا الى البر الثانى حيث كان عرضى الغز ووقع عليهم وهم عظيم وقفلت مدينة مصر ومن بعد ساعة اطلقوا المنـادى بالامن والامان وسبب ذلك انه قد كان فى مدينة مصر احمد باشا وزير بثلثة اطواخ وهذا المذكور كان سابق فى مدينة دمياط من طرف محمد باشا وكان قبل هذه الموقعة حضر له اوامر من الدولة العلية مع طوخ ثالث وعينوه للتوجه الى الحجاز لاجل المحاماه عن مدينة مكة من الخارجى الذى خرج على ارض الحجاز المدعو بعبد الوهاب وهذا ياتى له كلام فى محل آخر فاحمد باشا المذكور فى حين قيام العساكر ضد محمد باشا كان يوميذ موجوداً فى مدينة مصر ومن بعد طرد محمد باشا كما ذكرنا سابق بدا يدبر مع العساكر الانكشاريه الموجودين فى قتل طاهر باشا وطرد الارناؤط وكان الامر كما ذكر وقتلت الانكشاريه طاهر باشا وبالحال حضروا الى عند احمد باشا وولوه على مصر ونادوا باسمه بالامن والامان وذلك يوم الاربعا ثالث يوم من صفر سنة ١٢١٨ الذى قتل فيه طاهر باشا وارسلوا راس طاهر باشا مع احد الهجانه بمكتوب الى الوزير محمد باشا فى دمياط واخبروه بما حصل وانه يداركهم بالحضور الى مصر .

فهذا ما كان من قتل طاهر باشا وتولى احمد باشا واما ما كان من امر محمد على فانه جمع رجاله مقدار خمسماية خيال وبقى فى بيته وبالحـال كتب الى ابرهيم بيك وعرفه بما حصل وابرهيم بيك وباقى الغز كانوا فى بر الجيزه . فارسل ابرهيم بيك ولده مرزوق بيك مع سليم كاشف المحرجى الى بيت محمد على فى بركة اليزبكيه وعقدوا

مع المذكور صلح واتفاق وان محمد على وباقى الارناؤط يكونوا مع الغز حاله واحده وان يصيروا جميعهم تحت طاعة ابرهيم بيك والذى يجرى على الغز يجرى عليهم والذى يجرى عليهم يجرى على الغز ويترافقوا ويتوافقوا على ذلك وعلى هذا المنوال وقع الشرط والرضا فبلغ ذلك الى احمد باشا والانكشاريه فوقع عليهم الوهم فارسلوا طلبوا علما البلد وعملوا جميعه فقال لهم احمد باشا .

لا خفاكم ايها العلما ان طاهر باشا ومحمد على هولاء اناس عصاه على الدولة العليه ولا سيما اذ طردوا وزير السلطان وبدوا يظلموا فى عباد الله وارسلوا طلبوا الغز المماليك الذين هم مغضوبين السلطان وعاصيين على الدولة العلية من زمان مديد ومقصودهم يملكوهم البلاد ضد خاطر السلطان ونحن نعلم انكم انتم والرعايا لا ترتضوا فى ذلك فيحتاج انكم تتعصبوا معانا لوزير السلطان محمد باشا لم يزل موجود فى دمياط وانا ايضاً من وزرا السلطان وعسكر الانكشاريه هو عسكر السلطان ونحن كلنا رجال السلطان وتحت طاعته فيحتاج ان نقوم كلنا قومة واحدة ونطرد محمد على وعساكر الارناؤط العصاه ضد السلطان ونصد المماليك عن الدخول ونحفظ المدينه لبينما يحضر وزيرها محمد باشا ويبقا لنا ولكم الشان العظيم عند مولانا السلطان فماذا تقولوا ايها العلما والايمه انما هو من الصواب .

فقالوا له العلما اعلم ايها الوزير واسمع الجواب اما من قبل اهالى مدينة مصر فهولاء اناس رعايا ضعفا ليس لهم مقدرة على الحروب ولا عندهم اسلحة ولهم ستة سنين من حين دخل الفرنسيس الى الان وهم فى عذاب اليم وخراب عظيم ونحن ناظرين ان الانكشاريه قليلين والارناؤط كثيرين وعساكر الغز على الابواب واقفين ونخشا يقع بينكم وبينهم الحرب فيهجمون على المدينه وبسبب ذلك يقع السبى والسلب والقتل ويصير خراباً عظيماً لكون ان الغز طموشهم كثيره وهذا شى نحن والرعايا لا نرضاه جملة كافيه فيحتاج ان تدبر لك امر غير هذا .

وانفصلوا من عنده على هذه الصورة فمن بعد انصرافهم زاد عليه الوهم وعلم

نتيجة كلامهم وكان قد حضر كتابه من ابراهيم بيك يامره بها بالخروج من مدينة مصر مع كامل عساكر الانكشاريه ويذهب الى القبـه خارج باب النصر طريق بر الشام واعطاه مهلة اربعة وعشرون ساعه واحتاطت الغز والارناؤط والعربان داير مصر . فبدا احمد باشا يجهز آلة السفر وخرج من مدينة مصر من باب النصر مع نحو اربعماية انكشارى ودخلوا قلعة الظاهر بيبرص المشهورة وذلك نهار الجمعة سادس يوم من صفر وكانت مدة تولى طاهر باشا ثلاثة وعشرون يوم فقط وقتل ومدة احمد باشا يوم واحد فقط ويومين جهز حاله الى الرحيل وقلنا انه دخل قلعـة الظاهر بيبرص . وسبب ذلك انه ظن فى باله انه يحاصر فى القلعه المذكورة لبينما يحضر محمد باشا من دمياط وظنه كان بالصواب لان محمد باشا حين بلغه ما حصل بمصر وقتل طاهر باشا خالاً نهض ووصل الى محل بعيد عن مصر مسافة يومين فقط فبلغه دخول الغز فرجع بالحال الى دمياط وياتى له كلام .

فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول ان احمد باشا دخل قلعة بيبرص ودخل عثمان بيك البرديسى الى مصر يوم الجمعة سادس يوم فى صفر ودخل سليم اغا اغات الانكشاريه وحسين اغا الوالى واطلقوا المنادى فى مصر بالامن والامان حسبما رسم امير اللوا ابراهيم بيك شيخ البلد وقيم مقام مصر حالاً وحسبما رسم محمد على وسبب اشتراك اسم محمد على مع اسم ابراهيم بيك فى المناداه كان لاجل خاطر عساكر الارناؤط لان عساكر الارناؤط من بعد قتل طاهر باشا انتسبوا جميعهم الى محمد على وبقى له حزب كبير ثم احتاطت الارناؤط حول قلعة الظاهر بيبرص وتضايقوا الموجودين بها وطلبوا من الارناؤط يعطوهم طريق للسفر فما مكنوهم وطلبوا منهم ان يسلموهم احمد باشا وقاسم اغا الذى قتل طاهر باشا فما ارتضوا الانكشاريه بذلك وقالوا نقاتل حتى نموت جميعنا ومن حيث ان لا عندهم ذخيره ولا عندهم ماء فتضايقوا جداً وخرجوا ذات ليلة جميعهم لاجل يستقوا ماء من خارج القلعـة فمنعوهم الارناوط بالرصاص ووقع الحرب بينهم فمات منهم ومن الارناؤط ورجعوا الى القلعة ثانى ومن بعد ذلك

قصدوا الغز والارناوط ان يضايقوهم لكى يسلموا فدوروا عليهم المدافع والبنبه فطلبوا الامان واستجار احمد باشا بعثمان بيك البرديسى فرفع الضرب عن القلعة وفتح احمد باشا باب القلعة وسلم نفسه الى عثمان بيك البرديسى فاخذه عثمان بيك بكل اكرام الى قصر العينى مع بعض رجاله واما الذين فى القاعة فاخذوا جميع سلاحهم وكامل ما معهم ومسكوا قاسم اغا ورفيقه الذين قتلوا طاهر باشا واخذوهم الى القلعة الكبيره وهناك قتلوهم وباقى العسكر ارسلوهم عن طريق بر الشام وارسلوا معاهم محمد كاشف الشرقاوى حتى وصلهم الى الصالحية ورجع .

ثم فلنرجع لما كنا فى صدده ونقول ان الغز ابقوا عرضيهم فى بر الجيزه وكانوا يدخلوا الى البلد فى النهار وفى الليل يباتوا فى العرضى كى لا يقال انهم دخلوا الى مصر ولا كان يبان فى البلد سوى اغاة الانكشاريه والوالى وفى غاية يوم من صفر المذكور تسلموا القلعة الكبيرة من الارناؤط ووضعوا بها احمد بيك الكلارجى وعبد الرحمان بيك ومرزوق بيك وسلموا الابواب الى الوجاقات حكم العوايد القديمه وبدوا ينادوا على الانكشاريه الموجودين فى البلد المتخبيين فى البيوت انهم يسافروا من مصر وكل من لا يسافر دمه مهدور وبهذه الواسطه سافر اناس كثيرين ونفد منهم القليلون لان العربان كانت تقتلهم فى الطريق والوالى مع احد السناجق الذى يقال له حسين بيك فهؤلاء الاثنين قتلوا من ابناء الترك اناس كثيرين فكانوا يخنقوهم ويلقوهم فى البحر وكان فى الصعيد من الاتراك اناس كثيره فهولاء كانوا يحضروا فى المراكب وفى البرور لاجل يسافروا الى بلادهم فكانوا يصطادوهم وياخذوهم ويخنقوهم وياخذوا ما معهم ويرموهم فى البحر ووقع على هذا الجنس خوف عظيم وضاقت بهم الارض .

واما خليل رجاى الدفتردار الذى قد حضر الى مصر من طرف الدولة العلية فهذا المذكور مع يوسف اغا كاخيه محمد باشا فهولاء الاثنين بقيوا فى مصر من بعد خروج محمد باشا وكان قبض عليهم طاهر باشا وطلب ان يحرمهم فقتل ومن بعد قتله

وتولى احمد باشا ظهروا مع المذكور وحين خرج من مصر كما ذكرنا بقيوا فى مصر فارسل محمد على بعض من جنوده فذبحوا الاثنين فى بيت واحد وقطعوا روسهم وودوهم الى الجيزه الى ابراهيم بيك ونهبوا جميع ما عندهم وحصل سرور عند الخلق فى قتل الدفتردار لان هذا المذكور من حين دخل الى مصر القا الفتن بين العساكر والباشا وكان رجلاً ظالماً وقبل حضوره من اسلامبول تكفل وتضمن الى الدوله بخمسين خزنه من المال وكان شارع فى بلص وابداع حوادث وظهر منه نتانه زايده فآل به الظلم الى انه مات قتل مهاناً .

وابتدت الغز منذ ذلك الوقت فى جمع عساكر وتجهيز تجريده عظيمه على مدينه دمياط حيث كان محمد باشا محاصراً هناك وسارة التجريده المذكوره بقوة عظيمه والسارى عسكر عليها امير اللوا عثمان بيك البرديسى واخذ معه محمد على سارى عسكر الارناؤط واجتمع عليهم طموش كثيره من العربان والمغاربه ومن كل جنس وبلغت الجموع مقدار عشرة الاف وينيف وفى اواخر شهر صفر وصلوا الى دمياط وكتب عثمان بيك الى اهل دمياط يتهددهم ويتوعدهم بكل كراهيه ان كانوا لم يطردوا محمد باشا وعساكره من دمياط مع ان ذلك لا يمكن لكون ان اهل مدينة دمياط رعايا ضعفا لا يقدرون على ذلك .

فهذا ما كان من امر الغز واما ما كان من امر محمد باشا فهذا المشار اليه من بعد خروجه من مصر ذاك الخروج المهول سار برجاله الى المنصوره وحين بلغه ان طاهر باشا مرسل عليه تجريده فقبل وصولها سار الى دمياط وكانت التجريده مقدار الفين وكان سارى عسكرها اخو طاهر باشا وحين وصوله الى دمياط شرع فى بناية متاريس وتحصين وكان عنده نحو ثلثماية نفر اتباع من شاعصيه وجوخداريه ومماليك بيض وسود وكان عنده صلدات فرنساويه ومن بعد وصوله الى دمياط بدا يجتمع عنده من اولاد الترك الذين كانوا متفرقين فى البلاد وحضر مركبين بيليك من اسلامبول مع انجه بيك بجملة ما جمع عنده من العساكر فى هذه المدة مقدار الف وخمساية نفر وكتب

بعض عساكر من اهل البلد ومن اروام اغراب واطمان ظاناً انه يقدر يقاوم ويصادم العساكر الوارده عليه منتظراً اسعاف وامداد يأتى له من ولى نعمته القبطان باشى .

فكان الامر بضد ذلك لكون انه حين وصل عرضحال اهل مصر وطاهر باشا الى الدولة العلية واخبروهم بما حصل ووصل فى وقته ايضا عرضحال محمد باشا لان كلاً من الاثنين اعرض والعروضات وصلت فى وقت واحد . فكان الجواب من الدولة عزل الاثنين فمحمد باشا معزول الى تصالونيكيه وطاهر باشا ينهض بعساكره الارناؤط الى بلادهم وكذا الخطاب الى الدفتردار بمصر وانه القادم بعد ذلك والى على مصر على باشا الجزايرلى وهذه الاوامر حضرت مع قبجى خصوصى فوصل القبجى المذكور الى الاسكندريه وقابل خرشد باشا الذى كان موليه محمد باشا على اسكندريه فاخبره خرشد باشا بما تم وحصل بان الامور تغيرت وانقلبت وان طاهر باشا قتل والغز تولوا على مصر . فاقتضى راى القبجى انه يحضر الى مصر ويعرض الاوامر على ابرهيم بيك لكى يخلص من ملامة الدولة عليه فحضر الى مصر واعرض الاوامر على ابراهيم بيك فالمشار اليه اخبره بما وقع وان العساكر السلطانيه المرسلة من طرف الدولة العلية هاجت على روسا عساكرها وطردت البعض وقتلت البعض وكان مقصودهم نهب المدينة وسلب الرعايا وخراب المملكة وحصل منهم تعب شديد الى الخلق فلزم اننا نحن حالاً دخلنا الى البلد واخمدنا نار الفتنه التى قد هيجوها وطفينا نار الحرب من بينهم خيفة على الرعايا وحفظاً الى المملكة ونفينا بعضاً وسربنا بعضاً وتركنا بعضاً وروقنا ما كانوا عكروه واعرضنا امرهم الى الدولة العليه وها نحن بانتظار ما تأمر به الدولة سمعين طايعين وعلى هذه الصورة استودع واستخلص القبجى من امير اللوا ابراهيم بيك وتوجه الى اسلامبول يخبر بما شاهد وعاين وسمع وارسل ابراهيم بيك اخبر عثمان بيك البرديسي وهو متوجه بالتجريده عن حضور القبجى والاوامر الذى معه فلزم ان امير اللوا عثمان بيك فى حين وصوله الى دمياط ارسل اخبر محمد باشا بالاوامر الذى حضرة بعزله وتوجه الى منصبه الى تصالونيكيه لعله يحقن دما العباد ويمتثل

لامر الدولة ويذهب من غير حرب فالمشار اليه ما زال مصراً على عزمه وعنيداً فى رايه وابتدا الحرب بينهم واشتد الحصار على مدينة دمياط وقد قلنا سابق ان طاهر باشا كان ارسل تجريده الفين ارنوطى فهذه ما زالت ورى محمد باشا حتى دخل دمياط فهذه التجريده قبل وصول عثمان بيك حصل بينهم وبين محمد باشا حرابه خارج دمياط حيث كان بنا المتاريس وانكسرت عساكر الارناؤط ومات منهم جانب كبير .

ومن بعد وصول عثمان بيك كما ذكرنا اشتد الحرب الى اربعة عشر يوم خلت من شهر ربيع الاول سنة ١٢١٨ ليلة الاحد نصف الليل همت الكشاف مع المماليك وتعصبت وهجموا من بعد نصف الليل صلوة الصبح على ابواب المدينه من ناحية البحيرة المعلومة فى دمياط وذلك من الجهة التى كانوا مطمانين عساكر دمياط فيالها من ساعة كانت عظيمة مهولة اذ قامت ولولة العساكر وصريخ النسا والاولاد ودخلت اوليك الطموش الكثيرة وبدوا ينهبوا بيوت المدينة ووكايلها ودكاكينها واسواقها ويعروا الرجال والنسا والبنات والاولاد واما محمد باشا وعساكره فكانوا ورى المتاريس التى هى جهة عرضى الغز فما شعروا الا والعساكر كبست عليهم من وراهم فاخلوا المتاريس فهجمت عليها باقى العساكر فصارت عساكر دمياط وسط العساكر واعدايهم من خلفهم ومن امامهم ووقعت الملحمة الكبرى وقتل فى ذلك الوقت حسين كاخيه شنن اخو ايوب بيك الصغير وهذا المذكور كان مدبر محمد باشا والقاتل له الجوخدار مملوك مراد بيك وهذا المذكور قتله واستولى على بيته وتزوج بحريمه واستولى على جميع املاكه وبلاده وجميع العسكر الذى كان مع محمد باشا راح تحت السيف وهرب محمد باشا مع ابراهيم باشا التى كان سابق بدمياط من طرفه وتخبوا فى مكان واستدل عليهم عثمان بيك ولحقهم فالتقاهم وقبض على الاثنين وكانوا هربوا جهة العزبة التى خارج دمياط واتى بهم الى دمياط وعمل عثمان بيك الى محمد باشا كل اكرام واعطاه المقام الذى يليق بالوزرا واما المدينة فانتهبت جميعها وعساكر محمد باشا ماتت باسرها ولم يبقا منها احد .

وكان فى دمياط خراباً عظيم وحزنت اهل مملكة مصر على خراب دمياط وكان اخذها كما ذكرنا سابق فى اربعة عشر يوم فى شهر ربيع الاول نهار الاحد سنة ١٢١٨ وما سلم من دمياط سوى ثلثة وكايل مسكن النصارى التجار وسبب ذلك وجود القناصل فيهم لانهم بالحال رفعوا البنديرات وكان قبل ذلك عثمان بيك متوصى عليهم من مدينة مصر قبل نزوله ولكن الذى حماهم تمكين ابوابهم لانه من الجايز كانوا ينهبوا من قبل ان يدرى عثمان بيك لان بعض عساكر طلعوا على بيت القنصل الفرنساوى الذى هو فى وكالة سقا حسين من جهة اخرى غير باب الوكالة ونهبوا اشياء كثيرة من بيت المذكور وايضاً طلعوا على بيت اخر بالوكالة الثانية المعروفة بوكالة خفاجى ونهبوا ما تيسر لهم من بيت احد التجار ولكن بالحال راح الخبر الى امير اللوا عثمان بيك فارسل بعض كشاف بعسكر وحما الوكايل الثلثة المذكورين وكان فى حواصلهم جملة بضايع الى التجار فانحفظت وانما افردوا عليهم اربعين الف ريال من المال تحت حمايتهم .

وعلى هذا الاسلوب تمت حركة دمياط وامير اللوا عثمان بيك ارسل محمد باشا وبرهيم باشا تابعه الى مصر واصحبهم مع احد الكشاف وحين وصولهم نزل امير اللوا ابراهيم بيك قيم مقام حالاً ولاقاهم فى بولاق مع سليم كاشف المحرمجى واتوا بهم الى المدينة واسكنوه فى بيت حسن بيك جركس فى الناصرية وقدموا له غاية الاكرام .

فهذا ماكان من امر دمياط ووقوع محمد باشا وحضوره الى مصر ونهاية مادة دمياط فلنرجع ونقول ايضاً ونخبر عن الحاج الشريف ان الذى كان امير الحاج المصرى فى سنة تاريخه التى هى سنة ١٢١٧ هو الامير عثمان بيك عشلى فهذا المشار اليه كان من رجال يوسف باشا وزير الختام وطلع فى الحاج الشريف قبل تاريخه بسنه ومن بعد توجه وزير الختام من مصر بقى فى مصر على حاله فى مدة محمد باشا وطلع ايضاً فى سنة ١٢١٧ كما ذكرنا فهذا المشار اليه حضر بالحاج فى اواخر شهر صفر وقبل وصوله بلغه طرد الوزير محمد باشا وتولى الغز من بعده وجميع ماجرى فى مصر فما زال ساير حتى وصل الى القبة التى هى خارج مصر فارسل له ابراهيم بيك خبر انه لايدخل الى

مصر سوى الحجاج الذين هم من اهالى مصر فقط واما جميع الاغراب ابنا الترك يبقوا خارج مصر يسافروا على طريق بر الشام وانه يسلم المحمل الشريف الى اغاة الانكشارية والوالى ويسافر مع عساكره والحجاج الاتراك على بر الشام وكان الامر كما ذكرنا وطلع اغاة الانكشارية سليم اغا مع الوالى وتسلموا منه المحمل الشريف ودخلوا به الى مصر بموكب حكم عوايده ، واما عثمان بيك امير حاج فهذا بقى خارجاً عن مصر كما ذكرنا مع عسكره وحين تجهز العسكر المذكور وقضى مهماته واشغاله من ذخاير واحتياجات فنهض من القبه وسار وايضاً راح معه بعض عساكر مصرليه من الغز لكى يوصلوهم الى حدود العريش واما عثمان بيك المذكور فهذا فى محل الشيل انفرد من العسكر ودخل مصر وكان السبب فى ذلك ان المذكور كان بينه وبين الغز موده قديمه وارتضى ان يكون دايماً مع الغز ويكون من حزبهم ويدخل الى مصر باتباعه وعلى هذا الشرط دخل مصر وسافرت باقى الجيوش التى كانت معه كما ذكرنا وحصل له من الغز كل اكرام فهذا ما كان من عثمان بيك امير حاج ومجيه ودخوله الى مصر وياتى له كلام .

وفى شهر ربيع الاول سنة ١٢١٨ فى نصفه دخل على باشا الجزايرلى الى مدينة اسكندريه بمقدار خمسمايه عسكرى وحضوره من طرف الدولة العثمانية لكى يعزل محمد باشا الى سنانيك ويرسل طاهر باشا مع عسكره الى بلاد الارناؤط ويكون هو والى مصر واقطارها ويعطى الغز المماليك جانب ارض فى بلاد الصعيد لكى يعيشوا بها قدر كفايتهم ، فحين وصل الى اسكندرية بلغه التغييرات التى حصلت فى مدة شهرين زمان فقط من طرد محمد الى قتل طاهر باشا الى تولى الغز وبلغه محاصرة دمياط واخذها بالسيف ومسك محمد باشا وطرد ابرهيم افندى من رشيد ودخل سليمان اغا خزندار مراد بيك الى رشيد وظهور الغز بالعداوة البليغه ضد العساكر الانكشارية والاتراك الذين كانوا فى اقليم مصر وقطع وصولهم من الاراضى المصرية وعلم وفهم كل شى بالتدقيق .

لان وايضاً الغز كانوا ارسلوا تجريدة على رشيد وسارى عسكرها سليمان اغا الخزندار وطرد ابراهيم افندى من رشيد من غير حرب ودخل الى رشيد وابراهيم افندى خرج من رشيد ودخل الى البرج الذى خارج رشيد وهناك حاصر الى ان حضر على باشا الجزايرلى كما ذكرنا فارسل خبر الى سليمان اغا ان يخلى رشيد فحين حضر له الخبر من على باشا فحالاً نهض بالعساكر وكان معه الف نفر من غز وغيره ورجع الى الرحمانية لان على باشا كانت كتابته الى سليمان اغا كتابة لينة وكان سليمان اغا رجل عاقل ومهذب الاخلاق وكان خروجه من رشيد وامتثاله لكتابة على باشا لكى لايجعل له سبب للدعوى عليهم بانهم عاصين اوامر الدولة لان على باشا اظهر لهم انه حاضر براحتهم فلاجل ذلك توخر سليمان اغا الى الرحمانيه بموجب كتابه على باشا ومن بعد خروج سليمان اغا حضر ابراهيم افندى الى رشيد وحضر من بعده مقدار مايتين نفر الى رشيد من طرف على باشا مع اغا عليهم وفى حين وصولهم قبضوا على ابراهيم افندى وارسلوه الى اسكندريه لعند على باشا والمشار اليه اشهر امر ان جميع الذين تعينوا من طرف محمد باشا يسافروا من رشيد واسكندريه واجتمعت عساكر على باشا مقدار الفين نفر فى اسكندريه ورشيد .

وارسل على باشا فرمان فى حين دخوله اسكندريه خطاباً الى ابراهيم بيك وباقى الامرا فيه يخبرهم بوصوله وبالاوامر السلطانيه التى معه وهذا ما كان مضمون الكتابه .

وهو انه لما بلغ مسامع الدولة العلية قيام العساكر على محمد باشا وطلب علايفهم منه وان المذكور ما كان منه الا انه ضرب عليهم المدافع وبدا يحاربهم فلزم انهم تحزبوا عليه وطردوه من مصر فلذلك برز الامر من الدولة العلية بعزل محمد باشا من ولاية مصر واخراج الارناؤط وباقى العساكر الموجودة وانعمت الدولة العلية علينا بولاية مصر واننا نفعل بموجب اوامرها فى عزل محمد باشا وتسفير العساكر واننا نكون معكم بالمحبة والوداد وسعادة الدولة العلية انعمت عليكم بولاية اسيوط وما يعلوه من الجانب القبلى فحين حضرنا الى اسكندريه بلغنا الامور الذى حدثت وقتل طاهر باشا وانكم

دخلتم الى مصر وتوليتم الاحكام وجردتم عساكركم على دمياط واخذتوها بالسيف وجردتم على رشيد واخدتوها وهـذا ضد خاطر الدولة فنحن من كون بيننا وبينكم مودة قديمة فما هان علينا خروجكم هذا من خاطر الدولة بعد ان حصل العفو منها عليكم ولـكن الذى مضا لايعاد فالمراد بحال وصول فرماننا هذا ليدكم تنهضوا حالا وتتوجهوا الى الصعيد ونحن نظراً الى الحب الذى بيننا وبينـكم نعرض الى الدولة العلية وناخذ خاطرها الشريف عليكم ونستمد لـكم العفو منها ونريها طاعتكم ولا يهون ان تستقلوا فى الدولة العليه لان سيف السلطان طويل وامداده جزيل وقد فهمناكم خاطرنا والسلام .

فوصل هذا الفرمان مع احد الططريه فقراه ابراهيم بيك واعطاه الى الامرا فقروه وفهموا مضمونه وارسلوا له الجواب مع الططرى وهذه كانت صورة الجواب .

انه لما ثارت الفتنة مابين العساكر وما بين محمد باشا فنحن يومئذ كنا فى بلاد الصعيد فحضر لنا من المرحوم طاهر باشا فرمان بحضورنا الى مصر وبه معرفنا عن الفتنة التى صارت وان محمد باشا طردته العساكر وفر منهم هاربا وان روسا العساكر جميعها مع علما البلد ومشايخها ورعاياها قد استخاروا الله وولوه عليهم وعلى موجب ذلك اعرض الى الدولة العلية فلزم اننا نهضنا من الصعيد وحضرنا الى بر الجيزة بموجب امره وفرمانه المحفوظ عندنا فقبل وصولنا الى الجيزة ثارت الفتنه مرة ثانية بين العساكر الاتراك والارناؤط وقتلوا المرحوم طاهر باشا بناء على انهم يوصلوا الحرب بينهم لاجل نهب الرعايا وسبى وسلب الخلايق وخراب مدينة السلطان ، فحين بلغنا ذلك نهضنا حالاً وبادرنا لمحافظة المدينه ورد العساكر عن بعضها وافصلنا ما بين الارناؤط والانكشاريه واذ راينا اصل الفتنه من الانكشاريه فنبهنا عليهم بالسفر واخرجناهم من مصر ترقيداً للفتنه وحماية للرعايا وحفظا لبلاد السلطان اذ نحن ملزومين بالحماية والصيانة عنها لاننا نحن عبيد مولانا السلطان وتحت طاعته ولا زلنا محافظين البلاد لحينما يحضر امر من الدولة العلية ووالى على مصر من الولاه المصلحين

ويكون معنا ومع الرعايا حكم العوايد القديمة ولله مزيد الحمد تم المراد وسعادتكم شرفتم الارض والبلاد فان رسمتم سعادتكم اصرفوا العساكر الذى عندكم وتفضلوا بالحضور بمايتين نفر من اتباعكم حكم الحوالى القديمه ونحن فى طاعتكم وقبضت يدكم حسبما تريدوه . واما من قبل التجريدة التى ارسلناها على دمياط فهذه ارسلناها لاجل الصلح بين محمد باشا وبين اخو طاهر باشا والارناؤط الذين كان وجههم عليه طاهر باشا فى مدته فمذ ما استطاع محمد باشا الى الصلح وطفى نار الفتنه فهجمت عليه العساكر ومعلوم سعادتكم حال العساكر والطموش فوقع النهب فى البلد من الطموش وكان ذلك ضد خاطرنا ولكن نفذت احكام الله والفاعل جوزى بما فعل والسلام .

فهذه صورة الجواب الذى توجه من امرا مصر الى على باشا الجزايرلى بالاسكندريه ومن بعد ذلك بدت امرا مصر فى ارسال عساكر الى الرحمانيه ومدافع وبنبات وجبخانات اذ بلغهم ان العساكر بدت تتكاثر فى رشيد الى ان بقى فى رشيد مقدار الف وخمسمائه عسكرى من رجال على باشا والمشار اليه لازال يريهم المسالمة وعدم الحرب والمصادمة ويخادعهم لحضور اوامر جديدة من طرف الدولة السعيدة ومومل ان يحضر له امداد ويخرجهم من البلاد . واما هم فكانوا داركين كل ذلك اذ مر عليهم مثل هذه المهالك . فلاجل هذا كتب امير اللواء ابراهيم بيك الى امير اللواء عثمان بيك البرديسى فى دمياط انه ينهض بالعساكر ويتوجه الى الرحمانيه فنهض بالحال الامير عثمان بيك بكامل العساكر التى صحبته وكانت مقدار عشرة الاف ووصلت الى الرحمانية فى ابتدا شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٨ وارتجت لقدومه مدينة رشيد وارسل بالحال ورق بحضوره الى مقدام العساكر التى فى رشيد وكان اسمه السيد على وقيل انه اخو على باشا الجزايرلى تهدده التهديد الكلى انه ان كان لم يخلى رشيد ويخرج منها بعسكره والا يحتاج انه يهجم عليه وياخذها منه بالسيف ويتم له ماتم الى محمد باشا بدمياط فحين وصلت الكتابه الى المذكور وبلغ اهل رشيد ذلك فارتجت البلد وقامت اهلها على ساق وقدم وكان يوماً مهولاً وبدت اهل البلد من المسلمين ومن النصارى يهربوا

بحريمهم واولادهم وينزلوا فى المراكب فمنهم من هرب الى مصر ومنهم من هرب الى اسكندريه ومنهم من هرب الى الارياف واخلوا رشيد غالب الناس فحين نظرت العساكر التى فى رشيد هذا الحال فاشتد بهم الخوف وضاق عليهم المجال وهربوا من رشيد ليلاً ودخل فى الصباح الامير عثمان بيك البرديسى بالعساكر الى رشيد وكان السيد على مع عسكره دخلو فى البرج الذى هو خارج رشيد لكى يحاصروا فيه فاحتاطت بهم الارناؤط .

وكان دخول عثمان بيك الى رشيد يوم الخميس فى ٩ شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٨ وفى ثامن يوم من هذا الشهر المذكور نزل اغاة الانكشاريه والوالى وكل منهم اطلق منادى ينادى امامه فى مدينة مصر ان كل انكشارى وعسكرى من اى جنس كان من ترك ومن حلبى ومن شامى ومن كل جنس عدا الارناؤط من بعد ثلثه ايام اذا انوجد فى مصر فيسفك دمه بل كلهم يخرجوا من مصر الى القبة ويجتمعوا هناك لكى يسافروا مع عثمان بيك امير الحاج وابتدت اناس كثيرين من المذكورين يخرجوا الى القبه وما زال يجتمعوا حتى صاروا نحو الف نفر وزياده وسافروا مع عثمان بيك المذكور الى بر الشام . وكان سبب نفى عثمان بيك وهذا التنبيه الذى وقع على المذكورين ونفيهم كان وقع مكاتيب من حضرة على باشا الجزايرلى خطابا الى عثمان بيك امير الحاج بها ينبهه ان يكون مستعد الى ملاقاته ويكون سهران ويحدث له حزب فى مصر لكى اذا حضر على باشا من خارج يكون هو ايضاً من داخل مساعد له ومن كون ان الغز ساهرين غير متغفلين وداركين طرق البلاد كونهم اهلها ومتحفظين عليها ووقعت بيدهم هذه المكاتيب فلاجل ذلك نفوه مع الناس الاغراب الذين ذكرناهم ولكن من غير اهانه لكون ان الخطاب وارد له ليس هو صادر منه ولو كان بضد ذلك لكان وقع عليه تلف وسافر من مصر فى ١٢ ربيع الثانى سنة ١٢١٨ .

وفى هذا الشهر بعينه اتعلقت بنديرات الملوك الافرنجيه فى مدينة مصر وكان ذلك امراً حديثاً فى هذه المملكة وضاجت المسلمين من ذلك وتبلبلت . فاول من رفع

البنديره قنصل الانكليز فى غرة هذا الشهر المذكور وفى ثانى عشر يوم منه فى عيد مارالياس عند الروم رفع البنديره قنصل المسكوب والنمسا وفى ثالث عشر منه رفع قنصل الفرنساويه بنديرة فرانسا وكان لكل منهم يوم احتفالى عظيم بضرب المدافع والطبول والزمور واصطنع كلاً منهم وليمة عظيمة للوالى وبعض السناجق والاعيان بانواع الماكل والاشربه وسمع الالات المطربه وتضايقت الاسلام وقالوا فى نفوسهم ان الدنيا عليها السلام ولا سيما اذا نظروا الاحتفال الذى صار الى القنصل الفرنساوى حين وصوله الى مصر لانه نزل فى بولاق الى مصر بموكب عظيم ومن بعد اربعة ايام ركب ايضاً بموكب عظيم لمقابلة امير اللوا ابراهيم بيك فى قصر العينى وامامه ماية عسكرى ارنوطى وحسين بيك وحسين اغا الوالى وامامه ستون نفر من سود وبيض لابسين برانيط من النحاس الاصفر وبندقهم بحربات وطبولهم طبول الفرنساويه وهولاء من العسكر التى كانوا احدثوهم الفرنساويه حين كانوا فى مصر والان هم من عساكر الغز تحت يد حسين بيك وتعلموا فنون حرب الافرنج ونظامهم وقالت المسلمين لقد رجعت الافرنج الى مصر فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وبنديرة الانكليز كان فى وسطها صليباً كبيراً وبنديرة النمسا ايضا فى وسطها النسر والتاج وعليهما صليباً صغيراً وبنديرة فرانسا احمر وابيض وكحلى . وفى هذا الشهر بعينه وردت اخبار لقدوم قنصل السويديس وقنصل الخمس جزر المشيخة الجديدة فى العالم فى ظهورها . وصار هرج عظيم فى مملكة مصر من قبل رفع هذه البنديرات ولا سيما اذ نظروا المسلمين ان النصارى الشوام القادرين ارسلوا اشتروا برآت وفرمانات سلطانيه واحتموا تحت بنديرات الافرنج ولبسوا الملابس الخارجة عن العادة حكم فرماناتهم فضاجوا وتبلبلوا وهيجوا الحكام والعلما والجميع ضجوا ودخلوا على امير اللوا ابراهيم بيك وقالوا له ان هذا الامر لا يتم كون ان هذه البلاد هى باب الكعبة ومدينة الاسلام ما هى بلاد الافرنج حتى ان النصارى تركب الخيل وتلبس لبس الاسلام وتخرج من قوانينها وغيروا قلب امير اللوا ابراهيم بيك وتغيرت قلوب الحكام

وكان السبب فى ذلك وهو انه لما حضر القنصل الفرنساوى تراكمت عليه طايفة الشوام المذكورة والقنصل المذكور طمنهم غاية الطمان وقال لهم ان بونابرته اوصانى عليكم الوصية التامة فانتم كونوا مطمانين ومرتاحين ومن كون ان هذه الطايفه المسكينه كانت احوالها مضعضعه وكانت مشهورة بالرعانه وقلوقه جداً فبادروا مسرعين الى بيت القنصل المذكور فى اليوم الذى ركب فيه لمقابلة امير اللوا ابراهيم بيك لاجل تقرير فرمانه وكتبوا اساميهم فى دفتر القنصل لكى يكونوا حماية ورعاية المشيخة الفرنساوية وكانوا سبعة وعشرين اسم ولبسوا فى روسهم الشالات الكشمير الملونة وفى ارجلهم البوابيج الصفر وركبوا فى موكب القنصل وساروا معه الى بيت امير اللوا ابراهيم بيك فنظرتهم الحكام وباقى الرعية الاسلام فضاجوا جداً وتبلبلوا واذ بلغ الخبر الى القنصل بان الغز الحكام وباقى الرعايا الاسلام تقمقموا عليه وعلى النصارى المذكورين حالاً امر برفع اساميهم من دفتره وبعدم دخولهم الى منزله وان لا يتقرر فى سجله سوى اصحاب البراآت والفرمانات السلطانيه فقط وحصل الندم لاولايك الذين كتبوا اساميهم بدون سند وبغير قاعده وطريقه وخلعوا تلك الملابس التى كانوا لبسوها ورجعوا الى لبس الازرق والكحلى حكم عامة النصارى فهذا ما حصل فى دخول القناصل ورفع البنديرات فى شهر ربيع الاخر سنة ١٢١٨ .

وسهى علينا ان نخبر عن عدة السناجق الذين دخلوا الى مصر فى سنة ١٢١٨ فهذه عدة اساميهم وهم ابراهيم بيك الكبير، وعثمان بيك البرديسى ومرزوق بيك واحمد بيك الكلارجى وعبد الرحمان بيك ومحمد بيك المبدول وسليم بيك ابو دياب ووكيل محمد بيك الالفى وكان اسمه محمد بيك وهذا قد كان اقامه عوضاً عنه سيده محمد بيك الالفى حين توجه الى بلاد الانكليز وقال للمماليك عليته كونوا فى طاعته كما انتم فى طاعتى فان رجعت اليكم فهو محمد بيك الالفى وان كنت لم ارجع فهو محمد بيك الالفى وكانت تمت عدتهم ثمانية سناجق .

واما عثمان بيك حسن فهذا المذكور تكلمنا فى شانه بهذا التاريخ مفصلاً فهذا

الامير بقى فى ارض الصعيد ولا ارتضى ان يحضر مع الغز الذين حضروا الى مصر فى سنة ١٢١٨ كما ذكرنا .

وفى عشرين شهر ربيع الثانى المذكور سنة ١٢١٨ حضر الى مصر حسين باشا باشة جرجه من الصعيد الذى كان من طرف محمد باشا وهذا المذكور حين جرى بمصر ما جرى حاصر فى مدينة اسيوط من اعمال الصعيد وكان عسكره مقدار ثلثماية نفر فتوجه له عسكر من طرف الغز فلزم انه طلب الامان على يد على كاخيه تابع سليمان بيك وحضر صحبته الى مصر فى عشرين ربيع كما ذكرنا وهذا احد الستة باشاوات المذكورين سابق .

وفى عشرين من هذا الشهر اخذ برج رشيد الذى كان محاصر فيه السيد على اخو على باشا الجزايرلى من بعد حرب شديد ومحاصره كليه وكيفية اخذه كانت بالتسليم لكون ان عثمان بيك البرديسى من بعد دخوله الى رشيد كما ذكرنا سابق نصب المتاريس امام البرج وكان هذا البرج حصيناً جداً وقديم البنا واذ حضرت الفرنساويه الى الاقطار المصرية فجددت ما كان هدم منه وزادوه تحصيناً وصار متيناً الى الغاية ودخلت به عساكر على باشا كما ذكرنا ووقع الحصار ومن بعد حرب شديد طلب السيد على الذى فى البرج الامان من عثمان بيك وانه يعطيه مهلة ثلثة ايام فرفع الحرب والضرب من على البرج واطمانت عساكر الغز فبينما هم مطمانين فكبست عليهم العساكر العثمانية ووقع الحرب بينهم ليلاً وصارت ملحمه كبيره وقتل من العسكرين نحو خمسماية نفر ورجعت عساكر الترك الى البرج واشتد الحصار جداً وكان فى كل يوم يزداد القتال وفعلت البنبه بالعساكر التى داخل البرج فعلاً عظيماً فتضايقوا جداً ونهضوا على السيد على وقالوا له ما بقى لنا جلد ولا مقدرة على الحصار فيحتاج تسلم البرج الى الغز ونسلم بانفسنا لان النار قد اهلكتنا وسوف نوخذ قهراً بالسيف ولا يبقا منا احد وعزموا على ذلك ورفعوا اشاير الصلح وطلبوا الامان من عثمان بيك البرديسى .

فقال لهم القوا سلاحكم داخل البرج واحضروا من غير سلاح وعليكم الامان .

فتركوا المذكورين سلاحهم كما ذكرنا وحضروا من غير اسلحة لمقابلة عثمان بيك والمشار اليه اعطاهم الامان الكافى وطمنهم على ارواحهم وتسلم منهم البرج الحصين وبالحال ارسل البشاير الى امير اللوا ابراهيم بيك بمصر وكان فرحاً عظيماً عند الغز وامر ابراهيم بيك بعمل الشنك وضرب المدافع .

وفى اربعة وعشرين يوم من هذا الشهر المذكور نهار السبت طلب محمد باشا الماسور بيد الغز من امير اللوا ابراهيم بيك ان يأذن له بالخروج الى الخلا لاجل التنزيه كعادة الغزلان من جملة عوايد الغز كانوا فى كل يوم سبت يخرجون الى الخلا ويرمحون الخيل لاجل تعليم المماليك والتفرس فى ركب الخيل والتنزه ، فارسل ابراهيم بيك الى سليم كاشف المحرمجى يقول له انه ياخذ محمد باشا ويخرج فيه الى الخلا يتنزه ويرجع به فسليم كاشف امر بتحضير ثلاثه من الخيل الجياد بالعدد الفاخرة الى محمد باشا وابراهيم باشا والسلحدار وامر بعض الكشاف ان يركب بجملة مماليك صحبة محمد باشا فركب محمد باشا وابراهيم باشا والسلحدار واربعة جوخداريه اتباعهم بالجملة سبعة انفار وحين استعلوا على ظهور الخيل سلوا سيوفهم واطلقوا عنان الخيل من الناصريه وساروا رامحين فالكاشف مع مماليكه كانوا تعوقوا من الركوب فبالحال ركبوا وساروا ورايهم رامحين فمحمد باشا لا زال رامح الخيل الى ان وصل لليزبكيه ودخل سراية احمد بيك ارناؤط اخو محمد على فنظر الارناوط فى الباب فانحدر عن ظهر الخيل وصرخ امان انا فى عرض الارناوط ودخل داخل البيت فنهض احمد بيك ينظر الخبر فراى محمد باشا ونظر الغز واقفين خارج الباب .

فقال لهم ما الخبر يا بيكاوات .

فقالوا له ان محمد باشا هرب .

واخبروه بالكيفية التى حصلت .

فقال لهم ارتاحوا انا اخذه بيدى واسلمه بيد ابراهيم بيك .

وكان قد اجتمع فى تلك الساعة مقدار الف فارس من الغز حول البيت لانه

حالما اطلق محمد باشا عنان الحصان للهروبه فحالاً توجه الخبر الى ابراهيم بيك فامر الغز ان يحتاطوا حول البيت ويمسكوه الطرق لكون ان الغز افتكروا ان هذه الحركة بارتباط من محمد باشا مع الارناوط لانهم حين وصلوا الغز الى امام بيت احمد بيك نظروا الارناؤط واقفين بالسلاح الكامل وحين ارادوا الدخول ورى محمد باشا اشهرت الارناؤط السلاح لهم ورفعوا البندق فى وجوههم وقالوا لهم سيدنا ودخل حمانا فلا يمكن نسلمه فلهذا السبب خشيت الغز ان تكون فتنه مربوطه فبدوا يتراكضون جرياً الى اليزبكيه فنظرت اهل البلد جريهم وجرى الارناؤط فحالاً قفلت اسواق المدينه ووقع خوف عظيم بالناس وقالوا هذه فتنه بين الغز والارناؤط وكانت ظنون الناس حقيقية لان محمد باشا ما هرب ووقع فى عرض عسكر الارناؤط على هذه الصورة الا لكى يلقى الفتنه بينهم وبين الغز وقال فى نفسه متى وقعت الفتنه بمصر وقعت ايضاً فى العرضى الذى فى رشيد و بسبب ذلك يتوقف لنا الانتصار لان الارناؤط مع العثملى اكثر من الغز الموجودين فى القطر المصرى فكان ظنه بذلك خايباً لان احمد بيك اخو محمد على حالاً قال الى الغز ارتاحوا يا بيكاوات كما اشرنا سابق فانا اخذه واسلمه الى ابراهيم بيك وحالاً استدعوا برهوانين لركوبة محمد باشا واخذوا سلاحه وركبوه وتوجهوا به الى قصر العينى حيث كان ابراهيم بيك ودخلوا به على ابراهيم بيك فنهض له على الاقدام وتلقاه وقال له .

لماذا عملت هذا العمل وما الذى اغراك على ذلك .

فبكا محمد باشا ودمعت عيناه واطرق راسه فى الارض فحالاً امر ابراهيم بيك باحضار كرك من السمور العظيم والبسه الى احمد بيك المذكور ومن بعد ساعتين راقت الخلق وفتحت اسواق المدينة .

وفى ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢١٨ الشهر المذكور حضر السيد على باشا من رشيد بمقدار عشرة انفار من اصحابه وهذا المذكور هو الذى كان محاصراً فى برج رشيد واخذ يسير كما ذكرنا سابق فهذا حين حضر الى مصر فاخذوه الى قصر العينى

لمقابلة امير اللوا ابراهيم بيك فحين اقبل عليه قدم له غاية الاكرام واستقبله بكل بشاشه .

وصارت جملة الباشاوات الماسوره فى مصر الموجوده عند دولة الغز اربعة انفار محمد باشا وابراهيم باشا وحسن باشا والسيد على باشا ، واما احمد باشا وعثمان بيك امير الحاج فهذين الاثنين سفروهما الى بر الشام كما ذكرنا سابق وخرشد باشا مع على باشا الجزايرلى بقيا محاصرين فى مدينة الاسكندرية وكانت هذه المدينة حصينة جداً لكون ان الفرنساويه حصنوها تحصيناً عظيماً فقفل على باشا ابواب المدينة وحاصر بها واما عساكر الغز والارناؤط فما اقتدروا على الهجوم عليها فبقيوا خارجاً عنها من بعد فى ارض دمنهور وكانت المكاتبه ما بين على باشا وما بين عثمان بيك البرديسى سارى عسكر العرضى على عقد الصلح وعدم الحرب ، وكان على باشا يطلب من الغز انهم يخرجوا من مصر الى الصعيد ويكونوا حكام بلاد الصعيد واقاليمها وهو يضمن لهم كل راحه وهو يدخل الى مصر وان عساكر الارناؤط قد حصل العفو عنها من الدولة العلية فياخذوا علايفهم ويسافروا الى بلادهم فهذا ما كان يطلبه على باشا فى كتاباته . واما الغز فما كانوا يرتضوا بذلك بل كانوا يقولوا له انه يدخل الى مصر بمقدار خمسون نفر من رجاله حكم الخوالى القديمة وهم يكونوا فى طاعته وتحت امره فى مصر حسب الترتيب المرتب من عهد السلطان سليم قديماً . واما المشار اليه فما كان يرتضى بذلك . فهذا ما كان من امر على باشا وامر عثمان بيك البرديسى .

وفى ٢٨ من هذا الشهر المطابق الى ٥ شهر اب سنة ١٨٠٣ كسفت الشمس عند طلوعها واستمر الكسوف ثلاث ساعات وكان نهار الاربعاء .

واما ما كان من امر مصر فانه فى شهر جماد الاول سنة ١٢١٨ تزايد الكرب على مصر وتواتر الغم والحصر وطلب امير اللوا ابراهيم بيك من طايفة النصارى الشوام مایة وعشرين كيس ومن بعد الشفاعات الزايدة جعلوها ثمانون كيس وظهر ان العساكر الارناؤط طلبت علايفها الشهريه وكان لهم فى كل شهر الف وخمساية كيس

علوفه وضايقوا الامرا بمصر وفى العرضى على علايفهم وكانت تنوف عن خمسه الاف كيس لان كان متاخر لهم علوفة اربعة اشهر فلزم ان ابراهيم بيك بمصر طلب من طايفه الاقباط الف واربعمايه كيس فكبير الاقباط الذى يقال له المعلم جرجس الجوهرى المذكور فى هذا التاريخ فهذا المذكور فرق هذا الجرم على باقى الطوايف الموجودة بمصر كالاروام والشوام والارمن واليهود والقناصل الافرنجيه وقبض من المذكورين مقدار خمسمايه كيس وتبقا على طايفة الاقباط مقدار تسعمايه كيس وضاجت هذه الطوايف جداً واشتد عليهم الكرب وكنت ترى الانام سكارى من غير مدام وذلك من شدة الاهوال وطلب الاموال ووقوف الحال وعدم البيع والشرى وخراب المدن والقرى وزاد على هذه الامور المحزنة قلة صعود النيل فى هذه السنه لكون انه من بعد وفايه عوضاً عن ان يزيد يوماً بعد يوم حسب عوايده بدا يتناقص ويهبط فبدت تتعالى اسعار الحنطة وشمل الناس حزن لايحد ولا يقاس وتبقنوا بالغلا العظيم وكانت كروب شديده يشيب منها الفطيم .

وفى اواخر هذا الشهر المذكور الذى هو جماد اول عمل الامير ابراهيم بيك ديوان ودعا فيه العلما فحضر فى ديوانه مقدار اربعين عالم من العلما الكبار والصغار فقال لهم امير اللوا ابراهيم بيك .

انه قد جرت عادة الملوك فى ممالكهم انه اذا حصل فى المملكة ضيق من حرب او من وبا او من غلا او من حادثه من الحوادث العظام التى تعم البلاد وتشمل العباد فيامرون رعاياهم بالصوم والصلوه والتوسل الى الله تعالى لرفع الغضب ودفع الكرب وزوال الباس عن الناس . فالمقصود منكم يا ايها المشايخ الكرام والعلما العظام ان تعظوا فى الجوامع وتنبهوا فى المدارس على الرعايا المسلمين كباراً وصغاراً ان يصوموا ويصلوا ويبتهلوا الى الحق سبحانه وتعالى ان يرفع الكرب عن عباده ويلطف بحال المومنين ويرسل لنا النيل كعادته شفقة منه تعالى على الفقرا والمساكين .

فقال البعض منهم وجب ايها الامير ولا بد عن التنبيه على ذلك وقراءة البوخارى العظيم .

فالتفت احدهم الذى هو ابن الشيخ العروسى وقال لهم .
اسمعوا ايها العلما حاشا ان الله تعالى يسمع منكم او من الرعايا او من الحكام لان الظلم والجور والفساد قد عم الارض والبلاد وحضرة حكامنا الموجودين ليسوا بمسلمين فلو كانوا من الاسلام واهل عدل واحكام لكانوا ابطلوا المكوسات والعكوسات ورفعوا المظالم والمغارم وطمنوا رعاياهم واصلحوا نواياهم وعمروا البلاد وامنت العباد والحال اننا ناظرين ان الامر بخلاف مايقتضيه الانصاف لان فى مدتهم كثر العناد والظلم زاد واستباحوا المنكر وصار يباع فى الخمامير مجهر وزاد الفساد وهلكت العباد ودابهم التخطيف فى الشوارع وفى كل المواضع ولا من يدافع ولا من يرافع فهذا امر مهول لايرضاه الله ولا الرسول من اين يسمع لنا الله وكيف يقبل منا دعاء او صلوه مماليكهم وعساكرهم مدى الليل والنهار يسلبون وينهبون ويضربون ويقتلون ولا يهابون امير ولا يخشون كبير فكيف ان الله تعالى يصغى الينا ويفيض النيل علينا وتقولون نقرى البوخارى ونتوسل الى البارى .

فهذا ما قاله الشيخ ابن العروسى ونهضوا من ديوان ابراهيم بيك على هذ الصوره .

وفى غضون ذلك اى غرة جماد آخر بدت تتوارد العساكر التى كانت فى رشيد فى عرضى عثمان بيك البرديسى ومحمد على وزاد الكرب على مصر جداً من كثرة العساكر وكثر تخطفهم وعدم ظبطهم وقيل ان سبب حضورهم ضجرهم وقلقهم من العرضى وعدم امتثالهم وطاعتهم لروسايهم ومن زيادة علايفهم وثقلها عجزت الحكام عن وفاتها فلاجل ذلك تجرت العساكر على روسايها فهذا ما كان من عساكر الترك والارناوط . واما ما كان من عسكر المماليك فاوليك خلعوا عنهم طاعة امراوهم وكان صغيرهم يشتم كبيرهم ولهذا السبب هلكت الرعايا بينهم وخربت الاقاليم المصريه من كثرة الجور والظلم وبادت الرعيه واخذ الامير عثمان بيك من بندر رشيد ستمايه وثمانون كيس وقبضها واخذ ايضا من اهل دمياط من بعد سلبهم ونهبهم والمصاب والتلف الذى حل بهم

مقدار مايه وخمسون كيس ومن بندر المحله خمسون كيس وجمع هذه الاموال مقدار الف كيس ودفعها الى عساكر الارناؤط من علايفهم هذا عدا الاموال التى كانت تقبضها العساكر من اهل القرى والاقاليم من بلص ونهب وتكاليف وكانت اياماً شديدة الاهوال وغريبة الاحوال .

والذى زاد على هذا البلا عدم صعود النيل وظهور الغلا وكنت ترى الفقرا والمساكين ينوحون ويبكون ويبتهلون الى الله الغيور .

فهذا ماكان من امر مصر فى غرة جماد اخر سنة ١٢١٨ واما ما كان من امر اسكندريه فحصل بها غلا عظيم وضاجت رعاياها من عدم وجود الماء وغلا القوت وغالب اهل هذه المدينة طفشوا الى غير بلادهم والبعض تركوا اعيالهم واولادهم فهذا ماسمح به الله على خلقه من كثرة ذنوبهم وتغيير قلوبهم وترك فرضهم وحسدهم لبعضهم وعم الخوف وشمل ساير الملل فى مدينة مصر واقطارها وقل الامان وعدم الاطمنان وقالت الناس لله الامر وبالله الصبر .

وفى رابع يوم من هذا الشهر رجع الارضى من رشيد ودخل الامير عثمان بيك البرديسى ومحمد على سارى عسكر الارناوط الى بر انبابه وابقوا فى رشيد يحيا اغا الخزندار مع جانب عسكر وفى هذه المدة كثيرين من عساكر الترك الانكشاريه الذين كانوا طردوهم السناجق رجعوا وتعينوا عند السارى عسكر محمد على لان هذا المشار اليه ليس هو من جنس الارناؤط بل هو من ابنا الترك فلاجل ذلك كان يميل ويغرض الى ابنا جنسه ويقبلهم ويتضمن غايلتهم وقيل ان رجوع العرضى من اراضى رشيد الى مصر هو عدم اقتدارهم على فتح الاسكندريه لكون انها محصنة بزياده والعساكر ضاجت فى تلك الارض من عدم المونه ومن المرمته فى البرور فاقتضى ان العساكر قلقت ورجعت فالتزمت روسا العساكر ان تحضر معهم وكان الامر كما ذكر .

واما حضرة على باشا الجزايرلى فبقى فى اسكندريه مع قليل من العسكر محاصراً فيها منتظرا الفرج من الله ومن الدولة العليه .

وفى خامس يوم من هـذا الشهر بدت امرا مصر تخرج الى ملاقاة الامير عثمان بيك البرديسى وسارى عسكر الارناؤط محمد على وبدا العرضى يدخل الى مصر .

ومن هذا اليوم الذى هو خامس يوم من شهر جماد آخر سنة ١٢١٨ بدا يقل وجود الحنطة فى المحلات والمواضع التى تباع فيها وبدا يقل وجود العيش فى الاسواق ودكاكين الخبازين وسبب ذلك ان السناجق والكشاف ابتدوا يشتروا الحنطة الواردة من الصعيد ويخزنوها وبعضهم كانوا كلما حضر مركب من الصعيد مملوا حنطه فكانوا يضعوا يدهم عليه وياخذوه من غير ثمن ولا اعطا حق وكان بذلك كرب عظيم وكانت النسا والاولاد الفقرا والمساكين حينما يروهم ياخذوا الحنطه والفول والشعير ويخزنوه امام اعينهم وهم لايقدروا ان يشتروا يرجعوا فى قففهم وزنابيلهم خايبين الامل فكانوا يدعون عليهم ويشتمونهم فى وجوههم ويقولوا لهم ياليتكم مادخلتم بالسلامه الى مصر جيتم لكى تهلكونا من الجوع وتحجزوا عنـا القوت وتتركونا نموت فانشا الله لاتنهبه الا من بيوتكم ولا ناكله الا من بعد موتكم وكانت الغز تسمع هذه الشتايم والمسبات ويصممون اذانهم ولا يلوون عنانهم وكانت قلوبهم قاسيه جداً على الرعايا والسبب فى ذلك ان رعايا القطر المصرى هم كثيرون فى العدد وقليلون فى الجلد وسريعون فى الميلان والسنتهم مره والفاظهم مضره يخافون ولا يستحون وكانوا يكرهون دولة المماليك طبعاً وكانت الغز تعلم حقيقة ذلك فلهذا السبب كانوا يتمنوا لهم المضرة والوقوع فى المهالك ولكن ابوا ان يعلموا ان الولاه الصالحون والحكام العادلون مهما كانت الرعيه فاجره فمن شيمهم العفو والرضى عند المقدره .

وفى يوم منه بعد حضور الامير عثمان بيك البرديسى ومحمد على عقدوا ديوان عظيم ساير الامرا فقال الامير عثمان بيك الى الامير ابراهيم بيك .

ان بلغنا التعب الواقع فى مصر من قبل العساكر والمماليك والتخطيف الذى واقع وعدم الظبط واستغربنا هذا الامر مع وجودك فى مصر وهـذا لايليق بشانك ايها الامير .

فقال له ابراهيم بيك حقيق ذلك ولكن ياولدى انا كلمتهم جملة امرار ونبهت عليهم فما استمعوا لى كلام فانا غلبت معهم ولكن الحمد لله الذى حضرت ياولدى بالسلامه فيحتاج من الآن وصاعداً انت تباشر امور البلد .

فقال له الامير عثمان بيك انت سيدنا وابونا وولى نعمتنا جميعنا ونحن كلنا نحتاج ان نكون فى طاعتك وتحت امرك وما لنا الا راحتك وهدو سرك .

ثم بعد ذلك تداولوا فى امر الغلة وتدبيرها فاقتضى الراى انهم فوضوا تدبير ذلك الى السارى عسكر محمد على وجعلوه امين البحرين وسلموه ساحل بولاق وساحل مصر القديمه وباقى المواضع التى تباع بها الغلال وكان الامر وفى ثانى يوم نزل محمد على الى بولاق وفتح بعض مخازن كانت موجوده بها الغلال وبدا يبيعها الى الخبازين والفقرا والمساكين ودعت له الرعايا . فهـذا ما كان من امر الغله وتدبير امرها . ومن بعد ذلك انفرد امير اللوا عثمان بيك البرديسى فى مصر وبدا يدبر امر العلايف للعساكر وفى اثنى عشر يوم خلت من هـذا الشهر فرض الامير عثمان بيك البرديسى على جميع السناجق والكشاف والاغاوات وذوى المقدرة الوجاقات والملتزمين مقدار الف كيس وذلك بموجب ديوان ورضا كامل الامرا لكى يدفعوها الى العساكر من علايفهم وفرض ايضاً على اهل البلد المسلمين مقدار مايتين كيس فقط وكانت على ارباب الحرف والصنايع الكبار وجمع كل ذلك ودفعه الى العساكر .

وفى هذا الشهر بدوا عساكر الترك يتعبوا الرعايا فى الطرقات والشوارع ومن بعد حصول متاعب كثيرة بلغ الخبر الى الامرا وروسا العساكر ففى اثنين وعشرين من هذا الشهر امر السارى عسكر محمد على وابن اخته احمـد بيك بمنادى ينادى فى البلد ان كل عسكرى يخرج احد من بيته او من دكانه او من قهوته او يوذى احد من الرعايا فى الطرقات فراسه بين رجليه وكل احد من الرعايا الذى يحصل له اذيه من العسكر ولا يخبر عنها روسا العساكر فيتوجب عليه القصاص .

ثم وفى هذا الشهر ايضا حضر اخبار من بر الشام بان احمد باشا الجزار حضرت

له ولاية الشام وطرابلس وغزه ويافا والقدس وجميع القطر الشامى وكان حكمه من حدود العريش الى حـدود حلب وصار ركناً عظيماً من اركان الدولة العثمانيه وعظمت دولته وطالت مدته فى توليه على صيدا واقامته كانت فى مدينه عكا وظهر منه عجايب وغرايب يكل الشرح عنها الآن .

وفى اواخر هذا الشهر الذى هو جماد آخر سنة ١٢١٨ وقع الرضا والاتفاق بين السناجق وبين محمد على بيك وابن اخته احمد بيك وباق روسا العساكر الارناؤط بموجب ديوان ان السناجق يفوا فى كل شهر ثلثمايه كيس علوفة العساكر فقط ويدفعوا الى روسا العساكر مايه كيس جملة ذلك اربعمائة كيس كل شهر ولكن من بعد ان يدفعوا لهم علايفهم القديمه التى هى من ابتدا شهر صفر سنة ١٢١٨ الى غاية جماد الثانى سنة تاريخـه خمسة اشهر عن كل شهر الف وخمسمايه كيس فارتضت روسا العساكر بذلك واما العساكر بقيوا غير راضين ولاجل ذلك كانوا فى كل يوم يرعشوا قلوب الرعايا فى كلامهم واخبارهم وتوعيدهم وكانت مره صعبة جداً على الرعايا لانهم كانوا فى دقيقه تمر عليهم يتوهموا انها تتور الفتنة بينهم ويدور السيف .

لان مصر احتوت على ثلاثه جنوس من العسكر . فالجنس الاول الغز المماليك والجنس الثانى الارناؤط والجنس الثالث سكمان وانكشاريه وهم الاتراك وكلهم اضداد بعضهم فسبحان المولف .

وفى خمسة وعشرين من هذا الشهر صنع ديوان الامير عثمان بيك البرديسى مع الامرا وروسا العساكر واتفق مع الامرا انه يدفع كل شهر الى عيلة محمد بيك الالفى ثلثة وثلثون كيس وثلث ويدفع الى ابراهيم بيك وعيلتـه ثلثه وثلثون كيس وثلث والمشار اليه يرضى العيله المراديه الذين هم خاصته نظيرها جملة ذلك فى كل شهر مايه كيس بحيث انهم لايقارشوا الدواوين ولا البهار ولا باقى الاقلام والحوادث بل هم يقبضوها من يده فى شهر وهو ايضاً يدفع اربعماية كيس شهرى الى روسا العساكر ونهضوا قايمين من امامه وهم مسترضيين على ذلك ظاهراً والباطن علمه ومعرفته لله .

وانفرد الامير عثمان بيك البرديسى فى الاحكام وبقى شيخ البلد وعزيز مصر . واما ابراهيم بيك صار قيم مقام مصر حالا بدلا من الوزير .

فهذا ما كان من التدابير والامور الذى وقعت فى جماد الثانى سنة ١٢١٨ .

ثم وعدة كشاف من اتباع السناجق الذين ماتوا اطلقوا عليهم اسم السنجقيه بدلا اسيادهم الذين ماتوا وهـذه اسامى الكشاف المذكورين على بيك ايوب شاهين بيك رستن بيك سليم بيك المحرجى عباس بيك سليمن بيك الخزندار فى دمياط حاكم يحيى بيك فى رشيد هؤلاء اسموا عليهم سناجق .

وفى هذا الشهر ايضا حضرت اخبار من الحجاز ومكاتيب بها يخبروا ان الشريف غالب سلطان مكة وشريف باشا والى جده جردوا عساكر عديده وساروا بها على مدينة مكة واخرجوا منها عساكر عبد الوهاب الخارجى وتملكوها وساروا على الطايف وتملكوه واخرجوا منه عسكر عبد الوهاب وشتتوه بالبرارى والقفار وكان فرحا عظيما عند الاسلام بهذا الانتصار ورجعت عساكر الخارجى الى برارى بغداد وشول العجم وتلك البلاد خلصت اراضى الحجاز من ايدى الخارجين وارتجعت الى المسلمين وكان فتحها عبد الوهاب فى غرة محرم سنة ١٢١٨ وخلصوها من يده فى شهر جماد الاول فكان اقامته بها اربعة اشهر فقط .

وفى غاية هذا الشهر المذكور جمعوا عدد عساكر الارناؤط والسكمان والانكشاريه الموجودين فى مملكة مصر فوجدوهم خمسة الاف فقطعوا علوفة الف وخمسمائه نفر من السكمان لان الفتن والشرور ما كانت تظهر الا منهم . واما الارناؤط فكانوا اقل شرا منهم واضمن غايله . ولـكن مع كل ذلك ما ارتضت السكمان ان تسافر من الديار المصرية .

ودخل شهر رجب الفرد سنة ١٢١٨ واشتد الكرب على الرعايا فى مصر من طلب الاموال ووقوف الحال . ولـكن فى هذا الشهر تواجدت الاغلال وارتخت اسعارها وصارت تباع فى ساير محلاتها وكثر الخبز فى الاسواق ودكاكين الخبازين

واطمانت الفقرا لوجود القوت وتهاودت الاسعار وكانت ايام هذه الغلوه مقدار ستون يوم فقط وشدتها كان فى اواخر جماد الثانى .

وفى عاشر يوم من هذا الشهر حضر الترجمان ينوشنسيوس من طرف دولة الانكليز ومن طرف امير اللوا محمد بيك الالفى الذى كان توجه مع الانكليز الى جزيرة مالطا لاجل تدبير امور الغز امرا مصر كما ذكرنا سابقا وحضر مع المذكور احد المماليك الكبار الملازمين من اتباع محمد بيك الالفى المذكور . وهذا الترجمان فى حين حضوره حصل له مزيد القبول وقابل امرا مصر وقدموا له التقاديم ولبس منهم كرك فاخر ولبس معه قنصل الانكليز وهذه علامه ودليل يدل انه جاب لهم اخبارا مسرة لهم وكتم ذلك على عامة الناس .

وفى هذا الشهر اطلق اليسق على باشا الجزايرلى واذن باطلاق بضايع تجار الافرنج وحضورها الى مصر وذلك بواسطة رجا قناصل اسكندريه وقناصل مصر وكانت ابواب اسكندريه لها مقفوله اربعة اشهر وتعطلت المتاجر وهذه من جملة اسباب وقوف الحال بمصر وباقى القطر المذكور .

ومضى هذا الشهر المذكور بسكون وسلام .

واستهل شهر شعبان المبارك سنة ١٢١٨ ففى غرة هذا الشهر المذكور حضر ديوان افندى بتاع على باشا الجزايرلى من ثغر الاسكندريه وبيده نسخة فرمان حضر من الدوله العثمانيه من السلطان سليم خان خطابا الى امير اللوا ابراهيم بيك وباقى الامرا بمصر به معرفهم انه .

قد وصل الينا عرض حالكم وعفونا عنكم وصفحنا عن سياستكم وتكونوا مقيمين فى مدينة مصر وابرهيم بيك يكون شيخ بلد وعلى باشا جزايرلى يكون والى مصر وجميع الاحكام تكون بيده ويكون بمصر دفتردار من طرف الدولة لظبط الاموال الميريه وتحصيلها من اربابها وارسالها باوقاتها للدولة العليه وان الغز امرا مصر ليس لهم ان يتعاطوا الاحكام ولا يكون لهم بلاد التزام سوى البلاد الذى اشتروها بمالهم

وان كل سنجق او كاشف له بلد مشتراه بدرهمه فله ان يتصرف بها ولكن يحتاج ان يدفع الى الدفتردار ميرى تلك البلد ثمانية سنين مقدما وياخذ منه صك التصرف بها . واذا فاض مدخول البلد اثنين وعشرين كيس فيكون الفايض عن المبلغ المذكور مظبوطا الى السلطان . فعلى هذا المنوال تكون اقامة الغز بمصر .

فهذا ماتضمنه الفرمان الشريف الوارد من الباب الهمايونى صحبته قابجى باشى وعلى باشا ارسل نسخته مع الديوان افندى تابعه كما ذكرنا اعلاه .

وفى ثانى يوم من شهر شعبان عقدوا الديوان واجتمعت به كامل امرا مصر وقاضى عسكر الاسلام وجميع مشايخ مصر والعلما وقروا عليهم الفرمان وجميعهم قالوا سمعا وطاعة ومن قراة الفرمان ضربت المدافع من كامل القلاع والابراج وصار شنك عظيم .

وفى سادس يوم من هذا الشهر ارسل الامير ابرهيم بيك كاخيته الامير رضوان كاخيه ومحمود شاويش والسيد محمد الدواخلى ثلثة انفار الى على باشا الجزايرلى بالاسكندريه ورجع صحبتهم الديوان افندى الذى حضر بنسخة الفرمان وكان السبب فى توجه هولاء المذكورين من طرف امرا مصر الى على باشا الجزايرلى لكى يفهموا حقيقة الامر وهل ان القبجى باشى حضوره بالفرمان المذكور صحيحا ام تصنعا من على باشا . وان كان ذلك حقيقيا فيطلبوا منه اولا تسفير العساكر الذى عنده وانه لا يبقا معه سوى مايه وثلثون نفر ويدخل بهم الى مصر حسب عادة الباشاوات فى المدد السابقه لان الغز كانوا خايفين جدا من دك الدولة العلية ولا سيما اذ كانت فى ذلك الوقت موجوده بينهم العساكر الغريبة وهم الارناوط والسكمان وكانوا مقدار سبعة الاف كما تقدم عنهم القول واما الغز فكانوا قليلين جدا فى العدد ولكنهم اشد باسا من اوليك فى الحرب والصبر والجلد ومتمكنين من البلد والقلاع معهم ولكن مع كل ذلك كانوا خايفين من الخيانة من كثرة العساكر الغريبة فى دار الكنانه .

وفى احدى عشر يوم من هذا الشهر قفلت مدينة مصر يوما واحدا من تخطيف العساكر .

وفى اربعة عشر يوم منه حضر خبر من اسكندريه ان عساكر على باشا تحاربت مع القناصل الافرنجيت وهربت القناصل مع اتباعها ونزلوا فى احد المراكب لكى يسافروا الى بلادهم واحضروا قاضى الاسلام والمفتى وباقى الاعيان وحرروا عرضحال الى الدولة العليه وعرفوها بما وقع وبعد ذلك اجتمع على باشا وخورشيد باشا والقاضى والاعيان ونزلوا الى عندهم للمركب واستماحوا خاطرهم والزموهم بالرجوع الى البلد ومنعوهم عن السفر خيفة من غوايل الامور وكان وقوع هذه الحركة بالاسكندريه فى ستة ايام من هذا الشهر .

وفى سادس عشر يوم من هذا الشهر نهار الخميس صنعت امرا مصر ديوانا عظيما فى بيت امير اللوا ابراهيم بيك قيمقام مصر وشيخ البلد حالا وكانت جميع الامرا والكشاف والمماليك وكان ديوانا عظيما وارادوا ان يلبسوا بعض كشاف سناجق بدلا من السناجق الذين فقدوا من سنة ١٢١٣ الى غاية تاريخه وقد كانوا اسموا عليهم السنجقية بعد اسيادهم حين دخلوا الى مصر كما ذكرنا سابقا فى هذا التاريخ فلما ارادوا يلبسوهم فتجمعت وترابطت باقى الكشاف وقالوا ان كان هولاء يلبسوا ونحن ايضا نلبس سناجق وكانوا كثيرين فتبلبل الديوان وضاجت الغز ضوجه كبيره وكاد ان يقع الشر بينهم ويدور السيف فلزم ان الامير ابراهيم بيك ابطل لبس السناجق وقال لهم لا انتم تلبسوا ولا هم وخرجوا جميع الكشاف من الديوان غضبانين واخذوا مماليكهم وخرجوا من مصر وتوجهوا الى اثر النبى خارجا عن مصر مسافة ساعتين وكانوا ما ينيف من الف جندى وضاجت مدينه مصر وايضا فى هذا الشهر نبهت امرا مصر على جميع اهالى خطوط المدينه انهم يركبوا الابواب التى قد كانت خلعتها الفرنساويه فى مدتهم كما مر ذكر ذلك فى اوانه فحالا باشرت اهل المدينه بتركيب البوابات على العطف والازقة والشوارع واحدثوا ايضا ابوابا جديده وركبوها وكل ذلك خيفه من ثوران الفتنه ما بين الغز والعساكر الموجوده .

وفى عشرين يوم من هذا الشهر نهار الاحد صار ديوانا عظيما فى القلعة السلطانية

ولبس الامير ابراهيم بيك قيمقام مصر وشيخ البلد حالا خمسة عشر سنجق من الكشاف الذين قد كانوا غضبوا فى الديوان الذى تقدم ذكره وصار لهم احتفالا عظيما وهذه عدة اسمايهم كما ترى :

خليل بك ابراهيم سليمان بيك ابراهيم عمر بيك ابراهيم اسماعيل بيك ابراهيم محمد بيك ابراهيم سليمان بيك مراد عثمان بيك مراد شاهين بيك مراد حسين بيك مراد عبد الرحمن بيك طنبرجى مراد محمد بيك مللاوانى عباس بيك سليمان حسين بيك محمد رستم بيك عثمان صالح بيك محمد .

فهولاء الخمسة عشر سنجق . ونسبوا الى الامير ابراهيم بيك خمسة سناجق ونسبوا الى الامير عثمان بيك البرديسى خمسة سناجق ونسبوا الى الامير محمد بيك الالفى النايب عن سيده الغايب خمسة سناجق لان الامرا الغز فى حين دخولهم الى مصر عقدوا ديوانا وقسموا بعضهم ثلثة اثلاث الثلث الاول الى ابرهيم بيك والثلث الثانى الى عثمان بيك البرديسى والثلث الثالث الى الامير محمد بيك الالفى وهذا قد مر ذكره فى هذا التاريخ فى محله . فلاجل ذلك فرقوا السناجق الذين لبسوا جديدا على بعضهم ثلثه فرق . ونزلوا من القلعه السلطانيه بموكب عظيم وصار نشانا عظيما الى الامير ابراهيم بيك بذلك وافتخر على سلفايه الاولين . لانه ما صودف الى امير من امرا مصر أن يلبس فى يوم واحد خمسة عشر سنجقا . وطالت مدة تملك هذا الامير الهمام عدة سنين واعوام وخرج منها ودخلها سبعة امرار بقوة صارمه البتار وكان للعيلة المحمدية بمنزلة اب رحيم وطبيب حكيم وكان عليما فهيما وملكا حليما وموصوفا بحسن التدبير ويرضى خاطر الكبير والصغير وكان فريدا بحسن وداعته ومشهورا بشدة بطشه وشجاعته .

ثم انه فى اليوم العشرين من هذا الشهر الذى هو نهار الاحد المذكور سابقا الذى فيه لبست السناجق المذكورة . اجتمعت عساكر الارناووط وعقدوا الشور بينهم انهم يقيموا الفتنة فى يوم الديوان المذكور واجتمع منهم جما غفيرا فى القلعه وزمرة منهم مقدار الف نفر اجتمعوا فى الرميله التى هى ساحة تحت القلعه فشعرت السناجق بذلك

فنزل الامير عثمان بيك البرديسى ووقف بعسكره فى باب القلعه . ووقف على الابراج التى بها الجبخانة والمدافع الامير حسين بيك الزانطى بمقدار الف نفر احتسابا ان تثور الفتنه من الارناووط فيكونوا المذكورين منتبهين لهم ومستحضرين وبعد ان تم الديوان ولبست السناجق من يد الامير ابرهيم بيك قيمقام مصر نزلوا من القلعة ونزل امامهم الامير عثمان بيك البرديسى وكان صحبته عمر بيك احـد بيكاوات الارناووط فقامت الارناووط على ساق وشتموا عمر بيك الارناووطى وقالوا له ادفع لنا علايفنا المتاخرة عندك الآن وان كنت لم تدفع لنا والا نقتلك وكان قصدهم بذلك ثوران الفتنة فنفر فيهم الامير عثمان بيك البرديسى وشتمهم وقال لهم ما لكم كلام مع عمر بيك ولا لكم معارضه معه . فعلايفكم عندى ليست عند عمر بيك تعالوا فى الغد عندى اقبضوا علايفكم منى فارتدت الارناووط عنه وفى ثانى يوم منه حضروا الى عند الامير عثمان بيك البرديسى وقبضوا منه مابة كيس وقال لهم بعد يومين ادفع لكم الباق وخرجوا من امام المشار اليه وتوجهوا الى محلاتهم وهنالك اجتمعوا مع بعضهم وكان المتكلم فيهم حسن بيك اخو طاهر باشا وعقدوا الشور بينهم وتقاسموا وتحالفوا انهم يقتلوا ثلثة اقباط كبار من مباشرين السناجق احدهم المعلم جرجس الجوهرى كاتب الامير ابراهيم بيك وثانيهم المعلم بقطر المحاسب كاتب الامير عثمان بيك البرديسى وثالثهم المعلم غالى كاتب الامير محمد بيك الالفى وكان نيتهم فى قتل هؤلاء ثوران الفتنة والشر مع السناجق ففيما هم يتحالفون واذا برجل دخل عليهم وفهم مقصودهم وحضر حالا واخبر هولاء المعلمين المذكورين فخافوا جدا وارسلوا اخبروا اسيادهم بهذا الخبر فارسل لهم الامير عثمان بيك البرديسى واحضرهم لديه والزمهم بدفع مابة كيس لكى يدفعها الى الارناووط من علايفهم لكى يهجعوا عن عزمهم واعطاهم بالقدر المذكور وصولات يقبضوها من البلاد وكان الامير عثمان بيك كل مقصوده ترقيد الفتنه وعدم نهوضها ومنتظرا تفريق روسا العساكر من بعضها لانه كان اتخذ محمد على واحمد بيك وعمر بيك من حزبه وضمهم اليه بحسن لطافته وقوة كرمه وجوده لان هذا المشار اليه كان سلك سلوك سيده الامير مراد بيك بكثره العطا والسخا وكان

باذلا غايه جهده ان يقسم العساكر ويفرقها من بعضها لكى تهون عليهم محاربتها اذا طلبوا المحاربه والمضاربه وكانت الامرا الغز اشد باسا من العساكر الموجوده ومتمكنين من القلاع والجباخانات والمدافع كما ذكرناه سابقا فى هذا التاريخ مع ان العساكر اوفر منهم عددا ولكنهم يتامى فى المملكة وطرقهم مشركه .

وفى اثنين وعشرين من هذا الشهر لبس الامير ابراهيم بيك والياً من مماليك الامير مراد بيك اسمه حسن اغا عوضا عن حسين اغا الوالى الذى لبس سنجقا من جملة الخمسة عشر .

وفى هذا الشهر فتح على باشا ابواب مدينه الاسكندريه ونادى بالصلح والسلام واطلق السبيل الى مصر من بعد ان كان لها ستة اشهر مقفولة واشتهر الامر بان الدولة العلية اظهرت الرضا على الغز بان يكونوا حكام الاقطار المصريه وشيخ بلدهم الامير ابراهيم بيك والمتولى على باشا الجزايرلى وذلك على حكم العوايد القديمة وبدا المشار اليه يهم على الحضور الى مصر ومضا هذا الشهر بسكون وسلام . واستهل شهر رمضان المبارك سنة ١٢١٨ ففى احدى عشر يوم منه خرج على باشا الجزايرلى من مدينة الاسكندريه قاصدا مدينة مصر بالف وخمسمايه عسكرى وخرج معه خورشيد باشا وهذا المذكور من بعد نهوض على باشا بالعساكر عن الثغر انفرد عنه ورجع الى اسكندريه وسار على باشا بعساكره وحينما تقرب نواحى بندر رشيد فبلغ القايم بها وهو الامير يحيى بيك فمنعه وصده عن الدخول الى بندر رشيد قايلا له ان عساكرنا كثيره وخشينا من دخول عساكركم عليها وقوع الفتنة بينهم ويكون خرابا عظيما فلهذا السبب لا يمكننا ندعكم تدخلوا الى رشيد بل توجهوا فى طريقكم الى مصر وكان الامر كذلك وانعطف على باشا عن طريق رشيد وسار فى طريق مصر وكان بطيا فى مسيره خبيثا فى ضميره وبدا يرسل الفرمانات الى مصر الى بعض روسا عساكر الارناووط والسكمان بها يحثهم على الانقسام من الغز ويحرضهم على القا الفتنه ويوعدهم بالراحة وكتب ايضا لجملة رجال من اعيان مصر فى شان ذلك فشاع خبرها ووقع منها عدة

كتابات بيد الغز وبقوا ذلك الى خمسة وعشرين يوم من هذا الشهر خرج الامير عثمان بيك البرديسى بالعساكر ومحمد على بيك وباقى البيكاوات سوارى عسكر الارناووط وعدة سناجق من امرا مصر وضرب سرداقه ونصب المضارب والخيام فى بر بولاق فى مكان يقال له الحلى الى حدود شلقان وكان السبب فى ذلك ان على باشا الجزايرلى جاز البحر ودخل الى مدينه منوف ومن منوف جاز البحر ايضا ودخل الى البر الشرقى وكان ذلك عين الخطا والخطر عليه . وكان فى مدة مسيره منتظرا وقوع الفتنة بين عساكر الارناووط وعساكر الغز المصريين ليبلغ مراده ويظفر فى اضداده فما تهيا له ذلك ووقع فى اضيق المهالك اذ وصل الى قرية زفيته ونصب سرادقه هناك فى بر شلقان وكان الاسد المضوار الامير محمد بيك الالفى الصغير سار من مدينة مصر قبل خروج الامير عثمان بيك البرديسى وكانت ركبته ثلاثمايه فارس وعدة عربان . فهذا المشار اليه سار بعيدا ونصب سرادقه ورى سرادق على باشا وصار على باشا وسط الجيشين وهما جيش البرديسى وجيش الالفى وبدا على باشا يدخل بنان الاسف والندم ونعوذ بالله من زلة القدم وارسل على باشا يقول الى الغز اننى انا ما اتيت الى الحرب لكى تخرجوا الى بهذه الغلظه واما هذه العساكر حضرت صحبتى لكى تقبض علايفها المتاخرة عندى . فارسلوا يقولوا له اصرف العساكر جميعها واحضر بمفردك ونحن ما لنا مقدره ندفع علايف عساكر يكفينا الذين عندنا . وما الامر الداعى لكثرة العساكر بهذه المملكة فيلزم ان تصرف العساكر التى عندك جميعها . فاجابهم ان العساكر لا ترتضى بذلك وابت الا الدخول وما زالت هذه المحاولات واقعه من الطرفين وتحقق عند الغز المصريين خبث ضميره من خداعه وتنكيره وكانت الغز اوفر منـه مكرا واوسع فكرا وكان فارسهم يعد بماية فارس ويصادمها بقلب كالصخر اليابس .

وفى سبعة وعشرين من هذا الشهر وردت الاخبار من ثغر الاسكندريه بكتابات حقيقيه بوفاة حسين باشا قبوطان باشى وذلك فى مدينة القصطنطينيه ودفن فى جامع السلطان ايوب وكان فرحا عظيما عند امرا مصر وارسل الامير عثمان بيك البرديسى

خبرا الى القلعه الكبيره وامرهم بضرب واحد وعشرين مدفع وذلك علامة سرورهم وابتهاجهم لانه كان عدوا لهم اذ قتل اربعة سناجق منهم فى ثغر الاسكندرية حين دخوله سنة ١٢١٦ فى فتوح مصر كما مر ذكر ذلك فى محله وصار حزنا عظيما عند محمد باشا الماسور عندهم لانه كان كتخداه كما تقدم ذكره وهو الذى ارسله واليا على مصر ثم من بعد وفاة حسين باشا قبطان باشى فالدولة العلية وات مكانه قادرى بيك وكان رهطا عظيما .

ثم فى ليلة عيد رمضان المبارك دخل الامير عثمان بيك البرديسى الى مصر لاجل العيد وكان عيدا سعيدا وضربت به المدافع ومن بعد العيد خرج الامير عثمان بيك المذكور ثانية الى المضارب والخيام واخرج جميع العساكر تماما وبقى فى المدينة الامير براهيم بيك شيخ البلد وسليم اغا مستحفظان وحسن اغا الوالى واطلق المناداه فى جميع شوارع مصر الى جميع العساكر تخرج الى الارضى وكلمن لايخرج يقتل وفى غضون ذلك وقع امورا خطره جـدا من العساكر وهم السكمان وكانوا يقتلون من الرعايا فى الاسواق ويذهبون ويخطفون فقفلت المدينه واحتجبت الناس فى البيوت وكانت اياما مهوله وبدا الاغا والوالى يدوران فى المدينه ويقبضوا على العساكر التى ما خرجت الى الخارج ويدمسون فيهم وارسلوا اخبروا الامير عثمان بيك بما فعلته العساكر فى المدينة فالمشار اليه احضر محمد على سارى عساكر الارناووط والسكمان واخبره باحوال المدينه فعقدوا الراى ان كل عسكرى لايكون معه ورقه مختومه من محمد على فيقتلوه حالا وكان الامر وقفلوا ابواب المدينة ووضعوا عليهـا حراسا وامروهم ان كل من اراد الدخول الى المدينه من العساكر ولم يكن بيده صكا مختوما فلا يدعوه يدخل . وكلمن دخل الى المدينه يفتشوه ليلا يكون معه اوراق من على باشا . ووقع بيدهم جملة كتابات الى روسا العساكر وغـيرهم وكانت نفوس العساكر ظماءنه الى اشتداد الفتنه لاجل نهب المدينة وسلب الناس وكانت اياما شديدة المراس ولا زالت تشتد الاهوال وطال الحال الى سادس يوم من شهر شوال المبارك سنة ١٢١٨ نهار الخميس .

نهض الامير محمد بيك الالفى وتقرب جهة وطاق على باشا وخيامه واشهر امارات الحرب فضاج على باشا وعسكره وارسل يطلب عدم الحرب وانه معهم مثلما يريدوا فارسل له الامير محمد بيك الالفى احد الكشاف وهو على كاشف يقول له ان كنت لم تخرج الان من بين العساكر وتتميز منهم والا ضربنا الرستاق واطلقنا فيه النار والاحراق فنهض المشار اليه حالا ونصب صيوانه بعيدا عن عسكره جهة عساكر الغز . فنهض الامير محمد بيك الالفى حالا واحتاط حول عساكر على باشا وامرهم برمى السلاح فمن شدة الخوف الذى وقع عليهم القوا سلاحهم فهذا ما كان منهم .

واما ما كان من على باشا فانه من بعد ان نصب صيوانه امام صيوان الامير عثمان بيك توجه مع على كاشف وقابل الامير محمد بيك الالفى والمذكور طمنه على نفسه والعساكر وقال له مرادنا نسفر العساكر على بر الشام وانت تدخل معنا الى مصر ورحبه الامير محمد بيك الالفى الى صيوانه . واما الامير عثمان بيك فابى مقابلته ثم احتاطت المماليك حول صيوان الباشا وبدوا ينهبوا فى خيامه وفى عسكره ونهبوا جميع ما فى مراكبه من امتعة ووجدوا عدة مدافع وجبخانات وبومبات واستعدادات لانه كان احضر معه من الاسكندريه فى بحر النيل مقدار ستون مركب مشحونه امتعه وجبخانات كما ذكرنا وبدوا يسفروا عساكره مع العربان على طريق بر الشام عراة من السلاح ولم تامن سلامتهم وقتلوا كثيرا منهم قبل تسفيرهم وتشتت جمعهم .

وكان ذلاً وهواناً عظيماً لهذا الوزير ومرض من قهره وكان يبكى بكاء مراً . وقيل انه قبل خروجه من اسلامبول اشترى ايراد مملكة مصر من الدولة العثمانيه بمال معلوم يدفعه سنويا ودفع الى الدولة من اصل ذلك قبل خروجه الفين كيس متقدما ثم واصرف هذا الوزير جانبا عظيماً من المال من خروجه من اسلامبول الى نهاية امره هذا .

ثم وفى احدى عشر يوم من هذا الشهر نهار الثلثا بدت عساكر الغز تبيع المنهوبات من امتعة هذا الباشا وذلك امام عينيه وينادون حراجاً بالمزاد وذلك لاجل نكايته

واظهروا له جميع الكتابات التى كان يرسلها الى العساكر واهل البلد والمفاسد التى تعمدها وتقصدها ولم ينله منها فايده وكانت هذه المناظر عذابا له وخسر هذا الوزير شانه وماله واتلف خلايق كثيره بسببه واوقع اخاه السيد على باشا فى يسر المصريين ايضا كما تقدم ذلك ولم يزل اسيرا وكاد ان يموت قهرا مما حصل لاخيه على باشا فهذا ماتم لهذا الوزير .

ثم بعد ان باعوا المنهوبات امام عينيه نهار الثلثا كما ذكرنا احدى عشر شوال ففى العشيه حضر له الامير سليمان بيك والامير محمد بيك المنفوخ وانهضوه من صيوانه وقالوا له ان الامير محمد بيك الالفى امر بذهابك الى بر الشام فحزن جدا وقال لهم ماهذا الصنيع وما الذى حصل منى فقالوا له ان هذا الجزا قليل عليك نظرا لهذه الخيانة التى صدرت منك وقدموا له الخيل للركوب وركبوه وساروا به على طريق بر الشام بناء ان يوصلوه الى حدود الصالحيه ويرجعوا هذا من بعد ماضبطوا جميع ما عنده حتى ومركوباته ايضا وسار هذا الوزير مهاناً مبهدلا .

فهذا ما كان من امره . واما ما كان من الامير عثمان بيك البرديسى فانه من بعد ان أمر بسفر على باشا عشية الثلثا مكث نهار الاربعا فى الخارج ويوم الخميس ثلثه عشر من شوال نهض بالعساكر وحضر الى مصر ودخل بموكب عظيم ومحفل جسيم وضربت له المدافع الكثيره من ساير القلاع والابراج وصار الى الغز مزيد السرور والابتهاج بهذا الانتصار والتغلب وكان دخوله من باب النصر بيوم سعيد وقبض على الشيخ السادات والبعض من الاعيان الذين كان كاتبهم على باشا فى مدة ظهوره وهولاء حصلت لهم الشفاعات واطلقوا سبيلهم .

وهذا الوزير المشار اليه قد كان تربى فى بلاد الجزاير من اعمال المغاربه وصار باشا فى الجزاير وحصل مابينه وما بين اهل الجزاير فتنه وهرب منهزما واتى الى بر مصر وحضر الى عند الامير مراد بيك والتجى اليه ومكث عنده فى الجيزه مدة ايام والمشار اليه اقتباله بكل اكرام وما زال مقيما عنده الى حين دخول الدولة الفرنساويه

الى مصر وخرج من مصر مع الامير مراد بيك حين خرج لقتال الفرنساويه وحينما انكسرت عساكر الغز من عساكر الفرنساويه فسافر هذا الوزير من الاقطار المصريه وصار الى مدينة اسلامبول وكان هذا الوزير غنيا جدا بالمال وصاحب مكر واحتيال وكانت الغز المصريين لهم عليه المعروف والجميل حينما التجى اليهم وهو مطرودا ذليلا وكانوا يظنون انه فى توليه على مصر يتذكر معروفهم فنظروا انه ماجاء الا لكى يقهرهم ويذلهم ويرغم انوفهم وصعب عليهم عدم قيامه بوفا المعروف فعاملوه بهذا الامر المتلوف ومال وانطوى وجوزى بما نوى وهذا الوزير قد كان حضوره الى ثغر الاسكندريه فى نصف شهر ربيع الاول سنة ١٢١٨ ونهـاية امره فى ثلثه عشر شوال سنه ١٢١٨ فتكون مدة اقامته وتوليه فى القطر المصرى سبعة اشهر ولم يبلغ منا ولم يناله سوى التعب والعنا . ومن حين حضوره وقعت له الاناكيس فاول انكيس محاصرته فى برج رشيد واخذ البرج منه رغما ووقوع اخيه السيد على باشا اسيراً فى يد الغز . والانكيس الثانى عداوته مع القناصل السبعه فى مدينة الاسكندريه وآل امره الى صلحهم واشرطوا عليه اربعة عشر شرط وختم عليها رغما عنه واعرضوا امره الى دولته ولم يزل قنصل المسكوب وقنصل السويد غير مصالحين وكان هـذا سبب الانكيس والشروط هذه صورتها .

والانكيس الثالث هو الذى كانت فيه النهايه كما مر ذكره ولله الامر من قبل ومن بعد ولله در من دعاها بالقاهره اذ لاسبيل لمن يريد التغلب عليها والاتصال اليها ان يتوفق له امراً أو ينال منها وطراً فهى الربوة المباركة التى لاتقبل المشاركة ورجالها نبال راشقه واعينهم رامقه افراد جياد وفرسان شداد لم يكن نظيرهم فى ساير البلاد . مشتهرون بقوة الحرب والجلاد .

وكانوا ثمانية سناجق اذ دخلوا الى القاهرة سنة ١٢١٨ وهولاء الثمانيه هم الذين بقيوا من العيلة المحمديه من بعد دخول الفرنساويه وخروجهم ودخول الرجال العثمانيه

وهولاء تغربوا عن القاهره خمسة سنوات من سنة ١٢١٣ الى سنه ١٢١٧ وفى ابتدا سنة ١٢١٨ دخلوا الى القاهره وتملكوا بضواحيها ونواحيها والبسوا خمسة عشر سنجقا فى يوم واحد كما مر ذكره والبسوا احمد بيك حاكم دمياط سنجقا ويحيى بيك حاكم رشيد سنجقا وايضا الامير على بيك ايوب الذى البسه الوزير الاعظم حين كان بمصر والامير محمد بيك الالفى الكبير الذى توجه لبلاد الانكليز فصارت جملة السناجق سبعة وعشرين سنجقا المتوليين بمصر سنة ١٢١٨ وعمروا عشهم عمارة كلية وتمكنوا فى القلعه الكبيره واخرجوا منها ما كان موجودا من الارناووط بالحيلة ووضعوا يدهم على جبخانات عظيمه قد كانت تركتها الفرنساويه فى مملكة مصر عند خروجها وتحكموا فى ساير القطر المصرى تحكما شافيا وعين المتقدم عليهم الامير ابراهيم بيك الكبير وثانيه بالمرتبه الامير عثمان بيك البرديسي وهذا المذكور كان مملوك الامير مراد بيك الكبير وكان حاديا حدو سيده ومقتفيا اثره بالكرم والجود وكثرة البذل والعطا وعمر عشه وضم اليه افراخ كثيره .

وفى شهر رمضان الذى هو قبل شهر تاريخه بدد مالا كثيرا على الجنود اذ كانت عند الغز المصريين انهم فى شهر رمضان يفرقون الكساوى على مماليكهم واتباعهم وذلك سنويا وهذا الامير فاق سلفايه بتفريق الكساوى فى هذا العام حتى شاع ذكره وكان عاقلاً فطنا وجميلا حسنا ورضىّ الاخلاق .

وفى خمسة عشر يوم من هذا الشهر الذى هو شهر شوال سنة ١٢١٨ رجع الامير محمد بيك الالفى بعزوته ودخل الجيزه حيث كان هناك مستقره وكان دخوله يوم السبت بموكب عظيم وضربت له المدافع الكثيره وثانى يوم الاحد ستة عشر شوال خرجت الى مقابلته الامرا وكانت تضرب لهم المدافع .

وفى ثمانية عشر منه رجعت الغز الذين كانوا توجهوا صحبه عساكر على باشا وقيل انهم اوصلوهم الى حدود الصالحيه وسرحوهم على بر الشام وقيل انهم اعدموهم فى الطريق .

وفى عشرين من هذا الشهر شاع الخبر فى مدينة مصر بان الغز الذين توجهوا صحبة على باشا الجزايرلى من بعد انهم ابتعدوا من مدينة بلبيس اصدروا فتنه بين المماليك وبين جماعة الباشا وبهذه الواسطة قطعوه مع جماعته ودفنوه فى البر المذكور فى محل يقال له منية صبرا وارسلوا اخبروا الامرا بمدينه مصر وكان ذلك حقيقيا (وقيل ان موته كان بامر من الدولة العليه بسبب الفتنه التى ثارت بينه وبين القناصل السبعة بالاسكندريه وهذا نقل ضعيف) وقد كانت الامرا بمصر من بعد ارساله الى جهة بر الشام احضروا القاضى عسكر والقابجى باشى الذى كان حضر من طرف الدولة العلية باوامر له والى الغز بمصر والبعض من رجال الدولة الموجودين بمصر واحضروا بعض موجودات من امتعة على باشا وكتبوهم وقيدوهم بشىء معلوم وبلغ الثمن ثلاثون كيس من المال وطلبوا ان يسلموهم الى القبجى باشى لكى يرسلهم الى الدولة فابى المذكور من ذلك خوفا من الدولة وغوايل الامور. وحررت امرا مصر عرض حال الى الدولة العليه بأمر على باشا وانه القا فساداً عظيماً فى المملكة بمكاتبه الى العساكر والقا الفتنه بيننا وبينهم وانه اعطا اذنا تاماً الى العساكر بنهب المدينة ثلثه ايام وثلب الرعيه وقتل النفوس وقد كاد ان يحدث شر من ذلك وخراباً عظيماً ما جاء مثله لو لم تمنعه القدره.

وقد كان جمع جيشا وافرا ليدخل به الى المملكة ونحن تمنينا ان يصرف العساكر اذ لا حاجه له بها حيث لا يوجد من يمنعه عن الدخول على منوال الوزرا السابقة وقدمنا له الطاعة اللايقه وترجيناه عدة امرار بالحضور وارسلنا له الامير رضوان كتخدة الشاويشيه ، والامير محمود شاويش عزبان حكم العادة والمذكورين تقيدا بخدمته التقييد الكلى وامرناهم ان يتقوما بكامل لوازمه وبقى مقدار سبعة اشهر وهو يعدنا بالحضور ويحادق الامور لكى يجهز له جيشا وجمهور لاجل خراب المملكة والتلاف والتهلكة ولا امكن ان ينثنى عن رايه بوجه من الوجوه بل ما زال مصراً على عزمه حتى حضر بجملة عساكر فلاجل ذلك التزمنا اننا عن الدخول خشية من وقوع الفتنة بينه

وبين العساكر الموجودة فمذ ابى ان يصرف عساكره ويدخل بخاص رجاله فقط اجمع رايه واخذ عساكره وسار على بر الشام ولا امكن يرتضى ان يدخل دخول الوزرا السابقة حكم القوانين وعطل الحاج الشريف والمحمل الشريف بهذا العام عن الخروج للفتنة التى انشاها وعدم الاف وامتناعه عن الدخول بالصلح والسلام وعدم قيام امير حاج ومباشرة لوازمه وقد انتظرناه الى غاية رمضان ان يدخل ويخرج الحاج الشريف كعادته بميقاته فما تهيأ له الدخول كما اعرضنا فلزم اننا باشرنا بتجهيزه وارسلناه بحراً لا براً لكون انه فاتت الميقات فهذا ما تم اعراضه لسعادتكم العلية .

فهذا هو مضمون الكتابة التى اعرضتها امرا مصر الى الدولة العثمانيه فى شان على باشا واستشهدوا بذلك العلما والايمة والقضاه والقبجى باشى ووكيل دار السعادة وبعض رجال من طرف الدولة كانوا بمصر .

ثم فى غضون ذلك بدت الامرا تباشر بلوازم الحاج لكى يرسلوا المحمل بطريق البحر الى الحجاز وتبلبلت الاسلام بعدم خروج الحاج بهذا العام .

وفى ثلثة وعشرين من هذا الشهر دخلت بعض اتباع من اتباع على باشا الذين كانوا معه فهولاء من بعد قتله ارسلوهم الغز الذين كانوا برفقته وكتبوا الى الامرا بمصر وادعوا انهم قتلوه العرب وانه صعب عليهم هذا الامر ومخجولين من الدخول الى مصر وخايفين وطالبين الامان من الامرا أى الامير ابراهيم بيك والامير عثمان بيك البرديسي فعقد الامير ابراهيم بيك ديوانا واخبر بصحة قتل على باشا واظهر التأسف عليه والتعجب من ذلك وكانت كل هذه مراياه على عيون الناس وتصنعاً منهم وكان الامير ابراهيم بيك حكيماً فى هـذه الامور وكانوا قبل ذلك وضعوا السيد على باشا فى القلعة الكبيره .

وفى خمسة وعشرين من هذا الشهر دخل الامير سليمان بيك صهر الامير ابراهيم بيك ومعه الامير محمد بيك المنفوخ وهما الذين توجهوا مع على باشا وقابلوا الامير ابراهيم بيك والامير عثمان بيك البرديسي فاظهر الامير ابراهيم بيك الغضب على الاميرين

المذكورين وشرع انه يرفع السنجقيه عنهما لانهما لا يستحقان التقديم اذ انهما قد تهاونا فى قتل على باشا وان ذلك على غير مراده فحصلت لهما الشفاعة من باقى الامرا واخذوا خاطر الامير ابراهيم بيك عليهما ثانية وكل هذه كانت صناعة منه امام الناس .

وفى هذه جرت المراسلات ما بين امرا مصر وبين احمد خورشيد باشا المقام فى مدينة الاسكندرية وهذا المشار اليه كان من العقلا المهذبين وكان رجلا متهذبا متدربا فى اعماله وحكيما فى احواله وكان يريهم انه متحدا معهم ويرغب ما يرغبوه ومجيبا لكل ما يطلبوه .

وفى هذا اليوم ايضا صنعوا امرا مصر ديوانا واظهروا به فرمانا وارداً لهم من الدولة العلية ومضمونه الرضا عليهم والتاييد لهم .

وطلب الامير ابراهيم بيك من صوارى عساكر الارناووط انهم يلبسوا كسم الامرا الغز ويلبسوا جميع عساكرهم كسم المماليك وتتفرق هذه العساكر جميعها على جميع الامرا السناجق والكشاف واراهم ان الغز والارناووط صاروا فى هذه المملكة رجلاً واحداً وكلمة واحدة وصار لهم النشب فى هذه المملكة كما هو للغز لاجل ذلك لا ينبغى ان يكونوا بعلايف واجره معلومه بل يكونوا كالمماليك عن السناجق والكشاف واعطاهم مهلة ان يستشيروا انفسهم وعساكرهم ويردون عليه الجواب وصرّح لهم انهم لا يوملون بالعلايف اذ ان الغز لا قدرة لهم ايضا هذه العلايف الثقيله ودفع هذه الاموال الجزيلة وانصرفوا من امامه .

وفى هذه المدة كلها كانت عساكر الترك والارناووط مواظبه على التخطيف والتعكيس فى مدينه مصر وكانت اياماً صعبة المراس على الناس وكانوا يبتهلون الى الله تعالى عز وجل فى زوالها وتغيير احوالها واكثر الناس كانوا يمكثون فى منازلهم ولا يخرجون الى الطرق والشوارع خيفه من معاكسات العساكر المذكورة وكانت الغز امرا مصر عاجزة عن ردهم وصدهم اذ انهم محتاجون لهم لان امرا هذه المملكة كانت قد قلت مماليكها ورجالها .

وفى هذا الشهر تواردت الاخبار على هذه المملكة من ساير الاقطار بأن الفرنساوية اخرجوا عمارة عظيمة الى البحر الابيض تشتمل على مراكب كثيره وعساكر غزيرة وانهم قاصدين بلاد الشرق . فتارة كانوا يقولوا انها قاصدة بر مصر وتارة كانوا يقولوا انها خرجت لاخذ جزيره مالطا من يد عدوهم الانجليز وتارة يقولوا انها قادمة الى بر الشام وتواترت الاخبار فى شان ذلك وكانت اهل الشرق خايفين من ذلك جدا وشاعت ايضا الاخبار بأن الانكليز قادمين بعدة مراكب وعساكر الى الاسكندريه وبرفقتهم الامير محمد بيك الالفى الكبير الذى توجه معهم الى انكليتيره كما تقدم عنه القول فى هذا التاريخ وذلك لاجل حفظ مملكة مصر من الفرنساوية .

وتكاثرت هذه الاخبار فى افواه الناس وكانت المصريين قلوبها غير مطانه من قبل الممالك الافرنجيه لانهم شاهدوا شدة حروبهم وصلابة قلوبهم وكانوا يقولون لا بد لاحد الملوك الافرنجيه من الاستيلا على مملكة مصر لما نظروا من ضعف قوه رجال الاسلام عند الحرب والاصطدام وملاقات الجيش بالجيش وما يحل بهم من الطيش ولا سيما اذ كانوا يتلون الكتب والرسايل ويفحصون التقاويم والمسايل وينظرون ظهور امر الاشارات مع صحة العبارات .

وفى هذه المدة ايضا شاعت اخبار السلطان قسطنطين اخو السلطان اسكندر سلطان روسيا المعروف بالمسكوب انه اخذ مملكة الكرج واستولى على ممالك الفرس وسرى جهة بغداد واعظم خوف دولة بنى عثمان كان ظهور هذا السلطان وهذا هو الملقب بالطود الاصفر والعلج الاصفر وهذه الدولة المسكوبيه لها عدة حروب ووقايع مع الدولة العثمانية وذلك من عهد السلطان احمد المتولى سنة ١١١٥ هجرية الى عهد السلطان سليم المتولى سنة ١٢٠٣ للهجرة ايضا . ولم تزل هذه الدولة تنمو وتزداد وتقهر فى عباد وتملك فى بلاد وتظفر فى الحرب والجلاد الى تاريخنا هذا سنة ١٢١٨ وظهر لها شان واى شان وحان لها الوقت وآن الزمان وهذه الدولة استولت على ممالك الططر ومملكة الكرج ومملكة العجم وبدت تمتد وتنموا وذلك لأمر يريده الله .

ثم فلنرجع لما كنا فى صدده انه وفى هذا الشهر ايضا الذى هو شهر شوال سنة ١٢١٨ فى ٢٨ منه فرضت امرا مصر على القناصل الافرنجية الذين هم فى مصرماية كيس وذلك لاجل تشهيل المحمل واخراجه الى الحجاز من طريق البحر كما تقدم القول .

وفى هذا الشهر كانت الرعايا فى غاية الكرب فى مدينه مصر واقطاعها وذلك من معاكسات العساكر فى الطرق والشوارع .

وفى هذه السنة تعالت جميع الاسعار من البضايع وكامل الاصناف واسعار الماكل والمشارب وكان رطل التبن يباع باثنى عشر فضه وماتت بهايم كثيرة من عدم وجود الماكل وكانت ايام شديده الاهوال وعدم الامان وزاد الظلم والعدوان .

وفى اواخر هذا الشهر ايضا هاجت العساكر على روسايها بطلب الجوامك وكاد أن يحدث فتنه من ذلك وتوارت روسا العساكر وارسلوا اخبروا الامير ابراهيم بيك والامير عثمان بيك عن ذلك فارسلوا اوعدوهم بتشهيلها وكانت الامر ورقدت العساكر .

وفى هذا الشهر ايضا حضر خط شريف من السلطان سليم خطاب الى امرا مصر به يعرفهم ان الفرنساويه خرجوا فى عمارة عظيمه وعساكر جسيمه لمحاربة عدوهم الانكليز فتحفظوا على الثغور ولربما يقصدون اطراف بلادنا فاذا حضروا تردوهم ولكن باحسن رد ثم وقد بلغ دولتنا العلية ظهور الخارجى عبد الوهاب واتحاده مع الاعراب وقيامه على ساق واتصاله الى اراضى مكة المطهرة ذات الاشراق فلذلك وجهنا عليه على باشا والى بغداد ليمحو اثاره من تلك البلاد ووجهنا ايضا عليه احمد باشا الجزار والى الشام وصيدا وجميع الاقطار الشاميه ان ينشوا الغارات عليه بعساكر عديده ويطرده من الاقطار الحجازيه فتمدوه بثلاثين الف اردب غلال وتجهزوا له الفين فارس من الابطال فتعتمدوا اوامرنا الشريفة الصادرة من ديوان سدتنا المنيفه فهذا كان مضمون الخط الشريف .

ومضى شهر شوال ذو الحركات والاهوال واستهل شهر القعدة سنة ١٢١٨ هجرية

ففى اربعة ايام من هذا الشهر يوم الخميس حضر ساعى من الاسكندريه من قنصل الانكليز بمكتوب خطابا الى قنصل الانكليز بمصر وبه يخبره انه حضر مركب بيليك من بلاد الانكليز وحضر به الامير محمد بيك الالفى الذى كان توجه الى البلاد المذكوره سابقا فالقنصل المذكور بمصر ارسل البشارة الى الامير عثمان بيك البرديسى والمشار اليه ارسل اخبر باقى الامرا وكان ذلك حصة الغروب .

وكان فى غرة هذا الشهر نهار الاثنين دخل مركب من بلاد الانكليز الى اسكلة ابو قير وفيه ورد الامير محمد بيك الالفى الكبير كما ذكرنا ونهار الثلثا حضر الى بندر رشيد مع اتباعه المماليك وقدرهم عشرة انفار واستقبله الامير يحيى بيك حاكم رشيد بكل اكرام وقدم له كل وقار وحضرت الى مقابلته جميع الاكابر والاعيان والمذكور اشهر فى خطابه الى الامير يحيى بيك انه هو عزيز مصر صاحب النهى والامر وان جميع امرا مصر هم دونه بالمرتبة ولا بد ان يسود عليهم بعد وصوله اليهم واظهر التوعيد لهم . فالامير يحيى بيك خبر الى سيده الامير عثمان بيك البرديسى بما نظر من الامير محمد بيك الالفى الكبير عند مقابلته وما سمع منه عند مخاطبته فهذا ما كان من وصول الامير محمد بيك الالفى الكبير الى بندر رشيد وكانت مدة غيابه عن مملكة مصر فى بلاد الانكليز احدى عشر شهرا .

ثم فلنرجع الى ما كنا فى صدده ونقول حين بلغ بشارته الى جميع امرا مصر وقت غروب الشمس صار فرحا عظيما عند الامرا المصريين فى تلك الليلة وضرب من المدافع فى تلك الليلة ما ينيف عنماية مدفع وصباح الجمعة ضربت ايضا مدافعا كثيرة من الجيزه والروضه والقلعة الكبيرة وكان الجيزه فى يد الامير محمد بيك الالفى الصغير الذى كان نايباً عن سيده وكانت الروضه فى يد الامير حسين بيك الزنطى الذى كانوا يدعونه اهل مصر حسين بيك اليهودى لانه فى الاول كان يهوديا وتنصر فى جزيرة زانطه وكان اصله من جزيرة زانطا يهودى الاصل وهذا المذكور اسلم فى مدينة مصر مع اخوته الاثنين وكان احدهم اسمه احمد اغا

وهو الكبير واصغرهم كان اسمه ابراهيم اغا وهذين الاثنين ماتوا فاحدهم الذى هو احمد اغا مات فى بلاد سنار قتلا وابراهيم اغا صغيرهم مات فى مدينة مصر سنة ١٢١٨ واوسطهم الذى هو حسين بيك بقى فى مصر وصار له شهره وتقدم بين الامرا وحين دخول الغز الى مصر سنة ١٢١٨ فوضعوا له الامر بجمع عسكر برانى فاجتمعت عليه عدة جنوس فمنهم اروام نصارى واقباط وتكارنه سود من جبال تكرور وفرنساويه من الذين بقوا فى مصر وجميع هولاء كانت الفرنساويه تعلمهم صنعة حرب الافرنج وصار عسكره ينيف عن ثمانمايه نفر والبعض من هذا العسكر كان يلبسهم البرانيط من نحاس اصفر وكان موضع سكناه فى الروضه فى سنه تاريخه مع جيشه المذكور كما ذكر وهذا المذكور افقد رجالا كثيره من عسكر الترك وهم الانكشاريه والسكمان فى سنة ١٢١٨ كما مر ذكره فى محله .

ثم فى هذا اليوم المذكور الذى هو رابع شهر القعدة سنة ١٢١٨ وردت الاخبار من مدينه ازمير ومن جزيره استانكوى ان أربعة مراكب من مراكب الانجليز فى البحر المحيط دخلت الى اسكلة برست من اساكل فرانسا وهجمت على الميناء لكى تحرق بعض مراكب للفرنساويه فضربوا عليهم المدافع الكثيرة والقنابر من الابراج فاحترقوا المراكب الاربعه وكان فيهم الجنرال سميت المشهور امره وهو الذى احرق عمارة الفرنساوية على بوغاز الاسكندريه وساعد احمد باشا الجزار على حرب الفرنساوية سنة ١٢١٣ كما مر ذكره فى محله وهذا الجنرال كان رهطاً معدوداً فى الحروب وفى مدة دخول الفرنساوية الى مملكة مصر وخروجهم الى بر الشام نفع النصارى الموجودين فى اساكل دمشق الشام نفعاً بينا وحماهم من الاسلام اذ كان فى ذلك الوقت يتردد على مدينه عكا لمساعدة احمد باشا الجزار على الفرنساويه فهذا الجنرال مات حريقا فى مركبه مع المراكب المذكورة وكان فرحاً عظيما عند الفرنساوية فى موته وحزنت عليه مملكة الانكليز .

وقيل انه فى مينا مدينة برست عمارة عظيمة انشتها الفرنساويه وهى مراكب

صغار جدا والمركب لايسع غير خمسين نفر ومدفعين فقط وكانت هذه المراكب عديده واصطنعوها الفرنساويه لكى يشحنوها عساكراً ويهجموا بها على مدينة الانكليز لكون ان مدينة برست قريبة من بلاد الانكليز جدا وهذه الاسكلة فى البحر المحيط .

ثم وفى سادس يوم من هـذا الشهر ايضا نهار السبت اذ كانت الغز مهمين على التوجه لمقابلة الامير محمد بيك الالفى الكبير القادم من بلاد الانكليز وكانوا البعض من عيلته خرجوا للمقابلة ففى هذا اليوم عقد الشور الامير ابراهيم بيك مابينه وبين الامير عثمان بيك البرديسى ان يغتالوا محمد بيك الالفى ويقتلوه مع جميع اصحـابه ولا يدعوه ان يحضر سالماً ويتمرد عليهم واتفق الراى ان يرسلوا الى الامير يحيى بيك فى رشيد ويامروه بقتل الامير محمد بيك وهم يكبسوا ليلاً على الجيزه ويقتلوا الامير محمد بيك الالفى الصغير ويكون ذلك بميعاد واحد ثم بعد ذلك يقتلوا اصحابه فرداً فرداً ويقطعوا هذه الشجرة من بينهم ويستاصلوها لانهم كانوا خايفين منـه جداً وسبب خوفهم ان هذا المذكور قبل توجهه مع الانكليز اخذ منهم صكا مختوما من جميع الامرا انه اذا حضر سالماً من بلاد الانكليز يكون هو المتقدم على باقى الامرا الموجودين فى مملكة مصر وكان هذا الامير شامخاً فى نفسه جدا وكانت عيلته جميعها فاجرة ولا سيما مملوكه الذى اقامه عوضا عنه بعد سفره المدعو محمد بيك الالفى الصغير لان هذا المذكور فى غياب سيده بهذه المدة كلها كانت كلمته لاترد وامره لايصد وكان سلاباً خطافاً وضاجت منه ومن احواله وسو اعماله جميع الامرا والغز تماماً واذ بلغه قدوم سيده الكبير ارسل حالا الى الواقفين فى الدواوين وظبط الاقلام الميريه انهم من الان يظبطوا الاموال ولا يقبلوا ختماً آخر غير ختمه ولا يطيعون الا لحكمه لبينما يحضر سيده فاذ شاهدته الامرا المذكورين وهم الامير ابراهيم بيك والامير عثمان بيك وباقى الامرا قوة ظهوره وشدة فجوره فازدادوا غضباً وتبادروا الى حسم هذه الشجرة وابادت هؤلاء القوم الفجره .

وفى عشية السبت المذكور سادس شهر القعدة صمموا الراى واحضروا الامير محمد على سارى عسكر الارناووط وابرزوا له ضميرهم واشهروا له سرهم ودبروا الف عسكرى من عساكر الارناووط وان يتوجه بها محمد على مع الامير عثمان بيك البرديسى ويكبسوا على الجيزة ليلا ويقتلوا الامير محمد بيك الالفى الصغير وكان الامر كما ذكر وسار الامير عثمان بيك المذكور ومحمد على ليلة الاحد فى نصف الليل ووصلوا الى الروضه واشحنوا العساكر فى المراكب التى فى الروضه تحت يد حسين بيك الزانطى وساروا بها الى الجيزه قبل الفجر وكبسوا على القصر الذى به الامير محمد بيك الالفى الصغير فقبل وصولهم اليه شعر بذلك فنهض بالسرعة والعجل نهضت الخوف والوجل وفر مع اصحابه الى الخارج راكباً على خيله مجد السير جدا فكبست العساكر على القصر وبدوا ينهبون ويسلبون مافيه والبعض من السناجق والعسكر جدوا فى اثره وهو منهزما من امامهم مطرودا وقتلوا من سناجقه الامير حسين بيك الوشاش مع خزنداره وبدت العساكر تنهب وتسلب فى مدينه الجيزه واخذوا غنايم كثيره من هذه البلدة ونهبوا من ذلك القصر العظيم اموالا جزيله وامتعه ثمينه .

وصباح الاحد ظهر الخبر فى مدينة مصر والامر اشتهر وخافت الرعايا وامتنعت عن الخروج الى الشوارع وكان يوما مهولا .

وانه كان قبل هذه المعركة بيومين توجه السراج باشى من قبل الامير ابراهيم بيك والامير عثمان بيك البرديسي الى بندر رشيد لكى يقضى امر محمد بيك الالفى الكبير كما ذكرنا وذلك بناء على انه يدرك الامير محمد بيك المذكور فى رشيد حكم تعريف المشار اليه انه مقيم فى رشيد اربعة ايام وانه نهار الاحد يخرج ويقصد مصر فلاجل ذلك دبروا بأن يقضوا الامرين فى يوم واحد ويكون موقعهما نهار الاحد وصار الامر بضد ذلك لكون ان الامير محمد بيك الالفى الكبير خرج من مدينة رشيد نهار الخميس عشية الجمعة وفى يوم الاحد المذكور وصل مراكبه الى حدود الترعة الفرعونيه وهنالك تقابل مع بعض مراكب وارده من مصر فاراد ان يستخبر

منهم عن مصر واحوالها فقالوا له ان الخبر الشايع فى مصر انه فى هذه الليلة كبست الغز والارناووط على الجيزه وقتلوا الامير حسين بيك الوشاش وان مملوكه محمد بيك فر هاربا فاصفر لونه وتغير كونه ونهض حالا من مكانه وجلس على ظهر المركب واخذ بيده النظاره وبدا ينظر الى البعد فنظر عساكرا وارده عليه براً وبحراً فنزل من ساعته وفتح صندوقه واخذ منه علبتان وقفز الى البر الشرقى مع مماليكه العشرة وسار على البر ركضا الى ان وصل الى نجع من نجوع العرب وكان شيخ هذا النجع الشيخ نصر ابن شديد فدخل على الحريم وقال لهم انا فى عرضكم يا عرب فقالت له الحريم ومن انت يا امير فقال لهم انا محمد بيك الالفى الكبير فقالت له مرحبا يا امير ابشر بالسلامه ولا تخف فقال لها اين الشيخ يا ست العرب فقالت له الشيخ فى مصر لانه ارسل له الامير عثمان بيك البرديسي والى كامل العرب بالتفتيش عليك فقال لها وكيف العمل يا ست العرب اخشا على شيخ العرب ان يموت بسببى فقالت له فداك يا بيك ويسلم ولده مسلم وحالا احضرت له حصانا من الخيل الجياد يساوى الف دينار من الذهب وجهزت له اربعة انفار من خواص العرب وقالت لهم سيروا به الى الجبال والتلال وكان الامر ونفد الامير محمد بيك وابقا مماليكه فى النجع وقال لهم انتم لا تخافوا لا يجرى عليكم شيء من الباس لانه ليس الخوف على الرجلين بل على الراس وسافر بمفرده مع العربان المذكورين قاصدا قبيلة عرب المعازى اذ ان هذا الامير فى مدة جولانه فى البرور من بعد خروجهم من مصر سنة ١٢١٣ تناسب بهذه القبيلة المذكورة وتزوج بابنة من بناتهم ومن قبل توجهه وذهابه الى بلاد الانكليز توفت امراته هذه فى جهة اسكندريه وفى هذه الحركة سار الى عند اقرباه العرب لكى يحتمى عندهم .

ومن بعد هروبه على هذه الصورة المذكورة اقبلت العساكر على المراكب التى كان فيها هذا الامير المذكور وهجمت عليها وسالوا عنه فقالوا لهم ان السنجق هرب ولا نعلم الى اين توجه فهجمت العساكر ونهبت جميع ما فيها من المال والامتعه وكان فى هذه المراكب عدة بضايع ثمينه الى التجار واردة من رشيد الى مصر فنهبوا جميعها وساروا

الى نجع العرب وسالوهم عن محمد بيك الالفى فقالوا لهم لا نعلم اين توجه فقبضوا على المماليك الذين كانوا بقيوا هناك وارتدوا الى مصر .

ونهار الاثنين ثامن يوم فى شهر القعـدة توكد خبر نفود محمد بيك الالفى وكان وقتيذ شيخ العرب شديد امام الامير عثمان بيك البرديسي فقال له يناسب يا شيخ العرب انكم تنفدوا محمد بيك من يدينا فقال له شيخ العرب يا بيك انا لا علم لى بذلك لاننى من يومين وانا امامك فى مصر فقال له ان حريمك هم الذين نفدوه فقال لهم نعم يا بيك ومحمد بيك قال للحريم اخاف ان عثمان بيك يقتل شيخ العرب بسببى فقالت له الحريم حرق اباه يموت يسلم ولده مسلم ولا نفوت عرضنا فضحك الامير عثمان بيك وقال له هكذا يكون شأن العرب فعلت كل طيب .

وفى هذا اليوم الذى هو نهار الاثنين ثامن شهر القعده اخرجوا المحمل الشريف الى قراميدان وخرج الامير ابرهيم بيك مع جملة سناجق لكى يسلم المحمل الى امير الحاج حكم العاده وكان امير حاج الامير محمود شاويش وخرجوا اهل المدينة يتفرجون عليه حسب عوايدهم لان هذا اليوم هو اليوم المشهور فى مملكة مصر عند الاسلام وعند الخاص والعام وهو من ايام الافتراج ونهارات السرور والابتهاج فرجعوا وهم يتقمقمون ويتمرمرون وينوحون على حال الكنانه وضعف الديانه وخراب ذلك النظام وقهقرة الاسلام فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العليم .

وفى حادى عشر من هذا الشهر نهار الخميس سافر قنصل الانكليز من مدينة مصر بجميع تعلقاته وخفى عن الناس سبب سفره وتبلبلت اهل المدينة بسبب ذلك وستضح حقيقة الامر فى اوانه واقام واحد تاجر انكليزى فى البيت لرفع البنديرة فقط .

وفى هذه المدة المذكورة من بعد وقعة الجيزه تنفست عساكر الارنانوط والسكمان وبدوا يخطفون فى الشوارع ويقطعون الطرق ويفتكون بكل من وجـدوه منفردا ويخفون اثره ويقطعون خبره وهلكت الرعية من الضر والاذية واهلكت هذه العساكر

نساء كثير فى هذه الايام وكانوا يخطفوهم فى الطرق وامتنعت النسا عن الخروج وكثيرون من الرجال مكثوا فى بيوتهم ، واقتنعوا بقوتهم وكانت اياما شديدة الاهوال .

وفى اثنى عشر من شهر القعده ظهر خبر ايضا بأن قنصل الفرنساويه الموجود بمصر مسافر ايضا الى الاسكندريه لانه بدا يهم فى تجهيز لوازم سفره وقد كان توجه لمقابلة الامير عثمان بيك البرديسي واخذ خاطره على السفر وحينما شاع أمر سفره فى مصر فتبلبلت اهل المدينة وضاجت وتنوعت الاقاويل فى شان ذلك فارسل الامير عثمان بيك الى القنصل المذكور ومنعه عن السفر فارسل القنصل يترجاه فى اطلاق سبيله فمنعه المنع الكلى وقال له ان سفره لا يناسب فى هذه الحصة بوجود البلبلة التى حدثت فى شأن سفر قنصل الانكليز فالتزم ان قنصل الفرنساويه ابطل سفره ومكث .

وفى ثالث عشر من هذا الشهر خرج المحمل مع الامير محمود شاويش وخرجت معه بعض حجاج من بلاد المغاربة اتوا بحراً وجميعهم سافروا الى السويس لكى يتوجهوا فى طريق البحر كما تقدم القول سابقا فى هذا التاريخ والركب المغربى ما حضر بهذا العام كعادته بل حضر بعض مغاربة فى البحر كما ذكرنا وساروا على طريق السويس بحرا الى مدينة جده مع المحمل كما شرحناه وكانت قلوب الاسلام حزينة بسبب ذلك اذ كانوا ينظرون ترادف النحوسات على الديانة مع كثرة العكوسات فى الكنانه .

وفى غضون ذلك تشامخت عساكر السكمان والارناووط على الغز يتمردون عليهم اذ نظروا انقسامهم وتشتيتهم عن بعضهم وهانوا عليهم وصاروا يتكلمون جهارا انهم ان كانوا يفونا جوامكنا والا نطردهم من بيننا ونملك عوضهم اذ نحن كنا السبب فى دخولهم الى مصر وبدوا يطلبون علايفهم المتأخرة سبعة اشهر بكل جساره وتوعيد ويتهددوهم وضاقت الغز من ذلك وحل بهم الندم على ما فعلوه اذ انهم هيجوا نار الفتنة من غير فطنه وخصمهم هرب ولم ينالوا أرب ولا استفادوا غير الانقسام وقويت عليهم اعين الاخصام وفى كل يوم كانت تزداد المخاطر وتفجر العساكر حتى رأت الناس منهم العجب العجاب وضاقت الرجال وهانت على الخلق نفوسها ولذ لديها ان تسكن

رموسها هذا والفتن فى مصر قايمه غير نايمة والعساكر هايجه والنار متأججه والاحكام سايبة والحكام عايبه ولا من يصد ولا من يرد ، ولا شافع ولا رافع ولا دافع ولا مانع بل كل مفعول جايز ومن توارى فى منزله فايز .

وفى سادس عشر من هذا الشهر نهار الثلثا حدثت فى مصر رجه عظيمه من قبل العساكر اذ نهضوا على سارى عسكرهم محمد على وقفلت المدينه خوفا من حدوث حرب بينهم وبين الغز وارسل الامير عثمان بيك طمنهم على دفع جوامكهم فهجعوا وارتجعوا الى منازلهم . واتفق راى الامرا ان يدفعوا لهم جامكية ثلثه اشهر فقط وبترك العسكر جامكية اربعة اشهر وذلك لغاية شهر الحجة سنة ١٢١٨ هلاليه .

وهيجان هذه العساكر كان مقصودا من روسايهم وامتلت قلوب الغز من الاحقاد عليهم وارادوا ان ينهضوا الرعية ضدهم واحضروا علما المدينه اى مشايخها وحثوهم على ذلك وكشفوا بواطنهم وسرايرهم فوجدوهم اناسا اقويا فى اللسان ضعفا فى الجنان عددهم كثير وجمعهم غزير صفيره تجمعهم وقضيب يفرقهم وكان يشهى لديهم ازالة دولة الغز وما ينوط بها من الجاه والعز ويرغبون اقامة الارناووط والسكمان ويقولون هؤلاء عسكر السلطان ويولوهم الحمد والشكر ولو فضحوا منهم فى كل يوم الف بكر وقد تقدم الوصف عنهم قبل ذلك فى هذا التاريخ .

وفى ثمانيه عشر من هذا الشهر سافر قنصل الفرنساويه من مدينة مصر الى الاسكندريه وفى غضونه سافر من الافرنج عدة اشخاص وكثيرين من الافرنج هموا على الخروج من مدينة مصر وتبلبلت المصريين فى شأن خروج هؤلاء الاشخاص وقالوا ان لفى ذلك أمر لا بد عن حدوثه وكانت قلوبهم مرتعشه من رجوع احد دول الافرنج الى مصر كما شرحنا سابقا .

وفى احدى وعشرين من هذا الشهر أمر الامير عثمان بيك بهدم قلعة الظاهر بيبرص ونهبوها ونقلوا منها ذخاير كثيره وجبخانات وبارود واسلحة . وهدوا ايضا قلعة كوم الريش التى احدثوها الفرنساويه بعد الاربعة وثلثين يوم حصار فى ختام سنة ١٢١٤ .

ثم امر الامير عثمان بيك بعمل صور داير حول قلعة كوم العقارب الذى هو فوق بوابة الناصرية حيث كان هذا الامير ساكنا هنالك .

وفى غضون ذلك حضر الامير سليمان كاشف البواب وطلب الامان من الامير ابرهيم بيك والامير عثمان بيك فامنوه ودخل الى مصر وهذا المذكور كان من مماليك مراد بيك الكبير ولكن ملتمس الى الامير محمد بيك الالفى .

وفى غضون ذلك شاع خبر الامير محمد بيك الالفى الكبير انه فى جهة الشرق عند العرب وقيل انه حضر منه مكاتبات الى مصر .

وفى ثلثة وعشرين من هذا الشهر حضر الامير ابرهيم بيك جميع العلما وعقد ديوانا عرفهم انه قد اتفق مع روسا العساكر ان يدفع لهم ثلثة الف وسبعمايه كيس علوفة ثلثة اشهر لغاية شهر الحجه سنة ١٢١٨ ويسافروا الى بلادهم واعلمهم ان مراده يفرض على جميع البيوت والوكايل والدكاكين الموجوده بمصر ان يدفعوا الى الامرا كرى سنة كاملة وان كل محل يدفع على قدر ما يستحق ويناسب اجرته قل او جل لكى يستعينوا بها على وفا جوامق العسكر ومن بعد ايراد جوامكهم يصرفوا من يصرفوه ويبقوا من يريدوه فاجابوا العلما على رايه وهذه الفريضة قد كانت انشتها الفرنساويه فى مدة تملكهم فى مصر وعلى موجب ذلك احضروا المهندسين وفرقوا الكشاف والمهندسين على ساير خطوط المدينه لكى يحصوا عده البيوت والوكايل والدكاكين ويكتبوها ويحرروا ما يساوى كل محل من الاجرة سنة كاملة ويقبضوه من السكان واذ بلغ اهل المدينة ذلك الامر فتعصبوا جميعهم ونهضوا نهضة واحده على ساق وقدم وضربوا احد الكشاف والمهندسين الذين معه وبدوا يجمهرون ويتراكضون على بيوت الامرا والغز فقفلت الوكايل والدكاكين وابواب المدينة وهاج الشعب هيجانا عظيما وكانوا يصرخون ويولولون اليوم نطرد الغز الظالمين من هذه المدينة وكانوا يجتمعون افواجاً افواجاً فحين نظرت العساكر هيجانهم هذا العظيم فارتعشت قلوبهم وكانوا يقولوا لاهل البلد نحن معكم لسنا عليكم ونحن واياكم على هؤلاء الظالمين فحينا

بلغ الامرا ذلك فارسلوا حالا احضروا العلما وقاضى عسكر وامروهم ان ينزلوا ويدوروا فى شوارع المدينة وينادوا بالمدينة ان الفريضه بطاله فاطمنوا يا رعايا واهجعوا عما انتم فيه وكان الامر ورقدت الرعية وبطلت الفريضه وقيل انه قد كان ابطلها الامير على بيك ايوب والامير عثمان بيك يوسف وذلك من قبل قيام اهل المدينة .

وفى ستة وعشرين من هذا الشهر وضع محمد على سارى عسكر الارناووط والسكمان فى كل خط من خطوط المدينة قلقا ظابطاً بعدة انفار وذلك لاجل حفظ الخطوط من تخطيف العسكر وتعكيسه واطلق المناداه فى كل خط من الخطوط بالامان وان كل عسكرى يحدث منه شرا فيقبضوا عليه او يعلموا به حاكم ذلك الخط لكى ينتقم منه ورقدت العساكر نوعا . وهذا المشار اليه كان رجلاً عاقلاً متدربا وكانت العساكر تهابه لمكارم اخلاقه وحسن تدبيره . ومن ذلك الوقت تنورت شمسه وحدثته نفسه ان يغتال الغز الموجودين بمصر ويدمس عليهم سراً ويطفى خبرهم ويقطع اثرهم وعقد هذه المشورة ما بينه وبين روسا العساكر من بعد ما نظر ميل اهل المدينة له وبغضهم المفرط لدولة المماليك كما تقدم شرحه سابقا والذى اغراه على ذلك ومهد له هذه المسالك خيانة الغز لمحمد بيك الالفى الكبير وقصد قتلهم له وطرد مملوكه من الجيزة كما تقدم شرحه لهذا السبب ضعفت قلوب الغز وتفتحت عليهم اعين الاخصام من بعد هذا الانقسام واضمروا لهم الضماير الاتى شرحها .

وهو انه فى تسعة وعشرين من هذا الشهر الذى هو شهر القعدة سنة ١٢١٨ عقد الامير ابرهيم بيك والامير عثمان بيك البرديسي ديوانا فى بيت ابراهيم بيك ودعوا فيه علما البلد والسارى عسكر محمد على والامير عثمان بيك المذكور بدا يخاطب العلما ويقول لهم كيف انكم من بعد ما ظهرتم الرضا وختمتم على قايمة فرض المال على البيوت لاجل دفع جوامك العسكر ثم بعد ذلك هيجتم اهل المدينة واستنهضتم الجمهور ضدنا فقسماً بالله ان كنتم لم ترجعوا وتجمعوا هذه الفريضة على سنه كاملة والا ارجع واجمعها على ثلثه سنوات .

فظهر له السارى عسكر محمد على وقال له ارجع عما انت فيه عن اهل المدينة لانهم اناس فقراء وقوم مساكين فنحن جوامكنا على مال السلطـان ليس على الرعية وانتم وكلا السلطان فى هذه البلاد وجميع الاموال السلطانية عندكم وتحت يدكم فادفعوا جوامك العساكر من عندكم لا من مال الرعية المظلومة ولا يمكننا ان نتركهم ان يدفعوا درهما واحدا ولا نجاوزكم على هذا الظلم .

فقال له الامير عثمان بيك لا بد ان اخذ منهم هذا المبلغ ولا بد عن نفوذ امرى .

فقال له محمد على لا تقدر على ذلك ولا يخرج من يدك .

ونهض حالا من الديوان وبانت منه عين الغدران وتحقق للامرا ظهور العداوة .

فنهضوا بالحال وابتدوا يجمعوا رجالهم ويوزعوا اعيالهم ومكث الامير ابرهيم بيك فى منزله مع رجاله والامير عثمان بيك البرديسي فى منزله مع رجاله ومحمد على سارى عسكر السكمان والارناووط ذهب الى منزله فى اليزبكية واعلم روسا العساكر بما حصل وبدوا يدبروا المكيده ويجمعوا العساكر ويدبروها وشاع خبر الفتنة فى المدينة فقفلت الوكايل والاسواق والابواب وكان ذلك نهار الاحد المذكور فى تسعة وعشرون شهر القعدة سنة ١٢١٨ الموافق ثمانيه وعشرين شهر شباط سنة ١٨٠٤ وباتت الغز المصريين والعساكر تلك الليلة على حرب . وكان فى بيت الامير عثمان بيك المذكور مقدار خمساية عسكرى من السكمان خادمين عنده وحين ولا النهار واظلم الليل غاب الهنا وحل الويل وهجمت العساكر بعد نصف الليل على بيت الامير عثمان بيك الذى فى الناصرية هجمة فظيعة فى ساعة مريعة فنهض الامير عثمان بيك وثارت نيران الحرب بينهم بالبندق والمدافع وخانت عليه السكمان الذين عنده واتفقوا مع الارناووط الذين هجموا ففر الامير عثمان بيك مع رجاله من بين النيران وخرج من باب الناصرية الى الخلا فسقط منه جملة مماليك وفر هاربا الى كوم العقارب فزاحمته العساكر فلم يقدر يمكث فى قلعة الكوم المذكور بل فر مطرودا وذهب الى مصر العتيقة ودخل محمد على

سارى عسكر السكمان الى منزل الامير عثمان بيك المذكور وضبط الاموال والامتعة جميعها فهذا ما كان من عثمان بيك .

واما ما كان من الامير ابرهيم بيك فانهم هجموا على منزله ايضا ونقبوا على بيته واستعلوا على الاسطحة وبدوا يضربوا عليه النيران وحينما انه لم يقدر ان يمكث نخرج من منزله مع رجاله منتضياً سيفه وفاراً من بين العساكر وهنالك تراكمت عليه النيران وتزاحمت وقتل هذا الامير فى طريقه خلقاً كثيراً من السكمان والارناووط وقصد باب القلعة الكبيره فما تهيا له الدخول فسار الى الامام وانجرح فى كفه وانجرح ولده الامير مرزوق بيك وسقط منه جملة مماليك ومنهم كيخيته الامير رضوان كاخيه .

وهجمت عساكر الارناووط على باقى بيوت السناجق والكشاف فكل مملوك وجدوه قتلوه ونهبوا جميع بيوتهم وسلبوا ما فيها من الاموال والامتعة والجواهر والفرش والجوار البيض والسود واما القلعه الكبيرة فقد كان فيها الامير احمد بيك الكلارجى والامير سليم اغاة الانكشاريه مع رجالهم فهولاء المذكورين حينما نظروا شدة الحال نخرجوا من باب الجبل الى الخارج وتركوا القلعة وكان عندهم من داخل القلعة جملة عساكر مغاربة فهولا هجموا على دار الضرب‌خانه ونهبوا ما فيها من الذهب والفضة .

واصبح الصباح نهار الاثنين غاية شهر القعدة سنة ١٢١٨ فهذا اليوم كان نهاراً عظيماً فى مدينة مصر بهذه الموقعة ولم يزل السلب والنهب واقع فى بيوت الغز من سناجق وكشاف ومماليك ووجقليه وشربجيه نهار الاثنين بتمامه وكانت اهل المدينة تنهب السمن والزيت والحنطة وباقى انواع الماكل والمشارب فقط وكانوا متهللين ومبتهجين على ازالة دولة الغز وهذا كان فيهم طبعا كما لخصناه سابقا ومع هذا الحرب والسلب الواقع على الغز فى المدينة كانت المناديين تنادى فى شوارع المدينة يارعايا عليكم الامان لا تخشوا من باس ابقوا فى منازلكم على حالكم واطمانوا على عرضكم ومالكم وذلك حسبما رسم محمد على سارى عسكر واحمد بيك ثم انه فى ضحوة هذا النهار الذى هو نهار الاثنين توجه محمد على الى القلعة الكبيرة فوجد محمد باشا وابرهيم باشا والسيد على باشا

فى القلعة فاخذ محمد باشا وابرهيم باشا وانزلهما من القلعة والمنادى ينادى امامهم امانا وطمانا يا رعايا حسبما رسم محمد باشا والى مصر واتوا به الى بيت محمد على فى بركة اليزبكيه واجلسوه هناك وتبادرت لمقابلته جميع روسا العساكر واعيان مدينة مصر وعلماوها ومشايخها ورعاياها وتنوعت المناداه فى مدينة مصر نهار الاثنين المذكور فتارة كانوا ينادوا باسم محمد على واحمد بيك اخيه وتارة كانوا ينادوا باسم محمد باشا وتارة كانوا باسم حسن بيك كبير الارناووط وهو اخو طاهر باشا وبالنتيجه كان كل بين باشى اى راس عسكر ينادى باسمه وفى عصرية هذا النهار بدوا يجمعوا الروس المقتولة من الغز ويلقوها امام بيت محمد على بناء ان يدبغوها لكى يرسلوها الى اسلامبول ويعرفوا الدولة بما حصل ثم قدموا الى محمد باشا اكرام الوزرا وحفظوا مقامه ووقفت جميع روسا العساكر امامه وجميعهم قدموا له الطاعة اللايقه عدا حسن بيك اخو طاهر باشا وجماعته فانهم نفروا منه وابتعدوا عنه واظهروا الحقد القديم والبغض الجسيم وانقسمت قلوب الارناووط من السكمان وكانت الارناووط اكثر عددا من السكمان ابنا الترك فحين شعر محمد باشا بذلك تخشى غوايل المهالك وقال الى روسا العساكر والعلما والاعيان اننى انا معزول من الدولة العلية عن ولاية مصر ولا يمكننى مقارشة الاحكام ومعاطاة التدبير والنظام فجاوزته روسا العساكر على ذلك خوفهم من انقسامهم عن بعضهم ولا سيما اذ نظروا ان اخصامهم الغز لم يزالوا مقيمين فى الخارج ومبادرين فى جمع رجالهم واقيالهم وخشيوا ان الارناووط عنداً فى السكمان ومحمد باشا يرجعوا يتحدوا ثانية مع الغز ويدخلوهم الى البلد ويفتكون بالسكمان ويقطعوا أثرهم . فلاجل ذلك تداولوا مع بعضهم واتفق رايهم انهم يسفروا محمد باشا مع رفيقه ابرهيم باشا منفيا الى جزيرة قبرص .

وكان الامر ونهار الثلثا فى غرة شهر الحجة سنة ١٢١٨ ليلة الاربعاء فى اربعة ساعات من الليل ارسلوا محمد باشا وابرهيم باشا الى بولاق واحدروهما فى احد المراكب وسفروهما الى بندر رشيد واعطوهما خمسين كيس من المال مصروف الطريق .

ويوم الاربعاء ثانى يوم من شهر الحجة عقد محمد على ديوانا فى منزله فى بركة

الزبكية واجتمعت به جميع روسا العساكر وعلما مدينة مصر وقاضى عسكر والاعيان واظهر لهم فرمانا واردا من الاسكندريه من خورشيد احمد باشا خطابا الى حكام مدينة مصر به يعرفهم ان الدولة العلية قد انعمت علينا بولاية مصر وقريبا نحضر اليكم وبعد ان تمموا قرآة الفرمان فسجلوه فى سجل المحكمة السلطانيه واقاموا محمد على وحسن بيك ارناووط حكاما على مصر ووكلا الوقت لبينما يحضر حاكم الولايه خورشيد احمد باشا ثم ارسلوا السيد على باشا الى القلعة الكبيرة ضابطا لها .

فلله الامر من قبل ومن بعد وسبحان من كمل هذا على طبق مراده وله التصرف كيفما شاء فى عباده يبدل ولا يتبدل ويغير ولا يتغير ولله الامر من هذه الانقلابات العجيبة والامور الغريبة التى مرت على هذه المملكة بالحوادث المفتكه والاضرار المهلكة التى قد قذرتها النفوس ورفضتها العقول وغاصت الناس فى بحار من الحيرة واندهلت من هذه الامور الخطيره ولا نقدر نوصف الخراب والدمار والتلف والدثار الذى حصل فى هذه المملكة من غرة محرم سنة ١٢١٨ هجرية الى غايتها وكم تبدرقت اموالاً وخزايناً ومقدار السلب والنهب الذى وقع فى بحر هذه السنة المذكورة وهذا قد سطرناه فردا فردا فى محله من حين قيام العساكر على محمد باشا فى غرة محرم ونهب دمياط ونهب رشيد ونهب الجيزة ونهب البلاد عموما وتخطيف العساكر وظلم الغز فى البلاد وزاد على هذه جميعها طرد الغز من مصر واخراجهم منها ونهب بيوتهم ومنازلهم فى غرة الحجة ختام سنة ١٢١٨ وذاك الخراب العظيم والضرر الجسيم الذى شمل دولة الغز فى هذه الموقعة من فقد الاموال والامتعة وسبى حريمهم وتهتك جوارهم وقيام البكا والعويل فى منازلهم على فقد الرجال والمال وتيتم الاعيال وعظم مصابهم بما اصابهم وعمت مصيبتهم غالب اهل مصر من ارباب الحرف والصنايع والتجار اذ كانوا يستدينوا من الناس كعوايدهم جميع ما يحتاجوه من الجواهر والاوانى الذهبية والفضية والاقمشة والملابس وفرش المنازل وما يتعلق بهم من جزئى وكلى وافتقرت خلقاً كثيرة بسببهم وفى هذه الحركة خربت الغز خرابا عظيما اذ انهم لم ينقلوا شيئا من منازلهم ولا اخفوا شيئا بل

جميع ما كان مودوعا لهم ومدفونا فى بيوتهم من قديم اظهروه وكان موجودا جهارا فداهمتهم هذه المصيبة بغته فالتزموا انهم تركوا كل شى وفروا وجميع ما فقـد منهم فى هذه الحركة من المماليك مقدار ستين نفر فقط ومات من الخدما والسياس مقدار ماية نفر وظهر فى هذه المعركة بطش الامير ابراهيم بيك الكبير اذ ان هذا البطل الشجاع والقرم المناع عارك عراكا عظيما وقتل من الترك والارناووط حزباً جسيما اذ خرج من بينهم كالليث الطامر والرصاص منسكبا عليه كالمطر القاطر وقيل انه تخضبت ثيابه وسيفه بالدما اذ هجموا عليه فى منزله كما ذكرنا من بعد أن افترسهم والقا غالبهم على الارض مجندلا خلع ثيابه ولبس غيرهم وتزرد بالزردية الحديد والطـاسة البولاد وركب الجواد واستل حسامه الباتر وخرج من الباب فولت من امامه العساكر واذ بلغ الى قرب القلعة الكبيرة فوجد المتاريس امامه فهجم عليها وقتل من كان قريبا اليها وقفز بجواده عنها ونجا منها فسقط الجواد من تحته برصاصة اصابته فقدمت له مماليكه هجينا فركبه وسار على الامام فسقط منه عدة مماليك وسياس ومنهم الامير رضوان كتخده كما تقدم الشرح عنه سابقا وتعجبت الترك والارناووط من شجاعة الامير ابراهيم بيك وقوة بطشه وقالت الاخصـام ما هذا الا اسد درغام وكان بلغ من العمر ستين سنة وهذا ما كان من امرهذا الهمام من خروجه من منزله الى حينما وصل للامام كما ذكرنا .

ومن هنالك تجمعت الغز وسارت الى ارض طرى خارجا عن مصر فهذا ما كان من امرهم فى غرة شهر الحجة وما حل بهم من الرجه

وفى رابع يوم منه جمعوا بعضهم واجمع رايهم ان يقيموا فى الجهة القبلية لحجز جميع الوارد الى مصر من الحنطة وباقى الحبوب وغيرها لاجل مضايقتها وكان الامر ودخلوا الى بر الجيزه وبدوا يمنعوا الشارد والوارد فهذا ما كان منهم .

واما ما كان من امر السارى عسكر محمد على صاحب المقام العلى والـكوكب الجلى فانه تمكن من مصر وسـاعده النصر ونال مرامه وقهر اخصامه وكان رب مكيده وامراه سديده فهذا ما تم بتقدير العزيز العليم

من غرة شهر الحجة الى خامس يوما منه وفيه اطلق حسن بيك الارناووط عثمان بيك الخزندار مع مماليكه وارسله الى الخارج لان هذا الامير فى حدوث الحركة هرب واحتما فى بيت حسن بيك الارناووط اذ كان بينه وبين المذكور مواددة وقيل انه ارشاه بجانب من المال حتى اطلق سبيله وكتب كتابا وارسله مع المذكور الى الغز بشأن عسكر الارناووط الذين بقيوا فى الصعيد لان الغز حينما كانوا بمصر كانوا ارسلوا مقدار سبعمايه نفر من العسكر مع الامير سليمان بيك حاكم الصعيد وحينما حدثت هذه الحركة تخشى حسن بيك الارناووط ان الغز يقتلون العسكر الذين فى الصعيد فلاجل ذلك حما عثمان بيك الخزندار وعمر بيك وغيرهم واطلق سبيل عثمان بيك واوصاه ان يتحفظون على العساكر التى فى الصعيد وان كان يحصل مضرة لهم فيلزم من ذلك ان الارناووط يقتلون جميع من كان من جنس الغز الباقيين فى مصر مع نسايهم واولادهم ولا يبقوا منهم اثرا وقد كانت نسا الغز جميعها باقية فى مصر وبقى جملة غز من كواخى وشربجيه وجقليه واعيال قديمه اصلهم مماليك وقد كانوا اخذوا امانا من السارى عسكر محمد على .

ومن بعد ان وصل عثمان بيك الخزندار الى عند الامير ابراهيم بيك حضر من المشار اليه جوابا الى حسن بيك الارناووط به يقول له اما من قبل عسكر الارناووط الذين بطرفنا فهولاء لايمكن ان يصير لهم ضررا أو يرون منا خطرا لانهم تحت اماننا وقريبا نوجههم لكم سالمين ونحن منذ كنا حكاماً بمدينة مصر فكنا دايما نراعى خواطر الارناووط بنوع خصوصى وقد اخذنا مزيد العجب اذ بلغنا انكم هجمتم على حرمات فى بيوت وسلبتموهم وسبيتموهم وهذا ليس هو شأن اهل الشهامه فالمرجلة على الرجال الذكور ليس على نساء فى الخذور فان كنتم من الرجال الفحول اخرجوا لمقابلتنا فى البرور فاما ان تكن مصر لنا او لكم فهذا ما جاوب به الامير ابراهيم بيك الى حسن بيك الارناووط .

ثم فلنرجع لما كنا فى صدده وهو انه فى هذا اليوم ايضا خامس شهر الحجة

حضرت الاخبار من مدينة دمياط انه فى شهر القعدة الماضى حدثت فى مدينة دمياط رجّه عظيمة من قبل العساكر اذ انهم نهضوا على على بيك سارى عسكرهم لكى يقتلوه لاجل علايفهم والمذكور هرب منهم وقفلت المدينه وارتجت اهاليها فاجتمعت علما المدينه والقناصل الذين هنالك وهجعوا العساكر واووعدوهم بعلايفهم وتضمنوا لهم دفعها من بعد سبعة ايام تمضى لبينما يحرروا الى حاكم دمياط الذى هو احمد بيك لان المذكور كان قبل ذلك توجه الى المنصورة لجمع المال المفروض عليها وعلى اقليمها لايفاء علايف العسكر الموجوده فى دمياط فقالت العساكر الى العلما والقناصل ان كان الى مضى سبعة ايام لم تأتينا علايفنا والا ننهب البلد جميعها وكان الامر وكتبوا الى الامير احمد بيك بالمنصورة وعرفوه بما تم وفى غضون حدثت الحركة الكبرى بمدينة مصر وبقى المذكور خارجا من دمياط واذ بلغه ما تم للغز بمصر فخرج من المنصورة وحضر الى بر الجيزه وبدت الغز تجمع رجالها المتفرقين فى الولايات والبنادر وحضر الامير يحيا بيك حاكم رشيد وغيره من السناجق والكشاف وصاروا جميعهم حزبا واحداً ونصبوا مضاربهم وخيامهم من ورى الهرامات الى محل يسمى زاوية المصلوب بعيدا عن مصر مسافة يوم واحد وهنالك بدوا يعضوا سنان الاسف والندم على ما فعلوه من الخيانة بالامير محمد بيك الالفى وجميعهم تضمروا على الامير عثمان بيك البرديسى وتنقمقوا عليه وقالوا له لولا انقسامنا هذا عن بعضنا ما كانت الاعدا تشاجرت وتجاسرت علينا وندم الامير عثمان بيك على ماصنع وبدوا يتشاورا انهم يضموا اليهم الامير محمد بيك الالفى وهذا يأتى له كلام فى محل آخر فى ما بعد .

فهذا ماكان فى أمر الغز واقامتهم فى بر الجيزه على حدود مصر وجمعوا عربانا كثيرة وطموشا غزيرة واما ماكان من السارى عسكر محمد على فانه احضر السيد احمد المحروق والمعلم جرجس الجوهرى القبطى وسلمهما زمام تدبير امور مدينة مصر وثالثهما عثمان اغا الخزندار الذى كان سابقاً خزندار محمد باشا كما ذكرنا سابقاً الذى خامر على محمد باشا وسلم القلعة الى طاهر باشا وكان رجلا مشهورا بالتدبير وقال لهم محمد

على اننا نحن عساكر حربيين ولا نعلم بتدبير الامور وما يخص الجمهور فانتم مفوضين الامر منذ الان الى حينما يحضر خورشيد احمد باشا من الاسكندريه .

وكان الامر وفى غضون ذلك حضرت الاخبار من ثغر الاسكندريه الى مصر بخروج خورشيد احمد باشا منها وقدومه الى مصر وكتبت اهالى اسكندريه لاهالى مصر وهنوهم بهذا الباشا العاقل والحاكم العادل وكانت سيرته حميدة جدا وهذا المشار اليه قبل خروجه من اسكندريه ارسل خزنداره الى القسطنطينيه واعرض الى الدولة العلية بما فعلته العساكر بمصر من اخراج الغز وان ذلك بمباشرته وتدبيره واعرض انه متوجه الى مصر لمساعدة العساكر على تتميم الملعوب .

وفى سادس يوم من هذا الشهر خرجت عدة عساكر من الترك والارناووط وتمكنوا من مدينة الجيزه وفى ثامن يوم من هذا الشهر بدت الغز والعربان تصفح وترمح امام الجيزه وترجع الى محلها .

وفى اربعة عشر يوم من هذا الشهر حضر الى بولاق خورشيد احمد باشا وكان ذلك نهار الاثنين ودخل الى مصر من باب النصر باحتفال عظيم وموكب جسيم ومشت امامه جميع العساكر الى بيت الامير ابراهيم بيك الكاين فى خط الداوودية وقطن هنالك .

وفى خمسة عشر من هذا الشهر عقد ديوانا وحضرت به جميع روسا العساكر الموجودة بمصر وكامل العلما والحكام وجميع ارباب الصوت والكلام واشهر أمره لهم ان ولاية مصر ليست عليه بل انما اذ بلغه انطراد الغز من مصر الى الخارج فاتى مساعداً للعساكر على انقراض الغز العصاه على الدولة العلية وهو الان وكيل الدولة فى مصر لبينما ان الدولة العلية تحاط علماً بخروج الغز منها وترسل اليها والياً غيره او ترسل له تقرير الولايه وبذلك اتضح الامر ان الذى تم وحصل على الغز هو بتدبير محمد على وباقى روسا العساكر وذلك لاجل تبريرهم عند الدولة اذ انهم هم الذين كانوا السبب فى طرد محمد باشا وتولى طاهر باشا وقتل المذكور وادخال الغز وقتل الدفتردار مع

كاخية محمد باشا وقتل على باشا وباقى التقلبات التى حصلت بهذا العام وانهم باشروا باخراج الغز من مصر وقسموهم من بعضهم لكى يضعفوهم وبذلك يمحون ذنوبهم التى سجلوها فى سجل الدولة ويفتخر بذلك محمد على ويغفر اثمه ويعظم اسمه وختم الديوان خورشيد باشا مع العساكر والاعيان على اخراج العساكر الى محاربة الغز وطردهم عن ابواب مصر للافتراج عن المدينة ودخول الغلال لراحة الرعايا وتطمين العباد وكان الامر . وفى سادس عشر يوم منه كتب فرمانا واطلق المناداة بالامن والطمان فى ساير الشوارع واسواق المدينه .

وفى سابع عشر يوم من هذا الشهر كانت الغز ترح مع قبايل العربان على عساكر الارناووط والسكمان فى بر الجيزه وكانت الارناوط تضرب عليهم المدافع من الحصون لكى يرجعوهم ويصدوهم عنهم .

وفى ثامن عشر يوم منه انتقل خورشيد باشا من خط الداووديه وسكن فى بيت الشيخ البكرى الكاين على شاطى بركة اليزبكيه بالقرب من بيت محمد على لان الباشا ومحمد على كانوا غير مطمانين من حسن بيك ارناووط اخو طاهر باشا الذى قتلوه ابنا الترك وكانوا خايفين من مخامرته مع الغز وتهم بذلك . وفى هذا اليوم ايضا حصل حرب بين البعض من الغز والعربان وبين الارناووط والسكمان وذلك فى بر الجيزه وكانت الارناووط تخشا الخروج من المتاريس لعلمهم بفراسة الغز فى الفلا وانهم لايهابون جمعا ولا ملا .

وفى تاسع عشر يوم من هذا الشهر قفلت المجاورين ابواب جامع الازهر لاجل تعيينهم الشهرى المرتب على شيخ البلد وتوجهوا الى السارى عسكر محمد على فامر لهم بدفعها .

وفى غضون ذلك اشتد الكرب وعظم الخطب وبان الصعب وتضايقت اهالى المدينة من وجود عساكر الغز والعربان حول دايرة مصر ومنعهم الوارد لها من غلال وغيره لان معاش اهل مدينة مصر وقوتها من بر الصعيد فاعرضوا امرهم الى الباشا

وروسا العساكر وحرضوهم ان يخرجوا لحرب الغز ويطردوهم عن ابواب مصر لانطلاق السبل وايراد الغلال ورخا القوت ومعاش الرعايا فاوعدوهم بان يخرجوا لهم ويطردوهم وطمنوهم على ذلك وكانت فرقة من العساكر يقولوا اننا لانخرج لحرب الغز الا اذا اخذنا جوامكنا وعلايفنا وكان الباشا والسارى عسكر محمد على يقولوا لهم ان ليس عندنا ما ندفع طالما اعدائنا رابطين الطرق ومانعين الوارد وماسكين ابواب اقاليم الصعيد ولكن اخرجوا معنا الى الخارج لكى نقرضهم وفى ذلك الوقت تتسع امامنا البلاد وتطيعنا العباد ويسهل علينا جمع المال ونعرف طرقه ونعطى كل ذى حق حقه فهذا ما كان يجاوب به محمد على الى العساكر وروساوها .

وفى هذا اليوم ايضا حضرت العساكر الارناووط التى كانت فى الصعيد مقدار سبعماية نفر وتجمعت ساير العساكر التى كانت فى البرور وفى البنادر مثل رشيد ودمياط والمنصورة والمحلة وغيرهم من البنادر والارياف وصاروا جميعهم فى مدينة مصر وكانوا مقدار عشرة الاف .

وفى واحد وعشرين من هذا الشهر نهار الاثنين عقد الباشا ديوانا ودعا اليه جميع روسا العساكر والزمهم بالخروج لمحاربة الغز فى بر الجيزه فقالوا جميعهم فى وسط الديوان اننا لا نخرج الى الحرب ان لم ناخذ علايفنا وهذه الجوابات كانت مكيدة مدبرة مع روسا العساكر والباشا لكى يبلغ هذا الخبر للغز فى الخارج ويباتوا مطمانين وخرجوا من الديوان على عدم الخروج للحرب وفى تلك الليلة نهض محمد على ليلا بجانب من العساكر ودخل الى بر الجيزة غلساً ومن بعد نصف الليل كبست عساكر الترك والارناووط على الغز والعربان الموجودين فى بر الجيزه ورى الهرامات وكانت الغز منتبهين فتصادما العسكران وتلاطما الجيشان وتقدمت العربان وصاحت صياح النسوان ووقع الحرب والطعان وبرزت الى الميدان ثلاثه سناجق بالسيوف البوارق والرماح الدواشق على الخيول السوابق وانقضوا عليهم انقضاض البواشق واصطلت نيران الحرب والطعان وهجمت خيل الارناوط والسكمان على الغز والعربان فولوا منه امامهم هاربين الى ان

جدبوهم الى كهف جبل عالى وكان فوقه الامير حسين بيك اليهودى بعسكره فاطلق عليهم المدافع الكثيرة بالنيران الغزيرة فتساقطت خيول الترك والارناووط فاحتاطت بهم الغز من كل جانب بالسيوف القواضب والرماح الثواقب وكادوا ان يفنوهم باسرهم وهم فى اثرهم لو لم تداهمهم المشاة بالجمع الغفير والرصاص الكثير ومنعوا عنهم الغز الطاردين لهم لحدود ابواب الجيزه ومن هنالك رجعت الغز الى مكانها ومحل مضاربها وخيامها ودخلت العساكر الى مدينة الجيزة ومات منهم نحو ثلثماية نفر غير المجاريح وغالب المقتولين كانوا من ارباب الخيل والروسا .

واصبح الصباح نهار الثلثا فى ٢٢ الحجة وكانت صباحاً مهولا على العساكر وعلى الرعايا اذ انهم كانوا قفلوا ابواب مدينة مصر ليلا لكى يمنعوا العساكر عن الهروب والرجوع الى المدينه وضحوة النهار فتحوا ابواب المدينة وبدوا يحضروا المجاريح .

ومن هذا اليوم ابتدا قيام الحرب على ساق بين الغز والعساكر وفى عصرية النهار امر الباشا باخراج باقى العساكر الموجودة بمصر الى الجيزه ونبهت عليهم روساهم وكانوا يخرجوهم قهرا بالعصى وهم يتهاربون ويختبون فى المنازل والبيوت والشاويشيه والصوطريه يكبسون عليهم ويخرجوهم .

ونهار الاربعا ٢٣ الحجة خرجت جميع العساكر الى بر الجيزة وبقى الباشا بشردمه وجيزه ونصب محمد على المضارب والخيام فى البر المذكور فهذا ما كان من امر العساكر واما ما كان من امر الغز فانهم كانوا ناصبين الخيـام من ورى الهرامات الى حدود زاوية المصلوب وهنالك كان الامير ابرهيم بيك بمعقوديته مع عثمان بيك البرديسي وكانت الغز فى هذه الحركة تضارب وتحارب وقلوبها مملوة من الضغنه على العساكر واهل المدينة لما نظروه من الخيانة وقلة الامانة وعدم الصيانة لمنازلهم ومحلاتهم ونهب اموالهم وهتك حريمهم ولله درهم من افراد جياد وقوم شداد لا يتقاومون فى الحرب والجلاد ولا يصادمون فى ميدان ولا يعدون كثرة الفرسان وكانوا يزاءرون زاءيرة الاسود ويتنفسون الصعدا من صميم الكبود مما حل بهم من الاسواء وقد اصابهم ما

اصاب الدولة الجركسية اذ كانت فى الاقطار المصرية عند انقراض دولتهم وانصرام مدتهم اذ كانت هذه الزمرة القوية هى الشجرة العفية المعروفه بالقزضاغليه والمنعوته بالحنضلية النابته فى الاراضى المصرية منذ اعوام عديده التى قد امتدت اغصانها واقرعت عيدانها وتمكنت جدورها وعظم ظهورها وزاد فجورها فكانت متينة الاساس صعبة المراس وتفرست فى الحروب واستدمنت على المصايب والخطوب فقد هلكت بسببها نفوس كثيرة وفنيت عساكر غزيرة اذ انها حاربت الفرنساويه ثلثة اعوام وقاومت الدولة العثمانية عدة سنين واعوام ولم تزل تحارب حتى الى الان وتعارك فى الاقطار المصريه وساير جهاتها القبلية والبحرية وتخرب فى بلاد وتهلك فى عباد وقد صارت مملكة مصر عبرة بين الممالك بسبب قيام هذه الفتن والمهالك وكان السبب الاعظم فى ذلك وترادف هذه الحوادث والكوارث على هذه المملكة السعيدة والدرة الفريده ظهور الامير على بيك الكبير وعصاوته على الدولة العثمانية ومكاتباته الى دولة روسيا المسكوبيه والحاده مع الدول الغريبة عن الديانه وافقاده الوداعه والامانه ثم من بعده ظهرت المماليك المحمدية المشهورة وكانبت الدولة المذكوره على هذه الصورة كما تقدم شرح ذلك فى محله ومن هذا القبيل تفتحت اعين الدول على هذه المملكة بهذا الدليل فلاجل ذلك نفر قلب سلطانها من المماليك وبدا يضمر لهم كل سوء وتهليك ويحتال على انقراضهم وتخليص البلاد منهم وانفضاضهم ونفرت منهم ايضا قلوب اهل الكنانة لما نظروه منهم من الخيانه واتصل الحقد بينهم وامتد وفاق الحد وصارت اهل هذه المملكة تكره المماليك كرها عظيما وبغضتهم بغضا جسيما مع ان الغز اوفر تمكينا من غيرهم فى الديانه واشفق قلباً على اهل الكنانة اذ هم افراخ عشها وتربيتهم فى ظل عرشها ومغتديون من لبن ثديها وهم من اخص بنيها ولكن قد سبق الحكم بالامر الكاين فى علم المولى القدير اذ لا تاثير لشيء فى الدايرة الكونية الا باذنه وسماحه تعالت اسماه وهكذا قد جرت عادة الدول فى العالم بانها تنمو بالاتحاد والالتيام وتباد بالفرقة والانقسام وتعمر بالعدل وتدمر بالظلم وهذه الدولة فى نهاية ايامها قد عدم نظامها واختلفت احكامها

وجرت حكامها وزاد انقسامها وسبحان من كل ذلك على طبق مراده وله التصرف كيف ما شاء بخلقه وعباده فوا اسفاه على هولاء المقادم الذين قد ماتت بعدهم المعاطى والمكارم وشهامة النفس والسماح ورمح الخيل وحرب الصفاح وخوض الهيجاء وهز الرماح وقوة البطش وشدة الباس مع كثرة البذل والنفع للناس وكان كلما قل عددهم زاد باسهم وجلدهم وقد افنتهم الحروب والطواعين فى مدة سبع سنين من سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٨ وبقيوا مقدارا قليلا .

ثم عودا لما نحن فى نحن بذكره اننا قد قلنا انه فى ٢٣ شهره خرج محمد على الى بر الجيزة ونصب المضارب والخيام امامهم وفى خمسة وعشرين من هذا الشهر ايضا نهار الجمعة امر خورشيد احمد باشا بخروج جميع العساكر التى باقيه فى المدينة وارسل الشاويشيه والصوطريه واطلق المناداة عليهم باللغة التركية ان كل عسكرى يبات فى المدينه يقتل من الاغا والوالى حكم مرسوم الباشا ومحمد على وباقى روسا العساكر وبدت العساكر تخرج من مصر من بعد صلاة الجمعة وتذهب الى بر الجيزه وكانت قلوبهم مرتجه من مقابلة الغز ومصادمتها لما نظروه من قوة بطشهم وشدة باسهم وبعضهم كانوا ينهزمون ويختبون فى المنازل والبيوب وخلت المدينه من العساكر ولم بقى سوى الباشا بعزوته واذ بلغوا الى بر الجيزه فجمعهم السارى عسكر محمد على وقروا الفواتح وبدا يعظهم ويشددهم كعادة روسا العساكر واستعدوا الى المحاربة والمضاربة ومن بعد صلوة الغروب هم الطالب على المطلوب وتقدمت الجيوش على الجيوش فيالها من ساعة كانت مرعبة ونيران ملهبه وجالت الفرسان وظهرت الشجعان وهاجت العربان وصاحت الغربان وابرق الهندوان ولعلع الزان وبان قوى الجنان وخاف الجبان وتزاحم الصنان وتصادما الفريقان وبدت الروس تتناثر كتناثر الاوراق عن الاشجار من اول الليل الى آخر النهار ولم يزل الحرب والقتال يمتد بالاتصال حتى مال النهار واظلم الليل فاشتد الحرب وزاد الويل ومضى الليل بتماسيه والحرب باقى على قيامه حتى لاح النهار فخمدت النار وطفى الشرار وكل من الحرب كل جبار واسد مغوار ورجع كل هاجم وقدم مفاجم

وتساقطت الجماجم من العرب والاعاجم وملت الاجساد ذلك الواد وفاحت الرمم وقصرت الهمم وزاد الالم وحل الندم وتنكس كل علم واستمر الحرب والطعان مقدار ستة وثلثون ساعة من الزمان ومات عدة من العربان ومن الارناووط والسكمان وكلا الفريقين وانفصل الجيشان وامتنعت الغز عن القتال وارتفعت الى الجبال وبطل الحرب والنزال والتشاجر والجدال فرجعت الترك والارناووط بوجه مقنوط وجمع مفروط ودخلوا الكنانه بذل واهانه وذلك نهار الاحد سبعة وعشرون الحجة وقلوبهم من حرب الغز مرتجه ونهار الاثنين دخل السارى عسكر محمد على وقلبه من الهم ممتلى واشاعوا الخبر ان الغز ولت الى الصعيد ونحن رجعنا بنصر وتأييد وقيل انه كان السبب الداعى لامتناع الغز عن الحرب ورجوعها الى ورى هو ان الامير ابراهيم بيك ارسل احضرهم وعقد معهم ديوانا لاجراء الصلح ما بينهم وبين الامير محمد بيك الالفى الكبير وقيل انهم ارسلوا له الامير مرزوق بيك ابن ابراهيم بيك وبعض سناجق ليستعطفوا خاطره ويستميحوه عما فعلوه معه من الخيانه ويضموه اليهم ويصيروا جميعهم عصبه واحده على اعدايهم وبدت المراسلات والمخاطبات بينهم فابى المشار اليه عن الاتحاد معهم وتمنع غاية التمنع عن مرافقتهم وموافقتهم وارتجعوا خايبين الامل وندموا على ذلك العمل ويأتى له كلام فيما بعد .

فعودا وانعطافا لما نحن فى صدده وهو اننا قد قلنا ان محمد على من بعد رجوع الغز الى ورى دخل هو وجميع العساكر الى مصر وهجعت الامور واستكنت الاحوال وسكنت الفتنه الى غاية هذا الشهر .

احضروا السيد على باشا من مصر الى الاسكندريه وارسلوه الى القسطنطينيـة واعرضوا الى الدولة العلية انهم اخرجوا الغز المماليك من مصر الى خارج وقطعوا منهم عشرة روس وقدموا الطاعة وطلبوا العفو وارسلوا مع السيد على باشا عشرة روسا من كبرا عساكر الارناوط يستميحوا خاطر الدولة العلية عن ذنوبهم وعقد الباشا ديوانا ودعا فيه روسا العساكر جميعها وكان المتكلم فى الديوان كتخداه عثمان اغا الخزندار

الذى كان عند محمد باشا سابقا ثم انتقل الى عنـد طاهر باشا حينا والس معه وسلمه القلعه حسبما ذكرناه فى محله ومن بعد قتل طاهر باشا انتقل الى عند محمد على وحينما حضر خورشيد احمد باشا فجلس عنده كتخده وقيل انه فى جميع هذه الحركات كان له خبره واطلاع وهوصاحب مكيده وله فى قلب الامور رايات سديده فهذا المذكور تكلم فى الديوان عن لسان الباشا وخاطب روسا العساكر وقال لهم ان سعادة افندينا يقول لكم ان العساكر يطلب لها علوفة عشرة اشهر الى غاية شهر الحجه ختام سنة ١٢١٨ وقد كانوا فى مـدة الغز تنازلوا عن علوفة خمسة اشهر وبقى لهم علوفة خمسة اشهر والان قد حررنا الحساب فوجدنا انهم قبضوا فى يدهم منها جانباً وتحولوا على البلاد فى جانب منها وبقى لهم جانب وذلك بموجب هذه الاعلام فسعادة افندينا يقول لكم ان سنة ١٢١٨ قد تمت بالخير ودخلت سنة ١٢١٩ فمن الان وصاعدا ليس له مقدره على دفع علايف لان خزنته فارغه من الاموال واقاليم الصعيد فى يد الاعـدا والبلاد جميعها خرجت من المظالم والمغـارم وصارت دثار ورماد والرعايا انسحقت كانسحاق الفخار فالذى يود الاقامه من غير علوفه ويقنع بالاستنفاع فليقم ومن لا يود الاقامه فليتوجه اينما شاء لان افندينا لايلزم احدا بالاقامه رغما عنه والذى باقى لكم من اصل علوفة الخمسة اشهر سعادة افندينا يدفعه لكم بتمامه وبدا من ذلك الوقت يباشر بدفع ماهو باقى لهم وختم الديوان على هذا المنوال وكانت مكيده من هذا الحاذق النحرير والفطن الخبير لعلمه ان العساكر ليس لها طريق الى النفود ولا سيما الارناووط لان دروبهم مسدودة براً وبحراً واعدايهم امامهم فى البرور فقطع حبـال آمالهم من العلايف لكى لا فى كل وقت يهموا على الباشا وعلى روسايهم ويجعلوا العلوفة سببا للقيـام والانتقام كعوايدهم السيئة فارتضوا بذلك قهرا وكانوا موملين النفود من هذه المملكـة وقلقوا جدا وكانوا يترقبون فرصة للهروب وسقط عليهم الوهم والخوف من كل جهة لانهم كانوا خايفين من الغز جداً وغالب الخوف على كثرة اموالهم التى جمعوها وصيروها جميعها ذهبا ابريزا وكانت خزاينا عديده .

فهذا ما كان من امرهم وما تم فى مدينــة مصر من غرة سنة ١٢١٨ الى نهايتها وكانت سنة شديدة الاهوال مختلفة الاحوال جرّعت الخلايق كووس الوبال وانكت الرجال وفتنتها قايمه فى الاودية والجبال وفرغت نهار الثلثا المبارك ونسأل الله تعالى اللطف بالعباد وهو خير جواد .

ويوم الاربعاء المبارك الموافق غاية شهر ادار الرومى استهل شهر محرم الحرام افتتاح عام سنة ١٢١٩ هلاليه الموافق الى سنة ١٨٠٤ مسيحية .

وفى نهار الخميس المبارك ثانى يوم منه جاز الوالى فى شارع الغورية وضرب احد الاسلام اذ لم ينتصب له واقفـا على الاقدام حسب العوايد عند مروره فقامت اهل ذلك الشارع ساق وتجمهروا وتعصبوا وتوجهوا الى عند علما البلد واستنهضوهم وهيجوهم على القيام وقفلوا دكاكين المدينه فركبت العلمـا وتوجهوا الى بيت الباشا واعرضوا له ما صنعه الوالى وان المدينة قفلت حوانيتها فاوعدهم الباشا براحتهم وتعذير الوالى وانصرفوا من امامه .

وفى هذا اليوم ايضا حضرت الاخبار من مدينة دمياط الى مدينة مصر بأن احمد باشا الجزار المتولى على الاقطار الشاميــه حضرت له الاوامر من الدولة العلية بولاية مصر وانه صنع زينه عظيمه فى جميع حكمه ثلثة ايام وضرب المدافع الكثيره وصار خوفا عظيما عند غالب الناس فى مصر وذلك خوفا من صرامة حكمه وشدة ظلمه لان هذا الوزير المومى اليه كان له تسعة وعشرين سنه وزيرا مقيما فى مدينة عكا ومتمكنا فيها وفى جميع ضواحيها وفى سنة تاريخه تمكن من الشام وجهاتها وامتد حكمه من عريش مصر الى حدود حلب الشهبا واظهر العجايب والغرايب باحكامه الصارمة وكان جبارا قهارا مرعشا فرايص الخليقه بسطوته وعلو همته ونفود كلمته وطول مدته وحسن خيرته وكان رهطا من الارهاط العظام وفردا من افراد الدهر والايام وهذا المشار اليه قد تقدم بعض الشرح عنه فى هذا التاريخ فى محلات معلومه (وكان السبب فى تولى احمد باشا الجزار على مملكة مصر هو انه اذ بلغ الدولة العثمانية عدم قبول

المماليك اوامرها العلية المرسلة صحبة وزيرها على باشا الجزايرلى وان المماليك قد خرجوا الى مقابلته وقتلوه خارجا عن مصر فتحركت الدولة العلية عليهم بالغضب وبرز الخط الشريف من سعادة السلطان سليم الى احمد باشا الجزار بالتقرير على ولاية مصر واقاليمها وارسل له سيفا وفروة عظيمه وكان السيف علامة للانتقام وتميم النظام وقرض الغز المماليك وتمهيد المملكة لمعرفة الدولة العلية بقوة بطش هذا الوزير القهار والاسد المغوار) .

هذا والغز لم تزل فى بر الجيزة مقيمة بشردمة وجيزه خاربين الجهات قاطعين الطرقات مانعين الشارد والوارد وخورشيد احمد باشا والعساكر مالكين مصر واهل المدينه بضيق وحصر من عدم البيع والشرى وخراب المدن والقرى والجميع بانتظار اللطف والفرج والنهوض من هذه اللجج وكانت اياما صعبة وشدة وكربه بعدم توفيق النظام واختلاف الحكام وزاد الشقاق وعم النفاق وعدم الاتفاق وتشتتت الرفاق وبقيت الغز منقسمه القلوب ففرقة منهم بالشرق وفرقة بالجنوب وكان الامير محمد بيك الالفى باق فى الجهة الشرقية عند العرب المعازى كما ذكرنا ومكاتباته متصله مع خورشيد احمد باشا والسارى عسكر محمد على وياتى له كلام .

وفى خامس يوم من هذا الشهر تقدمت عساكر الغز وعدة من العربان واحتاطوا حول مدينة مصر من الخارج شرقا وغربا وفى سادس يوم من هذا الشهر نهار الثلثا خرجت العساكر لمحاربتهم ووقع الحرب والطعان بينهم ذلك النهار بتمامه وكلت العساكر من حربهم وفقد منهم جانبا وقد كانت الناس مسرورة بنهاية سنة ١٢١٨ لما كابدوه من المصايب والخطوب والمشقات والحروب وكانوا مستبشرين فى دخول سنة ١٢١٩ وانهم يجدوا فيها راحه لانفسهم فكان املهم بذلك خايبا اذ ان الوقت لهم عايبا والحكم سايبا والفتن قايمه والحروب دايمه واخبار الجهات متواتره واخبارها غير سارة .

وفى هذا الشهر شاعت اخبار العمارة الفرنساويه من مدينة طولون وقدرها خمسمايه مركبا وينيف كبارا وصغارا مشحونة من العساكر الكثيره والنيران الغزيرة وكانت جميع

البلاد شرقاً وغرباً فى خوف عظيم ووجل جسيم من قبل ذلك وبلغ عدوهم الانكليز فسدد عليهم الطرق ومنعهم من الخروج .

وفى سابع يوم نهار الاربعا كانت الغز عساكرها حول دايرة مصر ترمح وتصفح وبدت العساكر تنتقل من مصر الى بر انبابه والجيزة وركب محمد على السارى عسكر ونبه على جميع العساكر ان تخرج لمحاربة الغز وخرج فى هذا النهار المذكور ونصب المضارب والخيام فى بر الجيزة وبدت تنتقل المدافع والجباخانات والعساكر من مصر الى البر المذكور ونقلوا الى الخارج ما ينيف عن مايتين مدفع وقبل خروجه قتل انسان من روسا العساكر اذ تمنعوا عن الخروج .

وبدت تخرج العساكر من مصر ويوم الجمعة تاسع يوم فى محرم كبست العساكر على نجع من نجوع العرب وسلبوهم وقطعوا ثلثة روس والقوها فى بركة اليزبكيه امام بيت الباشا وقيل ان الغز ارسلوا يقولوا الى علما مصر ومشايخها انكم تعرفوا العساكر ان تخرجوا لمقابلتنا لكى نحارب معهم فاما ان تكون مصر لنا او لهم لاجل راحة البلد والرعايا وان كانوا لم يخرجوا من المتاريس فها نحن رابطين جميع الطرقات ومانعين جميع ما يورد الى مصر شرقا وغربا وتهلكون جميعكم جوعا فتوجهت العلما واخبرت السارى عسكر محمد على فازداد غيظا وقال لا بد ان اخرج الى حربهم فاما انى افنيهم واما انهم افنى عساكرى وخرج من ساعته الى بر الجيزه كما ذكرنا وبدت تتبعه العساكر ونصب المضارب والخيام من الجيزة الى الوراق وذلك فى بر انبابه امام بر بولاق وصار جيشا وافرا .

وفى احدى عشر يوم من هذا الشهر صباح الاحد غلساً كبست عساكر الغز على عساكر الترك والارناووط بالسيوف القواضب والرماح الثواقب وانقضت عليهم اولايك الفرسان انقضاض العقبان وهجمت العربان وصاحت الغربان وبدوا يجزروهم جزر الحملان فانذهلت الارناووط والسكبان من الضرب والطعان وزاحمتهم الشجعان فى ذلك الميدان حتى القوا ارواحهم فى بحر النيل ومات منهم ما ينيف عن الف نفر غير المجاريح

فى ساعات من الزمان فبلغ الخبر الى السارى عسكر محمد على وكان بعيـدا عن ساحة الحرب فى جهة الوراق فنهض بالعساكر حالا والفرسان وكبس على الغز والعربان ففرت الغز راجعين وفى رجوعهم قطع منهم سبعة روس وقتل الامير حسين بيك الوالى الذى هو من مماليك الامير مراد بيك وهو من السناجق الذين لبسوا فى سنة ١٢١٨ وقيل ايضا انه قتل الامير اسماعيل بيك مملوك الامير ابراهيم بيك وهو ايضا صهره زوج ابنته وهذا ايضا من السناجق الجدد وانجرح الامير يحيا بيك حاكم رشيد جرحا صايبا بليغا وقيل انه مات وهو من مماليك الامير عثمان بيك البرديسى وانجرح محمد على جرحا سلما ومات عدة من العربان والمماليك وكانت موقعه مهوله وكفت الغز راجعين ودخلت العساكر نهار الاحد دخولا مريعا وسقط الخوف على اهل المدينة وعلى العساكر اذ حضر منهم مجاريح كثيره وعراه من الذين القوا نفوسهم فى بحر النيل من مزاحمة الغز لهم بالسيوف الهندية على الخيول العربية وكاد يظن ان العسكر جميعه تلاشا وضحوة النهار اتوا بالروس المقطوعة الى مصر وطرحوهم امام باب زويله فى وسط البلد لتطمين العساكر والرعايا وشاع الامر ان الغز ولوا الى الورى فاطمانت العساكر والرعايا وكانت الغز المحاربين لهذه العساكر مقدار مايتين فارس وشرذمة من العربان وتعجبت الارناووط والسكمان من جسارة هولاء الشجعان فلله درهم من ابطال قلوبهم كالجبال ولا شبيه لهم فى الحرب والقتال فهذا ما كان من امر هذه الموقعة الكاينه فى ١١ يوم من شهر محرم الحرام سنة ١٢١٩ .

واما ما كان من أمر الامير محمد بيك الالفى فهذا المشار اليه انتقل من عند عرب المعاذى وحضر الى ارض المنيه وهى مدينة فى اقليم الصعيد مسافة ثلثة ايام عن مصر ولم يزل منفصلا عن الغز المطرودين من مصر وكان يرغب هلاكهم وتلافهم وكان عدوه الاعظم فيهم الامير عثمان بيك البرديسي الذى قد كان دبر المكيدة على قتله وهلاكه ولم يسمح الله بذلك لغايات يعلمها سبحانه تعالى كما مر ذكره فى اوانه . فهذا الامير المشار اليه جمع رجاله وابطاله فى ارض المنيه ومكث هناك بعزوته .

وفى سابع عشر يوم من هـذا الشهر ارسل الامير محمد بيك الالفى احد كشافه اسمه على كاشف شغب الى مدينة مصر وارسل معاه صورة الفرمانات الشريفه التى اخرجتها قديما له دولة الانكليز من الدولة العثمانيه بالعفو والرضا على زمرة الغز المماليك وانهم يكونوا مقيمين فى مدينة مصر وشيخ البلد عليهم الامير ابراهيم بيك الكبير والامير محمد بيك الالفى يكون الدفتردار بمصر .

وفى ثامن عشر يوم من هذا الشهر عقد الباشا ديوان ودعا به العلما وروسا العساكر وقرى عليهم صورة الفرمانات والبس الكاشف الذى حضر بهم كركا فاخرا وقدم له حصانا مرخت واوعده بالجواب وكان الجواب عن ذلك انه من بعد وقوع الفتنه بين العساكر وبين ابراهيم بيك وعثمان بيك وخروجهم من مصر عرضنا الى الدولة العلية ماتم بين الغز والعساكر وان الغز انطردوا الى الخارج فبقا حسبما يحضر الجواب لنا من الدولة العلية يعمل به واما انتم ان شيتم تبقوا فى الصعيد او تدخلوا الى مصر فعليكم امان الله وامان السلطان وامانىنا ولكم مالنا وعليكم ماعلينا فهـذا ما جاوب به خورشيد احمد باشا الى الامير محمد بيك الالفى .

وفى تاسع عشر من هذا الشهر حضرت البشاير الى خورشيد احمـد باشا بقدوم خزنداره من محروسة اسلامبول وبان الدولة العليه انعمت عليه بطوخ ثالث وانه يكون واليا على مملكة مصر وصنع شنكا عظيما وضرب مدافعـا كثيره وركبت روسا العساكر والاعيان والعلما وقدموا له التهنيه بالمنصب السعيد وفى العشرين منه حضر الى مصر خزنداره وضربت مدافعا كثيره فى ذلك النهار وسكن هيجان اهالى مصر واطمانوا بتولى خورشيد احمد باشا لحسن سيرته واملوا بارتفاع يد احمد باشا الجزار عن ولاية مصر لانه قد كان استحود عليهم خوفا عظيما منه كما قررنا سابقا وذلك لصرامه حكمه وشدة ظلمه وهذا الوزير فى توليه على دمشق الشام فى سنة ١٢١٨ الماضية قبل تاريخه سلب اموالا جزيله من الاغنيا والتجار وقتل المفتى المعروف بابن المرادى وضبط منه اموالا غزيره ولهذا السبب كانت غالب اهالى مملكة مصر خايفين من توليه

عليهم وثبتت ولاية مصر لخورشيد احمد باشا وفى الثانى والعشرين يوم من هذا الشهر صنع الباشا ديوانا وحضر به قاضى عسكر الاسلام وجميع المشايخ والعلما بالتمام وروسا العساكر والاعيان لقراءة الاوامر وتسجيل الفرمان وهذه صورة ما تضمنته الاوامر السلطانيه والخطوط التراخيه الهمايونيه .

انه لما بلغ دولتنا العليه قيام العساكر على محمد باشا وطردوه من مصر توولى طاهر باشا الارناووط ضد القوانين والشروط فوجهنا وزيرنا على باشا الجزايرلى لعزل محمد باشا واخراج العساكر من مصر وضبط البلاد وراحة العباد وحينما بلغ المذكور الى ثغر الاسكندريه اعرض لدولتنا العليه ان العساكر الفاجرة سلموا الغز المماليك مدينة القاهرة وان المماليك العصاه على دولتنا العلية رفضوا اوامرنا السلطانيه وصدوه عن الدخول الى الولاية واظهروا عليه العصاوه . ثم بعد ذلك بلغنا انهم قتلوه بالمخادعة والخيانة فتحركت عواطفنا الشريفة بالغضب عليهم ووجهنا ولاية مصر الى وزيرنا عالى الشان احمد باشا الجزار وقلدناه سيف الانتصار وكسوناه فروة العز والافتخار لاجل الانتقام واعطا النظام وراحة الانام وحفظ دار الاسلام وحسم جدور هؤلاء العصاه اللىام واذ بلغنا الان ان عساكر الارناووط قد نهضوا على المماليك اعدا دولتنا العليه واخرجوهم من مصر بصورة قهريه وان خورشيد احمد باشا بادر مسرعا من الاسكندريه لمساعدة العساكر المنصوره ومحافظة البلد من العصاه الفواجر فانعمنا وتفضلنا عليه حالا وقرورناه واليا على مصر واقاليمها ورفعنا يد احمد باشا الجزار عنها وعفونا العفو التام وصفحنا الصفح الكلى عن عساكرنا الارناووط ولهم منا الامان الكافى اينما استقروا والى اى خط ساروا من الخطوط فهذا ما انعمنا به وتفضلنا بهذا الفرمان والحذر ثم الحذر من المخالفة والعصيان والسلام .

ومن بعد قراءة هذا الفرمان الشريف فى محفل الديوان المنيف نهضت ارباب الديوان من الروسا والاعيان وقدموا التهانى لحضرة الصدر السامى خورشيد احمد باشا وضربت المدافع من الحصون والابراج ومن القلعة الكبيرة وكان ذلك نهار الخميس الواقع فى

٢٢ شهر محرم الحرام فتوح سنة ١٢١٩ الموافق الى ٢١ شهر نيسان الرومى سنة ١٨٠٤ واستمر ضرب المدافع والشنك والحراقات ثلثة ايام .

وبدا من ذلك الوقت خورشيد احمد باشا بتجهيز المدافع والجباخانات وامر بتجهيز شرخ فلك نظير الذى قد كان اصطنعه حسن باشا قبوطان بمصر حينما حضر لحرب الغز المماليك فى سنة ١٢٠٠ هجرية كما ذكرنا سابقا . فهذا ما كان من امر خورشيد باشا والعساكر بمصر .

اما ماكان من امر الغز المطرودين انه حينما بلغهم ان تقرير ولاية مصر قد حضر الى خورشيد احمد باشا وان الدولة قد مدحته على طردهم من مصر وانها لم تزل ساهرة على انقراضهم وانفضاضهم وان الامير محمد بيك الالفى لم يزل منقسما عنهم ومنفصلا منهم كما ذكرنا سابقا ومتمكنا برجاله واقباله فى الصعيد فضاق عليهم المجال وبقيوا مابين اعدايهم الذين فى مصر وما بين عزوة الامير محمد بيك الالفى فعقدوا الشور مابينهم انهم يرسلوا جانبا منهم الى الشرق ويبقوا منهم جانبا فى الغرب ويحتاطوا حول دايرة مصر ويمنعوا جميع الوارد اليها ويحاصرونها ويضايقوها حتى تخرج لهم العساكر ويحاربوها فلربما تساعدهم الاقدار ويسعدهم الانتصار ويتملكون فى الديار باذن العزيز الجبار .

وقد كان الامر وفى ستة وعشرين من هذا الشهر جاز جانبا من الغز بعدة الوف من العربان من الغرب الى الشرق واحتاطوا حول دايرة مصر من كل جهة وجميع الذين كانوا قاطنين فى اطراف البلد هربوا ودخلوا الى المدينة واشتد الحصار وانقطع الوارد عن مصر من الغلال وغيرها وفى ٢٨ منه عدم وجود الحنطة وباقى الحبوب من محلات مبيعها واشتد الكرب وبان الصعب وسقط الخوف على اهل المدينة وعلى العساكر ايضا وكانت العساكر خاشية جدا من الخروج لحرب هولاء الابطال الذين لايتقاومون فى الحرب والنزال وكانوا خايفين ايضا من اهل المدينة ليلا اذا اشتد بهم الجوع ينهضون عليهم ويخرجوهم رغما ويهلكون من داخل ومن خارج لهذا السبب ضاقت بهم الرحاب وشملهم البؤس والاكتياب واخذتهم الحيرة من هذه الامور

الخطيره ووقعت التهمة على عيلة طاهر باشا بانهم مخامرين على الاتراك وموالسين مع الغز وكانت تهمة باطله وتبلبلت العساكر فى بعضها وكان احمد خورشيد باشا رجلا حكيما فجمع روسا العساكر وقال لهم اننى قد تحققت انحرافكم وبواطنكم وضمايركم وعرفت حقايق سرايركم وان الغز المماليك ما دخلوا الى الجهة الشرقية الا بموالسة البعض منكم وكان ضميره على عزوة طاهر باشا واذ كان فى غضون ذلك قد حصل بعض مواقع بين العساكر وبين الغز الذين حول مصر ومات من الارناووط مقدار مايتين نفر وقبضوا على احد سوارى العساكر وهو طاهر بيك نسيب طاهر باشا فلذلك جاوبته روسا عساكر الارناووط وقالوا له اننا لو كنا نحن من المخامرين عليكم مع الغز لما كانت المماليك قتلت منا مايتين نفر وفتكت فى رجالنا وقبضوا على طاهر بيك فقال لهم خورشيد احمد باشا ان كان الامر كما تزعمون وانكم طايعون وخاضعون لمولانا السلطان صاحب العز والشان فسلمونى القلعة الكبيرة واخرجوا جميعكم لطرد المماليك العصاه عن ابواب مصر وكملوا ما بديتم به من قرض الغز اعداء الدولة العلية واظهار الطاعة لها حينما ان الدولة قد صفحت عنكم واشهرت صفاوة خواطرها الشريفة عليكم وان كان مقصودكم العصاوه على الدولة ثانية وادخال الغز العصاه الى المملكة فانا لااشارككم بذلك بل اننى ارجع الى حيث اتيت واقيم فى الاسكندريه .

فقالت له روسا العساكر نحن جميعنا عبيد مولانا السلطان وتحت امره وفى طاعته ولا نود ان نموت الا فى سيف مولانا السلطان وعاهدوه على ذلك بقسم وايمان وعلى هذا المنوال ختم الديوان .

ومضى شهر محرم الحرام واستهل شهر صفر سنة ١٢١٩ وفى ستة ايام من هذا الشهر سلم عابدين بيك الارناؤط القلعة الكبيرة السلطانيه الى الباشا ووضع بها عسكرا من الانكشاريه .

وفى سابع يوم منه ركب الباشا وصعد الى القلعة وضربت له المدافع الكثير وانتقل بجميع عزوته واتباعه وقطن فى القلعه كعادة الوزرا سابقا .

هذا والغز المماليك مقيمين امام مدينة مصر فى الوجه الشرق وجانبا منهم امام مدينة الجيزه فى الوجه القبلى وعساكر الترك والارناووط ناصبون المضارب والخيام خارج المدينة امام الاخصام وكلا من الفريقين فى وجل واضطراب وكانت الغز فى الوجه الشرقى مقدار ثلاثمايه فارس فقط وشردمه من قبايل العربان وكانت هذه الفرسان قوية الجنان وشديده فى الطعان نار من النيران فرقة من الجان لا يتقاومون فى حومة الميدان وفى كل يوم كانت تحصل الملاحم بين العساكر وبين الغز المماليك وذلك فى الوجه الشرق ومات عدة من المماليك ومن عساكر السكمان والارناووط وكان كربا عظيما على المدينة من عدم الوارد لها من الخارج .

وفى ثامن يوم منه صارت ملحمة كبيره بين الغز والارناووط وفى تاسع يوم منه ايضا وتمنعت الغز الى ورى .

وفى عاشر يوم منه شاعت الاخبار فى مصر عن السن السفار بموت احمد باشا الجزار وصار هرجا عظيما فى مدينة مصر بموت هذا الوزير القهار وكانت الناس فى ذلك ما بين الشك واليقين اذ كانت تشاع عنه مثل هذه الاخبار فى غالب السنين .

وفى احدى عشر يوم من هذا الشهر ارسل الباشا وقبض على الست نفيسه حرمة الامير مراد بيك الكبير واصعدها الى القلعة الكبيره وسجنها فى بيت احد العلما الذى فى القلعة المعروف بالشيخ السحيمى وصار قلقا عظيما على باقى الستات نساء الامرا وحصل هرجا كثيرا فى مدينة مصر وتبلبلت اهاليها بسبب ذلك وركبت العلما الكبار وتوجهت الى الباشا وراودوه على نزولها من القلعة وقالوا له ان هذا لا يليق فى شانك ايها الوزير وسجن الحرمات على غير الصواب وليس هذا شان اهل المروة ولا سيما هذه الست المصونة التى هى دون غيرها محمودة السيرة وسالمة السريرة فاذا نظر الوزير المشار اليه غيرة العلما عليها وعلى باقى حرمات الامرا غبنهم لمعرفته بانهم هم روسا رعايا مصر وخاف ان يستنهضوا الرعية ضده وضد عساكره فسلمهم اياها تحت جرم معلوم من المال وانزلوها من القلعة السلطانيه ومن ذلك الوقت تغيرت قلوب العلما والرعية .

وكان السبب الاعظم فى ذلك ان زمرة الغز المماليك الخارجين من مصر قد تقدم القول عنهم انهم كانوا منقسمين ثلثة فرق الفرقة الاولى فرقة الامير عثمان بيك حسن الذى كان قاطنا قديما فى الصعيد وكانت عزوته مقدار خمسماية فارس من المماليك غير العرب ثم الفرقة الثانيه فرقة الامير محمد بيك الالفى الذى طردته اخوته الذين كانوا بمصر ثم الفرقه الثالثه فرقة ابراهيم بيك الكبير وعثمان بيك البرديسى المطرودين من الارناووط كما مر شرح ذلك محله فهؤلاء الثلثه فرق من بعد ان كانوا منقسمين من بعضهم جمعتهم القدرة الالهية وارتبطوا برباط المحبة الاخوية وصاروا جميعهم عصبه واحده وكان السبب فى ضمتهم وايتلافهم الامير عثمان بيك حسن فهذا الامير المشار اليه كان ريساً حكيما وخبيرا بتصاريف الزمان فارسل يقول الى الامير محمد بيك الالفى ان الذى صنعته بك اخوتك من بعد حضورك من بلاد الانكليز فهذا من سو التدبير وعدم القدير ومن هذا القبيل تفتحت عليهم اعين الاعدا وتجاسرت على طردهم من مصر وحاق بهم التلف العظيم والخطب الجسيم والان بلغنا انهم ندموا على فعلهم وارادوا ان ينضمون اليك واعترفوا بذنبهم لديك وانت قد ابيت عن الايتلاف ولم تزل مصراً على الاختلاف والحال ان الذنب الذى برز منهم يوجب لك النفار عنهم ولكن قد تقرر الامر واستبان لديك ان الدولة العثمانية هى ضدكم وعليكم ولم تزل فى غاية الاجتهاد ساهرة على قرض دولة المماليك من هذه الارض والبلاد وقد اسر اخصامنا انفصالنا وانقسامنا وهذا مما يؤول بنا الى التلف والعدم ونعوذ بالله من زلة القدم فالاولى بنا ايها الامير اننا نكون جميعنا حزبا واحداً ليلا تفتك بنا اعداينا ويقرضونا فرقة بعد فرقة فواصلكم الان من طرفنا مايتين فارس من المماليك توجههم برفقة مماليككم سعفة للامرا المطرودين من مصر وهم الامير ابراهيم بيك والامير عثمان بيك البرديسى وباقى الامرا .

وكان الامر وامتثل الامير محمد بيك الالفى لرأى الامير عثمان بيك حسن وراه هو الاوفق والاحسن وارسل احضر مملوكه الامير محمد بيك الالفى الصغير ووجه مع

جميع السناجق والكشاف والمماليك لعند الامير ابراهيم بيك الكبير وقد كانت العزوه الالفيه مقدار خمسماية فارس من المماليك غير العربان وكان تبعة من اخوته الامير سليم بيك ابو دياب والامير احمد بيك الكلارجى والامير سليمان بيك مراد وغيرهم وصارت الغز المماليك جميعها عزوة واحده فلذلك قد ارتجت قلوب العساكر بمصر منهما ثم وتغيرت ايضا قلوب العلما والرعايا خوفا منهم لعلمهم بشدة باسهم وقوة بطشهم وخوف العساكر من ملاقاتهم اذ كانوا فى كل هذه المدة يحرضوهم على الخروج اليهم ليطردوهم عن ابواب مصر لاجل الافتراج عن البلد وكانت العساكر تخشا الخروج فهذا هو السبب الموجب لغيظ الوزير على الستات حرمات الغز وطلب الجرم منهم وهذا السبب ايضا جعله ان يجعل اقامته فى القلعه السلطانيه لخوفه من فتنة او مخامرة تقع من العساكر او من الرعايا واشتد الكرب على مدينة مصر من الغز لانهم احتاطوا المدينة شرقا وغربا .

وفى اثنا عشر يوم من هذا الشهر احضر الوزير كبير الاقباط المعلم جرجس الجوهرى وطلب منه خمسماية كيس وبدا يباشر بدفعها ثم احضر ايضا ارباب الالتزامات من الاغاوات والوجاقات وغيرهم وطلب منهم الف كيس ثم احضر ايضا السيد احمد المحروق المقدم ذكره فى هذا التاريخ المباشر احوال البلد يوميذ وطلب منه ان يفرض له ايضا مقدار خمسمايه كيس على اهالى المدينه من تجار وغيرهم فالمذكور امتثل لامره وبدا يباشر بفرض المال فبلغ اهالى المدينه فقفلوا حوانيتهم وكان ذلك فى سبعة عشر يوم من هذا الشهر وحصل كربا عظيما على اهل المدينه وتعصبوا جميعهم ونادوا قايلين لا قدرة لنا على دفع مال وغيره يكفينا الضنك الذى حل بنا فركبت العلما وتوجهوا الى الوزير خورشيد احمد باشا وقالوا له ان اهل المدينة ليس لهم استطاعة على قرض المال وغيره لعدم الموجود فقط ليس عدم استطاعه لامرك لان اهل هذه المدينه غالبهم اناس فقراء وقد اهلكهم الغلا والجوع وعدم البيع والشرى ووقوف الحال وارتباط الطرقات فاجابهم الوزير اننى لا اطلب قرضا من الفقرا والمساكين

بل اننى اطلب من الذين لهم مقدرة على انهم يقرضونى ذلك سلفا منهم لاجر ما غير مردود فاجابوه العلما ان جميع الناس فى ضيق عظيم وقد عدم وجود الدرهم من بين ايديهم وان كان لديهم بضايع وامتعه فلا يجدون لها من يشتريها وينقدهم ثمنها مالا لان الدراهم قد عز وجودها فى هذه المملكة لكثرة السلب الذى حدث بها بهذه الستة سنوات وقد افتقرت اهاليها جدا وعلى موجب ما نحن ناظرون ان الرعايا ليس لهم مكنة على ذلك فاجابهم الوزير اننى لا اسال الفقرا فارجعوا وطمنوهم .

وارسل حالا اطلق المناداه فى المدينه بالامن وعدم المعارضه وانهم يفتحوا حوانيت البلد وكان ذلك عصرية النهار الواقع فى سبعة عشر منه نهار الاحد ونهار الاثنين ثامن عشر منه لم تزل البلد قافله حوانيتها وكان غماً وهماً وكربا عظيما على ساير الناس هذا والغز حول دايره مصر من كل جهة وناحية واشتد الجوع بالفقرا والمساكين فلله در هذه الايام وما تولد بها من الفتن والخصام والخطوب العظام والضنك العام على ساير الانام وكنت ترى الناس سكارى وما هم بسكارى لعدم وجود الدراهم وفرط المظالم وكثر المغارم وعدم المراحم مع اتصال الملاحم وعدم الامان وارتفاع الطهان وكثر الكذب والمين ولا من يقول لصاحبه الى اين .

وفى غضون ذلك حضرت الى مصر عدة كتابات محتفه من ارض الشام بالتخبير عن وفاة احمد باشا الجزار وانه قد مات فى ستة وعشرين يوم خلت من شهر محرم الحرام فتوح عام سنة ١٢١٩ الموافق الى خمسة وعشرين يوم خلت من شهر نيسان الرومى سنة ١٨٠٤ ومن قبل وفاته كان قابضا على احد الوزرا اسمه اسماعيل باشا الجزايرلى فعندما دنى اجله فارسل اخرجه من السجن واستماح خاطره واقامه وكيلا عنه لبينما تحتاط الدولة العلية علما بموته واوفا جميع العساكر الذى عنده علايفهم على التمام وقضى اجله نهار الاثنين ستة وعشرين محرم سنة ١٢١٩ المطابق الى ثانى يوم عيد الفصح عند النصارى الروم الواقع فى خمسة وعشرين نيسان سنة ١٨٠٤ كما تقرر القول سابقا وانهدم ركنا عظيما من الاركان العظام وسقط صنما كبيرا من الاصنام وشمل

✓ الناس فرحاً عظيما باراضى دمشق الشام من كل ملة من الملل واتصل خبره الى ساير الدول وقد كان غداراً بالمقال ذا مكر واحتيال سلابا للمال متقلبا بالاحوال سفاكا للدما ظلمه تدنما اخف عذاباته قطع الآذان وقلع العيون وجذع الانوف وقتل من الناس بالالوف ويتم اعيالا كثيره وجمع من المال خزايناً غزيره واهلك من خدماه خلقا عديدة وهدم فى مدته بيوتا مشيده ومن جملة سيئاته آل به الامر الى قتل حريمه وبلغ هذا الوزير من العمر خمسة وسبعين عام وكانت مدة اقامته فى الوزارة بمدينة عكا وارض الشام ثمانية وعشرين ونصف هلاليه وافتقدته الدولة العثمانيه وعدمت ركنا عظيماً من اركانها وفقد من بلدانها عين اعيانها وفارس ميدانها ولله الامر من قبل ومن بعد وسبحان من له الدوام والبقا .

ثم عوداً وانعطافا لما نحن بصدده من ذكر احوال مصر وهو اننا قلنا انه نهار الاحد الواقع سبعة عشر من هذا الشهر ونهار الاثنين ثمانية عشر شهره قفلت اهل المدينة حوانيتها لاجل المال المطلوبة منهم ففى هذا اليوم بعينه اشهرت اهل المدينة امارات القيام على الباشا والعساكر وابتدوا يتعصبون عصباً عصباً ويجولون فى المدينه فارتجت العساكر وابتدت تتهارب من وجوههم فبلغ الوزير ذلك فارسل احضر العلما .

وقال لهم ما الداعى لقيام الرعايا .

فقالوا له ان قيامهم هذا لاجل الضنك الحاصل لهم من قفلة المدينه وارتباط الطرقات وعدم القوت ومع كل ذلك بلغهم ان سعادة الوزير طالب ان يفرض عليهم جانبا من المال فنهضوا جميعهم قايمين على ساق وقدم ضدكم وضد العساكر وضدنا ونحن جميعنا لسنا كفاية لردهم وصدهم ولا نعلم كيف يكون التدبير فى امرهم .

فخاف الوزير المشار اليه خوفا عظيما من قيام العامة ولا سيما ان اعداه المماليك الغز على ابواب مصر وخشى انطباق اهل المدينة مع الغز وبذلك يحصل له التلف العظيم فامر حينيذ بكتابة فرمان تطمينا للرعايا بابطال الفريضه واعطا الفرمان الى السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والمشار اليه نزل من القلعة السلطـانيه والفرمان بيد المنادى

ينادى امامه اماناً وطماناً يارعايا ان الفريضه بطلت بموجب هذا الفرمان فعليكم الامن والامان وعدم المعارضة والعدوان فافتحوا حوانيتكم واستقروا فى منازلكم بكل طمان وجال فى شوارع مدينة مصر وهو ينادى بهذه المناداه .

ويوم الثلثا تسعة عشر تاريخه فتحت اهالى المدينـة حوانيتها واستكنت الامور وراق الجمهور .

وفى اثنين وعشرين من هذا الشهر حضر الطوخ الثالث الى خورشيد احمد باشا وصنع شنكا عظيما وضرب مدافعا كثيره بمدينة مصر .

وفى غضون ذلك اشتد الحصار على مدينة مصر من الغز اذ انهم ربطوا الطرقات برا وبحرا .

وفى غاية هذا الشهر حضرت الاخبار من مدينة جده بموت شريف باشا والى المدينه المذكورة وبموت الامير محمود جاويش الذى كان امير الحاج المصرى بهذا العام كما تقدم ذكره سابقا فى محله وهذين ماتا مسمومين من الشريف غالب سلطان مكـة وتواردت الاخبار ايضا ان عساكر عبد الوهاب حضروا من الطايف وحاصروا مدينة جده ودخلوا اليها وصارت ملحمة كبيره وكان خروجهم منها عن يد اربعة انفار من الافرنج الانكليز اذ اخرجوهم منها بقوة المدافع والنار ورجعت الوهابيون الى مدينة الطايف وكان كربا عظيما عند الاسلام وكثرت الوهابيون فى اراضى الحجاز وكتب الشريف غالب سلطان مكة الى السلطان سليم صاحب كرسى القسطنطينيه ورب السدة العثمانية عن مزاحمة الوهابيون بيت الحرام وانه ان كان لم يمده بالاسعاف ويحامى عن بيت الله فيلتزم ان يسلم البيت ومدينة جده وباق اراضى الحجاز الى الخارجين .

ومال شهر صفر وتحول واستهل شهر ربيع الاول ففى هذا الشهر شاعت الاخبار بمدينة مصر ان الامير محمد بيك الالفى والامير عثمان بيك حسن قادمين بالعساكر والطوش الكثيره من العربان وذلك من الوجه القبلى فارتجت المدينه والعساكر خشية من الحصار واتفاق هولاء القوم الفجار وارسل حضرة الوزير خورشيد باشا

وقبض على عمر بيك ووضعه فى القلعه صحبة عبد الرحمن بيك ومحمد بيك المبدول ثم قبض على مصطفى اغا الوكيل وعلى كاشف الصابنجى وطلب من هذين الاثنين جانبا من المال فانتهى امرهما على ماية وخمسين كيس .

وفى خمسة عشر يوم من هذا الشهر حضر من الدولة العلية فرمانا مع فروه فاخره الى خورشيد باشا وصنع شنكا عظيما وضرب مدافعا كثيره .

وفى تسعة عشر يوم منه عقد ديوانا عظيما فى القلعة السلطانيه ودعى روسا العساكر من الارناووط والسكمان والانكشاريه وساير الحكام والعلما والاعيان وكامل الوجاقات وطلب عشرين نفرا من الاقباط الكبار مباشرين البلاد والاقاليم وقرى الفرمانات الواردة له من الباب الهمايونى ومن بعد قراءته ضربت المدافع الكثيره واستدعا بالاكراك الفاخرة ولبس روسا العساكر والعلما والاعيان والحكام والاغاوات الوجاقليه وساير ارباب العكاكيز ثم قبض على النصارى الاقباط وطلب منهم اربعة الاف كيس ومن بعد الاستعطافات الجزيلة انتهى جرمهم على الف واربعمايه واربعين كيس واطلق سبيلهم وشرعوا فى ايرادها وكان كربا عظيما على الاقباط .

وفى هذا الشهر شاعت الاخبار بمصر بقدوم ثمانمايه نفر من اراضى الشام من الدالاتيه الاكراد قاصدين مدينة مصر سعفة للعساكر فبلغ خبرهم للغز المطرودين فتوجهوا الى مقابلتهم وربطوا عليهم الطرقات فاذ لم يقدروا على النفود الى مصر فرجعوا ثانية الى اراضى بر الشام ورجعت الغز الى مدينه شلقان فى الوجه البحرى فبلغ السارى عسكر محمد على رجوعهم فتوجه لهم بالعساكر .

ومضى شهر ربيع اول وتحول واستهل شهر ربيع الثانى ففى ابتدا هذا الشهر اشتد القتال بين الغز البحرية وبين الارناووط وكفت الغز الى الورى .

وفى ثالث يوم منه اقبلت مقدمات الغز القبلية الى اراضى طرى وسارى عسكرهم الامير عثمان بيك حسن وبشتك بيك المدعو محمد بيك الالفى الصغير ونصبوا المضارب والخيام ورى جبل الجيوشى وكبست عساكرهم على الابراج الذين فى طرى وملكوه من

الارناووط فارتجت المدينة رجه عظيمه وصارت الغز حول مصر من كل جهة فبلغ السارى عسكر محمد على فانتقل بالعساكر من الوجه البحرى وكبس ليلا على الغز الذين فى البرج فى طرى فهربوا من وجهه واخلوا البرج فقطع منهم خمسة روس وانخذلت الغز القبلية من ذلك الحين ودخل السارى عسكر محمد على بنصر عزيز الى القلعة السلطانية فضربت له المدافع الكثيره وصار شنكاً عظيما وكان ذلك سادس شهره

هذا والغز المطرودين من الارناووط مقيمين فى الوجة البحرى غير مختلطين بالغز القبلية وكان اكبر دليلاً على عدم اتحادهم واستبانت حقيقة فسادهم بعدم براحهم ونجاحهم وقد تضايقت الخليقة فى مدينة مصر من عدم وجود القوت هذا والحروب متصلة بينهم غير منفصله واهالى مدينة القاهرة فى كرب عظيم وعطب جسيم من وقوف الحال وكثرة الاهوال وعدم البيع والشرى وافتقرت الناس وزاد الهم والباس وابتهلت الخلق الى الله عز وجل ان يامن القلوب ويرفع عنها هذا الوجل

وفى اربعة عشر يوم من هذا الشهر نهار الاحد تقدمت الغز البحريين وسارى عساكرهم الامير ابراهيم بيك وعثمان بيك البرديسي وباقى السناجق والكشاف والمماليك مع طموش العربان فخرج لهم ذلك الهمام السارى عسكر محمد على وهو كالاسد الدرغام وساق الارناووط والسكمان ونشر الاعلام واصطفت الرجال للقتال ونعق غراب الوبال وتقدمت الفرسان لميدان وظهرت الشجعان وبرزت الغزا والجهاد والحرب والجلاد على الخيول الجياد وانطلقت المدافع واشتدت المعامع وتلاطما الفريقان وامتزجا العسكران ولعب الهندوان ولعلع الزال وتناثرت الجماجم من العرب والاعاجم وسال الدما على الرمال وزاد النكال واشتد الجدال وامتد القتال واتصل الضرب والطعان ستة ساعات من الزمان وكان يوما يفقع المرارة من شدة الحرارة لانه كان واقعا فى عاشر يوم من شهر تموز والشمس قد يبست الماء فى الكوز وضاقت النفوس وكل من الحرب كل قرم عبوس وتزاحمت الارناووط وتجمعت جمعا غير مفروط الى ان بلغ جمعها اربعة الاف مقاتل وكان الغز مقدار الف فارس غير القبايل فلم تستطع الثبوت امام هولاء الرثوث

فولوا منهزمين وسعوا راجعين الى ارض بهتين من بعد ما فقد منهم عدة من الفرسان ولم تنفعهم فى هذه الحرب طموش العربان وماتت من الارناووط والسكمان مقدار ثلثمايه نفر غير المجاريح وكان موقع هذه المعمعة فى ارض منية السيرج بعيدة عن مصر مسافة ساعة فقط من الزمان ولم يكن مثلها فى المواقع السابقة وكانت هى الخاتمة ورجعت الارناووط الى مصر ودخلوها بضنك وحصر مما كابدوه من الحر الشديد والحرب المكيد فمن بعد رجوعهم الى مصر بلغهم ان حسين بيك اليهودى لم يزل فى ارض شبره المكاسه وهو قوى الجنان وشديد الباس ومعها بخمسماية مقاتل من عسكره الملثام من التكارنه والاروام فرجعوا ثانيه فى ذلك النهار من بعد الغروب الى ارض منية السيرج حيث كانوا ناصبين المضارب والخيام وكبسوا عليه ليلا واتصل الحرب بينهم واشتد القتال وتكاثرت عليه الرجال فعاركهم هذا البطل الصنديد العراك الشديد وتلقاهم بحرب كثير النيران فجندل منهم الفرسان وامتد الحرب والضرب بينهم من اول الليل الى قبل الصباح وولا منهزما وتشتت رجاله فى البوادى والبطاح من بعد الفتك بعدة من عساكره ولم يتوفق له النجاح ولا البراح وكان ذلك فى ١٥ من شهره وكف راجعاً الى عند الامير ابراهيم بيك وباقى الغز الذين فى الوجه البحرى وكان انكسارا عظيما على الغز المطرودين وعادوا الارناووط راجعين الى مصر صباح الاثنين وهم قريرين العين واحضروا معهم عدة روس وارتابوا فى احدهم اذ ظنوا انه راس الامير ابراهيم بيك وصار رهجا عظيما فى مدينة مصر وفرحت اهالى القاهرة وسرت مسرة وافرة ومن بعد الفحص الكلى تيقنوا انه ليس هو .

وفى عشرين من هذا الشهر حضر من القسطنطينية احد رجال الدولة بماية نفر وبيده المرسوم الشريف خطابا الى خورشيد احمد باشا بتعيين ستة الاف اردب حنطه وارسالها الى ارض الحجاز اسعافا الى الشريف سلطان مدينة مكة المغازى فى الوهابيين الخارجين عليه ثم تصريفا كاملا الى خورشيد احمد باشا ان يعين من اراد من روسا العساكر او غيرهم ويوهبه توخين انعاما من الدولة العلية ويرسله باشا الى

مدينة جده مع جانب من العساكر اسعافا للشريف غالب سلطان مكة للحاماة عن مكة والمدينة ومحاربة الخارج عليها .

وفى ٢٣ شهره رحلت الغز من الوجه البحرى وساروا قاصدين الوجه القبلى اراضى الصعيد .

وفى ٢٤ شهره من بعد رحيل الغز دخل السارى عسكر محمد على بجميع العساكر الى القاهرة بيمين ظافره ومعمعة وافره وامن واطمينان وعز وسلطان وانفتحت الطرقات الامينة وانكشفت الغمة من المدينة وتواردت الغلال الى القاهرة من البلاد القريبه .

وفى ٢٧ شهره البس خورشيد باشا مهرداره باشا بطوخين على جده عوضا عن شريف باشا المتوفى عام تاريخه كما ذكرنا واسمه على باشا وايضا البس حسن بيك الارناووط سنجق الصعيد وفرض على الاقاليم البحرية ستة الاف اردب حنطة سعفة لاهل الحرم حسب اوامر الدولة العلية له اذ كان فى اراضى الحجاز قحطا عظيماً من مضايقة الوهابيين لهم ومحاصرتهم الى مدينه جده وقد اخذت الوهابيون مدينه الينبوع والمويلح وضايقوا مكه والمدينة وجده وكان كربا عظيما على الاسلام وقد وهبت غالب اهالى الحجاز وقبايل العربان وحدث جوع عظيم فى تلك الاراضى حتى ابيع اردب الحنطه بستماية غرش رومى وشمل الخوف والياس ساير الناس وعمت الحروب وازدحمت الخطوب وقادت النار فى ساير اقاليم الشرق وانسكبت انواع المصايب على جميع الخلق فويح له من دور ذميم ونعوذ منه بالله العلى العظيم .

وفى هذا الشهر ايضا تواردت الاخبار على يدى السفار من كل قطر وديار بجلوس السلطان بونابرته على السدة القيصريه وصار ملكا على ممالك ايطاليا وعلى المملكة الفرنساوية وهذه من غرايب الامور ونوادر العصور والدهور التى تدل على قوة الظهور وفى جلوسه ابطل ذكر المشيخه ولاشى جميع اعمالها وتلقب بعض الملوك الانبراطور وهو اسم قيصر ولله حكمه غريبة فى ذلك وغايات يعلمها وحده تعالى اذ يشا بتأخير المتقدم وتقديم المتأخر وسبحانه من عزيز حكيم .

ثم فى غاية هذا الشهر اثنين من العسكر الارناوط دخلوا حارة الفرنج الفرنساوية سكارى وتحارشوا باحد الفرنساوية وهو روبيه الحكيم وقوصوه فالمذكور حالا سحب الشيش وضرب احدهم فقتله ورفيقه هرب اعطى خبر لباقى العسكر فاجتمعت عساكر الارناووط على باب الحارة فاما روبيه الحكيم فهرب ولم بان له اثر فدخلوا الحارة ومسكوا نويه خدام روبيه المذكور وبركوه لكى يقتلوه فراح الخبر الى السارى عسكر محمد على لحضر حالا بجميع عسكره وهدى عساكر الارناووط وكلمهم بالمعروف واخذ نويه خدام الحكيم عنده وقال للعساكر انا افتش على روبيه الحكيم واسلمه اليكم فهجعت العساكر قليلا ثم حضروا منهم اناس وكبسوا بيت قنصل الفرنساويه واخذوه رغما من بيته وسحبوا على السلاح جملة امرار لكى يقتلوه وكانت ساعة مهولة مخوفه مفزعه مخطره وماليه لنهب جميع بيوت النصارى وسلبهم ولكن عناية الله ساعدتهم ولم تسمح بعبيده بل حن قلوب العساكر وطلبوا من القنصل الكمصريل بتاعه رهينه لحين ما يفتش على الحكيم القاتل فاعطاهم الكمصريل فاخذوه وراحوا والقنصل رجع لبيته وكانت ليلة مخوفة جدا جدا وثانى يوم دخلوا البراطيل والسياقات على حسن بيك ارناوط وغيره من روسا العساكر حتى ان خورشيد باشا ترجا العساكر وروساهم بان يعفوا عن هذه المادة فبعد ثلثه ايام رجعوا الكمصريل لبيت قنصله ونويه ايضا وهجعت القضيه بعد حط الاكياس والكلف والهدايا بعون رب البرية .

وقد تم وانتهى شهر ربيع الثانى ثلث سنة ١٢١٩ للهجرة .

٦٢٢
١٨٤١
٢٧
١٩٠٢
١٨٠٥

Z

T

V

W

Y

H

I

D

E

INDEX GÉNÉRAL.

[Les chiffres renvoient aux pages de la traduction.]

يلك (94), mot turc, « gilet à longues manches » (Barbier de Meynard, II, p. 885 ; Dozy, *Vêtements*, p. 431 ; Dozy, II, p. 854 ; Vollers, II, p. 310 ; Ronzevalle, *Emprunts turcs, Journal asiatique*, 1911, II, p. 460 ; Marçais, *Le costume musulman d'Alger*, p. 36 ; J. Savant, *Les mamelouks de Napoléon*, p. 89).

On connait le pluriel يلكات (Djabarti, I, p. 141 ; III, p. 16, 65, 222).

Il est nécessaire de fournir la description contemporaine : « Corset propre aux Mamlouks ; il est ample, court, et a des manches fort longues et fort larges » (*Description de l'Égypte*, XVIII, p. 108).

وجاقات (11, 12, 49, 50, 62, etc.), وجاقلى (19), وجاقليـة (53, 160, 214), وجقليـة (190), du turc اوجاق, « âtre, foyer » (Barbier de Meynard, I, p. 140; *Rec. de mémoires et de textes au XIVᵉ congrès des orientalistes,* p. 499; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 203).

Ce mot s'applique aux corps de la milice (Hammer, XVII, p. 40, 43, 235; *Histoire scientifique,* II, p. 418; Marcel, p. 192-193; *C. I. A., Égypte,* I, p. 619; Vollers, II, p. 310; Dozy, I, p. 43; II, p. 784; *Encyclopédie,* II, p. 610; III, p. 233; Dehérain, p. 39; *Rec. de firmans,* p. 354).

On trouve la forme turque اوجاق, pluriel اوجاقات ainsi que اوجاقية (Desgranges, p. 32, 103, 105, 109, 110; Ghorbal, *Misr,* p. 17-22, 35-37), et on rencontre وجاقية (Sami pacha, II, p. 102), ويجاقات (Sami pacha, II, p. 72) et اوجاقلية (Ghorbal, *Misr,* p. 68).

ورديان (98, 112), de l'italien *guardiano,* « gardien, sentinelle » en turc غارديان et واردیان (Barbier de Meynard, II, p. 378, 835; voir : Vollers, I, p. 621; II, p. 321; Nallino, p. 139).

Le mot s'applique au régiment de la « garde » (Rustum, I, p. 262), mais on trouvera plus habituellement غارديا (Rustum, I, p. 169, 174; II, p. 433, 439, 442), pour lequel le *Journal officiel égyptien* (29 safar 1246) donnera la glose suivante : الحراسة المسمى فى اللغة الافرنجية غارديا.

وطاق (166), du turc اوتاق et اوطاق (Hammer, XVII, p. 225; Barbier de Meynard, I, p. 133, 171; Bocthor, II, p. 140, 368; Vollers, I, p. 624; II, p. 305), « tente-pavillon ».

يسق (55, 89, 118, 158), mot turc, employé dans le sens d'« arrêts » (Barbier de Meynard, II, p. 880; Fagnan, p. 192; Kremer, II, p. 73; Bocthor, I, p. 200; Dozy, II, p. 852; Ronzevalle, *Emprunts turcs, Journal asiatique,* 1911, II, p. 458; Desgranges, p. 29).

On trouve يساقجى dans le sens de « cawas » (Vollers, II, p. 310; Sami pacha, II, p. 518; Ghorbal, *Mohammad Ali,* p. 77).

ياضاشات (12, 29), pluriel corrompu du turc يولداش, « compagnon, camarade » (Barbier de Meynard, II, p. 894; Deny, p. 524, n. 1). Le mot signifie « un soldat de la milice ».

On trouve les orthographes الداش, pluriel الداشات (Kremer, I, p. 189; Fagnan, p. 5; Djabarti, III, p. 4, 92; IV, p. 127); — اولداشات (Djabarti, IV, p. 11); — الضاسات (II, p. 112, 113, 134, 135, 154); — et même اليلداشات (Djabarti, I, p. 192); — يولداشات (Ghorbal, *Misr,* p. 21).

On trouve aussi كمنتارى (Djabarti, III, p. 157); — قوموسارى et قوموسارية (Sami pacha, II, p. 117, 150).

Haidar Chihab (II, p. 231, 239, 282, 329, 353), qui écrit une fois كوميسالية (II, p. 486), en donne la définition suivante : لفظة كومسيارية هم الذين لا يتعلقون بامور الحرب بل فى معاطات الكتابة والحسابات والصنايع ومثل ذلك, «le titre de commissaires s'applique à ceux qui ne traitent pas des questions militaires, mais sont chargés du secrétariat, de l'administration financière, des entreprises et autres affaires civiles».

كويليرية. — Voir كواليرية.

مالكانا (93), mot arabo-persan : «possession du sol par fermage à vie» (*Biblioth. des Arabisants,* II, p. 41, 75; Hammer, XIII, p. 141; XIV, p. 60, 235; XV, p. 155; XVII, p. 49, 231; Jouannin et Van Gaver, p. 325, 327; *Encyclopédie,* I, p. 849; *Rec. de firmans,* p. 352; Barbier de Meynard, II, p. 719; Jucherèau de Saint-Denys, I, p. 402, 408; Rustum, II, p. 501, 505; III, p. 10, 35, 37, 128, 349, 362).

On trouve le pluriel مالكانات (Rustum, II, p. 390).

محرمجى se rencontre comme surnom de Sélim Mahramadji. Ce composé arabo-turc est dérivé de محرمه, corruption turque de l'arabe مقرمة. C'est l'officier gardien des mouchoirs, ou porte-serviette (Hammer, XV, p. 379; XVII, p. 231; Barbier de Meynard, II, p. 739, 779; Bocthor, II, p. 74, 318).

مصرلى (38, 140), adjectif formé à la turque, alors qu'en arabe on pouvait dire مصرى. Il semble donc qu'il s'applique aux contingents mamlouks «égyptiens» qu'on oppose aux milices turques. (Voir Djabarti, III, p. 82, 252, 267, 282, 285.)

مليون (85), au duel مليونين (90) et au pluriel ملايين (100, 113), transcription du français «million» (Bocthor, II, p. 59; Dozy, II, p. 616).

مهردار (217), composé persan, «garde du sceau, chancelier» (Hammer, X, p. 170; XV, p. 18, 379; XVII, p. 42; Barbier de Meynard, II, p. 802; Dozy, II, p. 621; Deny, p. 92; *Encyclopédie,* III, p. 750; Ghorbal, *Misr,* p. 11-12).

نشيف. — Voir النشيف.

همايون (111) et همايونى (2, 159, 201, 214), du persan par le turc, «impérial» (Barbier de Meynard, II, p. 854; Wiet, *Soieries persanes,* p. 61).

On rencontre l'orthographe جلة, pluriel جلل (Sami pacha, II, p. 202, 221, 392; Ali pacha, VII, p. 40; XI, p. 53; XIII, p. 57; XV, p. 66; Djabarti, III, p. 168; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 206).

كلارجى se rencontre dans le surnom du bey mamlouk Ahmed Kilardji. Nom d'emploi dérivé de كلار, emprunté au grec κελλάριον. Le substantif signifie donc «cellier» et l'adjectif «surintendant des offices, cellérier» (Barbier de Meynard, I, p. 638, 689; Bocthor, I, p. 136; II, p. 102, 188, avec la variante كرار; Vollers, II, p. 316; *Rec. de firmans,* p. 196, 352; Jouannin et Van Gaver, p. 143; Hammer, III, p. 317; X, p. 193, 271, 408; XIII, p. 28; XV, p. 379; XVII, p. 66, 230; Dozy, II, p. 483).

On trouve aussi l'orthographe كيلار (Ali pacha, V, p. 92-93; Rustum, I, p. 73, 140, 152, 155, 157), et à côté de l'expression امين الكيلار, la forme turquisée كيلار امينى (II, p. 11, 279).

Enfin notons قيلارجى (Sami pacha, II, p. 229).

كنصريل (218), de l'italien *cancelliere,* «chancelier».

كواليرية (9) et كويليرية (6), de l'italien *cavaliere,* les «chevaliers» de Malte.

Forcément les transcriptions sont variables : كوالرية (Djabarti, III, p. 5); — كوليرية (Desgranges, p. 14; Haidar Chihab, II, p. 220); — كفاليرية (Costa, p. 2); — قوالير (Barbier de Meynard, II, p. 544).

كوكاردا (16), du français *cocarde,* que Djabarti transcrit جوكار (III, p. 3, 16, 17).

كومنضا (18, 24, 39, 41, 47, etc.) et كومنضة (43, 66), pluriel كومنضات (74) et كومنضاتية (5, 61, 62, 78, 96), transcription du français «commandant». On trouve :

كومندا (Desgranges, p. 91); pluriel كومندانية (Costa, p. 2); كومنضان, pluriel كومنضانية (Haidar Chihab, II, p. 336, 339);

قندان, قومندان, pluriel قومندانات (Sami pacha, II, p. 217, 333, 338);

كومندان (Desgranges, p. 222);

قوماندار (Barbier de Meynard, II, p. 578) et كومندار (*Journal officiel égyptien,* 1er radjab 1246).

كوميسار (63), كومسارى (109) et كوموسارى (125), pluriel كومسارية (5, 100, 103) et كوميسارية (66, 103, 106, 107, 109), de l'italien *commissario,* «commissaire» (Vollers, II, p. 320; Nallino, p. 150, 208).

كرنتينة (ALI PACHA, XI, p. 53 ; XIV, p. 101-102) ; — avec l'adjectif كرنتينى (ALI PACHA, XIV, p. 127) ;

كورنتينا et كورنتينة (VOLLERS, II, p. 320 ; NALLINO, p. 296, 315 ; RUSTUM, IV, p. 350, 365, 401 ; SAMI PACHA, II, p. 117, 240, 242, 383, 508) ; — avec le pluriel كورنتينات (RUSTUM, IV, p. 25 ; SAMI PACHA, II, p. 279, 334) ;

كرنتيلة et كورنتيلة (DJABARTI, III, p. 52, 149, 210, 211, 220 ; IV, p. 171, 175, 176, 219) ; — pluriel كرنتيلات (DJABARTI, III, p. 146) ; — le verbe كرتن (DJABARTI, III, p. 150 ; IV, p. 318), et le participe مكرتن (DJABARTI, IV, p. 304) ;

كرنطينة (BRUNOT, *Notes de lexicologie,* p. 123).

En turc : قرانتينه (BARBIER DE MEYNARD, II, p. 505). — Voir : DENY, p. 114.

كتخدا (58, 165), كتخدة (63, 170), كاخية (15, 18, 26, 27, 82, etc.), كيخية (186), pluriel كواخى (11, 131, 190), mot persan qui signifie « maître de maison », mais ce n'est pas dans ce sens qu'il a passé dans la langue militaire turque, puis arabe. Une glose d'Ali pacha (V, p. 89) nous permet de comprendre : الكيخيا محرفة عن الكتخدا التى هى كلمة تركية معناها الوكيل « *Kikhya* est une déformation de *katkhuda,* mot turc, qui signifie gérant ». Le katkhuda est le second d'un chef, ce qui explique les traductions de « chef d'état-major » ou de « lieutenant-colonel ». En Égypte, le pacha nommé par la Porte avait auprès de lui un katkhuda et il en était de même des officiers commandant les sept corps de la milice (*Description de l'Égypte,* XII, p. 42, 113 ; XV, p. 334 ; MARCEL, p. 193 ; *Histoire scientifique,* II, p. 418 ; DOZY, II, p. 443, 448 ; VOLLERS, I, p. 649 ; *C. I. A., Égypte,* I, p. 619 ; *Encyclopédie,* II, p. 909 ; DEHÉRAIN, p. 39 ; GHORBAL, *Misr,* p. 11-12, 14-15, 19, 21-22).

L'orthographe كهيا est plus fréquente en turc (RUSTUM, III, p. 263 ; BARBIER DE MEYNARD, II, p. 612, 683 ; *Rec. de firmans,* p. 29, 351).

كرك (20, 26, 27, 76, 90, etc.), pluriel اكراك (54), du turc كورك, « pelisse » (BARBIER DE MEYNARD, II, p. 659 ; VOLLERS, II, p. 309 ; HAMMER, XVII, p. 230 ; BOCTHOR, II, p. 144 ; DENY, p. 36 ; PFISTER, *Textiles d'Antinoé, Ars Islamica,* XIII, p. 69, n. 125).

كسم (60, 92, 97, 123, 172), d'origine turque, « uniforme » (BOCTHOR, I, p. 283, 398 ; II, p. 20, 62, 63, 378, 403 ; DOZY, II, p. 468 ; VOLLERS, II, p. 309).

كلة (45), pluriel كلل (14, 20, 30, 35, 46, etc.), du persan par le turc كله — كولله — كوله (BARBIER DE MEYNARD, II, p. 642, 660, 675), « boulet » (RUSTUM, I, p. 220 ; BOCTHOR, I, p. 105 ; NALLINO, p. 190, 193).

Emprunts turcs, Journal asiatique, 1911, II, p. 425). Djabarti en donne une bonne définition (IV, p. 57) :

القلقات الذين يسمونهم الضوابط المتقيدين بابواب المدينة

Notons, par curiosité qu'en un passage de Djabarti (III, p. 29), le traducteur a vu la transcription de « collègues » (VI, p. 63). قلقان doit probablement être une faute d'impression (Djabarti, III, p. 197).

On trouve *colucchi* dans une correspondance de Rossetti rendu par *guardie* (Sammarco, *Regno,* I, p. 58).

قنابر (76, 80, 85-87, 113, 123, 127, 176), pluriel arabe d'un singulier emprunté au turc قنبره, قبره et خبره (Barbier de Meynard, I, p. 711 ; II, p. 536, 539 ; Bocthor, I, p. 101 ; Vollers, II, p. 306 ; Dozy, II, p. 408, 409 ; Hammer, XVII, p. 51, 53 ; *Rec. de firmans,* p. 351 ; Ronzevalle, *Emprunts turcs, Journal asiatique,* 1911, II, p. 302, 425). A côté de la traduction « bombe, obus, grenade », il faut ajouter celle de « mortier ».

Le singulier est قنبرة (Costa, p. 6 ; Sami pacha, II, p. 399) et le collectif قنبر (Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 219). Dans Desgranges (p. 174), قنبار est une faute d'impression pour قنابر. On trouve le pluriel قبرات (Rustum, I, p. 165).

Le composé القنبرة خانه est expliqué par مصلحة القنابل (Rustum, I, p. 75) et, de fait, actuellement on écrit قنبلة pluriel قنابل (Sami pacha, II, p. 175, 493 ; Rustum, I, p. 165, 197, 220).

قنصل (7, 13, 18, 26, 35, etc.), pluriel قناصل (70, 139, 146, 151, 158, etc.), de l'italien *console,* « consul », déjà utilisé au Moyen Âge (Vollers, II, p. 320 ; Bocthor, I, p. 194).

En turc et chez d'autres écrivains arabes قونسلوس (Barbier de Meynard, II, p. 581 ; Rustum, II, p. 509 ; III, p. 174, 202, 204, 205).

قومانية (36, 61, 76, 112), avec le pluriel قومانيات (34), du vocabulaire maritime, notamment du bas-latin *compagna,* « vivres, provisions de bouche » (Barbier de Meynard, II, p. 578 ; Bocthor, II, p. 78, 213 ; Deny, *Chansons des janissaires, Mélanges Basset,* II, p. 84).

كارنتينا (75), de l'italien *quarantina,* « quarantaine », qu'on rencontre sous la forme كارنتينة (Bocthor, II, p. 219 ; Dozy, II, p. 434). Notons les orthographes suivantes :

كرنتنا (Desgranges, p. 35) ;

كرنتينا (Desgranges, p. 35 ; Rustum, II, p. 516 ; III, p. 46, 95, 126, 152 ; Sami pacha, II, p. 434, 563) ; — pluriel كرنتينات (Sami pacha, II, p. 541) ;

كرانتينا (Rustum, III, p. 563) ;

قبطان (7, 33, 34, 77, 91, etc.) et قبطان باشى (102-104, 110, 111, etc.) — قبوطان (164), avec le pluriel قبابطين (108). Ce mot dérive, par le turc, de l'italien *capitano* (Barbier de Meynard, II, p. 493, 498).

Il s'appliquera rarement à un capitaine d'infanterie européen (Desgranges, p. 92; Djabarti, III, p. 89).

Ce sera surtout un commandant de navire, sous cette forme ou avec l'orthographe قبودان, et le pluriel قباطين (Bocthor, I, p. 126, 378; Dozy, II, p. 302; Nallino, p. 188, 196; Sami pacha, II, p. 317, 318, 382, 508; Rustum, I, p. 18, 206, 242, 304; II, p. 18; Djabarti, II, p. 108, 115; IV, p. 53; Ali pacha, XI, p. 26, 90; XIV, p. 80; *Mille et une Nuits,* nuits 932, 933, 936, 938).

قبطان باشى est pour قبطان باشا (Desgranges, p. 205, 215, 220, 221, 224; Haidar Chihab, II, p. 334, 424; Rustum, II, p. 517; Ali pacha, XI, p. 27; Bocthor, I, p. 35). C'est le titre de l'amiral de la flotte (*Rec. de firmans,* p. 346; Deny, p. 60-61, 561; *Encyclopédie,* I, p. 769; IV, p. 1243-1245).

Bien entendu قبطانة sera le vaisseau amiral (Hammer, XIII, p. 201; XVII, p. 228; Jouannin et Van Gaver, p. 348, 354; Djabarti, I, p. 307, où le traducteur a vu un nom propre, III, p. 11).

A l'époque qui nous occupe, les commandants des ports d'Alexandrie, de Damiette, de Rosette et de Suez, portaient le titre de قبودان (Djabarti, I, p. 58; Ghorbal, *Misr,* p. 14-15).

Sami pacha emploie aussi le pluriel قبودانات (II, p. 316, 331, 469, 479).

قرابينة (132), de l'italien *carabina,* «carabine».

C'est le nom d'unité (Djabarti, I, p. 140, 149), dont le collectif est قرابين (Djabarti, III, p. 92, 305, 335, 336; IV, p. 157, 182; Sami pacha, II, p. 229, 471) et le pluriel قرابينات et même قارابينات (Djabarti, II, p. 113; Haidar Chihab, II, p. 444, 473; Sami pacha, II, p. 387).

Mais comme la forme قرابين ressemble à un pluriel quadrilitère, on a créé plus récemment le singulier قربان avec le nom d'unité قربانة : c'est ainsi qu'Ali pacha (XI, p. 98) remplace par قربانة le قرابينة de Djabarti (III, p. 276).

Voir : Bocthor, I, p. 127-128, 324; II, p. 75, 396; Dozy, II, p. 322; Vollers, II, p. 320.

On trouve قربانة dans le sens d'«infanterie armée de la carabine» (Djabarti, IV, p. 139-140; Kremer, II, p. 32; Fagnan, p. 140).

On a noté قربيلة en Afrique du Nord (*Rec. de mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIV^e congrès des orientalistes,* p. 469).

قلق (114), pluriel قلقات (83, 114), du turc قوللق, «corps de garde, patrouille» (Barbier de Meynard, II, p. 571; Kremer, II, p. 38; Fagnan, p. 146; Ronzevalle,

(Rustum, I, p. 206, 273; II, p. 324; IV, p. 415; Prince Toussoun, *El-Djaich el-misri,* p. 209; Colin, *loc. cit.,* p. 209).

قبجى (137), قبجى باشى (159, 170, 171) et قابجى باشى (159, 170) du turc قبوجى et قبوجى باشى « chambellan » et « premier chambellan » (Hammer, X, p. 20; XIII, p. 28; XV, p. 18, 379; XVII, p. 57, 63, 192, 288; Barbier de Meynard, II, p. 496; Gouin, p. 156; Jouannin et Van Gaver, p. 107, 143; Mengin, II, p. 148; Jucherau de Saint-Denys, II, p. 25; *Description de l'Égypte,* XV, p. 326; *Contemporaine,* VI, p. 78; *Rec. de firmans,* p. xxv, 25, 58, 117, 126, 134, 146, 150, 152, 162, 187, 351; Douin, *Égypte de 1802,* p. 157; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 13 *: manbingi;* Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 399; Deny, p. 50, 83, 572; *Encyclopédie,* II, p. 299, 769; Durand-Viel, I, p. 431).

On rencontre la forme turque dans Rustum, I, p. 140, 154; Haidar Chihab, I, p. 96; II, p. 387, 392.

La définition est donnée par Ali pacha (XIV, p. 29) :

بواب امير الحاج المسمى بالقابجى فى اللغة التركية

On trouve قابوجى, pluriel قابوجية (Ishaki, p. 215; Ali pacha, I, p. 65).

La forme قبجى et قبجى باشى dans Djabarti, II, p. 173, 240; IV, p. 212; Haidar Chihab, II, p. 392; Sami pacha, II, p. 407; Dozy, II, p. 298.

On lit plus fréquemment قابجى, قابجى باشا pluriel قابجية (Djabarti, I, p. 44, 50, 53, 57, 60, 62, 92, 103, 125, 171, 184; II, p. 105, 112, 113, 175; III, p. 195, 278, 292, 293, 327, 335, 336, 340; IV, p. 2, 14, 44, 59, 63, 65, 74, 78, 82, 84, 89, 107, 141, 145, 146, 148, 216, 230, 288, 290, 290, 302, 310; Sami pacha, II, p. 195, 199, 201, 202, 207, 209, 210, 215, 220, 236, 237, 239, 264, 279; Ali pacha, X, p. 62; XI, p. 27; Bocthor, I, p. 126; Dozy, II, p. 295).

Pour la fonction, on lit قبجيات ، قابجيات et قبجيات باشا (Djabarti, IV, p. 59, 302; Sami pacha, II, p. 279).

قبيجات est à traduire par « messages transmis par un chambellan » (Sami pacha, II, p. 206).

Les traducteurs de Djabarti n'ont pas compris ce mot, qu'ils ont parfois sauté (IV, p. 198; V, p. 62; VIII, p. 178). On trouve en effet : *officier impérial* (I, p. 121; VIII, p. 5); *messager* (I, p. 129); *officier* (I, p. 138; VIII, p. 93); *envoyé du sultan* (I, p. 151); *officier de marine* (IV, p. 180; VII, p. 269); *officier de la Porte* (V, p. 182); *émissaires* (I, p. 80); *marins* (VII, p. 53); *envoyé de la Sublime Porte* (IX, p. 140); *envoyé* (VIII, p. 136); *envoyé impérial* (VIII, p. 142); *officier du palais* (VII, p. 299); *el-Kaïdj* (VIII, p. 239); *qui avait le titre de Kaïdji pacha* (VII, p. 399). Sauf erreur on ne rencontre que deux fois la bonne traduction (II, p. 68, 102).

عزب (131), pluriel عزبان (170), les « célibataires », nom donné à un des corps de la milice (Hammer, I, p. 127; Jouannin et Van Gaver, p. 26; Marcel, p. 193; Barbier de Meynard, II, p. 355; Ghorbal, *Misr*, p. 17, 22).

عفونامه (116), composé arabo-persan, « acte d'amnistie ».

غرش (73), pl. غروش (31), du turc غروش, *piastre* (Vollers, II, p. 323; *Description de l'Égypte*, XVI, p. 290; *Rec. de firmans*, p. 349).

غلائط (13), pluriel de غليوطة, « galiote » (Hammer, VI, p. 184; Desgranges, p. 25; Haidar Chihab, II, p. 226; Kindermann, *Schiff im arabischen*, p. 71).

غلايين (71), pluriel de غليون, français « galion », de l'italien *galeone* (*Mille et une Nuits*, nuits 932, 933, 937, 984-985; Rustum, I, p. 273; Sami pacha, II, p. 373, 375, 386, 390, 429; Ali pacha, I, p. 63; VIII, p. 91; Toussoun, *El-Djaich el-misri*, p. 209; Maspero, *Chansons populaires, Annales du Service des Antiquités*, XIV, p. 178, 188, 268; Vollers, II, p. 315; Dozy, II, p. 286; Bocthor, I, p. 377; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XX, p. 77; Hammer, IV, p. 384; VI, p. 184; Barbier de Meynard, II, p. 471; Kindermann, *Schiff im arabischen*, p. 722).

فرمان (8, 17, 42, 54, 63, etc.), pluriel فرمانات (42, 51, 54, 64, 70, etc.), du persan, qui a donné lieu au français « firman » (Barbier de Meynard, II, p. 412; Dozy, II, p. 262; *Encyclopédie*, II, p. 101).

Bocthor (I, p. 357) note le pluriel فرامين (Haidar Chihab, II, p. 508), à côté duquel on rencontre فرامانات (Haidar Chihab, II, p. 322, 420; Ghorbal, *Misr*, p. 13).

فسيال (95, 109, 110), pluriel فسيالية (5, 61, 62, 78, 95), de l'italien *uffiziale*, s'appliquant aux officiers des armées européennes. Il faut noter les pluriels فسيالات (Djabarti, IV, p. 54-56); — فيسالية (Desgranges, p. 157; Haidar Chihab, II, p. 236, 282); — اوفيسيالية (Desgranges, p. 189, 198). On trouve وفيسيال signalé par Deny (p. 524, n. 1) et فصيان (Vollers, I, p. 620).

قابجى. — Voir قبجى.

قايق (91), mot turc, qui a donné lieu au français « caïque » (Barbier de Meynard, II, p. 482; Dozy, II, p. 297; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XX, p. 77).

Ce mot sert à désigner dans Djabarti (III, p. 15) le vaisseau l'*Orient*, et Colin a montré qu'il fallait corriger en قايق, qu'on orthographie plutôt قباق

140; III, p. 16, 189; IV, p. 68, 90, 205; RUSTUM, I, p. 109, 110; II, p. 133, 137, 467; III, p. 427; IV, p. 61; VOLLERS, I, p. 645; NALLINO, p. 189, 194).

طقم (93), pluriel طقوم (17), harnachement, costume, équipage, du grec τάγμα On trouve aussi طاقم, pl. طواقم (VOLLERS, II, p. 299; MASPERO, *Chansons populaires, Annales du Service des Antiquités,* XIV, p. 5; SAMI PACHA, II, p. 328; COLIN, *Batellerie du Nil, Bulletin de l'Institut français,* XX, p. 210; RUSTUM, II, p. 433).

طوخ (132, 204, 215, 217) et توخ (216), pluriel اطواخ (118, 132), dérivé du turc طوغ et توغ « queue de cheval » inhérente au grade de pacha (BARBIER DE MEYNARD, I, p. 501; II, p. 315; BOCTHOR, II, p. 221, 381; KREMER, II, p. 12; DOZY, II, p. 66, 68; FAGNAN, p. 106; DENY, p. 52; *Recueil de mémoires et de textes du XIV^e congrès des orientalistes,* p. 453; *Encyclopédie,* IV, p. 863; VOLLERS, II, p. 308).

On a pu voir une de ces queues à l'Exposition de l'Orangerie, à Paris, en 1938 (*Bonaparte en Égypte,* p. 214, n° 772).

عثملى (9-11, 40-41, etc.) est l'orthographe habituelle de Nicolas pour le turc عثمانلى, « ottoman ».

عربانات (96), singulier عربانة, du turc ارابه ou عربه, « char, chariot, tombereau, voiture » (BARBIER DE MEYNARD, I, p. 30; II, p. 351; BOCTHOR, I, p. 145-147; II, p. 51, 243, 378, 429; VOLLERS, II, p. 306).

عرضى (36, 39-42, 45-47, 57, etc.) et ارضى (158, 165), transcription du turc اوردو « camp, armée en campagne » (BARBIER DE MEYNARD, I, p. 34; NALLINO, p. 190; COLIN, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 207; DENY, p. 139, 293).

On s'en rend compte grâce aux orthographes variées :

عرضى (DESGRANGES, p. 219; trad., p. 285; ALI PACHA, VIII, p. 90; XI, p. 26, 29, 96-98; XIV, p. 137; XV, p. 94; SAMI PACHA, II, p. 163, 205, 234; BOCTHOR, I, p. 123-124; DOZY, II, p. 113);

ارضى (COSTA, p. 7);

اوردى (DESGRANGES, p. 94, 95; COSTA, *passim;* SAMI PACHA, II, p. 387, 390, 398, 404, 438, 646; RUSTUM, IV, p. 398);

اودو (RUSTUM, II, p. 35);

اردو (RUSTUM, III, p. 469; *Rec. de firmans,* p. 354);

اوردو (RUSTUM, I, p. 143, 144).

On rencontre plutôt اسبتالية, pluriel اسبتاليات (Barbier de Meynard, I, p. 47; Nallino, p. 306; Sami pacha, II, p. 327, 359, 479, 541; Ali pacha, I, p. 96; VII, p. 71-72; XI, p. 23; XIII, p. 32; XIV, p. 127), ou اسبيتالية (Ali pacha, XII, p. 93).

On trouve aussi اسبستار (Desgranges, p. 33).

صلدات (5, 16, 22, 24, 32, etc.), transcription du français «soldat», s'appliquant aux militaires des armées européennes.

On trouve aussi سلطات (Djabarti, III, p. 101; Ali pacha, XV, p. 68 : طائفة بواردية يقال لهم السلطات).

En turc, صولتات et صولطاط (Barbier de Meynard, II, p. 234; Deny, *Chansons des janissaires, Mélanges Basset,* II, p. 85, 123).

صوطريه (195, 197). Le turc صويتارى ou سويتارى (Barbier de Meynard, II, p. 116, 237; Fagnan, p. 83), avec sa signification de «bouffon, baladin», est certainement à l'origine du mot employé par Nicolas. Dozy (I, p. 702) explique ainsi سوطرى (سوترى) «mot qui appartient au langage des soldats». D'autre part on lit dans le *Journal Officiel du Gouvernement égyptien* à la date du 9 rabi' I 1248 la mention, qui reste pour moi inexpliquée : رئيس الصوطرية .

Dans le texte de Nicolas, le mot est dans les deux passages accompagné de *chawichiya* : les uns et les autres ont la mission d'arrêter les soldats qui se cachent pour ne pas se battre. Retenons que Hammer donne à *siouyatar* le sens de «caporal» (Hammer, XVII, p. 240).

صيوان (117, 166, 167), mot emprunté au turc, corruption du persan سايه بان dès le Moyen Âge (Quatremère, *Sultans mamlouks,* I, *b,* p. 29; Barbier de Meynard, II, p. 195, 243; Dozy, I, p. 858; Vollers, I, p. 619, 645), «tente du chef, pavillon». Le pluriel est صواوين (Djabarti, I, p. 220; IV, p. 291, 296, 297; Ali pacha, XVIII, p. 138; *Mille et une Nuits,* nuit 514).

Au Maghreb on trouve l'orthographe سيوان (*Recueil de mémoires et de textes au XIVe congrès des orientalistes,* p. 444).

ضرب خانه (186), composé arabo-persan, «hôtel de la monnaie» (Barbier de Meynard, II, p. 246; Ghorbal, *Misr,* p. 11).

طبجية (45) et طوبجية (123), pluriel du turc طوبجى (Barbier de Meynard, II, p. 298; Bocthor, I, p. 58, 125), «artilleur, canonnier».

Le mot est aujourd'hui remplacé par le néologisme arabe مدفعى (Rustum, I, p. 22).

طبنجة, pl. طبنجات (42, 90), du persan طبانچه «pistolet» (Barbier de Meynard, II, p. 277; Bocthor, II, p. 119, 165; Dozy, II, p. 27; Djabarti, I, p. 56, 132,

p. 134, 160 ; Bocthor, II, p. 201 ; Dozy, I, p. 717 ; Hammer, XIV, p. 114 ; XVII, p. 237 ; *Encyclopédie,* I, p. 711 ; *Journal asiatique,* 1925, II, p. 162.

شالات (146), pluriel de شال, mot persan, d'où provient le français «châle» (Barbier de Meynard, II, p. 133 ; Dozy, I, p. 805 ; *Encyclopédie,* IV, p. 937 ; Vollers, I, p. 644).

A côté de ce pluriel on trouve شيلان (Djabarti, III, p. 45, 188 ; IV, p. 67 ; Rustum, I, p. 259 ; Sami pacha, II, p. 306, 355 ; Ali pacha, X, p. 62 ; Bocthor, I, p. 141).

Voici maintenant la définition du mot : «Longue pièce de mousseline ou de tissu de laine que l'on plisse et tourne plusieurs fois autour du turban» (*Description de l'Égypte,* XVIII, p. 108).

شاويش. — Voir جاويش.

شربجية (186) et شوربجية (9), pluriel arabe du turc جورباجى, chef d'un régiment des janissaires, et en Égypte «colonel» d'un des corps de la milice (Barbier de Meynard, I, p. 606 ; Hammer, I, p. 124 ; IV, p. 217 ; X, p. 25, 201 ; XVII, p. 243 ; Jouannin et Van Gaver, p. 26 ; Juchereau de Saint-Denys, IV, p. 11 ; P(risse) et H(amont), p. 2 ; *Rec. de firmans,* p. 26, 357 ; *Encyclopédie,* I, p. 898 ; II, p. 609-610).

On trouve, bien entendu, les orthographes :

جربجى (Desgranges, p. 72 ; Djabarti, I, p. 35 ; III, p. 5 ; Costa, p. 3 ; Ali pacha, III, p. 65, 92 ; VIII, p. 29 ; XV, p. 98) ;

جوربجى (Djabarti, II, p. 261 ; Ali pacha, V, p. 3, 89 ; XIX, p. 138 ; Rustum, I, p. 132, 154 ; II, p. 11, 15 ; Ghorbal, *Misr,* p. 20-22, 36, 37) ;

جوربه جى et جورباجى (Rustum, I, p. 152 ; II, p. 279).

شنك (24, 50, 60, 64, 148, etc.), du turc شنلك (Barbier de Meynard, II, p. 156 ; Kremer, I, p. 265). J'ai traduit ce mot par «pompe, réjouissances», tout en n'ignorant pas que ces démonstrations s'accompagnaient de salves d'artillerie ou de feux d'artifices (Dozy, I, p. 792 ; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XX, p. 210 ; Vollers, II, p. 308 ; Desgranges, traduction, p. 285).

On trouve le pluriel شنكات (Ali pacha, V, p. 106) et quelques auteurs reprennent la forme turque (Bocthor, II, p. 252 ; Desgranges, p. 229 ; Rustum, I, p. 143-144).

شيش (218), mot turc, «broche, épée».

صبيطال (23), de l'italien *ospitale,* «hôpital».

On trouve سيانية et سجمان, سجمانية dans Djabarti, I, p. 96, 206, 345; III, p. 252, 253, 331; IV, p. 114, 132. Les traducteurs ont été embarrassés : ils ont sauté le mot, l'ont rendu une fois par « artilleurs » (III, p. 78), ou bien l'ont transcrit par « Segmans » (VII, p. 192, 194; VIII, p. 266).

Dans Rustum (I, p. 39, 49, 212; II, p. 164, 226), à côté de la forme سكبان (Sami pacha, II, p. 221), on lit aussi سكبانية (Rustum, I, p. 212; III, p. 380; IV, p. 257-259, 261).

On rencontre سيمن dans *Rec. de firmans,* p. 16.

السلام اغاسى (81), rendu par « officier d'ordonnance », est une expression arabo-turque qui signifie « l'officier du salut », soit l'officier qui rend le salut au nom de celui qui l'a reçu (Hammer, XIII, p. 106; XIV, p. 42, 54, 67; XV, p. 18; XVII, p. 238).

سلحدار (58, où le manuscrit donne سلدار, 130, 148), composé arabo-persan, « porte-glaive, écuyer » (Barbier de Meynard, II, p. 92; Hammer, VII, p. 15; X, p. 195; XIII, p. 140; XIV, p. 17; XV, p. 18; XVII, p. 42, 64, 239; *Rec. de firmans,* p. xxv, 357).

La fonction, avec le même titre, existait à la cour des sultans mamlouks (Gaudefroy-Demombynes, *Syrie,* p. lvii; Dozy, I, p. 670, 672; Quatremère, *Sultans mamelouks,* I, *a,* p. 159; *Encyclopédie,* IV, p. 442).

سنجق (10, 11, 19, 32, 91, etc.), pluriel سناجق (8, 11, 12, 14, 93, etc). et titre de fonction سنجقية (157, 160, 172), du turc سنجاق, صنجاق ou صانجاق (Barbier de Meynard, II, p. 63, 100, 218; Bocthor, I, p. 94; *Histoire scientifique,* II, p. 419; Hammer, I, p. 128; XVII, p. 41, 237; Marcel, p. 193, Dozy; I, p. 691; Vollers, II, p. 308; *Encyclopédie,* IV, p. 154-156).

« Bannière », et celui qui porte bannière, le « banneret », le « bey », dont le titre arabe امير اللوا correspond maintenant à « général de brigade »; enfin le mot s'applique à la circonscription territoriale administrée par le bey.

On trouve سنجاق et le pluriel سناجيق (Rustum, I, p. 188; Desgranges, p. 54; Haidar Chihab, II, p. 393).

Il faut aussi noter صنجق et صنجقية (Dozy, I, p. 846; *C. I. A., Égypte,* I, n° 364; Djabarti, I, p. 58; Ghorbal, *Misr,* p. 11, 14, 16, 17).

Il est remarquable qu'on rencontre ce mot dans les *Mille et une Nuits* (nuit 976).

Au Maghreb le mot est employé dans le sens de « pavillon » et « tribord » (Brunot, *Notes lexicologiques,* p. 80; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XX, p. 202).

شابندر (89, 114), dont la forme correcte est شاهبندر, expression persane, signifiant en arabe « prévôt des marchands ». Voir : Barbier de Meynard, II,

I, p. 199; JOUANNIN et VAN GAVER, p. 436; GOUIN, p. 100; DOZY, I, p. 574; RUSTUM, IV, p. 415; *Rec. de firmans,* p. 355; MOURIEZ, IV, p. 78; DURAND-VIEL, I, p. 388, 463; SAMMARCO, *Regno,* I, p. 88; CATTAUI, *Archives russes,* I, p. 220; DOUIN, *Navarin,* p. 296).

ساری عسکر. — Rien n'est plus étrange que l'évolution graphique et grammaticale de ce composé arabo-persan سر عسکر, «commandant en chef», dont l'orthographe arabe veut rappeler la prononciation avec l'*izafat* persan *sar-i-askar*.

On conçoit que ساری عسکر se trouve à l'état construit (5, 61, 64, 65, 71), mais on le rencontre déterminé, sans article (54, 68, 96, 186), à côté de الساری عسکر (8, 10, 16, 17, 19) et de ساری العسکر (71-73, 75). Pluriel : سواری عسکر (125, 164), سواری عساکر (102) et سواری العساکر (207).

Autre orthographe : صاری عسکر (20, 36, 39, 43, 51), الصاری عسکر (15-19), صواری عسکر (46, 106, 110) et صواری عساکر (172).

Bien entendu la forme originelle سر عسکر et السر عسکر est fréquente (38, 41, 48, 51, 57; HAIDAR CHIHAB, II, p. 292, 346; RUSTUM, II, p. 9, 502; DJABARTI, III, p. 4; SAMI PACHA, II, p. 289; ALI PACHA, IX, p. 66; BARBIER DE MEYNARD, II, p. 77; BOCTHOR, I, p. 381; DOZY, I, p. 649; DENY, p. 67), avec l'accusatif indéterminé سر عسکرا (RUSTUM, I, p. 39) et l'adjectif سر عسکری (RUSTUM, I, p. 138, 279; II, p. 476, 492, 502; ALI PACHA, IX, p. 66; SAMI PACHA, II, p. 289). — On lit سر العسکر dans une inscription du Caire (*C. I. A., Égypte,* I, n° 4).

Notons enfin سری عسکر (SAMI PACHA, II, p. 119, 135).

ستويان (104), transcription du français «citoyen» (DJABARTI, III, p. 158, 184 et ALI PACHA, XVIII, p. 20 : الستوبان (*sic*) يعنى ابن البلد).

سرايا (123, 127, 128), à l'état construit سراية (123, 148), du turc سراى, qui a donné lieu au français «sérail, palais» (BARBIER DE MEYNARD, II, p. 73; BOCTHOR, II, p. 119, 316; SAMI PACHA, II, p. 212). Pluriel سرايات (ALI PACHA, V, p. 78).

سكبان (36, 155-157, 159, etc.), du persan سگبان, «gardien du chenil», nom donné à une division du corps des janissaires, les Seymen : le mot s'appliqua au XIXe siècle à l'infanterie régulière ottomane (HAMMER, I, p. 337; IV, p. 216, 436; VIII, p. 115; X, p. 410; XVII, p. 238-239; JOUANNIN et VAN GAVER, p. 44, 380; BARBIER DE MEYNARD, II, p. 86, 88 : سکمن; *Encyclopédie,* II, p. 610; III, p. 1001; IV, p. 212; DENY, p. 556; *Rec. de firmans,* p. 47, 356; GUÉMARD, p. 51-52; DRIAULT, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 225).

commandant d'un régiment des janissaires, qui était en fait le lieutenant-général des janissaires (Hammer, I, p. 397 ; IV, p. 315, 435 ; IX, p. 326 ; X, p. 409-410 ; XVII, p. 243 ; Jouannin et Van Gaver, p. 44 ; Barbier de Meynard, II, p. 311).

Desgranges y a vu un nom propre (p. 132) زرناجى باشى et le mot est orthographié زونجى باشى dans Costa (p. 28).

ديبزونات. — Voir دفازون.

رستاق (166), du persan, « gros village ».

ريال (20, 90) ; — ريال فرانسا, pluriel ريالات فرانسه (43, 90) ; — plus simplement فرانسا ou فرانسه (17, 20, 25, 42).

ريال provient de l'espagnol *real* et il est inutile de s'arrêter à فرانسا, c'est donc l'« écu de France » (Bocthor, II, p. 159, 236 ; Barbier de Meynard, II, p. 31, 407 ; Dozy, I, p. 576 ; Vollers, II, p. 318 ; Nallino, p. 148, 333 ; Kremer, II, p. 28 ; Fagnan, p. 132 ; *Encyclopédie,* III, p. 1243 ; *Description de l'Égypte,* XV, p. 289).

On trouvera aussi الريال الفرنسا — الريالات الفرنسا avec l'article aux deux mots (Sami pacha, II, p. 104, 206, 238, 247). De même encore nous aurons ريال فرنساوى — ريال فرنسى (Rustum, I, p. 41, 61 ; Sami pacha, II, p. 241).

On lit dans Ali pacha (XX, p. 155) ; سعر الريال الابى طاقة مائة وخمسة وخمسين نصفاً وكان ابتداء تسميته بريال فرانسا, « le taux du réal Abou Taka fut de 155 demi-pièces d'argent : c'est la monnaie qu'on appela d'abord écu de France ». Il y eut donc parité entre l'écu de France et la pataque (Abou Taka).

Bien entendu, ريال est utilisé au Maroc (Destaing, *Textes arabes en parler des Chleuhs,* p. 230).

ريالة بيك (7). ريالة est la transcription de l'italien *reale :* c'est dans l'Empire ottoman le nom donné au troisième vaisseau amiral (Hammer, VI, p. 426 ; XIII, p. 67, 201 ; XV, p. 171 ; Jouannin et Van Gaver, p. 354 ; de la Jonquière, III, p. 232, 312 ; Mengin, I, p. 15 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 23 ; *Rec. de firmans,* p. 154 ; *Encyclopédie,* III, p. 1243-1245 ; Desgranges, traduction, p. 278).

Les traducteurs de Djabarti (III, p. 78, 257, 266, 276), l'ont rendu par « porteur d'une lettre » (VII, p. 205), ou l'ont pris pour un nom de bateau (VII, p. 227, 256), ce qui semble être arrivé à Dehérain (p. 173, 292), ou l'ont sauté (VI, p. 142).

Le mot sert parfois d'épithète : ainsi مركب الريالة (Haidar Chihab, II, p. 221) et غليون الريالة (Djabarti, III, p. 266 ; trad., VII, p. 227 ; Kremer, II, p. 76). ريالة بيك est le titre du contre-amiral (Barbier de Meynard, II, p. 31 ; Bocthor,

Pour que la discipline y soit parfaite, le pacha a encadré les éléments étrangers par des hommes de race turque ; ceux-là restent subordonnés et n'accèdent pas aux grades d'officiers» (Djabarti, IV, p. 226 ; on verra combien la traduction est mauvaise : IX, p. 132). — A d'autres reprises, Djabarti insiste sur les affreux bonnets des Délis (IV, p. 214, 229 ; trad., IX, p. 104, 140). — Enfin il faut signaler ce curieux texte qui se situe en ramadan 1224/novembre 1809 : « On vit arriver en Égypte, en provenance de Syrie, une troupe de Délis : leur extérieur était misérable, comme il en était de ceux qui venaient de ces régions. Ils étaient accompagnés de ces danseurs efféminés, qu'on appelle *khaouals,* qui parlaient avec une voix féminine, ainsi que des musiciens avec des tambourins et des guitares» (Djabarti, IV, p. 101 ; trad., VIII, p. 224).

On peut voir un déli dans Weygand (I, pl. XX). Au xvii^e siècle, la coiffure était différente (Marçais, *Le costume musulman d'Alger,* p. 33-34).

Sur leur réputation nous devons encore donner ce passage (Ghorbal, *Mohammed Ali,* p. 33) : اشقياء من اكراد سوريا يدعون الدلاة او الدلاتية كانوا شر من راى اهل مصر « Ce ramassis de Kurdes de Syrie, qu'on appelle les Délis, la pire engeance qu'ait pu voir la population égyptienne».

Ce sont les *Diletti* de de la Jonquière, IV, p. 460, 486.

درويشة (131), du persan درويش, qui a donné lieu au français « derviche» (Barbier de Meynard, I, p. 736 ; Vollers, I, p. 640).

Par ce seul exemple, il est difficile de déterminer si nous avons affaire à un pluriel ou à un abstrait (cf. Rifaat bey, *Manahidj el-albab,* p. 18).

دفازيون (106, 111), transcription du français « division», que l'on trouve aussi, au pluriel, sous la forme ديزونات (54). On s'explique facilement le فاريون de Desgranges, p. 221.

Parfois le mot est rendu par l'arabe متفرقة (67, 75-76) : voir Djabarti, III, p. 83 ; Desgranges, p. 151.

دفتر (146), mot persan, « registre» (Vollers, II, p. 297).

دفتردار (12, 14, 75, 96, 97, etc.), composé persan. A l'époque qui nous occupe, le *defterdar* est le fonctionnaire responsable de l'administration financière (Barbier de Meynard, II, p. 350 ; *Histoire scientifique,* II, p. 424 ; *C. I. A., Égypte,* I, p. 606, 725 ; Hammer, XIII, p. 17 ; XVII, p. 41, 47 ; *Encyclopédie,* I, p. 961 ; *Rec. de firmans,* p. xiii, p. 347 ; Mouelhy, *Ibrahim administrateur, Cahiers d'histoire égyptienne,* I, p. 31-33 ; *Description de l'Égypte,* XI, p. 508 ; XVIII, p. 220).

دورناجى باشى (64) a été traduit par «officier supérieur de la vénerie impériale». Ce titre turc, طورنه جى باشى, qui signifie « gardien des grues» s'appliquait au

خنكارى (2, 27), *impérial.* — Adjectif relatif de خنكار (Ali pacha, XVI, p. 86), contraction du persan خداوندكار (*C. I. A., Jérusalem,* I, p. 326).

خواجه (15), mot persan, décerné pour l'époque de Nicolas, aux Européens, dans le sens de «sieur», puis sous la forme turque خوجه (54, 56, 58, 59), comme titre civil (Barbier de Meynard, I, p. 714; Hammer, VII, p. 15; *Encyclopédie,* II, p. 916; *C. I. A., Égypte,* I, p. 47; *C. I. A., Jérusalem,* I, p. 346-350).

دالاتى (44), pluriel دالاتية (214), mot arabe dérivé du turc, «fou», qui est le nom donné à un corps de troupes légères et qui serait alors à interpréter dans le sens de «hardi, téméraire» (Hammer, XIII, p. 17, 22; XIV, p. 16, 79; XVII, p. 42, 46, 212; Vollers, II, p. 307; Kremer, I, p. 237; Barbier de Meynard, I, p. 751; Dozy, I, p. 456; Fagnan, p. 56; Mengin, I, p. 122; Mouriez, I, p. 192; Gouin, p. 141; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 186; *Encyclopédie,* I, p. 961; Guémard, p. 33; Bréhier, p. 92; Jucherеau de Saint-Denys, I, p. 382).

On rencontre aussi دلاة et دلاتية. Pour étudier leur présence et leur rôle en Égypte depuis l'occupation ottomane, il est d'autant plus nécessaire de citer les nombreux passages de Djabarti que les traducteurs ont le plus souvent escamoté le mot ou l'ont mal rendu (voir Djabarti, I, p. 335, 350; II, p. 179; III, p. 242, 252, 298, 302, 303, 307, 319-321, 326-329, 333, 343, 344, 348, 349; IV, p. 15, 21, 38, 58, 61, 65, 70, 71, 73, 79, 82, 90, 91, 100-102, 114, 118, 123, 127, 132, 136, 149, 199, 205, 215, 225, 228, 246, 281, 288, 298, 310). Dans la traduction on lit notamment : Dalati, Albanais (III, p. 55); — Albanais (III, p. 91); — guides (VII, p. 167); — Dallats (VII, p. 192); — soldats (VII, p. 311); — Dallat (VIII, p. 45); — Dalat (VIII, p. 80); — Dallates (VIII, p. 321).

Ali pacha écrit une fois دالتلية (X, p. 87).

Leur tenue attira l'attention de Djabarti : «Le capitan Hasan pacha revêtit l'uniforme des Délis, coiffé d'une sorte de colback en peau de zibeline» (II, p. 115; trad., IV, p. 208). — «Les Délis forment une troupe qui a pris pour patron le calife Omar ibn Khattab. La plupart d'entre eux sont originaires de divers cantons de Syrie, du djebel Druze et de la région des Métoualis. Ils ne montent pas des chevaux de race; ils sont coiffés de très longs bonnets faits de peau de jeunes agneaux de la taille d'une coudée. Lorsqu'ils se rendent aux lieux d'aisances, ils enlèvent cette coiffure, qu'ils déposent à la porte : je ne sais pas si c'est par respect pour cette coiffure ou si c'est de crainte de la voir tomber en heurtant le linteau. Ce corps est célèbre dans l'Empire ottoman par sa bravoure et son ardeur au combat. On y trouve des hommes qui se conduisent très convenablement, et d'autres, en très petit nombre, dont la conduite laisse à désirer.

avec d'autres pluriels, جنسارية (II, p. 236, 240), جنسارات (II, p. 244, 285), جنساريات (II, p. 230).

جوخ (123), mot emprunté, dès le Moyen Âge, au turc چوقه (Dozy, *Dict. des noms de vêtements,* p. 127; Barbier de Meynard, I, p. 611; Bocthor, I, p. 282; Vollers, II, p. 306; Marçais, *Textes arabes de Tanger,* p. 255), dans le sens de « drap ».

جوخدار (138), pluriel جوخدارية (136, 148), dont le chef se nomme باش جوخدار (125), du turc جوقدار et جوقه دار (Barbier de Meynard, I, p. 264, 437, 611-612; Jouannin et Van Gaver, p. 344; Juchereau de Saint-Denys, II, p. 25; *Rec. de firmans,* p. 358; Deny, p. 64; Fagnan, p. 27), « valet de chambre, porteur du manteau, aide de camp » (Hammer, VII, p. 15; X, p. 195; XIII, p. 17, 28, 140; XIV, p. 17; XV, p. 18, 179, 280; XVII, p. 42, 64, 65, 243; Kremer, I, p. 215).

On trouve la forme turque جوقدار (Rustum, I, p. 301; II, p. 4, 226, 265, 273; Ali pacha, IV, p. 54).

On lit بكجوقه دار (Djabarti, IV, p. 249, traduit par « agent » : IX, p. 179; Kremer, I, p. 200).

جبوخدار ne peut être qu'une faute d'impression (Ali pacha, IX, p. 50).

جوكلان (94), corruption du persan جوكان, avec la signification de « canne à manche recourbé ».

خازوق (96), du turc قازيق, avec une orthographe plus ancienne خازق, « pal, pieu », dont le pluriel est خوازيق (Barbier de Meynard, I, p. 679; II, p. 457; Bocthor, II, p. 119, 120, 152; Ali pacha, X, p. 27; Vollers, II, p. 306; Nallino, p. 307; Dozy, I, p. 368; *Rec. de mémoires et de textes du XIV^e congrès des orientalistes,* p. 429; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 221).

خزندار (112, 126, 140, 141, 153, etc.), pluriel خزندارية (115), composé arabo-persan usité déjà au Moyen Âge (Kalkashandi, IV, p. 21, 191; Gaudefroy-Demombynes, *Syrie,* p. lxi; *C. I. A., Égypte,* I, p. 272). On écrivait alors خازندار. C'est le « trésorier, le payeur général », car tel est le titre donné à Estève (Hammer, X, p. 170; XIII, p. 17; XV, p. 18, 379; XVII, p. 42; Marcel, p. 193).

On trouve aussi خزيندار (Rustum, I, p. 106, 198, 209) et خزينه دار (Sami pacha, II, p. 390; Ghorbal, *Misr,* p. 10, 13).

Dans la Régence d'Alger, c'était le ministre des Finances (Colin, *Inscriptions arabes de l'Algérie,* p. 117).

«sergent» (*C. I. A., Égypte,* I, n° 442), avant que le mot ne prenne la signification d'«agent de police» (Vollers, II, p. 307; Nallino, p. 188, 311).

باش جاويش (17, 54, 63) sera traduit par «sergent-major» (Ghorbal, *Misr,* p. 20; Djabarti, I, p. 25, 31; Rustum, I, p. 102, 170). On lira dans Desgranges (p. 32, 129) : شاوش باشى et باش شاوش.

شاوبشية (170, 195, 197) sera le nom donné à un des corps de la milice (Ghorbal, p. 17, 19; Marcel, p. 193; *Hist. scientifique,* II, p. 418; Djabarti, I, p. 24).

Au Moyen Âge جاويشية avait une autre application (Quatremère, *Sultans mamlouks,* I, *a,* p. 136).

جبخانه (13, 38, 39, 61, 65, etc.), pluriel جبخانات (106, 109, 143, 166) et جباخانات (34, 44, 163, 202, 206), composé turco-persan, «dépôt de munitions, parc d'artillerie» (Barbier de Meynard, I, p. 522; Bocthor, II, p. 126, 129, 298; Hammer, VI, p. 48; XVII, p. 51, 223; Dozy, I, p. 169; Nallino, p. 97).

On trouve aussi l'orthographe جبه خانه, pluriel جبة خانات (Sami pacha, II, p. 349, 394; Rustum, I, p. 35, 142; II, p. 254, 499; IV, p. 44, 283).

Voir également un adjectif, مراكب جبخانية (Desgranges, p. 92).

جمارك (18), dont le singulier est جرك. — جركجى, nom de métier à la turque (6, 54).

On trouve plutôt كمرك, pluriel كمارك, et nom de métier كمركجى. Le mot dérive du bas-latin *commercium,* et signifie «douane» (Bocthor, I, p. 273, 280; II, p. 387; Dozy, II, p. 439; Barbier de Meynard, II, p. 646; Vollers, II, p. 316; Haidar Chihab, II, p. 220; Nallino, p. 139, 201; Costa, p. 8; Sami pacha, II, p. 142 : الكمارك اى المكوس, 212, 216, 226; Rustum, I, p. 29; *Rec. de firmans,* p. 349; Ghorbal, *Misr,* p. 11).

Rustum (I, p. 12; II, p. 508) procure l'adjectif جركى.

جنرال (6-8, 14-15), transcription de l'italien *generale,* s'appliquant «aux officiers de ce grade dans les armées étrangères» (Barbier de Meynard, I, p. 540; Vollers, II, p. 319) Nicolas emploie plusieurs pluriels : جنرالية (14, 46, 54, 56, 61); — جنارالية (5, 31); — جناليرية (17); — جنالارية (97). Il utilise جنرالية pour le grade de général (90-91). On trouve aussi les pluriels جنرالات (Desgranges, 59; Nallino, p. 189, 278; Sami pacha, I, p. 149); جنراليات (Desgranges, p. 34).

On rencontre le mot dans l'expression «consul général» (Rustum, II, p. 344, 509, 517; III, p. 139; Sami pacha, II, p. 518), à côté de القناصل العامون (Rustum, IV, p. 313).

Nicolas donne aussi جنانار (18), avec le pluriel جنانارية (31). C'est l'orthographe la plus fréquente (جنار) dans Haidar Chihab (II, p. 222, 224, 227),

On trouve بيوردى (Djabarti, IV, p. 83 ; Haidar Chihab, II, p. 107) ; — بيورلدى (Djabarti, I, p. 25, 43 ; IV, p. 59, 166 ; Desgranges, p. 33, 113 ; Ali pacha, XI, p. 48 ; XIII, p. 25, 26, 44 ; Sami pacha, II, p. 205, 206, 265, 276, 281 ; Rustum, I, p. 142, 156, 174, 252, au duel, 260 ; Haidar Chihab, I, p. 169) ; — بيورلايات (Sami pacha, II, p. 264) ; — بيرولدى (Sami pacha, II, p. 333, 334, 343, 371, 449) ; — بيورولدى (Sami pacha, II, p. 437).

تفكجيان (17, 54, 63), nom donné à un des corps de la milice, les «fusiliers», dont le singulier est تفكجى (Djabarti, I, p. 40, 151, 309 ; Hammer, XIV, p. 17, 79 ; XVII, p. 44, 65-66 ; Marcel, p. 193 ; *Histoire scientifique,* II, p. 418 ; Ali pacha, V, p. 76).

On trouve aussi le pluriel تفكجية (Djabarti, I, p. 32 ; Sami pacha, II, p. 36, avec la glose ارباب البنادق).

Notons les orthographes :

تفكشيان et تفكشية (Ali pacha, III, p. 57 ; IV, p. 71 ; Ghorbal, *Misr,* p. 17, 20).

توفكجى (Rustum, I, p. 141, 142).

تفنكجى (Rustum, I, p. 151 ; II, p. 442).

توفنكجى (Rustum, I, p. 123).

تفنكجيان (Desgranges, p. 129).

Le mot est dérivé du persan تفنك — توفنك, «sarbacane», puis «fusil» (Barbier de Meynard, I, p. 474, 501 ; Bocthor, I, p. 374 ; Nallino, p. 183).

On donne aujourd'hui à توفكجى le sens d'«armurier», صانع الاسلحة (*Madjallat el-djaich el-misri,* V, n° 1, *Military vocabulary,* p. 7).

توخ. — Voir طوخ.

جامكية (17, 43, 182), pluriel جوامك (126, 174, 181, 182, 183, etc.) et جوامق (183), du persan جامكى, «solde, pension», fut utilisé dans la langue administrative arabe dès le Moyen Âge (Amari, *Diplomi arabi,* p. 489 ; *C. I. A., Égypte,* I, p. 390 ; Sauvaget, *Décrets mamelouks, Bulletin d'Études orientales,* XII, p. 33 ; Bocthor, II, p. 146, 326).

La forme جكية permet de comprendre le pluriel جاكى (Ghorbal, *Misr,* p. 14, 18, 29, 32 ; Djabarti, III, p. 282, 284 ; Sami pacha, II, p. 173, 185).

On trouve aussi جاكية, pluriel جاكيات (Rustum, IV, p. 184, 497).

جاويش (58, 59) et شاويش (159, 170), du turc چاوش (Barbier de Meynard, I, p. 573 ; Hammer, I, p. 97-98, 129, 380-381 ; XVII, p. 43, 188-189, 243 ; Bocthor, I, p. 404 ; Ronzevalle, *Emprunts turcs, Journal asiatique,* 1911, II, p. 289 ; *Encyclopédie,* I, p. 849 ; III, p. 831 ; *Rec. de firmans,* p. 30, 61 ; Dozy, I, p. 169, 757). A l'époque qui nous occupe, il convient de le traduire par

بيرق (43, 56, 88), pluriel بيارق (53), du persan par le turc بايراق et بيراق, « étendard, drapeau », et le composé بيرقدار (43), « porte-drapeau » (Barbier de Meynard, I, p. 283, 358; Bocthor, I, p. 283, 328, 297; II, p. 181; Vollers, I, p. 638; Nallino, p. 189.

On trouve بيراق (Desgranges, p. 26, 54, 57, 116, 175) et Colin a noté le pluriel بوارق (*Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XX, p. 74).

بيك. — Ce titre turc (*Encyclopédie*, I, p. 706), ne nous arrêtera que pour en signaler le pluriel بيكاوات (148, 149, 162, 164), qu'on rencontre à côté de بكوات (Sami pacha, II, p. 4) et de بيكوات (Bocthor, I, p. 94; Ali pacha, XIV, p. 71). بيكوية sera la « dignité de bey » (Ali pacha, VII, p. 52, 54, 56; VIII, p. 23).

بيليك (6, 117), المراكب البيليك (7, 48), مركب البيليك (136, 175) مركبين بيليك (20), du turc بكلك, « vaisseau de guerre » (Barbier de Meynard, I, p. 308; Bocthor, II, p. 406; Dozy, I, p. 137; Kindermann, *Schiff im arabischen*, p. 96; Haidar Chihab, II, p. 220, 420; Djabarti, I, p. 60, 336; II, p. 105; Rustum, II, p. 517).

بيمارستان (108), pluriel بيمارستانات (74) : il est inutile d'insister sur ce mot persan, signifiant « hôpital » (Vollers, I, p. 638).

بين باشى (125, 126, 128, 131, 187), transcription du turc بيك باشى *bin-bachi*, « commandant de mille » (Barbier de Meynard, I, p. 561; Hammer, I, p. 128; Deny, p. 51).

On rencontre بينباشا dans Djabarti (III, p. 235), ce qui permet d'expliquer le mystérieux بينبات, qui ne peut être qu'un pluriel et qui a gêné les traducteurs et même Ali pacha (Djabarti, IV, p. 127, 297; trad., VIII, p. 286; IX, p. 285; Ali pacha, XIV, p. 72). Nallino (p. 189) note bien *binbacha*.

Les orthographes les plus fréquentes sont calquées sur la graphie turque, ce qui en a corrompu parfois la prononciation.

Ainsi : بيكباشى, pluriel بيكباشيات (Djabarti, III, p. 341; IV, p. 127; Ali pacha, IX, p. 23; X, p. 66, 98; XIV, p. 72, 101; XV, p. 25, 92; Sami pacha, II, p. 228, 392, 395);

بكباشى (Ali pacha, IX, p. 45; XIV, p. 98; Rustum, I, p. 39; IV, p. 6), avec l'accusatif بكباشياً (Rustum, I, p. 88), le pluriel بكباشية (Rustum, I, p. 44), qui sert également pour désigner le grade (Rustum, I, p. 312).

بيورديات (21); — بيلورديات (25, 56); — بيلوريديات (27). — Pluriel arabe, avec déformations, du turc بيوردى et بيورلدى, « ordre du grand-vizir » (Barbier de Meynard, I, p. 366; *Rec. de firmans*, p. 89, 346; Deny, p. 147).

obus» (Bocthor, I, p. 101 ; II, p. 99 ; Dozy, I, p. 130 ; Nallino, p. 193).

Le collectif est بنب (Djabarti, III, p. 90, 168, 261, 335, 338).

On trouve encore عبة, pluriel عبات (Sami pacha, II, p. 144 ; Marçais, *Textes arabes de Tanger,* p. 237).

بندر, pluriel بنادر (28, 194), mot persan signifiant « port » : on le trouve en arabe très tôt dans ce sens (*C. I. A. Égypte,* I, n° 286 ; Vollers, I, p. 637 ; *Encyclopédie,* I, p. 711).

En Égypte, le mot s'appliqua à un centre commercial important, et c'est ainsi que dans Nicolas le mot concerne les villes de Rosette (8, 28, 58, 102, 116, etc.), de Damiette (17, 21, 28, 194), de Mansourah (18, 23, 194) et de Méhalla (153, 194). D'après le document capital publié par Son Excellence Chéfik Ghorbal bey (*Misr,* p. 15, 35-37), il faut y ajouter un certain nombre d'autres localités.

بنديرة (145, 180), pluriel بنديرات (139, 144-146), de l'italien *bandiera,* « pavillon », transcrit en turc باندرا et فلاندرا (Barbier de Meynard, I, p. 281 ; II, p. 425 ; Bocthor, II, p. 140 ; Dozy, I, p. 118 ; Vollers, II, p. 319 ; Brunot, *Notes lexicologiques,* p. 13 ; Destaing, *Textes arabes des Chleuhs,* p. 185 ; et Ali pacha, I, p. 61 : بنديرة اى راية).

بوسطة (28), de l'italien *posta,* dont on peut noter les orthographes : بوسطة — بسطة — بستة — بوستة et le nom de métier بوسطجى (Ali pacha, I, p. 97 ; III, p. 120 ; VII, p. 67, 86 ; X, p. 27, XI, p. 94 ; XII, p. 89, 104 ; XV, p. 18 ; Sami pacha, II, p. 387, 483, 533 ; Rustum, II, p. 188, 410 ; IV, p. 347, 349 ; Vollers, II, p. 319 ; Barbier de Meynard, I, p. 416 ; Nallino, p. 151, 205-208 ; *Encyclopédie,* I, p. 825).

بوغاز (7, 20, 22, 27, 33, etc.), pluriel بواغز (27, 38), mot turc, signifiant « bras de mer, embouchure d'un fleuve, détroit, goulet, défilé » (Barbier de Meynard, I, p. 334 ; Bocthor, I, p. 110, 265, 301, 337 ; II, p. 4 ; Dozy, I, p. 128, 496 ; Vollers, II, p. 306 ; Jouannin et Van Gaver, p. 71 ; *Encyclopédie,* I, p. 755 ; II, p. 193 ; Brunot, *Notes lexicologiques,* p. 16).

On rencontre aussi بغاز, pluriel بغازات (Djabarti, I, p. 347 ; III, p. 4 ; IV, p. 23, 52, 307) ; — بوغاظ, pluriel بواغيظ (Desgranges, p. 16, 91, 92, 102, 111, etc. ; Costa, p. 12, 27 ; Haidar Chihab, II, p. 221).

Les auteurs de la *Description de l'Égypte* emploient couramment le mot « boghaz » sans le traduire.

بياده (15), d'un mot persan qui signifie « piéton ». Il est employé dans le sens de « barque à une seule paire de rames » (Barbier de Meynard, I, p. 422 ; II, p. 482).

On l'utilise aussi dans le sens d'« infanterie » (Vollers, I, p. 638 ; Deny, p. 452).

XI, p. 12), بشاوات (Sami pacha, II, p. 79, 398-400), et l'abstrait باشوية (Rustum, I, p. 317; IV, p. 4; Ali pacha, XV, p. 97).

برجاد ; — برجادا ; — برجاده (104), transcription du français «brigade», et l'expression complète جنرال دبرجاده (110), «général de brigade», ou نشيف دبرجاده «chef de brigade» permet de corriger l'énigmatique وبرجاه de Desgranges (p. 221).

برگنده (33, 34), de l'italien *brigantino* : «brigantin» (Barbier de Meynard, I, p. 296, 394).

برانيط (92, 145, 176), dont le singulier est برنيطة (Haidar Chihab, II, p. 266; Bocthor, I, p. 144; II, p. 173; Nallino, p. 224). Vollers (II, p. 312) a même noté بريطة, qu'il fait dériver du bas-latin *berretta* : le mot s'applique au «chapeau», mais il a fallu le traduire deux fois par «casque».

بريزه (39), du français *prise* (*de guerre*).

بريك (47), de l'anglais «brick» (Rustum, II, p. 374; Kindermann, *Schiff im Arabischen*, p. 7). On l'emploie en Afrique du Nord (Brunot, *Notes lexicologiques*, p. 7). En turc, بريق (Barbier de Meynard, I, p. 297).

بقماط (52, 113), du grec παξαμάδιον, «biscuit» (Dozy, I, p. 103; Vollers, I, p. 621, 637; Nallino, p. 232). Il faut noter :
 بقسماد (Rustum, I, p. 159);
 بقصماط (Sami pacha, II, p. 484, 491);
 بكسماط (Rustum, I, p. 223, 272; II, p. 370);
 بكسماد (Rustum, II, p. 257; IV, p. 400);
 بكسمات (Rustum, IV, p. 386).

بلوكات (104), du turc بولوك (Barbier de Meynard, I, p. 346). Le singulier est بلوك (Rustum, I, p. 33; *Rec. de firmans*, p. 126, 346). Le mot se trouve dans le traité de capitulation de Belliard et correspond à «régiments». Dans le passé il évolue de «division» à «escadron» et «compagnie» : c'est cette signification qui a prévalu au xixe siècle (Jouannin et Van Gaver, p. 34; Hammer, XVII, p. 46, 222; *Encyclopédie*, II, p. 610; Nallino, p. 188, 190).

On rencontre بلك, pluriel بلكات (Djabarti, I, p. 24, 35, 37, 38, 58; Ali pacha, XII, p. 84, 145; XV, p. 97).

بنبة (20, 37, 45, 135, 147), pluriel بنبات (30, 33, 39, 45, 143), ou بونبة (55), pluriel بونبات (58); on rencontre aussi بومبات (156), de l'italien *bomba*, «bombe,

انكشارى (134, 144), pluriel انكشارية (13, 19, 26, 27, 40, etc.), du turc يكيجرى (Barbier de Meynard, II, p. 883; *Recueil de firmans,* p. 150; Fagnan, p. 7; Vollers, II, p. 305), «janissaire» (*Histoire scientifique,* II, p. 418; Marcel, p. 193; Ghorbal, *Misr,* p. 21).

On trouve :

ينكشارية (Ali pacha, IV, p. 37; X, p. 102; XI, p. 22, 48; XII, p. 26; Sami pacha, II, p. 174, 323);

يكشارية (Ali pacha, I, p. 72);

يانشارية et ينشرية (Sami pacha, II, p. 71, 144, 148; Ishaki, p. 215);

نيكشاية ne peut être qu'une faute d'impression (Sami pacha, II, p. 197);

انكجار, انكجارى, pluriel انكجارية ; — اينكجار, اينكجارى, pluriel اينكجارية (Desgranges, p. 187; Costa, p. 9, 11, 12, 30, 38, 49; Bocthor, I, p. 452);

ينكجرية et ينكجارية (Haidar Chihab, I, p. 40, 45; Djabarti, I, p. 32, 206; III, p. 52, 189; Ali pacha, II, p. 10; III, p. 115; V, p. 117; VIII, p. 32, 53);

يكجرى (Rustum, I, p. 189).

بوابيج (146), pluriel de بابوج, transcription du persan پاپوش, «pantoufle», qui a donné lieu au français «babouche» (Barbier de Meynard, I, p. 368; Bocthor, II, p. 122; Dozy, I, p. 47; Ali pacha, IV, p. 29; V, p. 53).

بازابرط (78, 79), transcription de l'italien *passaporto,* «passe-port» (Vollers, II, p. 319; Nallino, p. 140).

باش, mot turc signifiant «tête, chef». On le rencontre dans les composés suivants :

باش اختيار. — Voir اختيار.

باش تبديل (125), «chef de la Sûreté».

باش جاويش. — Voir جاويش.

باش جوخدار. — Voir جوخدار.

بين باشى. — Voir ce mot.

دورناجى باشى. — Voir ce mot.

سراج باشى (178), «premier écuyer».

صراف باشى (128), «receveur des finances».

قابجى باشى. — Voir ce mot.

قبطان باشى est pour قبطان باشا (Voir ce mot).

باشا, à l'état construit باشة (147), pluriel باشاوات, (118, 121, 147, 150, 159), et باشاوية (122) signifie la «dignité de pacha».

Il n'est pas nécessaire de s'étendre sur ce titre turc (*Encyclopédie,* III, p. 1101; Deny, p. 59). Signalons seulement le duel باشاوين (Rustum, I, p. 271; II, p. 201; III, p. 348), les pluriels باشوات (Rustum, I, p. 237, 240; Ali pacha,

A côté de اغاوات (Ghorbal, *Misr,* p. 11, 14), on rencontre bien اغوات (Rustum, II, p. 12).

Le titre ou la fonction est اغاوية (Ali pacha, III, p. 68).

Voir السلام اغاسى.

افندى, mot turc emprunté au grec, pluriel افندية (65, 120), se retrouve dans les composés رئيس افندى (65, 67) et ديوان افندى (158, 159). Nicolas fait employer افندينا en parlant d'Ahmed Djezzar et du pacha d'Égypte (34, 199).

Voir : Barbier de Meynard, I, p. 82 ; Bocthor, I, p. 294 ; Vollers, II, p. 294 ; *Encyclopédie,* II, p. 4).

رئيس افندى est le titre du ministre des Affaires Étrangères de l'Empire ottoman (*Encyclopédie,* III, p. 1219).

ديوان افندى est le secrétaire privé du pacha d'Égypte (Ghorbal, *Misr,* p. 11, 13).

Sur la formule افندينا voir : Deny, *Chansons des janissaires, Mélanges Basset,* II, p. 63).

On rencontre l'accusatif افنديا (Ghorbal, *Misr,* p. 31) et le pluriel افنديات (Rustum, I, p. 156).

الاى (96), mot turc signifiant « cortège, cérémonie, pompe » (Barbier de Meynard, I, p. 101 ; Bocthor, I, p. 139, 210, 404 ; II, p. 179 ; Dozy, I, p. 32).

On lit dans Djabarti (III, p. 195) : وطاف الاى جاويش بزيه المعتاد وخلفه القابجية وهم ينادون باللغة التركيـة بقولهم يارن الاى. Nous avons de ce passage une traduction invraisemblable (VII, p. 53-54) : « Un régiment de gardes, suivi par les marins, parcourut la ville en criant en langue turque *Yarin Alay* ». Il faut comprendre : « Le héraut d'armes, en grande tenue, parcourut la ville, escorté des maîtres de cérémonie, qui proclamaient en langue turque : Demain, cortège solennel ». — Un texte parallèle a été mieux compris (Djabarti, IV, p. 127 ; trad., VIII, p. 286 ; Ali pacha, XIV, p. 72).

الشى (4, 120), du turc الجى ou ايلچى, « ambassadeur » (Barbier de Meynard, I, p. 105, 235 ; Bocthor, I, p. 33 ; II, p. 9, 242 ; Dozy, I, p. 33 ; *Encyclopédie,* II, p. 493).

La forme الجى est plus fréquente (Djabarti, I, p. 128, 184 ; II, p. 163-164 ; III, p. 229-230 ; IV, p. 23 ; Haidar Chihab, II, p. 504).

انبراطور (3-5, 47, 217), transcription d'*imperator,* « empereur ».

On le trouvait déjà au Moyen Âge (Makrizi, éd. Wiet, IV, p. 57, 322). On trouve انبراتور dans Costa (p. 1), ايمبراتور (Haidar Chihab, II, p. 432), امبراطور (Ali pacha, XVIII, p. 134, 137).

انشيف (104) et لشيف (110), transcription du français « chef ».

LEXIQUE DES MOTS ÉTRANGERS.

[Les renvois du premier paragraphe se réfèrent à la pagination du texte arabe.]

اختيار (100), mot turc, « veillard » (Barbier de Meynard, I, p. 22 ; Bocthor, I, p. 84 ; II, p. 421 ; Dozy, I, p. 416 ; Vollers, II, p. 305 ; Djabarti, II, p. 96 ; III, p. 328).

Ce mot, avec le pluriel اختيارية, aura tout naturellement le sens de « vétéran, ancien » (Djabarti, I, p. 23, 24, 37, 38, 39, 112, 180, 202, 259, 309 ; Ali pacha, III, p. 93 ; IV, p. 71 ; VI, p. 28 ; XI, p. 27 ; XII, p. 145 ; XIII, p. 44 ; XVI, p. 53 ; Sami pacha, II, p. 203, 401 ; Rustum, III, p. 370-371 ; IV, p. 345, 347 ; Ghorbal, *Misr,* p. 18, 19, 21).

باش اختيار (17, 54, 63) sera traduit par « doyen » (Djabarti, I, p. 59, 60, 113, 306 ; II, p. 96 ; Ali pacha, V, p. 91 ; VI, p. 61 ; Desgranges, p. 129 ; Sami pacha, II, p. 176 ; *Histoire scientifique,* II, p. 418 ; Marcel, p. 193 ; Dehérain, p. 39 ; Ghorbal, *Misr,* p. 18).

ارضى. — Voir عرضى

اسكلة (105-107, 175-176), pluriel اساكل (70, 105, 107, 176) de l'italien *scala,* « échelle, port, débarcadère ». On rencontre aussi les orthographes اسقالة et سقالة, ainsi que صقالة ; les pluriels اسكلات (Djabarti, IV, p. 12) et اساقيل (Djabarti, III, p. 112).

Voir : Barbier de Meynard, I, p. 55 ; Hammer, XVIII, p. 81, 107 ; Bocthor, I, p. 288-289 ; Vollers, II, p. 320 ; Nallino, p. 307 ; Dozy, I, p. 23, 660, 839 ; Kremer, I, p. 255 ; *Recueil de textes du XIVe congrès des orientalistes,* p. 441 ; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XX, p. 51, 68, 73, 202 ; Fagnan, p. 79 ; *Mille et une Nuits,* nuit 538).

La forme سكلر dérive de l'espagnol, avec le sens d'« échelle des passagers » (Brunot, *Notes de lexicologie,* p. 61).

اغا. — Ce titre turc (*Encyclopédie,* I, p. 184) n'est mentionné que pour préciser qu'on trouve, à l'état construit, اغات (13, 86, 131, 134) et اغاة (19, 26, 27, 62, 90, etc.), et que le pluriel est اغاوات (12, où il faut corriger اغوات, 77, 115, 116, 118, etc.).

Khourchid pacha[1] à intervenir auprès des officiers, afin que cet incident fût classé. Trois jours plus tard, le chancelier et Noël furent reconduits à la maison du consul, et l'affaire fut oubliée, grâce à un versement de bourses comme compensation et pourboire, grâce surtout à la protection du Seigneur des créatures.

Ici se termine le mois de rabi' II, fin du premier tiers de l'année 1219 de l'hégire (9 août 1804).

130, 146, 147, 181; trad., VII, p. 338, 342, 394; VIII, p. 110, 123, 143, 220, 224, 252-255, 257, 259, 260, 265, 272, 293, 332, 333; IX, p. 31; Mengin, I, p. 138; Douin, *Égypte de 1802*, p. 230-231, 243; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. 22, 42, 88, 94-100, 119, 134-146, 149-151, 162, 210; Guémard, p. 82, 85, 86, 101, 179; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon*, p. 80, 159; Mouriez, I, p. 182; *Rec. de firmans*, p. 25; Sabry, p. 27, 68).

[1] Sur la carrière ultérieure de Khourchid pacha, voir : Djabarti, IV, p. 308; trad., IX, p. 308-309; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon*, p. 198; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. 406; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. 7; Guémard, p. 86-87; Mengin, I, p. 182; Sami bey, *Kamous el-a'lam*, III, p. 2067; Gouin, p. 161; Sabry, p. 26; Deny, p. 80.

ERRATA.

TEXTE.

P. 12, ligne antépénultième, *au lieu de :* الاغوات , *lire :* الاغاوات

P. 106, l. 2, *au lieu de :* الطرفين , *lire :* الطرفين

P. 120, l. 5, *lire :* السارى عسكر

P. 205, l. 5, *au lieu de :* توولى , *lire :* وتولى

TRADUCTION.

P. 64, ligne 13, supprimer la virgule après *quatre-vingts*

P. 71, l. 14, *au lieu de :* institutions, *lire :* ressources

P. 78, l. 28, *lire :* assurant (60) la...

P. 150, l. 4, *au lieu de:* 1803, *lire:* 1802

P. 150, l. 7, *au lieu de:* 25 janvier, *lire:* 4 février

P. 183, l. 7, *au lieu de:* les, *lire:* le

P. 195, l. 16, *lire:* pour le peuple

P. 210, l. 13, *au lieu de:* Helli, *lire:* Hilli

tirèrent sur lui. Celui-ci prit une baguette de fusil en frappa l'un d'eux et le tua. Le second s'enfuit et donna l'alarme à ses camarades, qui se précipitèrent à la porte du quartier européen. Le médecin Royer avait pris la fuite sans qu'on sût où il s'était réfugié. Les Albanais entrèrent dans le quartier, saisirent un certain Noël, domestique du docteur Royer et se disposèrent à le mettre à mort. La nouvelle en parvint au commandant en chef Mohammed Ali, lequel arriva immédiatement sur les lieux avec des troupes et apaisa les Albanais par de bonnes paroles. Il emmena avec lui Noël, le domestique du médecin, et dit à ses soldats : « Je vais rechercher moi-même le docteur Royer et je vous le livrerai. » Les Albanais se calmèrent un peu. Mais d'autres individus se ruèrent sur la maison du consul de France, le firent sortir de force de chez lui et le menacèrent plusieurs fois de leurs armes, car ils voulaient le tuer. Ce fut un instant terrible, car on était menacé du pillage de toutes les demeures des chrétiens. Mais la Providence veillait, elle qui peut adoucir le cœur de ses créatures, même celui des soldats. Ceux-ci exigèrent du consul la remise de son chancelier comme otage en attendant qu'on ait trouvé le médecin meurtrier. Le consul leur remit son chancelier, que les soldats emmenèrent, et le consul put rentrer chez lui. Ce fut une nuit angoissante. Le lendemain, des cadeaux furent offerts à titre de pots-de-vin à Hasan bey l'Albanais[1] et à d'autres officiers pour amener

---

p. 234-236, 239-241 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 181-184, 188-189 ; Sami pacha, II, p. 190 ; Gouin, p. 135-136).

Le pharmacien Royer est célèbre par les accusations portées contre lui d'avoir fait mourir, sur l'ordre de Bonaparte, les pestiférés de Jaffa. Il fut révoqué par Menou et resta en Égypte après l'évacuation pour exercer la médecine. Il mourut en 1818 des suites d'une chute de cheval (*Histoire scientifique,* V, p. 406, 446, 448, 451-452, 456 ; Mengin, I, p. 439-440 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 5, 65 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 80 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 31, 184 ; Auriant, *Aventuriers,* p. 105 seq. ; de la Jonquière, IV, p. 575, 579, 581 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 7 ; Guémard, p. 89 ; Guémard, *Aventuriers,* p. 37 ; Forbin, p. 289 ; Balboni, I, p. 291).

[1] Hasan bey l'Albanais, plus tard pacha, frère d'Abdin bey (plus haut, p. 269) et neveu de Taher pacha, assassiné en mai 1803 (plus haut, p. 166), devait faire partie de presque toutes les expéditions de Mohammed Ali, dont il fut le gendre (Djabarti, III, p. 311, 313, 342 ; IV, p. 51, 57, 65, 99, 101, 112-114, 118,

la préfecture de Haute Égypte. Il imposa aux provinces du Delta l'envoi de six mille ardebs de blé comme secours aux habitants de la Mecque, conformément aux ordres qu'il avait reçus de la Sublime Porte : une désolante famine sévissait au Hedjaz du fait des Ouahhabites, qui bloquaient Djedda. Les Ouahhabites avaient pris Yanbo, Moueilih, et pressaient la Mecque, Médine et Djedda. C'était pour les musulmans une véritable calamité : la plupart des sédentaires du Hedjaz avaient adopté le ouahhabisme, de même que les tribus bédouines. La disette était telle que l'ardeb de blé se vendait six cents piastres grecques. La tristesse et le désespoir s'étendaient à tous, la guerre était générale, la situation devenait critique, surtout dans les régions orientales. Toutes sortes de dangers atteignaient les créatures, qui en éprouvaient des embarras croissants. Que le Très-Haut nous en préserve!

Au cours de ce mois, on apprit par des voyageurs venant d'un peu partout que Bonaparte avait revêtu la dignité impériale. Il devenait roi d'Italie et empereur de France. C'était une nouvelle extraordinaire, un événement stupéfiant, qui indiquait la puissance du succès. Dès son avènement, il prohiba le souvenir de la République et abolit toutes ses institutions ; et c'est alors que certains rois adoptèrent le titre d'empereur, qui avait été celui de César. On mesure par là la sagesse étonnante de Dieu, qui dirige les hommes à des fins dont il est seul juge. Gloire à Dieu puissant et sage, qui fait reculer celui qui se met en avant et fait progresser l'homme obscur!

[218] A la fin du mois, deux soldats albanais ivres pénétrèrent dans le quartier européen, provoquèrent un médecin français, Royer[1], et

---

[1] Ce grave incident est vivement commenté dans les rapports consulaires français et britanniques de l'époque.

Les Albanais avaient été soudoyés par un médecin grec pour assassiner Royer. Lesseps se trouvait à Alexandrie et c'est l'agent consulaire britannique qui prit l'affaire en mains. « J'ai de suite, écrit Lesseps, pris le parti de rassembler quelques armes, bijoux et autres présents. L'affaire fut assoupie et nos compatriotes sauvés pour le moment, moyennant une somme qui s'élèvera à environ huit mille piastres de 40 paras chacune. » Khourchid pacha promit d'ailleurs de rembourser cette somme (Djabarti, III, p. 307 ; trad., VII, p. 331 ; Mengin, I, p. 128-131 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 174-177 ; Auriant, *Aventuriers,* p. 125 ; Douin, *Égypte de 1802,*

d'allégresse, exprimée bruyamment par la population, mais une vérification minutieuse démontra que ce n'était pas sa tête [1].

Le 20 de ce mois (29 juillet 1804), arriva un émissaire du gouvernement ottoman, avec une suite de cent personnes. Il était porteur d'un firman adressé à Khourchid Ahmed pacha, lui ordonnant d'envoyer au Hedjaz six mille ardebs de blé pour aider le chérif de la Mecque dans sa lutte contre les hérétiques Ouahhabites. Le firman autorisait Khourchid Ahmed pacha à désigner un des officiers de l'armée, ou tout autre dignitaire à son choix : la Sublime Porte mettait à sa disposition un grade de pacha à deux queues. Il enverrait ce pacha (217) à la tête d'un détachement sur Djedda pour aider le sultan de la Mecque Ghaleb à défendre la Mecque et Médine et combattre l'hérétique.

Le 23 de ce mois (1er août 1804), les Mamlouks du nord décampèrent pour gagner la Haute Égypte.

Le 24 de ce mois (2 août 1804), après le départ des Mamlouks, le commandant en chef Mohammed Ali ramena ses troupes au Caire : il revenait en triomphateur et restaurait la prospérité, la sécurité et la tranquillité, la gloire et l'honneur. Les routes étaient sûres et s'ouvraient à la circulation; la ville était débloquée. Déjà les vivres arrivaient des villages les plus proches [2].

Le 27 de ce mois (5 août 1804), Khourchid pacha nomma son chancelier pacha à une queue et préfet de Djedda à la place de Chérif pacha, mort dans l'année : il s'appelait Ali pacha. Il confia à Hasan bey l'Albanais

---

312, 317, 346-348, 355, 369, 370, 426, 435 ; II, p. 75-76 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 54-55, 190, 193, 194, 250, 262, 263, 268, 271, 287, 288, 297, 341, 364, 365, 423, 429, 436, 440, 449 ; X, p. 123 ; Gouin, p. 109, 111, 183, 202, 203, 207, 209, 216, 339 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 63-66, 84, 107, 118, 238, 241-242 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 320 ; Mouriez, I, p. 183 ; Sami pacha, II, p. 221-223, 255 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 88, 96, 103, 118, 120, 129, 144, 146, 151, 162, 168, 171, 182, 188, 190 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 132, 161, 174 ; Guémard, p. 87-89, 92 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 6, 33, 55, 69, 74, 81, 85, 93, 115, 158 ; Weygand, I, p. 52 ; Guémard, *Aventuriers,* p. 24-28, 38 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 171 ; *Encyclopédie,* II, p. 463-464 ; *Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XV, p. 190-192, 195, 198).

[1] Djabarti (III, p. 306 ; trad., VII, p. 328) donne les mêmes détails.

[2] Cf. Mengin, I, p. 127-128 ; Gouin, p. 135.

perdu beaucoup de cavaliers : dans cette bataille, les Arabes ne leur avaient été d'aucune utilité. Les Albanais et les Seymens avaient eu trois cents tués, sans compter les blessés. Le combat s'était déroulé à Miniet el-Siradj, à une heure du Caire. Il ne ressemblait pas à ceux qui l'avaient précédé : c'était vraiment la fin. Les Albanais rentrèrent au Caire abattus et fourbus, à la fois par les efforts de la lutte et cette chaleur insupportable. Après leur retour en ville on apprit que Hosein bey le Juif se trouvait à Choubra el-Makkasa à la tête d'un corps de cinq cents individus du Takrour et de Grecs : c'était un homme plein de courage et de ténacité. Les troupes repartirent dans l'après-midi même à Miniet el-Siradj, à l'endroit où elles avaient campé le matin. Elles attaquèrent dans la nuit et un violent combat s'engagea. Tous les hommes y prirent part : ce héros remarquable leur donna du fil à retordre et, par son feu nourri, désarçonna nombre de cavaliers. La bataille dura toute la nuit et ne se termina qu'au matin. Hosein bey [1] dut s'enfuir et ses hommes se dispersèrent dans les plaines et les déserts : il avait perdu beaucoup d'hommes et la fortune l'abandonnait définitivement. Ceci se passait le 15 du mois (24 juillet 1804). Il alla rejoindre l'émir Ibrahim bey et les autres mamlouks du nord. Ce fut une défaite écrasante pour les Mamlouks. Les Albanais revinrent le lundi matin tout réjouis; ils apportaient avec eux un certain nombre de têtes et croyaient même avoir celle d'Ibrahim bey [2]. Ce fut en ville une véritable explosion

---

[1] Le « féroce et trop fameux Hosein surnommé le Juif » resta dans l'ensemble dévoué à la France et, en tout cas, sur son influence, les Mamlouks refusèrent d'aider les Anglais en 1807. On ignore la date de sa mort, qu'on avait faussement annoncée en 1219/1805 (Hasan, dans la traduction de Djabarti, est une erreur des traducteurs).

Cf. Djabarti, III, p. 273, 306, 317; trad., VII, p. 248, 328, 351; Guémard, p. 85-86, 100; Mengin, I, p. 58, 149-150, 291; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 82, 171, 181-182, 190; Douin et Fawtier-Jones, *Campagne de 1807,* p. lxi-lxii; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 132, 175; *Histoire scientifique,* IX, p. 193-194.

[2] Ibrahim bey est le vétéran des Mamlouks : il finit par s'exiler à Dongolah, où il mourut en 1231/1816 (Djabarti, III, p. 207, 224, 228, 302, 343; IV, p. 49, 60, 61, 73, 74, 112-114, 117, 118, 263, 264, 279; trad., VII, p. 84, 117, 128, 320, 396; VIII, p. 104, 129-131, 160, 250-255, 266, 267; IX, p. 175, 177, 184, 209-211, 244; Mengin, I, p. 18, 21, 120, 131, 135, 145, 188, 193, 201, 204, 211, 230, 232, 244, 253, 266, 290, 293, 294,

qu'accompagnaient des bandes d'Arabes. Le commandant en chef Mohammed Ali, ce héros indomptable, se précipita comme un lion furieux à la tête des Albanais et des Seymens, drapeaux déployés, les hommes furent mis en place pour le combat, les corbeaux du malheur poussèrent leurs cris sinistres, et les cavaliers s'avancèrent sur le champ de bataille, les braves se montrèrent en plein jour et se lancèrent sur leurs coursiers de race pour la charge et la mêlée, les canons tonnèrent avec un vacarme assourdissant. Les deux partis s'entre-choquèrent, les deux armées se confondirent, les os furent brisés sous le jeu des lances d'acier, les crânes volèrent chez les Arabes et leurs rivaux, le sang inonda les sables. Les coups pleuvaient dans cette lutte qui dura six heures. C'était par une journée de chaleur accablante, car on se trouvait au 10 juillet, une canicule à faire tarir l'eau dans les cruches, à vous couper la respiration, et les guerriers les plus exaltés étaient las de combattre. Les Albanais formaient une masse qu'on pouvait évaluer, sans exagération, à quatre mille combattants : en face d'eux les Mamlouks n'étaient guère qu'un millier, sans compter leurs satellites arabes. Ils ne purent tenir devant la fougue de ces champions et (216) s'enfuirent jusqu'à Bahtim, après avoir

---

307-310; Mengin, I, p. 18, 21, 115, 116, 124, 125, 131, 132, 135, 143, 144, 149, 151, 153, 174, 178, 204, 210-212, 230-233, 235, 244, 248-252, 426, 430, 431, 435; Mouriez, I, p. 88-90, 92, 93, 119-121, 183; Gouin, p. 109-111, 113, 157, 163, 179, 180; Ali pacha, I, p. 66; XV, p. 99-100; Sami pacha, II, p. 203; Douin, *Égypte de 1802*, p. 26, 53-55, 62, 64-66, 76, 77, 84, 107, 118, 124-126, 230, 232, 233, 236, 238, 241, 242; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. iv, xxiii, xxiv, xxix, 124, 131, 320; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 30-31, 132, 168, 174, 175, 298, 299; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. xxx, 7, 24, 27, 35, 37, 38, 40, 57, 73, 74, 76, 82, 85, 86, 88, 96, 105, 114, 117, 118, 120, 121, 123, 127, 129-133, 144, 147, 149, 172, 182, 211; Guémard, p. 89, 91, 100; Sammarco, *Regno*, I, p. 132; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 14; Weygand, I, p. 52; Sabry, p. 25, 27; Dehérain, p. 79).

Legh, qui a visité les beys mamlouks en Nubie, nous dit qu'un de leurs principaux chefs, « Othman bey Bardisi, avait prêté le serment de ne jamais se couper les cheveux ou de se raser la barbe avant de rentrer triomphalement au Caire » (Prince Toussoun, *La fin des Mamlouks*, *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XV, p. 200). La réflexion ne vaut que pour Othman bey Hasan (voir plus haut, p. 140) et non pour Othman Bardisi, mort auparavant.

Jeune[1]. Ils établirent leur camp et plantèrent leurs tentes derrière le mont Guiouchi. Ils attaquèrent les tours qui défendaient Toura et les enlevèrent (215) aux Albanais. Ce fut un beau tumulte en ville, car les Mamlouks investissaient la capitale de plus en plus. Le commandant en chef Mohammed Ali rappela ses troupes du nord et assaillit en pleine nuit les Mamlouks retranchés dans la tour de Toura. Ceux-ci ne purent résister et abandonnèrent cet ouvrage : cinq têtes furent rapportées en trophées. A partir de ce moment les Mamlouks du sud éprouvèrent des revers. Le commandant en chef Mohammed Ali fit une entrée triomphale à la Citadelle : de nombreuses salves d'artillerie et des réjouissances publiques marquèrent son retour. On était au 6 rabi' II (15 juillet 1804).

Les Mamlouks du nord qui venaient d'être refoulés par les Albanais n'avaient aucun rapport avec ceux du sud : ils étaient même la meilleure preuve de la désunion. D'autre part, il parut évident que leur cause devenait mauvaise, car ils ne purent dès lors réaliser des progrès ni obtenir de succès. La population du Caire manquait toujours de vivres et ces combats incessants la jetaient dans de grandes alarmes. La situation était tragique, car tout commerce était suspendu et les Cairotes devenaient pauvres et misérables. Tous suppliaient Dieu de rassurer les esprits et d'éloigner ces malheurs.

Le dimanche 14 de ce mois (23 juillet 1804), on vit s'avancer les Mamlouks du nord[2], commandés par les émirs Ibrahim bey et Othman bey Bardisi[3], que secondaient le reste des beys et des kachefs et

---

[1] Mohammed Elfi le Jeune continua la lutte contre Mohammed Ali et mourut en 1220/1805 (Djabarti, III, p. 252, 305, 341, 351, 395 ; IV, p. 31, 33, 43 ; trad., VII, p. 193, 304, 305, 326, 393, 416 ; VIII, p. 68, 73, 91-92 ; Mengin, I, p. 201 ; Mouriez, I, p. 168 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 7-9, 15, 20, 21, 27, 55, 72, 74).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 305-307 ; trad., VII, p. 329-330 ; Haidar Chihab, II, p. 428-429.

[3] Othman Bardisi resta en rapport avec les agents français, hostile à la fois à Mohammed Ali et Mohammed bey Elfi. A la fin, il joua la carte anglaise, tout en gardant des contacts avec Lesseps et Drovetti. Il mourut en 1221/1806 (Djabarti, III, p. 198, 224, 228, 302, 308 ; IV, p. 17, 20, 26, 42-43 ; trad., VII, p. 62, 117, 128, 320, 331 ; VIII, p. 36, 43, 56, 88-91 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 52, 53, 55, 188-191, 194, 196, 197, 255, 262, 263, 271, 287-289, 294, 296,

lesquelles, après bien des palabres, furent réduites à mille quatre cent quarante. Ils furent relâchés et commencèrent leurs démarches pour les recueillir : ce fut pour les Coptes la pire des angoisses.

Au cours du mois, on apprit que huit cents Délis Kurdes [1], venant de Syrie, étaient en marche pour renforcer la garnison du Caire. Les Mamlouks, ayant eu vent de la chose, se mirent en devoir de leur barrer la route, et comme ces Délis ne purent réussir à forcer le blocus, ils rebroussèrent chemin sur la Syrie. Les Mamlouks revinrent se fixer à Chalakan, au nord du Caire. Le Commandant en chef Mohammed Ali, qui connut leur retour, envoya un corps contre eux.

Ainsi passa le mois de rabi' I. Au début du mois de rabi' II, les combats s'intensifièrent entre les Mamlouks et les Albanais au nord du Caire : les Mamlouks furent contraints de se replier.

Le 3 (12 juillet 1804), les avant-gardes des Mamlouks du sud arrivèrent jusqu'à Toura [2] : ils étaient commandés par l'émir Othman bey Hasan [3] et Bechtak bey, qu'on appelait Mohammed bey Elfi le

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 302-303 ; trad., VII, p. 321-323 ; Mengin, I, p. 122.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 302-305 ; trad., VII, p. 320-323, 325, 328 ; Mengin, I, p. 123-124 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 228, 232-233.

Une citadelle avait été fondée à Toura par Ismaïl bey le Grand en 1203/1789, puis elle avait été utilisée par les Français (Djabarti, II, p. 172 ; trad., V, p. 53-54 ; de la Jonquière, II, p. 343, n. 2 ; *Histoire scientifique,* IV, p. 209).

[3] Othman bey Hasan avait, nous l'avons vu, continué la lutte contre les Français, puis il se battit contre Mohammed Ali, Il mourut en Nubie en 1813 (Djabarti, III, p. 221, 223, 308, 311, 341, 351 ; IV, p. 46, 48, 49, 101, 114, 246 ; trad., VII, p. 110, 114, 331, 357, 394, 417 ; VIII, p. 98, 103, 104, 112, 224, 255 ; IX, p. 175 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 190, 194, 248, 253, 271, 282, 311, 312, 323, 324, 341, 423, 424, 440, 449 ; X, p. 123 ; Mengin, I, p. 131, 135, 140, 144, 145, 149, 185, 186, 203, 204, 211, 230, 244, 253, 266, 284, 341 ; II, p. 74 ; Gouin, p. 163, 209, 216 ; Mouriez, I, p. 92, 167, 183 ; Guémard, p. 87-88 ; Guémard, *Aventuriers,* p. 38 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 222, 224, 241 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 73, 74, 82, 86, 142, 146, 151, 162, 182 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xxiii-xxiv ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 132, 168, 170, 173 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 55, 68, 85, 115 ; Prince Toussoun, *Fin des Mamlouks, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XV, p. 190, 192, 195, 198 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 132).

bey [1], Mohammed bey Mabdoul [2], Moustafa agha Ouakil [3], Ali kachef Saboundji [4] : les trois premiers furent mis au cachot à la Citadelle ; aux deux autres une caution fut demandée. Ils versèrent finalement cent cinquante bourses [5].

Le 15 de ce mois (24 juin 1804), arriva une somptueuse pelisse de la part de la Sublime Porte, qui envoyait en outre un firman. Khourchid pacha s'en revêtit, et ce furent de nouvelles réjouissances publiques, accompagnées de salves d'artillerie.

Le 19 (28 juin 1804), le pacha tint un grand divan à la Citadelle [6], auquel furent convoqués les officiers des Albanais, des Seymens et des janissaires, les administrateurs, les ulémas, les notables, les officiers de la milice et une vingtaine d'intendants coptes de province. On donna lecture des firmans expédiés par la Sublime Porte. Après cette formalité, de nombreux coups de canon furent tirés. On fit apporter de riches pelisses, dont furent gratifiés les officiers, les ulémas, les notables, les administrateurs, les aghas de la milice et les officiers de la prévôté. Les Coptes furent mis aux arrêts et requis de payer quatre mille bourses,

---

[1] Abd el-Rahman bey Tanbourdji se réfugia en Nubie et ne fut jamais gracié par Mohammed Ali (Djabarti, IV, p. 112, 246, 310 ; trad., VIII, p. 251 ; IX, p. 175, 314 ; Mengin, II, p. 195 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 198, 201 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 189-190 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 139 ; Sami pacha, II, p. 255 ; Prince Toussoun, *Fin des Mamlouks, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XV, p. 198, 201).

[2] Mohammed Mabdoul, mourut en 1223/1808 et fut enterré au Caire dans la mosquée qu'il avait fait construire au sud du palais actuel d'Abdin (Djabarti, III, p. 93, 207, 287, 343 ; trad., VI, p. 178 ; VII, p. 84, 286, 397 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 116, 403 ; Ali pacha, I, p. 66 ; III, p. 88-90 ; V, p. 108).

[3] Cf. Djabarti, III, p. 296, 340, 342, 350, 351 ; IV, p. 46, 59, 112 ; trad., VII, p. 308, 391, 410, 414, 416, 417 ; VIII, p. 98, 126, 250 ; Mengin, I, p. 198.

[4] Cf. Djabarti, III, p. 317, 348, 350, 351 ; IV, p. 22, 46, 59, 74, 78, 112 ; trad., VII, p. 372, 410, 414, 416, 417 ; VIII, p. 48, 98, 126, 160, 171, 250 ; Mengin, I, p. 198.

[5] Cf. Djabarti, III, p. 295, 308 ; trad., VII, p. 306, 317, 319 ; Sami pacha, II, p. 189.

[6] Cf. Djabarti, III, p. 301 ; trad., VII, p. 317-318 ; Mengin, I, p. 118-119.

maître du trône de Constantinople et chef de la famille ottomane, pour le supplier de repousser les Ouahhabites du saint Temple. Si des secours immédiats n'étaient pas envoyés pour défendre la Maison de Dieu, il serait obligé de la livrer, ainsi que la ville de Djedda et tout le territoire du Hedjaz.

L'on passa du mois de safar au mois de rabi' I. On sut que l'émir Mohammed bei Elfi [1] et l'émir Othman bey Hasan s'avançaient du sud à la tête de leurs troupes et de bandes nombreuses d'Arabes [2]. La capitale et l'armée turque furent affolées à l'idée de soutenir un assaut, que laissait présager l'union de ces odieux Mamlouks. Son Excellence le vizir Khourchid pacha (214) fit appréhender Omar bey [3], Abd el-Rahman

---

[1] Plus ou moins soutenu par la diplomatie anglaise, Mohammed Elfi continua à s'opposer à Mohammed Ali, tout en restant hostile aux autres beys mamlouks, notamment à Othman Bardisi. Des négociations entamées entre Mohammed Ali et lui n'aboutirent jamais. Mohammed Elfi mourut subitement en 1807, quelques semaines avant le débarquement des Anglais à Alexandrie (Djabarti, III, p. 192, 199, 200, 221, 224, 228, 287, 288, 302, 303, 306, 311, 328, 330, 339, 341, 346; IV, p. 3-5, 7-11, 14-18, 20-22, 26-43; trad., VII, p. 43, 63, 67, 117, 128, 129, 286, 287, 320, 322, 323, 329, 337, 370, 373, 389, 393, 405; IX, p. 7-10, 14, 15, 19, 21, 23, 24, 26, 32-36, 38, 43, 45, 47, 56-91; Mengin, I, p. 21, 117, 265, 430-431, 435, 444; Mouriez, I, p. 90, 92, 93, 168, 171, 183; *Histoire scientifique,* IX, p. 14, 52-55, 188-190, 228-232; Gouin, p. 109, 111, 112, 162-164, 166, 169, 170, 180-183; P(risse) et H(amont), p. 5; Ali pacha, XI, p. 24, 26-34; XV, p. 94; Sami pacha, II, p. 195, 198, 203; Guémard, p. 88-91; Guémard, *Aventuriers,* p. 22; Douin, *Égypte de 1802,* p. 223-224, 238, 241, 244; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 7, 8, 20, 21, 24, 27, 28, 32, 34-41, 46, 49, 53, 56, 59, 61, 64-67, 69, 72, 74-79, 82, 83, 86, 87, 88, 92, 94, 95, 99-104, 106-121, 123-126, 128-131, 133, 138, 140, 142-144, 146, 149-152; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xxiii-xxv, xxix, 150, 320; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 168, 170, 173, 175, 176, 275-277, 280-282, 284, 285, 288-290, 295-297, 302-307, 310, 312-326; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 7, 14, 26-27; Weygand, I, p. 52; Sabry, p. 25, 27).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 299; trad., VII, p. 314-315; Douin, *Égypte de 1802,* p. 224-225.

[3] Omar bey Achkar Ibrahimi (Djabarti, III, p. 279, 285; trad., VII, p. 263, 279-280).

présence, un hérault (213) en donna lecture. Le décret rassurait complètement la population en annonçant que le prélèvement financier était annulé : « Conformément à ce firman, nous vous accordons toute sûreté et vous invitons à cesser toute opposition et toute hostilité. Ouvrez les boutiques et rentrez dans vos foyers en toute confiance. » Cet appel fut lu dans toutes les artères de la cité.

Le mardi 19 (1er juin 1804), les habitants rouvrirent les magasins, les affaires reprirent leur cours normal et l'ensemble des habitants retrouva son calme.

Le 22 de ce mois (4 juin 1804), la troisième queue [1] fut remise solennellement à Khourchid Ahmed pacha, ce qui donna lieu à des réjouissances publiques et à de multiples salves d'artillerie.

Cependant les Mamlouks accentuaient leur étreinte, car ils tenaient toutes les voies d'accès à la capitale, par terre et par le fleuve.

A la fin du mois, on apprit la mort de Chérif pacha [2], préfet de la ville de Djedda, et de l'émir Mahmoud Djaouich, l'émir égyptien du pèlerinage, dont nous avons déjà parlé. Tous deux avaient été empoisonnés par le chérif de la Mecque, Ghaleb. On reçut aussi des informations au sujet de la marche de Taïf sur Djedda des armées d'Abd-el Ouahhab : elles étaient entrées à Djedda à la suite d'une bataille terrible. Elles en furent chassées par quatre Anglais, grâce à une canonnade et une fusillade intenses. Les Ouahhabites revinrent à Taïf. C'était une désolation pour le monde musulman que ces Ouahhabites deviennent très forts au Hedjaz. Le chérif de la Mecque Ghaleb écrivit au sultan Sélim,

---

217, 220, 241, 244, 245, 268, 276, 278, 279, 286, 307, 313, 324, 332, 334 ; II, p. 246-247 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 211-219, 230, 269, 359, 365, 413, 414, 416 ; Paton, II, p. 27-28 ; Ali pacha, I, p. 65, 68 ; XI, p. 24 ; XVII, p. 11 ; Sami pacha, II, p. 193-195, 203, 204, 215-218, 236, 277 ; Sabry, p. 25-26, 28, 31 ; Guémard, p. 87 ; Gouin, p. 144, 154, 172, 177, 178, 188, 205, 206, 330 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* XV, p. 35, 45, 112, 116, 119, 137, 161, 162, 210, 211 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xlii, 181, 216 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 160 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 67 ; Shafik Ghorbal, p. 279 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 211, 220).

[1] Cf. Douin, *Égypte de 1802,* p. 223.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 299-300 ; trad., VII, p. 315.

illustre champion de sa politique. *Avant comme après, les choses dépendent de Dieu*[1]. Gloire à Lui, Puissant et Permanent !

Mais il est temps de revenir au fil de notre récit, à la situation du Caire. Les dimanche 17 et lundi 18 de ce mois (30-31 mai 1804), les boutiques de la ville étaient restées fermées à cause des exigences fiscales du gouverneur. Ce dernier jour, on remarqua en ville des signes évidents de soulèvement de la population contre le pacha et l'armée. On voyait des groupes se former qui parcouraient les rues : de leur côté, les troupes se laissaient gagner par l'inquiétude et cherchaient à se dérober. Le pacha s'en rendit compte et convoqua les ulémas :

— Qui pousse la population à l'émeute ? demanda-t-il.

— Ils regimbent à cause de la gêne qui pèse sur eux par suite du blocus de la ville, de l'interception des routes, de la pénurie des denrées. En outre ils ont appris que Son Excellence le vizir leur demande de l'argent. C'est pourquoi ils se sont levés comme un seul homme contre vous, contre l'armée et contre nous-mêmes. A nous tous, nous serons incapables de les ramener au calme et nous ne savons guère quelles mesures il convient de prendre à leur égard.

Le pacha eut d'autant plus peur de cette rébellion que les Mamlouks cernaient la ville de plus belle ; il craignait que la population soit de connivence avec les Mamlouks, ce qui aurait été la pire des catastrophes. Selon ses ordres, un firman fut immédiatement rédigé pour donner tous les apaisements voulus. Ce document fut remis au saiyid Omar Makram[2], le syndic des chérifs. Omar descendit de la Citadelle et, en sa

---

[1] *Coran*, xxx, 3.

[2] Omar Makram, révoqué de ses fonctions de syndic des chérifs, les reprit après le départ des Français. Il eut de tout temps une influence considérable sur la population et soutint Mohammed Ali. Il fut l'âme de la résistance aux Anglais en 1807. Il finit par encourir la défaveur de Mohammed Ali, qui le bannit à Tanta, puis lui pardonna : il rentra au Caire (Djabarti, III, p. 91, 98, 104, 107, 186, 189, 247, 328-334, 336-340 ; IV, p. 3, 4, 6, 7, 9, 32, 53, 87, 88, 96-101, 142, 193, 194, 300-301 ; trad., VI, p. 175, 189, 199, 206 ; VII, p. 29, 36, 233, 370, 372-374, 376-380, 383, 386, 388, 389, 392 ; VIII, p. 10, 14, 46, 20, 70-71, 192-193, 212-223, 321 ; IX, p. 55-57, 291-293 ; Mengin, I, p. 158, 161, 163-172, 174, 175, 179, 180, 184, 185, 209, 213, 216,

le décès d'Ahmed pacha Djezzar [1] : il remontait au 26 du mois sacré de moharram 1219, qui correspond au 25 avril [2] 1804 (7 mai 1804). Lorsqu'il avait été à l'article de la mort, il avait fait sortir de prison un de ses ministres [3], Ismaïl pacha Djazaïrli, qu'il venait de faire incarcérer ; il calma ses appréhensions et le nomma son intendant avant que la Sublime Porte n'eût vent de sa fin prochaine. Il fit payer intégralement les soldes de ses troupes et mourut le lundi 26 moharram 1219, correspondant au lundi de Pâques des chrétiens, soit le lundi 25 avril, comme nous venons de le dire. Un personnage considérable venait de quitter ce monde, une grande idole était tombée : les habitants (212) de Damas, de toutes confessions, en furent tout joyeux. La nouvelle se répandit comme une fusée. C'était un homme menteur, rusé, hypocrite, qui avait pillé les fortunes, bouleversé les situations, versé le sang. Sa tyrannie était exaspérante ; les moindres supplices consistaient pour lui à faire couper des oreilles, crever des yeux, mutiler des nez [4] ; il fit exécuter des gens par milliers. Combien créa-t-il d'orphelins, quelles sommes d'argent n'amassa-t-il pas ! Il fit mettre à mort une multitude de gens qui lui avaient été dévoués ; beaucoup de grandes familles s'éteignirent sous son règne ; et l'un de ses forfaits les plus odieux fut de tuer ses propres femmes. Ce vizir était âgé de soixante-quinze ans : il avait gouverné Saint-Jean-d'Acre et Damas pendant vingt-huit années lunaires et demie. Le gouvernement ottoman le regretta, car il perdait avec lui un de ses plus fermes appuis et une des plus grandes notabilités de la patrie, un

---

[1] Voir ci-dessus, p. 270 et Djabarti, II, p. 203 ; III, p. 321-322 ; IV, p. 266-267 ; trad., V, p. 117 ; VII, p. 359-362 ; IX, p. 216-219 ; Mengin, I, p. 113, 417-420 ; *Histoire scientifique,* V, p. 226-241 ; *Précis,* III, p. 209 ; *Encyclopédie,* I, p. 1063 ; Sami bey, *Kamous el-a'lam,* III, p. 1783 ; Savant, *Les mamelouks de Napoléon,* p. 45-46 ; Forbin, p. 71 ; *Description de l'Égypte,* XV, p. 349-351.

[2] Ancien style.

[3] Le consul d'Angleterre en Égypte écrit le 28 mai : « Even in his last moments he manifested his inimical sentiments towards the Porte, by appointing a rebellious pacha for his successor » (Douin, *Politique mameluke,* II, p. 160).

[4] On lit dans un journal du siège de Saint-Jean-d'Acre : « Les paysans ont amené un homme dévoué à Djezzar ; c'était un coupeur de nez et d'oreilles » (de la Jonquière, IV, p. 389).

pas de refus.» Les ulémas insistèrent : «Tous les habitants, dirent-ils, se trouvent dans une gêne extrême et ne possèdent pas d'espèces; ils ont des marchandises que personne n'achète et qu'en tout cas on ne leur paie pas comptant, car l'argent fait défaut, par suite des pillages consécutifs dont ils sont les victimes depuis six années. La population s'est très appauvrie et nous sommes à même de constater qu'elle n'est pas en état de payer. — Je ne demande rien aux pauvres, s'obstina à répliquer le vizir. Allez les rassurer.»

Un héraut parcourut les rues de la ville pour proclamer la sécurité, inviter à cesser toute obstruction et à rouvrir les boutiques. Ceci se passait dans l'après-midi du dimanche 17. Le lendemain lundi 18 (31 mai 1804), les magasins restèrent clos. La population toute entière se sentait envahir par la crainte et l'angoisse. Les Mamlouks avaient constitué un réseau continu autour de la ville : la famine sévissait sur les pauvres et les malheureux. Quelles journées pathétiques, avec leur cortège de révoltes et d'émeutes, de dangers et de périls, pour toute la population! Les passants paraissaient comme ivres sans avoir bu de vin : ils étaient atterrés du défaut de numéraire, de l'excès des exactions et des amendes, du manque de pitié au sein de cette affreuse détresse, de l'absence de sécurité et de tranquillité. Le mensonge régnait en maître et personne n'osait demander à son voisin : «Où vas-tu?»

Dans l'intervalle, quelques lettres envoyées de Syrie avaient confirmé [1]

[1] On a vu que la mort de Djezzar avait déjà été annoncée, et il est curieux de se référer à la correspondance consulaire française de cette époque : «Le 17 mai, il est arrivé au Caire un dromadaire qui a annoncé la mort de Djezzar pacha; on dit que sa mort a été longtemps cachée à ses troupes par le moyen d'un cheikh qui prétendait le guérir par ses prières. Après l'avoir embaumé on le présentait de temps à autre à sa fenêtre. Mais après un mois d'incertitude, ses troupes ont voulu voir quelle était l'efficacité des prières du cheikh qui avait fermé les portes de la chambre du pacha; elles ont été enfoncées et les soldats, voyant qu'il était mort, mirent en pièces l'imposteur auteur de cette fourberie. Malgré l'arrivée du dromadaire au Caire, je ne croirai réellement à la mort du pacha que quand la nouvelle en sera confirmée par voie de Damiette, d'où je viens de recevoir un exprès porteur de lettres de notre agent qui n'en fait point mention» (Douin, *Égypte de 1802*, p. 217-218).

l'intéressé commença à verser. Puis il s'en prit aux fermiers généraux, aghas et officiers de la milice, à d'autres encore, dont il exigea mille bourses. Le saiyid Ahmed Mahrouki [1], dont nous avons signalé l'importance comme administrateur de la ville, fut invité à imposer cinq cents bourses aux habitants, notamment aux négociants. Il obtempéra et fit ses premières démarches, mais les Cairotes fermèrent leurs boutiques. Ceci se passait le 17 de ce mois (30 mai 1804). Saisis d'angoisse, les habitants se mirent d'accord pour résister et déclarèrent : « Nous ne pouvons rien payer, la vie misérable que nous endurons nous met à bout. » Les ulémas repartirent trouver le vizir Khourchid Ahmed pacha pour lui dire : « La population est dans l'incapacité de donner de l'argent. Elle n'en possède pas. Ils ne font pas preuve de mauvaise volonté, mais ce sont de pauvres diables, accablés par la disette, la faim, l'interruption des transactions commerciales, l'impossibilité des communications par suite des routes interceptées. » Le pacha répondit : « Je n'exige rien de ceux qui se débattent contre la misère, (211) mais je m'adresse à ceux qui peuvent très bien m'avancer ces sommes. Sans doute je n'éprouverai

---

[1] Ahmed Mahrouki, du fait de son hostilité marquée contre les Français, eut une grande influence après leur départ. Il mourut subitement en 1219 : il était alors directeur de l'hôtel des Monnaies et syndic des négociants (Djabarti, III, p. 181, 189, 190, 197, 225, 283, 293, 313, 323-325 ; IV, p. 155 ; trad., VII, p. 18, 36, 39, 57, 120, 174, 300, 343-344, 362-366 ; VIII, p. 349 ; Mengin, I, p. 135, 183, 386 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 18, 21 ; Ali pacha, III, p. 42 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 134-135).

Il faut citer le jugement du chargé d'Affaires de France à Constantinople au moment de son décès : « Ce personnage est très connu par sa haine contre la France et par ses intrigues. A la bataille d'Héliopolis, il parvint à jeter un parti dans le Caire pour insurger le peuple. Puissant par ses richesses et son crédit, il a joué un grand rôle dans toutes les révolutions qui se sont succédé en Égypte. Plus fort dans l'opinion publique que le Pacha, c'est lui qui réglait les intérêts des habitants de la capitale, pour ainsi dire ses tributaires. Au dehors, l'étendue de ses liaisons lui donnaient aussi une prépondérance marquée. Les tribus d'Arabes répandues dans l'isthme étaient les instruments dont il se servait pour sa correspondance politique et commerciale. En Palestine et en Syrie, il a laissé des richesses immenses. Comme j'ai eu l'honneur de le mander, on le croit empoisonné » (Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. 1, 3-5).

Kilardji[1], Solaiman bey Mourad[2] et quelques autres. Ainsi les Mamlouks formèrent dès lors une famille unie, et c'est pourquoi l'armée du Caire était très inquiète, que les ulémas et la population commençaient à prendre peur, parce que tous connaissaient le courage indomptable des Mamlouks. L'armée n'avait nulle envie d'entrer en campagne, bien qu'on ne cessât de l'exciter à combattre les Mamlouks, pour les rejeter loin du Caire et débloquer la ville. Or les troupes redoutaient ces sorties. C'est ce qui avait poussé le vizir à faire arrêter les femmes des Mamlouks, ce qui l'avait incité aussi à résider dans la Citadelle pour échapper à l'émeute ou à la trahison de l'armée ou de la population. La capitale vivait dans l'attente du pire puisque les lignes mamloukes constituaient une barrière infranchissable à l'est et à l'ouest.

Le 12 de ce mois[3] (23 mai 1804), le vizir manda le chef des Coptes, le sieur Guirguis Gauhari[4], pour lui extorquer cinq cents bourses, que

---

[1] Ahmed Kilardji périt lors du massacre de 1811 (Djabarti, IV, p. 128, 131; trad., VIII, p. 288, 295; Mengin, I, p. 367; Sami pacha, II, p. 229; Ali pacha, I, p. 70).

[2] Solaiman bey Mourad resta l'adversaire de Mohammed Ali et mourut en 1222/1807 (Djabarti, III, p. 284, 296-297, 347; IV, p. 48, 77-78; trad., VIII, p. 284, 308-309, 408; IX, p. 103, 169-170; Mengin, I, p. 112, 149, 178, 180, 244, 268, 269, 274, 316; *Histoire scientifique,* IX, p. 194, 332; Douin, *Égypte de 1802,* p. 221, 222, 224, 242; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 8, 27, 37, 38, 49, 63, 96, 124, 142, 149, 159, 161, 167; Douin, *Politique mameluke,* II, p. xxii; Gouin, p. 162; Sammarco, *Regno,* I, p. 138).

[3] Cf. Djabarti, III, p. 297; trad., VII, p. 309-310; Mengin, I, p. 163; Sami pacha, II, p. 188.

[4] Guirguis Gauhari fut une grande personnalité copte. Il fut en faveur sous les Français. Au moment de la révolution qui chassa Mohammed Khosrau pacha, on avait annoncé sa mise à mort. Sa situation l'exposait beaucoup et c'est ainsi que Mohammed Ali lui extorqua de l'argent à plusieurs reprises (Djabarti, III, p. 196, 293, 333, 341, 343-346; IV, p. 101, 107, 122, 125-126; trad., VII, p. 56, 300, 379, 393, 397, 400-402, 405; VIII, p. 225, 240, 275, 283-284; Mengin, I, p. 183, 192, 193, 341; Desgranges, p. 30; Rigault, p. 114; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 170; Sami pacha, II, p. 196-197; Ali pacha, VI, p. 72, 86; Bréhier, p. 94; Guémard, p. 273; Douin, *Égypte de 1802,* p. 55; Sammarco, *Regno,* I, p. 80, 134-135).

d'une mauvaise inspiration et n'est qu'un aveu d'impuissance. Elle a ouvert les yeux de nos ennemis, qui y ont trouvé l'audace de les expulser du Caire, de leur faire subir des pertes terribles et de les mettre en grand péril. Nous savons maintenant que nos frères se repentent de leur geste et désirent reprendre avec toi des relations amicales. En tout cas, ils reconnaissent leurs torts. Or tu t'es jusqu'ici refusé à tout accommodement et tu t'es retranché dans une attitude d'opposition. Il est parfaitement légitime, vu leur crime indiscutable, que tu aies de la répugnance à leur endroit. Mais les faits sont là et il doit être évident à tes yeux que le gouvernement ottoman vous est hostile et vous combat : il n'a qu'une idée, c'est d'abolir la puissance des Mamlouks en ce pays. Nos adversaires se réjouissent de notre scission, qui ne peut que conduire à notre extinction totale. Dieu nous préserve de tout faux pas ! Il est préférable, émir, que nos rapports soient établis sur la base d'une solidarité absolue, pour que nos ennemis ne nous fassent pas périr, en nous exterminant les uns après les autres. Nous allons vous envoyer deux cents de nos cavaliers. Expédiez-les à votre tour, en y ajoutant vos propres mamlouks, pour opérer leur jonction avec les émirs chassés du Caire, c'est-à-dire les émirs Ibrahim bey, Othman bey Bardisi et leurs collègues.»

L'émir Mohammed bey Elfi se rangea à la manière de voir de l'émir Othman bey Hasan comme étant l'opinion la plus raisonnable [1]. Il fit venir son mamlouk, l'émir Mohammed bey Elfi le Jeune et l'adressa, en compagnie de (210) tous les beys, kachefs et mamlouks, à l'émir Ibrahim bey le Grand. La Maison d'Elfi bey se composait de cinq cents mamlouks, sans compter les Arabes. Il comptait parmi ses partisans les émirs Sélim bey Abou Diyab [2], Ahmed bey

---

[1] Cf. Douin, *Égypte de 1802*, p. 221-222 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. xx.

[2] Sélim Abou Diyab resta l'ennemi irréductible des Ottomans après l'évacuation française, puis continua la lutte contre Mohammed Ali. Il mourut en 1221/1806 (Djabarti, III, p. 200, 224, 228 ; IV, p. 20, 43 ; trad., VII, p. 67-68, 117, 128 ; VIII, p. 43, 92 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 31-34, 36, 42, 55, 307 ; Mengin, I, p. 21 ; Gouin, p. 103-104, 107, 111 ; Sami pacha, II, p. 203 ; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 7 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. 109, 117, 405 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. 144 ; Charles-Roux, *Angleterre*, II, p. 285 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 10-11).

mesure inquiéta les autres épouses des émirs et d'ailleurs causa dans toute la ville une grosse émotion : on en parla beaucoup. Les ulémas se décidèrent à une démarche auprès du pacha. Ils allèrent le voir pour l'engager à la libérer : « Ce n'est pas convenable de ta part, vizir, d'incarcérer des femmes injustement. Ce n'est pas le geste d'un homme d'honneur. Au surplus, il s'agit d'une femme respectable, qui n'est pas comme les autres. Sa vie a été très digne et ses intentions ont toujours été pures. » Devant ce zèle des ulémas à la défendre et à vouloir protéger les femmes des autres émirs, le pacha se résolut à biaiser avec eux, car il savait qu'ils étaient les chefs de la population civile et craignait qu'ils ne soulevassent les habitants contre lui et contre son armée. Aussi leur remit-il Nafisa contre rançon. On la fit descendre de la Citadelle, mais cet incident avait modifié gravement les sentiments des ulémas et de la population envers le pacha.

(209) La principale raison de ce changement provenait de ce fait que les Mamlouks installés en province s'étaient d'abord scindés en trois coteries : la première, celle de l'émir Othman bey Hasan, qui résidait autrefois en Haute Égypte et qui se composait d'environ cinq cents cavaliers, sans compter les Arabes ; la seconde, sous les ordres de l'émir Mohammed bey Elfi, répudié par les autres Mamlouks ; la troisième, qui obéissait aux émirs Ibrahim bey le Grand et Othman bey Bardisi, était formée des Mamlouks chassés du Caire par les Albanais, comme nous l'avons conté. Ces trois partis, naguère ennemis les uns des autres, venaient d'être réconciliés par la volonté du Ciel, avaient renoué des liens d'affection fraternelle et ne constituaient plus qu'un seul bloc. L'artisan de cette union avait été l'émir Othman bey Hasan, un chef prudent et plein d'expérience, que les vicissitudes avaient mûri. Il avait fait les premiers pas auprès de l'émir Mohammed bey Elfi : « La conduite que tes frères ont tenue à ton égard après ton retour d'Angleterre dérive

---

maintenant question et dont nous ignorons le nom propre (Djabarti, III, p. 134 ; trad., VI, p. 254).

La demeure de famille a été acquise par l'État et classée comme monument historique (Ali pacha, II, p. 72 ; *Bulletin du Comité de conservation des monuments de l'art arabe*, XXXVI, p. 36 ; Pauty, *Palais et maisons d'époque musulmane au Caire*, p. 58-59, pl. II-V).

y avait des mêlées effroyables entre l'armée et les Mamlouks sur la rive orientale et les tués étaient nombreux aussi bien chez les Mamlouks que dans les rangs des Seymens et des Albanais. La panique continuait à régner dans la ville, qui souffrait du manque de vivres, causé par le blocus.

Le 8 (19 mai 1804), une grande bataille se déroula entre les Mamlouks et les Albanais. Le 9 (20 mai), il y eut un autre engagement, à la suite duquel les Mamlouks furent contraints de se retrancher un peu plus loin.

Le 10 (21 mai 1804), des voyageurs apportèrent la nouvelle de la mort d'Ahmed pacha Djezzar, ce qui provoqua en ville une vive effervescence, car les gens ne savaient s'ils devaient ajouter foi aux bruits concernant ce terrible vizir : presque chaque année, on parlait de son décès.

Le 11 de ce mois (22 mai 1804), le pacha fit arrêter [1] Sitt Nafisa [2], la veuve de Mourad bey, qui fut emprisonnée à la Citadelle dans la maison du cheikh Sohaimi [3], un des ulémas qui y résidaient. Cette

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 295-296 ; trad., VII, p. 306-308 ; Paton, II, p. 13 ; Mengin, I, p. 109-111 ; Mouriez, I, p. 158-159.

[2] Cette femme, veuve d'Ali bey le Grand, avait épousé Mourad bey. Avant l'expédition française, elle avait été en excellents termes avec Mme Magallon. Bonaparte se contenta de la mettre à l'amende, mais protégea sa personne : elle avait peut-être comploté contre les Français, ce qu'on ne saurait lui reprocher. Sébastiani lui rendit visite, et plus tard, Lesseps, puis Drovetti furent liés avec elle. Elle mourut en 1231/1816 (Djabarti, II, p. 117, 159 ; III, p. 12, 108, 156, 159, 178, 250 ; IV, p. 264 ; trad., IV, p. 213 ; V, p. 25 ; VI, p. 27, 210, 295, 301 ; VII, p. 11, 187 ; IX, p. 211-212 ; Charles-Roux, *Origines*, p. 148, 154 ; Charles-Roux, *Autour d'une route*, p. 171 ; *Histoire scientifique*, II, p. 507 ; III, p. 228 ; IV, p. 96 ; IX, p. 52 ; Marcel, p. 238 ; Martin, II, p. 54 ; Mengin, I, p. 211, 212, 438 ; II, p. 62-63 ; de la Jonquière, II, p. 288 ; III, p. 563, 690 ; Gouin, p. 339 ; Rousseau, p. 252, 354 ; Rigault, p. 71 ; Dehérain, p. 79, 135, 141, 214, 338, 482 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 15, 16, 77, 84, 196, 219, 226 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. 36 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. 120 ; Savant, *Les mamelouks de Napoléon*, p. 24, 36 ; de la Jonquière, III, p. 39 ; *Description de l'Égypte*, XV, p. 353).

[3] Depuis trois générations, cette famille avait élu domicile à la Citadelle. Ce fut d'abord un certain Ahmed ibn Mohammed, mort en 1178/1764 (Djabarti, I, p. 264 ; trad., II, p. 250 ; Ali pacha, XII, p. 12), puis son fils Ahmed, mort en 1201/1787 (Djabarti, II, p. 150 ; trad., IV, p. 295), puis celui dont il est

et faites voir au grand jour votre obéissance. Le gouvernement vous a pardonné et a témoigné à votre égard de la pureté de ses intentions. Si vous avez l'arrière-pensée de vous révolter contre le gouvernement une seconde fois et de faire participer à l'administration de l'Égypte ces Mamlouks félons, je ne veux pas y tremper, et je vais repartir à Alexandrie d'où je viens.»

— Nous sommes tous ici, répliquèrent les officiers, les esclaves de notre maître le sultan, soumis à ses ordres et à son autorité. Nous n'avons qu'un désir, mourir pour la cause de notre maître le sultan.

Là-dessus ils s'engagèrent par des serments solennels, et c'est de cette façon que se termina la séance du divan.

Ainsi se passa le mois sacré de moharram. Le 6 safar 1219 (17 mai 1804), Abdin bey [1] l'Albanais remit la Citadelle sultanienne au pacha, qui y installa un contingent de janissaires.

Le 7 (18 mai), le pacha monta à la Citadelle [2], salué par de nombreuses salves d'artillerie. Il y fit loger tout son État-major et ses services, comme le faisaient les anciens vizirs.

(208) Les Mamlouks campaient toujours autour de la capitale à l'est, tandis qu'une partie de leurs forces se tenait devant Guizeh dans le sud. Les Turcs et les Albanais bivouaquaient face à l'ennemi à l'extérieur de la ville. Chacun des deux partis vivait dans les transes. Les Mamlouks de la région de l'est étaient au nombre de trois cents cavaliers, auxquels s'étaient joints quelques Arabes. Ces cavaliers avaient le cœur solide : rapides à porter des coups violents, ils se battaient comme des fous et nul ne pouvait leur résister sur le champ de bataille. Chaque jour il

---

[1] Abdin bey, frère de Hasan bey, resta très dévoué plus tard à Mohammed Ali. Il mourut en 1820 (Djabarti, III, p. 348 ; IV, p. 3, 7, 8, 18-19, 33, 47, 51, 57, 59, 99, 116, 118, 146, 147, 172, 217, 230, 269 ; trad., VII, p. 410 ; VIII, p. 7, 17, 18, 39, 41, 73, 101, 110, 123, 143, 220, 259, 260, 265, 331-333 ; IX, p. 11, 113, 140, 223 ; Mengin, I, p. 139, 164, 166, 188, 206, 207 ; II, p. 50, 53, 62, 150 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 266, 372 ; Guémard, p. 99 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 102 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 159, 185 ; Planat, p. 14 ; Sabry, p. 27, 68).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 295 ; trad., VII, p. 304 ; Mengin, I, p. 106 ; Sami pacha, II, p. 188.

particulièrement qu'on ordonnât une sortie pour repousser ces gaillards invincibles. Ils avaient également peur des habitants, lesquels, affamés, ne manqueraient pas de s'en prendre à eux et les feraient sortir de force. Ainsi il y avait danger de mort au dedans et au dehors. De toutes façons ils étaient saisis d'effroi et ils avaient plus d'un motif pour être affligés et tristes, car ces circonstances critiques les affolaient. (207) Des soupçons portèrent sur la Maison de Taher pacha, accusée de trahir les Turcs avec la complicité des Mamlouks : c'était une suspicion qui ne reposait sur rien, mais les soldats en parlaient entre eux [1]. Or Ahmed Khourchid pacha était un homme astucieux. Il réunit les officiers pour leur faire la communication suivante : « Votre attitude n'est pas plus nette que votre conscience, car j'en suis arrivé à connaître vos plus secrètes pensées. Si les Mamlouks ont pu s'établir sur la rive orientale, c'est grâce aux manigances de certains d'entre vous. » Son intention était de compromettre la Maison de Taher pacha. Or un combat venait de se dérouler entre les troupes et les Mamlouks qui entouraient le Caire : deux cents Albanais y avaient trouvé la mort et un commandant, Taher bey [2], parent de Taher pacha, avait été fait prisonnier. Les officiers albanais saisirent cette occasion pour répondre au pacha : « Si nous complotions contre vous avec les Mamlouks, ces derniers ne nous auraient pas tué deux cents hommes, ils ne nous auraient même pas infligé des pertes et n'auraient pas capturé Taher bey. » Mais Khourchid Ahmed pacha en profita pour leur déclarer : « Si vos affirmations sont sincères, si vous êtes réellement soumis à l'autorité de notre maître le sultan, maître de la gloire et de la grandeur, livrez-moi la Citadelle et sortez en masse pour repousser ces scélérats loin de la capitale. Exposez-moi vos projets pour l'extermination des Mamlouks, ces ennemis de la Sublime Porte,

---

[1] Lesseps déclare formellement à la date du 14 juillet : « Le parti albanais est divisé en deux factions. Celle que commande Mohammed Ali est dévouée au pacha. Celle commandée par Hasan bey et Abdin bey, neveu de Taher pacha, quoique sous les mêmes drapeaux, ménage le pacha et les Mamlouks » (Douin, *Égypte de 1802*, p. 231).

[2] Taher bey, ultérieurement promu pacha, continua la lutte contre les Mamlouks, au service de Mohammed Ali (Djabarti, IV, p. 65 ; trad., VIII, p. 143 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. 22, 94, 162.

de canon, les réjouissances publiques et les feux d'artifice se prolongèrent pendant trois jours.

Dès cet instant Khourchid Ahmed pacha commença à réunir des canons et à constituer des dépôts de munitions. Il ordonna de fabriquer des chevaux de frise[1] analogues à ceux qu'avait fait confectionner le capitan pacha Hasan lorsqu'il vint en Égypte en l'année 1200 pour combattre les Mamlouks, selon ce que nous avons exposé plus haut. Les Mamlouks chassés du Caire eurent connaissance de la nomination au gouvernement de l'Égypte de Khourchid Ahmed pacha. Ils surent que le gouvernement ottoman l'avait loué d'en avoir purgé la capitale, ce qui fortifiait sa résolution de se débarrasser d'eux et de les exterminer. D'autre part, ils ne l'ignoraient pas, l'émir Mohammed bey Elfi était, comme par le passé, décidé à rester séparé d'eux et à s'installer solidement en Haute Égypte avec des hommes à lui. Ils comprirent les difficultés de leur situation : ils étaient engagés entre deux feux, leurs ennemis du Caire et la Maison de l'émir Mohammed bey Elfi. Ils réunirent un conseil de guerre et décidèrent d'occuper la partie orientale avec quelques troupes, d'envoyer des contingents à l'ouest et de continuer le siège du Caire de manière à arrêter l'approvisionnement, d'en faire le blocus d'une façon si sévère que les troupes seraient contraintes de faire une sortie pour leur faire lâcher prise. Qui sait? Le ciel permettrait alors un retour de chance et le Dieu tout-puissant leur rendrait peut-être le pouvoir en Égypte.

Le 26 de ce mois (7 mai 1804), un escadron mamlouk, accompagné de plusieurs milliers d'Arabes, passa de l'ouest à l'est, et le Caire fut ainsi complètement cerné, si bien que les habitants de la banlieue refluèrent en toute hâte dans la capitale[2]. Le blocus fut rendu plus rigoureux et la place fut privée de céréales. Le 28 (9 mai), on ne trouvait au Caire, dans les magasins de vente, ni blé ni autres grains. La consternation était générale et cette pénible conjoncture augmentait l'anxiété de la population et la panique des soldats. Ces derniers redoutaient

---

[1] شرخ فلك pour شك فلك (Bocthor, I, p. 152; Dozy, I, p. 776).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 293; trad., VII, p. 301-302; Mengin, I, p. 104-106; Douin, *Égypte de 1802*, p. 217, 221-222.

pacha, qui fut chassé du Caire, la prise de pouvoir de Taher pacha l'Albanais, au mépris des lois et des conventions. Nous avons alors envoyé notre vizir Ali pacha Djazaïrli remplacer Mohammed pacha : il avait reçu la mission de faire sortir l'armée du Caire, de rétablir l'ordre dans le pays et la sécurité pour ses habitants. Dès son arrivée à Alexandrie, Ali pacha a informé notre Sublime Porte que ces détestables troupes avaient livré la ville du Caire aux Mamlouks et que ces derniers, rebelles à notre Sublime Porte, refusaient d'obéir à nos ordres sultaniens, en lui interdisant de venir assumer ses fonctions et lui témoignaient des sentiments hostiles. Nous avons appris ensuite qu'ils l'avaient mis à mort par des procédés déloyaux et infâmes. Notre bonté royale s'est convertie en fureur contre eux, et nous avons confié le gouvernement de l'Égypte à notre illustre vizir Ahmed pacha Djezzar. Nous lui avons décerné le sabre de la victoire, l'avons revêtu de la pelisse de la gloire, pour qu'il assume notre vengeance, favorise la pacification, procure la paix aux sujets, protège le territoire de l'islam et mette à la raison ces gens sans aveu. Mais nous venons d'apprendre que les troupes albanaises se sont levées pour combattre les Mamloûks, ennemis de notre Sublime Porte, et les ont expulsés par la force de la capitale, que Khourchid pacha est venu en toute hâte d'Alexandrie pour diriger ces troupes et préserver le Caire contre ces hordes impies. Aussi n'hésitons-nous pas à lui adresser un diplôme de nomination de gouverneur de l'Égypte, après avoir rapporté celle d'Ahmed pacha Djezzar. Nous promettons une amnistie générale à nos troupes albanaises et leur accordons une entière sauvegarde, où qu'elles se tiennent et où qu'elles aillent. Telles sont les décisions contenues dans ce firman. Qu'on se garde bien de s'y opposer ou d'y contrevenir. Salut ! »

Après lecture de cette ordonnance impériale en séance solennelle du divan, les membres de ce conseil, officiers et notables, félicitèrent Son Excellence le ministre Khourchid Ahmed pacha. Des salves d'artillerie étaient tirées des forts et des tours et de la Citadelle. Cette cérémonie se déroula le jeudi (206) 22 du mois sacré de moharram de l'année 1219, correspondant au 21 avril [1] de l'année 1804 (3 mai 1804). Les coups

[1] Ancien style.

concerne, que vous restiez en Haute Égypte, ou que vous veniez au Caire, vous êtes assurés d'une sauvegarde absolue, au nom de Dieu, du sultan et en mon nom propre. Vous serez traités sur le même pied que nous-même.» Telle fut la teneur de la lettre de Khourchid pacha à l'émir Mohammed bey Elfi.

Le 19 de ce mois (30 avril 1804), on annonça le retour de Stamboul du trésorier de Khourchid pacha, qui apportait au pacha de bonnes nouvelles [1] : celui-ci recevait de la Sublime Porte sa troisième queue de pacha et était nommé gouverneur de l'Égypte. De grandes réjouissances publiques se déroulèrent avec de nombreuses salves d'artillerie : tous les officiers, les notables, les ulémas, vinrent en foule féliciter le pacha de sa nouvelle fonction. Le trésorier arriva de sa personne le lendemain 20 (1er mai) : de nouvelles salves d'artillerie vinrent célébrer cet heureux jour. La population y trouva le calme, joyeuse de cette accession de Khourchid pacha au poste de gouverneur, car c'était un honnête homme. Elle était surtout ravie de savoir qu'Ahmed pacha Djezzar était écarté, car il leur inspirait une crainte terrible, comme nous l'avons dit en son temps. On connaissait sa brutalité et sa tyrannie : ce vizir, depuis qu'il gouvernait Damas, soit depuis 1218, avait confisqué des fortunes considérables aux riches et aux négociants de cette cité. Il avait mis à mort le mufti, un nommé Ibn Mouradi, après lui avoir extorqué des sommes énormes. C'est pourquoi tous les habitants de l'Égypte tremblaient de sa nomination; (205) or celle de Khourchid pacha était officielle. Le 22 de ce mois (3 mai 1804), Khourchid pacha réunit un divan pour enregistrer officiellement sa nomination : assistèrent à cette séance le cadi de l'armée, tous les cheikhs et ulémas au grand complet, les officiers et les notables, pour entendre lecture des diplômes impériaux et témoigner de leur enregistrement. Voici le texte des firmans sultaniens revêtus de la signature impériale [2] :

« Notre Sublime Porte a connu la révolte des troupes contre Mohammed

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 292 ; trad., VII, p. 299 ; Mengin, I, p. 103-104 ; Sami pacha, II, p. 187 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 212 ; Haidar Chihab, II, p. 428.

[2] On lit un texte d'une teneur différente dans Djabarti, III, p. 293 ; trad., VII, p. 300-301.

Je ne comprends pas التراخية .

braves : en vérité, c'étaient des héros au cœur de roc, intrépides, et on ne leur connaissait pas d'émules en ce domaine. Cette affaire s'était déroulée le 11 du mois sacré de moharram de l'année 1219 (22 avril 1804).

C'est alors que l'émir Mohammed bey Elfi quitta sa résidence chez les bédouins Maʿazi et arriva à Minieh, en Haute Égypte, à trois jours du Caire. Mais il ne fit pas cause commune avec les autres Mamlouks chassés du Caire, car lui aussi désirait leur perte et leur extermination. Son plus grand ennemi était l'émir Othman bey Bardisi qui avait essayé de le tuer par trahison, ce que Dieu n'avait pas permis, pour des buts connus de Lui seul : nous en avons parlé en son lieu. Cet émir rassembla ses hommes à Minieh et fit bande à part.

(204) Le 17 de ce mois (28 avril 1804), l'émir Mohammed bey Elfi envoya au Caire un de ses kachefs, Ali kachef Chaghab [1], porteur des firmans du gouvernement ottoman, que les Anglais lui avaient communiqués en son temps et qui accordaient une amnistie entière aux Mamlouks, les autorisaient à se fixer au Caire, avec l'émir Ibrahim bey le Grand comme cheikh el-béled et l'émir Mohammed bey Elfi en qualité de defterdar.

Le 18 de ce mois (29 avril 1804), le pacha réunit un divan auquel il convia les ulémas et les officiers pour leur donner lecture de ces firmans. Le kachef qui les avait apportés fut gratifié d'une somptueuse pelisse et reçut un cheval muni de sa selle. Le pacha promit de donner une réponse, dont voici le passage essentiel : « A la suite du conflit qui a opposé l'armée gouvernementale à Ibrahim bey et à Othman bey, suivi du départ des Mamlouks du Caire, nous avons exposé à la Sublime Porte les combats qui en avaient résulté, ajoutant que les Mamlouks avaient été chassés du Caire. Nous attendons maintenant les instructions de la Sublime Porte et nous agirons en conséquence. En ce qui vous

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 292 ; trad., VII, p. 298-299 ; Sami pacha, II, p. 187 ; Haidar Chihab, II, p. 398-399.

« Elfi bey a fait l'offre au gouvernement du Caire de chasser lui-même les beys ses ennemis, si on voulait lui accorder la province de Guirgueh. On croit que la proposition sera acceptée » (Douin, *Égypte de 1802*, p. 200).

leurs lances aiguës ; ils fondirent sur ces cavaliers comme des rapaces. Les Arabes se précipitaient en poussant des cris aussi horribles que le croassement des corbeaux et massacraient leurs ennemis comme on égorge des agneaux. Devant l'impétuosité de cette offensive, les Albanais et les Seymens décampèrent et, pressés par cette masse furieuse, se jetèrent en grand nombre dans le Nil : il en périt plus de mille en très peu de temps, sans tenir compte des blessés. (203) Mohammed Ali était loin du champ de bataille, du côté de Ouarak. Dès qu'il connut cette nouvelle, il monta à cheval et emmena ses troupes à l'attaque des Mamlouks et des Arabes. Les Mamlouks reculèrent et, au cours de leur retraite, sept de leurs hommes eurent la tête tranchée. L'émir Hosein bey Ouali, ancien mamlouk de Mourad bey, y trouva la mort[1] : c'était un des beys promus en 1218. Ce fut aussi le sort de l'émir Ismaïl bey, ancien mamlouk et gendre de l'émir Ibrahim bey, également de cette promotion. L'émir Yahya bey, préfet de Rosette, reçut une grave blessure, à laquelle il ne devait pas survivre : c'était un mamlouk de l'émir Othman bey Bardisi. Mohammed Ali reçut une légère contusion. Un grand nombre de Mamlouks et d'Arabes furent tués. Ce fut une mêlée horrible, à la suite de laquelle les Mamlouks durent s'enfuir. Le dimanche, l'armée rentra en masse, ce qui calma la peur des Cairotes et donna confiance aux soldats eux-mêmes. Au début, on avait vu arriver de nombreux blessés, ainsi que des soldats nus, ceux qui s'étaient précipités dans le Nil à la suite de la charge des Mamlouks, armés de lances indiennes et montés sur leurs pur sang arabes. On avait cru que toute l'armée était anéantie. Or dans la matinée, on apporta des têtes coupées, qu'on exposa au Bab Zoueileh, au centre de la ville, pour tranquilliser les troupes et les habitants, et l'on répandit la nouvelle que les Mamlouks étaient en fuite : tout le monde fut rassuré. L'effectif des Mamlouks qui avaient participé à cette affaire ne dépassait pas deux cents cavaliers, secondés par une poignée d'Arabes. Les Albanais et les Seymens s'étaient d'autant plus émerveillés du cran de ces

---

[1] Voir sur ces événements Sammarco, *Regno*, I, p. 139 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 212, avec cette oraison funèbre sur Hosein bey Ouali : « Il a enfin expié toutes les horreurs dont il s'est rendu coupable au Caire (ce n'est pas cependant le féroce et trop fameux Hosein bey surnommé le Juif). »

courant, se proposèrent d'empêcher cette escadre de sortir et de lui barrer la route.

Le mercredi 7 (18 avril 1804), les Mamlouks formèrent un cercle continu autour de la capitale : on les voyait caracoler et faire mille évolutions. Les troupes gouvernementales passèrent de la capitale à Embabeh et à Guizeh. Mohammed Ali se dérangea en personne et ordonna aux troupes d'aller combattre les Mamlouks [1]. Il partit le jour même, alla planter ses tentes à Guizeh, où il fit acheminer ses canons et ses munitions, ainsi que toutes les troupes. Plus de deux cents pièces d'artillerie furent ainsi rassemblées. Avant son départ, il avait tué un officier qui essayait de s'opposer à la sortie des troupes.

Cette mobilisation s'effectua néanmoins et, le vendredi 9 (20 avril 1804), les troupes du Caire attaquèrent un hameau arabe, qui fut entièrement pillé ; trois Arabes furent tués, dont les têtes furent rapportées et jetées dans l'étang de l'Ezbékieh, devant la maison du pacha. Quelques jours auparavant, les Mamlouks avaient envoyé dire aux ulémas et aux cheikhs du Caire : « Vous savez que les troupes vont venir nous combattre. Pour assurer la tranquillité du pays et de ses habitants, l'empire de l'Égypte doit appartenir exclusivement à nous-mêmes ou aux chefs de cette armée. Si les troupes ne sortent pas de leurs retranchements, nous bloquerons toutes les issues et nous paralyserons toutes les communications du Caire, à l'est comme à l'ouest. Nous vous laisserons tous mourir de faim. » Les ulémas en informèrent Mohammed Ali, qui écuma de colère et déclara : « Il faut que j'aille les combattre : ou je les anéantirai, ou j'y perdrai toute mon armée. » C'est à ce moment qu'il partit à Guizeh, comme nous venons de le dire. Ses troupes le rejoignirent, et son camp et ses tentes furent dressés entre Guizeh et Ouarak, c'est-à-dire sur le terrain d'Embabeh, en face de Boulak. Cela formait une armée imposante.

Le dimanche 11 de ce mois [2] (22 avril 1804), à l'aurore, les Mamlouks attaquèrent les Turcs et les Albanais avec leurs sabres tranchants et

---

[1] Djabarti, III, p. 292 ; trad., VII, p. 298.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 292 ; trad., VII, p. 298 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 140, 143, 150, 151, 212, 215-216 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 215-218 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 139.

Le 5 de ce mois (16 avril 1804), les bandes mamloukes et un contingent d'Arabes se présentèrent sous les murs du Caire du côté de l'est et de l'ouest. Le 6 (17 avril), la garnison du Caire fit une sortie pour les déloger et une bataille s'engagea qui dura toute la journée : l'armée gouvernementale supporta très mal ce choc et éprouva beaucoup de pertes. La population avait vu avec joie se terminer l'année 1218, tellement elle avait représenté de difficultés, de dangers, de peines et de guerres, et les Cairotes auguraient bien de l'année 1219, dans l'espoir de trouver enfin le calme. Quel fut leur désenchantement ! Les événements étaient contraires, l'autorité s'en allait à la dérive, les émeutes se prolongeaient, les luttes continuaient, et les nouvelles qui parvenaient journellement de province étaient moins que rassurantes [1].

Des bruits circulèrent, pendant ce mois, du départ de Toulon de la flotte française [2] : elle était forte de plus de cinq cents bâtiments, vaisseaux de haut bord et navires plus petits, chargés de nombreuses troupes et munis d'une puissante artillerie. Tous (202) les pays, à l'est comme à l'ouest, étaient affolés de ce déplacement, qui les remplissait d'une crainte terrible. Leurs ennemis les Anglais, dès qu'ils furent au

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 292 ; trad., VII, p. 298 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 167-168 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 152.

[2] Nous avons déjà eu l'occasion de signaler de semblables bruits (ci-dessus, p. 222). « Infailliblement, écrit l'amiral Durand-Viel (I, p. 26), dès que la flotte française sortait, l'escadre de Nelson, comme par une obsession qui pesait sur toute la stratégie et la politique du monde, accourait dans les eaux égyptiennes où elle suscitait une alerte générale. »

L'Égypte craignait la chose encore en 1805 (Douin, *Politique mameluke,* II, p. 209-210, 223 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 6, 16, 39, 67-68 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'expédition française,* II, p. 335, 348-349, 353 ; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 35).

Napoléon y pensa lui-même à plusieurs reprises entre 1808 et 1810 (Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. xxii-xxv ; Weygand, I, p. 91). Naturellement les Anglais avertissent l'Égypte (Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 7, 13, 198 ; Mengin, I, p. 317, 445-446). Le bruit en courut dans le pays en 1810 (Djabarti, IV, p. 102 ; trad., VIII, p. 127 ; Sami pacha, II, p. 219).

On craignait encore cette invasion en 1815, après le retour de l'île d'Elbe (Djabarti, IV, p. 230 ; trad., IX, p. 119).

syrien depuis el-Arich jusqu'aux confins d'Alep la Blanchâtre. Il y fit preuve d'une dureté devenue proverbiale : c'était un despote barbare, qui faisait trembler tous ses sujets par ses manières autoritaires. On parlait de ses vues politiques profondes, de son influence, de la durée de son pouvoir et aussi de ses libéralités. Il appartenait à une grande famille, et il fut personnellement une curiosité de son siècle. Nous en avons beaucoup parlé en des passages saillants de cet ouvrage. (La raison de la nomination d'Ahmed pacha Djezzar à l'administration de l'Égypte était la suivante : lorsque le gouvernement ottoman se rendit compte que les Mamlouks se refusaient (201) à exécuter ses ordres, communiqués par son vizir Ali pacha Djazaïrli, que les Mamlouks s'étaient révoltés contre ce dernier et l'avaient mis à mort en dehors du Caire, les ministres de la Sublime Porte s'étaient mis en fureur, et un hatt-i-chérif de Sa Majesté le sultan Sélim fut adressé à Ahmed pacha Djezzar pour lui confier la direction du territoire d'Égypte. Il reçut à cette occasion un sabre et une magnifique pelisse de fourrure : le sabre était le symbole de la vengeance à exercer, de la rigueur d'une constitution à établir, de l'extermination des Mamlouks, enfin de l'introduction de la manière forte pour faire reconnaître en ce pays l'autorité de la Sublime Porte, par le canal de ce ministre, aussi implacable qu'un fauve déchaîné.)

Cependant les Mamlouks occupaient toujours Guizeh avec des forces importantes, ruinant la région, interceptant les routes et empêchant tout transit. Khourchid pacha et ses troupes résidaient au Caire et la population de la capitale souffrait de l'arrêt de l'activité commerciale, de la ruine des villes et des bourgs. Tout le monde attendait le retour de la paix et la fin de ces tumultes. C'étaient des jours pénibles et douloureux par suite de la suppression de toute garantie légale, du désaccord des gouvernants : le désordre augmentait, l'hypocrisie devenait générale, la discorde régnait et les amitiés fondaient. Les Mamlouks restaient divisés : un groupe occupait la partie orientale du pays ; l'autre régnait sur le sud. L'émir Mohammed bey Elfi était resté dans les régions orientales chez les Arabes Ma'azi, comme nous l'avons dit. Il entretenait une correspondance très active avec Khourchid pacha et avec le commandant en chef Mohammed Ali, comme nous allons le montrer.

Le jeudi 2 (13 avril 1804), le préfet, passant dans la rue Ghourieh, frappa un musulman qui, contrairement à l'usage, ne s'était pas levé à son approche [1]. Les habitants de la rue se rassemblèrent en un clin d'œil et, formant un groupe imposant, allèrent trouver les ulémas de la ville pour les engager à protester; pendant ce temps, les boutiques se fermaient. Les ulémas se dirigèrent vers l'hôtel du pacha et lui exposèrent qu'à la suite des agissements du préfet, les commerçants de la cité avaient fermé leurs magasins. Le pacha les apaisa et promit d'infliger un blâme au préfet; sur quoi les ulémas se retirèrent.

Le même jour, des nouvelles venues de Damiette apprirent qu'Ahmed pacha Djezzar, qui était gouverneur de Syrie, venait de recevoir des documents de la Sublime Porte le nommant gouverneur de l'Égypte [2]. Une fête publique de trois jours avait été célébrée dans tous ses domaines, au cours de laquelle de nombreuses salves d'artillerie avaient été tirées. Ce fut en Égypte une véritable terreur, car la plupart des gens redoutaient la cruauté de ses procédés et ses injustices criantes : il y avait vingt-neuf ans que ce vizir résidait à Saint-Jean-d'Acre, où il avait établi une administration solide. Plus tard, à cette province on avait ajouté tout le territoire

---

[1] Détails légèrement différents dans Djabarti, III, p. 291-292; trad., VII, p. 297.

[2] En annonçant cette nomination à l'ambassadeur de France à Constantinople, le ministre ottoman des Affaires Étrangères la commentait ainsi : «La Sublime Porte a pris le parti de donner le commandement de l'Égypte à Djezzar pacha. Il a promis de tout mettre dans l'ordre; il dominera les partis, j'en réponds. Djezzar pacha est très puissant dans cette partie du monde; il a les ordres qu'il peut désirer; il est riche, il pourrait trouver au besoin 100.000 bourses; il lui sera facile par conséquent de solder les troupes et de licencier celles qui devront s'éloigner. C'est un héroïsme de fatigue et de courage. Les Arabes le craignent.»

De son côté, Lesseps déclare : «Il y a eu de grandes réjouissances à ce sujet à Saint-Jean-d'Acre et Djezzar a expédié six dromadaires pour l'annoncer au Caire. Cet événement donne lieu à mille conjectures différentes.»

Cf. Douin, *Égypte de 1802*, p. 185, 189, 193, 199, 210; *Histoire scientifique*, IX, p. 163; *Précis*, III, p. 208; Douin, *Politique mameluke*, II, p. xvii-xviii, 118, 140; Haidar Chihab, II, p. 397.

En mai 1799, Bonaparte avait rendu compte au Directoire que Djezzar pacha avait été nommé gouverneur d'Égypte (de la Jonquière, IV, p. 169, 499).

l'année 1219, et il n'a pas de quoi payer les soldes, car les caisses sont vides, les provinces de la Haute Égypte sont entre les mains de l'ennemi, le reste du pays est appauvri à cause des exactions et des taxes arbitraires. Ce ne sont que poussières et cendres, et les habitants sont brisés comme tessons de poterie. En conséquence, nous garderons quiconque accepte de vivre sans solde et se contente de sa situation ; que celui qui ne veut plus servir aille où bon lui semble. Notre maître ne prétend pas forcer l'un de vous à demeurer contre son gré. Le reliquat des cinq mois de solde sera payé intégralement par Son Excellence notre maître, et l'on va commencer dès maintenant ces versements.» Le conseil se clôtura sur ces déclarations, qui n'étaient qu'une ruse de ce personnage habile, d'une suprême rouerie : il savait que les troupes n'avaient plus d'influence, surtout les Albanais qui ne pouvaient plus s'en aller ni par terre ni par mer, puisque leurs ennemis tenaient la campagne en face d'eux. Il supprimait donc pour eux tout espoir de récupérer leurs soldes, leur interdisait de tourmenter constamment le pacha et leurs officiers pour les réclamer et de se révolter de ce fait, comme ils en avaient la détestable habitude. Ils furent obligés de se satisfaire de cette solution. Eux qui espéraient dominer dans ce pays, ils avaient peur et guettaient toutes les occasions de s'échapper. De tous côtés ils étaient sujets à l'inquiétude et à la crainte : ils redoutaient énormément les Mamlouks, et leur terreur venait de ce que ces derniers étaient puissants par les richesses dont ils s'étaient emparés et qu'ils avaient converties en or pur, ce qui représentait des fortunes considérables.

(200) Voilà donc exposés les événements qui marquèrent l'année 1218, du début à la fin. Ce fut une période atroce, avec de cruelles péripéties. Le peuple avala jusqu'à la lie des coupes d'amertume ; des hommes périrent au cours de ces révoltes incessantes, dans les montagnes comme dans les plaines. L'année se termina un mardi : nous implorons Dieu pour que, dans sa bonté, il ait pitié de ses serviteurs, car il est bon et généreux.

Le mercredi 31 mars [1] correspondit au 1er moharram 1219 (12 avril 1804).

---

[1] Toujours de l'ancien style (voir ci-dessus, p. 192, n. 1).

Mohammed Ali était donc revenu au Caire après la retraite des Mamlouks; il était suivi de toute l'armée. La situation se stabilisa, l'effervescence se calma et l'émeute cessa jusqu'à la fin de ce mois.

On fit sortir Saiyid Ali pacha [1] du Caire : il fut envoyé à Alexandrie et de là à Constantinople. On exposa à la Sublime Porte que l'on avait expulsé les Mamlouks du Caire : on en avait, écrivait-on, exécuté dix, les autres avaient fait leur soumission et sollicité leur pardon. On envoyait avec Saiyid Ali pacha dix têtes des principaux soldats albanais, pour apaiser la colère de la Sublime Porte, irritée de leurs crimes. Le pacha convoqua un divan, auquel assistèrent tous les officiers. L'orateur fut son chef d'état-major Othman agha Khazindar : (193) ce dernier, on se le rappelle, d'abord au service de Mohammed pacha, l'avait trahi au bénéfice de Taher pacha, auquel il avait livré la Citadelle, comme nous l'avons conté en son lieu; après l'assassinat de Taher pacha, il s'était mis à la disposition de Mohammed Ali, puis était devenu le chef d'état-major de Khourchid pacha dès son arrivée. On assurait que ces diverses mutations avaient fait de cet Othman un homme averti et expérimenté, ce qui lui permettait, avec son esprit plein de roublardise, de résoudre les affaires les plus compliquées par des conseils très pertinents. Il prit donc la parole au divan, au nom du pacha, et harangua les officiers : « Notre maître vous dit que les troupes réclament dix mois de soldes arriérées, jusqu'à la fin de dhoul-hidjdja de l'année 1218. Mais, comme au temps des Mamlouks, elles avaient renoncé à cinq mois, il ne leur reste dû que cinq mois. Nous avons établi les comptes et nous avons constaté qu'elles en ont touché une partie, qu'une autre partie est imputable aux villages et que le reste leur est réellement dû. Conformément à ces renseignements, Son Excellence le pacha vous fait dire que l'année 1218 s'est terminée convenablement. Nous entrons dans

---

[1] Cf. Mengin, I, p. 102-103; Djabarti, IV, p. 24; trad., VIII, p. 51.

« Ma bourse, écrit Lesseps, a été ouverte et mes soins prodigués au malheureux et illustre prisonnier Saiyid Ali, et j'ai interposé mes bons offices pour que tant ce frère d'Ali pacha que Mohammed pacha lui-même n'eussent pas la tête tranchée » (Douin, *Égypte de 1802*, p. 191).

au Caire dans une posture humiliée [1]. C'était le dimanche 27 dhoul-hidjdja (8 avril 1804). Tous les exprits étaient surexcités par cette guerre contre les Mamlouks. Le lundi, le commandant en chef Mohammed Ali rentra très inquiet: On fit publier ce communiqué : « Les Mamlouks sont repartis en Haute Égypte, nous sommes victorieux et tenons la situation bien en main.» La raison qui laissait croire que l'ennemi renonçait à la lutte et s'était replié, c'était, disait-on, que l'émir Ibrahim bey avait convoqué les Mamlouks. Une réunion avait eu lieu pour rétablir la concorde avec l'émir Mohammed bey Elfi le Grand [2]. L'émir Marzouk [3], fils de l'émir Ibrahim bey, et d'autres beys lui avaient été dépêchés pour l'amadouer et l'amener à pardonner la trahison dont ils s'étaient rendus coupables à son égard. Désormais unis, ils formeraient un seul parti contre leurs ennemis communs. Les correspondances et les tractations se poursuivirent, mais en vain, l'intéressé ne voulant pas renouer avec eux et se refusant à les aider. Les délégués revinrent désappointés. Nous en reparlerons.

---

[1] Le consulat de France annonce que le 6 avril « on a tiré le canon de réjouissance à cause de la victoire remportée la veille sur les Mamlouks qui ont été forcés de se retirer vers le Fayoum avec la perte de 25 à 30 hommes. Mohammed Ali et son armée sont rentrés en triomphe et tous les chefs doivent s'assembler au Divan pour discuter les opérations ultérieures. On cache le nombre des Albanais morts, suivant l'usage. Il paraît que des Arabes et des Maghrébins qui se sont joints aux Albanais ont pillé le bagage des Mamlouks qui se retiraient» (Douin, *Égypte de 1802*, p. 199-200).

[2] Cf. Mengin, I, p. 103; Douin, *Égypte de 1802*, p. 199.

[3] Marzouk bey fut un instant emprisonné par le grand vizir au Caire, en 1801 (plus haut, p. 144). Il continua à combattre Mohammed Ali, et Drovetti annonce même sa mort en combat en 1807. Plus tard, il fit la paix avec Mohammed Ali, qui le nomma préfet de Guirgueh. Il périt dans le massacre des Mamlouks en 1811 (Djabarti, III, p. 201, 283, 343 ; IV, p. 78-79, 92-93, 131 ; trad., VII, p. 68, 273, 396 ; VIII, p. 171, 173, 204-205, 295-296 ; Mengin, I, p. 188, 317, 319, 329, 367-368 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 250, 425, 467 ; Paton, II, p. 35 ; Gouin, p. 202, 203, 216 ; Ali pacha, XIV, p. 73 ; Sami pacha, II, p. 211 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 403 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 167 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 13 ; Guémard, p. 87-88 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 26, 242).

pacha fit sortir de la capitale les soldats qui s'y cachaient et qui furent recherchés par les gardes et les caporaux. Des patrouilles parcoururent les rues en proclamant en turc que tout soldat qui passerait la nuit en ville pourrait être exécuté par les soins du préfet ou de l'agha, d'ordre du pacha, de Mohammed Ali et des autres officiers. Après la prière publique, les soldats commencèrent à quitter la ville pour se diriger sur Guizeh. Ils étaient épouvantés d'avoir à se mesurer avec les Mamlouks, car ils avaient éprouvé leur valeur et leur intrépidité. Certains couraient se dissimuler dans les maisons d'habitation. Enfin la capitale fut vidée de ses militaires et il n'y resta plus que le pacha et sa garde particulière. Lorsque ces troupes furent concentrées à Guizeh, Mohammed Ali, leur commandant en chef, les rassembla pour réciter plusieurs *Fatiha* : il les harangua pour les fanatiser, comme le font les officiers avant une bataille. Après la prière du coucher du soleil, ce fut l'heure où chacun trouva l'adversaire qu'il cherchait. Les armées s'entrechoquèrent. Quelle heure terrible de feux brûlants, de cavaliers lancés au galop, de braves qui s'exposent, d'Arabes hurlant tels des corbeaux ! L'acier brilla, l'homme vaillant se montra, le lâche eut peur, les rangs se confondirent, les deux partis se heurtèrent, les têtes branlèrent comme remuent les feuilles des arbres. La lutte dura du début de la nuit à la chute du jour et se prolongea sans discontinuer jusqu'à ce que la nuit devînt de nouveau obscure. Ce fut alors une horrible boucherie, dans une extrême confusion, dont les ténèbres accentuèrent l'effroi. Quand pointa l'aurore du lendemain, le feu cessa et les étincelles s'éteignirent, le champ de bataille fut abandonné par ces braves qui s'étaient battus comme des lions fougueux. Les assaillants revinrent à leur camp, beaucoup avec des membres fracassés. (198) Combien de crânes d'Arabes et d'étrangers s'étaient amoncelés : les cadavres emplissaient cette vallée. Au spectacle de ces sanglants débris, le chagrin était impuissant et la douleur était poignante : il n'y avait plus qu'à se repentir et à porter le deuil. Ces combats avaient duré trente-six heures, causant la mort d'un grand nombre d'Arabes, d'Albanais, de Seymens. Les armées se séparèrent, les Mamlouks cessèrent de se battre et se retirèrent dans les montagnes, renonçant à la lutte, à la guerre, à la violence et à la dispute. Les Turcs et les Albanais, par groupes d'isolés, revinrent avec des visages décomposés et rentrèrent

puis son abandon de la cordialité et de la sincérité. Après lui vinrent les Mamlouks de Mohammed Aboul-Dhahab, si célèbres. Ils correspondirent avec le même gouvernement, comme cela a été exposé plus haut, et c'est pour cette raison que les yeux des Puissances s'ouvrirent avec convoitise sur cette contrée. C'est pourquoi aussi le sultan éprouva de la répugnance envers ces Mamlouks et envisagea toutes sortes de représailles à leur égard, leur tendant diverses embûches pour consommer leur perte et leur extinction, pour en délivrer le pays. Au surplus, ils perdirent l'affection des habitants, lorsque ceux-ci constatèrent leur mauvaise foi, leurs rancunes mutuelles, qui dépassaient les limites. La population se mit à vouer à ces Mamlouks une hostilité tenace et une sourde haine. Pourtant, plus que d'autres, les Mamlouks étaient pourvus d'un excellent sentiment religieux, ils étaient animés d'une certaine mansuétude envers la population, puisqu'ils avaient fait souche dans le pays, qu'ils y avaient grandi à l'ombre du trône, qu'ils avaient sucé le lait de ses mamelles et qu'ils en étaient devenus des enfants attachés. Mais dans sa sagesse, la Providence avait déjà pris une décision, puisque rien ne se produit dans l'univers sans sa permission, que ses noms soient exaltés ! Tel est le sort des nations dans le monde, elles grandissent dans l'union et l'accord, et disparaissent dans la division et la discorde ; elles prospèrent par la justice et sont détruites par l'iniquité. Ce gouvernement mamlouk voit poindre la fin de ses jours, car ses institutions périclitent, ses jugements manquent de logique, (197) ses chefs deviennent corrompus et leurs désaccords s'accentuent. Gloire à Celui qui règle tout à sa volonté, qui gouverne ses créatures comme il l'entend ! Quelle tristesse de voir disparaître avec ces héros les bienfaits, les vertus, la générosité ! On évoque les évolutions de cavalerie, les combats singuliers, les mêlées sauvages, le choc des lances. Ils alliaient la force extrême, la vaillance la plus rude à une générosité qui se prodiguait à tous. Plus leur nombre diminuait, plus croissaient leur valeur et leur endurance. En sept ans, de 1213 à 1218, ils ont été anéantis par les guerres, les épidémies, et réduits à un nombre infime.

Mais revenons à notre récit. Le 23 de ce mois (4 avril 1804), Mohammed Ali était parti à Guizeh, où il avait établi son camp et dressé ses tentes face aux Mamlouks. Le vendredi 25 (6 avril 1804), Khourchid

Durant cette période de combats, les Mamlouks se battirent la haine au cœur contre les troupes et la population du Caire, car ils avaient éprouvé leur trahison, leur perfidie, leur fourberie, leur sang-gêne à l'égard des maisons privées et des entrepôts qui avaient été pillés, leur manque de respect à l'égard des familles, qui avaient été molestées. Ces Mamlouks avaient été des hommes remarquables, d'une belle énergie, auxquels on ne pouvait résister sur le champ de bataille ni tenir tête dans les mêlées. On se rappelait la multitude de leurs chevaliers. Autrefois ils rugissaient comme des lions, aujourd'hui ils soupiraient amèrement sur les malheurs qui les avaient frappés. Ils se rappelaient (196) la dynastie circassienne, qui avait eu la maîtrise de l'Égypte : ils avaient vu s'accomplir son destin et avaient assisté à son déclin, c'était aujourd'hui leur tour. Ce fut ensuite la splendeur de cette orgueilleuse Maison, connue sous le nom de Kasdaghli [1], maintenant disparue, tristement renommée pour l'amertume qu'elle dispensait. La famille mamlouke avait poussé depuis de longues années en Égypte, elle avait étendu ses rameaux, développé ses branches, installé solidement ses racines, elle s'était manifestée sans retenue, avec une tyrannie sans cesse accrue. Malgré ses bases si fermes, elle n'était pas maniable. Intrépide dans les batailles, elle se maintint contre revers et catastrophes. De son fait de nombreuses personnes périrent et des armées furent anéanties. Car elle tint tête aux Français pendant trois ans et s'opposa à l'Empire ottoman pendant de nombreuses années, sans désemparer, et ce n'est pas fini. Elle combat dans toutes les provinces de l'Égypte, au nord comme au sud, détruisant tout, semant la ruine et la mort. L'Égypte fut citée comme exemple entre les États pour ses querelles et ses dissensions. Ces événements et ces catastrophes, dont les Mamlouks furent les principaux responsables, se succédèrent sans interruption sur cette contrée qui était heureuse, sur cette perle unique, jusqu'à l'apparition de l'émir Ali bey le Grand, en révolte contre le gouvernement ottoman : on connaît ses tractations avec le gouvernement de la Russie moscovite, ses collusions impies avec les Puissances occidentales au mépris de la religion de l'État,

---

[1] Cf. Dent, p. 570. — Je remercie mon ami Bishr Farès de m'avoir aidé dans la traduction de ce morceau.

encouragés par les clameurs des femmes ; trois beys sortirent des rangs, brandissant leurs sabres étincelants et leurs énormes lances, au galop de leurs coursiers rapides, poussant des hurlements stridents, tels des cris d'épervier. Ce fut le signal du carnage, car en même temps, la cavalerie des Albanais et des Seymens s'élançait à la rencontre des Mamlouks et des Arabes. Ces derniers furent culbutés et s'enfuirent : (195) ils se réfugièrent dans une caverne sur un point culminant, au sommet duquel se tenait l'émir Hosein bey le Juif avec son bataillon. Il envoya de nombreuses décharges d'artillerie qui firent des ravages parmi les cavaliers turcs et albanais. C'est alors que cette cavalerie fut enveloppée par les Mamlouks, surgissant de tous côtés avec leurs épées tranchantes et leurs lances effilées : il s'en fallut de peu qu'elle ne fut anéantie, mais l'élan des Mamlouks lancés à l'attaque fut arrêté par la fusillade soutenue d'un corps d'infanterie, qui leur interdit l'approche des portes de Guizeh. Les Mamlouks refluèrent à leur point de départ, à leur campement et à leurs tentes. Les troupes rentrèrent à Guizeh, après avoir laissé trois cents morts sur le terrain, sans parler des blessés. La plupart des tués étaient des cavaliers et des officiers.

Le lendemain matin 22 dhoul-hidjdja (3 avril 1804), les troupes et la population se réveillèrent dans le désarroi le plus complet. Les portes du Caire étaient fermées pour empêcher les soldats de quitter leurs positions et de pénétrer en ville. Dans la matinée on ouvrit les portes pour donner accès aux blessés.

A compter de ce jour, cette guerre entre les troupes et les Mamlouks devint acharnée. Dans l'après-midi, le pacha ordonna au reste de la garnison de se rendre à Guizeh. Ce fut une tâche assez rude, car après que les officiers eurent communiqué cet ordre, il fallut user du bâton : les soldats couraient se cacher dans les maisons particulières, où les gardes, accompagnés de caporaux, les dénichaient et les faisaient sortir.

Le mercredi 23 dhoul-hidjdja (4 avril 1804), l'ensemble des troupes était installé à Guizeh et le pacha n'en avait conservé qu'une faible partie. Mohammed Ali établit son camp et dressa ses tentes sur le territoire de Guizeh. Les Mamlouks n'avaient pas bougé de leurs positions, depuis Zaouiet el-Masloub jusqu'au delà des Pyramides. L'émir Ibrahim bey était présent avec un corps de réserve commandé par Othman bey Bardisi.

libre la circulation et à permettre l'introduction des céréales en ville, ce qui accélèrerait le ravitaillement et ferait baisser les prix. Sur une promesse formelle qui leur en fut faite, les Cairotes se tranquillisèrent. Toutefois une partie de l'armée s'obstinait à déclarer : « Nous n'irons pas combattre les Mamlouks avant d'avoir touché nos soldes et nos allocations. » De leur côté, le pacha et le commandant en chef Mohammed Ali disaient : « Nous sommes hors d'état de débourser quoi que ce soit, tant que nos ennemis intercepteront les routes, interdiront les importations en tenant les débouchés de la Haute Égypte. Faites une sortie pour les refouler. Alors tout le pays sera ouvert, tout le monde nous obéira et il nous sera facile de recueillir de l'argent. Nous saurons où le trouver et nous donnerons à chacun son dû. » Telle fut la réponse de Mohammed Ali aux troupes et à leurs officiers.

Ce même jour arrivèrent les troupes albanaises qui se trouvaient en Haute Égypte [1], au nombre de sept cents hommes environ. En même temps, tous ceux qui étaient casernés dans les provinces et les chefs-lieux, par exemple à Rosette, Damiette, Mansourah, Méhalla, se rassemblèrent au Caire : l'ensemble de la garnison atteignait dès lors environ dix mille hommes.

Le lundi 21 de ce mois (2 avril 1804), le pacha tint un divan, auquel il convoqua tous les officiers pour leur enjoindre d'aller affronter les Mamlouks à Guizeh. A l'unanimité, en plein conseil, ils déclarèrent : « Nous n'irons pas nous battre tant que nous n'aurons pas touché nos soldes. » Or c'était une comédie combinée entre le pacha et les officiers, pour que ce refus, porté à la connaissance des Mamlouks, endorme leur méfiance. La séance se termina donc sur cette manifestation de volonté bien arrêtée de ne pas combattre. Or le soir même, Mohammed Ali emmena un détachement à Guizeh, où il pénétra par surprise : à minuit il attaqua les Mamlouks et les Arabes à la tête de ses troupes turques et albanaises, derrière les Pyramides. Les Mamlouks étaient sur leurs gardes, et une bataille très violente s'engagea [2] : les Arabes chargèrent,

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 288 ; trad., VII, p. 289 ; Mengin, I, p. 102.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 288 ; trad., VII, p. 289 ; Mengin, I, p. 102 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 198-201.

pacha invita les troupes et les notables à encourager l'armée à la lutte contre les rassemblements mamlouks, formés aux portes de la capitale, la débloquer pour rendre possible l'entrée des céréales et rassurer les habitants, par l'afflux de ressources.

Le 16 (28 mars 1804), le pacha rendit une ordonnance visant à faire régner la sécurité dans toutes les rues et marchés de la capitale.

Le 17 de ce mois (29 mars 1804), les Mamlouks et les tribus arabes se déployèrent à Guizeh devant les troupes albanaises et les Seymens. Les Albanais les canonnèrent du haut des forts pour les repousser.

Le 18 (30 mars 1804), Khourchid pacha abandonna son domicile du quartier de Daoudieh et alla s'installer dans la maison du cheikh Bekri, sur l'étang de l'Ezbékieh, tout près de la résidence de Mohammed Ali [1]. En effet, ni le pacha ni Mohammed Ali n'étaient tranquilles sur le compte de Hasan bey l'Albanais, frère de ce Taher pacha que les Turcs avaient assassiné ; ils craignaient une collusion de sa part avec les Mamlouks, en tout cas, l'en soupçonnaient fort. Le même jour, les Mamlouks et les Arabes engagèrent un combat contre les Albanais et les Seymens dans les parages de Guizeh : les Albanais n'aimaient guère s'aventurer au dehors, parce qu'ils avaient éprouvé la mobilité de la cavalerie des Mamlouks en rase campagne et savaient que ceux-ci n'avaient pas peur des corps à corps.

Le 19 de ce mois (31 mars 1804), les étudiants d'el-Azhar fermèrent les portes de la mosquée pour faire imputer au compte du cheikh el-béled leurs allocations mensuelles. Ils envoyèrent une députation à Mohammed Ali, qui donna l'ordre d'effectuer les versements voulus.

Pendant tout ce temps l'angoisse persistait [2], car l'horizon restait noir, et les habitants de la capitale étaient toujours démoralisés par la présence en banlieue des Mamlouks et des Arabes qui interdisaient le passage des convois de céréales et de vivres. Or tout l'approvisionnement de la population du Caire provenait de Haute Égypte. Une députation soumit le cas au pacha (194) et aux officiers, les pressant d'aller combattre ces Mamlouks, de leur disputer les approches du Caire, de façon à rendre

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 288 ; trad., VII, p. 288.

[2] Cf. Mengin, I, p. 102 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. xx.

Le 6 de ce mois (18 mars 1804), un détachement de Turcs et d'Albanais alla prendre possession de Guizeh. Le 8 (20 mars 1804), les Mamlouks et les Arabes se développèrent en avant de Guizeh, puis rentrèrent dans leurs cantonnements [1].

Le lundi 14 de ce mois (26 mars 1804), Khourchid Ahmed pacha débarqua à Boulak [2] et entra au Caire par le Bab el-Nasr en grande pompe, suivi par un cortège solennel, en tête duquel marchait l'ensemble des troupes. Il fut conduit au palais de l'émir Ibrahim bey à Daoudieh [3], où il fixa sa résidence.

Le 15 de ce mois (27 mars 1804), il réunit un divan, auquel assistèrent tous les officiers se trouvant au Caire, tous les ulémas et les administrateurs, les notables influents. Il déclara que le gouvernement de l'Égypte ne lui était pas destiné, mais qu'il était venu à propos de l'expulsion des Mamlouks, pour diriger l'armée dans une guerre à outrance contre ces rebelles à la Sublime Porte. Il était le délégué du gouvernement au Caire : il allait informer la Sublime Porte de l'expulsion des Mamlouks et la prier d'envoyer un nouveau gouverneur ou de le confirmer lui-même. Il devint donc évident que l'affaire des Mamlouks était l'œuvre de Mohammed Ali et des autres officiers, et il n'était que juste de leur en attribuer le mérite aux yeux du gouvernement. Sans doute ils avaient été la cause du renvoi de Mohammed pacha, de l'installation de Taher pacha, puis de son assassinat, du retour des Mamlouks, de la mise à mort du Defterdar et (193) du kyahya de Mohammed pacha, du meurtre d'Ali pacha : ils étaient donc responsables de toutes les révolutions qui s'étaient produites au cours de l'année. Mais c'étaient encore eux qui avaient expulsé les Mamlouks du Caire et les avaient divisés pour les affaiblir. Par ce geste ils effaçaient leurs fautes antérieures, consignées dans les archives de l'État. La gloire en revenait à Mohammed Ali : ses erreurs devaient être oubliées et son nom magnifié. Et, terminant, Khourchid

---

[1] Cf. Douin, *Égypte de 1802*, p. 195.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 288 ; trad., VII, p. 287 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 160-161 ; Mengin, I, p. 99-100 ; Mouriez, I, p. 153 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 197, 202, 206, 207, 210 ; Douin et Fawtier-Jones, I, p. xviii ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 137 ; Haidar Chihab, II, p. 396.

[3] Dans les environs de la mosquée de Malika Safiya.

qu'avait éclaté la grande insurrection du Caire : dès que ce préfet, encore à Mansourah, apprit le sort des Mamlouks de la capitale, il partit pour Guizeh, car les Mamlouks lançaient des circulaires en vue de regrouper tous les leurs dispersés dans les provinces et dans les divers chefs-lieux. On vit arriver Yahya bey, préfet de Rosette, d'autres beys et kachefs. Tous étaient désormais unis : un camp fut dressé derrière les Pyramides jusqu'à un point nommé Zaouiet el-Masloub, à une journée du Caire. Les Mamlouks commençaient à se mordre les doigts d'avoir voulu jouer un vilain tour à l'émir Mohammed bey Elfi. Tous nourrissaient de mauvais desseins contre l'émir Othman bey Bardisi et murmuraient contre lui : « Si celui-là, disaient-ils, ne nous avait pas divisés, nos ennemis n'auraient pas eu l'audace de nous faire du mal. » L'émir Othman bey regretta son geste. De ce jour, la résolution fut prise de se réconcilier avec l'émir Mohammed bey Elfi : nous reviendrons sur ce projet.

Les Mamlouks se groupaient donc à Guizeh, aux portes du Caire, ils rassemblaient de nombreux Arabes et des bandes d'hommes de main. De son côté, le commandant en chef Mohammed Ali convoqua le saiyid Ahmed Mahrouki et le sieur Guirguis Gauhari le Copte, pour leur confier l'administration de la capitale, en leur adjoignant Othman agha Khazindar, ancien trésorier de Mohammed pacha. Cet officier, on s'en souvient, avait trahi Mohammed pacha et livré la Citadelle à Taher pacha. C'était un homme réputé pour ses qualités d'organisateur. Mohammed Ali déclara à ces trois personnages : (192) « Nous sommes des militaires, des hommes de guerre, nous ne connaissons rien à la gestion des affaires ni à tout ce qui touche à l'intérêt public. Vous allez les prendre en main jusqu'à l'arrivée de Khourchid pacha d'Alexandrie au Caire. »

On apprit précisément à cet instant que Khourchid pacha venait de quitter Alexandrie et s'était mis en route pour la capitale. Des lettres particulières d'Alexandrins félicitaient les Cairotes, qui allaient posséder un tel pacha, un homme aussi intelligent, un gouverneur aussi juste, dont la conduite était digne d'éloges. Avant son départ, le pacha avait envoyé son trésorier à Constantinople pour rendre compte à la Sublime Porte de l'expulsion des Mamlouks par les troupes. Il ajoutait que cette mesure avait eu lieu sur son initiative et avec sa coopération. Il annonçait enfin qu'il se rendait au Caire pour aider l'armée à liquider cette question.

il n'est pas possible qu'il leur arrive aucun dommage ou qu'elles rencontrent des difficultés. Elles sont sous notre protection. D'ailleurs nous vous les enverrons prochainement en bonne santé. Tant que nous avons été les maîtres du Caire nous avons toujours veillé à la situation des Albanais d'une façon particulière. Ce fut pour nous le comble de la stupéfaction d'apprendre que vous aviez outragé des femmes dans leurs maisons, que vous aviez pillé ces demeures, que vous aviez réduit ces femmes en esclavage. Ce ne sont pas là des actes d'hommes d'honneur. L'homme se mesure avec l'homme et ne s'en prend pas aux femmes à l'abri du harem. Si vous êtes vraiment des hommes, venez nous défier sur le champ de bataille pour savoir à qui d'entre nous appartiendra l'Égypte.» Ce message à Hasan bey l'Albanais avait été rédigé par l'émir Ibrahim bey.

Le même jour, soit le 5 dhoul-hidjdja (17 mars 1804), (191) des nouvelles de Damiette firent savoir qu'au cours du mois précédent de dhoul-ka'da, les troupes avaient suscité des troubles graves dans cette localité[1]. Elles avaient assailli le commandant en chef Ali bey et voulaient le tuer, à cause de leurs soldes. Cet officier s'était échappé et la ville avait été fermée. Toute la cité était en ébullition : les ulémas s'étaient réunis, ainsi que les consuls présents, aux fins d'apaiser les troupes : on leur garantit le paiement de leur solde au plus tard dans les sept jours suivants. Une lettre en ce sens fut adressée au préfet de Damiette, Ahmed bey, qui était parti pour Mansourah, précisément pour recueillir dans cette ville et dans sa province les fonds nécessaires à l'acquittement des soldes de la garnison de Damiette. Les troupes répliquèrent aux ulémas et aux consuls : « Si vous manquez de parole et que nos soldes soient encore ajournées, nous pillerons toute la ville.» C'est pourquoi un message avait été envoyé à Ahmed bey[2] à Mansourah. Or c'est dans l'intervalle

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 287 ; trad., VII, p. 285 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 157-158 ; Mengin, I, p. 92 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 196 ; Haidar Chihab, II, p. 396.

[2] Ahmed bey avait été rappelé au Caire peu avant l'attaque des Albanais contre Ibrahim bey et Othman bey Bardisi. En djoumada I 1220/août 1805, il réussit à pénétrer au Caire et, fait prisonnier, tenta d'assassiner Mohammed Ali. Il fut exécuté séance tenante (Djabarti, III, p. 284, 342-343 ; trad., VII, p. 277, 396 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 248-249 ; Mengin, I, p. 187-188 ; Guémard, p. 87-88 ; Mouriez, I, p. 226 ; Driault, *Mohammed Aly et Napoléon,* p. 195 ; Gouin, p. 160).

Quant au commandant en chef Mohammed Ali[1], cet officier dont la dignité grandissait et dont l'étoile resplendissait, il fortifia sa situation victorieuse au Caire : son ambition était couronnée de succès et ses adversaires étaient réduits à l'impuissance ; il avait fait preuve d'une grande finesse d'esprit et d'un jugement sûr. Telle était la destinée que le Dieu puissant et savant lui avait réservée.

(190) Le 5 dhoul-hidjdja (17 mars 1804), Hasan bey l'Albanais libéra Othman bey Khazindar et ses mamlouks[2], puis le fit sortir de la capitale. Dès le début de l'émeute, cet émir s'était réfugié dans la maison de Hasan bey l'Albanais, à qui l'attachaient des liens d'amitié. On affirma aussi qu'il obtint sa mise en liberté moyennant finances. Hasan bey lui remit une lettre destinée aux Mamlouks pour régler le sort des Albanais, au nombre de sept cents, qui se trouvaient en Haute Égypte auprès de l'émir Solaiman bey[3], préfet de la Haute Égypte, et Hasan bey avait grand'peur qu'à la suite des incidents de la capitale, les Mamlouks n'exterminent ces Albanais. C'est la raison qui l'avait poussé à donner asile à Othman bey Khazindar, à Omar bey et à quelques autres, et, en libérant Othman bey, il lui avait soigneusement recommandé de protéger ceux de ses compatriotes qui se trouvaient en Haute Égypte. Il l'avait en outre prévenu qu'au cas où ceux-ci subiraient quelque dommage, les Albanais massacreraient tous les Mamlouks qui étaient restés au Caire, ainsi que leurs femmes et leurs enfants, de façon à en supprimer toute trace. Or dans l'ensemble, les femmes des Mamlouks étaient demeurées au Caire, ainsi qu'un certain nombre de kyahyas, d'officiers supérieurs, de miliciens, auxquels il faut ajouter des familles d'origine mamlouke : le commandant en chef Mohammed Ali leur avait délivré des lettres de sauvegarde.

Quelque temps après son arrivée auprès de l'émir Ibrahim bey, Othman bey Khazindar envoya à Hasan bey l'Albanais la lettre suivante : « En ce qui concerne les troupes albanaises qui se trouvent dans notre région,

---

[1] Voir *Histoire scientifique*, IX, p. 158-159 ; Mengin, I, p. 93, 95-99.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 287 ; trad., VII, p. 285.

[3] Il s'agit de Solaiman bey Khazindar (plus haut, p. 178 ; Djabarti, III, p. 295 ; trad., VII, p. 304-305 ; Mengin, I, p. 107-108).

(189) ils avaient étalé au grand jour ce qui était déposé et enfoui chez eux depuis longtemps. Le malheur les avait frappés par sa soudaineté et ils avaient été obligés de tout abandonner pour s'enfuir au plus vite. Cette affaire leur avait coûté soixante mamlouks ; en outre environ deux cents domestiques et palefreniers avaient été tués. Cette bataille avait mis en vedette le courage de l'émir Ibrahim bey le Grand [1], qui s'était conduit en héros vaillant, en lutteur de premier ordre : comme un fauve impétueux, il s'était échappé des mains des Turcs et des Albanais, après en avoir fait un grand massacre, sous une pluie dense de projectiles. Assailli dans sa maison, il avait exterminé ses adversaires, qu'il avait étendus sur le carreau : ses habits et son sabre en étaient pleins de sang. Il avait alors changé de tenue, avait endossé une cuirasse de fer, coiffé un casque d'acier, enfourché un pur sang et avait quitté sa maison sabre au clair. Les soldats fuyaient à son approche ; arrivé près de la Citadelle, il se heurta à des barricades ; il les franchit, sabrant ceux qu'il rencontrait et faisant bondir sa monture. Il en échappa : soudain sa bête s'abattit, frappée par une balle. Ses mamlouks lui amenèrent un dromadaire et c'est ainsi qu'il put parvenir au mausolée de l'imam. Autour de lui, les pertes avaient été sévères, tant en mamlouks qu'en palefreniers. Nous avons signalé la mort de Ridouan, son chef d'état-major. Les Turcs et les Albanais furent émerveillés de la bravoure et de l'inlassable énergie de l'émir Ibrahim bey : « C'est un lion intrépide», disaient-ils. Or c'était alors un homme âgé de soixante ans. Telle est l'aventure de ce héros depuis sa sortie de son domicile jusqu'à son arrivée au tombeau de l'imam.

Les Mamlouks se regroupèrent et se réfugièrent à Toura, dans la banlieue du Caire : ainsi se termina au début de dhoul-hidjdja cette révolution tumultueuse [2].

Le 4 de ce mois (16 mars 1804), un certain nombre de Mamlouks décidèrent de se cantonner en Haute Égypte pour empêcher l'arrivée au Caire du blé, des autres grains et de toutes subsistances, afin d'affamer la capitale. Ils s'installèrent à Guizeh et empêchèrent les relations du Caire avec le dehors.

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 285 ; trad., VII, p. 279-280 ; Mengin, I, p. 89 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 190-192.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 287 ; trad., VII, p. 284-285 ; Sami pacha, II, p. 186.

administrer l'Égypte, comme suppléants, en attendant l'arrivée de Khourchid Ahmed pacha. Quant à Saiyid Ali pacha, il fut reconduit en prison à la Citadelle. *Avant comme après, les choses dépendent de Dieu*[1]. Louange à Celui qui dirige tout suivant sa volonté, qui règle le sort des humains à sa guise, qui modifie sans être modifié, qui change sans être changé ! C'est Dieu qui est le maître de ces révolutions extraordinaires, de ces faits étranges, qui se sont succédé en ce pays, désordres sanglants, dommages sinistres, que les cœurs abhorrent, que les intelligences réprouvent, qui ont plongé le peuple dans un océan de stupéfaction. On peut en vérité s'étonner de ces événements lourds d'importance, et nous ne pouvons guère décrire le délabrement et la ruine de ce pays durant toute l'année 1218, du commencement à la fin. Combien de fortunes, de trésors, ont péri, engloutis par la rapine et la maraude au cours de cette année ! Nous avons narré les incidents en détail, un par un, depuis la révolte des troupes contre Mohammed pacha, au début de moharram, en passant par le sac de Damiette, le pillage de Rosette, de Guizeh, de toutes les provinces en général, les vols de l'armée, la tyrannie des Mamlouks, il convient d'ajouter l'expulsion des Mamlouks hors du Caire, le pillage de leurs demeures en dhoul-hidjdja 1218. Quelles en furent les conséquences? Une catastrophe immense, un désastre effroyable, qui abolit la puissance des Mamlouks, par la perte de leurs richesses et de leurs biens, la captivité de leurs femmes, le déshonneur des jeunes filles : les pleurs et les lamentations se font entendre aujourd'hui dans leurs demeures par regret de la disparition des hommes et des fortunes, par commisération de ceux qui restent orphelins. Quelle épouvantable catastrophe pour eux, mais non pour eux seuls, car elle s'est étendue à tous les habitants de la capitale, gens de métiers, artisans et commerçants. En effet, selon leurs habitudes, ces Mamlouks leur empruntaient tout ce dont ils avaient besoin, pierres fines, vases d'or et d'argent, étoffes, vêtements, tapis, ce qui les tentait plus ou moins. On mesure le grand nombre de gens qui furent appauvris par ces événements. Quant aux Mamlouks, ils y recueillirent une ruine définitive, ils n'avaient rien emporté de leurs maisons, rien caché, mieux

[1] *Coran*, xxx, 3.

bations, car leurs adversaires, les Mamlouks, étaient toujours aux alentours, prêts à réunir leurs hommes et leurs officiers ; d'autre part, les Albanais, momentanément alliés des Seymens et de Mohammed pacha, pourraient très bien changer d'attitude, s'unir de nouveau aux Mamlouks, les faire revenir au Caire, massacrer les Seymens et faire disparaître leurs traces. Aussi ils se concertèrent et finirent par convenir d'un commun accord que Mohammed pacha devait être exilé en compagnie de son collègue Ibrahim pacha dans l'île de Chypre.

Cette décision prise, à la quatrième heure de la nuit, le mardi 1er dhoul-hidjdja 1218 (13 mars 1804), Mohammed pacha et Ibrahim pacha furent conduits à Boulak et mis sur un bateau qui devait les mener à Rosette : on leur donna cinquante bourses pour leurs frais de voyage [1].

Le mercredi 2 dhoul-hidjdja (14 mars 1804), Mohammed Ali convoqua un divan à son domicile sur l'étang de (188) l'Ezbékieh. L'assistance se composa de tous les officiers, des ulémas du Caire, du cadi de l'armée et des notables. Il communiqua un firman de la main de Khourchid pacha, arrivé d'Alexandrie et adressé aux maîtres du Caire : « La Sublime Porte, y était-il dit, m'a fait l'honneur de me confier le gouvernement de l'Égypte [2]. Je compte venir bientôt auprès de vous. » Après lecture de ce firman, le document fut enregistré dans les registres du tribunal sultanien. Mohammed Ali et Hasan bey l'Albanais furent désignés pour

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 287 ; trad., VII, p. 284-285 ; *Hist. scient.*, IX, p. 159-160 ; Mengin, I, p. 92 ; Mouriez, I, p. 151-152 ; P(risse) et H(amont), p. 4 ; Gouin, p. 132 ; Bréhier, p. 91 ; Weygand, I, p. 35 ; Durand-Viel, I, p. 13 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 192 ; Douin, *Polit. mam.*, II, p. xv, 124 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 128-129.

Mohammed pacha Khosrau ne devait jamais pardonner à Mohammed Ali et, tout-puissant à Constantinople, il resta l'adversaire irréductible du vice-roi d'Égypte. Il mourut presque centenaire en 1271/1855 (Cardin, p. 242, n. 1 ; *Encyclopédie*, II, p. 1036 ; Driault, *Mohamed Ali et Napoléon*, p. 178, 198 ; Douin, *Kutahia*, p. 70 ; Sabry, p. 98, 236 ; Sami bey, *Kamous el-a'lam*, III, p. 2044).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 285 ; trad., VII, p. 279 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 160 ; Mengin, I, p. 88, 94 ; Mouriez, I, p. 152-153 ; Gouin, p. 132 ; Bréhier, p. 91 ; Sabry, p. 26 ; Durand-Viel, I, p. 14 ; Weygand, I, p. 35-36 ; P(risse) et H(amont), p. 4 ; Paton, II, p. 13 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 190 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. xv, 124-125 ; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 23 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 128-129 ; Ghorbal, p. 224.

Dans la matinée de ce même lundi, Mohammed Ali alla prendre possession de la Citadelle : il y trouva Mohammed pacha [1], Ibrahim pacha et Saiyid Ali pacha. (187) Il fit descendre Mohammed pacha et Ibrahim pacha de la Citadelle. Les hérauts crièrent dès lors à travers les rues : « Paix et sécurité, habitants, d'ordre de Mohammed pacha, gouverneur de l'Égypte. » On emmena ce dernier au domicile de Mohammed Ali, sur l'étang de l'Ezbékieh. Il tint audience en ce lieu, et reçut les félicitations de tous les officiers, des notables de la capitale, des ulémas et des cheikhs, enfin de la population en général. Les proclamations continuèrent toute la journée du lundi. Tantôt c'était aux noms de Mohammed Ali et d'Ahmed bey [2] son neveu ; tantôt au nom de Mohammed pacha ; tantôt au nom de Hasan bey, frère de Taher pacha et doyen des Albanais. On arriva à ce fait que tout commandant fit publier des ordres à son propre compte. Dans l'après-midi, on rassembla les têtes des mamlouks tués, qu'on amoncela devant la maison de Mohammed Ali. On pensait les tanner pour les envoyer à Stamboul et faire ainsi connaître au gouvernement ottoman ce qui s'était passé. On rendit ensuite à Mohammed pacha les honneurs dus aux vizirs pour lui réserver son avenir. Tous les officiers se tenaient debout devant lui en signe d'obéissance déférente, à l'exception de Hasan bey, frère de Taher pacha et de son état-major, car ceux-ci le détestaient et étaient animés à son endroit d'une haine farouche, qui ne datait pas de la veille. Les Albanais et les Seymens ne s'entendaient pas ; et les Albanais étaient plus nombreux que les Turcs Seymens. Mohammed pacha se rendit compte des dangers qui l'attendaient et déclara aux officiers : « J'ai été révoqué par la Sublime Porte du gouvernement de l'Égypte. Il m'est impossible de m'immiscer dans la marche des affaires ni de prendre en mains l'administration. » Les officiers acquiescèrent à cette proposition, de crainte de provoquer des pertur-

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 278, 285 ; trad., VII, p. 261, 280-281 ; Mengin, I, p. 76, 90-91 ; Gouin, p. 132 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 190 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 125 ; Weygand, I, p. 35.

[2] Cet Ahmed bey, que Djabarti présente comme le compagnon (*rafik*) de Mohammed Ali, quitta l'Égypte en djoumada I 1219/août 1804 (Djabarti, III, p. 309 ; trad., VII, p. 333-334 ; Gouin, p. 138 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 230, 243 ; Mouriez, I, p. 179 ; Mengin, I, p. 138 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 180, 183).

l'impossibilité de résister, Ibrahim bey s'enfuit avec ses hommes et se fraya un chemin l'épée à la main à travers les troupes : dans sa chevauchée, l'émir tua un certain nombre de Seymens et d'Albanais. Il essaya de forcer une des portes de la Citadelle mais il ne le put pas et se retira au mausolée de l'imam (Chafiʿi). Il était blessé au poignet ; son fils Marzouk bey était également touché ; beaucoup de mamlouks étaient tombés, notamment son lieutenant, l'émir Ridouan kyahya [1].

Les troupes albanaises attaquèrent les demeures des beys et des kachefs : tout mamlouk rencontré était mis à mort. Toutes leurs maisons furent saccagées et dépouillées de leur argent, de leurs effets, des pierres précieuses, des tapis, des esclaves blanches et des négresses. La Citadelle [2] était occupée par l'émir Ahmed bey Kilardji et l'émir Sélim, agha des janissaires : lorsqu'ils virent le péril, ils quittèrent la Citadelle par la porte Bab el-Djébel. Une partie de la garnison était formée de Maghrébins, lesquels s'empressèrent de piller l'Hôtel de la monnaie et firent main basse sur l'or et l'argent.

Le lendemain lundi 30 dhoul-kaʿda 1218 (12 mars 1804) fut une journée tragique pour la ville du Caire. A la suite des événements de la nuit, le pillage continua, s'étendant aux maisons des Mamlouks, beys, kachefs, mamlouks, officiers subalternes et supérieurs. La population y participa et fit des provisions de beurre, d'huile, de blé et de toutes sortes de comestibles et de boissons. Elle poussait des cris de joie et de triomphe, escomptant bien la fin du gouvernement des Mamlouks. C'était chez elle un sentiment naturel, nous l'avons souvent dit. Pendant ce conflit et ces scènes de pillage, des crieurs publics parcouraient la ville pour donner les instructions suivantes : « Habitants soyez sans crainte et restez calmes. Ne bougez pas de vos demeures et vous serez protégés dans votre honneur et dans vos biens. Tels sont les ordres donnés par Mohammed Ali, commandant en chef et par Ahmed bey. »

---

(1) Cf. Djabarti, III, p. 201, 254, 279, 290-291 ; IV, p. 161 ; trad., VII, p. 68, 198, 262, 294-296 ; VIII, p. 363 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 403 (fausse identification).

On avait fait même courir le bruit de la mort d'Ibrahim (Douin, *Égypte de 1802,* p. 191, 195).

(2) Cf. Djabarti, III, p. 285 ; trad., VII, p. 280 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 155-156 ; Sami pacha, II, p. 186 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 190, 194-195.

bey se retira chez lui avec ses hommes et l'émir Othman bey en fit autant. Mohammed Ali, commandant en chef des Seymens et des Albanais, rentra à son hôtel à l'Ezbékieh et mit les officiers au courant de ce qui venait de se passer. Une politique prudente fut envisagée : les troupes furent alertées et des dispositions furent prises. Le bruit d'une émeute se répandit en ville, et l'on vit se fermer les okelles, les marchés et les portes de quartier. C'était le dimanche 29 dhoul-ka'da de l'année 1218 (11 mars 1804), correspondant au 28 février 1804 [1]. Les Mamlouks et l'armée passèrent cette nuit sur le pied de guerre. Soudain le malheur succéda au bonheur comme la nuit remplace le jour. Cinq cents Seymens étaient de service à l'hôtel de l'émir Othman bey, situé à Nasrieh : à minuit les soldats assaillirent la maison, et ce fut un assaut terrifiant, une heure d'épouvante : les hommes de l'émir Othman bey ripostèrent par une fusillade ininterrompue, à laquelle se mêla le canon. Les Seymens de service trahirent le bey et se joignirent aux Albanais qui menaient l'attaque. L'émir Othman bey et ses hommes réussirent à s'enfuir au plus fort de la lutte par la porte Nasrieh et quittèrent la ville. Un certain nombre de mamlouks étaient tombés. Il se réfugia au Kom el-Akareb, où, toujours harcelé par les troupes, il ne put pas tenir, dut encore battre en retraite et gagna le Vieux-Caire. (186) Le commandant des Seymens, Mohammed Ali, pénétra dans la maison de l'émir Othman bey et confisqua l'argent et les effets qu'il y trouva. Tel fut le sort de l'émir Othman bey.

L'émir Ibrahim bey [2] fut également bloqué dans son domicile qui fut envahi par les toits, à la suite d'une ouverture pratiquée dans un mur mitoyen, et la fusillade commença du haut de la terrasse. Dans

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 284 ; trad., VII, p. 277-279 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 152-154 ; Mengin, I, p. 86-88 ; Mouriez, I, p. 147-150 ; P(risse) et H(amont), p. 4 ; Paton, II, p. 11-13 ; Ali pacha, XVII, p. 56 ; Sami pacha, II, p. 185-186 ; Bréhier, p. 90-91 ; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 22-23 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 168 ; Weygand, I, p. 33 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 190, 194-195 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 121-123, 125, 136-137 ; Douin et Fawtier-Jones, *Campagne de 1807,* p. xvii ; Sammarco, *Regno,* I, p. 124-127 ; Haidar Chihab, II, p. 394-396 ; Gouin, p. 130-132.

[2] Cf. *Histoire scientifique,* IX, p. 155 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 190, 195 ; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 23.

le peuple, qui détestait le gouvernement des Mamlouks à cause des excès qu'ils commettaient, selon ce que nous avons exposé. L'incident qui le poussa et d'ailleurs lui prépara les voies, ce fut la trahison des Mamlouks envers Mohammed bey Elfi, leur tentative d'assassinat, l'expulsion de Guizeh de ses mamlouks : ces faits ont été narrés ci-dessus. Tel fut le point de départ de la décadence des Mamlouks : leur division même favorisa l'opposition de leurs adversaires, qui organisèrent les complots dont nous parlerons.

Le 29 dhoul-ka'da 1218 (11 mars 1804), les émirs Ibrahim bey et Othman bey Bardisi convoquèrent au domicile d'Ibrahim bey un divan, où ils réunirent les ulémas de la capitale et le commandant en chef Mohammed Ali. L'émir Othman bey prit la parole et s'adressant aux ulémas : « Comment se fait-il qu'après avoir donné votre consentement au projet d'impôt sur les propriétés en vue d'assurer le paiement des soldes, vous ayez ameuté la population et l'ayez soulevée contre nous? Je le jure solennellement si vous ne changez pas d'attitude et que vous ne contribuiez pas au recouvrement d'une année de loyer, c'est moi qui prendrai l'affaire en main et ce sont alors trois années que j'exigerai. »

(185) Le commandant en chef Mohammed Ali déclara alors : « Abandonne toi-même cette manière de voir envers une classe de pauvres et de malheureux. Nos soldes doivent provenir des caisses de l'État et ne pas être mises aux dépens de la population. Vous êtes dans ce pays les mandataires du sultan et vous possédez toutes les richesses de l'État. Payez les soldes des troupes sur votre fortune personnelle et ne pressurez pas des sujets qui ne sont que des victimes. Il ne nous est pas possible d'accepter que le peuple y contribue, même pour un seul dirhem et nous ne vous laisserons pas commettre cette iniquité.

— Il faudra pourtant en passer par là, dit l'émir Othman bey, et mes ordres seront exécutés.

— Cela ne t'est pas possible, répéta Mohammed Ali, et tu ne seras même pas en état de les mettre à exécution.

Et Mohammed Ali quitta la salle. Son attitude ne manquait pas de rouerie, en tout cas elle laissait paraître son hostilité.

Les émirs levèrent la séance au plus vite, rassemblèrent leurs hommes et distribuèrent en ville les membres de leurs Maisons. L'émir Ibrahim

l'intervention des émirs Ali bey Ayyoub [1] et Othman bey Yousouf [2], qui avaient parlé en ce sens avant même le déclenchement de l'émeute.

Le 26 de ce mois (8 mars 1804), Mohammed Ali, commandant en chef des Albanais et des Seymens, plaça quelques gardes dans chaque quartier de la ville pour empêcher les déprédations des soldats, et un crieur public assura qu'on pouvait compter sur la sécurité [3]. Il prescrivait d'arrêter tout soldat coupable, ou bien de donner son nom au chef du quartier pour qu'il prenne à son encontre les mesures voulues. Dès lors les soldats se tinrent tranquilles. Cet officier était intelligent, plein d'expérience, respecté des soldats à cause de la générosité de son caractère et de ses qualités de commandement. A partir de ce moment son étoile brilla d'un vif éclat [4] et il se résolut de venir à bout des Mamlouks en agissant dans le plus grand secret, mais il voulait au préalable jeter le discrédit sur eux et restreindre leur influence. Il ne mit les officiers au courant que plus tard, lorsqu'il fut certain de sa popularité parmi

[1] Ali Ayyoub se réfugia en Nubie, puis fit la paix avec Mohammed Ali. Ayant repris la lutte, il fut contraint de s'enfuir de nouveau dans le Sud. Grâcié par Mohammed Ali, il fut assassiné par ses collègues en 1235/1820 (Djabarti, III, p. 253, 281, 306, 339; IV, p. 89-90, 92-93, 114, 117, 246, 310; trad., VII, p. 196, 269, 328, 390; VIII, p. 197-198, 204-205, 255, 265; IX, p. 175, 314; Mengin, I, p. 178, 180, 329; Sammarco, *Regno*, I, p. 139; Sami pacha, II, p. 255).

[2] Ne cède pas à Mohammed Ali et peut se retirer en Nubie (Djabarti, III, p. 283, 284, 287; IV, p. 48-49, 112, 246; trad., VII, p. 274, 278, 285; VIII, p. 103-104, 250; IX, p. 175; Sami pacha, II, p. 255).

[3] Cf. Djabarti, III, p. 283-284; trad., VII, p. 275; Mengin, I, p. 85-86; Guémard, p. 85; Douin, *Politique mameluke*, II, p. xv; Durand-Viel, I, p. 13.

Voici ce qu'écrivait Lesseps le 5 mars : « Les chefs des Albanais m'ont envoyé dire qu'ils ne pourraient pas diriger à leur gré ni répondre d'une soldatesque effrénée, lors du mouvement terrible qu'ils préparaient et qui ne pouvait tarder d'éclater, qu'ils seraient fâchés que leur ami l'agent de France fût compromis; qu'ainsi ils me conseillaient d'aller passer quelques jours à Alexandrie pour attendre l'événement que les circonstances les forçaient de prendre » (Douin, *Égypte de 1802*, p. xii-xiii, 181).

[4] « Je puis vous assurer d'avance que le projet de Mohammed Ali n'est plus équivoque et qu'il veut s'emparer de l'autorité suprême », disait de Lesseps à Talleyrand le 23 février (Douin, *Égypte de 1802*, p. 173).

verser aux soldats trois mille sept cents bourses jusqu'à la fin de dhoul-hidjdja 1218, en leur demandant de quitter ensuite le pays. Pour cela ils songeaient à grever toutes les maisons d'habitation, les okelles et les boutiques du Caire, qui paieraient aux émirs le loyer d'une année entière. Tout local serait taxé en fonction de sa valeur locative, quel qu'en soit le montant [1], pour permettre aux émirs d'acquitter les soldes de l'armée. Après cette opération, ils ne garderaient que les soldats qu'ils choisiraient. Les ulémas approuvèrent. Cette contribution avait été créée par les Français durant leur occupation de l'Égypte. Dans ce but les émirs convoquèrent des architectes et répartirent les quartiers du Caire entre des kachefs et des architectes, chargés de faire le recencement des maisons d'habitation, des okelles et des boutiques. Ils estimèrent pour chaque immeuble la valeur locative annuelle, dont les propriétaires devaient payer le montant. Lorsque les habitants connurent cette mesure, ils furent unanimes à résister, frappèrent un des kachefs et les architectes qui l'accompagnaient. Ils s'assemblèrent pour courir sus aux hôtels des émirs et des Mamlouks. Les okelles et les boutiques furent closes, ainsi que les portes de la ville, et le peuple se souleva en masse. On criait : « Aujourd'hui nous chasserons ces tyrans mamlouks hors de la ville. » Les gens se groupaient par petits paquets. Quand les soldats virent ces attroupements tumultueux, ils tremblèrent et déclarèrent aux Cairotes : « Nous sommes avec vous et non pas contre vous. Marchons contre ces tyrans. » Dès qu'ils (184) furent au courant de ces incidents, les émirs réunirent les ulémas et le cadi de l'armée, pour les prier de parcourir les rues de la cité et d'annoncer que l'impôt ne serait pas appliqué. Ils devraient faire la proclamation suivante : « Habitants, rentrez dans vos foyers et cessez vos récriminations. » Cette démarche fut effectuée et tout rentra dans l'ordre : l'impôt avait été aboli, disait-on, sur

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 283-284 ; trad., VII, p. 274-277 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 148-150 ; Mengin, I, p. 84 ; Mouriez, I, p. 145 ; Sami pacha, II, p. 284-285 ; Haidar Chihab, II, p. 394.

Rappelons que la taxe locative dont il est question causa, en fin de compte, l'insurrection du Caire contre Bonaparte (Djabarti, III, p. 25 ; trad., VI, p. 54-55).

Voir la chronique d'Ibn Iyas (trad. Wiet, II, p. 312-315).

par-dessus tout le retour d'une puissance européenne en Égypte, comme nous l'avons exposé.

Le 21 de ce mois (3 mars 1804), l'émir Othman bey ordonna la démolition du fort de Daher Baibars : on enleva les importants approvisionnements et dépôts de munitions, la poudre et les armes qui s'y trouvaient. On démantela également le fort de Kôm el-Rich [1] édifié par les Français après les trente-quatre jours de siège à la fin de l'année 1214. (183) Ensuite l'émir Othman bey fit ceindre d'une muraille le fort de Kôm el-Akareb, situé au-dessus de la porte de Nasrieh, parce que son palais se trouvait en cet endroit.

Sur ces entrefaites arriva l'émir Solaiman kachef Baouab [2], venu solliciter son pardon des émirs Ibrahim bey et Othman bey : il l'obtint et put rentrer au Caire. L'intéressé était un ancien mamlouk de Mourad bey le Grand, mais s'était joint à l'émir Mohammed bey Elfi.

On apprit à ce moment que l'émir Mohammed bey Elfi était passé chez les Bédouins de la région orientale. Certaines lettres de lui étaient, disait-on, parvenues au Caire.

Le 23 de ce mois (5 mars 1804), l'émir Ibrahim bey réunit un conseil des ulémas et les informa que les officiers s'étaient mis d'accord pour

---

[1] Le nom de Kôm el-Rich est ancien (Makrizi, *Khitat,* éd. de Boulak, II, p. 130 ; Moberg, *Zwei waqf-urkunden, Muséon,* tirage à part du tome XII, p. 55 ; Ali pacha, III, p. 70-71, 100).

Sur son utilisation comme fortin et sa situation, voir : Djabarti, III, p. 102 ; IV, p. 294 ; trad., VI, p. 196 ; IX, p. 278 ; *Histoire scientifique,* VII, p. 437 ; *Revue d'Égypte,* II, p. 297 et plan à p. 314.

[2] Solaiman Baouab s'était battu contre les Français. Son caractère indépendant empêcha son union complète avec les autres beys dans leurs luttes contre Mohammed Ali, avec lequel il finit par faire la paix. Pourtant il fut mis à mort lors du massacre de 1811 : pour comble d'ironie, c'est lui qui dirigea le cortège des mamlouks se rendant à la Citadelle (Djabarti, III, p. 253, 280, 281, 283 ; IV, p. 83, 122, 123, 127, 128, 131 ; trad., VII, p. 197, 266, 269, 274 ; VIII, p. 181, 275, 276, 286, 287, 295 ; Gouin, p. 130, 201, 211-212 ; Mengin, I, p. 144, 149, 157, 319, 339, 355, 361, 362, 367 ; de la Jonquière, III, p. 614 ; Ali pacha, I, p. 70 ; XIV, p. 72-73 ; Sami pacha, II, p. 228-229 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 15, 20, 21, 27, 64, 66, 72, 74, 76, 80, 85, 142, 146, 206 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xv, 192, 194).

Ali. La ville fut fermée, de crainte d'une véritable guerre civile entre les mutins et les Mamlouks. L'émir Othman bey rassura les militaires en promettant le versement de leurs soldes. Ils se calmèrent et rentrèrent dans leurs casernes. Les émirs se mirent d'accord pour payer trois mois de solde, ce qui laissait encore un arriéré de quatre mois pour atteindre la fin de dhoul-hidjdja 1218.

La révolte militaire avait eu pour origine l'encouragement des officiers. Les émirs en conçurent de l'amertume et voulurent exciter la population contre les soldats. Ils convoquèrent les ulémas, c'est-à-dire les cheikhs de la ville, et leur communiquèrent leurs pensées secrètes et intimes, pour les pousser à agir. Ils eurent affaire à des individus courageux en paroles, au cœur faible, une cohue qu'on rassemble au sifflet et qu'un coup de baguette disperse. La disparition du gouvernement des Mamlouks leur était agréable, ainsi que les honneurs et le faste dont ils s'entouraient, et les Cairotes acceptaient le maintien des Albanais et des Seymens. Ces troupes, disaient-ils, appartiennent au sultan, et nous devons nous louer de leur présence et leur en être reconnaissants, même s'ils défloraient un millier de jeunes filles par jour. Nous avons déjà dépeint cette sorte de gens au cours de cet ouvrage.

Le 18 de ce mois (29 février 1804), le consul de France s'en alla à Alexandrie[1]. D'ailleurs un certain nombre de Français étaient déjà partis et nombreux étaient ceux qui songeaient à quitter le Caire. Cet exode provoquait les commentaires des Égyptiens : « De graves événements vont sans doute se passer, disaient-ils. » Ils craignaient

---

mon départ du Caire» (Douin, *Égypte de 1802*, p. 180-182 ; cf. Djabarti, III, p. 282-283 ; trad., VII, p. 273 ; Mengin, I, p. 83 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 145-147 ; Weygand, I, p. 32).

[1] Cf. Djabarti, III, p. 282-283 ; trad., VII, p. 273 ; Mengin, I, p. 84 ; Mouriez, I, p. 144-145 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 127.

Le consul d'Angleterre écrit alors : « I have the honour to inform Your Lordship that the French Agent arrived here (Alexandrie) yesterday (5 mars) from Cairo ; which place he has thought proper to quit on account of the violent disturbances existing there. All the principal merchants have followed his example, and in a few days there will not be seen a single European in the Metropolis of Egypt » (Douin, *Politique mameluke*, II, p. 116, 118, 123).

ce mépris des coutumes religieuses qui s'ajoutait aux embarras de la capitale.

Dans l'intervalle, les Seymens et les Albanais complotèrent une révolte contre les Mamlouks : ils s'y étaient résolus en voyant les divisions et les zizanies de ces derniers. Ils affichaient leur mépris pour eux : « S'ils ne paient pas nos soldes, disaient-ils en public, nous les chasserons et nous les remplacerons. Sans nous, ils n'auraient pas pu rentrer au Caire. » Ils exigèrent de nouveau l'arriéré de leurs soldes, soit sept mois, ils le firent sans vergogne et en articulant des menaces. Les Mamlouks étaient vraiment inquiets et commençaient à se repentir de ce qu'ils avaient fait, puisque c'étaient eux qui avaient imprudemment donné le signal des émeutes : leur adversaire s'était enfui, mais ce n'était pas un succès tangible ; en fait, il n'avaient gagné à l'opération que la désunion, ce qui procurait de la force à leurs ennemis. Les risques augmentaient tous les jours, les soldats se livraient à des brigandages qui scandalisaient la population, rendaient l'atmosphère irrespirable et oppressaient les habitants au point qu'il aurait été plus doux pour eux d'habiter (182) leurs propres tombes. Les désordres en ville ne cessaient pas, la soldatesque était déchaînée, les coups de feu ne discontinuaient pas, toute justice était exclue, les gouvernants étaient des coquins, personne n'était là pour empêcher quoi que ce soit, aucun intercesseur, aucun défenseur, aucun obstacle, en bref tout était permis, et n'était sauf que celui qui réussissait à se cacher.

Le mardi 16 de ce mois (27 février 1804), éclata une immense insurrection de l'armée [1]. Les soldats s'en prirent à leur commandant Mohammed

---

[1] Lesseps écrit le 5 mars : « Mohammed Ali me fit appeler ; il me dit, sous la promesse du secret, que tous les Albanais voulaient leur paie et qu'aussitôt qu'ils auraient reçu quelque argent, ils feraient un éclat qui les remettrait dans les bonnes grâces de la Porte et détruirait les Mamlouks. Le 27 février, il y a eu au Caire un fort mouvement soldatesque. Othman bey, alarmé, distribua quelques jours de paie aux troupes et promit dans vingt jours de payer deux mois, d'en donner encore un autre au bout de quarante jours, mais à condition qu'ils renonceraient au reste de ce qui était dû. L'assemblée des binbachis consentit à cet arrangement, mais seulement en apparence, et la plus grande fermentation existait encore à

moment voulu. Un négociant anglais resta au consulat pour hisser le pavillon.

Dans les journées qui suivirent l'affaire de Guizeh, les Albanais et les Seymens recommencèrent leurs spoliations en pleine rue : ils barraient les chemins, s'en prenaient à tous les isolés, les tuaient et faisaient disparaître toute trace de leurs crimes, si bien qu'ils restaient impunis. Beaucoup de gens furent ainsi les victimes de cette licence effrénée et (181) nombreuses furent les femmes assassinées durant cette période. Comme on les attaquait dans les rues, les femmes renoncèrent à sortir, et les hommes les imitèrent, se contentant pour subsister des provisions qu'ils avaient. Ce furent encore des journées terribles.

Le 12 dhoul-kaʿda (23 février 1804), on apprit que le consul de France faisait aussi ses préparatifs pour quitter le Caire [1] et s'en aller à Alexandrie : il avait rendu visite à l'émir Othman bey Bardisi et avait pris son agrément à ce sujet. Des commérages fusèrent en ville, où circulaient les versions les plus diverses. L'émir Othman bey envoya dire au consul qu'il n'entrait pas dans ses vues et, sur une nouvelle insistance pressante du consul, il opposa un refus définitif. « Ce départ n'est pas convenable dans les circonstances présentes, lui dit-il. On bavarde beaucoup trop sur le voyage du consul d'Angleterre ». Le consul de France renonça donc à son déplacement.

Le 13 de ce mois (24 février 1804), l'émir du pèlerinage Mahmoud Chaouich emmena le mahmal : des pèlerins maghrébins qui étaient venus par mer se joignirent au cortège, lequel s'achemina sur la route de Suez pour prendre la voie de mer, comme nous l'avons déjà dit. Il n'y eut pas cette année de caravane maghrébine proprement dite, mais quelques isolés. Le convoi s'embarqua à Suez pour Djedda, emportant le mahmal. Les musulmans étaient au comble de la tristesse en voyant

---

[1] Lesseps avait envisagé de quitter le Caire dès novembre 1803. Il écrit le 23 février 1804 : « Lorsque j'ai fait entendre que je m'en irais si l'on me traitait ainsi (il s'agit de la demande d'argent signalée plus haut, p. 224), on m'a déclaré positivement qu'on ne me laisserait pas partir. » Cette lettre témoigne d'ailleurs de l'inquiétude du consul de France (Douin, *Égypte de 1802*, p. 174-177 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 122-123).

saisirent des mamlouks qui étaient restés et reprirent la route du Caire.

Le lundi 8 dhoul-ka'da (19 février 1804), on connut au Caire la disparition de Mohammed bey Elfi. A ce moment le cheikh [Nasr ibn] Chédid se trouvait en conférence avec l'émir Othman bey Bardisi [1], qui lui déclara : « Il est vraisemblable, cheikh des Arabes, que c'est vous qui avez facilité la fuite de Mohammed bey. — Mon bey, répondit le cheikh, je ne sais absolument rien, vu que je me trouve depuis deux jours au Caire. — Ce sont vos femmes qui l'ont fait fuir. — C'est exact.» Et Mohammed bey a dit à ma femme : « Je crains qu'Othman bey ne mette à mort le cheikh des Arabes à cause de moi, et ma femme lui répondit : Peu importe que le père meure [2], son fils Mousallem lui survivra, mais notre honneur sera sauf.» L'émir Othman bey se borna à rire en disant : « Telle est la loi des Arabes. Ta femme a agi correctement.»

Ce même lundi 8 dhoul-ka'da (19 février 1804), eut lieu la procession du mahmal sacré au Karameidan [3] : l'émir Ibrahim bey, accompagné de quelques beys, le remit à l'émir du pèlerinage, suivant l'usage. Ce dignitaire se nommait Mahmoud Chaouich. La population de la ville se précipita pour voir le défilé selon son habitude : c'était en effet une fête pour tous les musulmans, grands et petits, un jour de sortie, de joie et de liesse. Pourtant le peuple rentra chez lui en murmurant et en se plaignant de la situation de la capitale, de la décadence de l'esprit religieux, du règne du désordre, de la misère des musulmans. Il n'y a de force et de puissance qu'en Dieu l'Omnipotent.

Le jeudi 11 de ce mois (22 février 1804), le consul d'Angleterre quitta le Caire [4] emportant toutes ses archives ; le motif de son départ resta inconnu et fit beaucoup jaser : nous en donnerons la raison au

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 282 ; trad., VII, p. 271.

[2] Le sens n'est pas douteux, mais le mot حرق me reste incompréhensible.

[3] Cf. Djabarti, III, p. 280 ; trad., VII, p. 265.

[4] Cf. Djabarti, III, p. 282 ; trad., VII, p. 272 ; Mengin, I, p. 82 ; Sami pacha, II, p. 184 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 175-176 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 102-103, 111 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 122.

Mohammed bey Elfi le Grand. — Sois le bienvenu, émir, je te félicite d'être en bonne santé. Ne crains rien. — Où est le cheikh, dame des Arabes? — Le cheikh est au Caire. Il a été mandé par l'émir Othman bey Bardisi, gouverneur de tous les Arabes, pour te rechercher. — Que faire alors, dame des Arabes? Je crains d'être la cause de la mort du cheikh. — Qu'il te serve de rançon, bey, et que Dieu protège son fils Mousallem!» Elle fit préparer sur-le-champ un cheval de race, qui valait bien mille dinars d'or, fit venir quatre hommes dévoués et leur dit : «Conduisez-le dans les montagnes.» L'émir partit, laissant ses mamlouks dans le hameau en leur disant : «N'ayez pas peur, il ne vous arrivera rien de mal, on n'en veut pas aux pieds, mais à la tête.» Il partit donc seul avec son escorte bédouine et se réfugia au sein de la tribu de Maʿazi. En effet, au moment où les beys, après leur sortie du Caire en 1213, erraient dans le pays, cet émir s'était allié à ce groupe en épousant une jeune fille de cette tribu [1], bien avant son départ pour l'Angleterre. La femme était morte dans les environs d'Alexandrie. Il retournait cette fois se mettre sous la protection de ses parents arabes.

Quelques instants après sa fuite, les troupes envahirent les vaisseaux sur lesquels il naviguait, pour perquisitionner. Les mariniers répondirent à leurs questions : «Le bey s'est enfui et nous ne savons pas de quel côté il s'est dirigé.» Les soldats firent main basse sur l'argent et les objets : or il y avait à bord des marchandises de valeur destinées à des négociants, en provenance de Rosette. Tout fut pillé. Les soldats se dirigèrent ensuite (180) vers le hameau et s'informèrent de Mohammed bey Elfi. «Nous ne savons pas ce qu'il est devenu», leur répondit-on. Ils se

[1] Ce cheikh est connu pour avoir signé en 1785 un traité avec un représentant de la France pour escorter les caravanes commerciales (Djabarti, II, p. 105; trad., IV, p. 178; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 172; Charles-Roux, *Origines,* p. 150; Combe, *Lettres de Mure, Bulletin de la société royale de géographie d'Égypte,* XIV, p. 192, 205; Dehérain, p. 194). Il fit assez tardivement sa soumission à Bonaparte (Djabarti, III, p. 56; trad., VI, p. 113). Plus tard, ce chef bédouin, puis son fils, furent dévoués à Mohammed Ali (Djabarti, IV, p. 10, 58, 136, 172, 307; trad., VIII, p. 22, 126, 309; IX, p. 10-11, 308).

Sur la tribu, voir Mengin, II, p. 307.

Lorsque, le lendemain matin dimanche, la nouvelle de ce coup de main se répandit en ville, la population fut effrayée et s'abstint de sortir dans les rues ; la journée se passa dans l'inquiétude.

Deux jours avant cette échauffourée, l'écuyer en chef avait été envoyé à Rosette par les émirs Ibrahim bey et Othman bey Bardisi pour faire régler le sort de l'émir Mohammed bey Elfi le Grand [1]. On s'était basé sur les propres déclarations de l'émir Mohammed bey Elfi à Rosette même, où il avait fait savoir qu'il resterait à Rosette pendant quatre jours et qu'il se mettrait en route le dimanche pour aller au Caire. Un complet synchronisme avait été prévu, fixant les deux opérations au dimanche. Mais il en fut autrement, car l'émir Mohammed bey Elfi était parti de Rosette le jeudi soir. Le dimanche, les vaisseaux qui le transportaient étaient arrivés à proximité du canal Faraounieh. Là il rencontra des barques venant du Caire et demanda (179) aux passagers des nouvelles de la capitale. On lui répondit que les bruits couraient au Caire d'une attaque de Guizeh accomplie cette nuit même par les Mamlouks et les Albanais, que l'émir Hosein bey Ouachchach avait été tué et que son propre mamlouk, Mohammed bey Elfi le Jeune, avait pris le large. L'émir Mohammed bey Elfi le Grand changea de couleur, tout révolutionné : il se leva aussitôt pour aller s'installer sur le pont du bateau et scruta les alentours à l'aide d'une longue-vue. Il aperçut des troupes venant dans sa direction par terre et par eau. Il descendit immédiatement du pont, ouvrit sa malle, en sortit deux boîtes et, sautant sur la rive orientale, se sauva à toutes jambes avec ses dix mamlouks en direction d'un hameau bédouin. Le cheikh de ce hameau, un certain Nasr ibn Chédid [2], les vit se précipiter dans le harem en criant : « Nous nous plaçons sous votre protection, Arabes, — Qui es-tu, émir? dit la femme. — Je suis

[1] Cf. Djabarti, III, p. 280-282 ; trad., VII, p. 265-270 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 144-145 ; Mengin, I, p. 77-80 ; Mouriez, I, p. 140-142 ; Paton, II, p. 11 ; Gouin, p. 129-130 ; Bréhier, p. 89 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. xii, 172 ; *Précis,* III, p. 208 ; Guémard, p. 84-85 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. xiv, 128 ; Sami pacha, II, p. 184 ; Weygand, I, p. 32 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 131 ; Haidar Chihab, II, p. 393-394.

[2] Cf. Douin, *Égypte de 1802,* p. 26.

éhonté, et tous les Mamlouks eurent à souffrir des complications qu'il créait et des méfaits qu'il commettait. Dès qu'il apprit le retour de son chef, il fit prévenir les employés de l'administration de l'impôt foncier qu'en matière fiscale son sceau particulier était seul valable, et les invita à obéir exclusivement à ses instructions, en attendant la présence de son maître. Lorsque cette outrecuidance présomptueuse fut connue des émirs Ibrahim bey et Othman bey, ainsi que des autres émirs, leur colère ne connut plus de bornes. Ils se résolurent de se débarrasser au plus vite de cette famille et de faire disparaître ce ferment de désordre [1].

(178) Dans la nuit du vendredi au samedi 6 du mois de dhoul-ka'da (17 février 1804), après avoir conclu un accord, ils s'abouchèrent avec l'émir Mohammed Ali, commandant en chef des Albanais, et le mirent au courant de leur conjuration. Mille Albanais furent désignés pour aller assaillir Guizeh pendant la nuit, sous le commandement de Mohammed Ali et de l'émir Othman bey Bardisi. L'essentiel était de supprimer l'émir Mohammed bey Elfi le Jeune. Dans la nuit du lendemain, l'émir Othman bey et Mohammed Ali emmenèrent leur monde à Rodah : pour passer sur la rive de Guizeh, ils utilisèrent les embarcations que commandait Hosein bey le Zantiote et, avant l'aurore, ils attaquaient le palais de l'émir bey Elfi le Jeune. Mais la mèche avait été éventée et, pris de peur, Mohammed bey et ses compagnons s'étaient enfuis à toute la vitesse de leurs montures. Son palais fut envahi et pillé de fond en comble, cependant que quelques beys, à la tête d'un détachement, filaient à toute bride à la poursuite du fugitif. Ils réussirent à atteindre certains beys de sa suite et à les tuer, entre autres l'émir Hosein bey Ouachchach [2] et son khazindar. Les troupes mirent à sac toute la ville de Guizeh, dont elles rapportèrent un butin considérable : du palais lui-même elles raflèrent de grandes sommes d'argent et des objets précieux.

---

[1] Au consul d'Angleterre qui lui faisait des représentations, Othman Bardisi aurait répondu : « Je n'ai pas été l'agresseur, cette malheureuse affaire a été provoquée par Elfi le Jeune, qui, à la première nouvelle de l'arrivée de son maître, avait intimé au chef de la douane de ne plus désormais reconnaître mes ordres. » (Mengin, I, p. 82.)

[2] Cf. Djabarti, III, p. 290 ; IV, p. 40 ; trad., VII, p. 293-294 ; VIII, p. 85 ; Gouin, p. 180 ; Haidar Chihab, II, p. 393.

se composait de (177) tout petits bâtiments, montés par cinquante hommes et armés de deux canons. Ces petits bateaux, en très grand nombre, étaient destinés à un transport de troupes pour l'invasion de l'Angleterre [1]. Brest se trouve en effet sur l'Océan, assez près de l'Angleterre.

Le samedi 6 (17 février 1804), les Mamlouks se préparaient à se rendre au devant de l'émir Mohammed bey Elfi le Grand, de retour d'Angleterre, et certains membres de sa Maison s'étaient déjà mis en route. Ce jour-là, l'émir Ibrahim bey et l'émir Othman bey Bardisi résolurent de tendre une embuscade à l'émir Mohammed bey Elfi pour l'assassiner, lui et tous ses compagnons [2] : à aucun prix ils ne voulaient le laisser arriver sain et sauf, pour qu'ensuite il se révolte contre eux. D'un commun accord, ils ordonnèrent à l'émir Yahya, à Rosette, de faire périr Mohammed bey, pendant qu'eux-mêmes se jetteraient de nuit dans Guizeh et tueraient Mohammed bey Elfi le Jeune. Ces deux opérations devaient être simultanées. Ultérieurement ils pourraient se débarrasser de ses mamlouks, un par un, et extirper cette famille qui les inquiétait gravement. Leur crainte venait de ce qu'avant de partir, l'émir Mohammed bey Elfi le Grand avait fait signer par tous les émirs [3] une déclaration lui reconnaissant la primauté sur tous les autres émirs se trouvant au Caire, au cas où il reviendrait de sa mission en Angleterre. Cet émir était d'humeur hautaine et sa Maison se signalait par son cynisme, principalement l'officier qu'il avait désigné pour le remplacer pendant son voyage et qu'on appelait Mohammed bey Elfi le Jeune. Ce dernier, durant l'absence de son maître, joua au potentat, n'admettant aucune résistance à ses ordres ni aucune objection : c'était un pillard

---

[1] C'est un peu tôt pour qu'on trouve ici une allusion au camp de Boulogne.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 279-280 ; trad., VII, p. 263-265 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 138-141 ; Mengin, I, p. 76-77 ; Mouriez, I, p. 120-121 ; Bréhier, p. 89 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 167, 170, 171, 173, 178-179 ; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 22 ; *Précis*, III, p. 208-209 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. xiv ; Sami pacha, II, p. 184 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 120-121.

[3] On lit dans une dépêche de Rossetti : « L'Elfi, prima di partire per Londra, ha preso una dichiarazione da Ibrahim bey e dal Bardissi che, riuscendo nell'oggetto del suo viaggio, gli avrebbero ceduto la preminenza, ed ha convenuto di lasciare il di lui Mameluco in qualità di procuratore » (Sammarco, *Regno*, I, p. 122).

certaine renommée et était monté en grade au moment où les émirs avaient occupé le Caire en 1218 : on lui confia alors le commandement d'une troupe d'étrangers, composée de diverses races, chrétiens grecs et coptes, nègres des monts du Takrour, Français, et ces derniers instruisaient l'ensemble aux méthodes européennes. Son corps comprenait plus de huit cents hommes et certains d'entre eux portaient un casque de cuivre jaune. A la date où nous sommes parvenus, Hosein bey le Zantiote tenait garnison à Rodah. Au cours de l'année 1218, il avait exterminé beaucoup de Turcs, janissaires et Seymens, comme cela a été dit en son lieu.

Le 4 dhoul-ka'da (15 février 1804), des bruits en provenance de Smyrne et de l'île de Cos [1] firent connaître que quatre vaisseaux anglais de la flotte de l'Atlantique avaient pénétré dans le port français de Brest pour tenter d'incendier certains bâtiments qui y stationnaient : les forts avaient riposté par des boulets et des bombes, et avaient incendié ces quatre navires. A bord de l'un d'eux se trouvait le célèbre général Smith, celui-là même qui avait détruit la flotte française en rade d'Alexandrie et qui avait plus tard soutenu les efforts d'Ahmed pacha Djezzar dans sa lutte contre les Français en 1213, comme nous l'avons montré. La valeur militaire de ce général avait été très appréciée. Au cours de l'occupation française et de la campagne de Syrie il avait eu l'occasion de rendre des services signalés aux chrétiens des ports de la région de Damas, en les protégeant contre les musulmans. Ceci se passait au moment où il collaborait avec Ahmed pacha Djezzar, assiégé par les Français dans Saint-Jean-d'Acre. Ce général mourut donc brûlé sur son navire, et à l'immense joie des Français correspondit la grande affliction des Anglais.

On disait aussi qu'une grande escadre était en construction à Brest : elle

---

le Juif ou le Français (Djabarti, III, p. 268-269 ; trad., VII, p. 235-236 ; *Histoire scientifique,* V, p. 160 ; IX, p. 108-109 ; Gouin, p. 124, 140 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 89-91, 122 ; Guémard, p. 64-67, 70, 72, 80, 403 ; Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* IX, p. 6, 13 ; Guémard, *Aventuriers,* p. 20-24 ; Auriant, *Aventuriers,* p. 9-78 ; Mouriez, I, p. 188).

[1] Dans le texte : Istankoi = Stancho (Hammer, III, p. 358 ; XIV, p. 237 ; XVII, p. 208).

communiqua cette bonne nouvelle à l'émir Othman bey Bardisi, lequel prévint tous ses autres collègues. Ceci se passa dans le courant de l'après-midi.

Le navire transportant l'émir Mohammed bey Elfi le Grand était arrivé à l'échelle d'Aboukir le lundi 1er. Le lendemain mardi, le bey débarquait avec sa suite, composée de dix mamlouks, dans le port de Rosette : il était reçu avec les honneurs voulus par l'émir Yahya bey, préfet de la ville, qui lui témoigna beaucoup de considération. Les principaux personnages et les notables de la cité étaient venus à sa rencontre. Au cours de son entretien avec l'émir Yahya bey, Mohammed bey Elfi se donna comme le souverain de l'Égypte, dont les ordres et les interdictions auraient force de loi, et qui aurait le pas sur l'ensemble des émirs de l'Égypte. Il allait être inévitablement leur chef dès son retour parmi eux : il articula même à leur endroit des paroles menaçantes. L'émir Yahya s'empressa de communiquer à son maître l'émir Othman bey Bardisi ses observations personnelles sur le compte de l'émir Mohammed bey Elfi le Grand pendant son entrevue avec lui, ainsi que les déclarations faites par ce dernier. Tels sont les faits marquants de l'entrée dans le port de Rosette de l'émir Mohammed bey Elfi, dont le séjour en Angleterre avait duré onze mois.

Les émirs du Caire apprirent cette nouvelle la nuit suivante et en manifestèrent une grande joie : on tira plus de cent coups de canon, et le lendemain matin vendredi, de nouvelles salves se firent entendre à Guizeh, à Rodah et à la Citadelle. Guizeh était entre les mains de l'émir Mohammed bey Elfi le Jeune, qui suppléait son maître. A Rodah régnait sans conteste l'émir Hosein le Zantiote : les Égyptiens le nommaient Hosein bey le Juif, parce que c'était un juif de naissance, qui s'était fait chrétien dans l'île de Zante, d'où il était originaire, puis s'était converti à l'islam dès son arrivée en Égypte. En même temps que lui, deux de ses frères s'étaient faits musulmans : l'aîné se nommait Ahmed agha (176) et le plus jeune, Ibrahim agha. Ces deux derniers sont morts ; le premier, Ahmed agha, a été tué dans le Sennar, et Ibrahim est mort au Caire en 1218 [1]. Le cadet Hosein bey avait acquis en Égypte une

[1] Il s'agit des trois frères Gaéta, originaires de Zante, tous trois convertis à l'islam. Le plus célèbre pour l'histoire de l'Égypte est Hosein, dit le Zantiote,

attaqué à la ville sainte de la Mecque, qui brille d'une si belle pureté. Nous avons fait marcher contre lui Ali pacha, gouverneur de Bagdad, pour qu'il efface dans ces régions les traces de cet homme. Nous avons également chargé Ahmed pacha Djezzar [1], le gouverneur de Damas, de Sidon et de tout le territoire syrien, de prendre l'offensive avec des forces suffisantes pour le chasser de la province du Hedjaz. Envoyez-lui trente mille ardebs de céréales et fournissez-lui deux mille de vos cavaliers d'élite. Conformez-vous à nos ordres royaux, émanés du ministère de Notre Porte auguste». Tel était le texte de ce hatt-i-chérif.

Ainsi se passa le mois de chaoual, fertile en incidents et en émeutes. Le jeudi (175) 4 dhoul-ka'da de l'année 1218 (15 février 1804), arriva un courrier du consul d'Angleterre à Alexandrie, qui apportait à son collègue du Caire une lettre pour lui apprendre qu'un navire venant d'Angleterre avait mouillé dans le port : il avait à son bord l'émir Mohammed bey Elfi, qui était parti naguère en Angleterre [2]. Le consul du Caire

---

[1] «Ahmed Djezzar a feint une maladie pour s'excuser de conduire la caravane de la Mecque» (Douin, *Égypte de 1802,* p. 153).

Pourtant on affirmait qu'il n'avait été nommé gouverneur de Damas (plus haut, p. 198) qu'à la condition de se mettre en campagne contre les Ouahhabites (Douin, *Politique mameluke,* II, p. 38).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 279 ; trad., VII, p. 262-263 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 134-138 ; Mengin, I, p. 74-75 ; Paton, II, p. 10 ; Mouriez, I, p. 137-140 ; Gouin, p. 120 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 167, 170, 187, 205 ; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 22 ; Guémard, p. 84 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. vii, xii, xiv, 69, 94 et seq., 107-108 ; Durand-Viel, I, p. 18, 44 ; Sami pacha, II, p. 183 ; Weygand, I, p. 31 ; P(risse) et H(amont), p. 3 ; Bréhier, p. 88-89 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 120 ; Haidar Chihab, II, p. 293.

Drovetti écrit à la date du 16 février : «L'arrivée de ce bey, puissant rival d'Othman bey Bardisi, fera époque dans les combinaisons politiques du gouvernement mamlouk en Égypte, et tout le monde s'attend avec raison à des conflits d'autorité qui pourraient avoir des résultats favorables à une tierce puissance qui saurait en tirer parti. Les conflits qui pourraient résulter de la situation différente des deux beys ne sauraient ajouter aux malheurs de l'Égypte et surtout du Caire qui est le théâtre journalier des vexations et brigandages de toute espèce. Comment se défaire des Arnaoutes? C'est le problème qui tourmente tous les esprits et pour la solution duquel personne ne sait trouver un seul argument de probabilité» (Douin, *Égypte de 1802,* p. 164-165).

les émirs du Caire imposèrent aux consuls européens [1] la somme de deux cents bourses, pour commencer de toute urgence [2] l'expédition du mahmal au Hedjaz par voie de mer [3], nous en avons expliqué la raison.

Durant ce mois, les Cairotes furent en proie à de grandes alarmes, en ville comme en banlieue, à cause des déprédations et des attaques dans les rues et sur les chemins.

Cette année, on vit monter le prix des marchandises, de toutes sortes, des vivres et des boissons. Le ratl de paille coûta douze pièces d'argent; on vit périr beaucoup de bétail faute de fourrage; ce fut une période de détresse, d'insécurité, de vexations et d'arbitraire.

A la fin du mois, les soldats se révoltèrent contre leurs officiers en réclamant leurs soldes : il faillit y avoir une révolution. Les officiers finirent par se cacher et envoyèrent prévenir les émirs Ibrahim bey et Othman bey, qui promirent d'arranger l'affaire. Ils réussirent à apaiser les factieux.

En ce mois encore, arriva un hatt-i-chérif du sultan Sélim adressé aux émirs d'Égypte pour les informer que la France venait de faire sortir une flotte immense et avait mobilisé de nombreuses troupes contre les Anglais leurs ennemis. « Veillez sur les frontières, y lisait-on, car peut-être viendront-ils sur nos rivages. En ce cas repoussez-les et d'une façon définitive. D'autre part, nous avons appris l'apparition de l'hérésiarque Abd el-Ouahhab [4]. Il s'est attaché les bédouins et s'est

[1] Voir les détails de cette affaire dans Douin, *Égypte de 1802*, p. 170, 174, 175; Haidar Chihab, II, p. 393; Sammarco, *Regno*, I, p. 123.

[2] *Tachhil* : cf. Djabarti, III, p. 216; Sami pacha, II, p. 209, 213; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XVIII, p. 203; Deny, p. 159; Ghorbal, *Misr*, p. 16, 18, 26.

[3] La caravane partit en effet par mer (Djabarti, III, p. 278-279; trad., VII, p. 261-262).

[4] Sur l'action des Ouahhabites jusqu'à cette date, voir Djabarti, III, p. 220, 232-235, 246, 252, 253, 255-257, 260, 264, 278; trad., VII, p. 107, 140, 143, 146, 149, 176, 177, 192, 195, 196, 200-203, 212, 223, 260; Mengin, I, p. 40; Douin, *Égypte de 1802*, p. 39, 41-46, 58-60, 67, 71, 77-79, 141, 152-154, 157; Haidar Chihab, II, p. 370-371; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 33, 37-38, 75-80; Sammarco, *Regno*, I, p. 57, 79, 84, 95.

se dirigeait sur l'Orient. Parfois l'on affirmait qu'elle venait en Égypte ; à d'autres moments, qu'elle allait enlever l'île de Malte aux Anglais ; on supposait aussi qu'elle voguait vers la Syrie. On faisait courir à ce sujet mille bruits extravagants. En Orient, on avait très peur et l'on assurait que les Anglais expédiaient une flotte et des troupes, en compagnie de l'émir Mohammed bey Elfi le Grand, qui séjournait en Angleterre, comme nous l'avons dit plus haut. Tous ces préparatifs étaient destinés à empêcher les Français de s'emparer de l'Égypte.

Tant que ces bruits persistèrent, l'esprit des Égyptiens ne fut pas tranquille : l'ambition de ces États d'Europe les inquiétait d'autant plus qu'ils avaient pu apprécier le courage et la vaillance de leurs soldats. Ils disaient : « Il est inévitable qu'un prince d'Europe ne s'empare de l'Égypte, parce que les musulmans sont incapables de résister au choc de l'ennemi, de tenir dans des combats en rase campagne et qu'ils manquent d'esprit de suite. » Ils avaient lu des livres et des brochures, avaient consulté les almanachs et les ouvrages de controverse et avaient pu confronter les présages avec la réalité des faits.

A cette époque des nouvelles circulèrent touchant le prince Constantin, fils du sultan Alexandre, souverain de la Russie : on prétendit que ce Moscovite avait conquis la principauté de Géorgie, ainsi que certaines provinces de la Perse et qu'il s'était avancé en direction de Bagdad. Le gouvernement ottoman éprouvait une grande terreur de l'action de ce prince, qu'on appelait le « petit roc » ou encore le « barbare jaune ». Cet État moscovite avait eu de nombreux conflits armés avec le gouvernement ottoman, depuis le règne du sultan Ahmed, intronisé en 1115 de l'hégire (1703) jusqu'à celui du sultan Sélim, qui monta sur le trône en 1203 (1789). Ce nouvel empire ne cessa de croître et de grandir jusqu'à cette date de l'année 1218, instaurant un gouvernement despotique sur les sujets des pays annexés, toujours victorieux au cours des luttes et des batailles. Cet État prenait donc de l'importance, et quelle importance, et les événements lui étaient constamment propices, si bien qu'il s'empara des provinces des Tartares, de la Géorgie et de la Perse. Ses limites territoriales s'allongent, et Dieu seul sait à quel point elles s'arrêteront.

(174) Le 28 de ce mois de chaoual de l'année 1218 (10 février 1804),

tous les soldats la tenue des mamlouks. Il pourrait ainsi répartir les hommes entre tous les beys et kachefs, estimant que dorénavant mamlouks et Albanais constitueraient une formation unique, sans discordes. Les Albanais y trouveraient un grand avantage, car ils ne toucheraient plus d'appointements ni une solde déterminée, mais seraient comme les mamlouks à la charge des beys et des kachefs. Il leur donna un délai pour en délibérer et lui rendre réponse. Il leur déclara explicitement qu'ils ne devaient plus compter sur des soldes et que les Mamlouks seraient dans l'incapacité de verser des allocations aussi lourdes ou de payer des sommes aussi importantes. Ceux-ci partirent.

Pendant tout ce temps-là les troupes turques et albanaises persévéraient à voler et à causer des dégâts dans la ville du Caire. Ce furent des journées très dures à supporter : de toutes parts des supplications s'élevaient vers Dieu pour voir cesser cet état de choses ; nul ne se hasardait à vaquer à ses affaires et tout le monde se claquemurait chez soi ; personne ne s'aventurait dans les rues, pour ne pas s'exposer aux attentats des soldats. Les Mamlouks, maîtres du Caire, ne faisaient rien contre eux, parce qu'ils avaient besoin de ces hommes, car les émirs manquaient d'effectifs.

(173) Pendant ce mois, on reçut de toutes les parties du monde la nouvelle qu'une importante flotte française était entrée en Méditerranée, composée de nombreux bâtiments et bondée de troupes[1]. On disait qu'elle

[1] Le consul d'Angleterre écrit à la date du 4 février 1804 : « The French Agent has officially signified to the Beys that the Republican fleet, now in the Mediterranean, is positively destined for this country. » (Douin, *Politique mameluke,* II, p. 97).

D'autre part Drovetti prévient Lesseps le 11 février que le chancelier du vice-consul d'Angleterre « est venu très officieusement l'entretenir de la probabilité de l'arrivée d'une escadre anglaise ou des troupes de débarquement, en lui demandant le secret » (Douin, *Égypte de 1802,* p. 161).

Quelques jours plus tard, Drovetti signale au ministère des Affaires Étrangères qu'on avait fait craindre à Khourchid pacha l'arrivée d'une armée française en « Égypte » (Douin, *Égypte de 1802,* p. 166). En effet, un envoyé anglais avait déclaré à ce pacha que si l'escadre anglaise qui bloquait Toulon desserrait son étreinte, « l'escadre française profiterait certainement de cette occasion pour venir en Égypte » (*Ibid.,* p. 168).

De semblables bruits avaient déjà circulé en safar 1217/juin 1802 (Djabarti, III, p. 222 ; trad., VII, p. 113-114).

Nous y reviendrons plus bas, p. 174 et 201 du texte.

accident leur avait été très pénible [1]. Ils ajoutaient qu'ils avaient honte de rentrer au Caire, qu'ils avaient grand'peur et demandaient une sauvegarde des émirs, soit de l'émir Ibrahim bey et de l'émir Othman bey Bardisi. L'émir Ibrahim réunit un divan ; il confirma la nouvelle du meurtre d'Ali pacha, en exprima ses regrets et sa stupéfaction. Par cette attitude feinte il jetait de la poudre aux yeux. L'émir Ibrahim avait été très sournois dans cette affaire : quelques jours auparavant l'on avait enfermé Saiyid Ali pacha à la Citadelle.

Le 25 de ce mois (7 février 1804), on vit arriver au Caire l'émir Solaiman bey, gendre de l'émir Ibrahim bey, et l'émir Mohammed bey Manfoukh, qui avaient accompagné Ali pacha ; ils furent reçus par les émirs Ibrahim bey et Othman bey Bardisi. L'émir Ibrahim bey leur manifesta son ressentiment (172) et décida de supprimer leur titre de beys, car ils s'étaient montrés indignes de cet honneur, puisqu'ils s'étaient abaissés jusqu'à tuer Ali pacha, sans qu'il en ait donné l'ordre. Les autres émirs intercédèrent en leur faveur et réussirent à calmer une seconde fois la fureur de l'émir Ibrahim bey. Mais ce n'était qu'une comédie qu'il jouait pour la galerie.

C'est à cette époque que s'engagea une correspondance entre les émirs d'Égypte et Ahmed Khourchid pacha [2], résidant en la ville d'Alexandrie : c'était un homme intelligent, plein de qualités, bien élevé, soigneux dans sa tâche, ingénieux devant les événements. Il laissait croire aux Mamlouks qu'il était d'accord avec eux, affectant de conformer ses désirs aux leurs, et allant au devant de leurs volontés.

En ce jour, les émirs tinrent un divan, au cours duquel ils donnèrent lecture d'un firman qui venait d'arriver de la Sublime Porte et qui exprimait la satisfaction du gouvernement en soutenant le point de vue des Mamlouks.

L'émir Ibrahim bey demanda aux commandants des Albanais de faire revêtir à leurs troupes l'uniforme des mamlouks [3], de façon à donner à

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 277 ; trad., VII, p. 258-259.

[2] Sur ces tractations, voir Douin, *Égypte de 1802*, p. 154-156, 158-161, 176, 188 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 109 ; Haidar Chihab, II, p. 352.

[3] Est-ce une riposte aux ordres qu'avait donnés le grand vizir, peu après son arrivée en Égypte? Celui-ci avait prescrit aux émirs égyptiens de porter la tenue ottomane (Djabarti, III, p. 202 ; trad., VII, p. 73).

avions données de faire le nécessaire. Or il a attendu sept mois, en nous promettant d'arriver, mais il tergiversait : il voulait avoir le temps de se constituer une armée suffisante pour ruiner définitivement le pays. Personne ne put le faire changer d'avis de quelque manière que ce fût, et il persista dans son entêtement, puisqu'il vint à la tête d'un fort détachement. C'est pourquoi nous lui avons interdit l'accès de la capitale, de crainte qu'une émeute n'éclatât entre son armée (171) et les troupes casernées en ville. Il refusa donc de renvoyer ses soldats et de n'entrer au Caire qu'accompagné de sa garde particulière. S'en tenant à son premier dessein, il a préféré emmener ses troupes sur la route de Syrie, se refusant à imiter la conduite des vizirs précédents pour le protocole de l'entrée dans la capitale. A cause de lui, le pèlerinage n'a pas eu lieu cette année, il n'y a pas eu de mahmal sacré par suite du trouble qu'il a provoqué, de son parti pris, de son refus d'entrer en ville avec un esprit de conciliation et de paix, de l'absence d'un émir du pèlerinage qui eût pu s'occuper des détails indispensables. Jusqu'à la fin de ramadan nous avons attendu son bon plaisir, dans l'espoir que la caravane des pèlerins pourrait être acheminée à la date voulue. Mais le pacha ne s'est pas présenté dans la forme que nous avions souhaitée, et nous avons été dans l'obligation de faire partir le pèlerinage par mer et non par terre, puisque l'échéance en était passée. Voilà l'exposé des faits que nous désirions soumettre à la haute appréciation de Votre Excellence.»

Tel fut le rapport adressé par les émirs d'Égypte à la Sublime Porte au sujet des agissements d'Ali pacha. Il avait été contresigné par les ulémas, les imams, les cadis, le chambellan, le délégué du Harem Impérial et par quelques personnalités ottomanes qui se trouvaient au Caire.

Durant l'intervalle, les préparatifs du pèlerinage avaient été effectués de façon à faire partir le convoi pour le Hedjaz par voie de mer : les musulmans furent très désappointés de ne pas avoir la procession solennelle du pèlerinage comme d'habitude.

Le 23 de ce mois (5 février 1804), l'on vit arriver quelques gardes de l'escorte d'Ali pacha. Les Mamlouks les avaient renvoyés après avoir mis à mort le pacha, leur remettant une lettre aux émirs par laquelle ils les informaient qu'il avait été tué par les Arabes bédouins et que cet

monde, le pacha compris, puis qu'ils avaient enterré ce dernier sur place dans une localité nommée Miniet Sabra[1]. Après enquête, les émirs du Caire acquirent la conviction que la chose était exacte. (On prétendait que le meurtre du pacha avait eu lieu à l'instigation de la Sublime Porte, qui ne lui avait pas pardonné l'incident avec les sept consuls européens d'Alexandrie, mais cette version offre peu de créance.) Après l'avoir fait diriger sur la Syrie, les émirs du Caire avaient fait venir le cadi de l'armée et le chambellan envoyé par la Sublime Porte pour lui communiquer des instructions ainsi qu'aux Mamlouks d'Égypte et à certaines notabilités ottomanes se trouvant au Caire. Ils avaient rassemblé les bagages du pacha, dont ils dressèrent l'inventaire estimatif, lequel se monta à trente bourses. Ils voulurent les confier à ce chambellan, qui les transmettrait au gouvernement ottoman, mais celui-ci déclina cette mission par crainte de représailles du gouvernement. Les émirs du Caire rédigèrent pour la Sublime Porte un rapport par lequel ils exposaient l'attitude néfaste du pacha, ses intrigues parmi les troupes, pour semer la zizanie. Ils ajoutaient qu'il avait laissé la capitale à la merci de l'armée pendant trois jours : la soldatesque avait dépouillé la population et commis des meurtres et, sans la protection du ciel, la malice de cet homme aurait causé des désastres sans précédent.

Enfin on y lisait : « Il rassembla un corps important pour entrer au Caire : or nous désirions qu'il éloigne ces forces, car il n'en avait nul besoin, puisqu'il n'y avait personne qui pouvait l'empêcher de faire son entrée solennelle, comme cela se pratiquait avec les anciens vizirs. Nous lui avons témoigné une obéissance décente et nous l'avons sollicité à plusieurs reprises de venir. Nous lui avons envoyé, suivant l'usage, l'émir Ridouan, lieutenant-colonel du corps des chaouchs, et l'émir Mahmoud, adjudant des Azabs, et ces deux dignitaires se mirent entièrement à sa disposition, conformément aux instructions que nous leur

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 276; trad., VII, p. 254-256; *Histoire scientifique,* IX, p. 132; Mouriez, I, p. 134; Gouin, p. 127; P(risse) et H(amont), p. 3; Sami pacha, II, p. 183; Douin, *Égypte de 1802*, p. xi, 148, 149, 156-158, 170, 185, 188, 205; Douin, *Politique mameluke,* II, p. xiii-xiv, 97; Guémard, p. 84; *Précis,* III, p. 208; Sabry, p. 25; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 20; Weygand, I, p. 31; Durand-Viel, I, p. 13.

été nommé par le grand vizir lorsque celui-ci se trouvait au Caire ; l'émir Mohammed bey Elfi était parti en Angleterre. Il y avait donc vingt-sept beys qui gouvernaient l'Égypte en 1218. Ils assirent leur situation d'une façon absolue, s'installèrent à la Citadelle, en firent sortir par ruse les Albanais et mirent la main sur les arsenaux abondants que les Français avaient laissés en Égypte au moment de leur évacuation. Bref ils obtinrent dans ce pays une autorité réelle [1]. Leur chef fut l'émir Ibrahim bey le Grand, secondé par l'émir Othman bey Bardisi, ancien mamlouk de l'émir Mourad bey le Grand, qui suivait les traces de son maître dans les voies de la générosité et de la libéralité par la profusion de ses largesses. Il avait fait son nid et nombreux étaient les poussins qui se groupaient autour de lui.

Durant le mois de ramadan (décembre 1803-janvier 1804), c'est-à-dire un mois avant l'époque que nous passons en revue, il avait distribué des sommes considérables aux troupes. Les beys d'Égypte avaient l'habitude, pendant le mois de ramadan, de donner des tenues aux mamlouks de leur Maison : cela valait pour une année. Cette fois-ci, cet émir surpassa tous ses devanciers dans cette répartition de vêtements et l'on en parla beaucoup. C'était un homme intelligent et fin, d'un beau physique, et d'un naturel avenant.

Le 15 chaoual de l'an 1218 (28 janvier 1804), l'émir Mohammed bey Elfi revint de son expédition [2] et s'établit à son quartier général à Guizeh. Son retour eut lieu un samedi : on lui fit un accueil splendide et des salves d'artillerie furent tirées en son honneur. Le lendemain dimanche 16 (29 janvier), les émirs vinrent le saluer et ce furent de nouvelles salves.

On vit rentrer le 18 (31 janvier) les Mamlouks qui étaient partis reconduire les troupes d'Ali pacha : ils les avaient accompagnées, disait-on, jusqu'à Salheyeh et les avait laissé continuer leur route vers la Syrie. Le bruit courut qu'ils les avaient exterminées en route.

(170) On disait aussi au Caire, vers le 20 de ce mois (2 février) que les mamlouks de l'escorte d'Ali pacha Djazaïrli s'étaient pris de querelle au delà de Belbeis avec la garde du pacha et qu'ils avaient tué tout le

---

[1] Cf. *Histoire scientifique,* IX, p. 133.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 278; trad., VII, I p. 259-260.

(début de juillet 1803) et la fin de son pouvoir se produisait le 13 chaoual (27 janvier 1804) : son gouvernement avait donc duré sept mois, pendant lesquels il n'avait rencontré que déboires et peines. En somme depuis son arrivée, il avait été victime d'un mauvais sort [1]. Le premier revers avait été le siège de la tour de Rosette, qui fut prise de vive force, et la capture par les Mamlouks de son frère Saiyid Ali pacha, qui resta prisonnier des Mamlouks. Sa deuxième malchance fut un incident qui le mit aux prises avec les sept consuls d'Alexandrie ; un accord fut conclu en quatorze articles, accord qu'il signa malgré lui, parce que l'affaire avait été soumise à la Sublime Porte, et qui ne donna pas satisfaction aux consuls de Russie et de Suède. Et voici les clauses de cet accord [2] :

La troisième calamité fut celle qui devait provoquer sa chute, comme nous venons de l'exposer. *Avant comme après, les choses dépendent de Dieu* [3]. Quel homme de génie que celui qui a donné à cette ville le nom de dominatrice (*Kahira,* le Caire), puisque celui qui en désire la conquête ou veut même l'approcher ne peut voir combler ses désirs et n'atteint pas son but. C'est la colline bénie qui n'admet pas de partage. Ses défenseurs sont comme des flèches rapides, leurs yeux sont pénétrants, ce sont des gens racés, des chevaliers valeureux, qui n'ont leurs pareils dans aucune autre ville, renommés par leur courage et leur intrépidité à la guerre.

En 1218, il y eut huit beys qui entrèrent au Caire, survivants de la Maison de Mohammed bey Aboul-Dhahab. (169) Ils s'étaient expatriés de 1213 à 1217, pendant les cinq années qui s'étaient écoulées entre le débarquement des Français et l'arrivée des troupes ottomanes. Au début de 1218, ils étaient revenus au Caire et avaient pris possession de la ville et de ses alentours. Quinze autres beys avaient été promus en une seule fois, comme nous l'avons dit. Ahmed bey avait été nommé préfet de Damiette ; Yahya bey, préfet de Rosette ; l'émir Ali bey Ayyoub avait

---

[1] *Ankis* est une expression familière à Nicolas (Desgranges, p. 28, 42, 74 ; cf. Haidar Chihab, II, p. 227, 235, 257).

[2] Suit un blanc de deux pages. Peu importe, car cette convention se trouve avec ses quatorze articles dans Douin, *Égypte de 1802,* p. 130-132.

[3] *Coran,* xxx, 3.

el-Nasr, et ce fut une journée heureuse. On arrêta le cheikh Sadat [1] et les notables qui avaient reçu des lettres d'Ali pacha pendant qu'il était encore le maître. Mais sur des intercessions, ceux-ci furent relaxés.

Ce vizir [2] avait été élevé à Alger dans le Maghreb ; il devint pacha de cette ville, d'où il dut s'enfuir à la suite d'une émeute de la population. Il s'était réfugié en Égypte auprès de l'émir Mourad bey et était resté quelques jours à Guizeh sous sa protection. Ce bey lui manifesta beaucoup d'égards et le pacha demeura près de lui jusqu'à l'arrivée des Français. (168) A ce moment il quitta le Caire avec l'émir Mourad bey pour combattre les Français. Après la défaite des Mamlouks, l'intéressé quitta l'Égypte et se rendit à Stamboul. Ce vizir, très riche, était un homme rusé et diabolique. Les Mamlouks d'Égypte l'avaient traité généreusement lorsqu'il était venu chercher refuge auprès d'eux, alors qu'il avait été chassé honteusement de son poste. Ils étaient en droit de penser qu'en prenant le gouvernement de l'Égypte il se rappellerait leurs bontés, mais ils s'aperçurent qu'il n'était venu que pour les mater, les humilier et contrarier leurs ambitions. Il leur fut pénible de constater qu'il n'eut pas la conduite d'un homme qui se souvient des bienfaits et le traitèrent en conséquence. Finalement il fut brisé et puni pour ses mauvaises intentions. Ce vizir avait débarqué à Alexandrie au milieu de rabiʿ I 1218

---

[1] Sur les activités du cheikh Sadat, qui mourut en 1228/1813, voir Djabarti, III, p. 150, 152, 276 ; IV, p. 185-195 ; trad., VI, p. 283, 288 ; VII, p. 253-254 ; IX, p. 38-60 ; Mengin, I, p. 69, 430 ; *Histoire scientifique*, VII, p. 470 ; Rousseau, p. 44, 287, 288, 297, 298 ; Rigault, p. 77, 206 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon*, p. 160.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 4, 6, 41, 94, 144-145, 182, 276-277 ; IV, p. 194 ; trad., VI, p. 8-9, 13, 87, 181, 273 ; VII, p. 41, 256-258 ; IX, p. 57 ; Desgranges, p. 25 ; Mengin, I, p. 41, 70-72 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 38 ; Guémard, p. 84, 261 ; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 19-20 ; Ghorbal, p. 213.

Cette oraison funèbre, bien que dépourvue d'aménité, semble convenir au personnage. Les consuls d'Alexandrie parlent de cet homme « dont la renommée seule jette la terreur parmi les Européens établis en Turquie, et suffit à troubler la liberté et la paix de leurs opérations commerciales ». Et Drovetti est aussi catégorique : « Ali pacha a dans son âme, dans son éducation, dans les habitudes de sa vie, tous les éléments qui peuvent constituer un Djezzar pacha » (Douin, *Égypte de 1802*, p. 110, 120, 162-163).

et lui dirent : « L'émir Mohammed bey Elfi nous a ordonné de te conduire en Syrie. » Il s'en montra très affligé : « Pourquoi agir ainsi? dit-il. Qu'ai-je donc fait? — C'est une peine infime par rapport à ta trahison, lui répondirent-ils ». Ils lui amenèrent des chevaux et tous partirent sur la route de Syrie [1]. Ils le convoyèrent jusqu'à Salheyeh et l'abandonnèrent là, après lui avoir enlevé tout ce qu'il possédait, même ses chaussures. En vérité, ce vizir fut traité d'une façon ignominieuse, jusqu'à être un objet de risée.

Après avoir donné ces instructions, la veille du mardi, l'émir Othman bey Bardisi resta tout le mercredi en dehors de la ville. Le jeudi 13 (27 janvier 1804), il donna à ses troupes l'ordre de se mettre en marche et rentra en ville en triomphe : de nombreuses salves d'artillerie furent tirées de tous les forts et de toutes les tours. Les Mamlouks manifestaient une joie frénétique de cette victoire : le vainqueur pénétra par le Bab

---

d'Othman Bardisi, citée dans la note précédente, parle de Mohammed Mellaouani, promu bey quelques semaines plus tôt (plus haut, p. 205).

Sauf erreur, Djabarti ignore Mohammed Mellaouani ; mais lorsqu'il parle de la promotion des quinze beys, il cite un Mohammed qui avait appartenu à la Maison de Mohammed Manfoukh (Djabarti, III, p. 268 ; trad., VII, p. 234).

D'où deux hypothèses : 1° Mohammed Manfoukh n'aurait pas été tué à Aboukir ; 2° dans le cas contraire, le surnom de Manfoukh aurait passé à un autre Mohammed, qui pourrait être Mohammed Mellaouani (voir le cas des deux Mohammed Elfi).

Quoi qu'il en soit, les chroniques et les correspondances consulaires continuent à faire mention d'un Mohammed Manfoukh.

L'intéressé poursuit la lutte contre Mohammed Ali, conclut la paix avec lui en 1225/1810. Puis, nouveau silence des historiens et nous apprenons enfin qu'il se trouve à Dongolah. Un voyageur anglais le rencontre en 1822 entre Mourzouk et Tripoli (Djabarti, III, p. 279, 282-284, 304, 338 ; IV, p. 101, 102, 110, 310 ; trad., VII, p. 263, 272, 274, 277, 325, 387 ; VIII, p. 224, 226, 245 ; IX, p. 314 ; Mengin, I, p. 291, 293, 312, 341, 342, 345 ; Prince Toussoun, *La fin des Mamelouks, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XV, p. 190, 198, 201, 204 ; Guémard, *Aventuriers,* p. 27 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha d'Égypte,* p. 124, 189, 190, 206 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 8, 55, 115, 158 ; Douin et Fawtier-Jones, *Campagne de 1807,* p. LXI-LXII ; Gouin, p. 202, 207, 339 ; Sami pacha, II, p. 209, 221).

[1] Cf. Mengin, I, p. 70 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 131 ; Ali pacha, XI, p. 98 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 90-91 ; Haidar Chihab, II, p. 392.

davantage. (167) On lui montra les lettres qu'il avait envoyées aux soldats et à des notables de la capitale ; on lui rappela les turpitudes qu'il avait préméditées et dont il n'avait tiré aucun profit. Ce raffinement fut donc un dur châtiment : le vizir y perdit son prestige et son argent. Beaucoup d'individus avaient péri à cause de lui, et son frère Saiyid Ali pacha avait été fait prisonnier par les Égyptiens, comme nous l'avons signalé : il resta captif, mourant à petit feu de la honte qu'il éprouvait du traitement infligé à son frère Ali pacha. Telle fut la fin de ce vizir [1].

Les Mamlouks avaient donc vendu les dépouilles du pacha en sa présence le 11 chaoual (25 janvier 1804). Le soir même, les émirs Solaiman bey [2] et Mohammed bey Manfoukh [3] vinrent le prendre dans son pavillon

---

[1] A cette date même, Othman bey Bardisi envoyait à Lesseps la lettre suivante, qui est un précieux commentaire du texte de Nicolas :

« Ali pacha n'a fait autre chose qu'écrire des lettres à diverses personnes au Caire, et aux beys qui sont dans la Haute Égypte. Nous nous sommes emparés de ces lettres, et aussitôt qu'elles ont été en notre pouvoir, nous avons été convaincus des intentions perfides du dit pacha. Avant son arrivée, nous étions d'accord que s'il commettait quelque faute contre nous, il ne pourrait plus nous en reprocher les suites. Nous lui avons remis les lettres et lui avons fait savoir que nous avions connaissance de tous ses torts et qu'il méritait la mort ; mais que nous nous contentions d'exiger qu'il fût remis aux lieux où il était avant de traiter avec nous. Nous avons pris le parti de l'envoyer du côté de Gaza, accompagné par nos fils les sandjaks Solaiman bey Ibrahim et Mohammed Mellaouani, aujourd'hui même à midi » (Douin, *Égypte de 1802*, p. 149).

Cf. Mengin, I, p. 65, 66, 69 ; Mouriez, I, p. 132-133 ; Sabry, p. 25.

[2] Solaiman bey Ibrahim.

[3] La mention de Mohammed Manfoukh soulève une grosse difficulté.

Lorsque nous avons rencontré Mohammed Manfoukh (plus haut, p. 16), il délibérait avec ses collègues au moment de l'arrivée de Bonaparte. Auparavant nous ne savions rien de lui et Djabarti ne lui consacre aucune biographie particulière.

Nous apprenons qu'il continua la lutte en Haute Égypte contre les Français (plus haut, p. 139, n. 4).

Nous le voyons se méfier du capitan pacha Hosein (Djabarti, III, p. 198-199 ; trad., VII, p. 62-63), et pourtant il tombe dans le guet-apens d'Aboukir où il trouve la mort (plus haut, p. 143).

Sa présence aux côtés d'Ali pacha est donc d'autant plus curieuse que la lettre

Mohammed bey Elfi fit entourer le camp ennemi et somma de mettre bas les armes : la terreur fut si grande chez les soldats d'Ali pacha qu'ils jetèrent leurs armes. Tel fut le sort de l'armée d'Ali pacha [1].

Ali pacha avait donc dressé son pavillon en face de celui de l'émir Othman bey. Ali kachef l'amena à Mohammed bey Elfi, qui lui promit la vie sauve, à lui et à ses soldats. « Notre intention, lui dit-il, est de faire partir ton armée en Syrie. Quant à toi, tu vas venir au Caire. » Et l'émir Mohammed bey revint à son pavillon. L'émir Othman bey refusa de recevoir le pacha. Les Mamlouks cernèrent le pavillon du pacha, puis pillèrent toutes les tentes de son armée. Ils s'emparèrent aussi de la cargaison des soixante vaisseaux, qui étaient venus d'Alexandrie par la voie du Nil, chargés de ses bagages, de ses canons, de munitions, de bombes et d'autres approvisionnements. Ses soldats, désarmés, furent dirigés sur la Syrie sous escorte d'Arabes bédouins : évidemment leur sécurité n'était qu'illusoire et beaucoup furent assassinés durant le trajet, d'autres s'enfuirent affolés [2].

Ce fut pour ce vizir une immense humiliation : il en tomba malade de honte et pleura des larmes amères. On racontait qu'avant son départ de Stamboul il avait garanti au gouvernement ottoman une annuité forfaitaire représentant les revenus de l'Égypte, et qu'il avait même versé d'avance deux mille bourses. Le malheureux avait donc engagé une part importante de sa fortune avant de quitter Stamboul, pour aboutir à ce résultat piteux.

Le mardi 11 (25 janvier 1804), les soldats mamlouks commencèrent à mettre en vente les objets provenant des bagages du pacha. Ils le firent en sa présence : ils organisèrent une mise à l'encan pour l'humilier

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 271-275 ; trad., VII, p. 243-251 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 128-131 ; Mengin, I, p. 66-69 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 143-148.

[2] « Je sais positivement, écrit Lesseps le 21 janvier, qu'il n'arrivera aucun homme à sa destination ; leur arrêt est dicté et les exécuteurs, accoutumés à de telles expéditions, sont trop avides de dépouiller pour ne pas suivre avec joie des ordres de cette nature » (Douin, *Égypte de 1802*, p. 145).

Cf. Djabarti, III, p. 274-275 ; trad., VII, p. 250-253 ; Mengin, I, p. 70 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 131 ; Ali pacha, I, p. 64 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 89-90.

l'émir Othman bey retournait à son camp, où l'armée reçut l'ordre de le rejoindre au grand complet. Ne restèrent dans la capitale que le cheikh el-béled Ibrahim bey, l'agha des janissaires Sélim et le préfet de la ville Hasan agha. Une proclamation fut faite dans les rues prescrivant à tous les soldats, sous peine de mort, de quitter la capitale et de se rendre au camp. Cependant les troupes perpétraient d'odieux attentats. Les Seymens commettaient des meurtres en pleine rue, pillaient et volaient ; la ville fut fermée et les gens ne bougèrent plus de chez eux : ce furent des journées de terreur. L'agha des janissaires et le préfet faisaient des rondes pour appréhender les soldats qui n'étaient pas partis et les faisaient exécuter secrètement. Ces deux officiers prévinrent l'émir Othman bey des crimes dont les soldats se rendaient coupables et le bey avertit immédiatement Mohammed Ali, commandant en chef des Albanais et des Seymens. Il fut décidé que tout soldat qui ne serait pas muni d'une permission signée de Mohammed Ali serait mis à mort. Cette mesure fut exécutée : les portes de la capitale furent fermées et des gardes y furent placés avec consigne de ne pas laisser pénétrer en ville les soldats qui ne possèderaient pas un laissez-passer muni du sceau de Mohammed Ali. Tout militaire qui se présentait était en outre fouillé pour voir s'il n'était pas porteur de messages d'Ali pacha : en fait on découvrit sur certains d'entre eux des lettres adressées à des officiers ou à des particuliers. Le but des soldats était cynique : ils désiraient que les troubles s'accroissent pour être à même de mieux piller. Ce furent des journées où la violence régna en maîtresse, et cette situation ne fit qu'empirer jusqu'au jeudi 6 chaoual béni de l'année 1218 (19 janvier 1804)[1].

(166) Ce jour-là, l'émir Mohammed bey Elfi s'approcha du camp d'Ali pacha et fit mine d'attaquer. Ali pacha, pris de peur, demanda une suspension d'armes, prétextant que ses desseins étaient les mêmes que ceux des Mamlouks. L'émir Mohammed bey Elfi lui dépêcha le nommé Ali kachef pour lui déclarer : « Si tu ne sors pas immédiatement de ton camp pour te désolidariser des autres, nous allons attaquer le village et nous y mettrons le feu. » Le pacha sortit à l'instant et un pavillon fut dressé loin de son camp, mais près de celui des Mamlouks. Alors l'émir

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 271-272 ; trad., VII, p. 242-245 ; Mengin, I, p. 65.

le camp d'Ali pacha, qui se trouvait ainsi placé entre deux armées, celle de Bardisi et celle d'Elfi. Ali pacha commença à se repentir et à regretter sa conduite : Dieu nous préserve des faux pas ! Il fit dire aux Mamlouks : « Je ne suis pas venu dans un dessein hostile et ne mérite pas que vous m'accueilliez avec une telle grossièreté. Les troupes qui m'accompagnent m'ont suivi pour toucher leurs soldes arriérées. » Il reçut la réponse suivante : « Viens seul, car nous sommes dans l'impossibilité de payer des soldes supplémentaires ; les nôtres suffisent amplement. Vu l'importance des troupes qui se trouvent dans ce pays, il faut que tu contribues de tes deniers à la solde de ton armée. » Nouvelle réponse du pacha : « Mes troupes n'acceptent pas ces propositions. Je prétends entrer au Caire. » Ces pourparlers se prolongèrent entre les deux parties, ce qui permit aux Mamlouks de ne plus douter des intentions malveillantes du pacha et de sa perfide hypocrisie. Sans aucun doute, les Mamlouks étaient encore plus intelligents et plus rusés. D'autre part, un de leurs cavaliers en valait bien cent autres, car au combat ils étaient solides comme des rocs.

Le 27 de ce mois (11 janvier 1804), on apprit de source sûre en provenance d'Alexandrie le décès du capitan pacha Hosein[1], survenu à Constantinople : il avait été enterré dans la mosquée du sultan Ayyoub. La joie des émirs du Caire fut immense et l'émir Othman bey Bardisi (165) ordonna que vingt et un coups de canon fussent tirés à la Citadelle pour fêter cet événement. Il avait été leur plus grand ennemi : il avait mis à mort quatre des leurs lors de son passage à Alexandrie, au début de l'année 1216, au moment où il était venu conquérir l'Égypte, comme nous l'avons exposé plus haut. Par contre cette mort causa une profonde tristesse à Mohammed pacha, le prisonnier des Mamlouks, car il avait été le lieutenant de ce capitan pacha, qui l'avait désigné au gouvernement de l'Égypte. La Sublime Porte le remplaça dans ses fonctions de capitan pacha par Kadiri bey, d'une famille illustre.

Le dernier jour de ramadan (13 janvier 1804), l'émir Othman bey Bardisi revint au Caire pour célébrer la fête de la rupture du jeûne : ce furent des réjouissances publiques, avec salves d'artillerie. Le lendemain,

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 270 ; trad., VII, p. 239 ; Mengin, I, p. 74.

il ne vous est pas possible de pénétrer à Rosette. Poursuivez directement sur le Caire.» C'est ce que fit le pacha et, laissant de côté la ville de Rosette [1], il se dirigea vers la capitale. Dans un dessein hypocritement prémédité, il s'achemina avec une certaine lenteur. Il adressait des firmans à certains officiers albanais et Seymens dans le but de les opposer aux Mamlouks, de les exciter à la révolte en leur promettant l'impunité. Il écrivit aussi dans le même sens à des notables du Caire. Ces faits arrivèrent à s'ébruiter et les Mamlouks mirent la main sur quelques (164) lettres. On arriva ainsi au 25 du mois (9 janvier 1804). L'émir Othman bey Bardisi avec ses troupes, Mohammed Ali bey, les autres beys commandants des bataillons albanais, un certain nombre de beys d'Égypte allèrent établir leur camp et planter leurs tentes sur le territoire de Boulak, en un point nommé Helli, et jusqu'aux parages de Chalakan. En effet, Ali pacha Djazaïrli avait franchi le Nil et était parvenu à Menouf [2] ; de là il avait repassé le fleuve pour se trouver sur la rive orientale, ce qui était une dangereuse imprudence. Pendant sa marche, il avait compté sur un conflit entre les troupes albanaises et les contingents mamlouks : ainsi il aurait atteint son but et pourrait venir à bout de ses ennemis. Mais l'affaire ne se présenta pas de la sorte et il se trouva dans une position critique quand il parvint à Zifta, sur le territoire de Chalakan [3], où il installa son camp. Avant le départ de l'émir Othman bey Bardisi, ce lion avide qu'était l'émir Mohammed bey Elfi le Jeune avait quitté en toute hâte le Caire à la tête de trois cents cavaliers et d'un peloton de Bédouins [4]. Il avait pris de la distance et était venu s'embusquer derrière

---

[1] Le pacha avait d'ailleurs été prévenu de ne pas s'arrêter à Rosette (Djabarti, III, p. 269-270 ; trad., VII, p. 238-239 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 120-123 ; Mengin, I, p. 59-62 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 139, 140, 142, 146).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 270 ; trad., VII, p. 240 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 126 ; Mouriez, I, p. 130-132 ; Gouin, p. 126 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 140, 142, 146.

[3] Cf. Djabarti, III, p. 271 ; trad., p. 242 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 172 ; Mengin, I, p. 63-64.

[4] Cf. Djabarti, III, p. 270 ; trad., VII, p. 239-240 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 126-127 ; Mengin, I, p. 63-64 ; Ali pacha, XI, p. 96-98 ; Douin, *Égypte de 1802,* p 142-143, 146.

nombreuses, mais elles étaient disséminées dans tout le pays, et leurs moyens de communications étaient précaires.

Le 22 de ce mois (7 décembre 1803), l'émir Ibrahim bey nomma préfet du Caire un mamlouk de l'émir Mourad bey, Hasan agha, en remplacement de Hosein agha, qui avait fait partie de la promotion des quinze beys.

Durant ce mois, Ali pacha ouvrit les portes d'Alexandrie et annonça le retour de la paix : il y avait six mois que les relations étaient interrompues entre cette ville et le Caire. Il faisait savoir en même temps que la Sublime Porte avait accepté les propositions des Mamlouks, en ce sens qu'ils administreraient tout le territoire égyptien, que l'émir Ibrahim bey serait le cheikh el-béled, et que lui, Ali pacha Djazaïrli, serait le gouverneur du pays, suivant les anciens usages. Ali pacha se prépara à venir au Caire, et la fin du mois s'écoula dans le calme et la tranquillité.

Le mois béni de ramadan 1218 commença dans cette euphorie. Le 11 (25 décembre 1803), Ali pacha Djazaïrli se mit en route pour aller d'Alexandrie au Caire, à la tête d'un détachement de quinze cents hommes [1]. Il devait être accompagné de Khourchid pacha, mais ce dernier, après s'être mis en route, rebroussa chemin et rentra à Alexandrie. Ali pacha poursuivit sa marche avec son contingent, mais lorsqu'il approcha de la banlieue de Rosette, il fut informé par son préfet, l'émir Yahya bey, que l'entrée de la cité lui serait interdite : « Nos troupes sont nombreuses, lui déclara ce dernier, et je crains des altercations avec les vôtres, ce qui serait une calamité. Pour cette raison,

---

[1] Cf. MOURIEZ, I, p. 128-129 ; GOUIN, p. 125-126 ; SAMI PACHA, II, p. 182-183 ; *Histoire de la nation égyptienne,* VI, p. 20 ; DOUIN, *Égypte de 1802,* p. 142-145 ; WEYGAND, I, p. 30 ; HAIDAR CHIHAB, II, p. 390.

Il faut citer ces lignes prophétiques de Lesseps, qui écrivait le 17 décembre : « Je suis convaincu que l'Égypte touche au moment d'une crise terrible où Ali pacha jouera un grand rôle. Son arrivée prochaine ici déterminera sans doute l'explosion de l'incendie. Je ne doute pas que son union avec les Arnaoutes, mécontents et mal payés par les beys, ne produise une révolution d'autant plus funeste aux Mamelouks que ceux-ci vivent dans une insouciance inconcevable et ne cherchent pas à se mettre à l'abri de l'orage qui a déjà grondé dans notre horizon » (DOUIN, *Égypte de 1802,* p. 135).

secrétaire de l'émir Othman bey Bardisi ; et le troisième, le sieur Ghali [1], secrétaire de l'émir Mohammed bey Elfi. Leur dessein était par ces meurtres de fomenter une révolution qui mettrait les beys dans l'embarras. Pendant qu'ils délibéraient, un étranger entra et, prévenu de leur complot, courut alerter ces Coptes, lesquels, pris de peur, firent aviser leurs maîtres du danger qu'ils couraient. L'émir Othman bey Bardisi les manda au plus vite pour les contraindre à verser cent bourses : ainsi il serait en mesure de payer les soldes des Albanais, qui renonceraient à leur projet. Et il leur remit les mandats voulus pour qu'ils puissent récupérer cette somme sur le pays. L'émir Othman bey n'avait pas d'autre but que de tuer dans l'œuf l'émeute qui couvait. Il s'évertuerait ensuite de semer la mésintelligence parmi les officiers, car il avait réussi à attirer à lui Mohammed Ali, Ahmed bey et Omar bey [2] par ses bons procédés et sa générosité. En effet, ce bey imitait la conduite de l'émir Mourad bey et comme lui s'attachait des créatures par d'abondantes libéralités. Il (163) faisait donc tous ses efforts pour créer la brouille parmi les troupes, de façon à les désunir, quitte à résister par les armes à ceux qui voudraient la bagarre. Les Mamlouks formaient le groupe le plus puissant de toute l'armée, attendu qu'ils occupaient les forteresses et les dépôts de munitions, et détenaient l'artillerie, comme nous avons eu l'occasion de le dire. Les troupes qui s'opposaient à eux étaient plus

---

[1] Le Copte Ghali, comme beaucoup de ses coreligionnaires, fut souvent soumis à des confiscations. Mohammed Ali, qui sut utiliser ses services, ne l'épargna pas davantage (Djabarti, III, p. 279, 280, 282, 341 ; IV, p. 101, 107, 108, 122, 126, 142, 152, 203, 204, 205, 208, 211, 214, 217, 218, 224, 242, 243, 261, 387 ; trad., VII, p. 264, 272, 393 ; VIII, p. 225, 240, 275-276, 284, 323, 343 ; IX, p. 77-78, 80, 82, 83, 91, 97, 104, 113-114, 121-122, 166, 167, 227, 228, 263 ; *Histoire scientifique,* X, p. 117-120 ; Mengin, II, p. 246-247 ; Sami pacha, II, p. 210, 219, 220, 225 ; Guémard, p. 273, 275).

[2] Ce bey albanais se trouva plus tard aux côtés de Khourchid pacha contre Mohammed Ali, puis épousa la cause de ce dernier contre les Mamlouks. Mais le vice-roi n'avait pas en lui une absolue confiance et finit par l'éloigner de l'Égypte en safar 1224/mars 1809 (Djabarti, III, p. 331-332 ; IV, p. 47, 51, 65, 72, 90-91 ; trad., VII, p. 375-376, 410 ; IX, p. 11, 101, 110, 143, 157, 165, 199-201 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 22, 70, 73).

Ce fut donc le dimanche 20 (5 décembre 1803) que les beys reçurent leur promotion. Cependant les troupes albanaises s'étaient concertées le même jour et avaient décidé de se révolter. Le lieu de rassemblement était la Citadelle, et ce jour-là elles se groupèrent au nombre d'un millier sur la place Roumeileh, ce terre-plein qui se trouve en bas de la Citadelle. Dès que les beys s'en aperçurent, (162) l'émir Othman bey Bardisi alla s'établir avec ses troupes à la porte de la Citadelle. L'émir Hosein bey le Zantiote s'installa avec mille hommes dans les tours qui contenaient les munitions et les canons, de crainte que cette rébellion des Albanais ne prenne trop de développement. Ainsi des précautions avaient été prises et les Mamlouks étaient sur leurs gardes. A la clôture de la séance, lorsque les beys eurent reçu leurs insignes de la main d'Ibrahim bey, gouverneur intérimaire d'Égypte, ils descendirent de la Citadelle, l'émir Othman bey Bardisi en tête. Il était accompagné d'Omar, l'un des beys albanais. C'est alors que les Albanais huèrent et insultèrent ce dernier : « Paie-nous nos soldes arriérées. Tu as des millions. Si tu ne t'exécutes pas, nous te tuerons. » C'était pour eux le signal de la révolte. L'émir Othman bey Bardisi leur fit face et les injuria : « Qu'avez-vous à vous en prendre à Omar? Vous n'avez aucune raison de vous opposer à lui. Vos soldes, c'est moi qui en dispose, et non Omar bey. Venez me trouver demain et vous serez payés. » Les Albanais se dispersèrent. Le lendemain, ils se présentèrent chez l'émir Othman bey Bardisi et reçurent cent bourses. En les leur remettant, il leur déclara : « Revenez dans deux jours, je vous donnerai le reste. » Ils rentrèrent dans leurs casernements, mais des conciliabules continuèrent : l'orateur fut Hasan bey, frère de Taher pacha [1]. Ils firent le serment d'assassiner trois notables coptes, choisis parmi les intendants des beys : le premier était le sieur Guirguis Gauhari, secrétaire de l'émir Ibrahim bey; le second, le sieur Boctor Mouhasib [2],

---

[1] Djabarti place la scène au 28 cha'ban (III, p. 269; trad., VII, p. 236-237) : elle est reportée par des historiens français au 18 ramadan (*Histoire scientifique,* IX, p. 125; Mengin, I, p. 62-63). — Voir les réflexions de Drovetti (Douin, *Égypte de 1802,* p. 137).

[2] Il devait mourir quelques semaines plus tard (Djabarti, III, p. 282; trad., VII, p. 273).

Mohammed [1], Rostom bey [2] Othman, Salih bey [3] Mohammed. En fait, de ces quinze beys, cinq se rattachaient à l'émir Ibrahim bey ; cinq à l'émir Othman bey Bardisi ; et cinq à l'émir Mohammed bey Elfi le Jeune, suppléant de son maître absent. En effet, les émirs mamlouks, au moment de leur retour au Caire, avaient convenu entre eux de se diviser en trois groupes, se rattachant respectivement à Ibrahim bey, à Othman bey Bardisi, et à Mohammed bey Elfi. Nous avons eu l'occasion de signaler cet accord. En conséquence, les nouveaux beys provenaient de ces trois Maisons. Ils descendirent de la Citadelle en cortège solennel. Cette solution fait le plus grand honneur à l'émir Ibrahim bey, qui s'illustre ainsi bien plus que ses devanciers. Aucun autre émir avant lui ne s'était trouvé dans la nécessité de nommer d'un coup quinze beys. Il y avait un grand nombre d'années que cette personnalité remarquable gouvernait l'Égypte. Ibrahim était sorti sept fois du Caire et y était rentré par la force des armes [4]. Sur la Maison de Mohammed bey Aboul-Dhahab il avait régné à la façon d'un père compatissant, d'un arbitre plein de bon sens : c'était un homme intelligent et compréhensif, un prince tolérant, qui se distinguait par des qualités d'excellent administrateur ; il savait contenter les grands comme les petits ; il avait un accueil d'une bonté inoubliable, mais n'en était pas moins célèbre par sa vaillance et sa bravoure.

---

[1] Hosein Ouachchach.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 281, 283-284 ; IV, p. 131 ; trad., VII, p. 269, 274, 277 ; VIII, p. 295.

[3] Salih bey mourut au combat de Minieh en ramadan 1219/décembre 1804 (Djabarti, III, p. 305, 310, 315 ; IV, p. 32 ; trad., VII, p. 326, 336, 347 ; VIII, p. 69 ; Mengin, I, p. 125, 145 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 3).

[4] Chassé par Ismaïl bey le Grand en 1191/1777 (Djabarti, II, p. 11 ; trad., III, p. 253).

Se fâche avec Mourad bey en 1197 (II, p. 74 ; trad., IV, p. 107-108).

Nouvelle querelle avec Mourad bey l'année suivante (II, p. 82 ; trad., IV, p. 125-126).

Au moment de l'expédition du capitan pacha Hasan (II, p. 113 ; trad., IV, p. 200).

A l'entrée de Bonaparte (plus haut, p. 24).

A la reprise la capitale par Kléber (plus haut, p. 116).

Après sa libération sur l'insistance des Anglais (plus haut, p. 147-148).

ni eux ne serez promus beys.» Les kachefs sortirent de la séance furieux. Ils quittèrent immédiatement le Caire et emmenèrent leurs mamlouks à Athar el-Nébi, à deux heures du Caire : ils étaient en tout un millier. La capitale fut en ébullition durant tous le mois : les émirs donnèrent à la population de tous les quartiers l'ordre de rétablir les portes que les Français avaient démolies, comme nous l'avons dit. Dès cet instant, les habitants se mirent à construire des portes au bout des ruelles, des venelles et des rues, on en fit même de nouvelles, pour se protéger en cas d'échauffourées entre les Mamlouks et les autres troupes.

Le dimanche 20 (5 décembre 1803), se tint à la Citadelle un grand divan. (161) L'émir Ibrahim bey, gouverneur intérimaire et cheikh el-béled, créa quinze nouveaux beys, choisis parmi ceux qui avaient été mécontents lors de la dernière séance : la remise des brevets fut très solennelle. Voici les noms des bénéficiaires[1] : Khalil bey, Solaiman bey[2], Omar bey[3], Ismaïl bey[4], Mohammed bey[5], tous de la Maison d'Ibrahim bey ; Solaiman bey[6], Othman bey, Chahin bey[7], Hosein bey[8], Abd el-Rahman bey Tanbourdji, tous de la Maison de Mourad bey ; Mohammed bey Mellaouani[9], Abbas bey Solaiman, Hosein bey

---

[1] La liste des quinze beys dans Djabarti n'est pas répartie de la même façon en ce qui concerne les Maisons de Mourad bey et de Mohammed bey Elfi (cf. Djabarti, III, p. 268, trad., VII, p. 233-234 ; Mengin, I, p. 55-57 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 110 ; Haidar Chihab, II, p. 388-389).

[2] Solaiman Ibrahim, gendre d'Ibrahim bey le Grand (Djabarti, III, p. 198 ; trad., VII, p. 60).

[3] Omar Achkar, d'après son ancien maître Othman Achkar (Djabarti, IV, p. 56, 73, 91, 121 ; trad., VIII, p. 121, 163, 202, 273).

[4] Gendre d'Ibrahim bey (Djabarti, III, p. 259, 284 ; trad., VII, p. 263, 277).

[5] Voir Djabarti, IV, p. 101-102 ; trad., VIII, p. 224, 226.

[6] Solaiman Khazindar.

[7] Il mourut en 1223/1809 (Djabarti, III, p. 279, 281, 341 ; IV, p. 49, 79, 89 ; trad., VII, p. 269, 279, 394 ; VIII, p. 104, 172, 193 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. lxi).

[8] Hosein Ouali.

[9] Mohammed Mellaouani fut un des rescapés du guet-apens d'Aboukir (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. 404 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 149).

Le 11 (26 novembre 1803), la ville fut fermée toute la journée à cause des déprédations commises par les soldats.

(160) On apprit le 14 (29 novembre 1803) que les soldats d'Ali pacha à Alexandrie avaient eu maille à partir avec les consuls européens : ces derniers s'étaient réfugiés avec leur personnel à bord de bateaux pour rejoindre leurs pays respectifs. Ils avaient au préalable convoqué le cadi et le mufti, ainsi que certains notables, et avaient rédigé en leur présence un procès-verbal adressé à la Sublime Porte pour lui faire connaître les incidents. Plus tard, Ali pacha, Khourchid pacha, le cadi et ces notables, étaient tous allés à bord des vaisseaux pour tranquilliser les consuls, les prier de revenir à terre et de ne pas partir, de crainte de conséquences irrémédiables. Ces événements d'Alexandrie s'étaient produits le 6 du mois [1] (21 novembre 1803).

Le 16 du mois (1er décembre 1803), un jeudi, les émirs du Caire assemblèrent un grand divan au domicile du banneret Ibrahim bey, gouverneur intérimaire d'Égypte et cheikh el-béled : tous les émirs, les kachefs et les officiers mamlouks étaient présents. L'ordre du jour appelait la promotion de certains kachefs en remplacement des beys disparus depuis l'année 1213. Nous avons vu plus haut qu'on avait nommé des beys à la place de leurs maîtres dès le retour des Mamlouks au Caire. Mais au moment de la cérémonie d'investiture, les autres kachefs s'interposèrent pour déclarer d'un commun accord : « Que ceux-ci soient nommés, c'est bien, mais en ce cas nous aussi. » Or les candidats étaient nombreux et la séance du divan fut tumultueuse : les officiers mamlouks firent grand tapage. Puisque ces désignations risquaient d'envenimer les choses et de provoquer une guerre intestine, l'émir Ibrahim bey annula les anciennes décisions en disant : « Ni vous

---

[1] Les consuls européens avaient eu des difficultés avec Ali pacha dès son arrivée, mais cette fois l'incident avait été de toute gravité (Djabarti, III, p. 266-267 ; trad., VII, p. 227-228, 230-231 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 112-114 ; Mengin, I, p. 52-53, 412-417 ; Gouin, p. 124-125 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. x-xi, 72-74, 79-80, 92-104, 106-107, 110-117, 123-124, 127-136 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. xii-xiv, 65-66, 81-82, 87-88 ; Guémard, p. 84 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. vii ; Sammarco, *Regno,* I, p. 104-106, 109-110, 117-119 ; Haidar Chihab, II, p. 388).

par un chambellan et dont Ali pacha Djazaïrli avait envoyé la copie par l'entremise du secrétaire du divan.

Le 2 cha'ban (17 novembre 1803), fut tenu un grand conseil auquel assistèrent les émirs d'Égypte au grand complet, le cadi de l'armée, tous les cheikhs et les ulémas du Caire, pour entendre lecture de cette ordonnance. A l'unanimité il fut décidé d'y obtempérer, et tous les forts et fortins de la ville tirèrent des salves d'artillerie en signe de réjouissance.

Le 6 (21 novembre 1803), l'émir Ibrahim bey envoya à Ali pacha Djazaïrli à Alexandrie, son adjoint l'émir Ridouan kyahya, Mahmoud Chaouich et le saiyid Mohammed Daouakhili [1], en tout trois personnes. Le secrétaire du pacha, celui-là même qui avait transmis le firman, fit route avec eux. Le but des émirs du Caire était de se rendre compte de la réalité des faits, de chercher à savoir si un chambellan avait réellement apporté ce firman, ou bien s'il s'agissait d'une pièce fabriquée par Ali pacha. Si le document était authentique, ils priaient le pacha de renvoyer ses troupes et de ne venir au Caire qu'avec une garde de cent trente hommes, suivant l'usage des pachas précédents [2]. Car les Mamlouks craignaient une ruse de la Sublime Porte, surtout à un moment où se trouvaient en Égypte de nombreux contingents étrangers, Albanais et Seymens, environ sept mille hommes, comme nous l'avons indiqué plus haut. Malgré leur infériorité numérique, les Mamlouks étaient les plus puissants, les plus actifs, les plus braves, sans compter qu'ils détenaient la capitale et ses forts. Pourtant ils redoutaient une trahison des nombreuses troupes étrangères cantonnées en Égypte.

---

[1] Ce cheikh disposait d'une certaine influence, car on lui confiait souvent de semblables missions. Il devint syndic des chérifs en 1228/1817 et fut révoqué trois ans plus tard. Il a fondé une mosquée au Caire (Djabarti, III, p. 48, 53, 335; IV, p. 23, 61, 196, 225, 243-245, 294-295; trad., VI, p. 101, 108; VII, p. 332; VIII, p. 51, 132; IX, p. 62, 129, 168-172, 280-282; *Histoire scientifique,* V, p. 110-111; IX, p. 332, 365; Mengin, I, p. 64, 65, 148-149; Ali pacha, I, p. 65; II, p. 83; V, p. 109; XV, p. 27-29; Sami pacha, II, p. 203, 217; Gouin, p. 172).

[2] Cf. Mouriez, I, p. 127; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 58; Haidar Chihab, II, p. 388.

d'Alexandrie leur était interdite depuis quatre mois et la prohibition de ce transit était une des causes du marasme commercial [1].

Le reste du mois s'écoula dans un calme absolu.

Au début du mois béni de cha'ban 1218 (mi-novembre 1803), arriva d'Alexandrie au Caire le secrétaire du divan [2] d'Ali pacha Djazaïrli. Il était porteur de la copie d'un firman du sultan Sélim khan, adressé au banneret Ibrahim Bey et aux autres émirs de l'Égypte, pour leur faire connaître les décisions suivantes [3] :

« L'exposé de votre situation nous a été fait. Nous vous pardonnons et voulons bien fermer les yeux sur vos méfaits. Vous pourrez rester dans la ville du Caire. Ibrahim bey sera cheikh el-béled, Ali pacha Djazaïrli est nommé gouverneur de l'Égypte et en sera le maître souverain. Il y aura en Égypte un defterdar nommé par le Gouvernement, chargé de percevoir l'impôt foncier et d'en envoyer le montant à la Sublime Porte, aux moments voulus. Les émirs mamlouks ne disposeront pas de l'autorité gouvernementale et ne pourront posséder de domaines seigneuriaux en dehors des villages qu'ils auront achetés. (159) Tout village acheté par un bey ou un kachef de leurs deniers propres sera administré par eux en toute indépendance, mais ils devront en acquitter d'avance huit annuités d'impôts entre les mains du defterdar, qui leur délivrera un permis d'exploitation. Si le revenu est supérieur à vingt-deux bourses, le surplus sera versé au compte du sultan. C'est de cette manière que sera admis le maintien des mamlouks en Égypte. »

Telle était la teneur du firman délivré par la Sublime Porte, apporté

---

[1] Voir sur ces incidents Douin, *Égypte de 1802*, p. 89, 90, 114-115 ; Haidar Chihab, II, p. 387.

[2] *Diwan efendi* : cf. Deny, p. 112.

[3] Le consul de France Lesseps envoie à son gouvernement copie de deux firmans, datés de septembre 1803, dont le texte ne correspond pas exactement à celui qui va suivre. Mais il s'agit bien de la nomination d'Ibrahim bey et de nouvelles mesures financières (Douin, *Égypte de 1802*, p. 108-109, 122-127. — Voir : Djabarti, III, p. 266-267 ; trad., VII, p. 226-229, 231 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 119-120 ; Mengin, I, p. 55-56 ; Mouriez, I, p. 126-127 ; Gouin, p. 125 ; Sami pacha, II, p. 180-181 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 53-56 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 97-101 ; Haidar Chihab, II, p. 387).

territoire égyptien : l'ensemble se montait à cinq mille hommes ; on raya des contrôles quinze cents Seymens, parce que c'étaient surtout ceux-là qui étaient à l'origine des désordres et des troubles. Les Albanais, moins malfaisants, offraient plus de garantie. Les Seymens, mécontents, se refusèrent à quitter l'Égypte.

Au mois de radjab (fin octobre 1803), les demandes d'argent et la stagnation des affaires accentuèrent la consternation du peuple. Pourtant les céréales devenaient moins rares et baissaient de prix : on trouvait partout à en acheter ; le pain fut abondant sur les marchés et dans les boulangeries. (158) Les pauvres étaient rassurés parce qu'ils trouvaient de quoi manger à des taux abordables. La famine avait duré soixante jours, avec son point culminant dans les derniers jours de djoumada II (mi-octobre 1803).

Le 10 (26 octobre 1803), on vit arriver l'interprète Vincenzo [1], envoyé par le gouvernement anglais, et le banneret Mohammed bey Elfi, qui était parti à Malte avec les Anglais pour régler les affaires des beys mamlouks, comme nous l'avons dit plus haut. Il était accompagné par un officier mamlouk, aide de camp de Mohammed bey Elfi. Le drogman fut reçu avec une grande magnificence par les émirs d'Égypte, qui le comblèrent de cadeaux. Il fut revêtu d'une riche pelisse, honneur qui échut également au consul d'Angleterre. Cet empressement prouve que les nouvelles apportées étaient favorables, mais rien n'en transpira dans le public.

Durant ce mois, Ali pacha Djazaïrli fit cesser l'embargo à la demande des consuls d'Alexandrie et du Caire, et les marchandises des commerçants européens purent circuler et être transportées au Caire. L'entrée

---

[1] Il s'agit d'un capitaine marchand, d'origine piémontaise, Vincenzo Taberna, que les correspondances citent souvent, comme ici, sous Vincenzo tout court. Il était déjà interprète de l'armée anglaise en 1801 et servira encore les Anglais lors de la campagne de 1807 (Djabarti, III, p. 265 ; trad., VII, p. 226 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xvii, 108, 187 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 81, 85, 91, 105, 123 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. x, 55, 123, 164 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 109, 119 ; Guémard, p. 83, 415 ; Haidar Chihab, II, p. 386 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'expédition française,* II, p. 339-340 ; Balboni, I, p. 212 ; Ghorbal, p. 215).

aux officiers. Ceux-ci le quittèrent en exprimant leur satisfaction hautement, mais il n'y a que Dieu qui connaissait leurs secrètes pensées.

(157) L'émir Othman bey Bardisi s'occupait donc en toute indépendance de la politique générale et, devenant cheikh el-béled, il était le véritable souverain du pays[1]. Ibrahim bey restait le gouverneur intérimaire, au nom du vizir de la Porte.

Tel fut en gros le dispositif adopté au cours du mois de djoumada II 1218 (septembre-octobre 1803).

Un certain nombre de kachefs appartenant aux Maisons des beys décédés furent promus beys à la place de leurs maîtres. En voici les noms : Ali bey Ayyoub ; Chahin bey ; Rastan bey ; Sélim bey Mahramadji[2] ; Abbas bey ; Solaiman bey Khazindar, préfet de Damiette ; Yahya bey, préfet de Rosette.

On reçut durant ce même mois des nouvelles du Hedjaz. Des lettres firent savoir que Ghaleb, chérif de la Mecque, et Chérif pacha, préfet de Djedda, avaient levé une armée considérable pour marcher sur la Mecque, qu'ils en avaient chassé les troupes de l'hérésiarque Abd el-Ouahhab. Après la prise de cette ville, ils s'étaient emparés de Taïf, à la suite de quoi les bandes d'Abd el-Ouahhab s'étaient dispersées dans le désert. Cette victoire causa une grande joie aux musulmans. Les contingents de l'hérétique avaient reflué sur les régions désertiques de Bagdad et les confins de la Perse. La province du Hedjaz était débarrassée de ces révolutionnaires et retournait à l'obédience musulmane. Abd el-Ouahhab l'avait conquise au début de moharram 1218 (fin avril 1803) et il la perdait en djoumada I : son occupation avait donc duré quatre mois.

A la fin de ce mois de djoumada II (mi-octobre 1803), on fit le recensement des Albanais, des Seymens et des janissaires se trouvant en

---

[1] Dans le texte : *'aziz* (Deny, p. 76-78). Voir les réflexions de Lesseps (Douin, *Égypte de 1802*, p. 83-84).

[2] Sélim bey Mahramadji devint plus tard le chef des mamlouks de la Maison de Mourad bey (Djabarti, III, p. 297 ; IV, p. 78-79, 112 ; trad., VII, p. 309 ; VIII, p. 171-172, 250 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 425 ; Mengin, I, p. 57, 317, 346 ; Prince Toussoun, *La fin des Mamlouks, Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XV, p. 190 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon*, p. 13, 16, 115).

salem, en somme de tout le territoire syrien[1] : sa compétence s'étendait ainsi des frontières d'el-Arich jusqu'aux confins d'Alep. Il devenait donc un rouage important du gouvernement ottoman. Combien sa puissance avait grandi depuis qu'il avait débuté comme préfet de Sidon avec résidence à Saint-Jean-d'Acre. Sa vie est un tissu de prodiges extravagants, mais ce n'est pas le moment de la conter.

A la fin de ce mois, soit en djoumada II de l'année 1218 (mi-octobre 1803), l'accord le plus complet régna entre les beys, Mohammed Ali, son neveu Ahmed bey, et les autres officiers albanais, à la suite d'une décision d'un conseil, spécifiant que les beys paieraient mensuellement trois cents bourses pour la solde des troupes, et cent pour les officiers, soit en tout quatre cents bourses. En sus, ils devaient verser les cinq mois d'arriéré, depuis safar 1218 jusqu'à djoumada II, ce qui représentait un total mensuel de quinze cents bourses. Les officiers se déclarèrent satisfaits, mais les troupes restèrent mécontentes. Aussi ne se passait-il pas de jour sans qu'elles ne fissent peur aux habitants par leurs paroles, fausses nouvelles ou menaces. Ce fut une épreuve cruelle pour la population, qui vivait dans la crainte de voir une émeute éclater à chaque minute, avec son cortège de massacres.

Car l'Égypte était occupée par trois races de troupes. La première était formée des mamlouks ; la seconde comprenait les Albanais ; et la troisième groupait des Seymens et des janissaires, c'est-à-dire des Turcs. Toutes ces formations se détestaient. Il faut rendre grâce à Dieu.

Le 25 du mois (12 octobre 1803), l'émir Othman bey Bardisi réunit une assemblée des beys et des officiers. Il fut convenu d'un commun accord qu'il verserait une pension mensuelle de trente-trois bourses et un tiers à la Maison de Mohammed bey Elfi, la même somme à Ibrahim bey et à sa Maison ; enfin, une contribution analogue à la Maison de Mourad bey, qui était devenue la sienne. Cela faisait un total mensuel de cent bourses. Une condition était posée : les bénéficiaires ne se mêleraient plus des administrations, ni du bureau des épices, ni du reste des services, ni des affaires politiques ; ils toucheraient ces sommes de sa main propre. Il s'engageait en outre à attribuer chaque mois quatre cents bourses

---

[1] Cf. Douin, *Égypte de 1802*, p. 153.

en vente pour les boulangers, les pauvres et les indigents. Ce fut un concert d'actions de grâce en son honneur. Telles furent les mesures adoptées sur la question des céréales.

A compter de ce moment, le banneret Othman bey Bardisi gouverna seul l'Égypte. Il se préoccupa aussitôt de la solde des troupes. Le 12 de ce mois (29 septembre 1803), l'émir Othman bey Bardisi imposa à tous les beys, kachefs, officiers de la milice et fermiers généraux [1], une contribution de mille bourses, conformément aux décisions d'une assemblée du divan. Les émirs se montrèrent dans l'ensemble satisfaits de payer les troupes en abandonnant une partie de leurs revenus personnels. La population musulmane fut astreinte à verser deux cents bourses : cette somme, récupérée sur les corps de métiers et les grands artisans, fut allouée aux troupes [2].

C'est dans ce mois que les soldats turcs commencèrent à exploiter la population, attaquant les gens sur les routes et dans les rues. Dès que les émirs eurent connaissance de leur impudence, soit le 22 du mois (9 octobre 1803), le commandant en chef Mohammed Ali et son neveu Ahmed bey firent proclamer en ville par un crieur public : « Tout soldat qui fera sortir une personne de sa maison particulière, de sa boutique ou d'un café, qui s'en prendra à qui que ce soit dans les rues, aura la tête tranchée [3]. Tout individu qui aura été malmené par un militaire et ne portera pas le fait à la connaissance des autorités sera passible d'une punition. »

On apprit de Syrie durant ce mois qu'Ahmed pacha Djezzar venait d'être nommé (156) gouverneur de Damas, Tripoli, Gaza, Jaffa, Jéru-

---

[1] Je traduis ainsi le terme *moultazim* (*Bibliothèque des arabisants français*, II, p. 9, 13-14, 16, 26, 33, 37-39, 41 ; *Histoire scientifique*, II, p. 426 ; VIII, p. 72 ; Marcel, p. 196 ; Rigault, p. 245 ; Bréhier, p. 4, 14 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne*, II, p. 93 ; Dehérain, p. 28 ; *Encyclopédie*, III, p. 234 ; *Précis*, III, p. 69, 72 ; Guémard, p. 248 ; *Archives russes*, II, *b*, p. 374 ; Driault, *Égypte et Europe*, II, p. vii ; Sabry, p. 83).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 264 ; trad., VII, p. 223-224 ; Sami pacha, II, p. 180.

[3] *Textuellement* : sa tête serait mise entre ses jambes. « Le bourreau, après avoir séparé la tête du tronc d'un seul coup, la plaça entre les jambes du cadavre qu'il étendit le ventre contre terre » (Hammer, XIII, p. 186).

Au cours de ce mois, postérieurement au retour de l'émir Othman bey Bardisi et de Mohammed Ali, les émirs convoquèrent un grand conseil. L'émir Othman bey déclara à l'émir Ibrahim bey :

— Nous connaissons les embarras que les soldats et les mamlouks causent aux Cairotes, les vols dont la troupe se rend coupable : cette indiscipline généralisée nous scandalise, vu ta présence au Caire. Ces faits sont indignes de ton prestige, émir.

— (155) Tout cela est indiscutable, répondit Ibrahim bey. Mais, mon cher fils, je leur en ai fait l'observation à plusieurs reprises et je les ai avertis bien des fois. Ils sont sourds à mes remontrances et j'ai dû renoncer. Je loue Dieu de ton heureux retour, mon cher fils. Il est indispensable désormais que tu prennes en main les rênes du gouvernement.

— Tu es, reprit l'émir Othman bey, notre maître, notre père et notre protecteur, et nous avons le devoir de t'obéir, de nous mettre sous tes ordres. Il faut que nous coopérions à ton repos et au calme de ton esprit.

Une discussion s'engagea au sujet de la répartition des céréales. D'un commun accord, l'affaire fut confiée au commandant en chef Mohammed Ali [1], qui fut investi des fonctions d'intendant des deux mers : il eut sous son autorité les ports de Boulak et du Vieux-Caire, ainsi que tous les magasins de vente des céréales. Dès le lendemain, Mohammed Ali se rendit à Boulak, y ouvrit certains entrepôts et commença la mise

[1] Ce n'est qu'un détail dans la biographie de Mohammed Ali, mais il est inédit. En effet, Djabarti signale à cette date que ces fonctions furent confiées à un kachef du nom de Mohammed (Djabarti, III, p. 264-265 ; trad., VII, p. 222, 225-226 ; Sami pacha, II, p. 180).

Plus haut (p. 16), tout en signalant que la majorité des passages fournissait la lecture *amin el-bahrein,* j'avais incliné à adopter *amir.* Je me rallie complètement à lire *amin* (voir Ghorbal, *Misr,* p. 12, 22, 28, 35, 55). Voici ce qu'en disent les auteurs de la *Description de l'Égypte* (XII, p. 180-181) : «Le bahrein, appartenant au corps des Azab, était divisé en cinq branches : la première, la seconde et la troisième consistaient en droits sur les grains arrivant à Boulak et au Vieux-Caire ; la quatrième et la cinquième, en droits sur toutes les barques naviguant sur le Nil, dans les ports, les lacs et les eaux de l'Égypte.»

Ali pacha Djazaïrli resta enfermé à Alexandrie, avec un petit nombre d'hommes, attendant un secours de Dieu et de la Sublime Porte.

(154) Le 5 (22 septembre), les émirs du Caire allèrent au-devant de l'émir Othman bey Bardisi et du commandant des Albanais Mohammed Ali, et leur armée commença à pénétrer en ville.

A compter de ce jour, le blé se raréfia dans les dépôts, ainsi que dans les lieux de vente ; le pain manqua dans les marchés et dans les boulangeries. La raison en était que les beys et les kachefs avaient accaparé les céréales en provenance de Haute Égypte pour constituer des stocks. Chaque fois qu'un bateau chargé de blé arrivait de Haute Égypte, ils l'arrêtaient et confisquaient la cargaison sans payer ni délivrer de reçu. On devine la douleur des femmes et des enfants pauvres, qui voyaient de leurs yeux emmagasiner du blé, des fèves, de l'orge, alors qu'on n'en trouvait pas à acheter et qu'ils revenaient du marché avec des couffins et des paniers vides. Dans leur désarroi, ils insultaient et maudissaient les accapareurs en pleine figure : « Mieux aurait valu que vous ne veniez jamais en Égypte, puisque vous étiez décidés à nous affamer, à rafler notre pâture, à nous priver de tout et nous laisser mourir de faim. Nous comptons bien piller vos maisons et pouvoir manger après votre mort. » Les Mamlouks entendaient proférer ces menaces et ces insultes, mais ils se bouchaient les oreilles, puisqu'ils n'avaient nulle intention de modifier leur conduite. Ils n'avaient aucune pitié pour les malheureux, tant leur cœur était dur. D'ailleurs les sujets de l'Égypte, malgré leur nombre, n'avaient aucun dynamisme et se montraient versatiles dans leurs sympathies ; par contre, ils avaient la langue bien pendue et, par des mots amers, manifestaient leur défiance sans pudeur. Par instinct ils détestaient le gouvernement des Mamlouks, et ceux-ci ne l'ignoraient pas : c'est pourquoi ils souhaitaient à la population toutes sortes de malheurs et n'hésitaient pas à la plonger dans la détresse. Mais ils auraient pu ne pas oublier que les gouvernants pieux et les administrateurs intègres, même si les sujets sont des êtres vicieux, obtiennent facilement l'indulgence et le pardon devant les cruautés du sort [1].

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 214-215 ; trad., VII, p. 224-225 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 111 ; Mengin, I, p. 50-51 ; Haidar Chihab, II, p. 384-386.

gades et des chefs-lieux, comme avanies, vols à main armée et autres procédés vexatoires. Ce furent des journées atroces, des situations invraisemblables.

Par dessus tout, le grand malheur fut la mauvaise crue du Nil et la famine qui s'ensuivit : on rencontrait de pauvres diables qui pleuraient et se lamentaient, adressant leurs supplications au Dieu jaloux.

Tel était l'état de la capitale au début de djoumada II de l'année 1218 (mi-septembre 1803). A la même date, Alexandrie souffrait également de la famine, les habitants manquaient d'eau et ne se procuraient de la nourriture qu'à des prix exorbitants. Il en résulta un exode général : les gens partaient dans l'inconnu, abandonnant familles et enfants [1]. Tel est le châtiment de Dieu envers ses créatures lorsque celles-ci s'endurcissent dans le péché, qu'elles ont le cœur sec, délaissent leurs devoirs et se jalousent les unes les autres. La terreur devint générale, des angoisses infinies écrasèrent le Caire et tout le pays, l'insécurité régna et il n'y eut pour peuple d'autre ressource que de s'écrier : « Le pouvoir est à Dieu et c'est de lui que nous vient la patience. »

Le 4 (21 septembre), toute l'armée revint de Rosette : l'émir Othman bey Bardisi et Mohammed Ali, le commandant en chef des Albanais, arrivèrent à Embabeh [2]. On avait laissé devant Rosette, avec une partie des troupes, Yahya agha khazindar. Vers la même date, on vit rentrer un grand nombre des janissaires que les beys avaient chassés : ils allèrent s'inscrire dans le corps de Mohammed Ali, car ce dernier était de race turque et n'était pas albanais. Il avait donc des sympathies pour ses congénères : il les accueillit et les garantit contre toutes représailles. On disait que le retour des troupes de Rosette était dû à l'impossibilité de s'emparer d'Alexandrie, place excessivement solide. Les soldats souffraient de l'insuffisance des vivres par suite de la dévastation des campagnes. L'armée fut donc en ébullition et finit par plier bagages : il fallait bien que leurs chefs la suivent.

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 262 ; trad., VII, p. 218.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 264 ; trad., VII, p. 222 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 104, 108, 110 ; Mengin, I, p. 48-50 ; Mouriez, I, p. 122 ; Gouin, p. 123 ; Sami pacha, II, p. 180 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 68, 70 ; Haidar Chihab, II, p. 383.

publiquement des boissons prohibées, la débauche s'accroît, la mortalité s'accentue parmi les hommes, des vols se commettent en pleine rue, en tous lieux, sans que personne n'intervienne. C'est une chose abominable, qui doit déplaire à Dieu et au Prophète. Comment voulez-vous que Dieu nous exauce? Comment voulez-vous qu'il fasse bon accueil à nos supplications et à nos prières, tandis que les mamlouks et les soldats, jour et nuit, pillent, ravagent, frappent, tuent, sans craindre ni chef ni notable? Comment voulez-vous que Dieu nous prête une oreille complaisante, nous procure une bonne crue du Nil? Vous vous en tirez en disant que nous lirons l'ouvrage de Bokhari et que nous implorerons le Seigneur.

Ainsi parla le cheikh Ibn Arousi, et le conseil convoqué par Ibrahim bey se sépara de cette façon.

Le 1er djoumada II (18 septembre 1803), les soldats de l'armée d'Othman bey Bardisi et de Mohammed Ali, qui avaient fait le siège de Rosette, commencèrent à refluer sur la capitale, ce qui augmenta encore la confusion, car ces militaires volaient et n'avaient aucune discipline. Le motif de leur désertion venait de leur peur de la guerre, de leur obstination à ne pas écouter leurs chefs, des demandes d'augmentation de soldes, alors que les gouvernants étaient dans l'impossibilité d'y faire face. Ces faits expliquent la rébellion des Turcs et des Albanais [1]. De leur côté, les Mamlouks répudiaient toute obéissance à leurs officiers et les simples soldats injuriaient les gradés. Le peuple était pris entre deux feux, et le pays, par suite de ces excès, s'acheminait vers la ruine : les sujets étaient soumis à l'oppression. L'émir Othman bey apporta six cent quatre-vingts bourses, qu'il avait confisquées à Rosette. Aux habitants de Damiette il avait extorqué cent cinquante bourses, sans compter le pillage et les exactions dont ses troupes s'étaient rendues coupables envers la population; (153) de Méhalla enfin il rapportait cinquante bourses. En tout il avait rassemblé un millier de bourses avec lesquelles il régla la solde des Albanais. Et nous passons sous silence les sommes soutirées par les soldats eux-mêmes aux habitants des bour-

[1] Une véritable mutinerie avait éclaté au camp devant Damanhour (DOUIN, *Politique mameluke,* II, p. 34-35, 47).

à ce qui se passait d'habitude : en effet, au lieu de croître chaque jour après la coupure de la digue, il ne cessa de baisser. Le prix du blé augmenta aussitôt et la population fut atteinte d'une angoisse inexprimable dans la crainte d'une famine générale. Il y avait de quoi faire blanchir instantanément les cheveux des nouveaux-nés.

A la fin de ce mois de djoumada I (début de septembre 1803), l'émir Ibrahim bey convoqua le divan, auquel assistèrent une quarantaine d'ulémas, grands professeurs et répétiteurs. Il leur tint ce langage :

— Les princes ont coutume, quand dans un pays surgissent des difficultés consécutives à une guerre, à une épidémie de peste, à une famine, ou à une catastrophe gigantesque s'étendant à la nation tout entière, de prescrire des jeûnes et des prières pour implorer Dieu afin qu'il détourne sa colère et fasse cesser les calamités. Je compte donc sur vous, vénérables cheikhs, grands ulémas, pour que vous prononciez des sermons dans les mosquées, que vous donniez des conférences dans les collèges, en y conviant tous les fidèles, petits et grands, pour les inviter à jeûner et à prier, à adresser leurs supplications à Dieu pour qu'il nous épargne ces malheurs, qu'il considère avec compassion la situation des croyants, et que, dans sa bonté pour les pauvres gens, il fasse couler le Nil comme à l'ordinaire.

— C'est une demande que nous devons prendre en considération, émir, répondit l'un des ulémas. Nous devons réciter le livre de Bokhari.

(152) Le fils du cheikh Arousi se tourna alors vers l'assistance et déclara :

— Écoutez-moi bien, ulémas. Dieu se gardera d'exaucer vos prières, celles des sujets comme celles des chefs, car la tyrannie, l'injustice et la débauche règnent sur l'ensemble de notre pays. Nos gouvernants ne sont pas de vrais musulmans. S'ils étaient des croyants sincères, j'entends des hommes passionnés de justice et d'intégrité, ils aboliraient les taxes indirectes, les contributions irrégulières, supprimeraient les prélèvements arbitraires, rassureraient les populations, leur inculqueraient des intentions pures, régénèreraient le pays et donneraient confiance aux habitants. Or, que voyons-nous? Précisément le contraire de ce qu'exige la justice. Sous leur gouvernement, les troubles et les exactions s'étendent, le vice s'étale au grand jour, les cabarets débitent

ne voulaient rien entendre et exigeaient qu'Ali pacha ne vienne au Caire qu'avec cinquante soldats, conformément aux anciennes règles : les Mamlouks lui obéiraient et se placeraient sous ses ordres, respectant ainsi les termes de la constitution établie au temps du sultan Sélim. De son côté, Ali pacha refusa.

Le mercredi 28 de ce mois, correspondant au 5 août 1803 [1], il y eut au lever du jour une éclipse de soleil qui dura trois heures.

Le mois de djoumada I commença dans la capitale avec un surcroît de tristesse et d'affliction. Le banneret Ibrahim bey exigea de la communauté des chrétiens syriens [2] la somme de cent vingt bourses, réduite à quatre-vingts sur de pressantes interventions. En effet, les Albanais avaient réclamé avec insistance leurs soldes, qui se montaient à quinze cents bourses par mois. (151) Ils pressèrent leurs émirs, tant au Caire que dans leur camp, pour obtenir les cinq mille bourses auxquelles ils avaient droit, car depuis quatre mois ils n'avaient rien touché. Ibrahim bey fut donc contraint d'imposer la communauté copte à mille quatre cents bourses, mais le chef des Coptes, le sieur Guirguis Gauhari, que nous avons eu l'occasion de citer dans cet ouvrage, répartit cette contribution entre les autres communautés du Caire, grecque, syrienne, arménienne, juive, sans oublier les consuls européens. Il réussit à leur soutirer cinq cents bourses, et la nation copte devait donc fournir les neuf cents qui restaient. Toutes ces communautés étaient dans le marasme : on rencontrait des gens éperdus, comme ivres sans avoir bu de vin [3]. Ces exigences accablaient tout le monde, empêchaient les transactions commerciales et entraînaient la ruine des villes et des villages. Et, comme pour ajouter à cette désolation, le Nil s'arrêta de monter cette année [4], contrairement

---

[1] La correspondance à la date chrétienne est de l'ancien style, ce qui donne réellement le 17 août. Dans Djabarti (III, p. 261-262 ; trad., VII, p. 216), l'éclipse tombe le mercredi 29 rabi' II.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 263 ; trad., VII, p. 219 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 68 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 94 ; Haidar Chihab, II, p. 382.

[3] L'expression est courante dans les contes (*Mille et une Nuits*, nuit 2).

[4] Cf. Djabarti, III, p. 263-264 ; trad., VII, p. 220-221 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 110 ; Mouriez, I, p. 122 ; Gouin, p. 123 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 69-71, 83 ; Haidar Chihab, II, p. 382-383 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 35.

Mohammed pacha, désarmé, au domicile d'Ibrahim bey à Kasr el-Aini. A peine Mohammed pacha fut-il en sa présence qu'Ibrahim bey alla au devant de lui et lui dit :

— Pourquoi as-tu agi ainsi? Qu'est-ce qui t'a poussé?

Mohammed pacha fondit en larmes et baissa la tête. Ibrahim bey fit aussitôt apporter une magnifique pelisse d'hermine pour en revêtir Ahmed bey. Deux heures plus tard, la population s'était calmée et les marchés étaient rouverts.

Le 26 du même mois (15 août 1803), on vit arriver dans la capitale Saiyid Ali pacha avec dix de ses officiers [1] : il avait été fait prisonnier après avoir été traqué dans la tour de Rosette. Amené à la résidence du banneret Ibrahim bey, à Kasr el-Aini (150), il y fut reçu avec les plus grands égards et une courtoisie affable.

Il y avait donc quatre pachas prisonniers des Mamlouks au Caire : Mohammed pacha, Ibrahim pacha, Hasan pacha et Saiyid Ali pacha. Quant à Ahmed pacha et Othman bey, émir du pèlerinage, ils avaient été dirigés sur la Syrie, nous l'avons dit. Khourchid pacha et Ali pacha Djazaïrli étaient bloqués dans Alexandrie, ville très fortifiée, car les Français en avaient encore accru les défenses. Ali pacha en avait fait clore les portes et organisait la résistance [2] : les Mamlouks et les Albanais, trop faibles pour tenter un assaut, s'étaient contentés de camper au loin, à Damanhour. Des pourparlers [3] s'engagèrent pour la cessation des hostilités et la conclusion de la paix entre Ali pacha et Othman bey Bardisi, le commandant en chef de l'armée mamlouke. Ali pacha demandait que les Mamlouks repartent en Haute Égypte, où ils seraient indépendants et assurés d'une entière sécurité. Il viendrait alors de sa personne au Caire et obtiendrait de la Sublime Porte une amnistie en faveur des Albanais, qui toucheraient leur solde et pourraient rentrer dans leur pays. Telles étaient les propositions écrites d'Ali pacha. Les Mamlouks

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 262-263 ; trad., VII, p. 219 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 103 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 89 ; Haidar Chihab, II, p. 381.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 262-263 ; trad., VII, p. 217-220 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 103-105 ; Mengin, I, p. 47-48 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 64-67.

[3] Cf. Douin, *Égypte de 1802,* p. 72.

pour se rendre compte de ce qui se passait. Il aperçut Mohammed pacha et vit les mamlouks qui stationnaient à la porte.

— Qu'y a-t-il, beys?

— Mohammed pacha s'est enfui.

Et ils contèrent toute l'histoire.

— Rassurez-vous, je vais m'occuper de Mohammed pacha et le remettrai à Ibrahim bey.

Un millier de cavaliers mamlouks s'étaient déjà rassemblés autour de la maison, car (149) à peine Mohammed pacha avait-il manifesté, par sa course éperdue, son intention de fuir qu'Ibrahim bey, mis au courant, avait donné l'ordre de cerner la maison et d'en surveiller les abords. Les Mamlouks s'étaient imaginés qu'en cette affaire Mohammed pacha avait été de mèche avec les Albanais. En effet, lorsque ces cavaliers arrivèrent devant la maison d'Ahmed bey, ils virent que les Albanais avaient pris les armes et, quand ils voulurent pénétrer à l'intérieur à la suite de Mohammed pacha, ces Albanais les couchèrent en joue en disant :

— Notre seigneur s'est placé sous notre protection et nous ne pouvons vous le livrer.

Telle fut la raison pour laquelle les Mamlouks craignirent qu'il n'y eût eu complicité. Ils partirent à toute allure jusqu'à l'Ezbékieh. Lorsque la population vit cette galopade effrénée, elle ferma en hâte les marchés de la capitale : ce fut une terreur générale. On se répétait : « Voici une querelle entre les Mamlouks et les Albanais.» Cette supposition n'était pas purement gratuite, car Mohammed pacha s'était enfui et ne s'était ainsi placé sous la sauvegarde des soldats albanais que dans le but de susciter une friction entre Mamlouks et Albanais. Lorsqu'une bataille se serait déroulée dans la ville, s'était-il dit, elle s'étendrait à l'armée qui se trouvait à Rosette. Il en résulterait un grand bénéfice pour les Turcs, lesquels, alliés aux Albanais, étaient plus nombreux que les Mamlouks présents sur le territoire égyptien. Mais ce fut une déception pour Mohammed pacha, car Ahmed bey, le neveu de Mohammed Ali, déclara immédiatement aux Mamlouks, comme nous venons de le souligner : « Allez en paix, je vais m'assurer de sa personne et le remettre à Ibrahim bey.» Deux haquenées furent commandées pour ramener

terribles. Nous sommes condamnés à être faits prisonniers ; nous n'y échapperons pas.» Ils arborèrent des drapeaux blancs et demandèrent l'aman à Othman bey Bardisi.

— Laissez vos armes dans la tour, leur fit dire ce dernier. Présentez-vous sans armes et je vous donne quartier.

(148) C'est ce qu'ils firent, et lorsqu'ils arrivèrent désarmés devant Othman bey Bardisi, celui-ci tint sa parole ; c'est de cette façon qu'il prit possession de la tour. Il annonça cette bonne nouvelle au banneret Ibrahim bey au Caire, où les Mamlouks célébrèrent cette victoire avec une joie particulière. Ibrahim bey fait tirer des salves d'artillerie et ordonné des réjouissances publiques.

Le 24 du même mois (13 août 1803), un samedi, Mohammed pacha, qui était prisonnier des Mamlouks, sollicita du banneret Ibrahim bey la faveur de faire une promenade [1]. Les Mamlouks avaient l'habitude chaque samedi d'aller au champ de manœuvre pour s'entraîner à des évolutions au galop : c'était pour eux une leçon d'équitation et une distraction. Ibrahim bey ordonna à Sélim kachef Mahramadji d'accompagner Mohammed pacha au terrain d'exercices et de le ramener. Sélim kachef fit seller et richement harnacher trois chevaux de race pour Mohammed pacha, Ibrahim pacha et le silahdar. Quelques mamlouks, sous les ordres d'un kachef, furent chargés d'accompagner les trois dignitaires, suivis de quatre laquais de leur suite, en tout sept personnes. A peine en selle, ceux-ci dégainèrent leurs sabres et s'échappèrent de Nasrieh au grand galop. Sélim kachef et ses mamlouks avaient tardé à monter à cheval, ce qu'ils firent au plus vite pour se lancer à leur poursuite, à bride abattue. Mohammed pacha s'était précipité à l'Ezbékieh : il arriva ainsi au palais d'Ahmed bey l'Albanais, neveu [2] de Mohammed Ali. Il mit pied à terre et, s'adressant aux Albanais de garde à la porte : «Je demande l'aman et me mets sous la protection des Albanais.» Il pénétra à l'intérieur de la maison : Ahmed bey se dérangea

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 261 ; trad., VII, p. 215-216 ; Mengin, I, p. 47 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 90-91 ; Haidar Chihab, II, p. 380.

[2] A cet endroit et dans le passage suivant, on lit : «frère», mais plus loin se trouve : «fils de la sœur», donc neveu.

Quant à Othman bey Hasan, nous avons donné à son sujet tous les détails voulus dans cet ouvrage : (147) il n'accepta pas de rentrer au Caire en 1218 avec les autres beys et resta en Haute Égypte.

Le 20 rabi' II 1218 (9 août 1803), le pacha de Guirgueh, Hasan pacha, revint de Haute Égypte [1] : il avait été investi de ce poste par Mohammed pacha. Pendant les incidents tragiques du Caire, il avait été assiégé à Assiout, en Haute Égypte : ses troupes se montaient à trois cents hommes. Une armée envoyée par les Mamlouks l'avait obligé de capituler entre les mains d'Ali kyahya, de la Maison de Solaiman bey, qui le ramena au Caire le 20 rabi' II. C'était un des six pachas dont nous avons parlé.

C'est le même jour que fut prise la tour de Rosette [2], dans laquelle était enfermé Saiyid Ali, frère d'Ali pacha Djazaïrli : à la suite de combats acharnés, complétés par un investissement étroit, la ville avait été obligée de se rendre. Dans la suite, Othman bey Bardisi avait élevé des épaulements face à la tour, une très vieille et très solide construction, que les Français avaient soigneusement réparée et fortifiée. C'était une place presque inexpugnable, où les troupes de Saiyid Ali avaient cherché refuge. De violents engagements se déroulèrent, à la suite de quoi Saiyid Ali demanda à Othman bey une trève de trois jours : l'artillerie cessa de bombarder la tour, mais au moment où les mamlouks ne se méfiaient plus, les troupes ottomanes firent à l'improviste une sortie nocturne. Ce fut une mêlée épouvantable, au cours de laquelle il y eut cinq cents tués de part et d'autre. Les Turcs rentrèrent dans leur tour et le blocus reprit plus sévère que jamais. La lutte redoubla d'intensité et chaque jour l'artillerie causait des pertes énormes à la garnison. Les assiégés en avaient assez et un jour ils déclarèrent à Saiyid Ali : « Nous ne pouvons plus supporter les rigueurs du siège : il faut livrer le fort aux Mamlouks. Nous voulons nous rendre parce que les ravages de l'artillerie sont

---

[1] Il avait été nommé le 20 ramadan 1216/24 janvier 1802 (Djabarti, III, p. 207, 257, 261 ; trad., VII, p. 84, 204, 214 ; Mengin, I, p. 18 ; Gouin, p. 111 ; Haidar Chihab, II, p. 380). — Le texte donne Hosein.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 260-261 ; trad., VII, p. 214, 216 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 101-103 ; Mengin, I, p. 44-47 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 66, 74-75, 87 ; Sami pacha, II, p. 178 ; Mouriez, I, p. 117 ; Haidar Chihab, II, p. 380.

de cachemire multicolores, chaussés de babouches jaunes. Ils se mêlèrent au défilé du consul et se rendirent eux aussi au domicile du banneret Ibrahim bey. Les beys et les autres musulmans en firent la remarque et ce fait fit l'objet de toutes les conversations. Dès que le consul connut ces appréciations sur son compte et sur la conduite des susdits chrétiens, il ordonna immédiatement de rayer leurs noms de son registre et leur interdit l'accès de son consulat. Il n'autorisa cette inscription qu'à ceux qui possédaient des bérats et firmans sultaniens en règle [1]. Ainsi ces chrétiens, qui avaient inscrits leurs noms sans raison plausible et sans exciper d'une pièce officielle, furent contraints de revêtir leurs anciens costumes bleus comme tous les chrétiens. Tels furent les incidents marquants de l'arrivée des consuls, qui arborèrent leurs drapeaux dans le mois de rabi' II de l'an 1218.

Voici maintenant les noms des beys qui entrèrent dans la capitale en l'année 1218 : Ibrahim bey le Grand, Othman bey Bardisi, Marzouk bey, Ahmed bey Kilardji, Abd el-Rahman bey [2], Mohammed bey Mabdoul, Sélim bey Abou Diyab, Mohammed bey, remplaçant Mohammed bey Elfi. Celui-ci s'était fait suppléer durant son voyage en Angleterre, déclarant aux mamlouks de sa Maison : « Obéissez-lui comme à moi-même. Si je reviens, ce sera Mohammed bey Elfi, et si je ne reviens pas, ce sera encore Mohammed bey Elfi [3]. » Il y avait donc en tout huit beys.

---

[1] Les instructions du ministère des Affaires Étrangères étaient précises : « (La protection) ne peut être assurée et accordée légalement qu'en vertu d'un barat que le gouvernement ottoman est dans l'usage de délivrer lorsque la demande lui en est faite par les ministres étrangers » (Douin, *Égypte de 1802,* p. 43).

Sur cet incident Rossetti écrit : « (Lesseps) ha voluto far prima la sua visita pubblica a Ibrahim Bey, il che ebbe effetto con molta pompa. Fu benissimo ricevuto, ma avendo condotto seco molti cristiani del paese, che erano andati ad implorare la protezione francese, Ibrahim Bey ha, l'indomani fatto sentire al suo dragomanno che non poteva permettere che tanti rajà si rifugiassero da lui, e che ha dato luogo ad una modificazione, e di ventiquattro che erano, li ha ridotti a quattro o cinque, per i quali ha promesso di far venire da costì dei berat » (Sammarco, *Regno,* I, p. 92).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 288 ; trad., VII, p. 287 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 403.

[3] Cf. *Histoire scientifique,* IX, p. 68.

chrétiens de Syrie avaient obtenu moyennant finances des bérats et des firmans[1] sultaniens qui les autorisaient à se placer sous les protections des étendards européens. Selon les termes de ces firmans, ils pouvaient s'habiller, contrairement à leurs anciennes obligations, de vêtements européens. Les musulmans s'en froissèrent, en parlèrent beaucoup et excitèrent contre eux les milieux politiques, les ulémas et le peuple. Ils demandèrent audience au banneret Ibrahim bey : « Voici une chose qui ne peut durer, lui dirent-ils. Comment! Ce pays est le point de mire de l'islam, la capitale du monde musulman, ce n'est pas un État européen et il n'y a pas de raison pour que les chrétiens puissent monter à cheval, se vêtir comme les musulmans et faire fi de nos lois. » Ils impressionnèrent le banneret Ibrahim bey et les autres administrateurs. (146) Voici le fait qui avait motivé leurs plaintes. A l'arrivée du consul de France, les membres de la communauté syrienne s'étaient précipités en foule chez lui, et le consul leur avait donné des assurances formelles : « Bonaparte, leur déclara-t-il, vous a recommandés spécialement à mon attention. Vous pouvez désormais être assurés de vivre en paix. » Or cette malheureuse communauté se trouvait alors dans une situation humiliante : elle était connue pour sa pusillanimité et tremblait d'une façon permanente. Le jour où le consul alla rendre visite au banneret Ibrahim bey pour recevoir son exequatur, ils coururent s'inscrire sur le registre du consulat afin de bénéficier de la protection de la République française. Ils étaient au nombre de vingt-sept, la tête couverte de châles

---

[1] Le bérat est un diplôme à plusieurs fins (Deny, p. 146), un brevet autorisant notamment la protection d'un consul européen (Hammer, XVII, p. 44 ; Barbier de Meynard, I, p. 292 ; Auriant, *Aventuriers*, p. 85-86 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 41).

Ces protégés portaient alors le nom européanisé de « barataires », en arabe, par influence du turc, *baratli* (Sammarco, *Regno*, I, p. 3 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 208 ; Rustum, III, p. 171).

Certains protégés étaient munis de firmans. C'est ainsi que Drovetti écrit à la date de juin 1806 qu'il n'a pas de « barataires en Égypte, mais seulement quatre firmanlis » (Douin, *Mohammed Aly, pacha du Caire*, p. 108 ; Driault, *Égypte de 1802*, p. 175).

Il y eut des abus, le fait n'est pas douteux, et ils subsistèrent, témoin les réflexions du consul de Russie en Égypte à la date de l'année 1835 (*Archives russes*, II, *a*, p. 295).

était précédé de cent Albanais, de Hosein bey [1] et du préfet Hosein agha, accompagnés de soixante soldats blancs et noirs, la tête couverte de casques en cuivre jaune, avec des fusils, baïonnettes au canon, et des tambours comme ceux des Français au temps de l'occupation [2]. Il s'agissait d'ailleurs de militaires dressés par des Français, qui étaient maintenant incorporés dans l'armée des Mamlouks, sous les ordres directs de Hosein bey, qui les instruisait à l'européenne. Les musulmans disaient : « Voici que les Français sont revenus. Il n'y a de force et puissance qu'en Dieu ! »

Le drapeau anglais avait dans sa partie centrale une grande croix ; le drapeau autrichien portait au centre un aigle et une couronne surmontés d'une petite croix ; le drapeau français était rouge, blanc, bleu. Durant le même mois on apprit l'arrivée d'un consul de Suède [3] et d'un consul des Cinq-Îles [4], république nouvellement créée.

L'émotion des musulmans d'Égypte s'était déjà manifestée bien avant la cérémonie des drapeaux. En effet, les plus importants négociants

---

[1] Nous avons vu que cet Hosein avait négocié le traité Mourad-Kléber. Il prévint le général Belliard que les beys mamlouks du Sud se ralliaient aux Anglais (Djabarti, III, p. 178 ; trad., VII, p. 11).

Sur cette cérémonie, voir Mouriez, I, p. 124-125 ; Guémard, *Aventuriers,* p. 24.

Hosein ne resta que peu de temps en bons termes avec Lesseps (Mengin, I, p. 58 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 84 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 28, 32, 49, 55).

[2] Voir Djabarti, III, p. 275 ; trad., VII, p. 253 ; Guémard, p. 80.

[3] Lesseps déclare pourtant à la date du 22 août qu'il n'y a pas de consul de Suède au Caire (Douin, *Égypte de 1802,* p. 64).

[4] Il faut lire « Sept-Îles ». Il s'agit des Îles Ioniennes, lesquelles, perdues par la France, furent à la suite d'une convention russo-turque constituées en république vassale de la Porte. On l'appela la République Septinsulaire ou République Ionique ; elle possédait un ambassadeur auprès de la Porte, et son consul à Alexandrie participa aux représentations du corps consulaire vis-à-vis d'Ali pacha Djazaïrli (*Histoire scientifique,* VII, p. 18 ; Martin, II, p. 32 ; Ryme, p. 170 ; Rousseau, p. 136, 168 ; Jouannin et Van Gaver, p. 366 ; Juchereau de Saint-Denys, II, p. 100-101 ; III, p. 10, 167 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 142 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 40, 73, 101, 114-115 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 57 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xxxvi, cxlviii ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 16-17 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'expédition française,* II, p. 282 ; Djabarti, IV, p. 23 ; trad., VIII, p. 49).

d'Angleterre le 1er du mois [1]; les consuls de Russie et d'Autriche en firent autant le 12, jour de la Saint-Élie chez les Grecs [2]; ce fut enfin, le lendemain 13, le tour du consul de France. Il y eut dans les consulats une cérémonie imposante avec flûtes, tambours et salves d'artillerie; chaque consul donna un grand banquet, auquel furent conviés le préfet de la capitale, certains beys et notables, avec un grand assortiment de mets et de boissons, pendant qu'une fanfare se faisait entendre. Les musulmans étaient indignés et se disaient : « C'est la fin de tout. » Ils furent surtout impressionnés de la solennité qui marqua l'arrivée du consul de France. Celui-ci fut conduit de Boulak au Caire en cortège grandiose. Quatre jours plus tard, il sortait également en grande pompe pour aller rendre visite au banneret Ibrahim bey à Kasr el-Aini : il

---

[1] Il est utile de citer le passage suivant d'un rapport de Lesseps, en date du 19 août 1803 : « Arrivé au Caire, j'y fus reçu avec les honneurs les plus distingués. Quelques temps avant mon arrivée, les consuls impériaux avaient arboré le pavillon si nécessaire au Levant en temps de révolution; sans avoir demandé la permission d'ériger le mien, j'eus le plaisir de voir Hosein bey le faire lui-même arborer sur la maison que j'avais fait préparer pour moi et le faire saluer par tous les forts. Les habitants en général, les chrétiens surtout, montrèrent à mon arrivée une joie qui allait jusqu'à l'enthousiasme et ma présence sembla le gage de la renaissance du commerce et le présage de la tranquillité future » (Douin, *Égypte de 1802*, p. x-xi, 61-64, 86-87).

Cette maison se trouvait à Kantarat el-Dikka, au Nord-Ouest et près de l'Ezbékieh. « Il fit hisser son drapeau au sommet d'une longue perche », dit Djabarti. C'est à tort que les traducteurs attribuent au consul une escorte de soldats, il s'agit bien de la compagnie de Hosein bey, équipée à la française (Djabarti, III, p. 260; trad., VII, p. 212-214; Sami pacha, II, p. 178).

Les rapports anglais signalent le « témoignage de réjouissance à l'arrivée de M. Lesseps, l'accueil pompeux qui lui a été fait, les honneurs extraordinaires qui lui sont rendus ». Ils soulignent que « the French Consul has been received at Cairo with all the pomp of barbarous magnificence ». Lesseps lui-même ne déclarait-il pas à son collègue britannique : « Lorsque je fis mon entrée au Caire, Hosein bey me dit qu'il m'avait fait prendre un grand détour afin que je passasse sous les fenêtres du Consul anglais pour lui faire connaître par les honneurs qui m'étaient rendus l'attachement des Mamlouks envers la France » (Douin, *Politique mameluke*, II, p. 31, 32, 41, 49).

[2] La Saint-Elie tombe le 20 juillet; en réalité nous sommes le 1er août, mais Nicolas utilise l'ancien style.

pourraient être mis à mort. Ces militaires étaient invités à se rendre à Koubbeh pour être joints à la caravane des pèlerins commandée par Othman bey. En fait, ce rassemblement eut lieu et ce fut plus de mille individus qui prirent avec Othman bey la direction de la Syrie [1]. Cette mesure d'exil, qui, outre les soldats, atteignait Othman bey, n'était pas sans motif. On avait saisi des lettres adressées par Son Excellence Ali pacha Djazaïrli à Othman bey, l'émir du pèlerinage, qui les prévenaient d'un prochain entretien particulier, l'invitaient à créer un parti au Caire, à prendre toutes les dispositions voulues pour soutenir ses efforts. Mais les Mamlouks, très vigilants, se tenaient sur leurs gardes : ils surveillaient tous les chemins, ce qui leur était facile puisqu'ils étaient du pays, et c'est ainsi que ces messages étaient tombés entre leurs mains. Telle fut la raison du bannissement d'Othman bey en compagnie des étrangers que nous venons de signaler. On avait tenu compte qu'Othman était le destinataire et non le signataire des lettres, sans quoi il aurait certainement péri. Celui-ci partit du Caire le 12 rabi' II 1218 (1er août 1803).

C'est durant ce mois que les consuls des Puissances européennes arborèrent leurs pavillons nationaux : ce fut un fait nouveau pour l'Égypte, qui impressionna la population musulmane et suscita bien des commentaires [2]. Le premier drapeau hissé (145) fut celui du consul

---

[1] Cet officier était venu en Égypte avec l'armée du grand vizir après la convention d'el-Arich, puis était revenu après la capitulation de Belliard (Djabarti, III, p. 196, 260 ; trad., VII, p. 55-56, 212-213 ; plus haut, p. 133, 177 ; Haidar Chihab, II, p. 347, 351, 353, 356, 376).

[2] Le fait nouveau c'est le pavillon, car Djabarti signale l'arrivée de six consuls européens au Caire le 15 ramadan 1216/19 janvier 1802 (Djabarti, III, p. 207 ; trad., VII, p. 83 ; Haidar Chihab, II, p. 379).

Il n'y avait pas alors de consul de France. Un « sous-commissaire des relations commerciales » est nommé à Alexandrie le 20 octobre 1802. Plus tard, Mathieu Lesseps est chargé des fonctions de Commissaire général des relations commerciales au Caire, le 7 mars 1803. Lesseps arrive à Alexandrie le 29 mai et part pour le Caire le 24 juillet (Douin, *Égypte de 1802*, p. 8, 39, 50, 61 ; Wiet, *Les consuls de France, Revue du Caire,* octobre 1943, p. 460-462 ; Ghorbal, p. 213-214).

Lesseps traverse le camp des troupes d'Othman Bardisi et de Mohammed Ali à Rahmanieh. Il est reçu par Othman Bardisi, qui lui donne un mot d'introduction pour Ibrahim bey (Mengin, I, p. 43 ; Gouin, p. 121).

nouveaux ordres du gouvernement ottoman et l'arrivée de renforts, pour être à même d'expulser les Mamlouks. Quant aux émirs, ils comprenaient ce qui se passait, car ces conjonctions ne se présentaient pas pour la première fois. C'est pourquoi le banneret Ibrahim bey écrivit au banneret Othman bey Bardisi à Damiette, le priant d'alerter ses troupes et de les diriger sur Rahmanieh. Othman bey emmena sans désemparer son armée, soit un total d'environ dix mille hommes : elle campait devant Rahmanieh au début de rabi' II de l'an 1218 (fin juillet 1803). La ville de Rosette fut très émue de ce déploiement de forces. L'émir mamlouk adressa au commandant de la garnison de Rosette, Saiyid Ali [1], propre frère, disait-on, d'Ali pacha Djazaïrli, un message qui n'était autre qu'un ultimatum : il le mettait en demeure d'évacuer Rosette de bon gré, sinon il passerait à l'attaque pour enlever la ville de vive force ; il le menaçait, somme toute, du sort de Mohammed pacha à Damiette. On juge de l'effroi de la population de Rosette lorsqu'elle eut connaissance de ce document. Ce fut une journée de fièvre et de terreur : les habitants, tant musulmans que chrétiens, s'empressèrent de faire partir (144) leurs femmes et leurs enfants sur des bateaux pour le Caire et Alexandrie ; d'autres gagnèrent la campagne, si bien que Rosette se vida. La garnison fut affolée de cet exode et, constatant son isolement, elle s'enfuit pendant la nuit ; au matin Othman bey Bardisi put y pénétrer à la tête de son armée. Saiyid Ali, avec les troupes qui lui restaient, s'était réfugié dans la tour en dehors de la localité. Cet ouvrage fut instantanément bloqué par les Albanais [2].

L'entrée d'Othman bey à Rosette eut lieu le jeudi 9 rabi' II 1218 (29 juillet 1803). La veille, l'agha des janissaires et le préfet du Caire avaient fait proclamer dans les rues de la capitale qu'un délai de trois jours était donné pour quitter l'Égypte aux janissaires et aux soldats des autres régiments, turcs, alépins ou damasquins, exception faite des Albanais. Ceux qui se trouveraient en Égypte après cette date

[1] Saiyid Ali venait d'arriver de Constantinople (Douin, *Égypte de 1802*, p. 55 ; Haidar Chihab, II, p. 378-379).

[2] Cf. Djabarti, III, p. 260 ; trad., VII, p. 213 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 101 ; Mengin, I, p. 43-44 ; Mouriez, I, p. 115-117 ; Gouin, p. 122 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 84-85.

se produisirent qui mirent aux prises Turcs et Albanais, à la suite de quoi Taher pacha fut tué. Cette guerre civile n'était qu'un moyen de piller les habitants et de semer la ruine dans cette métropole de l'empire. A cette nouvelle, nous prîmes les armes pour protéger la capitale, séparer les groupes de l'armée, notamment nous interposer entre les janissaires et les Albanais. Nous nous sommes aperçus que les janissaires étaient à l'origine de ces désordres et nous leur avons donné l'ordre de déguerpir, et en fait nous leur avons fait quitter l'Égypte. C'était l'unique ressource pour faire cesser cette révolution, sauvegarder la vie des habitants et s'opposer à la dévastation de cette province de l'empire, car nous avons le devoir de veiller à la sécurité générale, en tant qu'esclaves de notre maître le sultan, soumis à son obéissance. Nous n'avons jamais négligé de préserver les intérêts de ce pays lorsque nous en avons reçu la consigne du gouvernement, tant qu'il a envoyé des gouverneurs intègres (143) et que ceux-ci observaient envers les sujets et à notre égard les anciens usages. Nous n'en louerons jamais Dieu suffisamment. Votre présence honore ce pays. Si vous ordonnez de faire partir l'armée qui vous a accompagné et que vous vous contentez, suivant les vieilles coutumes, d'une garde de deux cents hommes, nous vous serons humblement dévoués et votre autorité sera agréée suivant votre désir. Quant à l'expédition contre Damiette, nous l'avons envisagée pour faire cesser la mésintelligence entre Mohammed pacha et les Albanais du frère de Taher pacha envoyés par ce dernier pendant son gouvernement. Or Mohammed pacha avait été dans l'incapacité de rétablir la paix et d'éteindre la révolte. L'armée se dressa contre lui. Et Votre Excellence n'ignore pas la composition de cette armée, peuplée de bandits, dont le pillage était la loi. Tout cela se développa bien malgré nous. Mais ce fut la volonté de Dieu, et tout homme est responsable de ses actes. Nous vous saluons.»

Tel fut le texte de la lettre envoyée par les émirs de l'Égypte à Ali pacha Djazaïrli à Alexandrie. Puis les émirs concentrèrent à Rahmanieh des canons, des bombes et des munitions. Ils avaient appris que des rassemblements s'étaient opérés à Rosette et qu'il s'y trouvait environ quinze cents hommes d'Ali pacha. Ce dernier témoignait d'un large esprit de conciliation en affirmant qu'il ne voulait pas faire la guerre, mais c'était une manœuvre pour gagner du temps : il escomptait de

Or au moment de notre arrivée à Alexandrie, nous avons appris les événements les plus récents, notamment l'assassinat de Taher pacha. Nous avons su que (142) vous étiez entrés au Caire, que vous y aviez usurpé l'autorité, que vous aviez envoyé une expédition contre Damiette, que vous l'aviez enlevée de vive force, que vous aviez agi de même contre Rosette, dont vous vous étiez également emparés. Ces actes décèlent une attitude hostile au gouvernement. Tenant compte de nos bons rapports d'antan, il nous serait extrêmement pénible d'exiger votre expulsion au nom d'un gouvernement qui vous a déjà pardonné. Mais le gouvernement ottoman désire qu'au reçu de ce firman vous partiez au plus vite rejoindre vos domaines de Haute Égypte. Prenant en considération notre vieille amitié, nous ferons valoir à la Sublime Porte que vous devez bénéficier d'une amnistie, mais compte tenu de votre obéissance. Il nous serait désagréable que vous montriez de l'insoumission, car l'épée du gouvernement est longue et ses forces inépuisables. Je vous fais donc connaître notre point de vue et je vous salue.»

Ce firman fut apporté par un courrier tartare. Ibrahim bey en prit connaissance et le passa à ses collègues, qui le lirent et en apprécièrent la portée. Ils communiquèrent leur réponse par le même tartare. En voici le texte [1] :

«Lorsque éclata la révolte de l'armée contre Mohammed pacha, nous nous trouvions alors en Haute Égypte. C'est sur un ordre du regretté Taher pacha que nous sommes venus au Caire. C'est par ses soins que nous avons appris cette révolution et sa conséquence, la déchéance de Mohammed pacha, lequel résolut de s'enfuir. L'accord était alors complet entre tous les officiers de l'armée, les ulémas, les chéikhs et les citoyens de cette ville : après avoir sollicité les lumières du Très-Haut, tous furent unanimes à confier à Taher pacha le gouvernement de l'Égypte. C'est pourquoi l'affaire fut évoquée devant la Sublime Porte. Il était donc nécessaire que nous venions de Haute Égypte. Nous arrivâmes sur le territoire de Guizeh, à la suite d'un firman que nous conservons soigneusement. Avant même notre installation à Guizeh, de nouveaux troubles

[1] Cf. Djabarti, III, p. 298-299 ; trad., VII, p. 208-209 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 98-100 ; Mengin, I, p. 41.

d'évacuer Rosette, ce que celui-ci exécuta sans délai : à la tête de son détachement d'un millier de mamlouks, il se replia sur Rahmanieh, Solaiman avait obtempéré parce que les ordres d'Ali pacha étaient rédigés sous une forme courtoise : or Solaiman était un homme intelligent, de mœurs paisibles, et s'il obéissait aux injonctions d'Ali pacha, c'était pour ne pas donner au gouvernement ottoman le prétexte de déclarer les Mamlouks rebelles. D'autre part, Ali pacha avait manifesté l'intention de calmer les appréhensions des Mamlouks. Telle fut la raison du repli de Solaiman sur Rahmanieh à la suite d'une simple lettre d'Ali pacha. A peine Solaiman était-il parti de Rosette qu'Ibrahim efendi y rentrait. Peu après, une compagnie de deux cents soldats, commandés par un agha, y venait tenir garnison sur l'ordre d'Ali pacha : Ibrahim efendi était arrêté et amené à Alexandrie. Le pacha publia en outre une ordonnance prescrivant à tous ceux qui avaient été nommés à Rosette et à Alexandrie par Mohammed pacha de quitter leurs postes. Les forces d'Ali pacha à Alexandrie et à Rosette se montaient à deux mille hommes.

Dès son arrivée à Alexandrie, Ali pacha notifia sa mission par écrit à Ibrahim bey et aux autres émirs, et leur communiqua les ordres sultaniens dont il était porteur. Voici quelle était la teneur du document [1] :

« Il est parvenu à la connaissance de la Sublime Porte que l'armée s'est révoltée contre Mohammed pacha, pour récupérer les soldes impayées. Le gouvernement sait que le pacha crut bien faire de résister par le canon et de les combattre. Il en résulta que ceux-ci s'unirent contre le pacha et le chassèrent du Caire. En conséquence, la Sublime Porte avait révoqué Mohammed pacha et donné l'ordre de bannir d'Égypte les contingents albanais et les autres troupes cantonnées en ce pays. La Sublime Porte a daigné nous confier le gouvernement de l'Égypte. Nous allons donc tout d'abord nous conformer au dispositif de la révocation de Mohammed pacha et de l'évacuation de l'armée. Nous vous assurons de notre affectueuse amitié. La Sublime Porte a daigné vous octroyer le gouvernement d'Assiout et des régions au sud de cette ville.

---

[1] Voir Djabarti, III, p. 258 ; trad., VII, p. 207-208 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 98 ; Mengin, I, p. 41 ; Sami pacha, II, p. 178 ; Haidar Chihab, II, p. 376-378.

Caire : il entretenait avec les Mamlouks de vieilles relations d'amitié. Au fond, il avait été d'accord avec eux et se considérait comme de leur parti. C'est pourquoi il put entrer dans la capitale avec quelques personnes de sa suite. Le reste de la troupe qu'il commandait se mit en route, comme nous venons de le dire, et fut traité convenablement par les mamlouks. Nous aurons l'occasion de reparler d'Othman bey.

Au milieu du mois de rabiʿ Ier 1218 (5 juillet 1803), Ali pacha Djazaïrli[1] entra à Alexandrie à la tête d'un détachement de cinq cents soldats : il venait au nom du gouvernement ottoman assurer le départ de Mohammed pacha pour Salonique et des hommes de Taher pacha en Albanie. Il était nommé gouverneur d'Égypte : toutefois il devait abandonner aux Mamlouks une partie de la Haute Égypte, où ceux-ci vivraient selon leurs possibilités. Arrivé à Alexandrie, il apprit les révolutions qui venaient de se produire depuis seulement deux mois : la chute de Mohammed pacha, le meurtre de Taher pacha, l'avènement des Mamlouks, le siège et la prise de Damiette, la capture de Mohammed pacha, le remplacement à la préfecture de Rosette d'Ibrahim efendi par Solaiman agha, ancien trésorier de Mourad bey, l'hostilité qui opposait les Mamlouks aux janissaires et aux Turcs qui étaient encore en Égypte, l'injonction faite à ces derniers de ne plus demeurer en territoire égyptien. Il mesura dans tous les détails la portée de ces événements.

(141) En effet, les Mamlouks avaient dirigé contre Rosette une expédition commandée par Solaiman agha khazindar[2]. Ibrahim efendi avait abandonné la ville à ses ennemis sans combat et était allé se réfugier dans une tour[3], au dehors de Rosette, où il fut bloqué jusqu'à l'arrivée d'Ali pacha Djazaïrli. Le pacha envoya aussitôt à Solaiman l'ordre

---

(1) Cf. Djabarti, III, p. 258 ; trad., VII, p. 207 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 95 ; Mengin, I, p. 41 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 56, 58, 59 ; *Histoire de la Nation égyptienne,* VI, p. 19-20 ; Mouriez, I, p. 112-114 ; Gouin, p. 122 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. viii, 27 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 82 ; Weygand, I, p. 29.

(2) Cf. Djabarti, III, p. 258 ; trad., VII, p. 209-210 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 99-101 ; Mengin, I, p. 42 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. vii-viii ; Sammarco, *Regno,* I, p. 82-83.

(3) Il s'agit du fort Julien, construit par les Français (Guémard, *Inscriptions françaises de l'Enceinte du Caire,* p. 9).

ville et logés dans la maison de Hasan bey Djerkes [1], dans le quartier de Nasrieh, où ils furent très convenablement installés.

Après avoir narré la chute de Damiette, la débâcle de Mohammed pacha et son retour au Caire, qui met le point final à cette crise, nous devons revenir en arrière pour commenter les incidents du pèlerinage de l'année 1217 (1803). Le chef égyptien du pèlerinage était l'émir Othman bey Othmanli, qui avait appartenu à l'état-major de Yousouf pacha, vizir du sceau [2]. Il avait dirigé le pèlerinage l'année précédente [3] et, après le départ d'Égypte de ce grand vizir, avait gardé cette situation sous Mohammed pacha et avait donc pris la direction du pèlerinage en l'an 1217. Or il avait ramené les pèlerins dans les derniers jours du mois de safar (juin 1803) et avait appris en route le renvoi de Mohammed pacha et l'accession au pouvoir des Mamlouks, en somme tous les événements qui venaient de se passer. Il n'interrompit nullement sa marche et arriva à Koubbeh, dans la banlieue du Caire. C'est là qu'il reçut d'Ibrahim bey la nouvelle que (140) les pèlerins originaires d'Égypte auraient seuls la possibilité de pénétrer en ville. Quant aux Turcs, ils resteraient campés sous les murs de la capitale et seraient de là acheminés sur la Syrie. Le mahmal sacré serait confié à l'agha des janissaires et au préfet de la capitale. Lui-même Othman bey partirait aussi en Syrie, emmenant le détachement de protection et les pèlerins turcs. C'est ce qui eut lieu : l'agha des janissaires Sélim agha et le préfet prirent livraison du mahmal sacré et le firent défiler dans la capitale selon le cérémonial habituel. Quant à Othman bey, l'émir du pèlerinage, il resta en dehors de la ville avec son escorte, comme nous l'avons dit. Celle-ci fit ses préparatifs de départ, se procurant des provisions et des objets de première nécessité, et quitta Koubbeh, accompagnée par un contingent égyptien de mamlouks, qui devait la conduire jusqu'aux frontières d'el-Arich. Mais Othman bey s'isola au moment du chargement des bagages et entra au

---

[1] C'est dans ce palais qu'avait siégé l'Institut d'Égypte (ALI PACHA, III, p. 96-97 ; GUÉMARD, *Histoire et bibliographie,* p. 23).

[2] C'est-à-dire le grand vizir (HAMMER, XVI, p. 2 ; JUCHEREAU DE SAINT-DENYS, II, p. 27 ; *Encyclopédie,* II, p. 749, 983 ; HAIDAR CHIHAB, II, p. 366).

[3] Cf. DJABARTI, III, p. 201, 209 ; trad., VII, p. 69, 88.

sa fortune et de ses domaines. L'armée de Mohammed pacha fut taillée en pièces; Mohammed pacha lui-même prit la fuite en compagnie d'Ibrahim pacha, ancien préfet de la ville. Tous deux trouvèrent une cachette, mais, découverts par Othman bey, ils furent pris au moment où ils s'acheminaient en direction de Lesbé, dans les alentours, et furent ramenés à Damiette. Mohammed pacha fut traité par Othman bey avec les égards dus à un vizir. Quant à la ville de Damiette, toutes les maisons en avaient été pillées. L'armée de Mohammed pacha avait été anéantie et l'on n'entendit parler d'aucun survivant.

(139) La ruine [1] de la ville de Damiette fut très sensible aux Égyptiens. L'événement se produisit le dimanche 14 rabi' Ier de l'an 1218. Trois okelles furent épargnées, qui servaient de résidence à des négociants chrétiens : elles restèrent intactes parce que des consuls y habitaient et y avaient hissé leurs pavillons; d'ailleurs Othman bey avait donné des instructions à ce sujet dès son départ du Caire. En fait, ces okelles furent surtout protégées par la solidité de leurs portes, car elles auraient très bien pu être mises à sac à l'insu d'Othman bey. En effet, quelques soldats attaquèrent la demeure du consul de France, sise dans l'okelle de Sakka Hosein, du côté opposé à la porte d'entrée, et volèrent beaucoup d'objets. De même l'okelle Khafadji fut également pillée et les marchandises faciles à emporter disparurent; elles appartenaient à un commerçant. Toutefois, dès que le banneret Othman bey fut au courant, il envoya quelques kachefs avec un détachement pour assurer la garde de ces trois okelles, qui servaient d'entrepôts à des négociants du dehors. Ces établissements furent donc préservés, mais pour cette sauvegarde, les propriétaires durent verser quarante mille écus.

Ainsi se termina l'affaire de Damiette. Le banneret Othman bey envoya Mohammed pacha et son lieutenant Ibrahim pacha au Caire sous escorte d'un kachef [2]. Au moment de leur arrivée, le gouverneur intérimaire de l'Égypte, Ibrahim bey, se porta à leur rencontre à Boulak, en compagnie de Sélim kachef Mahramadji. Les deux prisonniers furent amenés en

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 257; trad., VII, p. 206; *Histoire scientifique,* IX, p. 54; Douin, *Égypte de 1802,* p. 56, 57, 65; Auriant, *Aventuriers et originaux,* p. 88-89.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 259-260; trad., VII, p. 210-212.

talonné jusqu'à Damiette. Avant même la venue d'Othman bey, il y avait eu contre les lignes extérieures que Mohammed pacha avait fortifiées des attaques infructueuses des Albanais, qui avaient perdu beaucoup de monde.

Après l'arrivée d'Othman bey, les combats s'intensifièrent jusqu'au 14 rabi' Ier 1218 (4 juillet 1803). A cette date[1], dans la nuit du samedi au dimanche, vers minuit, les kachefs et les mamlouks se ruèrent à l'assaut contre les portes de la ville qui donnent sur le lac bien connu, c'est-à-dire du côté précisément où l'armée de Damiette se croyait le mieux à l'abri. Cette lutte se prolongea jusqu'à la prière de l'aurore et l'horreur en fut accentuée par les hurlements de l'armée, les cris des femmes et des enfants. Cette bande se précipita comme une masse, pilla les maisons de la ville, les okelles, les boutiques, les marchés, dépouilla de leurs vêtements hommes, femmes, filles et garçons. Mohammed pacha et ses troupes n'avaient pas quitté leurs lignes de défense face au camp des Mamlouks. Ils s'aperçurent trop tard qu'ils étaient assaillis par derrière ; ils abandonnèrent leurs retranchements et se virent soudain pris entre deux feux. Ce fut une mêlée confuse, au cours de laquelle périt Hosein kyahya Chanan[2], frère d'Ayyoub bey le Jeune, administrateur en chef de Mohammed pacha, tué par l'aide de camp[3] [d'Othman bey Bardisi], ancien mamlouk de Mourad bey. Cet officier prit possession de la demeure de Hosein, épousa sa veuve, et devint propriétaire de

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 257-258 ; trad., VII, p. 205-206 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 92-94 ; Mengin, I, p. 36-40 ; Douin, *L'ambassade d'Elfi bey, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* VII, p. 114-115 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 51-52, 55, 57 ; Mouriez, I, p. 108-111 ; Ali pacha, XI, p. 50 ; Paton, II, p. 8 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 81-82 ; Weygand, I, p. 29.

[2] Nous savons que Hosein Chanan souleva une partie de la population lors de la seconde révolte du Caire et qu'il partit en Syrie à la suite de l'armée ottomane après la reprise de la ville par Kléber (Djabarti, III, p. 91, 175, 206, 222, 228, 242 ; trad., VI, p. 175, 206 ; VII, p. 81, 114, 129, 167). — Cet individu avait joué un fort vilain rôle lors du guet-apens d'Aboukir (Haidar Chihab, II, p. 343-344).

[3] Les mots entre crochets proviennent du texte de Djabarti (III, p. 258 ; trad., VII, p. 206-207), qui ne nous donne pas davantage le nom de cet officier, auquel Ibrahim bey fit don de la veuve et de toutes les propriétés du défunt.

présenta à Alexandrie et remit sa lettre à Khourchid pacha[1], qui représentait Mohammed pacha dans ce port. Or Khourchid pacha le mit au courant des faits nouveaux, de l'assassinat de Taher pacha et de l'occupation du Caire par les Mamlouks. Le chambellan résolut d'aller au Caire prévenir Ibrahim bey des décisions du Gouvernement ottoman, de façon à n'encourir aucun reproche. C'est ce qu'il fit en arrivant au Caire, mais à son tour Ibrahim bey lui confia que les troupes de l'empire ottoman envoyées dans le pays s'étaient mutinées contre leurs officiers, tuant les uns et chassant les autres, et que les soldats n'avaient eu d'autre but que le pillage et le meurtre, la ruine du pays. Il en était résulté de grands dommages pour la population. « Nous avons dû, ajouta-t-il, occuper la ville pour y éteindre cette révolte, arrêter les progrès de cette guerre civile, protéger les citoyens et assurer la sécurité dans le pays. Il en est que nous avons bannis, d'autres que nous avons laissé partir à leur gré, d'autres enfin que nous n'avons pas inquiétés : nous désirons faire régner l'ordre après cette crise. Nous avons d'ailleurs exposé ces incidents à la Sublime Porte. Nous attendons ses instructions, que nous exécuterons avec la plus entière docilité ». Là-dessus, le chambellan prit congé du banneret Ibrahim bey et repartit pour Stamboul rendre compte de ce qu'il avait vu et entendu. De son côté, Ibrahim bey communiqua à Othman bey Bardisi, en route pour l'expédition contre Damiette, le résumé de son entretien avec le chambellan de la Porte et la teneur des ordres qu'il avait apportés. Dès son arrivée devant cette ville, le banneret Othman bey Bardisi s'empressa d'informer Mohammed pacha de son rappel et l'invita à rejoindre son nouveau poste, Salonique. En exécutant (138) les décisions de son gouvernement et en partant sans se battre, il épargnerait le sang de ses soldats. Mais Mohammed pacha se montra opiniâtre et persista dans son entêtement : les hostilités commencèrent donc et le blocus de Damiette devint plus sévère. Nous avons dit plus haut que Taher pacha avait envoyé un corps de deux mille Albanais à la poursuite de Mohammed pacha, qui fut

---

[1] Khourchid pacha était gouverneur d'Alexandrie depuis la fin de 1216/1803 (Djabarti, III, p. 211, 220, 224; trad., VII, p. 94, 108, 118-119; Douin, *Égypte de 1802*, p. 12, 23, 150; *Histoire scientifique,* IX, p. 69; Gouin, p. 116).

Mohammed pacha et son armée. Pourtant il n'ignorait pas que la chose était impossible aux habitants de Damiette, gens placides et faibles.

On rappelle ici que Mohammed pacha, après son départ précipité de la capitale, s'était réfugié à Mansourah ; là, il avait appris que Taher pacha organisait contre lui une expédition, et avait filé sur Damiette. Un corps de deux mille hommes était parti en effet, commandé par le propre frère de Taher pacha [1]. Dès son arrivée à Damiette, Mohammed pacha avait fait construire des retranchements pour mettre la ville en état de défense ; il avait sous ses ordres environ trois cents hommes [2]. . ., valets de pied, mamlouks de race blanche, nègres et quelques militaires français. Il avait en outre groupé autour de lui, après son arrivée à Damiette, les Turcs qui se trouvaient dispersés dans la région. Deux bâtiments de guerre arrivèrent de Stamboul, sous le commandement d'Andjad bey [3]. Dans tout ce laps de temps, il avait pu rassembler quinze cents hommes, car il avait aussi mobilisé (137) des habitants du pays et des Grecs de l'étranger. Il fut alors confiant, s'attendant à pouvoir résister aux troupes envoyées contre lui et comptant sur des renforts que lui enverrait son protecteur [4] le capitan pacha.

Ce fut le contraire qui se produisit. En effet, le rapport sur les récents événements, rédigé par les Cairotes et par Taher pacha, arriva à la Sublime Porte le même jour que celui de Mohammed pacha sur cet objet. Le Gouvernement avait rappelé à la fois Mohammed pacha, transféré à Salonique, et Taher pacha, invité à rapatrier ses Albanais. Enfin un message avait été adressé au defterdar d'Égypte pour lui annoncer l'arrivée comme gouverneur d'Égypte d'Ali pacha Djazaïrli [5], et ce document avait été apporté par un chambellan spécial. Cet envoyé se

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 253 ; trad., VII, p. 196 ; Mengin, I, p. 36.

[2] Ici, le mot شاعصبه, pour lequel je ne trouve aucune interprétation.

[3] Cf. Djabarti, III, p. 257 ; trad., VII, p. 205.

[4] Voir les réflexions de l'ambassadeur de France en Turquie (Douin, *Égypte de 1802,* p. 55).

[5] Quelques jours auparavant, un firman de la Porte avait désigné Ahmed pacha comme gouverneur intérimaire (Djabarti, III, p. 254 ; trad., VII, p. 198-199).

Ali pacha est toujours nommé vice-roi dans les documents anglais (Douin, *Politique mameluke,* II, p. 22, 23, 27, 54, 56, 82).

dévalisait et on se débarrassait des corps dans le Nil. Ce fut pour eux un cauchemar atroce, et ils ne savaient où se réfugier [1].

Quant à Khalil Radjaï, le defterdar envoyé par la Sublime Porte, et à Yousouf agha, le chef d'état-major de Mohammed pacha, ils avaient pu demeurer au Caire après la fuite de Mohammed pacha. Taher pacha avait bien procédé à leur arrestation, dans l'intention de les condamner à une amende, mais Taher pacha avait été assassiné, et tous deux avaient reparu (136) lors de la prise de pouvoir d'Ahmed pacha et, après son départ, ils étaient restés en ville. Mohammed Ali les fit arrêter et tous deux furent égorgés dans le même local, leurs têtes furent tranchées et apportées à Ibrahim bey, à Guizeh. Leurs demeures furent livrées au pillage. Ce fut un vrai soulagement pour la population, surtout la mort du defterdar, car depuis son arrivée en Égypte, ce dernier avait semé la discorde entre la troupe et le pacha. C'était un être tyrannique, qui s'était vanté à Stamboul, avant même de mettre les pieds en Égypte, d'envoyer au gouvernement cinquante bourses par an. C'était un horrible maltôtier, qui employait des moyens inédits, plus inhumains les uns que les autres. Une conduite aussi déplorable justifiait une mort ignominieuse [2].

Depuis ce moment, les Mamlouks mobilisèrent leurs troupes pour une expédition de grande envergure contre la ville de Damiette, que tenait Mohammed pacha [3]. Cette armée, d'une force imposante, partit sous le commandement du banneret Othman bey Bardisi ; il était accompagné du corps albanais, commandé par Mohammed Ali. On avait également eu recours à des bandes d'Arabes bédouins et de Maghrébins, à des gens de tout acabit, dont l'ensemble dépassait dix mille hommes. Cette troupe arriva à Damiette dans les derniers jours de safar (mi-juin 1803). Othman bey écrivit à la population de Damiette une lettre de menaces grossières pour le cas où ils ne chasseraient pas de la localité

---

[1] Voir Djabarti, III, p. 252, 253, 257 ; trad., VII, p. 192-194, 203.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 249-251 ; trad., VII, p. 186-187, 190-191 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 91-92 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 59.

[3] Cf. Djabarti, III, p. 246-247 ; trad., VII, p. 177-179, 197-198 ; Mengin, I, p. 30 ; Mouriez, I, p. 108-111 ; Gouin, p. 121 ; P(risse) et H(amont), p. 3 ; Sami pacha, II, p. 178 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. vii, 20, 24 ; Sammarco, *Regno*, I, p. 73-74.

Albanais fit échouer leur tentative : le combat qui se déroula causa des pertes de part et d'autre. Les janissaires refluèrent dans leur fort, mais (135) les Mamlouks et les Albanais résolurent de harceler sans cesse leurs ennemis pour hâter leur reddition. A la suite d'un violent bombardement, les assiégés demandèrent l'aman : Ahmed pacha s'adressa à Othman bey Bardisi, qui donna l'ordre de cesser le feu. Ahmed pacha fit ouvrir la porte du fort et se rendit à Othman bey Bardisi. Ce dernier traita son prisonnier avec beaucoup d'égards et l'emmena à Kasr el-Aini avec les officiers de sa suite. La garnison fut autorisée à emporter ses armes et ses bagages. On arrêta Kasim agha et un de ses complices du meurtre de Taher pacha et on les incarcéra à la Citadelle, où ils furent finalement exécutés [1]. L'ensemble des janissaires fut dirigé sur la Syrie, escorté jusqu'à Salheyeh par Mohammed kachef Charkaoui.

Les Mamlouks avaient conservé leur camp à Guizeh : ils ne pénétraient en ville que durant la journée et retournaient à Guizeh passer les nuits, pour ne pas qu'on dise qu'ils occupaient la capitale. D'ailleurs, seuls l'agha des janissaires et le préfet de la ville se montraient en public. Le dernier jour de safar (20 juin 1803), les Mamlouks se firent livrer la Citadelle par les Albanais et y placèrent Ahmed bey Kilardji, Abd el-Rahman bey et Marzouk bey : ils remirent la garde des portes aux corps de la milice, comme par le passé. Ensuite, on somma les janissaires cachés en ville d'avoir à quitter le pays, faute de quoi leur vie serait en danger. Grâce à ce procédé, les janissaires partirent en masse : en fait, bien peu d'entre eux arrivèrent à bon port, car la plupart furent massacrés par les Arabes bédouins. En outre, le préfet, avec la complicité d'un bey nommé Hosein bey, tua un grand nombre de Turcs : ils les étranglaient et jetaient leurs cadavres dans le Nil. En Haute Égypte, ces Turcs étaient encore nombreux : ils se rassemblaient sur les routes de terre ou encore sur des bateaux pour rentrer dans leur pays. Mais c'étaient de véritables chasses à l'homme, on les étranglait, on les

[1] Nous lisons dans un rapport du consul de France, daté du 11 avril 1805 : « Le chef des Délis est frère du binbachi qui a tué Taher pacha, et a été ensuite assassiné par les Albanais. Cette action n'est pas encore oubliée » (Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 11).

l'abri dans le fameux fort de Daher Baibars. Taher pacha avait conservé le pouvoir pendant vingt-trois jours : à la suite de l'assassinat de ce dernier, Ahmed pacha avait été le maître un seul jour, et il avait passé les deux autres journées à organiser son départ, nous venons de le voir. Il avait pénétré dans le fort de Daher Baibars : son idée était donc d'accepter d'y être assiégé en attendant que Mohammed pacha revienne de Damiette. Cette manière de voir n'était pas mauvaise. En effet, Mohammed pacha, informé des événements du Caire et de la mort de Taher pacha, s'était immédiatement mis en route et était venu camper à deux jours de la capitale. Mais apprenant là l'entrée en scène des Mamlouks, il était retourné à Damiette [1]. Nous reparlerons de lui.

Ahmed pacha s'enferma donc dans le fort de Daher Baibars [2]. Or Othman bey Bardisi était entré au Caire le vendredi 6 safar en compagnie de Sélim, agha des janissaires, et d'Hosein agha, préfet de la ville : un héraut parcourut les rues de la cité pour exhorter au calme et à la tranquillité, suivant les ordres donnés par le banneret Ibrahim bey, cheikh el-béled et gouverneur intérimaire d'Égypte, et en conformité des instructions de Mohammed Ali. On avait associé dans la proclamation les noms d'Ibrahim bey et de Mohammed Ali pour rassurer les contingents albanais, car ceux-ci s'étaient placés, depuis le meurtre de Taher pacha, sous la protection de Mohammed Ali, qui devenait donc le chef d'un grand parti. Les Albanais allèrent bloquer le fort de Daher Baibars, dont les occupants, vivement pressés, demandèrent l'autorisation de partir. Les Albanais exigèrent au préalable la remise d'Ahmed pacha et de Kasim agha, le meurtrier de Taher pacha. Les janissaires refusèrent en disant : « Nous combattrons pour mourir ensemble. » Comme ils n'avaient ni vivres ni eau, ils furent vite aux abois. Ils risquèrent de nuit une sortie générale pour se procurer de l'eau; la fusillade des

---

[1] Cf. DJABARTI, III, p. 252 ; trad., VII, p. 192 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 86-91 ; MENGIN, I, p. 34-35.

[2] Cf. DJABARTI, III, p. 249-255 ; trad., VII, p. 183-190 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 86-88 ; MENGIN, I, p. 33-34 ; MOURIEZ, I, p. 106-107 ; GOUIN, p. 120 ; SAMI PACHA, II, p. 177-178 ; DOUIN, *Égypte de 1802,* p. VII ; SAMMARCO, *Regno,* I, p. 74, 76 ; *Histoire de la nation égyptienne,* VI, p. 19 ; ALI PACHA, I, p. 64.

sont des rebelles contre la Sublime Porte, surtout par le fait qu'ils ont chassé le vizir du sultan, qu'ils ont fait régner l'injustice, qu'ils ont rappelé les Mamlouks, eux qui sont l'objet de la colère du sultan, réfractaires à son autorité depuis longtemps, et qui veulent s'emparer du pays contre sa volonté. Nous savons que vous êtes, vous et les sujets de ce royaume, hostiles à cette conception, et il faut que vous agissiez de concert avec nous. Le vizir du sultan se trouve encore à Damiette, mais moi aussi je suis un des vizirs du sultan, les janissaires forment l'armée du sultan, nous sommes tous les sujets du sultan, soumis à son obéissance. Nous devons donc d'un seul élan chasser Mohammed Ali et ses Albanais, rebelles au sultan, pour interdire aux Mamlouks l'accès de la ville, pour protéger cette capitale, en attendant le retour du vizir Mohammed pacha. Nous gagnerons par cette attitude une solide réputation aux yeux de notre maître le sultan. Quelle est, à votre avis, la meilleure solution? Ulémas et imams, répondez-moi.

— Vizir, répliquèrent les ulémas, voici ce que nous avons à dire : les Cairotes sont des individus paisibles, débonnaires et peu belliqueux ; ils n'ont pas d'armes et, depuis six ans, soit depuis le début de l'occupation française, ils ont vécu dans les pires transes et ont subi de graves pertes matérielles. Nous constatons que les janissaires ont un faible effectif, tandis que les Albanais sont nombreux et que les Mamlouks sont aux portes de la ville. Nous craignons donc les hostilités. Si les Mamlouks attaquent la capitale, ce sera encore pour les habitants l'esclavage, le pillage et le meurtre, en fait la ruine définitive, car leurs bandes sont surtout composées de brigands. C'est ce que les Cairotes redoutent par-dessus tout. Il faut donc que vous envisagiez une autre solution.

C'est dans ces dispositions que les ulémas le quittèrent. Ahmed pacha en conçut de vives inquiétudes, car il voyait nettement (134) les conséquences de ces déclarations. Il venait de recevoir un ultimatum d'Ibrahim bey, le sommant d'avoir à déguerpir dans les vingt-quatre heures et de rassembler tous les janissaires à Koubbeh, en dehors du Bab el-Nasr, sur la route de Syrie. Cependant la capitale était bloquée par les Mamlouks, les Albanais et les Arabes bédouins. Ahmed pacha fit ses préparatifs de départ, sortit du Caire le vendredi 6 safar (28 mai 1803) par le Bab el-Nasr avec quatre cents janissaires environ et alla se mettre à

Taher pacha à Mohammed pacha, qui se trouvait à Damiette : une lettre l'informait des événements et le priait de revenir au Caire.

Pendant ce temps[1], Mohammed Ali avait rassemblé ses hommes, environ cinq cents cavaliers, et s'était enfermé chez lui. Il mit au courant Ibrahim bey, qui résidait à Guizeh avec le reste des Mamlouks. Ibrahim envoya son fils Marzouk bey et Sélim kachef Mahramadji à la demeure de Mohammed Ali, près de l'étang de l'Ezbékieh. (133) Un accord fut conclu qui prévoyait une alliance entre les Albanais et les Mamlouks, sous le commandement d'Ibrahim bey : il était entendu que Mamlouks et Albanais seraient traités sur un pied d'égalité et se prêteraient un mutuel appui. Tels furent les termes de cet accord, qui fut porté à la connaissance d'Ahmed pacha et des janissaires. Très inquiets, ils convoquèrent les ulémas de la capitale et, lorsque ceux-ci furent réunis, Ahmed pacha leur tint le discours suivant :

— Vous n'ignorez pas, ulémas, que Taher pacha et Mohammed Ali

---

II, p. 443, 492 ; IX, p. 356-357, 468-469 ; de la Jonquière, V, p. 30 ; Gouin, p. 187, 189, 191 ; *Encyclopédie,* I, p. 34 ; Dehérain, p. 106, 261 ; *Précis,* III, p. 217 ; Mengin, I, p. 272, 273, 283 ; II, p. 120 ; Mouriez, I, p. 279, 288-289 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'expédition française,* I, p. 168).

Les troupes françaises coupèrent des têtes à titre de représailles. Le trop célèbre Barthélemy se livrait beaucoup à ce sport (*Histoire scientifique,* IV, p. 130-131 ; de la Jonquière, III, p. 104).

Pour les envois lointains les têtes subissaient une préparation appropriée (Djabarti, I, p. 55, 99, 123, 130, 134 ; III, p. 314 ; IV, p. 56 ; trad., I, p. 133, 230, 284, 299, 308 ; VII, p. 344 ; VIII, p. 119 ; Mengin, I, p. 189 ; Douin, *Conquête de la Syrie,* p. 247 ; Gouin, p. 160 ; Dehérain, p. 124-125 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 250 ; Mouriez, I, p. 228, 362).

Un spécialiste ottoman passa à l'histoire sous le surnom de *kellédji,* « celui qui rapporte des têtes » (Hammer, XVI, p. 111).

Il appartenait au gouvernement ottoman de supprimer ce sinistre usage : « Dix têtes et plusieurs sacs d'oreilles ayant été, suivant l'usage, envoyés à Constantinople, n'ont point été exposés et la Porte a ordonné qu'à l'avenir on se dispensât de lui offrir ces sortes de trophées » (Douin, *Conquête de la Syrie,* p. 172).

[1] Cf. Djabarti, III, p. 248-249 ; trad., VII, p. 179-180 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 86-87 ; Guémard, p. 82.

Dans le récit de Djabarti, les cheikhs demandent à délibérer hors de la présence d'Ahmed pacha, mais le résultat est le même.

le fleuve, s'en allèrent sur l'autre rive rejoindre le camp des Mamlouks, leur causant de graves alarmes. Les quartiers de la capitale furent fermés, mais une heure plus tard, un héraut invita la population au calme. La ville venait d'être prise en main par Ahmed pacha, vizir à trois queues, ancien gouverneur de Damiette au nom de Mohammed pacha. Il avait obtenu récemment de la Sublime Porte sa troisième queue et avait été désigné pour aller au Hedjaz défendre la Mecque contre l'hérésiarque appelé Abd el-Ouahhab, dont nous parlerons bientôt. Ahmed pacha était présent au Caire [1] lors de la révolte de l'armée contre Mohammed pacha. Après la fuite de ce dernier, Ahmed pacha, d'accord avec certains janissaires, prépara l'assassinat de Taher pacha et l'expulsion des Albanais. Le complot réussit et, après avoir mis à mort Taher pacha, les janissaires se rendirent au plus vite chez Ahmed pacha, l'investirent comme gouverneur de l'Égypte et s'empressèrent de proclamer en son nom toutes les garanties vis-à-vis de la population du Caire. Ceci se passa le mercredi 3 safar (25 mai 1803), le jour même de l'assassinat de Taher pacha. On envoya par courrier sur dromadaire la tête [2] de

[1] Il se trouvait au Caire depuis une dizaine de semaines avant le meurtre de Taher pacha (Djabarti, III, p. 234 ; trad., VII, p. 146 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 73).

[2] Cette tête fut reprise en route par des Albanais qui la rapportèrent et l'enterrèrent avec le corps (Djabarti, II, p. 248 ; trad., VII, p. 182).

Il était d'usage de faire parvenir au chef responsable les têtes des ennemis tués (Djabarti, I, p. 43, 44, 95, 143, 152, 251, 318 ; II, p. 36 ; III, p. 93, 221, 230 ; IV, p. 15, 55, 57, 61 ; trad., I, p. 103-104, 107, 221, 331 ; II, p. 27, 216 ; III, p. 33 ; IV, p. 36 ; VI, p. 178 ; VII, p. 110, 134 ; VIII, p. 32, 105, 117, 131 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 166 ; Driault, *Égypte et Europe,* IV, p. 201 ; Driault, *Formation de l'empire,* p. 101 ; Gouin, p. 215 ; *Précis,* III, p. 271).

A l'issue d'une bataille, les soldats ottomans recevaient une prime par tête emportée (Djabarti, III, p. 208 ; trad., VII, p. 86 ; Martin, I, p. 388 ; Hammer, IX, p. 268 ; *Histoire scientifique,* VI, p. 204 ; X, p. 215-216 ; Driault, *Formation de l'empire,* p. xli ; de la Jonquière, V, p. 413 ; Dehérain, p. 59, 442 ; *Précis,* III, p. 234, 250).

Ces têtes étaient exposées comme trophées (Djabarti, I, p. 130, 149-150, 306, 334, 349 ; II, p. 25, 36, 37, 138 ; III, p. 312 ; IV, p. 53 ; trad., I, p. 300 ; II, p. 18 ; III, p. 6, 52, 88 ; IV, p. 14, 34, 38, 39, 268 ; VII, p. 341 ; VIII, p. 19, 114-115 ; Jouannin et Van Gaver, p. 39 ; Ryme, p. 186 ; *Histoire scientifique,*

pétition au gouvernement ottoman, il avait enjoint à l'agha des janissaires et aux lieutenants-colonels des deux régiments susdits d'apposer leur sceau sur ce document. Ceux-ci répondirent : « Lorsque nous aurons pris consignation des clefs de la Citadelle, suivant les usages, nous mettrons notre signature sur cette pièce. » Mais Taher pacha, qui n'avait nulle intention de leur confier les clefs de la Citadelle, leur manifesta son ressentiment au moment où ils prirent congé de lui ; il articula même des menaces. Finalement il les fit arrêter et exécuter tous les deux.

Il avait projeté un massacre des chrétiens. Malheur à ceux qui ne craignent pas Dieu ! Il était sujet à pécher par orgueil, car il était constamment inspiré par des sentiments de méchanceté envers son prochain, oubliant que Dieu ne cesse de guetter[1]. Un proverbe assure en effet que la demeure du tyran est vouée à la ruine, même s'il y faut le temps.

Il convient maintenant de narrer la fin de cet individu[2]. Le mercredi 3 safar (25 mai 1803), une troupe de cinq cents janissaires s'était rassemblée et cent d'entre eux avaient réussi à s'infiltrer dans la maison de Taher pacha. Le chef de cette troupe était le commandant (132) Kasim agha, qui parvint à s'introduire dans la salle où siégeait Taher pacha. Suivi de quelques hommes, il réclama la solde des janissaires. Taher pacha lui fit une réponse brutale, mais resta court devant les vives répliques de Kasim agha, qui, en fin de compte, lui déchargea un coup de carabine en pleine poitrine. Taher pacha avait été tué net. Là-dessus les janissaires se ruèrent sur ses gardes, qu'ils fusillèrent ou sabrèrent. Ils tranchèrent la tête de Taher pacha, pillèrent toute sa maison et déguerpirent. On était au milieu de la matinée : ce fut en ville un instant angoissant. Tous les Albanais se réfugièrent à Boulak ; certains même, franchissant

---

(1) *Coran*, LXXXIX, 13.

(2) Cf. Djabarti, III, p. 247-248 ; trad., VII, p. 179-182 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 85-86 ; Mengin, I, p. 31-32 ; Mouriez, I, p. 103-105 ; Gouin, p. 119-120 ; Paton, II, p. 7-8 ; Bréhier, p. 86-87 ; Guémard, p. 82 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 55, 59 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. VII, 20, 179 ; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 14 ; Weygand, I, p. 27-28 ; Durand-Viel, I, p. 22 ; Haidar Chihab, II, p. 373 ; Ghorbal, p. 211-212.

Puckler-Muskau a rapporté un récit de ces événements que lui fit Mohammed Ali (*Egypt under Mehemet Ali*, I, p. 140-142).

étaient le Syrien Hanna Sobhani et le Copte Malati[1]; leurs magasins et leurs maisons particulières furent mis sous séquestre. Ce fut un exploiteur impudent, avide d'argent et sanguinaire, sans raison légitime ni pour une faute qualifiée des malheureux condamnés. Au moment où il avait réuni les ulémas après avoir chassé Mohammed pacha, il avait fait preuve de bonhomie et avait insisté sur le côté odieux du caractère de Mohammed pacha, avait souligné notamment son insolence avec les musulmans, les chrétiens et les juifs, lorsqu'il les avait forcés à porter (131) des pierres et à coltiner de la terre pour la construction de son palais, traitant tous ces individus avec les marques du plus profond mépris. Taher pacha avait énuméré les exécutions capitales ordonnées par son prédécesseur, celles du préfet de la ville, du saiyid Ahmed Zarou, des chrétiens Zaidan et Barakat, en montrant que c'étaient là des gestes gratuits de tyrannie et que Mohammed pacha croyait pouvoir tout se permettre. Et c'était en ce sens qu'on avait présenté à la Sublime Porte une requête dévoilant les crimes insensés de Mohammed pacha. Les signataires de ce rapport précisaient qu'ils seraient heureux de l'avoir pour gouverneur, lui Taher pacha, attendant de la Porte les ordres voulus et les instructions adéquates : il apparaissait aux cheikhs et aux ulémas de l'islam que c'était un homme pieux, digne de considération, affilié à une confrérie religieuse, alors que toute sa conduite n'était qu'hypocrisie malsaine. Ses yeux, ses oreilles et son cœur n'étaient ouverts que pour donner audience à des individus sans aveu, à écouter des histoires scandaleuses, anciennes ou récentes : en bref, il ne rêva plus que de ruiner et de mettre à mort quantité de gens. Malheur, deux fois malheur à ceux qui ne savent pas mesurer les conséquences de leurs actes !

Il aimait réellement le meurtre. Il fit tuer Ahmed kyahya Ali et Moustafa kyahya Razzaz, lieutenants-colonels aux régiments des Azabs et des janissaires, comme nous l'avons signalé. On en donna les raisons suivantes : lorsqu'il avait réuni un divan d'ulémas pour les prier d'envoyer une

---

[1] Malati fut un Copte très influent (Djabarti, III, p. 19, 22-24, 196, 247; trad., III, p. 43, 49, 52, 54 ; VII, p. 56, 177 ; Mengin, I, p. 32 ; *Histoire scientifique,* IV, p. 93 ; Sami pacha, II, p. 176 ; Ali pacha, VI, p. 72).

et ils furent lacérés à coups de sabre. La scène s'était déroulée en un clin d'œil, sans raison ni sur une faute des intéressés, et le peuple vit là comme un étrange présage.

Plus tard [1], il fit convoquer une dizaine des négociants les plus importants de la communauté chrétienne de Syrie et, leur ayant demandé mille bourses, les fit emprisonner dans la maison du silahdar : il les menaça de mort s'ils ne payaient pas cette somme. Il en fit autant avec les notables de la communauté copte. Le malheur n'épargna personne, la prison guettait un peu tout le monde, et les vieillards tremblaient comme les enfants. Il envoya des ordres de paiement à des notables musulmans, comme au saiyid Ahmed Mahrouki, à Moustafa agha Ouakil [2] et à Yousouf kyahya, qui avait été le chef d'état-major de Mohammed pacha et qui n'avait pas pu partir avec son maître, à des officiers supérieurs de la milice, exigeant d'eux des sommes énormes, allant jusqu'à mille bourses, parfois moins, suivant leurs grades. Le mardi 2 safar (24 mai 1803), il fit étrangler à la Citadelle deux officiers supérieurs de la milice, Ahmed kyahya Ali et Moustafa kyahya [3]. Bref il apparut à tous que c'était un accapareur d'argent et un être qui décimait les familles. Le dixième jour de son usurpation, il envoya en prison un commerçant syrien et un secrétaire copte, et leur fit couper le cou. Les chrétiens furent terrorisés : ils étaient éperdus et ne savaient quel comportement adopter devant ce fléau public. Les deux personnes exécutées

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 245-246 ; trad., VII, p. 175-177 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 50, 83-84 ; Mengin, I, p. 30 ; Sami pacha, II, p. 176 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 72-73 ; Haidar Chihab, II, p. 371-373.

[2] Ce Moustafa avait été intendant du harem impérial, *ouakil dar el-sa'ada* (*C. I. A., Égypte,* I, p. 612) et non « procureur des revenus attachés au temple de la Mecque » (Mengin, I, p. 111), ni « représentant de la Sublime Porte » (Djabarti, II, p. 96 ; IV, p. 145 ; trad., V, p. 156 ; VIII, p. 329).

On le voit apparaître en l'année 1205/1791 et il fonda une zaouia au Caire (Djabarti, II, p. 195, 196, 249 ; III, p. 228, 245, 246, 248 ; trad., V, p. 100, 102, 194 ; VII, p. 129, 175, 176, 183 ; Ali pacha, VI, p. 43).

Il eut un incident avec le colonel Sébastiani (Douin, *Égypte de 1802,* p. 16-17).

[3] Moustafa Razzaz (Djabarti, III, p. 245-247 ; trad., VII, p. 175, 178). — Il eut un fils, Salih, qui fut fonctionnaire sous Mohammed Ali (Djabarti, IV, p. 110 ; trad., VIII, p. 245 ; Sami pacha, II, p. 221).

albanais l'ordre de courir aux trousses de Mohammed pacha : il était commandé par le propre frère de Taher pacha, car celui-ci avait été accompagné en Égypte par des frères et des neveux. Il y avait alors en Égypte environ six mille Albanais qui formaient un seul bloc. Les janissaires, de race turque, étaient au nombre de quatre mille, mais toute l'armée était sous les ordres de Taher pacha. Il jouit dès lors d'une puissance absolue : la population de l'Égypte lui obéit, tout comme l'armée. Dès son accession au gouvernement, il fit savoir aux Mamlouks qu'il avait chassé Mohammed pacha, leur promit une entière sécurité, les engagea à venir au Caire et leur témoigna son vif désir de réaliser l'entente avec eux après s'être débarrassé de leur ennemi commun Mohammed pacha. Lorsque le banneret Ibrahim bey et les autres Mamlouks apprirent la chose, ils se transportèrent de Haute Égypte à Guizeh. Ils ne dépassaient pas douze cents hommes, mais les Arabes bédouins et les bandes de pillards qui les suivaient étaient au moins cinq mille. Quelques kachefs et mamlouks commencèrent à entrer en ville pour différents besoins, notamment allèrent (130) dans leurs maisons, puis retournèrent à leur camp à Guizeh [1]. Ces mamlouks profitèrent donc de l'autorisation que leur avait donnée Taher pacha.

Ce dernier était favorisé par la fortune et était parvenu à jouir d'une autorité reconnue dans tous les milieux. Peu à peu on vit apparaître les mauvais instincts de sa nature, on perçut la direction de ses penchants, qui se traduisirent par des actes tyranniques, des exactions, des confiscations de fortunes, des condamnations à mort. Il justifiait amplement le proverbe courant : « La tyrannie est un vice tapi dans l'âme ; la force lui donne libre cours et l'impuissance la garde enfouie. » Un jour, Taher pacha passait sur un chemin : il aperçut deux prestidigitateurs [2] qui donnaient une séance et ordonna de les mettre à mort instantanément,

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 245-247 ; trad., VII, p. 173-175, 178 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 84 ; Mengin, I, p. 31.

[2] Je n'ignore pas que le mot *haoui* signifie réellement « charmeur de serpents » (voir Keimer, *Histoires de serpents dans l'Égypte ancienne et moderne, Mémoires de l'Institut d'Égypte,* t. L), mais il possède un sens plus courant (Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 222).

Mohammed pacha, sa famille, sa suite et ce qui lui restait de troupes, était en fuite en direction de Mansourah, voulant gagner Damiette [1]. Il était accompagné du saiyid Ahmed Mahrouki, qui avait emporté des fonds. Or, en cours de route, ce dernier tomba de mulet : il fut saisi par des soldats, qui firent main basse sur l'argent (129) et envoyèrent le personnage sous escorte à Boulak, où il fut emprisonné [2]. Il fut amené le lendemain à Taher pacha, qui le rassura, le revêtit d'une pelisse et le renvoya chez lui. Taher pacha fit rechercher le sieur Guirguis Gauhari [3], le Copte le plus éminent qui se trouvât alors sur tout le territoire égyptien et qui, au surplus, détenait toute la comptabilité publique. Il avait été l'objet d'une considération particulière de la part du grand vizir, qui lui avait décerné une pelisse et lui avait dit : « Tu es l'Égyptien le plus apprécié de la Sublime Porte, parce qu'il est parvenu aux oreilles du gouvernement que tu as de l'inclination pour l'islam. On n'ignore pas en outre les services que tu as rendus aux musulmans lors de l'occupation du pays par les infidèles. De toute façon, tu peux être assuré de nos égards et de notre garantie. » A la suite de quoi, la situation de Guirguis Gauhari n'avait fait que grandir sous Mohammed pacha. Taher pacha l'envoya donc chercher et le rassura : « Tu seras dédommagé, avec la permission de Dieu, du pillage de ta demeure. »

Tels furent les épisodes du départ de Mohammed pacha et de la prise de pouvoir de Taher pacha [4], le 10 moharram 1218 (2 mai 1803). Pendant que Taher pacha l'Albanais gérait les affaires, Mohammed pacha poursuivait sa route avec les cinq cents hommes de sa suite vers Mansourah. Le 15 du mois (7 mai), Taher pacha donna à un détachement

---

[1] Sur son passage, Mohammed pacha imposa des contributions exorbitantes aux différentes localités (Djabarti, III, p. 242-243, 245 ; trad., VII, p. 167-168, 174-175 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 17-18).

[2] Voir Sammarco, *Regno,* I, p. 64.

[3] Guirguis Gauhari, qui avait été nommé par Bonaparte intendant général des impôts, conserva la faveur des Ottomans (Desgranges, p. 30 ; Djabarti, III, p. 36, 157 ; trad., VI, p. 77, 297 ; Ryme, p. 130 ; de la Jonquière, II, p. 287 ; Rigault, p. 114 ; Dehérain, p. 386).

[4] Cf. Djabarti, III, p. 245 ; trad., VII, p. 173-174 ; Gouin, p. 118-119.

Mohammed pacha fut l'heure la plus terrible de ce conflit. Donc en ce 9 moharram 1218 (1er mai 1803), Taher pacha l'Albanais prit le commandement au Caire [1], ayant sous ses ordres dix-huit commandants de l'armée, dont le plus important était Mohammed Ali, et ce dernier n'était pas loin d'avoir le prestige de Taher pacha. Un divan fut immédiatement réuni, comprenant les ulémas, les cheikhs, l'agha, le préfet de la ville et les officiers de la prévôté : on envoya à Stamboul un rapport circonstancié sur la mauvaise gestion de Mohammed pacha, dans lequel on exposait que Taher pacha devait jouir des prérogatives du pouvoir jusqu'à nouvel ordre. On fit deux copies de ce procès-verbal : l'une, revêtue des sceaux de tous les assistants, fut confiée à un Tatar [2] envoyé spécialement à Stamboul; l'autre fut remise à un cheikh qui se rendait en Turquie par voie de mer.

Tous les jours suivants, Taher pacha faisait renouveler en ville par un crieur public ses appels au calme, en garantissant l'amnistie.

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 244-245 ; trad., VII, p. 172-173 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 82-83 ; Mengin, I, p. 29 ; Douin et Fawtier, *Politique mameluke*, I, p. xiii ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 48, 51 ; *Histoire de la nation égyptienne*, VI, p. 14 ; Politis, *L'Hellénisme et l'Égypte*, I, p. 166 ; Sami pacha, II, p. 175.

[2] Le gouvernement ottoman employait et continua d'utiliser ces Tartares comme courriers (Djabarti, III, p. 222, 234 ; IV, p. 21, 52, 61, 102, 132 ; trad., VII, p. 111, 144 ; VIII, p. 45, 111, 132, 227, 298 ; Rousseau, p. 109, 126, 180, 186, 193, 295 ; Sami pacha, II, p. 219 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 45, 60, 202 ; *Archives russes*, I, p. 148, 151, 167, 169, 217, 220, 245, 266, 267, 272, 277, 286, 321, 325, 329, 341, 343, 411, 415, 416, 459 ; II, *a*, p. 150, 162, 172, 175, 242, 389 ; *b*, p. 24, 113 ; Sabry, p. 152, 231 ; Rustum, I, p. 135, 154, 155, 157, 263 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire*, p. 34, 41, 160, 163, 185, 186, 199 ; Mengin, I, p. 202 ; Driault, *Expédition de Crète*, p. 158 ; Douin, *Expédition d'Alger*, p. xxv, 61 ; Douin, *Égypte de 1828*, p. 16, 37, 40, 150 ; Douin, *Paix de Kutahia*, p. 8, 69 ; Driault, *Égypte et Europe*, I, p. 185 ; III, p. 71 ; Sammarco, *Regno*, VIII, p. 27, 205, 220 ; IX, p. 68, 97 ; X, p. 163 ; Douin, *Politique mameluke*, II, p. 311 ; Gouin, p. 154, 162 ; *Précis*, III, p. 212.

Parfois la Porte désignait des officiers plus importants et Djabarti s'indigne des cadeaux qui devaient être remis à ces porteurs de messages, souvent insignifiants, ainsi que des frais de séjour qui incombaient à l'Égypte. Il conclut : « La raison a peine à imaginer de pareilles choses et leur exposé est presque incroyable » (Djabarti, IV, p. 59-60 ; trad., VIII, p. 127-128).

les Albanais. Les boutiques de la ville s'étaient fermées, et les habitants s'étaient calfeutrés derrière les portes closes de leur quartier : on ne saurait imaginer l'angoisse de la population pendant ces journées de terreur. Les habitants vivaient dans un danger mortel : le sort qui leur était réservé était le pillage ou le massacre, car les boulets et les bombes tombaient un peu partout. Le saiyid Ahmed Mahrouki s'était réfugié dans le palais du pacha, en emportant un peu d'argent. La lutte contre Mohammed pacha s'intensifiait : le dimanche, dans l'après-midi, les bombes tombèrent avec une telle progression qu'elles mirent le feu à la résidence de Mohammed pacha, qui s'effondra comme un immense brasier. Lorsque Mohammed pacha vit que son palais était en flammes, que la malchance s'acharnait contre lui sans qu'il puisse espérer du renfort, il s'esquiva à deux heures de l'après-midi de ce dimanche, avec sa famille (128) montée sur des chevaux comme des mamlouks. Il était accompagné de ses mamlouks, des Français, des nègres et du reste de sa Maison. Un cavalier galopait en tête de ce cortège, sabre au clair, et hurlait : « Place, gens ! » Les Albanais bloquaient l'édifice de tous côtés et lorsqu'ils apprirent que le pacha leur avait échappé, ils se précipitèrent à l'intérieur et enlevèrent les effets, les provisions, les armes, les vêtements et les tentures précieuses. En effet, Mohammed pacha avait amassé des quantités d'objets. S'il en avait eu le temps et si le sort lui avait été plus favorable, il aurait accumulé des richesses considérables de toutes sortes. Son gouvernement avait duré quinze mois, depuis son entrée au Caire jusqu'à son départ subit, soit du 15 chaoual 1216 (18 février 1802) jusqu'à la fin de dhoul-hidjdja 1217 (22 avril 1803). Son hôtel fut donc incendié jusqu'aux fondations, complètement rasé : ne restaient que les tours, le mur d'enceinte, l'okelle, en somme les bâtiments nouveaux fondés par Mohammed pacha, lesquels ne furent atteints ni par l'incendie ni par la destruction. Un certain nombre de maisons coptes avoisinant ce palais furent mises à sac, celle du sieur Guirguis Gauhari notamment, et bien d'autres comme celles du receveur des finances et du chef interprète. Le pillage se serait étendu aux maisons du quartier Ridouanieh et du quartier copte sans l'intervention personnelle de Taher pacha et de Mohammed Ali, qui envoyèrent sur place des postes de garde. Le moment de la fuite de

et chargé des fonctions de commandant de la Citadelle. Lorsqu'il vit arriver Taher pacha, il fut convaincu que ce dernier venait au nom de Mohammed pacha. Pourtant certains affirment qu'Othman agha (127) était de connivence avec Taher pacha pour lui remettre la Citadelle. Quoi qu'il en soit, Taher pacha en prit possession et y installa le corps albanais. Puis il en fit descendre des canons, des mortiers et des munitions et rendit publique son entente avec Mohammed Ali. Le corps albanais était donc unanime dans sa résolution et, comme les janissaires présents au Caire se mirent d'accord avec lui, ce fut dès lors une puissante coalition. Les soldats traînèrent les canons et les mortiers devant leurs casernes près de la porte Bab el-Haoua [1] à l'Ezbékieh, puis en d'autres points de la ville, d'où ils pouvaient bombarder le palais de Mohammed pacha. La garde du pacha se tenait en avant de ce palais, mais elle ne put tenir contre le tir d'artillerie des Albanais retranchés près de l'étang de l'Ezbékieh et prit la fuite. Les Albanais pénétrèrent dans le palais après avoir réduit au silence les quatre-vingts pièces de la défense. L'artillerie de Mohammed pacha se trouvait alors réduite aux canons des tours voisines de son palais et à l'unique canon proche de Kantarat el-Dikka [2], qui tirait sur les Albanais. Ce fut une journée sinistre : les canons déversaient sur la ville une pluie de projectiles, dont les habitants se protégeaient comme ils pouvaient, et les ruines s'accumulaient. Cette lutte se prolongea toute la journée du samedi, la nuit suivante et la journée du dimanche, pendant laquelle les combats ne firent que s'accentuer jusqu'au milieu de l'après-midi ; leur intensité fut alors extrême. Les Albanais prenaient nettement le dessus et l'armée de Mohammed pacha faiblissait, surtout à cause du manque de subsistances, et bientôt elle n'eut plus rien à manger. Les Coptes de leur quartier avaient été mis dans l'obligation de lui procurer des vivres, mais ils furent dans l'impossibilité de fournir des rations suffisantes. Dans la journée du samedi, Mohammed pacha avait réussi à faire sortir sa famille du palais, qui fut aussitôt pillé par

---

[1] Bab el-Haoua se trouvait dans les parages de l'actuelle place Mohammed Ali (ex Ataba el-Khadra).

[2] Kantarat el-Dikka : le nom s'est conservé dans une rue à quelques centaines de mètres au nord-ouest de l'Ezbékieh.

éclata une véritable mutinerie, fomentée par les officiers supérieurs, soit dix-huit commandants, dont le chef était Mohammed Ali. Les troupes se portèrent sur la maison du defterdar, proche de l'Ezbékieh, se saisirent de sa personne, dévalisèrent sa demeure, emportant l'argent et les effets. Lorsqu'après la prière de midi le pacha se rendit compte de la gravité de la situation, il ordonna de bombarder la maison du defterdar, dont les occupants, privés d'artillerie, ne pouvaient riposter qu'à coups de fusil. L'intensité du feu fut telle que la maison du defterdar devint rapidement la proie des flammes, ce qui mit fin à l'échauffourée de cette journée-là.

Le lendemain samedi, au petit jour, le combat reprit comme la veille [1]. C'est alors que Taher pacha fit crier en ville par un héraut : « Sécurité et confiance. Habitants du Caire, vous n'avez rien à craindre de cette lutte entre clans de l'armée. De toute façon, gardez une attitude passive, les vainqueurs seront vos maîtres [2]. » Le samedi, deuxième jour des bagarres, Taher pacha fit arrêter Yousouf kyahya, chef d'état-major de Mohammed pacha, qui assurait la garde du logis du saiyid Ahmed Mahrouki ; or ce fut là qu'il fut appréhendé, tandis que la maison était mise au pillage. Taher pacha se le fit livrer et l'emmena à la citadelle. Celle-ci était tenue par Othman agha, trésorier de Mohammed pacha

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 241-244 ; trad., VII, p. 163-168, 171-172 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 81-82 ; Mengin, I, p. 27-29, 428 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 166 ; Paton, II, p. 6-7 ; Sami pacha, II, p. 174-175 ; Gouin, p. 117-118 ; Mouriez, I, p. 101-103 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. vi-vii, 47-48, 51 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. vii, 14-16 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 107 ; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 14 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 57-64 ; Weygand, I, p. 26-27 ; Ghorbal, p. 211.

[2] Il faut rappeler le discours de Poussielgue au divan du Caire au moment du débarquement des Turcs à Aboukir : « Il convient que le peuple du Caire reste tranquille ; car, de deux choses l'une, ou les Français seront vaincus, et ils se retireront sans que vous ayez besoin de vous en mêler ; ou ils seront vainqueurs, et alors vous attireriez sur vous, en cas d'insurrection, de terribles représailles » (*Histoire scientifique,* VI, p. 223). De son côté, Richardot, observant que la population du Caire s'abstint dans l'ensemble de se révolter contre Kléber, déclare : « Les Égyptiens ne savent-ils pas que toujours ils ne peuvent que perdre à la guerre, quel que soit le parti des vainqueurs? » (*Précis,* III, p. 164).

C'est vers cette date qu'arriva de Stamboul Khalil Radjaï efendi [1], pour occuper les fonctions de payeur général en Égypte. Ce fut un monstre inique, qui n'exempta de ses exactions ni un musulman ni un chrétien. (126) Il confisquait des sommes d'argent en disant que c'étaient des emprunts. Il réussit de la sorte à extorquer aux Syriens une somme de quatre cents bourses, en prétextant qu'il s'agissait d'avances. Or pendant que Radjaï était en poste, les troupes envoyées contre les Mamlouks rentrèrent au Caire et réclamèrent leurs soldes et leurs allocations [2]. On commença donc à ramasser de l'argent, à «emprunter», comme l'on disait, pour payer ces troupes. Mais les sommes recueillies furent insuffisantes et il restait un reliquat à trouver. Or le pacha avait supprimé une partie des soldes, et les soldats réclamaient leur dû afin de quitter le Caire. Mohammed pacha leur déclara : « Quittez la ville et allez camper dehors, je compléterai vos rations.» On leur devait encore l'équivalent de neuf cents bourses. «Nous ne partirons pas avant d'avoir touché l'arriéré de nos soldes jusqu'au dernier para.» Le porte-parole des officiers était le commandant Mohammed Ali, qui disposait d'un parti influent : ainsi l'affaire aboutissait à un conflit entre Mohammed pacha et Mohammed Ali, qui avait derrière lui toute l'armée. Le feu couva quelque temps, mais le vendredi 6 moharram 1218 (28 avril 1803),

---

[1] Selon les divers documents, il est difficile d'établir des dates précises pour les mutations dont nous allons parler.

Khalil Radjaï occupa dès la capitulation de Belliard les fonctions de defterdar (Djabarti, III, p. 190, 207, 213; trad., VII, p. 37, 83, 99).

Il fut remplacé par Chérif efendi (Djabarti, III, p. 196, 209, 211-213; IV, p. 94, 193; trad., VII, p. 55, 88, 95, 97-98; VIII, p. 207, 209; IX, p. 55; Douin, *Égypte de 1802,* p. 18; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 196, 405; Sami pacha, II, p. 172; Sammarco, *Regno,* I, p. 53; *Recueil de firmans,* p. 10, 13; Haidar Chihab, II, p. 347.

Enfin Khalil Radjaï est réintégré (Djabarti, III, p. 232-234, 236; trad., VII, p. 136, 137, 141-144, 146, 152; Mengin, I, p. 24; Sammarco, *Regno,* I, p. 52, 53, 55; *Recueil de firmans,* p. 14-17).

Chérif est alors nommé pacha de Djedda.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 227, 233, 234, 238-240; trad., VII, p. 126, 127, 144, 146, 147, 157, 159-161, 163; *Histoire scientifique,* IX, p. 80-81; Mengin, I, p. 26-28; Haidar Chihab, II, p. 367-368.

en cha'ban 1217 (décembre 1802). Ils emmenaient avec eux Mohammed bey Elfi, afin de continuer à contrôler la politique des Mamlouks [1]. Il y avait deux ans que les Anglais avaient débarqué en Égypte. Les armées ottomanes rebroussèrent chemin et revinrent au Caire se placer sous le commandement de leur chef, Mohammed pacha.

Environ un mois avant le départ des Anglais d'Alexandrie on avait reçu la visite d'un commissaire français nommé Sébastiani [2], auquel Mohammed pacha réserva au Caire un accueil particulièrement cordial : il y eut une revue de troupes et des salves d'artillerie. Mohammed pacha eut avec lui de nombreuses entrevues secrètes, puis cet ambassadeur prit contact avec certains ulémas. Il séjourna sept jours dans la capitale et repartit par la route de Damiette. Il avait pris terre à Alexandrie ; lors de son arrivée à Damiette, on eut pour lui des égards exceptionnels, et sa flottille était venue d'Alexandrie à la passe de Damiette. Il mit à la voile pour aller à Saint-Jean-d'Acre rendre visite à Ahmed pacha Djezzar. Mais nous ignorons s'il put le rencontrer ou non. C'est de là qu'il regagna la France, sans que personne n'ait jamais su pour quelles raisons il était venu.

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 220, 234 ; trad., VII, p. 106, 146 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 48, 68-69 ; Mengin, I, p. 24-25 ; Sami pacha, II, p. 173 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'expédition française,* II, p. 294-296 ; Douin, *L'ambassade d'Elfi bey, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* VII, p. 100-120 ; Guémard, p. 81-82 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 47, 50, 91; Douin, *Politique mameluke,* II, p. iv, 7, 8, 16, 36, 37, 59-62 ; Sabry, p. 25 ; Weygand, I, p. 25 ; Durand-Viel, I, p. 12 ; Mengin, I, p. 24-29 ; Ghorbal, p. 216.

[2] Voir les instructions données à Sébastiani et son rapport dans Douin, *Égypte de 1802,* p. vi, 3-4, 6-7, 8-26 ; Ghorbal, p. 178 seq., 301-308. Sébastiani parle de ses entretiens avec Mohammed Khosrau pacha, Sitt Nafisa, la veuve de Mourad bey, les cheikhs Abd-Allah Charkaoui et Solaiman Fayoumi. Il fut en outre en correspondance avec Othman bey Bardisi. — Cf. Djabarti, III, p. 229-230 ; trad., VII, p. 133-135, où il faut corriger le nom de son interprète, Jaubert, au lieu de Guillebert ; *Histoire scientifique,* IX, p. 53, 69-75 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xxxvi-xxxvii, xliv, 287-297, 299-304, 343, 348, 363, 376-379 ; Douin et Fawtier-Jones, *Campagne de 1807,* p. xi ; Mouriez, I, p. 98 ; Gouin, p. 114-115 ; Mengin, I, p. 22 ; *Histoire de la nation égyptienne,* VI, p. 10-11 ; *Précis,* III, p. 202, 207.

du corps des Albanais, et Moustafa agha, premier aide de camp du pacha, qui était alors chef de la sûreté [1] au Caire, un véritable agité qui faisait trembler toute la ville. Tels étaient les trois commandants de l'armée de Mohammed pacha. Quant à Taher pacha l'Albanais, il ne se dérangeait pas pour combattre les Mamlouks, il n'avait pas dépassé Guizeh et disait : « Pour ma part, je ne me bats pas contre des musulmans. » Quelques engagements eurent lieu dans la banlieue d'Alexandrie entre les troupes du pacha et les Mamlouks, au cours desquels les troupes du pacha ne furent jamais victorieuses [2].

Au moment même où les Mamlouks venaient chercher refuge dans les parages d'Alexandrie, des ordres du gouvernement anglais parvenaient au commandant en chef de l'armée anglaise, lui prescrivant de faire évacuer cette ville par son armée de terre et sa flotte, et de rallier Malte. Le général anglais prévint les Mamlouks de ce fait nouveau et leur dit : « Regagnez vos quartiers de Haute Égypte. » Les Mamlouks repartirent donc dans le sud, cependant que l'escadre anglaise quittait Alexandrie

---

[1] Ce Moustafa fut tué au combat de Damiette signalé plus loin (p. 178 du texte ; voir Djabarti, III, p. 277 ; trad., VII, p. 206 ; Ali pacha, XI, p. 60).

Bach tabdil, rendu dans un document italien *Bas Tepdil* (Sammarco, *Regno,* I, p. 58).

Le mot *tabdil* signifie « déguisement » (Bocthor, I, p. 244). On le rencontre dans Djabarti à plusieurs reprises (I, p. 173 ; III, p. 235, 236, 312), mais cela n'apparaît pas dans la traduction, où le mot est parfois sauté, ou bien mal rendu (II, p. 75 : simulant une ronde ; VII, p. 150, 151, 340).

D'où la signification que nous avons donnée au titre (Kremer, II, p. 74 ; Barbier de Meynard, I, p. 437 ; II, p. 245 ; Dozy, I, p. 57-58 ; Deny, p. 50).

Djabarti nomme ce fonctionnaire *aghat al-tabdil* (III, p. 229, 235, 257, 312 ; IV, p. 150, 204, 227, 242, 250, 268, 305, 309), mal traduit (VII, p. 131, 150, 206, 340 ; VIII, p. 340 ; IX, p. 81, 134, 166, 182, 223, 301, 311). Voir Ali pacha, XI, p. 50, التبريل ; Sami pacha, II, p. 173, 253 et 354, اغا باشى التبديل

[2] Sur les campagnes ordonnées par Mohammed pacha contre les Mamlouks, voir Djabarti, III, p. 221-225, 227, 236 ; trad., VII, p. 110, 111, 115-119, 125, 126, 128-132, 134-140, 145, 148, 151, 152 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 51, 54-59, 64, 65, 77-80 ; Mengin, I, p. 18, 20-24, 26 ; Gouin, p. 112-113 ; Guémard, p. 81 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 9.

commencèrent à se supporter, tout comme le loup et la brebis trouvent un terrain d'entente.

Pourtant les expéditions militaires ne cessaient pas. Peu de temps après son arrivée au Caire, Mohammed pacha avait accordé une amnistie à un bey nommé Othman bey Hasan [1], qui avait été promu par le capitan pacha Hasan Djazaïrli : il avait alors reçu la promesse d'être nommé émir du pèlerinage. Or non seulement Hasan pacha, à son arrivée au Caire, ne lui donna pas cette fonction, mais il le consigna à domicile. Lorsqu'une expédition fut prévue contre les Mamlouks de Haute Égypte, Othman bey convoqua les mamlouks présents au Caire pour les emmener combattre leurs camarades de Haute Égypte. Il rassembla ainsi un peu plus de cinq cents hommes, des braves à toute épreuve et des bretteurs remarquables, il emmena des vivres et des munitions et déguerpit en Haute Égypte, car il se refusait à se battre contre les autres Mamlouks. Les raids dans le sud étaient continuels, d'ailleurs sans aucun profit : il n'y eut même pas une seule expédition heureuse.

Les Anglais présents à Alexandrie n'avaient pas cessé d'entretenir des correspondances avec le gouvernement ottoman au sujet de ces Mamlouks, mais chaque fois qu'ils sollicitaient des instructions pour qu'on laisse les Mamlouks en paix et qu'on leur permette de rentrer au Caire, ils obtenaient des ordonnances absolument contraires. Finalement, les Mamlouks se rassemblèrent et arrivèrent à constituer une force d'environ huit mille hommes, car ils avaient groupé de nombreux bédouins, des Haouaras et des pillards; en tout, les Mamlouks eux-mêmes ne formaient guère qu'un ensemble d'environ mille cinq cents personnes. Quoi qu'il en soit, cette bande émigra de Haute Égypte sur Alexandrie pour se rapprocher des Anglais. (125) L'armée ottomane les harcela depuis le Caire : elle était commandée par Yousouf kyahya [2], le chef d'état-major de Mohammed pacha, par Mohammed Ali [3], commandant

[1] Cf. Djabarti, III, p. 222-224; trad., VII, p. 114, 117; Mengin, I, p. 20; Gouin, p. 111; *Histoire scientifique,* IX, p. 54-55.

[2] Voir Douin, *Égypte de 1802,* p. 23.

[3] Il s'agit du futur vice-roi d'Égypte (Djabarti, III, p. 228; trad., VII, p. 128; Haidar Chihab, II, p. 350; *Histoire scientifique,* IX, p. 50). Il est curieux que Sébastiani ait mentionné sa mort en combat devant Guizeh (Douin, *Égypte de 1802,* p. 81).

de Naplouse, à l'okelle du Savon[1]. La ville trembla à l'annonce de ces châtiments : chaque jour, le pacha se promenait incognito et procédait à des exécutions sommaires[2]. Deux négociants, chrétiens de Syrie, furent également condamnés à mort : l'un d'eux avait été le fournisseur de drap et de tissus divers, au temps des Mamlouks, pour Ibrahim bey, Marzouk bey et d'autres émirs, ensuite pour le grand vizir, et enfin pour ce Mohammed pacha depuis son arrivée ; l'autre avait dirigé l'administration financière de plusieurs beys. Le premier se nommait Ibrahim Zaidan et le second, Barakat. Il fit tuer aussi un notable de la colonie copte, Antoine Abou Takya[3], intendant en province. Tous trois furent (124) décapités le même jour et leurs corps furent jetés dans l'étang de l'Ezbékieh : c'était un lundi de Pentecôte, après la période des khamsin. Les chrétiens vécurent dès lors dans la terreur, car ils devenaient suspects. Les gueux de la ville et les musulmans, au nombre de plus de dix mille, défilèrent dans les rues en hurlant, tandis que les femmes poussaient leurs hululements stridents. Mohammed pacha vit la scène de ses fenêtres : « Que font ces individus, demanda-t-il, que crient-ils ? — Ce sont des musulmans, lui répondit-on, qui se réjouissent de la mort de ces chrétiens. » Il comprit alors la légèreté d'esprit des Égyptiens. Il ordonna d'enlever les corps des suppliciés et de disperser ces insensés. La ville du Caire retrouva dès lors un calme absolu. En outre un héraut fut chargé de proclamer : « Personne n'a le droit de s'opposer à la sécurité d'autrui ou d'attenter à la vie de qui que ce soit. » A la suite de quoi les chrétiens cessèrent d'être molestés, les soldats et les habitants

---

[1] Cette okelle, qui était un important centre commercial, existe encore non loin du Bab el-Nasr, au sud-est de la mosquée d'el-Hakim (Djabarti, III, p. 79, 234 ; IV, 471 ; trad., VI, p. 152 ; VII, p. 146 ; VIII, p. 154 ; *C. I. A., Égypte,* I, p. 180 ; Ali pacha, II, p. 70 ; III, p. 111 ; Sami pacha, II, p. 206, 208 ; Rustum, II, p. 511 ; III, p. 400).

[2] Sur les exécutions cruelles ordonnées par Mohammed Khosrau pacha, voir Djabarti, III, p. 209, 210, 229, 230, 237 ; trad., VII, p. 89-91, 131, 135, 155 ; Sami pacha, II, p. 171.

[3] Ce copte, immensément riche, avait été au service des Français, mais avait eu maille à partir avec Menou (Djabarti, III, p. 36, 178, 222 ; trad., VI, p. 77 ; VII, p. 10, 113 ; Rigault, p. 118).

environ, fantassins et artilleurs, qui avaient déserté pour s'employer chez les beys; après le départ de l'armée française, certains s'étaient groupés et s'étaient mis à la disposition de Mohammed pacha; les autres étaient restés sous l'uniforme mamlouk au service des beys. Ces quatre-vingts Français étaient les instructeurs des nègres du Takrour et des mamlouks de race blanche qui formaient la Maison du pacha. Ils leur enseignaient l'art de la guerre selon les méthodes européennes pour l'infanterie et la cavalerie, deux fois par jour, le matin de bonne heure et le soir. Mohammed pacha possédait environ cinq cents mamlouks, nègres du Takrour et Français. Deux mois après son arrivée, il était en état d'envoyer des expéditions contre les Mamlouks; il y eut dès lors des escarmouches et des batailles sans nombre.

Nous avons omis de dire que lors du départ du grand vizir pour Koubbeh, à une heure du Caire, Mohammed pacha parcourut la ville sous un déguisement [1] et fit mettre à mort sur sa route le préfet de la ville et le prévôt des marchés que le grand vizir avait nommés [2]. Vingt jours plus tard, ce fut le tour du saiyid Ahmed Zarou [3], commerçant

---

III, p. 221-222, 241; trad., VII, p. 110-112, 163; Mouriez, I, p. 87; Gouin, p. 109; Sami pacha, II, p. 172; Ali pacha, I, p. 63; Guémard, p. 80-81; Guémard, *Aventuriers*, p. 34-35). L'expression n'était pas nouvelle (Jouannin et Van Gaver, p. 304; Hammer, XII, p. 307, 474; XIII, p. 5, 65; *Encyclopédie*, III, p. 1001; IV, p. 228; Guémard, p. 28, 43). Elle resservira (*Encyclopédie*, II, p. 34; Guémard, p. 99; Sami pacha, II, p. 206; Djabarti, III, p. 300; trad., VII, p. 316; P(risse) et H(amont), p. 8; *Histoire scientifique*, X, p. 102, 247; Sabry, p. 68, 88; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 77; Weygand, I, p. 153).

[1] Cf. Djabarti, III, p. 208; trad., VII, p. 88; Haidar Chihab, II, p. 348.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 208; trad., VII, p. 86-87.

[3] Ce négociant syrien avait été mis à l'amende par Bonaparte pour avoir fait connaître au Caire le désastre naval d'Aboukir. Il fit plus tard partie d'une commission de répartition des impôts. Il fut en bons termes avec le général Belliard; ce qui ne l'empêcha pas de lui communiquer de fausses nouvelles. Ce fut lui qui liquida le mobilier du divan français. A l'arrivée du grand vizir, il paraît perdre son influence; il ne tarda pas à être emprisonné, puis décapité (Djabarti, III, p. 15, 141, 150, 157, 158, 179-180, 187, 191, 197, 210; trad., VI, p. 32-33, 283, 297, 299; VII, p. 14, 31, 42, 57-58, 60, 90; Sami pacha, II, p. 163).

été habitée qu'à peine une semaine par son propriétaire. Elle était devenue, pendant une année entière, la résidence du général Bonaparte, puis du général Kléber durant dix mois; c'est là qu'il avait été assassiné. Plus tard, le général Menou y avait envisagé de nouveaux aménagements, qui n'étaient pas encore terminés au moment de l'arrivée des Anglais et des Ottomans. Il avait quitté le Caire pour Alexandrie, puis était rentré en France. Le grand vizir avait habité une maison au cœur de la cité. Mohammed pacha se logea donc dans le palais de Mohammed bey Elfi : cette maison allait devenir splendide, puisqu'en somme les maçons et les menuisiers y avaient constamment travaillé depuis dix ans. Elle était entourée de maisons calcinées, atteintes par des bombes françaises pendant les trente-quatre jours du siège. Mohammed pacha songea à remettre en état les alentours. Les habitants du Caire furent requis pour enlever les décombres : militaires, ulémas, commerçants, chrétiens syriens, coptes et grecs, musulmans (123) de toutes professions, tous coltinèrent de la terre, sans exception, riches et pauvres [1]. Il entoura l'hôtel d'un mur d'enceinte et de tours, qui furent garnis de canons et de mortiers. Il construisit également une okelle, dans les façades de laquelle on installa des boutiques et un café. Cet ensemble devint donc très élégant. Il constitua des dépôts de munitions dans les tours. Il y avait en batterie sur affût, du côté de l'étang de l'Ezbékieh, environ quatre-vingts canons de grand et de petit calibre. Les servants étaient des nègres du Takrour, qu'il avait achetés, et quatre-vingts Français [2]

---

[1] Sur les incidents à la fois comiques et odieux de cette reconstruction, voir Djabarti, III, p. 207, 225-226, 229, 238-239, 243-244; trad., VII, p. 82, 120-123, 132, 157-158, 168-171; Sami pacha, II, p. 175; Douin, *Égypte de 1802*, p. 24; Haidar Chihab, II, p. 351-352.

[2] Des déserteurs français se trouvaient aussi en Haute Égypte et dans le Delta au service des beys; ils inquiétaient la Porte, et sur les instructions de son Gouvernement, le colonel Sébastiani prétend les ramener en France (voir plus loin, p. 176 du texte, l'armée de Hosein le Zantiote; *Histoire scientifique,* IX, p. 9, 50-51; Mengin, I, p. 10, 19-20; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 371, 378; Douin, *Égypte de 1802,* p. 5, 26, 32, 67; Dehérain, p. 506; Haidar Chihab, II, p. 352).

Djabarti donne de nombreux détails sur ce qu'il appelle le *nizam djadid* (Djabarti,

Le grand vizir ne put que faire exécuter cet ordre lorsqu'il lui parvint : il nomma Mohammed pacha Abou Marak gouverneur de Jérusalem, Gaza et Jaffa [1], et fit alors ses préparatifs pour regagner Stamboul. En ramadan (janvier 1803), Mohammed pacha arriva à Aboukir, puis passa à Rosette et, à la fin de ce même mois arriva au Caire. Il s'installa sur la rive occidentale. Il alla rendre visite au grand vizir, en reçut une pelisse et retraversa le fleuve. Le 1er chaoual (25 janvier), le grand vizir emmena son armée d'Égypte, n'y laissant que les Albanais, sous les ordres de Taher pacha, une partie des janissaires et quelques contingents divers [2].

Il fut suivi de Mohammed pacha Abou Marak, d'Ibrahim pacha, gouverneur d'Alep, et d'Ibrahim pacha, gouverneur d'Aintab. Le grand vizir était resté sept mois en Égypte. Les ulémas et les notables du Caire firent un bout de chemin avec le grand vizir pour lui dire adieu, puis revinrent dans la capitale. Ils se rendirent alors chez Mohammed pacha, le nouveau gouverneur venu de Stamboul, pour le féliciter, et celui-ci fit son entrée officielle en ville et choisit pour résidence l'hôtel de Mohammed bey Elfi, situé sur l'étang de l'Ezbékieh [3]. Il convoqua des maçons et des charpentiers pour achever cette maison, commencée au temps de Mohammed bey Elfi, mamlouk de Mourad bey, mais qui n'avait

---

«vice-roi». Or nous lisons dans le rapport de Sébastiani : «Mohammed, pacha du Caire, a pris, on ne sait pourquoi, le titre de vice-roi d'Égypte.» Il semble que dès lors la formule devienne normale dans les cercles diplomatiques. Mohammed pacha lui-même, dans une lettre, ne parle-t-il pas des «vice-rois des provinces» de l'Empire ottoman? (*Histoire scientifique,* IX, p. 48-51 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 23 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 189, 225 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 1, 3, 17, 18, 20, 161 ; Mengin, I, p. 22 ; P(risse) et H(amont), p. 3 ; Gouin, p. 109 ; Guémard, p. 98, n. 15 ; Deny, p. 558).

[1] Ce personnage, qui avait déjà rempli ce poste, s'y fit peu aimer et finit par s'enfuir ; il commanda plus tard une armée dans le Hedjaz (Djabarti, III, p. 181, 197, 221, 222, 234, 306 ; trad., VII, p. 18, 58, 110, 112, 145, 329 ; Sami pacha, II, p. 173 ; Haidar Chihab, II, p. 347, 348, 361-362, 368, 370, 426, 522).

[2] Voir Djabarti, III, p. 203, 207-208 ; trad., VII, p. 75, 83, 85, 86 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 48-49 ; Mengin, I, p. 12, 16-19 ; Gouin, p. 108.

[3] Ici s'arrête la traduction de Cardin.

après notre inquiétude. — Soyez rassurés, répondit le général, il n'est pas concevable qui nous coopérions à votre perte. Le gouvernement anglais s'intéresse beaucoup à vous ; il vous secourra sans aucun doute, vous pouvez en avoir une entière certitude. Je ne vais pas manquer d'informer le gouvernement anglais des faits nouveaux. Partez tranquilles.»

Ibrahim bey prit congé du général et alla rejoindre ses congénères en Haute Égypte. Une correspondance s'engagea entre les Anglais et les Ottomans sur la conduite à tenir envers les Mamlouks [1]. Son Excellence le grand vizir résidait toujours au Caire et venait de nommer Mohammed bey Abou Marak [2] gouverneur de l'Égypte. Les troupes ottomanes prirent ombrage de cette décision, parce que l'intéressé était d'origine arabe. Les pachas présents murmurèrent, entre autres Ibrahim pacha Mouhassil [3], Taher pacha l'Albanais et Ibrahim pacha, gouverneur d'Aintab. Ce déplaisir fut communiqué à Stamboul au capitan pacha, (122) lequel obtint de Sa Majesté le sultan Sélim un hatt-i-chérif révoquant Mohammed pacha Abou Marak et désignant pour le gouvernement de l'Égypte Mohammed [4] pacha, propre lieutenant du capitan pacha.

---

(1) Cf. Douin, *L'ambassade d'Elfi bey, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* VII, p. 97-98 ; Guémard, p. 79 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 27-38 ; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 8.

Voir le protocole turc des conférences tenues au Caire entre le général anglais et le grand vizir (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 190-208).

(2) Voir Djabarti, III, p. 186, 188, 190, 191 ; trad., VII, p. 29, 34, 37, 42, 54 ; Rousseau, p. 402 ; Sami pacha, II, p. 168 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 88.

(3) L'intéressé, on le verra plus bas, était gouverneur d'Alep (Djabarti, III, p. 189-190 ; trad., VII, p. 36-37 ; Haidar Chihab, II, p. 349).

Mouhassil est un surnom dû à la fonction qu'il avait précédemment occupée, celle de «percepteur, fermier général» (Jouannin et Van Gaver, p. 424 ; Hammer, VIII, p. 155, 158 ; X, p. 305 ; XIV, p. 2 ; XV, p. 155 ; XVII, p. 233 ; Barbier de Meynard, II, p. 739 ; *Recueil de firmans,* p. xl, 353 ; Douin, *Mission de Boislecomte,* p. lviii ; Douin, *Paix de Kutahia,* p. 335, 343 ; Driault, *Égypte et Europe,* IV, p. 224 ; Politis, *Conflit,* p. xxiv).

(4) Mohammed Khosrau pacha (Djabarti, III, p. 197, 207 ; trad., VII, p. 58, 94 ; Mouriez, I, p. 75 ; Paton, II, p. 4-5 ; Ali pacha, III, p. 43 ; Weygand, I, p. 19, 21 ; Haidar Chihab, II, p. 347).

Dans le dernier passage de Djabarti les traducteurs ont rendu *wali misr* par

leur autorité et leur puissance. C'est pourquoi la Sublime Porte a donné des ordres au grand vizir de les chasser du territoire égyptien.»

(121) Les Mamlouks avaient passé du Caire à Guizeh. Ils apprirent là les intentions de la Porte et en eurent peur. Le général anglais les rassura :

— Ne craignez rien, il ne vous arrivera aucun mal, car nous veillerons au maintien de la paix.

— Mais après cette injonction, le grand vizir va mobiliser contre nous.

— Nous allons vous protéger, leur dit le général, jusqu'à deux jours de distance de Guizeh. Au delà, vous avez la possibilité de vous défendre vous-mêmes, car vos territoires sont immenses, vous possédez toute la Haute Égypte.

— Nous n'avons, en effet, besoin de votre protection répliquèrent les Mamlouks, que jusqu'à deux heures de Guizeh. Plus loin, nous avons les forces voulues [1].

Les Mamlouks quittèrent Guizeh et s'enfoncèrent en Haute Égypte. Mais quelque temps plus tard, Ibrahim bey revint seul et demanda au général une seconde entrevue. Il dit à cet officier : « Soyez francs et dites si vous êtes aussi nos ennemis. Nous devons le savoir, car dans le cas contraire nous nous fierons à votre parole dès maintenant. Si une expédition est montée contre nous et qu'il s'y trouve seulement dix Anglais, nous ne voulons pas les combattre et la mort sera préférable [2]. Mais si vraiment nous pouvons compter sur votre amitié, si aucun de vos officiers ne part à notre poursuite, ce sera un grand soulagement

---

[1] Cf. *Histoire scientifique,* IX, p. 45-48 ; Mouriez, I, p. 82-84 ; Gouin, p. 107-108 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 3, 5 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xxi-xxii.

[2] D'une lettre envoyée par Ibrahim bey et Othman bey Bardisi au général Stuart le 25 janvier 1802, il faut citer la phrase suivante : « Si les Osmanlis marchent contre nous, nous ferons notre possible pour les éviter ; si les Anglais se joignent à eux pour nous attaquer, nous, qui sommes sous leur protection et après les promesses formelles qui nous ont été faites au nom d'un si grand souverain, et qu'un général en chef ne pourrait jamais retirer, nous irons à leur rencontre même sans armes. » (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 172-174).

Devant cette manifestation brutale du général en chef, le consul comprit qu'il s'agissait d'une volonté farouche et que les conséquences seraient désastreuses. Il sollicita du général l'autorisation d'aller chez le capitan pacha : « Je désire le voir, car j'espère pouvoir lui faire adopter ton point de vue. » Or le consul était accompagné d'un efendi de la suite du grand vizir, qui venait d'assister à cette entrevue. Tous deux partirent chez le capitan pacha et lui répétèrent mot pour mot les déclarations du général en chef. Une discussion s'ensuivit et ils convinrent entre eux : « Il n'y a rien à faire d'autre que de libérer les mamlouks pour supprimer ce ferment de discorde. » C'est en ce sens que le capitan pacha et le consul écrivirent au grand vizir. L'efendi qui avait été témoin de toutes ces conversations fut chargé d'aller au Caire mettre le vizir au courant et tâcher de faire prévaloir à ses yeux la libération des mamlouks.

Un détachement de cinq cents soldats anglais, commandé par un général, était alors cantonné à Guizeh. Cet officier reçut l'ordre de traverser le Nil et de passer au Caire prendre livraison des beys. Il rendit visite au grand vizir, qui signa sur-le-champ l'ordre d'élargissement de tous les détenus, du simple mamlouk au bey; les beys partirent avec leur Maison, en tout cinq cents personnes, et quittèrent le Caire pour Guizeh, en emportant tous leurs effets [1]. La nouvelle en fut communiquée à Alexandrie, ce qui hâta la paix entre le général en chef et le capitan pacha. Ce dernier ne tarda pas à ramener sa flotte à Stamboul, et les Anglais tinrent garnison à Alexandrie, à Rosette et à Guizeh.

Après le retour du capitan pacha à Stamboul [2], les relations des Mamlouks et des Anglais en Égypte changèrent d'aspect à la suite de l'intervention de l'ambassadeur d'Angleterre à Stamboul, qui envoya dire au général en chef en Égypte : « Tu n'as cessé de t'ingérer dans la politique des Mamlouks, de sorte qu'on a été amené à composer avec

---

[1] Cf. *Histoire scientifique*, IX, p. 39-42 ; Mengin, I, p. 16 ; Douin, *Égypte de 1802*, p. 3 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. xix-xxi ; *Hist. de la nation égyptienne*, VI, p. 8.

[2] Le capitan pacha avait appareillé d'Aboukir à la fin de décembre 1801 (Djabarti, III, p. 203 ; trad., VII, p. 75).

le mettre au courant des incidents d'Alexandrie : « Ton heure est venue, lui dit-il. Tu es un homme aimé de la Sublime Porte et considéré par ses hommes politiques. Pars pour Alexandrie et fais la paix entre le général en chef et le capitan pacha. Tu as carte blanche pour arranger cette affaire, car je ne vois vraiment que toi pour résoudre cette difficulté. »

Celui-ci partit immédiatement pour Alexandrie, où il vit les armées prêtes à en venir aux mains. Il fut introduit chez le général en chef, qu'il trouva en proie à une violente colère. Il s'efforça de le calmer et de l'amadouer. Mais le général continua à s'emporter et lui exprima en anglais sa dernière volonté : « Si le grand vizir ne libère pas tous les beys qui se trouvent dans la capitale de l'Égypte, je me verrai dans l'obligation de faire la guerre et je détruirai ce pays. Le gouvernement anglais ne tient pas à la vie de ses fils lorsque son honneur est engagé : ces mamlouks se sont placés depuis trois ans sous la protection de l'Angleterre et, d'autre part, nous avons, avant cette date, reçu du gouvernement ottoman, du capitan pacha et du grand vizir, toutes les assurances voulues. Or aujourd'hui ces deux hommes s'évertuent de déshonorer la nation anglaise aux yeux (120) des rois du monde. Je ne puis le supporter, devrais-je y sacrifier toute mon armée et ma flotte. Retourne vers celui qui t'a envoyé et transmets-lui au plus vite ma réponse. Je ne te laisse pas la faculté de passer la nuit ici[1]. »

---

certaine intelligence, il a été député vers le général anglais » (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 116).

Sur l'activité de Rossetti depuis l'occupation française, voir : Djabarti, III, p. 154 ; trad., VII, p. 198 ; Ryme, p. 235 ; *La contemporaine en Égypte,* II, p. 52-53 ; Dehérain, p. 130, 136, 214, 260, 267, 335, 394 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. 49-50, 319, 320, 324 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 17-18, 84, 211 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xix ; Douin et Fawtier-Jones, *Campagne de 1807,* p. lix ; *Recueil de firmans,* p. 18, 26 ; Sammarco, *Regno,* I, p. xix-xx ; Douin, *Mohamad Aly, pacha du Caire,* p. 29, 32, 149, 183, 191, 193, 211 ; Driault, *Mohamed Aly et Napoléon,* p. 10 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'Expédition française,* II, p. 216-217 ; Forbin, p. 289-290. — Rossetti mourut en 1830 (Cattaui, *Archives russes,* I, p. 372).

[1] Les deux lettres du général Hutchinson au grand vizir sont extrêmement dures (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 110-113 ; cf. Sammarco, *Regno,* I, p. 12-13).

beys perpétré par le capitan pacha. Ces faits n'ont eu lieu ni sous mon inspiration ni avec mon consentement : ce fut un événement imprévisible, ainsi le voulait le destin. Quant aux beys qui se trouvent en mon pouvoir, ils sont traités avec le maximum de correction. J'ai reçu à leur sujet des instructions de la Sublime Porte, dont ils ont eu connaissance : ils doivent se présenter à Stamboul à Sa Majesté le sultan ; ils seront accueillis avec beaucoup de considération, toucheront des pensions ou recevront des fonctions ; Sa Majesté le sultan leur décernera les queues afférentes à la dignité de pacha et leur confiera le gouvernement d'une province à leur choix, sauf en Égypte, où le sultan ne désire pas les voir demeurer. Je me porte garant (119) de leur sécurité et j'affirme qu'il ne sera pas attenté à leurs jours. Si tu désires les voir, fais-le, tu te rendras compte que leur existence est normale et qu'ils sont convenablement traités. Tu entendras de leur bouche même qu'ils sont décidés à se rendre à Stamboul.» Il fit donc entrer le général anglais avec son propre interprète dans le local où les beys étaient consignés. Ils [1] avaient été prévenus d'avoir à tenir le même langage que le grand vizir et devaient exposer par écrit au général en chef qu'ils étaient traités avec beaucoup d'égards, qu'on ne leur refusait aucune demande, qu'ils désiraient vivement se rendre à Stamboul, qu'on veillait en somme à ce qu'ils ne manquent de rien. Sous la contrainte, ils rédigèrent donc une lettre en ce sens au général en chef : son délégué leur rendit visite et s'entretint avec eux, comme l'avait suggéré Son Excellence le grand vizir. Il prit leur missive et rentra à Alexandrie, où il rendit compte de ce qu'il avait vu et entendu. Le général en chef entra dans un état de fureur indescriptible et envoya sommer de nouveau le grand vizir d'avoir à relaxer les beys, faute de quoi il serait dans l'obligation d'employer la force.

Dès que le général eut emporté la lettre, Son Excellence le grand vizir fit venir le consul Carlo Rossetti [2], que nous connaissons, pour

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 203 ; trad., VII, p. 73-75.

[2] Dans une lettre du grand vizir à son gouvernement la mission de Rossetti est ainsi présentée : « Le général anglais ayant demeuré pendant vingt jours dans la maison du consul d'Allemagne Rossetti, il a contracté pendant ce tems des liaisons amicales avec lui ; et comme ce consul, établi depuis longtems en Égypte, est au fait de tout ce qui regarde les Beys et en même tems un homme d'une

avec tous les mamlouks présents au Caire. Le général en chef anglais était de plus en plus exaspéré ; il ne songeait à rien moins qu'à marcher sur le Caire pour bombarder la ville.

Ainsi, à Alexandrie, les beys avaient été tués et les Anglais avaient pris les armes. Au Caire, au moment même où les beys de la Maison de Mourad partaient pour trouver la mort, Son Excellence le grand vizir avait fait chercher Ibrahim bey (118) et les autres beys. Dès qu'il avaient été introduits auprès de lui, il les avait fait mettre aux arrêts. Puis il avait envoyé des troupes occuper les demeures de tous les mamlouks, kachefs, aghas et beys. Il avait dit à ces mamlouks : « Vous êtes réclamés au nom de Sa Majesté le sultan. » La nouvelle en parvint à Othman bey et aux Anglais d'Alexandrie, ce qui causa en cette ville une grosse émotion. Le général en chef anglais envoya immédiatement au grand vizir un général chargé de la communication suivante : « Le général en chef te fait dire que le capitan pacha a assassiné les beys et il a appris que tu as emprisonné les autres beys. Le général en chef va s'assurer de la personne du capitan pacha, de ses vaisseaux et de ses troupes. Il t'annonce que si tu ne libères pas les beys arrêtés par tes ordres, il marchera sur le Caire à la tête de ses troupes pour te combattre. Si tu ne mets pas en liberté tous les mamlouks que tu détiens, il n'augure rien de bon de vos rapports futurs. » Son Excellence le grand vizir fut extrêmement préoccupé de cette situation : il regretta surtout que le capitan pacha eût accompli un acte de cette nature. Ils s'étaient mis d'accord pour envoyer subrepticement les beys à Stamboul et les remettre à la disposition de Sa Majesté le sultan. Il s'apercevait que le coup était manqué, que des protestations surgissaient, qu'un conflit allait en résulter, et il eut peur de renouveler la faute commise envers Kléber. Son action aurait des conséquences plus déplorables encore, car les Anglais étaient nombreux et forts, leur flotte se trouvait en rade d'Alexandrie et était un danger pour la sienne. Le grand vizir Yousouf pacha était un homme intelligent et fin, d'humeur douce, qui n'hésitait pas à prendre une décision et savait mesurer les conséquences de ses actes. Il reçut donc le général anglais avec beaucoup d'égards et lui témoigna une extrême affabilité : « Salue de ma part, lui dit-il, le général en chef et ne lui cache pas que je suis moi-même chagriné à l'extrême du meurtre des

une autre : ils croyaient aller à Alexandrie, mais en fait ils étaient dirigés sur le vaisseau amiral. Lorsqu'ils en furent tout près, ils se rendirent compte qu'ils étaient tombés dans un traquenard. Ne voulant pas monter à bord, ils prirent leurs armes pour se débarrasser des matelots turcs de la chaloupe : pendant ce temps les marins du vaisseau amiral leur tiraient dessus à coups de fusil. L'émir Othman bey Bardisi fut blessé : il se jeta à l'eau et réussit à gagner à la nage la plage d'Alexandrie. Les trois autres beys furent tués [1], ainsi qu'Ibrahim kyahya Sennari [2]. Dès qu'il eut touché terre, Othman bey Bardisi courut, malgré ses blessures, au pavillon du général anglais et, l'informant de l'incident, lui fit savoir que ses collègues avaient été mis à mort. Le général anglais avait bien entendu les coups de feu et avait immédiatement alerté son armée, qui avait pris ses dispositifs de combat. Lorsqu'il apprit de la bouche d'Othman bey Bardisi la réalité des faits, il entra dans une violente colère. Il ordonna à ses troupes d'attaquer le camp des troupes ottomanes et de cerner le pavillon du capitan pacha ; les canons furent mis en batterie et des ordres furent donnés à la flotte de se tenir prête à bombarder les vaisseaux ottomans. Un ultimatum fut en même temps adressé au capitan pacha, le sommant d'avoir à livrer les mamlouks qu'il avait capturés, morts ou vifs. Ce dernier s'exécuta aussitôt. Lorsque les corps arrivèrent, on fit aux beys assassinés des funérailles solennelles, et les troupes anglaises défilèrent devant les cercueils, à la mode européenne, après quoi les beys furent enterrés.

Dans l'intervalle, Othman bey Bardisi avait appris que l'on avait arrêté les beys de la suite d'Ibrahim bey [3] ; ils avaient été émprisonnés

---

[1] Dans son récit, Djabarti annonce aussi la mort de Mohammed bey Manfoukh (voir plus loin, une note à p. 167 du texte).

[2] Voir Djabarti, III, p. 91, 168-169, 219-220 ; trad., VII, p. 175, 316-317 ; VII, p. 105-106 ; Legrain, *La maison d'Ibrahim el Sennari, Mémoires de l'Institut égyptien,* VIII, p. 171-183 ; Dehérain, p. 64, 149 ; Guémard, *Aventuriers,* p. 16-17.

[3] Voir la liste des beys arrêtés dans Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xvi, 403. — Cf. Djabarti, III, p. 200-201 ; trad., VII, p. 67-68 ; Mengin, I, p. 16 ; Mouriez, I, p. 81-82 ; Gouin, p. 102-103 ; Sami pacha, II, p. 169 ; Sammarco, *Regno,* I, p. 9-11 ; Haidar Chihab, II, p. 345-346 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'expédition française,* II, p. 284-285.

été le lieutenant de Mourad bey avant de passer au service d'Othman bey Tanbourdji. Ils furent accompagnés par un certain nombre d'aghas, de kachefs et de mamlouks de leurs Maisons. Tous se rendirent à Rosette et de là se dirigèrent vers la banlieue d'Alexandrie, au camp du capitan pacha. Cet officier les accueillit avec des paroles courtoises. Ils allèrent ensuite saluer le général anglais. Ce dernier les reçut avec beaucoup de cordialité. Ils purent s'entretenir avec lui en particulier : « Son Excellence le capitan pacha nous a invités, lui dirent-ils, mais nous tremblons d'être victimes d'un guet-apens. Nous ne sommes venus qu'à cause de notre confiance en votre parole. Depuis le début nous nous sommes mis sous la sauvegarde du gouvernement anglais. Nous venons te mettre au courant pour que tu ne nous abandonnes pas s'il nous arrive malheur. Nous avons très peur. — N'ayez aucune crainte, leur répondit le général anglais, soyez complètement rassurés. Il n'est pas possible qu'il vous arrive le moindre mal. Nous avons échangé des promesses solennelles à votre sujet. Vraiment vous avez le maximum de garanties et vous n'avez absolument rien à redouter [1]. »

(117) Ils prirent congé et se retirèrent sous leurs tentes. Ils attendirent près de quatre jours avant de se représenter à la tente du capitan pacha [2]. Ce dernier les invita alors à faire une promenade en mer jusqu'à Alexandrie. Ils prirent place dans une chaloupe et lui les suivait dans

---

[1] Cf. *Histoire scientifique,* IX, p. 8 ; Mengin, I, p. 10-11 ; Paton, II, p. 3-4 ; Gouin, p. 98, 101 ; Ali pacha, I, p. 63 ; Sami pacha, II, p. 170 ; Douin, *L'ambassade d'Elfi bey, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* VII, p. 96-97 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'Expédition française,* II, p. 198, 216 ; Bréhier, p. 86.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 200-202 ; trad., VII, p. 67-71 (avec des détails plus circonstanciés et différents) ; *Histoire scientifique,* IX, p. 16-37 ; Mengin, I, p. 14-16, 425 ; Mouriez, I, p. 75-80 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'Expédition française,* II, p. 216, 283-285 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 165-166 ; Guémard, p. 79 ; *Hist. de la nation égyptienne,* VI, p. 6-7 ; Weygand, I, p. 20-21 ; Haidar Chihab, II, p. 343-345 ; Ghorbal, p. 170 seq. ; Douin, *Égypte de 1802,* p. v ; Douin et Fawtier-Jones, *Conquête de 1807,* p. ix.

L'affaire donna lieu à une série de correspondances et de pourparlers entre les Ottomans et les Anglais, même à un échange de lettres entre Sélim III et George III (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xvi-xix, 100-117, 127-134, 136-143, 145-147, 151-156, 217-218, 245-248).

Hosein[1] demanda à Son Excellence le grand vizir qu'on lui livrât les beys de la Maison de Mourad bey, conformément à un firman qu'il avait envoyé. Lorsque le grand vizir avait reçu ce document, il avait convoqué ces mamlouks et leur avait dit[2] : « Mon frère le capitan pacha vous réclame. Allez vous entendre avec lui et n'ayez aucune crainte d'aucune sorte. — D'accord, avaient-ils répliqué, (116) nous sommes les esclaves de Sa Majesté le sultan. » En fait ils étaient tranquilles pour deux raisons : le sultan leur avait adressé un acte d'amnistie avant la mort de Mourad bey, ainsi qu'aux autres mamlouks ; en second lieu, avant leur entrée au Caire, les beys étaient allés rendre visite au général en chef anglais, et cet officier avait intercédé en leur faveur auprès du grand vizir et du capitan pacha, obtenant d'eux sous serment une promesse de pardon. Et même avant leur retour en Égypte, lorsque les Mamlouks se trouvaient encore en Syrie, au temps de l'amiral anglais Smith, Ibrahim bey s'était placé sous sa protection, et l'officier anglais avait fait une démarche auprès du grand vizir, pour le lui recommander tout spécialement. Enfin le gouvernement anglais avait enjoint par écrit à son général en chef de protéger les beys et tous les mamlouks, qui avaient obtenu la garantie du gouvernement, comme l'amiral Smith le leur avait fait savoir[3]. Telles étaient les considérations pour lesquelles les intéressés étaient absolument tranquilles. Aussi lorsqu'ils reçurent l'invitation du capitan pacha, ils obéirent. Les mamlouks de la Maison de Mourad bey partirent donc : il y avait là Othman bey Tanbourdji[4], Othman bey Bardisi, Mohammed bey Manfoukh, Othman bey Achkar[5], ancien mamlouk d'Ibrahim bey, Ibrahim kyahya Sennari, qui avait

---

[1] Cf. *Encyclopédie*, II, p. 367.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 197-198 ; trad., VII, p. 59, 62-63 ; *Histoire scientifique*, IX, p. 14-17 ; Mengin, I, p. 13 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne*, I, p. 165 ; *Histoire de la nation égyptienne*, VI, p. 6.

[3] Il est hors de doute que le gouvernement britannique avait engagé sa parole (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. viii, xi, 10, 36, 68-77).

[4] Cf. Djabarti, III, p. 191, 218, 225 ; trad., VII, p. 41, 101-102, 121 ; Mengin, I, p. 10 ; Gouin, p. 109 ; Ali pacha, II, p. 124 ; Ghorbal, p. 159.

[5] Cf. Djabarti, III, p. 217-218 ; trad., VII, p. 100-101. Voir la liste complète des beys invités à monter à bord, dans Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke*, I, p. 404.

en Haute Égypte et, au moment de l'arrivée des Français, il avait juré de ne pas se faire couper les cheveux tant que ces infidèles seraient en Égypte : pendant ces trois années, il avait tenu parole, ce qui l'avait fait affubler du sobriquet d'Abou Choucha, « l'homme à la houppe ».

Quant à Mourad bey [1], il avait été une des victimes de l'épidémie de peste qui dévasta la Haute Égypte en dhoul-hidjdja de l'année 1215 (mai 1801), soit deux mois avant le départ des Français. Une autre victime fut Solaiman bey [2], et un certain nombre de kachefs et de mamlouks périrent dans cette épidémie. A l'approche de la mort, Mourad bey confia ses mamlouks, kachefs, aghas et simples mamlouks, après leur avoir fait ses adieux, à Othman bey Tanbourdji, et remit ses fonds à Othman bey Bardisi. Il leur recommanda de rester unis : « Ne contrecarrez pas les ordres de mon frère Ibrahim bey, leur dit-il, et suivez son sort. » Les Mamlouks le pleurèrent en disant : « L'astre de la puissance des Mamlouks s'est éclipsé. » C'était l'expression de la plus exacte vérité.

Après l'entrée au Caire des beys que nous venons de citer, en compagnie du grand vizir, et après la prise d'Alexandrie, le capitan pacha

---

94, 104 ; trad., VI, p. 93, 181-182, 199 ; Martin, I, p. 348, 353, 354-359, 364, 368, 404 ; II, p. 96 ; *Histoire scientifique,* III, p. 514 ; VI, p. 42, 43, 45, 67-69, 175 ; VII, p. 463 ; Ryme, p. 135, 138 ; de la Jonquière, III, p. 544, 546, 553, 554, 557, 558, 560, 564-568, 588, 589, 595, 597, 602, 606-608, 611, 625, 627, 629, 631, 634, 637, 639, 650, 656, 660, 669-670, 691 ; V, p. 512, 517, 520, 525).

Dans un document anglais, cet Othman est surnommé *Satchli,* correspondant turc de l'arabe Abou Choucha (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 101, 403).

[1] Il est inutile de nous étendre sur Mourad bey (Djabarti, III, p. 156, 167-171 ; IV, p. 192 ; trad., VI, p. 295, 312-318 ; IX, p. 54 ; Martin, II, p. 253 ; *Histoire scientifique,* VIII, p. 236-238 ; Mengin, I, p. 409-412, 421-422 ; Rigault, p. 163 seq. ; Sami pacha, II, p. 156-157 ; Dehérain, p. 510 seq., 521 ; Wiet, *Deux Mémoires,* p. 113 ; Haidar Chihab, II, p. 325-326).

Je ne sais comment M. J. Savant peut affirmer que Mourad bey avait été empoisonné (*Les mamelouks de Napoléon,* p. 38).

[2] Solaiman bey n'était pas non plus resté inactif (Djabarti, III, p. 8, 63, 75, 173 ; trad., VI, p. 18, 125, 144, 323 ; Desgranges, p. 185 ; *Histoire scientifique,* IV, p. 432 ; V, p. 57 ; de la Jonquière, III, p. 549, 581, 582, 611, 637-639 ; Dehérain, p. 382 ; Haidar Chihab, II, p. 325).

Tanbourdji[1], Othman bey Bardisi[2], Ahmed bey Kilardji[3], Mohammed bey Manfoukh[4], Mohammed bey Mabdoul[5], Sélim bey Abou Diyab[6], suivis de leurs kachefs, aghas, khazindars et enfin de leurs mamlouks. Mohammed bey Elfi[7] était resté à Guizeh et ne pénétra pas au Caire. Othman bey Hasan[8] rentra aussi avec les Turcs ; ce mamlouk s'était installé

---

[1] Othman Tanbourdji se battit contre les Français en Haute Égypte, accepta le traité de Mourad et, à la mort de ce dernier, devint le chef de sa Maison ; s'allie aux Anglais après la capitulation de Belliard (Desgranges, p. 185, 224 ; Djabarti, III, p. 91, 156, 171 ; trad., VI, p. 175, 295, 311 ; Martin, II, p. 253 ; *Histoire scientifique,* VIII, p. 239, 249 ; Rousseau, p. 161, 173 ; de la Jonquière, III, p. 215, 591, 611, 656 ; V, p. 284 ; Gouin, p. 79, 96 ; Dehérain, p. 382, 510, 521).

[2] Othman Bardisi continua la lutte contre les Français, accepta le traité de Mourad et, à la fin, se rallia aux Anglais (Desgranges, p. 185, 224 ; Djabarti, III, p. 98, 99, 101, 103, 106, 108, 171, 188 ; trad., VI, p. 188, 189, 194, 196, 197, 203, 204, 208, 318 ; VII, p. 21 ; *Histoire scientifique,* V, p. 123 ; de la Jonquière, III, p. 215, 591, 594, 611, 656 ; V, p. 75, 284 ; Rigault, p. 75, 238, 239 ; Dehérain, p. 382, 510 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 41 ; Rousseau, p. xxxviii, 391 ; Skalkowski, p. xx).

[3] Ahmed Kilardji poursuivit la lutte en Haute Égypte (Desgranges, p. 185 ; Dehérain, p. 382 ; Djabarti, III, p. 189 ; trad., VII, p. 36).

[4] Mohammed Manfoukh se bat dans le Sud (Desgranges, p. 224 ; Djabarti, III, p. 171 ; trad., VI, p. 318 ; de la Jonquière, III, p. 591, 594, 611, 656 ; Skalkowski, p. 338, 363).

[5] Mohammed Mabdoul disparaît ; on le retrouve au siège du Caire sous Kléber (Djabarti, III, p. 65, 93 ; trad., VI, p. 127, 178).

[6] Sélim Abou Diyab combat les Français, est blessé à deux reprises, en août 1799 et en mai 1800 (Desgranges, p. 224 ; Djabarti, III, p. 94, 171 ; trad., VI, p. 181, 318 ; Rousseau, p. 311, 318, 320, 325 ; de la Jonquière, III, p. 215, 549, 611, 647, 656 ; Dehérain, p. 382).

[7] Mohammed Elfi fut un adversaire résolu des Français (Desgranges, p. 224 ; Djabarti, III, p. 93, 104, 171 ; trad., VI, p. 179, 198, 318 ; *Histoire scientifique,* IV, p. 432 ; VII, p. 399 ; VIII, p. 58-59 ; Martin, I, p. 324, 357-358 ; II, p. 95, 178 ; Ryme, p. 136, 138 ; Rousseau, p. 216, 272, 281 ; de la Jonquière, III, p. 215, 582, 607, 611, 625 ; V, p. 57, 58, 75, 81-84, 91, 92, 94, 96-99, 105, 106, 110, 114, 115 ; Dehérain, p. 438 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. xv ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. iv).

[8] Othman Hasan fut, comme Mourad bey, l'un des beys qui donna le plus de fil à retordre aux Français. On annonça faussement sa mort (Djabarti, III, p. 44,

Français[1]. Il proclama une amnistie et garantit la sécurité de tous, rassurant surtout les chrétiens. Une ordonnance stipula que les litiges entre musulmans et chrétiens, entamés dans la période française, seraient couverts par l'amnistie et rayés des rôles. Cette ordonnance annonçait, au nom de Sa Majesté le sultan, l'oubli du passé et précisait qu'à l'avenir aucun individu ne serait passible de poursuites que pour un délit qualifié. Ce fut donc pour tout le monde un soulagement général. Un corps de garde fut établi dans chaque quartier et les chrétiens furent protégés, en ce sens que lorsqu'ils voulaient sortir de leur quartier, ils se faisaient accompagner d'un agent de police, qui empêchait les vexations des soldats à son encontre : au retour à son domicile, le chrétien payait à cet homme entre une piastre et demie et trois piastres, selon le trajet parcouru.

Dans la suite du grand vizir se trouvait le saiyid Ahmed Mahrouki[2], ancien syndic des marchands musulmans. Il avait acquis beaucoup de crédit (115) auprès du grand vizir, qui avait fait son éloge dans les milieux du gouvernement ottoman. Son retour au Caire donna lieu à de grandes manifestations de sympathie, tant de la part des musulmans que des chrétiens.

On vit également arriver en compagnie du grand vizir les beys qui administraient le pays autrefois, soit : Ibrahim bey le Grand[3], Othman bey Achkar[4], Marzouk bey[5], Abd el-Rahman bey[6], Othman bey

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 188, 190 ; trad., VII, p. 32-33, 38 ; *Histoire scientifique,* IX, p. 13-14 ; Mengin, I, p. 11-12.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 189-190 ; trad., VII, p. 36, 39.

[3] Ibrahim, retiré en Syrie, était revenu au Caire sous Kléber, puis était reparti en Syrie (Desgranges, p. 224).

[4] Othman Achkar passe en Syrie, revient au Caire avec le détachement de Nasif pacha ; il traite avec Kléber de la reddition de la ville, puis se rallie aux Français (Desgranges, p. 115, 224 ; Djabarti, III, p. 17, 91, 93, 98, 101-103, 106 ; trad., VI, p. 38, 175, 178, 188, 194, 197, 203, 204 ; Rigault, p. 75).

[5] Jeune encore, Marzouk suivit probablement le sort de son père (Desgranges, p. 224).

[6] Abd el-Rahman avait été emmené comme otage par le capitan pacha Hasan. Nous n'entendons pas parler de lui durant l'occupation française (Djabarti, II, p. 182, 251 ; trad., V, p. 75, 199).

rend compte ainsi de l'admirable bravoure de ces hommes, qui risquaient leur vie et n'avaient pas peur de la mort.

Le général Menou ne voulait donc pas rendre la ville d'Alexandrie, mais après que l'armée du général Belliard eut évacué le Caire, les troupes anglaises se joignirent à celles du capitan pacha pour investir Alexandrie. Les Français avaient élevé des retranchements à l'extérieur de la ville. Les combats commencèrent et furent acharnés tant sur terre que sur mer. En résumé, après des luttes quotidiennes, le blocus de la ville s'accentua et les habitants furent réduits aux abois, par suite du manque de blé ; aussi, pour la fabrication du pain, fut-il remplacé par le riz, qui était abondant dans les maisons de la ville. Mais il y eut de nombreux malades, qui n'avaient pu supporter ce riz employé pour la panification, sans avoir été mélangé au froment. (114) Durant ce siège, beaucoup de personnes moururent de faim. Les Français avaient des provisions suffisantes avant le commencement du siège, car les Arabes bédouins de la banlieue leur avaient apporté du blé qu'ils leur avaient vendu très cher. Les Français emmagasinèrent ainsi une bonne quantité de céréales. Mais à la fin, on manqua de viande, de beurre, de vivres en général, bien que les Français eussent facilité l'exode des habitants. Un œuf coûta jusqu'à quarante pièces d'argent [1]. La population civile endura des souffrances indescriptibles. Enfin après des luttes incessantes sur terre comme sur mer, le général en chef Menou, à la limite de ses forces, se décida à capituler. Il obtint pour l'évacuation, après soixante jours de siège, les mêmes conditions que le général Belliard. Les Anglais prirent possession de la ville d'Alexandrie conjointement avec les troupes du capitan pacha.

Son Excellence le grand vizir était donc entré au Caire au début du mois de rabiʿ I de l'année 1216 (juillet 1801), après le départ des

---

[1] On considérait que les œufs étaient chers lorsqu'on les vendait un para les trois (Djabarti, I, p. 31 ; trad., I, p. 72). Ce fut le tarif établi par Bonaparte (de la Jonquière, II, p. 137), ce qui n'empêcha pas les Français de les payer une demi-pièce d'argent l'unité, à la grande joie des commerçants (Djabarti, III, p. 11 ; trad., VI, p. 23 ; Sami pacha, II, p. 116).

Plus tard, Djabarti parlera de prix élevés : 15 paras les dix œufs ; et 2 paras la pièce (III, p. 348 ; IV, p. 287 ; trad., VII, p. 410 ; IX, p. 263).

auquel il communiqua les clauses du traité signé par Belliard au Caire.

Le général en chef s'obstina à ne pas vouloir se rendre, car il estimait sa situation inexpugnable. Il avait à sa disposition d'immenses approvisionnements et d'abondants stocks de munitions. En effet, les Français avaient apporté avec eux des munitions pour dix ans, même s'ils avaient dû utiliser tous les jours des boulets, des canons, de la poudre et des balles. En plus, depuis leur installation en Égypte, ils avaient fondé une fabrique de poudre dans l'île de Rodah ; ils en avaient monté à Guizeh une autre, où cinq cents (113) Français faisaient des bombes, fondaient des boulets et des balles, et façonnaient des affûts de canon. A la fin de leur séjour, les Français avaient placé toute leur confiance dans l'artillerie ; ils pratiquaient les tirs massifs de bouches à feu, ainsi que les rafales de mousqueterie. Ils avaient construit des moulins à vent, qui travaillaient à plein rendement jour et nuit et fournissaient de la farine en quantité suffisante ; ils avaient construit des fours d'où sortaient le pain et le biscuit nécessaires à la troupe. Toutes ces entreprises avaient été l'œuvre des Français, qui étaient employés dans ces établissements ; grâce à quoi ils se sentaient très forts. Mais ils étaient peu nombreux en regard de la population de ce pays, qui comptait cinq millions d'âmes. Il convient d'y ajouter les armées qui venaient les attaquer par terre et par mer, envoyées par les Ottomans et les Anglais. En l'année 1215 (1800), les Anglais envoyèrent en outre de l'Inde une armée d'environ huit mille hommes, blancs et nègres, venus par la voie de l'océan Indien et par la route de Kosseir et de Suez[1]. Les Français étaient donc complètement bloqués par leurs ennemis. A Alexandrie, les flottes ottomane et anglaise avaient amené des marins et des corps de débarquement. Par la route de Gaza, une armée considérable, commandée par le grand vizir, s'était mise en marche, accompagnée par le contingent des beys mamlouks de l'Égypte ; enfin l'armée provenant de l'Inde était arrivée par la Haute Égypte. Ajoutons que la population était hostile aux Français. On se

[1] Cf. *Histoire scientifique,* VIII, p. 120 ; IX, p. 3 ; Mengin, I, p. 7.

Hammer, qui vint en Égypte comme secrétaire de Sidney Smith (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 96), conte que le grand vizir Yousouf pacha s'obstinait à nier la possibilité de faire arriver de l'Inde par la mer Rouge des troupes anglaises (Hammer, XVI, p. 249, n. 1).

de l'armée anglaise. Les Français séjournèrent à Guizeh pendant quatre jours, en attendant qu'on mît des barques à leur disposition. Ils partirent pour Rosette, par terre et par voie du fleuve ; ils furent escortés par des contingents commandés par le capitan pacha Hosein (112) et le général anglais. Dès leur arrivée à Rosette, des navires furent préparés à Aboukir, où les Français s'embarquèrent.

Ils emportèrent la dépouille du général Kléber dans son cercueil de plomb. A Paris le cercueil et le corps furent apportés au Conseil de Guerre. Un jugement déclara Kléber coupable, pendant qu'il était commandant en chef, de s'être promené seul et sans armes dans un jardin, sans s'être fait accompagner d'un soldat : nous avons raconté cet incident. Il fut condamné par le conseil de guerre à deux années d'emprisonnement dans un local à la porte duquel veillerait jour et nuit un factionnaire armée d'un fusil[1]. Après ces deux années, Kléber serait inhumé à Paris et l'on prévoyait des obsèques magnifiques avec défilé solennel.

Revenons à notre sujet. Avant de quitter Rosette, le général Belliard avait écrit au général en chef Menou pour l'informer de la conclusion d'un traité de paix. Le texte en fut communiqué par Estève, payeur général de la République en Égypte, celui qui encaissait tous les revenus et distribuait toutes les sommes à dépenser. Depuis l'arrivée des Français, Estève n'avait pas changé de situation, à cause de sa compétence en calcul et en comptabilité. Au moment de la signature de la convention entre le général Belliard et les deux autres gouvernements, il avait été prévu expressément que le payeur général Estève apporterait à Alexandrie les fonds qu'il détenait. Estève remit donc sa caisse au général en chef Menou,

---

[1] Ce récit fantastique est probablement l'interprétation d'un fait historique. La dépouille de Kléber resta déposée au château d'If jusqu'à la Restauration : ce fut par ordre de Louis XVIII que le corps de Kléber fut transporté à Strasbourg (Dehérain, p. 524 ; Rigault, p. 349-350). — Voir Djabarti, III, p. 184 ; trad., VII, p. 24.

On pourrait y voir aussi un écho de la rancune Menou-Kléber. Des représentations furent nécessaires pour que Menou autorisât une souscription pour un monument à Kléber (Martin, II, p. 160 ; *Histoire scientifique,* VIII, p. 97 ; Rigault, p. 204 ; Bréhier, p. 60).

« Ces clauses ont été approuvées et ratifiées le 9 messidor de l'an IX de la République : le général de division Belliard.

« Imprimé au Caire. »

Tel fut le texte adopté par les trois parties, les Ottomans, les Anglais et les Français. Ces derniers mirent leurs affaires en ordre et, dans les quinze jours, quittèrent le Caire pour Guizeh. Les Français furent suivis par le général Jacob le Copte, avec sa famille et ses proches ; le commandant Yanni le Grec, avec sa famille ; les commandants Barthélemy et Yousouf Hamaoui, avec leur famille ; ce dernier commandait une centaine d'hommes originaires de Safed ; Abd el-Al, qui était agha des janissaires ; enfin par quelques Égyptiennes, musulmanes et chrétiennes [1]. Ceci se passait dans les tout derniers jours de safar de l'année 1216 (juillet 1801).

Le lendemain du départ des Français, au matin, l'armée du grand vizir pénétra dans la capitale. Le grand vizir fit son entrée le même jour [2], après la prière de midi, suivi des troupes du capitan pacha et

[1] Jacob mourut en mer durant le trajet de retour, après avoir élaboré un projet pour l'indépendance de l'Égypte (Djabarti, III, p. 178, 186-187, 265 ; trad., VII, p. 11, 30, 226 ; Rigault, p. 115, 258, 348 ; Guémard, p. 69-72 ; Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* IX, p. 1, n. 4 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 86, 348, 363 ; Douin, *L'Égypte indépendante, Projet de 1801 ; Histoire de la Nation égyptienne,* VI, p. 3).

Barthélemy, dès son arrivée en France, donna probablement à Bonaparte l'idée de la création d'une troupe de mamlouks, mais il n'en fut pas moins privé de tout commandement ; il devait mourir à Marseille en 1813 (J. Savant, *Les mamelouks de Napoléon,* p. 50 et seq., 66-69).

Abd el-Al ne semble pas avoir repris du service en France ; il donna à sa patrie d'adoption « un fils qui, né le jour de Waterloo, s'éteignit sous la Troisième République, couvert de gloire, riche de lauriers cueillis en Algérie et ailleurs, et général lui aussi » (J. Savant, *op. cit.,* p. 44).

On ne connaît pas la date de la mort de Hamaoui, dont M. Jean Savant a spirituellement conté l'odyssée en France (*op. cit.,* p. 100, 149-158).

On ignore le sort de Yanni. — Voir encore : Haidar Chihab, II, p. 336 ; Djabarti, III, p. 178, 187 ; trad., VII, p. 9, 30 ; Ali Bahgat, *La famille du général Menou, Bulletin de l'Institut égyptien,* 1900, p. 39 ; Guémard, *Auxiliaires, loc. cit.,* p. 15-16.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 187-188 ; trad., VII, p. 32-33 ; Haidar Chihab, II, p. 336-337.

Article 20.

« La présente convention sera, par un officier, portée au général Menou, à Alexandrie, et, dans les dix jours de sa réception, ce dernier aura la faculté de l'accepter pour lui-même et pour les troupes françaises et auxiliaires sous ses ordres, pourvu que cette acceptation, rédigée et signée par lui, parvienne au commandant en chef des troupes anglaises devant Alexandrie avant ces dix jours.

Article 21.

« La présente convention sera ratifiée par Leurs Excellences les commandants en chef des trois armées vingt-quatre heures après la signature.

« Fait en quadruple exemplaire au lieu des conférences entre les deux camps, à la date de messidor an IX, à midi, soit le 27 juin 1801, ou le 16 du mois de safar de l'année 1216.

« Ont signé :

« Donzelot, général de brigade ;

« Morand, général de brigade ;

« Tarayre, chef de brigade ;

« John Hope, général anglais de brigade ;

« (111) Othman bey, commissaire de Yousouf pacha ;

« Ishak bey, commissaire du capitan pacha ;

« Ont approuvé :

« John Hey Hutchinson, général en chef ;

« Lord Keith et James Stivenson, amiral de la flotte anglaise ;

« Nous avons approuvé toutes les clauses de la présente convention relative à l'évacuation de l'Égypte et sa remise à la Sublime Porte : le maréchal Yousouf, grand vizir ;

« Nous avons pris connaissance et approuvé toutes les clauses de la présente convention relative à l'évacuation de l'Égypte et à sa remise à la Sublime Porte : Hosein, capitan pacha ;

les troupes françaises. Les commandants des armées alliées s'engagent à faire fournir tout ce qui sera nécessaire à ces malades conformément aux règlements.

Article 15.

« Au moment de la remise de la ville et des forts désignés ci-dessus, des commissaires prendront livraison de l'artillerie, des munitions, des magasins, des états financiers et papiers, des locaux et jardins, et d'autres choses d'intérêt public, que les Français laisseraient aux Puissances alliées.

Article 16.

« L'amiral fournira aussitôt que possible un navire pour conduire à Toulon un officier et un commissaire, chargés de porter au gouvernement français une copie de la présente convention.

Article 17.

« Toutes les contestations sur cette convention seront jugées par les commissaires désignés, qui auront pleins pouvoirs pour apprécier et résoudre les difficultés d'interprétation.

Article 18.

« Aussitôt la ratification de la présente convention, tous les prisonniers anglais ou ottomans qui se trouvent entre les mains des Français seront mis en liberté. De même les commandants en chef des Puissances alliées mettront en liberté les prisonniers français qui se trouvent dans leurs camps respectifs.

(110) Article 19.

« Un officier supérieur de l'armée anglaise, un officier supérieur du grand vizir et un officier supérieur de l'armée du capitan pacha, seront échangés comme otages contre trois officiers français de pareil grade. Aussitôt que le débarquement des troupes françaises sera effectué dans leur pays, les otages seront réciproquement rendus.

d'escorte et de transport ne seront point retenus (108) et pourront tous revenir sans exception, que les capitaines de ces navires pourront se procurer à leurs frais les vivres dont ils auront besoin pour leur retour. Le général Belliard s'engage en outre à ce que les dits bâtiments ne soient point inquiétés jusqu'à leur retour à leur point d'attache, pourvu qu'ils n'entreprennent aucune opération militaire.

Article 11.

« Toutes les administrations, les membres de la commission des sciences et des arts, et enfin tous les individus attachés aux corps de l'armée française jouiront des mêmes avantages que les militaires. Tous les membres de la commission des sciences et des arts emporteront avec eux non seulement tous les papiers et les livres qui leur appartiennent, mais encore ceux qu'ils jugeront utiles et indispensables.

Article 12.

« Tout habitant de l'Égypte, de quelque nation qu'il soit, qui voudra suivre l'armée française, sera libre de le faire, sans qu'après son départ un tort quelconque soit causé à sa famille ou à ses biens.

Article 13.

« Aucun habitant de l'Égypte, de quelque religion qu'il soit, ne pourra être inquiété, ni dans ses biens, ni dans sa famille, ni dans sa personne, pour les liaisons qu'il aurait eues avec les Français, pourvu qu'il se soit conformé dans sa conduite aux lois civiles et religieuses du pays.

Article 14.

« Les malades qui ne pourront pas supporter le transport seront admis dans un hôpital de l'Égypte, où ils seront soignés par des médecins et infirmiers français jusqu'à leur parfaite guérison ; alors ils seront renvoyés (109) en France, les uns et les autres, aux mêmes conditions de sauvegarde et de sécurité qui sont stipulées dans les articles précédents pour

pour transporter dans un port de France les troupes françaises et employés à leur suite.

« Pour assurer avec soin le service des vivres, la surveillance en sera confiée à des commissaires nommés à cet effet par le général de division Belliard et par les commandants en chef des armées alliées, tant de terre que de mer.

« (107) Aussitôt la ratification de la présente, ces commissaires désignés par les deux parties se rendront à Rosette et à Aboukir pour y faire préparer tout ce qui est nécessaire à l'embarquement.

Article 9.

« Les Puissances alliées fourniront quatre bâtiments et plus s'il est possible, pour le transport des chevaux et tout ce qui est nécessaire à leur subsistance jusqu'à leur débarquement.

Article 10.

« Il sera fourni aux corps de l'armée française et auxiliaire, par les Puissances alliées, une escorte de bâtiments de guerre suffisante pour garantir leur sécurité et assurer leur retour en France.

« Les Puissances alliées s'engagent à ce que, jusqu'à leur arrivée sur le continent français, les troupes françaises et les employés à leur suite ne soient pas inquiétés. De son côté, le général Belliard et les corps de troupes sous ses ordres promettent de ne commettre aucune hostilité pendant le dit temps, ni contre la flotte ni contre les pays de Sa Majesté britannique et de la Sublime Porte.

« Les bâtiments qui transporteront les Français et autres ne s'arrêteront à aucun autre port que ceux de la France, à moins d'une nécessité absolue.

« Les commandants des troupes françaises, anglaises et ottomanes ont pris connaissance des stipulations ci-dessus et les observeront pour le temps que les troupes françaises resteront sur le territoire de l'Égypte, depuis la notification de la présente convention jusqu'au moment de leur embarquement.

« Son Excellence le général Belliard, commandant les troupes françaises et auxiliaires, promet au nom du gouvernement français que les bâtiments

Article 4.

« Douze jours après la présente date, la ville du Caire, ses forts, la Citadelle, le faubourg de Boulak, seront évacués par les troupes françaises et auxiliaires, qui se retireront au palais de Kasr el-Aini, à Rodah et dépendances, à Guizeh et dépendances, d'où elles partiront le plus tôt possible et au plus tard dans les cinq jours, pour se rendre au point de l'embarquement. Les généraux des armées anglaise et ottomane s'engagent à faire fournir, à leurs frais, les moyens de transport par le Nil pour porter les bagages et les vivres au point de l'embarquement.

« Tous ces moyens de transport par eau seront mis le plus tôt possible et avec tout le soin désirable à la disposition des troupes françaises à Guizeh.

(106) Article 5.

« Les journées de marche et les campements seront réglés par des généraux et des officiers d'état-major des armées respectives, nommés de part et d'autre ; de même, les journées de marche seront fixées par les généraux. Les dits corps des troupes françaises et auxiliaires seront accompagnés dans leur marche par des commissaires anglais et ottomans, chargés de faire fournir les vivres nécessaires pendant la route et les séjours.

Article 6.

« Les bagages et les munitions voyageant par la voie du Nil seront escortés par des soldats et par des chaloupes armées des Puissances alliées.

Article 7.

« Il sera fourni aux troupes françaises et auxiliaires, et aux employés à leur suite, les subsistances prévues par le réglement de l'armée française, à compter de leur départ de Guizeh jusqu'au jour de leur embarquement pour la France.

Article 8.

« Il sera fourni par les commandants des troupes anglaises et ottomanes, tant de terre que de mer, les bâtiments nécessaires, bons et commodes,

nom du capitan pacha. Ces délégués siégèrent dans un local entre les deux camps, et après la vérification des pouvoirs, se mirent d'accord sur la convention suivante [1] :

Article premier.

« Les corps de l'armée française de terre et de mer, les troupes étrangères alliées des Français, aux ordres du général Belliard, évacueront la ville du Caire, la Citadelle, les forts de Boulak et toute la partie de l'Égypte qu'ils occupent en ce moment.

Article 2.

« Les corps de l'armée française et les corps auxiliaires se retireront par terre à Rosette, en suivant la rive gauche du Nil, avec armes, bagages, artillerie de campagne, caissons de munitions, (105) pour y être embarqués, et de là être transportés dans les ports français de la Méditerranée, aux frais des Puissances alliées.

« Le départ et l'embarquement des dits corps de troupes françaises et auxiliaires devra se faire aussitôt qu'il sera possible de l'effectuer, mais au plus tard dans cinquante jours, à dater de la ratification de la présente convention. Il est d'ailleurs convenu que les dits corps seront transportés, dans les dits ports du continent français, par la voie la plus prompte et la plus directe.

Article 3.

« A dater de cette convention, les hostilités cesseront de part et d'autre ; il sera remis aux Puissances alliées le fort de Daher et la porte des Pyramides de la ville de Guizeh ; la ligne d'avant-postes des armées respectives sera déterminée par des commissaires nommés à cet effet, et il sera donné des ordres pour qu'elle ne soit pas dépassée, afin d'éviter les rixes.

---

[1] On afficha en ville les articles 12 et 13, en arabe et en français (Djabarti, III, p. 182-183 ; trad., VII, p. 22-23). Le texte de cette convention se trouve à Paris aux Archives historiques de la Guerre (Martin, II, p. 257-266 ; Rigault, p. 345-347 ; Dehérain, p. 523 ; Sami Pacha, II, p. 158-162 ; Haidar Chihab, II, p. 330-335).

cèrent aussitôt sur les problèmes de l'évacuation et de la paix[1]. « Retournez auprès du général Belliard, leur fut-il déclaré, et rendez-lui compte ». Après le retour des plénipotentiaires, un conseil de guerre se tint, composé des généraux et des officiers supérieurs ; (104) et le général interrogea les membres présents :

— Quelle est la meilleure solution ?

— La reddition est ce qui reste de mieux à faire, pour nous comme pour la population égyptienne.

— Signez donc une déclaration en ce sens.

C'est ce qui fut fait. Alors le général reprit : « Voici les termes de la convention que je vais proposer. » Il envoya de nouveau les plénipotentiaires, porteurs de son projet. De nombreux pourparlers se déroulèrent, et finalement l'accord suivant fut signé par le capitan pacha, le grand vizir et le général anglais.

Voici maintenant le texte de ce traité, tel qu'il fut adopté d'un commun accord, en vue de l'évacuation de l'Égypte, par l'ensemble des régiments de l'armée française, quelle que soit la nationalité des soldats, pourvu qu'ils soient sous les ordres du général Belliard. Les négociations furent menées, du côté du général Belliard, par les citoyens Donzelot, général de brigade, Morand, général de brigade, Tarayre, chef de brigade ; du côté du général en chef anglais, par le général de brigade Hope ; Othman bey représentait Son Excellence le grand vizir et Ishak bey[2] signa au

---

[1] Cf. Skalkwoski, p. xcii ; Rousseau, p. lv-lvi.

[2] Ce personnage avait été amené en France par le baron de Tott et élevé à Versailles, ce qui ne l'empêchait pas de se proclamer l'ami de la République. Kléber, qui avait été invité par Menou à se méfier de cet Ishak, écrivait : « Je connais depuis longtemps, de réputation, le très aimable et très intrigant Ishak bey » (*Histoire scientifique,* VIII, p. 248 ; Rousseau, p. 322, 337-339 ; Rigault, p. 83-84 ; Dehérain, p. 500, 520 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 60, n. 1).

Il sera chargé de négocier avec le général anglais lors du guet-apens d'Aboukir, dont il va être question (plus loin, p. 117 du texte : Gouin, p. 101 ; Mengin, I, p. 16, 425).

Ce sera lui encore qui négociera, plus tard, à Constantinople, lors du conflit anglo-turc de février 1807 (Jucherau de Saint-Denys, II, p. 150 ; Douin, *Politique mameluke,* II, p. xciv, xcvi-xcviii, ci).

de Rahmanieh se replièrent sur le Caire (103) auprès du général Belliard, à la suite d'un combat avec les troupes anglo-turques. Pendant ce temps, l'armée du grand vizir s'avançait graduellement : les Français étaient donc divisés en deux groupes, l'un à Alexandrie et le second au Caire, soit huit mille hommes dans la capitale, et cinq mille à Alexandrie, sans contact l'un avec l'autre. Le général Belliard avait utilisé ce temps à construire de puissants retranchements, précédés d'un fossé, depuis l'Ezbékieh jusqu'à Boulak ; ce système fut renforcé par des tours et des batteries d'artillerie. L'armée du grand vizir arriva à Belbeis et son avant-garde parvint à une heure de la capitale. Le général Belliard partit durant la nuit à la tête d'une troupe de deux mille cinq cents hommes, pour reconnaître l'importance des forces de l'ennemi. Il soutint un engagement avec elles et subit quelques pertes, puis rentra de suite au Caire, car il s'était rendu compte de leur supériorité numérique. Le bruit avait couru que le général avait touché du grand vizir un pot-de-vin de cent cinquante mille mahboub[1] de Stamboul, somme qu'il remit plus tard au Premier Consul Bonaparte en arrivant à Paris. Cette armée turque arrivait donc par la route de Syrie, tandis que d'un autre côté les troupes du capitan pacha et des Anglais continuaient leur progression.

Quatre mois s'écoulèrent ainsi et la ville du Caire fut finalement bloquée par les armées du capitan pacha et des Anglais. Les troupes françaises surveillaient leurs évolutions à l'aide de longues-vues. Le général anglais disposa son camp à Guizeh, autour des Français enfermés à l'intérieur de Guizeh, qui était devenue une forteresse redoutable : les adversaires restèrent face à face sans combattre environ vingt-cinq jours. Ces divers mouvements s'étaient produits entre le mois de chawwal 1215 et le mois de safar 1216 (mars-juin 1801). C'est alors que le général en chef anglais sonda le général Belliard pour l'amener à entamer une conférence. Ce dernier envoya un commissaire, accompagné d'un Arménien nommé Yousouf Tarazi, qui connaissait le turc. Les deux plénipotentiaires se présentèrent dans la banlieue de Guizeh et furent reçus par le général anglais et le capitan pacha. Des entretiens commen-

---

[1] Cf. Wiet, *Deux Mémoires*, p. 96, n. 1.

forcèrent à retourner derrière leurs lignes. Les Français eurent de grosses pertes ; le général en chef de la cavalerie fut tué : c'était un guerrier d'une grande vaillance. Un autre héros, le général Lanusse, fut blessé très grièvement. Il fut transporté dans sa tente. Le général Menou alla le visiter et lui exprima ses vœux en pleurant. Mais le général Lanusse lui répliqua : « Général, un être de ton espèce n'est pas à sa place comme commandant en chef des armées de la République. Tu serais mieux employé comme éplucheur d'oignons dans les cuisines de la République. Nous en sommes là par suite de ton impéritie et de ton fol orgueil. Si tu avais envoyé l'armée dès la première nouvelle reçue et que tu aies fait occuper la plage, nos ennemis n'auraient pas pu débarquer. Vois où nous en sommes [1]. » Et le général Lanusse expira. Un autre engagement eut lieu peu après, d'où les Anglais sortirent encore victorieux. Les Anglais eurent néanmoins de grosses pertes, et notamment le général en chef fut tué : d'ailleurs les Anglais eurent quatre généraux tués l'un après l'autre ; pourtant ils s'accrochèrent fermement sur la plage. A l'issue du combat, le général Menou s'enferma avec une partie de ses troupes dans Alexandrie, laissant le reste retranché à Rahmanieh, et Alexandrie fut mise en état de défense. Les Anglais pénétrèrent à Rosette : ils y entrèrent en même temps que le capitan pacha Hosein, commandant en chef des troupes ottomanes, qui venait d'arriver. Ainsi les Anglo-Ottomans occupaient Rosette et les Français étaient retranchés à Rahmanieh. Le général Menou avait donné un ordre de repli général aux garnisons des forteresses de Katieh, Salheyeh et Belbeis, sur la route de Gaza : les troupes françaises étaient dès lors assiégées en trois points seulement, à Alexandrie, à Rahmanieh et au Caire. La digue maritime qui reliait Alexandrie à Rosette fut coupée par les Anglais pour intercepter toutes les communications avec le Caire. La ville d'Alexandrie et sa banlieue devinrent une île, sans relations avec l'extérieur. Les troupes

---

[1] Ce discours du général Lanusse correspond assez bien aux rapports qu'il entretenait avec Menou. L'autre version de Nicolas fait état des désobéissances des généraux Reynier et Damas (Desgranges, p. 245 ; Rigault, p. 280, 306 ; Haidar Chihab, II, p. 326).

Reynier fait dire à Menou par le général Lanusse qu'il était « *foutu* ainsi que la colonie » (Rigault, p. 303).

Au cours du mois de chaoual de l'année 1215 (mars 1801), une dépêche adressée à Menou par le général commandant Alexandrie demanda l'envoi de troupes, parce qu'une escadre anglaise, forte d'environ cent cinquante voiles, venait de mouiller dans le port de cette ville. Sur ce bruit, les Français du Caire furent saisis de crainte, et un corps prit immédiatement la route d'Alexandrie. Or un second message du gouverneur d'Alexandrie annonça deux jours plus tard que cette flotte venait de quitter la passe et que les renforts n'étaient plus indispensables. Le général Menou envoya donc au détachement mis en route l'ordre de rentrer et, complètement rassuré, il adressa au pays une proclamation pour faire savoir que l'ennemi s'était enfui. Pendant qu'il s'endormait ainsi, des nouvelles d'Alexandrie firent connaître que les navires étaient revenus, avaient débarqué des troupes sur la plage et que celles-ci construisaient des retranchements. Le général commandant la place envoya huit cents soldats, qui engagèrent avec l'ennemi un combat acharné : battus, ils se replièrent sur Alexandrie. Ces renseignements, communiqués au général Menou, alarmèrent les Français : Menou emmena d'urgence une partie de l'armée, laissant le reste à la disposition du général Belliard, gouverneur de la capitale. Il écrivit au général Rampon de quitter Damiette, en se contentant de laisser une garnison dans le fort du chenal et de prendre la route de Borollos pour venir le rejoindre. Au Caire, les Français évacuèrent leurs maisons et leurs bureaux pour se confiner à la Citadelle et dans le fort de Guizeh. On perçut du côté des Français les signes avant-coureurs de la fin : lorsqu'on les prévint que les Anglais avaient pris terre, ils comprirent que l'affaire était d'importance, car ils savaient que l'armée du grand vizir était sur le point d'envahir l'Égypte. D'autre part, le pays lui-même était contre eux, et ils furent saisis d'une grande inquiétude à l'idée d'être ainsi entourés d'ennemis de toutes parts. Lorsque le général Menou arriva à Alexandrie avec ses troupes, il constata que les Anglais s'étaient portés en avant et s'étaient solidement installés sur la plage à l'abri de retranchements. Les Français en firent autant en face d'eux, puis ils passèrent à l'attaque et, après une bataille terrible, infligèrent une défaite aux Anglais. Mais ceux-ci reçurent des renforts (102) et, foudroyant de leur artillerie les Français, les mirent en déroute et les

dans sa majorité, lui manifestait une certaine répugnance, car c'était un homme opiniâtre et fier; d'autres montraient une condescendance dédaigneuse parce qu'ils avaient affaire à un vieillard. On le détestait dans la troupe à cause de sa conversion à l'islam, effectuée sans raison plausible; d'ailleurs les musulmans d'Égypte n'y avaient pas cru et n'y avaient vu que flatterie et flagornerie [1]. Il suffit de rappeler, dans le même ordre d'idées, les déclarations du général Bonaparte, qui excitaient les railleries des musulmans d'Égypte, lesquels disaient : « Ce ne sont que des simagrées pour amuser le peuple. »

Le grand vizir, après sa retraite d'Égypte, s'établit à Jaffa. Il se préoccupa de recruter une nouvelle armée et réussit à grouper autour de lui de gros contingents. Il écrivit ensuite au banneret Mourad bey en Haute Égypte : « Le général Kléber vous avait promis autrefois de vous rendre le pays d'Égypte, mais depuis cette date il s'est passé bien des choses. Ce général a été assassiné et le général Menou l'a remplacé. Il faudrait que Menou soit mis en demeure d'exécuter les promesses de Kléber et, si il y consent, nous vous adresserons une lettre d'investiture suivant l'usage et nous enverrons un pacha résider à la Citadelle du Caire, puis nous retirerons nos troupes. » Lorsque le banneret Mourad bey reçut cette communication, il chargea Othman bey Bardisi d'apporter au général Menou une partie de l'impôt foncier dont il était redevable. Othman bey arriva au Caire, rendit visite au général Menou, lui versa l'impôt et le mit au courant des propositions du grand vizir. Le général Menou lui répondit : « Lorsque nous aurons l'intention de quitter l'Égypte, nous mettrons ce projet à exécution. Mais, pour l'instant, nous ne songeons nullement à évacuer le pays. Tu peux en prévenir Mourad bey afin qu'il en informe le grand vizir. » Après avoir passé (101) une quinzaine de jours au Caire, le banneret Othman bey Bardisi rentra en Haute Égypte rendre compte à l'émir Mourad bey, lequel renseigna à son tour Son Excellence le grand vizir [2].

---

[1] Cf. MARTIN, II, p. 138-139; DE LA JONQUIÈRE, V, p. 660.

[2] Sur les rapports de Menou et de Mourad, voir : ROUSSEAU, p. 353, 357-359; RIGAULT, p. 163-164, 288-289; DEHÉRAIN, p. 74, 510-514; DOUIN, *Politique mameluke,* II, p. 63-64.

autour de la capitale ; ils furent installés sur des buttes, et ce système défensif fut ceint d'une muraille qui s'appuyait au Bab el-Nasr[1]. On découvrit un ancien rempart et on abattit les demeures qui se trouvaient en deçà et en delà de ce mur, car avec le temps des maisons d'habitation s'y étaient adossées, et ce mur était noyé dans les maisons. Ces démolitions se pratiquèrent dans le quartier d'Hoseinieh et s'étendirent à cinq mille immeubles. On prit le mur à partir du Bab el-Nasr et on le suivit jusqu'à l'Ezbékieh : c'était une muraille solide, flanquée d'une dizaine de tours, que l'on munit d'artillerie. D'ailleurs cette activité constructrice se manifesta sur tout le territoire égyptien. Il y eut autour de l'enceinte du Caire vingt-cinq forts importants, en dehors du mur et des ouvrages secondaires. On fit de même au Vieux-Caire, à Rodah et au Nilomètre : Guizeh fut aussi très fortifié. Ces constructions et fortifications furent la création des Français, et ceux-ci ne cessèrent jamais, pas un seul jour, de bâtir. A Damiette, on édifia des tours et des fortins, des retranchements sur l'embouchure du fleuve. Alexandrie devint, du côté de la mer et de la terre, aussi fortifiée que l'île de Malte. La vérité, c'est que les Français consacrèrent des sommes énormes à construire : dès qu'ils s'installaient quelque part, ils y bâtissaient des tours et des forts. En effet, les Français étaient très peu nombreux en Égypte, où, de toutes parts, (100) par mer ou par terre, tout le monde était contre eux : ils étaient cernés. Or l'Égypte comptait une population de cinq millions d'habitants, et, au temps du général Menou, l'armée française, depuis le plus haut gradé jusqu'au simple soldat, comprenait dix-huit mille hommes, parmi lesquels il n'y avait guère plus de huit mille combattants, le reste étant composé de femmes, d'enfants, de commissaires, d'employés d'administration, d'artisans et d'autres catégories de non combattants. Telle était la raison pour laquelle les Français plaçaient leurs forces dans des tours et dans des forts. De même le général Jacob entoura le quartier copte de l'Ezbékieh d'une enceinte munie de tours et de forts, garnis d'artillerie. Ainsi la capitale fut pourvue de remparts, de tours et de forts.

Le général Menou commençait à asseoir son autorité. L'armée française,

---

[1] Voir à ce sujet Guémard, *Les Inscriptions françaises de l'Enceinte du Caire.*

du peuple et de la République!» En effet, le peuple de France adorait Bonaparte, par orgueil de ses conquêtes. Une assemblée fut immédiatement convoquée, qui élit Bonaparte président du Conseil des Directeurs, en nomma deux nouveaux en remplacement de ceux qui avaient été tués et réintégra ceux qu'on avait laissés en vie. Bonaparte fut nommé Premier Consul de la République française. Il commença aussitôt à mettre sur pied une armée et à instruire de nouvelles recrues ; des corps furent destinés à marcher en Italie, contre les troupes autrichiennes et russes, qui avaient repris la totalité des villes et des forteresses conquises autrefois par les Français. Les armées françaises envahirent l'Italie, enlevèrent les forteresses, les villes et les provinces, les unes après les autres, et récupérèrent les territoires perdus. Ces victoires eurent un profond retentissement dans le monde entier et eurent des conséquences pour les partis en France. Bonaparte donna l'ordre de rouvrir les églises, de réinstaller les évêques et les prêtres, fit la paix avec le pape Pie VII, qui fut rétabli sur son trône à Rome, rendit aux royalistes une partie de leurs biens et leur alloua des pensions. La France se livrait à la joie et le peuple disait : « Notre République est maintenant solide.» Bonaparte fut appelé Premier Consul, tout comme les Romains désignaient dans l'antiquité le chef de leur République, les données historiques nous l'apprennent. En peu de temps, la renommée de ces succès se répandit. Toutefois il ne put pas envoyer de renforts à l'armée d'Égypte, car il disposait de peu de vaisseaux et les (99) navires anglais sillonnaient la mer, surtout après la prise de l'île de Malte : les Anglais l'avaient assiégée, réduite par la famine et en avaient fait un point d'appui.

Pourtant, à plusieurs reprises, des lettres arrivaient par des courriers transportés sur de petits bateaux, annonçant toujours de l'aide et des secours, tout en faisant part des victoires de la République. Après la prise de commandement du général Menou, celui-ci reçut de nombreuses instructions, qui lui recommandaient l'Égypte. Soudain, il reçut l'information suivante : « Nos ennemis les Anglais, au nombre de vingt mille, vont arriver par mer avec l'aide du gouvernement ottoman. Défendez l'Égypte coûte que coûte.»

Revenons donc à l'Égypte elle-même et au général Menou. Ce dernier avait fait construire des forteresses, des bastions et des fortins tout

tous qu'il arriverait à ne pas tomber entre leurs mains et débarquerait en France, ils n'avaient même aucun doute à ce sujet, parce que Bonaparte était né sous une bonne étoile et qu'il savait être toujours victorieux. Ils lui souhaitaient toutes sortes de prospérités. En fait, comme on l'avait prévu, Bonaparte parvint en France après une traversée de quarante jours. Il avait rapporté[1] d'Égypte des richesses considérables, des pierres précieuses, des objets divers, des armes, avait emmené des dromadaires avec leur harnachement, de jeunes mamlouks avec leurs costumes, anciens mamlouks des beys, pour en tirer vanité. Lorsque les cinq Directeurs de la République française apprirent son retour, ils en furent très inquiets : deux d'entre eux étaient ses amis, mais les trois autres le détestaient et c'étaient ces derniers qui, jaloux de ses succès et de ses conquêtes, s'étaient toujours opposés à l'envoi de renforts. Ils affaiblissaient la puissance de la France, sur laquelle les rois ses ennemis jetaient des regards de convoitise. Dès qu'ils connurent la nouvelle de son retour, les Directeurs se réunirent en conseil et mirent Bonaparte au ban du pays, sous prétexte qu'il avait suscité des guerres à la République et avait dressé (98) les souverains contre elle. Par mesure de représailles, il devait être dégradé et monterait la garde comme simple soldat à la porte du Conseil des Directeurs. La mise en scène suivante se déroula : Bonaparte arriva à Paris et se présenta au conseil des Directeurs. Après qu'il eut donné des informations sur la situation de la capitale de l'Égypte, et demandé l'envoi de renforts pour secourir l'armée française d'occupation, ils le chassèrent en lui disant : « Tais-toi, cela ne te concerne plus, mais c'est l'affaire de la République. » Ils lui communiquèrent alors les décisions prises. Il en prit connaissance et s'inclina. Il occupa ces fonctions de sentinelle jusqu'au moment où l'occasion se présenta pour lui de se créer un parti. Un beau jour, il fit irruption au Conseil accompagné du général Alexandre Berthier, son ancien chef d'état-major en Égypte, et du général Murat, il fit exécuter trois des Directeurs et maintint les deux autres ; on raconte même que cette révolution ne put se produire qu'à l'instigation de ces deux derniers. Le peuple de Paris sortit dans les rues pour crier : « Vive Bonaparte, chef

[1] Rousseau a cité ce passage (p. 3, n. 1). — Voir Haidar Chihab, II, p. 319-321.

Solaiman fut placé sur un pal ; on trancha le cou des trois complices, dont les têtes furent également juchées sur des perches et les corps incinérés. Le cercueil fut introduit au Kasr el-Aini, et c'est là que se déroula la cérémonie funèbre avec des discours ; puis des salves d'artillerie furent tirées ; le cercueil fut ensuite placé sur un socle, qu'on entoura de plantes vertes, et des sentinelles, fusil en main, montèrent la garde nuit et jour.

Puis les régiments revinrent au Caire et défilèrent en rendant les honneurs au général Menou qui assumait dès lors le commandement suprême.

A Rosette, ce général, qui s'était converti à l'islam, avait épousé une femme musulmane, descendante du Prophète : il la fit venir (97) au Caire [1]. Il signait les documents : « L'homme au cœur pur, Abd-Allah Menou. » Les généraux présents en Égypte sous son gouvernement étaient : le général Rampon, commandant de Damiette ; le général Lanusse ; le général Reynier ; le général Damas ; le général Belliard, gouverneur du Caire ; le général Daure, ordonnateur en chef ; et d'autres généraux de moindre importance. Quant au général Desaix, l'ancien gouverneur de la Haute Égypte et plénipotentiaire du général Kléber aux pourparlers de paix avec le grand vizir, et à l'administrateur des finances Poussielgue, ils étaient partis dans l'intervalle entre la signature du traité et la bataille contre le grand vizir. Mais ils ne purent éviter d'être interceptés par les Anglais qui les retinrent prisonniers ; ils furent dans la suite libérés sur l'intervention de Bonaparte.

Nous avons donc résumé les actes du gouvernement de Kléber, son conflit avec le grand vizir, les circonstances de sa mort, l'accession du général Menou, qui prit son commandement dans les derniers jours du mois de moharram de l'année 1215 (fin juin 1800). Bonaparte était parti d'Alexandrie avec une flottille de trois vaisseaux, se dirigeant sur la France. Tout le monde disait qu'il ne pourrait pas échapper à ses ennemis les Anglais, car ceux-ci surveillaient toutes les routes et notamment bloquaient la passe d'Alexandrie. Mais au fond les Français disaient

[1] Elle arriva dans la seconde quinzaine de mai 1801 (Djabarti, III, p. 176 ; trad., VII, p. 6).

Il s'exprimait avec beaucoup de calme.

— As-tu des complices? lui fut-il demandé.

— Je n'ai mis au courant de mes projets que trois étudiants d'el-Azhar, originaires de Gaza.

Et il cita leurs noms. Ceux-ci furent appréhendés sur-le-champ et corroborèrent la véracité (96) de ses aveux. On établit leur complicité par son témoignage et ils furent inculpés de meurtre. Un jugement fut rendu qui fut imprimé à l'imprimerie française en deux langues, arabe et turque. On le trouvera reproduit dans cet ouvrage [1].

On avait emporté le corps du général en chef, après avoir lavé ses blessures ; on l'ouvrit ensuite pour enlever le cœur, que le général Damas, son chef d'état-major, fit déposer dans un bocal rempli d'esprit-de-vin. Le corps lui-même fut embaumé et plongé dans l'alcool, puis mis dans un cercueil de plomb.

Un conseil de guerre fut immédiatement réuni, qui confia les fonctions de commandant en chef au général Menou, dont nous avons signalé la situation de gouverneur de Rosette au début de ce livre. C'était un homme âgé. Sur son ordre, on fit des funérailles solennelles au général Kléber, dont le corps fut transporté de la ville au palais de Kasr el-Aini. Le surlendemain, tous les Français présents au Caire étaient rassemblés : on enferma le cercueil de plomb dans une caisse en bois, qui fut placée sur un char traîné par des chevaux, recouverts de housses noires ; les chevaux personnels du général précédaient le convoi. Tous les soldats, les commandants, les officiers, les gradés et aussi les généraux, défilèrent également en avant du cortège : les soldats portaient leurs fusils renversés, le canon en bas. En avant des militaires marchaient les ulémas et les administrateurs de la ville au grand complet. On avait emmené aussi Solaiman le meurtrier et ses trois complices jusqu'à Kasr el-Aini. On conduisit ceux-ci au Kôm el-Akareb. Là on alluma un bûcher, puis

---

[1] Ce jugement ne se trouve pas plus dans ce manuscrit que dans celui de Desgranges. Il est reproduit tout au long dans Djabarti, III, p. 117-134 ; trad., VI, p. 224-251.

J'ai noté ailleurs les réflexions admiratives de Djabarti (*Deux mémoires*, p. 17-18).

le jeune homme allait donner le second coup de poignard dans le ventre du général. Comme il se précipitait sur l'assassin, la canne à la main, il reçut de ce dernier une blessure profonde, qui le fit tomber, et c'est à cet instant que le meurtrier poignarda le général Kléber une troisième fois, puis s'échappa. Lorsque le général Damas arriva et qu'il vit le général et l'architecte étendus à terre, il fit appréhender les ouvriers dont nous venons de parler. C'est alors qu'une femme leur cria d'une (95) fenêtre qui donnait sur le jardin : « Les ouvriers sont innocents, et l'assassin est caché dans le jardin. » Cette femme l'avait bien aperçu. Des soldats français, sur le cri poussé par le général, avaient cerné le jardin et l'hôtel : après quelques recherches, ils découvrirent l'homme enfoui dans une rigole, le poignard à la main. Un officier se précipita pour l'arrêter et, quoique blessé à la main par cet individu, l'empoigna solidement et l'amena au général Damas. La terreur régnait déjà en ville. C'est par une grâce insigne de la Providence que l'assassin n'a pas eu l'idée de fuir plus loin et qu'on a pu le saisir, sans quoi les soldats français auraient passé tous les habitants au fil de l'épée, car c'est ainsi qu'ils opéraient. L'assassin fut interrogé sur son identité et sur les mobiles de son acte.

— Je suis d'Alep, répondit-il, je m'appelle Solaiman. J'ai tué le général en chef. Ne cherchez pas d'autres coupables. Ce poignard que voici prouve assez que je suis le meurtrier.

— Pourquoi ce meurtre? Quel était ton but? Qui t'a poussé à commettre ce forfait affreux ?

— Nous étions à Alep une bande de jeunes gens. L'agha nous dit un jour : Lequel d'entre vous serait capable de tuer le sultan des Français en Égypte? Je répondis : Parbleu ce sera moi. Je me sens de taille à le tuer. J'irai. On ajouta : Si tu te sens capable de le faire, tu délivreras la communauté musulmane de ses méfaits et le grand vizir te comblera de faveurs. L'on me donna ensuite quelques piastres comme argent de poche, à l'aide desquelles j'achetai ce poignard. Il y a quelques jours que je guettais ; je me suis rendu à Guizeh, mais je n'ai trouvé aucune possibilité d'agir, bien que je n'aie jamais cessé d'épier pour profiter d'une occasion favorable. En tuant cet homme, j'ai épargné ses méchancetés à la communauté musulmane.

harnaché. On se dit adieu et Mourad bey regagna la Haute Égypte, l'esprit rasséréné. Il était accompagné d'Othman bey Bardisi, d'Othman bey Tanbourdji, d'Othman bey Achkar, mamlouk d'Ibrahim bey le Grand. Là-dessus Mourad bey écrivit à Ibrahim bey pour le tenir au courant des modalités de cet accord, qui le satisfaisait entièrement. Il lui faisait savoir que le général en chef l'avait prié de l'informer, lui et les autres beys, qu'ils pouvaient le rejoindre en Haute Égypte, où une existence confortable leur était assurée, (94) comme à lui-même. Au reçu de cette lettre, Ibrahim bey s'excusa, sous prétexte que sa famille était restée à Damas.

Le 21 moharram sacré de l'année 1215 (14 juin 1800), vers le milieu de l'après-midi, le général Kléber faisait selon une habitude européenne, les cent pas dans une des allées du jardin intérieur de son hôtel : il était seulement vêtu d'une chemise et d'une longue veste, à cause de la chaleur intense ; son abdomen pointait en avant, car Kléber était très corpulent. Or voici qu'un jeune homme, à l'aspect misérable, aux habits dépenaillés, bondit soudain du jardin sur l'allée et tendit la main, comme pour demander l'aumône ; Kléber s'écarta et passa son chemin. Au retour, le même incident se produisit et Kléber continua sa promenade. A son troisième passage, cet individu sortit de sa manche un placet, qu'il présenta au général. Celui-ci s'arrêta et prit le papier et, pendant qu'il l'examinait pour se rendre compte s'il s'agissait d'une requête en arabe ou en français, ou bien encore d'une information, le jeune homme, plus prompt que le vent, tira de sa poche un poignard, aiguisé pour donner la mort, et porta au ventre de Kléber un coup qui fit jaillir les intestins. Le général poussa un grand cri, qui fit trembler tout l'hôtel et retentit dans le quartier. L'assassin frappa une seconde, puis une troisième fois. Au premier appel, le général Damas était accouru pour voir ce qui se passait : il aperçut le général en chef, baignant dans une mare de sang, respirant faiblement. Il s'arrachait les cheveux : « Qui a fait ce coup, mon cher ami ? » demanda-t-il. Le général Kléber indiqua du doigt un endroit où se tenaient des menuisiers et des maçons qui réparaient l'hôtel. Des recherches furent faites immédiatement pour retrouver le meurtrier. Or, avant même la venue du général Damas, le chef des architectes français se trouvait sur les lieux au moment où

bey se porta à sa rencontre jusqu'au milieu de la salle, lui donna la main, le fit asseoir auprès de lui et le reçut avec toutes les marques d'une extrême affabilité. Le général Kléber prit la parole :

— Tu peux être assuré de vivre en toute tranquillité. Tant que la République française sera maîtresse en Égypte, tu seras le gouverneur de la Haute Égypte, tu en seras le seul maître, tu en percevras l'impôt comme par le passé.

Il lui octroya des domaines seigneuriaux, pour lesquels il était dispensé des redevances dues au gouvernement comme de celles qui revenaient aux fermiers généraux [1].

— Telle sera ta situation, lui déclara Kléber, tant que durera l'autorité de la République française en Égypte. Au cas où nous conclurions la paix avec l'Empire ottoman, notre pouvoir te sera transmis ainsi qu'aux mamlouks. Je précise : en quittant ce pays, nous ne le remettrons qu'entre vos mains.

Mourad bey fut enchanté de ces propositions qui le rassuraient complètement. Il offrit ensuite un banquet : puis le général Kléber reçut de Mourad bey un sabre et un poignard incrustés de pierres précieuses ; le général Damas, son chef d'état-major, eut pour sa part une bague sertie de diamants, et l'interprète, un sabre. Au départ, Mourad bey présenta au général Kléber et au général Damas un cheval somptueusement

---

[1] Cf. sur ces redevances : *Bibliothèque des arabisants,* II, p. 18, 33, 39.

Le récit de Nicolas ne met pas en évidence la chronologie. Kléber prit l'initiative des pourparlers avec Mourad bey avant la bataille d'Héliopolis : Fourier eut une entrevue à ce sujet avec Nafisa, l'épouse de Mourad. Pendant le siège du Caire, Kléber reçut la visite d'un envoyé, Hosein le Zantiote, puis d'Othman bey Bardisi, muni de pleins pouvoirs, et un traité fut signé le 5 avril 1800, soit seize jours avant la capitulation du Caire (Rigault, p. 74, 75 ; Rousseau, p. xxxvii, 221 ; *Revue d'Égypte,* II, p. 215-216, 296 ; Dehérain, p. 79 ; Haidar Chihab, II, p. 312-314 ; J. Savant, *Les mamelouks de Napoléon,* p. 36-37).

Voir le texte du traité dans *Histoire scientifique,* VII, p. 428-432 ; Skalkowski, p. 391-392 ; Dehérain, p. 492-493. — Cf. Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 138.

Les Mamlouks feront état de cette convention contre Mohammed Ali (Djabarti, III, p. 351 ; trad., VII, p. 417).

de chevaux au temps des Mamlouks et était domestique chez Mohammed bey Elfi. Après l'installation des Français, il se fit bien voir d'eux; c'était un cavalier hors ligne, taillé en athlète; il connaissait la langue italienne; il jouissait au Caire d'une grande réputation.

Le général Jacob recruta donc au Caire et en Haute Égypte des Coptes auxquels les Français donnèrent une instruction militaire : on parvint à recruter huit cents soldats; ils coiffèrent le chapeau[1] et portèrent l'uniforme français. Ils devinrent semblables à des Français, furent même plus endurants et plus agiles; ils furent instruits très rapidement et les Français eurent l'occasion de s'en louer.

. Telles furent les dispositions adoptées par les Français, après leur retour, à la suite de la déroute du grand vizir. Le général Kléber y gagna un immense prestige : tout le pays fut saisi de crainte et d'effroi, surtout depuis la défaite de la formidable armée qui comprenait les meilleures troupes de l'Empire ottoman. Ce fait eut un profond retentissement.

Nous avons dit qu'après cette débâcle, qu'avait suivie l'entrée de Nasif pacha et d'Othman kyahya, commissaire du gouvernement ottoman, le banneret Mourad bey s'était séparé d'eux. (93) Après leur départ, Mourad bey envoya des émissaires au général en chef Kléber. Une entrevue fut décidée : elle eut lieu à Djazirat el-Dhahab, en face de Guizeh; cette île appartenait à Mourad bey et il y avait édifié un grand palais. Othman bey Achkar et Othman bey Bardisi étaient venus au Caire pour faire cortège au général Kléber; tous partirent pour Guizeh et arrivèrent à Djazirat el-Dhahab. Lorsque le général Kléber arriva, le banneret Mourad

---

supplice du meurtrier de Kléber. Pendant la seconde révolte du Caire, la population criait dans les rues (Djabarti, III, p. 88, 93; mal traduit : VI, p. 169, 179) :

الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان

« Vive le sultan et mort à Fart al-Roumman ».

Une complainte arabe le traite de « chien » (Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 212).

[1] Djabarti donne un détail supplémentaire qui n'a pas été bien traduit (III, p. 162; trad., VI, p. 306) : « Ils reçurent une coiffure semblable au chapeau, recouverte d'une affreuse fourrure noire de peau de mouton, ce qui s'harmonisait avec leurs figures laides, leur teint noir et la saleté de leur corps. »

Français. Mourad bey disposait alors d'une flotte de petits bâtiments et de dhahabiehs, stationnée à Guizeh devant son palais. Ce Nicolas resta attaché à la personne de Mourad bey jusqu'à la venue des Français. A cet instant précis, il se trouvait à Damiette : à l'appel de Mourad bey, Nicolas arriva à la tête de sa compagnie de trois cents Grecs et Crétois. Il prit part à la bataille d'Embabeh, et ses hommes défendaient les retranchements qui protégeaient l'artillerie. Après (92) la défaite, il se jeta au Nil et gagna l'autre rive à Boulak. Il se présenta à Bonaparte dès l'entrée de ce dernier au Caire : il en fut très bien reçu et dès lors se voua aux intérêts de la République française en disant : « Je servirai la République comme je servais Mourad bey. » Telle est l'histoire du capitaine Nicolas.

Le général en chef promut donc les généraux Jacob et Nicolas, ainsi que le commandant Yanni. Il donna aussi le grade de commandant à un Syrien nommé Yousouf Hamaoui[1] : celui-ci fut mis à la tête des chrétiens étrangers qui s'étaient enfuis de Syrie et étaient revenus avec Bonaparte, gens de Safed, de Jérusalem, de Bethléem, de Saint-Jean-d'Acre, de Jaffa, et en général de toute cette région, en tout environ cent cinquante hommes.

Un certain Barthélemy, originaire de Chio, fut nommé commandant des mamlouks incorporés dans l'armée française, dont certains avaient été faits prisonniers par les Français. Les Égyptiens l'avaient surnommé Grain-de-grenade, soit *Fart el-Roumman*[2] ; cet homme avait été dresseur

---

[1] Sur Hamaoui, cf. Djabarti, III, p. 187 ; trad., VII, p. 30 ; Guémard, *Auxiliaires, loc. cit.*, p. 6, 16 ; Guémard, p. 68, 70-72, 406.

[2] Voir : Martin, I, p. 202 ; II, p. 105, 119, 128-129 ; Djabarti, III, p. 11, 27-29, 42, 59, 75, 80, 187 ; trad., VI, p. 25, 58, 60, 63, 89, 119-120, 144, 154 ; VII, p. 30 ; *Histoire scientifique,* III, p. 211, 229-230 ; IV, p. 128-135 ; V, p. 143, 145, 146, 173 ; VIII, p. 16, 27, 39 ; de la Jonquière, V, p. 525 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 115, 119-122 ; Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* IX, p. 2, 9-16 ; Guémard, p. 71-72, 404, 406 ; Wiet, *Deux mémoires,* p. 197 ; Haidar Chihab, II, p. 147 ; J. Savant, *Les mamelouks de Napoléon,* p. 50-54.

Voir en outre l'appréciation du général Lagrange dans de la Jonquière, V, p. 309.

Son surnom arabe est une corruption de Barthélemy-le-Grec, soit Barth(élemy) el-Roumi.

Il incarnait toutes les atrocités qu'on reprochait aux Français ; il présida au

Ce capitaine Nicolas [1] avait été le héros d'une aventure, qui l'avait amené en Égypte. Il faut remonter à l'année 1200 (1786), au moment de la venue du capitan pacha Hasan [2], qui combattit les mamlouks, chassa Mohammed bey Aboul-Dhahab et installa au pouvoir Ismaïl bey. Le capitan pacha avait fait alors arrêter Othman bey Tanbourdji et d'autres beys de la Maison de Mourad bey, qui furent envoyés, pour y être incarcérés, à la forteresse de Beftghiadeh, près de Stamboul. Ce Nicolas était alors patron d'un caïque. Il avait l'occasion d'aller souvent à cette citadelle et se lia ainsi avec deux des beys emprisonnés. Il leur dit un jour : « Je peux vous faire évader de cette forteresse pendant la nuit et vous ramener en Égypte. — Si tu réussis, lui répondirent-ils, à nous ramener auprès de Mourad bey, tu en recueilleras de grands bénéfices et ta renommée sera immense. » Ils se mirent d'accord et, une belle nuit, ils se laissèrent glisser des fenêtres de la forteresse à l'aide d'une corde, et ce Nicolas les emmena à la nage sur son dos jusqu'à bord de son caïque. On mit à la voile : finalement, ils arrivèrent en Égypte et Nicolas conduisit les deux rescapés auprès de Mourad bey, qui le récompensa abondamment. A dater de ce jour, Nicolas fit partie de la Maison de Mourad bey et commanda une compagnie de trois cents Grecs, qui était casernée à Guizeh. Ce fut lui qui construisit le grand vaisseau que Mourad bey entretenait à Guizeh et auquel il mit le feu au moment de l'arrivée des

[1] Cf. Desgranges, p. 64, 208 ; Martin, II, p. 104 ; Djabarti, III, p. 56, 168, 178, 192 ; trad., VI, p. 113, 315 ; VII, p. 9, 44 ; de la Jonquière, V, p. 307, 316, 332 ; Rousseau, p. 266, 284 ; Guémard, *Auxiliaires, loc. cit.*, p. 1, 3, 5-6, Guémard, p. 67-70, 72, 403, 405 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 92-95, 126-132, 146-147, 167-169 ; Haidar Chihab, II, p. 247, 311.

Son inscription du couvent du Sinaï a été republiée dans Rabino, *Le monastère de Sainte-Catherine,* p. 55.

[2] Sur le capitan pacha Hasan et sa mission en Égypte, voir : Djabarti, II, p. 108-112, 114-124, 130-138, 140, 141, 143-147 ; trad., IV, p. 187-190, 192-195, 199, 204-212, 214, 222, 224-226, 229-231, 233, 244, 246, 247, 250-255, 259-266, 268, 271, 274, 275, 279-281, 284-289 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 169, 170, 209, 220, 221 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 182, 183, 195-199, 231-234, 236-240, 242-248, 251-255, 261, 263-266, 268, 269 ; Dehérain, p. 60, 143-147 ; *Précis,* III, p. 49, 51, 78, 90, 191 ; *Histoire scientifique,* II, p. 513-516 ; Marcel, p. 244-246.

de le dédommager du pillage dont il avait été la victime de la part de la population et des troupes pendant le siège. Ensuite il convoqua Abd el-Al, le lieutenant de ce Moustafa agha qui avait été pendu durant le siège et le nomma agha des janissaires en remplacement de ce même Moustafa agha [1]. Les habitants de Boulak furent condamnés à payer cinq cent mille écus en compensation du pillage exercé à l'encontre de l'armée française.

Le sieur Jacob [2] Sa'idi, que nous venons de mentionner, fut particulièrement honoré par le général en chef, qui lui remit un sabre, des épaulettes d'or et lui conféra le grade de général : on ne l'appela plus dès lors que le général Jacob. Il fut chargé de former une légion copte et de lui enseigner l'exercice suivant les règlements français. Cet officier recruta donc de jeunes Coptes, qui furent inscrits sur les rôles, et des Français leur firent faire l'exercice chaque jour près de l'étang de l'Ezbékieh.

(91) Le général en chef manda aussi le capitaine Nicolas, lui donna un uniforme français, un sabre et des épaulettes d'or, ainsi que les insignes de général, et on l'appela aussi le général Nicolas.

Il y avait en ville un Grec, qu'on nommait Yanni [3] le cabaretier, parce qu'au temps des mamlouks il avait été le fermier de l'impôt sur les cabarets, poste qu'il avait conservé sous les Français. Il eut l'occasion, pendant le siège, de montrer sa bravoure aux côtés du capitaine Nicolas : il fut promu commandant.

---

[1] Un certain Chahin kachef avait été nommé pendant la révolte du Caire. Les Français le remplacèrent par Mohammed Tanani, installé dans ces fonctions d'agha des janissaires en dhoul-hidjdja 1214 et qui mourut de la peste en dhoul-ka'da 1215 : c'est à cette date qu'Abd el-Al fut nommé (Djabarti, III, p. 96, 106, 151 ; trad., VI, p. 185, 203, 286-287 ; Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte*, IV, p. 9, n. 3 ; J. Savant, *Les mamelouks de Napoléon*, p. 44).

[2] Cf. Martin, II, p. 104 ; Djabarti, III, p. 15, 115 ; trad., VI, p. 34, 220-221 ; Ali pacha, VI, p. 72 ; Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne*, I, p. 134 ; J. Savant, *Les mamelouks de Napoléon*, p. 48-49.

[3] Costa (p. 35) en fait un capitaine, *yuzbachi*. — Voir Djabarti, III, p. 187 ; trad., VII, p. 30 ; Guémard, p. 405 ; Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte*, IX, p. 5, n. 1.

ne pas laisser vivre un seul d'entre vous, pour tirer une vengeance légitime de votre conduite détestable. (90) Mais je veux vous montrer ma clémence, vu que vous avez agi par ignorance et par fanatisme. Je vous condamne, vous et la population de la capitale, à verser deux millions d'écus de France, en excluant les chrétiens de cette contribution : il leur suffit d'avoir été vos victimes dans leurs personnes et dans leurs biens. Vous avez faussement prétendu que les chrétiens avaient reçu de notre part l'ordre de prendre les armes pour combattre à nos côtés : rien n'est plus faux, car nous n'avions pas besoin d'eux pour nous aider ; mais ils se sont armés pour se défendre eux-mêmes contre vous. Vous fournirez également vingt mille fusils, quinze mille paires de pistolets, dix mille sabres, quatre cents mulets et cent chevaux. Le cheikh el-Sadat [1] paiera pour sa part cent cinquante mille écus ; le cheikh Moustafa Saoui [2], cinquante mille ; le cheikh Inani, trente mille ; et ces trois versements seront déduits du total prévu [3].

Telle fut la punition de leur crime et de leur folie, de leur rôle dans cette sédition. Kléber se retira dans son bureau et les cheikhs furent gardés au palais sous surveillance. Le général en chef manda aussitôt le sieur Jacob Sa'idi et le chargea de recueillir ces indemnités. Les cheikhs et les ulémas purent alors sortir. Toutefois le cheikh Sadat fut emprisonné à la Citadelle [4], tandis que les scellés étaient apposés sur ses immeubles et ses entrepôts ; ses biens furent mis en vente, et il dut acquitter la somme de cent cinquante mille écus. Ce cheikh Sadat avait toujours eu une attitude hostile envers le général Kléber et il manifestait violemment ses sentiments musulmans. Le général fit venir le cheikh Khalil Bekri, le revêtit d'une somptueuse pelisse et lui promit

---

[1] Voir Rousseau, p. xl, 44, 287, 297, 298 ; Rigault, p. 77, 151.

[2] Le cheikh Moustafa Saoui mourut en 1216/1801 (Djabarti, III, p. 48, 53, 107-108, 134, 137, 152, 178, 210, 213-215 ; IV, p. 160-161 ; trad., VI, p. 101, 108, 206, 208, 210, 253, 259, 287 ; VII, p. 10, 92, 99-100 ; VIII, p. 362-363 ; Ali pacha, XV, p. 46 ; *Histoire scientifique,* VII, p. 470).

[3] Sur ces événements, voir plus de détails dans Djabarti, III, p. 106-108, 115, 135 ; trad., VI, p. 204-210, 220, 255 ; Haidar Chihab, II, p. 304-310.

[4] Voir *Précis,* III, p. 151.

par Bonaparte pour faire partie du divan administratif ; au moment de la conclusion de la paix, il avait été chargé par Son Excellence le grand vizir des fonctions d'intendant général sous les ordres de Moustafa pacha Keusè ; pendant les trente-quatre jours du siège, il s'était ouvertement compromis en procurant à Othman kyahya et à Nasif pacha de l'argent et des vivres, avait collaboré avec eux, s'était montré dévoué aux intérêts du gouvernement ottoman et s'était acquis de ce fait une renommée durable. Nous aurons l'occasion d'en reparler.

Moustafa pacha Keusè se trouvait aux arrêts à Guizeh, car le général Kléber l'y avait consigné avant d'entamer le combat. Il fut envoyé à Damiette après cette seconde conquête française de l'Égypte. Il n'y séjourna que très peu de temps, car il tomba malade de chagrin et mourut : les Français lui firent des obsèques magnifiques et solennelles ; toute la garnison précédait son cercueil, les soldats portant leur fusil le canon pointé vers le sol ; des salves d'artillerie furent tirées ; toute la population, cheikhs, ulémas et notabilités en tête, assistèrent au convoi. Tel était l'usage français pour l'enterrement des officiers généraux.

Les Français s'établissaient donc au Caire une seconde fois : comme naguère, ils s'installaient dans des locaux et organisaient leur gouvernement. Trois jours plus tard, le général en chef réunit le divan et déclara aux ulémas rassemblés :

— Ulémas, je vous avais cru des hommes intelligents à cause de votre grand âge, mais à présent je suis certain que vous êtes des hommes fanatiques et dépourvus de jugement. Comment ! Lorsque vous saviez que j'avais vaincu le grand vizir et mis ses troupes en fuite, que celles-ci n'ayant pu résister à mon attaque avaient dû battre en retraite, vous accueillez des fugitifs que mon épée avait mis en fuite et que ma force avait brisés. Bien mieux, vous vous mettez d'accord avec eux et vous me combattez au risque de provoquer la destruction de la ville et l'extermination de ses habitants. C'est vous qui êtes la cause des destructions et de la mort de plus de vingt mille hommes. Je n'oublie pas surtout que vous vous en êtes pris à des êtres faibles, à des chrétiens qui depuis des années vivaient sous votre gouvernement et sous votre protection, qui menaient la même existence que vous-mêmes. En vérité, je ne puis imaginer par quelle aberration vous avez commis ce crime. Je devrais

mamlouks et aux troupes étrangères, qui pourraient emporter leurs armes et leurs bagages[1]. Ils seraient convoyés jusqu'à Salheyeh par le général Reynier, chargé de leur procurer le nécessaire en cours de route. « Quant aux habitants de la capitale, de ma capitale, j'en fais mon affaire et je refuse de leur accorder mon pardon, ajouta le général. » Les beys poursuivirent : « Nous devons encore prendre certaines mesures ; nous avons des blessés, et nous voudrions nous procurer des approvisionnements. — Retirez-vous à une extrémité de la ville, conclut le général en chef, sur une rive du canal, dans le quartier de Gamalieh, sur le chemin de la porte Bab el-Nasr, qui mène sur la route de Syrie. Rassemblez là vos vivres et vos bagages ; vous pourrez camper trois jours en cet endroit. Mes troupes occuperont l'autre rive du canal depuis l'Ezbékieh. Vos blessés ont toutes les garanties de sécurité. » Il en fut ainsi fait : le trente-quatrième jour, dans l'après-midi, les troupes turques se retirèrent jusqu'au quartier de Gamalieh et abandonnèrent aux Français le territoire restant jusqu'au canal. Elles firent leurs préparatifs et sortirent camper en dehors du Bab el-Nasr. Le général Reynier se tenait là avec un détachement de quatre mille hommes, et il autorisait chaque soldat à n'emporter qu'une seule arme : ceux qui avaient deux sabres s'en voyaient confisquer un. L'armée turque partit ainsi par la route du Bab el-Nasr et se mit en marche vers la Syrie, surveillée par la division du général Reynier, qui les accompagna jusqu'au delà de Salheyeh. Il accomplit sa mission avec beaucoup de pitié. Par exemple, il faisait monter les traînards sur ses chameaux ou sur ses chevaux. Les Turcs s'attendaient au pire : ils étaient convaincus qu'à leur entrée dans le désert, les troupes françaises leur tomberaient dessus et les sacrifieraient comme des moutons. Ils s'étonnèrent donc de voir les Français avoir une conduite tout à fait opposée et se montrer généreux. Beaucoup de Cairotes suivirent cette armée : parmi eux on comptait le (89) saiyid Ahmed Mahrouki[2], syndic des négociants de l'Égypte ; il avait été désigné

---

[1] Voir le texte de la convention dans *Histoire scientifique*, VII, p. 457-460 ; Skalkowski, p. 402-403 ; *Revue d'Égypte*, II, p. 313-314 ; cf. Rigault, p. 75.

[2] Cf Djabarti, III, p. 104, 107 ; trad., VI, p. 199, 206 ; *Histoire scientifique*, VII, p. 469.

malgré les appels : l'artillerie entra en action et une demi-heure plus tard, les Français pénétraient dans ce quartier. Les habitants demandaient l'aman au général Belliard, Celui-ci fit cesser le carnage, mais les soldats avaient pillé les maisons, les magasins, les okelles et les dépôts, enlevé les femmes et les jeunes filles. Tous les biens des commerçants chrétiens et musulmans se trouvaient entreposés à Boulak, coton, riz, café, bourses d'argent, et l'ensemble constituait une fortune supérieure à vingt mille bourses. Tout fut perdu dans cette affaire et le tiers de Boulak fut incendié : ce fut une calamité inouïe, une ruine lamentable, une catastrophe que les générations futures ne pourront évaluer.

Le siège du Caire se poursuivait : la population souffrait de la disette et des maux de la guerre, mais ne parlait pas de se rendre. Les Français commencèrent un bombardement nocturne des quatre coins de la capitale, qui provoqua l'incendie de nombreuses maisons, pendant que les forts continuaient à lancer des bombes. Qui pourra rappeler l'horreur de ces journées? Les femmes et les enfants, affolés, couraient se réfugier sous les voûtes de pierre pour se protéger des bombes. Celles-ci, d'un poids de trente-deux ocques, écrasaient les immeubles sur lesquels elles tombaient; on entendait chaque nuit les cris des femmes et des enfants; des incendies s'allumaient dans toutes les parties de la ville. Il en fut ainsi pendant les trente-quatre jours que dura ce siège. Deux jours avant la fin, les ulémas de la capitale eurent une entrevue avec Othman kyahya et Nasif pacha : « Les habitants, leur dirent-ils, ne peuvent plus supporter ce blocus; la ville n'a plus de quoi manger; l'ennemi la cerne de toutes parts. S'il pénètre, il passera tout le monde au fil de l'épée et nous périrons tous. Que faut-il faire? Il vaudrait mieux se rendre. » Ce fut l'opinion unanime. (88) Othman bey Achkar, et Othman bey Bardisi furent désignés pour offrir la capitulation. Accompagnés des ulémas, ils allèrent à l'étang de l'Ezbékieh, précédés d'un drapeau blanc en signe de soumission. Le général en chef fit cesser le feu et leur délégua le général Damas, son chef d'État-major. Une conférence eut lieu près de l'étang de l'Ezbékieh : les beys demandèrent l'aman pour l'armée, avec faculté de quitter le pays, l'amnistie pour les habitants de la cité. Le général en chef, pressenti, accueillit favorablement leur proposition et envoya une sauvegarde à Nasif pacha, aux

et ce dernier en avait fait son adjoint ; on voulait lui faire subir le même sort qu'à Moustafa, mais il resta introuvable. Nous en reparlerons. On mit à mort Abd el-Kader Baghdadi, connu pour son attachement aux Français. On massacra également tous les domestiques musulmans soupçonnés d'avoir servi chez les Français. On fit irruption dans la demeure du cheikh Khalil Bekri, que Bonaparte avait nommé syndic des chérifs en remplacement du saiyid Omar Makram, nous l'avons dit : après le pillage de sa maison, il fut amené tout nu devant Othman kyahya, commissaire du gouvernement ottoman : « C'est un Français, criait-on, ce n'est pas un musulman, puisqu'il buvait du vin en la compagnie des Français. » Toutefois Othman kyahya trouva des excuses à sa conduite et se borna à lui infliger une peine légère : si sa maison fut saccagée, il échappa au moins à la mort.

On se battait dans toutes les rues de la ville. Nous avons omis de dire que Boulak s'était soulevé également contre les chrétiens : il y avait là un petit nombre d'individus, surtout des pauvres gens, qui habitaient dans des okelles ; ils furent dépouillés de tout ; certains furent assassinés, les autres internés dans un local spécial. Cette révolte avait commencé dès l'arrivée de l'armée du grand vizir et s'était accentuée avec l'entrée en ville de Nasif pacha et des mamlouks. Lorsque les Français revinrent après avoir battu les troupes du grand vizir et qu'ils virent que les habitants de Boulak avaient suivi l'exemple des Cairotes, ils leur communiquèrent les informations voulues : « Le grand vizir, leur dit-on, pour lequel vous prenez parti, s'est enfui à Gaza et son armée (87) a été anéantie. Vous êtes des gens paisibles, qui n'avez aucune idée de la guerre : démolissez vos barricades et mettez bas les armes. En fin de compte vous allez être attaqués par nos troupes, qui vous extermineront jusqu'au dernier, et vous subirez le sort des habitants de Jaffa. » Comme ils refusaient d'obtempérer, malgré huit sommations du général en chef, le général Belliard ordonna d'ouvrir le feu contre eux. Cet officier avait été envoyé par le général Kléber de Katieh à Damiette : il avait repris cette ville, y avait laissé un commandant avec une garnison, puis était revenu au moment où l'armée française entamait le siège du Caire et de Boulak. Le général en chef lui donna la mission de réduire Boulak. Sa population, composée de fellahs à l'esprit borné, refusa de se rendre

pidité du Copte Jacob : les Français ont été témoins de son énergie. C'est alors que les troupes françaises commencèrent à s'infiltrer en ville. Le général Kléber arriva huit jours plus tard. Il se rendit compte de la situation : la ville était assiégée de l'intérieur par des troupes turques qui y étaient venues après la défaite du grand vizir : il y avait là près de quinze mille hommes, auxquels s'associait la population. Or le Caire comptait alors un demi-million d'habitants. Immédiatement il ordonna aux forts de lancer des bombes et des boulets sur la ville, ce qui fut fait par les cinq forts, soit par la Citadelle, le fort de Ghorayb, le fort de Daher Baibars, le fort de Kôm el-Akareb et le fort de Kôm el-Limoun. Cependant les Français bloquaient la ville : ainsi les habitants étaient à leur tour assiégés, d'en haut par le feu des forts, et par l'armée qui cernait la capitale. L'armée française qui investissait la ville se composait d'environ dix mille hommes.

Lors de la prise de commandement du général Kléber, l'armée comprenait vingt-deux mille hommes, du simple soldat jusqu'au plus haut gradé, hommes, femmes et enfants de troupe. Le corps qui avait vaincu le grand vizir était de dix-huit mille combattants, tandis que les troupes du grand vizir dépassaient soixante mille hommes. La plupart (86) des soldats du grand vizir périrent au cours de leur retraite, de faim, de soif ou de fatigue, ou encore du fait des Arabes bédouins, car la route d'Égypte à Gaza est âpre et pénible, à cause des sables, de la chaleur excessive et du manque d'eau.

Des combats acharnés se déroulèrent donc à partir de l'arrivée du général en chef sous les murs de la capitale. Nuit et jour, les forts déversèrent des bombes sur la ville. La population assaillit la maison de Moustafa, l'agha des janissaires nommé par Bonaparte, se saisit de sa personne et l'amena à Nasif pacha, qui le condamna à la pendaison : la sentence fut exécutée sur l'heure. Son logis fut pillé ainsi que son harem. Des recherches furent effectuées pour trouver Abd al-Al kyahya [1], qui s'était enfui. L'intéressé était un Égyptien, qui avait débuté comme domestique : il s'était attaché au dit Moustafa, chez lequel il logeait,

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 176, 178, 180, 181 ; trad., VII, p. 5-6, 9-10, 17, 19 ; Colin, *Une complainte...*, *Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 223.

qui restons placidement dans nos demeures sans vous chercher noise, si vous songez à nous infliger les mauvais traitements que vous avez fait subir aux autres chrétiens de la capitale, il ne reste plus qu'à vous répondre avec de la poudre et des balles.

— Maudits infidèles, leur répondit-on, notre intention est bien de vous tuer et de prendre comme butin vos biens et vos familles. Ouvrez les portes pour nous laisser entrer.

Une bataille était inévitable : les Coptes étaient commandés par le sieur Jacob Sa'idi [1], car c'était lui qui avait pris la parole. C'était un homme très courageux au combat, solide comme un roc. Très riche, il avait amassé des armes, et ce fut lui qui dirigea la défense.

Ces deux journées du jeudi et du vendredi furent cruelles pour les habitants de l'Ezbékieh : assiégés par des milliers de forcenés, ils crurent réellement à leur dernière heure. Les quatre-vingts soldats qui formaient la garde du général en chef eurent à soutenir un assaut opiniâtre, car ils étaient cernés des quatre côtés. Désespérés, ils songèrent, dans la nuit du vendredi au samedi, à chercher refuge au palais de Kasr el-Aini, avec l'idée de passer de là à Guizeh, sur l'autre rive du Nil. Ils firent partir en avant Moustafa pacha (85) Keusè et le consul Carlo Rossetti, que Kléber avait confié à leur surveillance avant son départ pour la guerre, et se préparèrent à se retirer à Guizeh. Or, dans l'après-midi ils virent arriver un cavalier français, qui leur annonça que trois cents cavaliers le suivaient, que l'armée du grand vizir était en fuite sur Gaza et que les troupes françaises allaient revenir peu à peu dans la capitale. Cette nouvelle les remplit de joie et leur redonna du courage. Le lendemain samedi, ces trois cents cavaliers arrivèrent, ce qui augmenta la résistance du groupe français. La population continua comme la veille à assiéger l'Ezbékieh : les trois cents cavaliers avaient été répartis dans les forts, à l'hôtel du général en chef et au quartier du Copte Jacob. Les forts commencèrent à lancer des boulets et des bombes sur la ville, tandis que les troupes turques et la population s'évertuaient toujours contre ces forts, l'hôtel du général et le quartier copte. Ce quartier et la résidence du général tinrent bon durant ces deux jours grâce à l'intré-

---

[1] Voir Colin, *Une complainte arabe, Bulletin de l'Institut français,* XVIII, p. 223.

absent, car il n'avait pas pénétré en ville avec les autres mamlouks : il s'était tenu à l'écart au Vieux Caire, croyait-on, où des contingents de l'armée française étaient venus le rejoindre. Ces derniers étaient des soldats originaires de Chafa-Amr et de Saint-Jean-d'Acre. Un kachef avait appréhendé l'un de ces hommes et lui avait coupé le cou : or le frère de la victime s'était précipité sur le kachef et une lutte s'était engagée ; le kachef en était sorti victorieux et avait tué son adversaire, et le reste de la troupe s'était enfui. Mourad bey était donc allé en direction de Guizeh, occupée par les Français et très fortifiée. Il demeura dans l'expectative avec ses hommes sous les murs de Guizeh, attendant l'issue des événements. Les chrétiens rassemblés dans l'okelle de Zoul-Fikar furent, par ordre d'Othman kyahya, confiés à Omar agha Malatili, qui les répartit dans le Darb el-Guinéna et le Darb el-Hin : c'étaient des hommes, des femmes, des jeunes filles et des enfants, tout nus, affamés, qui poussaient des cris déchirants. Leur misère avait ému Omar agha, qui pleurait en les conduisant. On les distribua dans les quartiers que nous venons de désigner, où leurs coreligionnaires leur fournirent des vêtements et l'hospitalité : leur malheureux sort aurait attendri des pierres.

La Harat el-Nasara, proche de l'Ezbékieh, à une extrémité de la ville, contenait l'hôtel (84) du général en chef, l'ancien palais de Mohammed bey Elfi : c'était un vaste marché, entouré de nombreuses maisons, où résidaient environ trois mille Coptes. C'était là qu'habitait le sieur Jacob Sa'idi le Copte, ancien secrétaire particulier du banneret Solaiman bey et qui, depuis l'occupation française, avait été attaché au général Desaix. Nous avons dit plus haut que nous en reparlerions, le moment est venu.

Le vendredi, soit le lendemain du jour où la population et des soldats assaillirent l'hôtel du général en chef et que la bataille commença, une attaque eut lieu sur le quartier copte, mais la porte en fut fermée au nez des agresseurs et il leur fut dit :

— Nous sommes des citoyens comme vous. Pourquoi vous en prendre à nous? Si votre dessein est de pénétrer dans notre quartier pour piller et égorger, comme vous l'avez fait dans les autres parties de la ville, vous ne le ferez pas facilement ici, car nous ne nous livrerons pas de nous-mêmes à votre bon vouloir. Si vous ne voulez pas nous épargner vos atrocités, à nous qui sommes des sujets du gouvernement, à nous

à des actes de ce genre, et en aucune manière je ne les tolérerai. Si vous voulez réellement vous battre, allez à l'hôtel du général en chef, où se trouvent vos ennemis les infidèles. C'est contre eux que vous pourrez montrer votre savoir-faire, plutôt que contre de pauvres hères, que vous égorgez comme des agneaux sans défense. Attaquez le palais de Kasr el-Aini, la Citadelle et les autres forts occupés par les Français. Ensuite vous pourrez vous exposer à Guizeh aux ennemis qui y sont casernés.

Tel fut le discours que leur adressa Othman kyahya pour les détourner du massacre des chrétiens. Il installa des postes de garde dans tous les quartier chrétiens, notamment à Harat el-Guinéna, au Darb (83) el-Hin, résidence des Syriens [1], à Harat Sonkor, à Harat en-Sakkaïn, où se trouvaient les Coptes [2], à Harat el-Arouam, siège du patriarcat grec [3], à Harat el-Gaouanieh [4], pillée naguère lors de l'assassinat du général Dupuy, à Harat Zoueileh, où habitaient les Arméniens et quelques Coptes. Avant l'arrivée de ces escouades de sûreté, les habitants de ces quartiers avaient été terrorisés par l'irruption d'individus fanatiques et de groupes de soldats, durant la journée du jeudi. Ils respirèrent un peu lorsqu'ils virent arriver ces gardes le vendredi. Mais dans les autres endroits, où se trouvaient des maisons isolées de chrétiens, comme à Khoronfich, à Bein el-Sourein [5], à Roumeileh, le pillage s'exerça, comme il s'étendit à de nombreuses demeures situées hors de ces quartiers : beaucoup de personnes y furent tuées. Un certain Abboud ibn Ibrahim Sabbagh Akkaoui, qui avait exercé pendant sept mois les fonctions de secrétaire du divan, fut égorgé à la porte de sa maison. Le reste des femmes, des jeunes filles, des enfants et des hommes, fut dirigé, dans le dénuement le plus complet, à l'okelle de Zoul-Fikar [6], dans le quartier de Gamalieh, où délibéraient Othman kyahya, les ulémas et les beys auxquels nous venons de faire allusion. Le banneret Mourad bey était

---

[1] Immédiatement au nord de l'Ezbékieh.

[2] Immédiatement au nord de la mosquée Moayyad.

[3] Au sud-est de Bab el-Nasr.

[4] Au sud du Khoronfich.

[5] Bein el-Sourein se trouve près du Khoronfich, et le quartier de Roumeileh est proche de la Citadelle.

[6] L'okelle de Zoul-Fikar se trouvait au sud de la mosquée de Baibars Gachanguir.

fut chassée au delà de Salheyeh et de Katieh. De ce dernier point, Kléber envoya le général Belliard réoccuper Damiette. Le grand vizir franchit la frontière égyptienne et se replia sur Gaza. Le général en chef ramena ses troupes au Caire, laissant des garnisons à Katieh, à Salheyeh, à Belbeis, ainsi que dans les forts et les points d'appui que les Français avaient construits dans cette région.

(82) La bataille avait donc commencé le jeudi 26 chawwal[1]. Nasif pacha et les mamlouks s'étaient dissimulés dans une caverne du mont Guiouchi avec Othman kyahya et une partie de l'armée. Lorsque les Français furent passés, ils entrèrent au Caire dans la matinée par la porte Bab el-Nasr. Ce fut alors un instant terrible, un moment plus grave que ne le sera le jour de la Résurrection, car la ville se souleva toute entière. La population ne trouva pour exercer sa vengeance que de malheureux chrétiens sans défense. La populace se précipita tout d'abord sur le quartier européen, où se trouvaient les négociants français établis depuis des années au Caire : il y avait là une cinquantaine de personnes, hommes, femmes, enfants, filles et garçons. La porte du quartier fut enfoncée et ce fut une ruée : les habitants furent égorgés comme des moutons ; les femmes et les filles traitées en esclaves, les enfants mis à l'encan, et rares furent les hommes qui échappèrent à ce carnage ; l'argent et les objets volés furent estimés à environ deux mille bourses. La communauté musulmane était déchaînée ; elle envahit les quartiers chrétiens pour massacrer et piller : ce jeudi montra aux chrétiens ce que seront les affres de l'approche du Jugement dernier. Beaucoup même moururent de saisissement. Le récit de ces atrocités parvint aux beys, notamment à Ibrahim bey et aux autres beys qui avaient pénétré en ville, à Nasif pacha et à Othman kyahya, le représentant du gouvernement ottoman. Ce dernier, homme d'une grande bonté et d'une fine perspicacité, déclara à ces beys :

— Le meurtre des sujets chrétiens et le pillage de leurs biens sont interdits par toutes les religions, et Sa Majesté le sultan ne saurait les approuver. C'est une conduite criminelle. Je m'oppose formellement

[1] Voir *Notes sur l'insurrection du Caire, Revue d'Égypte,* II, p. 203-218, 287-314.

prévenir le grand vizir par courrier : « Nous sommes entrés dans la capitale et nous la tenons. Prends courage et repousse les Français : du moment que nous avons pris le Caire, les Français vont se trouver dès lors entre deux feux. » (81) Son Excellence le grand vizir envoya alors à Kléber son officier d'ordonnance pour lui déclarer : « Le Caire est entre les mains des mamlouks et de Nasif pacha. Jusques à quand nous poursuivras-tu pendant que tu as perdu la capitale ? Repars et laisse-nous exécuter les clauses du traité. Va à Guizeh, et toutes tes demandes seront satisfaites, conformément à nos conventions. Ce qui vient de se produire ne se renouvellera pas : ce fut une fatalité du sort. Revenons à notre point de départ. » Et Kléber de répondre : « C'est précisément ce que j'ai dit avant cette bataille. Mais maintenant toute discussion est inutile. Je ne puis plus lui permettre de s'établir en territoire égyptien. Qu'il retourne à la forteresse d'el-Arich et qu'il y reste. Il peut l'occuper, puisqu'il l'a prise d'assaut, et c'est là qu'il devra reprendre les pourparlers de paix. Quant aux lieux que je lui ai livrés, il m'est impossible de le laisser s'y installer. En ce qui concerne enfin les troupes qui se trouvent dans la capitale, j'en fais mon affaire. » L'officier transmit cette réponse au grand vizir, qui lui dit alors : « Retourne auprès du général et montre-lui cette lettre de Nasif pacha, qui le mettra au courant des événements. Peut-être n'ajoute-t-il pas foi à mes déclarations relatives à la prise du Caire par les troupes de Nasif pacha. Il va savoir ainsi qu'il est isolé. » L'officier partit remettre au général en chef le rapport de Nasif pacha et lui dit : « Peut-être ne crois-tu pas que la capitale n'est plus en ta possession. Tu as bien été chassé du Caire. » Kléber entra en fureur : « Je n'ai qu'une parole. Si le grand vizir ne part pas cette nuit même, j'incendierai la ville qu'il occupe. » L'officier revint informer le grand vizir, lequel quitta Belbeis, ayant les Français à ses trousses.

De là, Kléber expédia trois cents cavaliers pour prêter main-forte à la garnison qui défendait son quartier général. L'armée du grand vizir

---

164, 166, 168, 169, 171, 172 ; Martin, II, p. 72-74, 77, 81-84, 87, 94, 95 ; *Histoire scientifique,* VII, p. 359, 362, 375, 377, 381, 387, 398-401, 406, 409, 418, 419, 426, 452-454, 456, 457 ; Rousseau, p. 440 ; Rigault, p. 74 ; Politis, *L'Hellénisme et l'Égypte moderne,* I, p. 134 ; *Revue d'Égypte,* II, p. 204-206 (Nasim), 210, 213-215, 288, 293, 306, 307, 313, 314).

Baudot. A peine ce dernier fut-il arrivé qu'il fut insulté et mis aux fers par le grand vizir. Le général en chef connut le fait dans la nuit même et prévint son armée que la bataille commencerait le lendemain matin jeudi. Il monta à cheval à minuit, après s'être assuré de la personne de Moustafa pacha, qui fut mis aux arrêts. Les troupes furent en marche au milieu de la nuit, sous le commandement de Kléber ; il s'était fait accompagner de trente bouches à feu. Lorsqu'on fut en vue du camp du vizir, un premier, un second, puis un troisième coup de canon furent tirés pour prévenir l'ennemi. Le banneret Mourad bey avertit Nasif pacha, fils du grand vizir : « Prépare-toi, voici le signal de l'attaque des chrétiens. — Ces chrétiens, répondit Nasif pacha, n'ont pas la force d'entamer les armées du sultan. » A ces mots, Mourad bey emmena sa cavalerie hors du champ de bataille, car il connaissait les méthodes de combat des Français et la violence de leur feu. Au troisième coup de canon, Nasif pacha, qui commandait les janissaires de l'avant-garde, se mit en branle : il fut accueilli par une vive fusillade des Français qui s'avançaient. Leur artillerie suivait l'infanterie. L'avant-garde française se composait de trois mille fantassins, et le gros de l'armée se trouvait derrière l'artillerie. Les troupes musulmanes s'élancèrent à la charge, mais furent contraintes de tourner bride, décimées par une fusillade meurtrière. Soudain l'infanterie française s'ouvrit en deux tronçons et démasqua l'artillerie, qui déversa une pluie discontinue de boulets et de bombes. L'avant-garde turque fut exterminée et le gros des troupes prit la fuite. Apprenant cette déroute, le grand vizir décampa également, et l'armée française talonna les fuyards. Les mamlouks de Nasif pacha se mirent à l'écart de la route suivie par les Français et se cachèrent dans une anfractuosité de la montagne jusqu'au moment où les Français eurent dépassé l'emplacement du camp turc, puis ils pénétrèrent dans la ville du Caire. Kléber et son armée continuèrent leur poursuite jusqu'à Belbeis, où le grand vizir était déjà arrivé. Nasif[1] pacha avait envoyé

---

[1] Le manuscrit donne tantôt « Nasif » tantôt « Nasouh », confusion qui se retrouve dans Djabarti, III, p. 4, 6, 41, 89, 93-96, 99, 103 ; trad., VI, p. 8, 13, 87, 171, 173-176, 178, 184, 190, 197 ; et dans Ali pacha, I, p. 62 ; XV, p. 64, 65, 68.

Desgranges et les auteurs français donnent toujours « Nasif » (Desgranges, p. 25,

Les grosses pièces d'artillerie furent remises en place à la Citadelle ; les troupes allèrent prendre position en dehors de la ville ; celles qui étaient parties à Rosette et à Alexandrie furent rappelées. Moustafa pacha fut mandé et lecture lui fut donnée de la lettre de Smith : « Va informer Son Excellence le grand vizir, lui fut-il déclaré, qu'il ramène son camp à Belbeis, à une journée du Caire. Qu'il fasse demander au gouvernement anglais des passeports pour nous permettre de profiter des conditions que nous avons signées, car il est impossible à nos troupes d'aller se constituer prisonnières entre les mains des Anglais. » Moustafa pacha partit, désolé de cet incident, dont il rendit compte à Son Excellence le grand vizir. Celui-ci le chargea de transmettre la réponse suivante : « Saluez de ma part le général Kléber. Dites-lui de vous remettre la ville et d'aller à Guizeh. Lorsqu'il y sera installé, nous examinerons ses demandes. Nous sommes incapables de tenir nos hommes et de les empêcher d'entrer au Caire. Prévenez-le donc d'avoir à ménager son sang et celui de ses hommes. Qu'il s'en aille ! »

Lorsque le général en chef eut reçu cette déclaration de la bouche de Moustafa pacha, il écrivit au grand vizir : « Retourne à Belbeis et, là, réfléchis à la décision que tu croiras devoir prendre. En ce qui me concerne, je ne puis me résoudre à livrer la ville avant l'exécution de toutes les clauses de la convention que nous avons signée tous les deux. Si tu ne le fais pas, tu sais le sort qui t'attend. De toute façon je n'évacuerai pas la capitale. »

Ce message donna lieu à une risposte identique et, à partir de ce jour, lettres et réponses se succédèrent sans interruption, rédigées dans le même esprit. Les deux généraux comprirent donc que la reprise des hostilités était inévitable : le grand-vizir ne voyait pas la possibilité de reculer après être parvenu aux portes du Caire ; Kléber ne pouvait songer à capituler sans s'être assuré des conditions de la paix. Le vizir se constitua une armée locale en faisant appel aux Arabes et aux fellahs. Kléber (80) formait ses régiments en dehors de la ville et mettait son artillerie en position. La correspondance des deux parties se prolongea pendant huit jours, jusqu'au jeudi 26 chawwal (22 mars 1800). La veille, dans la nuit, le grand vizir avait prié le général en chef de lui envoyer un plénipotentiaire de confiance, et Kléber lui avait adressé le général

mon intermédiaire, en ma présence et avec mon témoignage, ne sont plus valables. Je vous adresse cette lettre avant que vous ne quittiez la ville, car je ne voudrais pas qu'elle vous parvienne après que vous aurez abandonné la capitale et les forteresses. Je désire que vous ne croyiez pas à une perfidie des Anglais, et c'est pourquoi je vous fais connaître cette modification. Vous savez maintenant à quoi vous en tenir.»

En lisant ce message, le général Kléber mugit comme un chameau en furie. Il réunit aussitôt en conseil de guerre les généraux présents, les commandants et tous les officiers, pour leur donner communication de cette lettre du commandant Smith, et ajouta : « Qu'en pensez-vous, représentants de la République? Voulez-vous livrer vos armes, vos richesses et vos bagages? Voulez-vous vous constituer prisonniers de vos ennemis les Turcs et les Anglais? Quel est votre avis?» Tous lui répondirent d'une seule voix : « Le général avec lequel tu as conclu la paix doit retourner d'où il vient. Nous devons recevoir du gouvernement anglais, et non du général Smith seul, des passeports qui nous permettent de partir aux conditions stipulées d'un commun accord. S'il ne s'éloigne pas et s'il ne veut pas maintenir le traité, nous lui résisterons ou nous périrons jusqu'au dernier. Mieux vaut mourir au champ d'honneur que de se livrer à l'ennemi. — Et avez-vous la possibilité de combattre contre un ennemi aussi nombreux? répliqua le général Kléber. — Tu sais bien par expérience, général, que nous n'avons jamais tourné le dos à l'ennemi. — Eh! oui, je le sais, mais vous aviez ce courage lorsque vous aviez l'esprit tranquille.» Et il se mit sournoisement à leur rappeler ce qui s'était passé à el-Arich, à Katieh, à Alexandrie, à Damiette et en d'autres lieux. « C'est exact, lui répondirent-ils, mais aujourd'hui nous n'avons qu'un esprit uni et une seule parole. Prends les décisions qui te plairont, général, et nous nous mettons tous dans ta main.»

Sans délai, Kléber envoya replacer à la Citadelle les canons qu'on avait enlevés la nuit précédente. (79) Il avait fait dire à Moustafa pacha de venir prendre possession de la Citadelle. C'était un jeudi matin, et Moustafa avait déclaré : « Je viendrai dans l'après-midi de vendredi après la prière, et je monterai occuper la Citadelle.» Or c'était précisément la veille, le jeudi, qu'était arrivée la lettre du général Smith, soit le 18 chawwal 1214 (14 mars 1800).

soldats turcs commencèrent à s'infiltrer au Caire. Un beau jour, cinq janissaires étaient assis dans un marché, lorsque vint à passer un soldat français ; un des janissaires se précipita sur lui et l'assomma d'un coup de sabre à la nuque. La nouvelle se répandit comme une traînée de poudre et ameuta les Français. Toutes les maisons se fermèrent. Moustafa pacha parcourut la ville pour calmer les troupes françaises et se rendit en toute hâte chez le général en chef afin de le rassurer et d'apaiser son irritation : « Désormais, lui dit-il, aucun de nos soldats ne pourra plus pénétrer au Caire, et je vais envoyer un rapport sur l'incident au grand vizir en le priant de consigner la ville à ses troupes. Si, malgré tout, un soldat se présentait, nous lui enlèverions ses armes. » Après avoir quitté le général en chef, Moustafa pacha prescrivit une enquête immédiate : les cinq janissaires furent appréhendés et mis à mort, et leurs corps furent exposés devant l'hôtel de Mohammed bey Elfi, résidence du général en chef, sur l'étang de l'Ezbékieh. L'effervescence cessa.

Cependant le grand vizir chargeait Moustafa pacha d'insister pour son entrée au Caire. Le général en chef répondit : « La date de notre départ du Caire n'est pas échue ; nos approvisionnements ne sont pas prêts et les vaisseaux ne sont pas arrivés. Comment pourrions-nous partir ? » — « Nos troupes, répliquait le grand vizir, sont innombrables, et il n'est pas en mon pouvoir de leur interdire l'accès de la capitale. Évacue ton armée sur Guizeh et ta sécurité ne fera qu'y gagner. » Mais le général persistait dans son refus : « Il ne m'est pas possible de quitter la ville avant d'avoir sous la main tout ce qui est indispensable à mon armée, suivant les stipulations du traité. »

Ces pourparlers se prolongèrent pendant quelques jours, jusqu'à l'approche de l'échéance de l'évacuation sur Guizeh, qui tombait le 18 du mois de chawwal (14 mars 1800). Ce jour-là le général Kléber reçut du commandant en chef Smith, amiral de la flotte anglaise, une lettre ainsi conçue :

(78) « Selon les termes d'une récente communication du gouvernement anglais, je n'ai la faculté de vous laisser sortir d'Égypte qu'aux conditions suivantes : vous me remettrez toutes vos armes et tous vos bagages, vous serez prisonniers de guerre, et notre flotte vous emmènera en Angleterre. Les stipulations prévues entre vous et le grand vizir par

trois mille bourses en compensation de ce qu'ils laisseraient en Égypte, canons, boulets, bombes, poudre, balles de fusil, affûts d'artillerie et autres engins de guerre. Ils toucheraient cet argent au cours de ces quatre-vingt-dix jours aux dates suivantes : 1° et 2° pendant le temps où ils feraient leurs préparatifs ; 3° à l'arrivée des trois cents navires qui devaient servir à les transporter dans leur pays ; 4° pour se procurer les vivres et les approvisionnements nécessaires au temps de la traversée. Il était stipulé d'un commun accord que chaque garnison délaissée par les Français, depuis Katieh jusqu'au Caire, serait aussitôt occupée par les troupes ottomanes. Les Français se retireraient alors à Guizeh pour prendre la route d'Alexandrie, et Son Excellence le grand vizir entrerait dans la capitale. Les Français évacuèrent donc les forteresses l'une après l'autre et se retirèrent à une distance de trois heures du Caire, où les troupes ottomanes, commandées par Son Excellence le grand vizir, vinrent s'installer. Les Français s'étaient rassemblés de partout, quittant le Delta et la Haute Égypte, pour se cantonner sur la route de Rosette et d'Alexandrie. Ils vendirent leurs chevaux et leurs effets, et se tinrent prêts à s'embarquer.

Après la signature du traité, son Excellence le grand vizir avait nommé comme lieutenant au Caire Moustafa pacha, l'ancien prisonnier des Français. Ce dernier s'employa à réunir la somme voulue pour verser aux Français les trois mille bourses prévues.

A son arrivée à proximité du Caire, Son Excellence le grand vizir reçut la visite de tous les mamlouks venus de tous les points de l'Égypte. L'émir Mourad bey fit venir sa Maison de Haute Égypte et fut gratifié par le grand vizir d'une pelisse magnifique. Puis les musulmans (77) du Caire défilèrent pour saluer le grand vizir, officiers des milices, aghas, ulémas, cheikhs, notables, commerçants, citoyens de toutes classes. C'était une joie indescriptible pour l'ensemble des Égyptiens, qui rendaient grâces à Dieu de les délivrer de la domination des infidèles et de leur procurer de nouveau le pouvoir de l'islam, et surtout sans qu'ils eussent à souffrir de dommages[1]. Mais l'établissement du camp ottoman tout près de la capitale s'était effectué avant l'échéance prévue, et quelques

---

[1] Cf. Skalkowski, p. lxvi.

Article 21.

« Toutes les difficultés qui pourraient s'élever, et qui ne seraient pas prévues par la présente convention, seront terminées à l'amiable entre les commissaires désignés à cet effet par Son Excellence le grand vizir et par Son Excellence le général Kléber, commandant en chef, de manière à faciliter et accélérer l'évacuation.

Article dernier.

« Ces clauses ne seront valables qu'après les ratifications respectives, lesquelles devront être échangées dans le délai de huit jours, après quoi la présente convention sera religieusement observée de part et d'autre.

« Fait, signé et scellé de nos sceaux respectifs, au camp des conférences près d'el-Arich, dans le mois de pluviôse de l'an VIII de la République française, soit le 24 janvier de l'année 1800, qui correspond au mois lunaire de chaʿban de l'année 1214 de l'hégire.

« Ont signé :

« Le général de division Desaix ;

« Poussielgue ;

« Son Excellence Moustafa Rachid efendi, defterdar ;

« Moustafa Rasikh [1], ministre des Affaires étrangères ;

« (76) Approuvé, pour avoir son exécution, au quartier général de Salheyeh,

« Le général Kléber, général de division ;

« Le général Damas. »

En résumé, il ressort de cette convention que les Français pourraient séjourner encore en Égypte pendant les trois mois, soit quatre-vingt-dix jours, qui suivraient la date de la signature du traité. Ils recevraient

---

[1] Voir Dehérain, p. 475, 477 ; Deny, p. 138, n. 1.

Le defterdar Moustafa Rachid allait devenir ministre des Affaires étrangères au cours de l'année (Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 399).

par la Sublime Porte ; et, pour faciliter l'exécution des dites dispositions, la Sublime Porte enverra, immédiatement après l'échange des ratifications, des commissaires dans la ville du Caire et dans les autres villes occupées par l'armée.

(74) Article 18.

« Les contributions que les Français pourraient avoir perçues après la date de la ratification et avant la notification de la présente convention, dans les divers points de l'Égypte, seront réduites sur le montant des trois mille bourses ci-dessus stipulées.

Article 19.

« Pour faciliter et accélérer l'évacuation des places, la navigation des bâtiments français de transport qui se trouveront dans les ports de l'Égypte sera libre pendant les trois mois de trêve, depuis Damiette et Rosette jusqu'à Alexandrie, et d'Alexandrie à Rosette et Damiette.

Article 20.

« La sûreté des pays occidentaux exigeant les plus grandes précautions pour empêcher que la contagion de la peste n'y soit transportée, aucune personne malade ou soupçonnée d'être attaquée de cette maladie ne sera embarquée ; mais les malades pour cause de peste ou pour toute autre maladie qui ne permettrait pas leur transport dans le délai convenu pour l'évacuation, demeureront dans les hôpitaux où ils se trouveront, sous la sauvegarde de Son Excellence le grand vizir et seront soignés par des médecins français, qui resteront auprès d'eux jusqu'à ce que leur guérison leur permette de partir, ce qui aura lieu le plus tôt possible ; et les articles 11 et 12 de cette convention leur seront appliqués comme au reste de l'armée ; le commandant en chef de l'armée française s'engage à donner les ordres les plus stricts aux différents officiers commandant (75) les troupes embarquées de ne pas permettre que les bâtiments les débarquent dans d'autres ports que ceux qui seront indiqués par les médecins chefs, comme offrant les plus grandes facilités pour faire la quarantaine utile et nécessaire.

Article 16.

« À compter du jour de la ratification de la présente convention, l'armée française ne prélèvera aucune contribution quelconque en Égypte ; mais, au contraire, elle abandonnera à la Sublime Porte toutes les contributions ordinaires exigibles qui lui resteraient à lever jusqu'à son départ, ainsi que les chameaux, dromadaires, munitions, canons et autres objets lui appartenant, qu'elle ne jugera pas à propos d'emporter, ainsi que les magasins de céréales provenant des contributions déjà levées, et enfin les magasins de vivres. Ces objets seront examinés et évalués par des commissaires envoyés en Égypte à cet effet par la Sublime Porte et par l'amiral anglais, conjointement avec les préposés du général Kléber, commandant de l'armée. Ces objets seront reçus au taux de l'évaluation ainsi faite jusqu'à concurrence de trois mille bourses, somme nécessaire à l'armée française pour accélérer ses mouvements et son embarquement. Si les objets ci-dessus désignés ne produisaient pas cette somme (73), le déficit sera avancé par la Sublime Porte à titre de prêt, qui sera remboursé par le gouvernement français, sur les billets des commissaires préposés par le général Kléber, commandant en chef de l'armée, pour recevoir la dite somme.

Article 17.

« L'armée française ayant des frais à faire pour évacuer l'Égypte, elle recevra, après ratification de la présente convention, la somme ci-dessus stipulée, dans l'ordre suivant, savoir :

« Le quinzième jour, cinq cents bourses ;

« Le trentième jour, cinq cents autres bourses ;

« Le quarantième jour, trois cents autres bourses ;

« Le cinquantième jour, trois cents autres bourses ;

« Le soixantième jour, trois cents autres bourses ;

« Le soixante-dixième jour, trois autres bourses ;

« Le quatre-vingtième jour, trois cents bourses ;

« Le quatre-vingt-dixième jour, cinq cents autres bourses.

« Toutes les dites bourses seront de cinq cents piastres ottomanes chacune. Elles seront reçues en prêt des personnes commises à cet effet

de la dite trêve, quelques bâtiments de France, à l'insu des galions des Puissances unies, entraient dans le port d'Alexandrie, ils en partiraient au plus tôt après avoir pris l'eau et les vivres nécessaires, et retourneraient en France munis de passeports des Puissances unies et, dans le cas où l'un de ces bâtiments aurait besoin de réparations, celui-là seul pourrait rester jusqu'à ce que les dites réparations soient achevées, et partirait ensuite pour la France, comme les précédents, au premier vent favorable.

Article 14.

« Son Excellence le général Kléber, commandant en chef, pourra faire prévenir [1] sur-le-champ les chefs du gouvernement français : l'officier qui sera chargé de cette mission sera pourvu des sauf-conduits nécessaires en vue de faciliter son voyage destiné à avertir le gouvernement français.

(72) Article 15.

« Étant reconnu que l'armée française a besoin de subsistances journalières pendant les trois mois dans lesquels elle doit évacuer l'Égypte, et pour les trois autres mois, à compter du jour où elle sera embarquée, il est convenu qu'il lui sera fourni les quantités nécessaires de blé, viande, riz, orge et paille, suivant l'état qui en est présentement remis par les plénipotentiaires de la République française, tant pour le séjour que pour le voyage. Les quantités que l'armée aura retirées de ses magasins, après ratification de la présente, seront déduites de celles à fournir par la Sublime Porte.

---

[1] Je m'en suis tenu au texte officiel français toutes les fois que le permettait l'arabe. Ici, c'est impossible et il faut noter une curieuse faute des traducteurs arabes. Conduits par l'étymologie du mot « aviso », ils l'ont rendu par *khabar*, « nouvelle, avis ». La teneur générale de l'article n'est pas modifiée.

Le même fait se retrouve dans Djabarti, VI, p. 85 ; trad., VI, p. 164 ; Haidar Chihab, II, p. 292.

Il faut noter que dans l'article 16 de la convention signée par le général Belliard, on rencontre encore le mot « aviso », que le traducteur a fort bien rendu par *markab* (voir plus loin, p. 109 du texte).

Ajoutons que le mot « aviso » manque dans le dictionnaire de Bocthor.

Article 9.

« La restitution des biens et des propriétés des habitants et des sujets de part et d'autre, ou le remboursement de leur valeur aux propriétaires, commencera immédiatement après l'évacuation de l'Égypte, et sera réglée à Stamboul par des commissaires nommés par les deux parties pour cet objet.

Article 10.

« Aucun habitant de l'Égypte, de quelque religion qu'il soit, ne sera inquiété, ni dans sa personne, ni dans ses biens, pour les liaisons qu'il pourra avoir eues avec les Français, pendant leur occupation de l'Égypte.

Article 11.

« Il sera délivré à l'armée française, tant de la part de la Sublime Porte que des deux gouvernements ses alliés, c'est-à-dire l'Angleterre et la Russie, les passeports, sauf-conduits et convois nécessaires pour assurer en toute sécurité son retour en France.

Article 12.

« Lorsque l'armée française d'Égypte sera embarquée, la Sublime Porte, ainsi que ses alliés, promettent conjointement que, depuis le moment de leur embarquement jusqu'à (71) son retour sur le continent français, elle ne sera nullement inquiétée, comme, de son côté, Son Excellence le général Kléber, commandant en chef, s'engage, en son nom et au nom de l'armée française d'Égypte, à ne commettre aucune hostilité pendant le dit temps, ni contre la flotte, ni contre aucune province de la Sublime Porte et de ses alliés. Il est entendu que les bâtiments qui transporteront la dite armée ne s'arrêteront à aucune autre côte que celle de la France, à moins de nécessité absolue.

Article 13.

« En conséquence de la trêve stipulée ci-dessus pour l'évacuation de l'Égypte, les parties contractantes conviennent que si dans l'intervalle

la rive occidentale et ses dépendances pourront rester entre les mains des Français jusqu'à l'expiration de la trêve, s'il est impossible de les évacuer plus tôt. Les places évacuées par l'armée seront remises à la Sublime Porte dans l'état où elles se trouvent actuellement.

(69) Article 5.

« La ville du Caire sera évacuée dans le délai de quarante jours, si cela est possible, et au plus tard dans quarante-cinq jours, à compter du jour de la ratification de la présente.

Article 6.

« Il est expressément convenu que la Sublime Porte apportera tous ses soins pour que les troupes françaises de diverses places de la rive occidentale du Nil, qui se replieront avec armes et bagages vers leur quartier général, ne soient, pendant leur route, inquiétées ni molestées dans leurs personnes, biens et honneur, soit de la part des habitants de l'Égypte, soit par les troupes de l'armée impériale ottomane.

Article 7.

« En conséquence de l'article ci-dessus, et pour prévenir toute dissension et hostilité, il sera pris des mesures pour que les troupes musulmanes soient toujours suffisamment éloignées des troupes françaises.

Article 8.

« Aussitôt après la ratification de la présente convention, tous les musulmans et tous les sujets de la Sublime Porte d'autres confessions, sans distinction, détenus ou retenus en France, ou au pouvoir des Français en Égypte, seront mis en (70) liberté ; et, réciproquement, tous les Français détenus dans toutes les villes et échelles de l'Empire ottoman, ainsi que toutes les personnes, de quelque nation qu'elles soient, attachées aux légations et consulats français, seront mis en liberté.

la Sublime Porte leur fournisse ; et, pour que les dits bâtiments puissent être préparés le plus promptement possible, il est convenu qu'un mois après la ratification de la présente, il sera envoyé au château d'Alexandrie par les soins de la Sublime Porte un commissaire et cinquante personnes.

ARTICLE 2.

« Il y aura un armistice de trois mois en Égypte, à compter du jour de la signature de la présente convention ; et cependant, dans le cas où la trêve expirerait avant que les dits (68) bâtiments à fournir par la Sublime Porte fussent prêts, la dite trêve sera prolongée jusqu'à ce que l'embarquement puisse être complètement effectué, bien entendu que, de part et d'autre, on emploiera tous les moyens possibles pour que la tranquillité de l'armée et des habitants dont la trêve est l'objet ne soit point troublée.

ARTICLE 3.

« Le transport de l'armée française aura lieu d'après le règlement des commissaires nommés à cet effet par la Sublime Porte et par le général en chef Kléber ; et si, lors de l'embarquement, il survenait quelques discussions entre les dits commissaires sur cet objet, il en sera nommé un par Son Excellence Sidney Smith, qui décidera les différends d'après les règlements maritimes de l'Angleterre.

ARTICLE 4.

« Les places de Katieh et de Salheyeh seront évacuées par les troupes françaises le huitième jour ou, au plus tard, le dixième jour après la ratification de la présente convention. La ville de Mansourah sera évacuée le quinzième jour ; Damiette et Belbeis, le vingtième ; Suez sera évacué six jours avant le Caire ; les autres places situées sur la rive orientale du Nil seront évacuées le dixième jour ; le Delta, c'est-à-dire les provinces du nord, seront évacuées quinze jours après l'évacuation du Caire. Cependant, comme elles doivent être occupées par l'armée française jusqu'à ce que toutes les troupes soient descendues de la Haute Égypte,

Badaoui, avait été attaqué à coups de fusil et harcelé par une bande de dix mille Arabes et fellahs. Il refusa la bataille, bien qu'il eût sous ses ordres près de trois mille hommes, alors que selon les méthodes françaises cinq cents soldats eussent suffi pour une victoire, mais ce fut chez lui un dessein prémédité de ne pas se battre [1].

Tous ces renseignements étaient parvenus au général en chef en un même instant et il comprit alors que l'armée française n'était plus en état de combattre continuellement. Aussi dès (67) son arrivée à Salheyeh, il se résolut, bien malgré lui, à conclure la paix et signa les articles du traité. La cérémonie de la signature eut lieu dans les parages d'el-Arich. Les plénipotentiaires étaient le ministre des Affaires étrangères du gouvernement ottoman et Rachid efendi d'une part, et de l'autre, le général Desaix, général de division, et l'administrateur des finances Poussielgue. Cette convention contenait vingt-et-un articles, et était imprimée en trois langues, en arabe, en turc et en français. La signature eut lieu le 28 cha'ban 1214 (25 janvier 1800).

En voici le texte [2] :

« L'armée française en Égypte, voulant donner clairement une preuve de son désir intime d'arrêter l'effusion du sang et de voir cesser rapidement les malheureuses querelles survenues entre la République française et la Sublime Porte, consent à évacuer l'Égypte, d'après les dispositions de la dite convention, espérant que cette concession pourra être un acheminement à la pacification générale de l'Occident.

Article premier.

« L'armée française devra se retirer avec armes, bagages et effets, sur Alexandrie, Rosette et Aboukir, pour y être embarquée et transportée en France, tant sur ses bâtiments que sur ceux qu'il sera nécessaire que

---

[1] Voir sur ces détails, qui ne sont pas exagérés : *Histoire scientifique,* VII, p. 13 ; Rigault, p. 52 ; Bouchard, *La chute d'el-Arich,* p. 165-166.

[2] Voir Djabarti, III, p. 83 ; trad., VI, p. 161 ; Martin, II, p. 40 ; *Histoire scientifique,* VII, p. 85 ; Haidar Chihab, II, p. 288-294.

la signature du grand vizir, le général Kléber avait à son tour apposé son seing.

Aussi lorsque le général en chef français apprit la façon dont la forteresse d'el-Arich avait été prise, il fut indigné de cette forfaiture. Il en prévint l'armée et réunit aussitôt un conseil de guerre pour l'en informer. Puis il assembla les ulémas, convoquant en outre Moustafa pacha, et leur déclara : (66) « Je pars combattre le grand vizir. » Il leur recommanda de veiller d'une façon absolue au calme du pays et emmena ses troupes à Salheyeh. Les troupes ottomanes étaient parvenues à el-Arich et leur camp s'étendait de Jaffa à el-Arich : les Français se développaient de Belbeis, Salheyeh et Katieh jusqu'aux frontières de l'Égypte. A Salheyeh, le général reçut la visite d'intermédiaires qui lui dirent : « L'affaire d'el-Arich s'est déroulée à l'insu du grand vizir, ne cherchez pas à en tirer vengeance par les armes. » Le général en chef français savait bien que son armée avait le plus vif désir de retourner dans son pays et qu'elle ne voulait pas continuer la guerre ; le délai imparti par Bonaparte avait expiré et aucun renfort n'était parvenu malgré ses promesses : c'est pourquoi tout le monde désirait rentrer. Aussi le général Kléber se résolut-il à tromper l'armée : la forteresse d'el-Arich avait pu être prise grâce à la trahison inconsciente de son commandant, lequel avait ouvert la porte sans l'ordre du général en chef ; en second lieu, les hommes de la garnison de Katieh s'étaient révoltés contre leur commandant et avaient exigé leur retour au Caire ; troisièmement, au moment où le général commandant Damiette avait ordonné à ses troupes de partir pour Katieh, en exécution d'une décision du général en chef, les soldats avaient frappé du pied et poussé les hauts cris : « Nous n'irons plus au combat, jamais. » Une autre manifestation avait été observée : lorsque les soldats d'Alexandrie virent que certaines personnes, commissaires ou notables, recevaient du général en chef l'autorisation de rentrer en France, ils murmurèrent et essayèrent de les empêcher de s'embarquer, en criant : « Nous mourrons ensemble ou nous en réchapperons avec vous ; vous fuyez les uns après les autres, pour nous abandonner, nous petits soldats, dans ce pays étranger. Il n'est pas tolérable que vous partiez. » Un cinquième fait avait retenu l'attention du commandant en chef : un général, passant près du sanctuaire du saiyid

d'un fossé, qu'on levait ou abaissait à volonté avec des cordes. Lorsque les Français ouvrirent la porte et abaissèrent le pont, ils ne purent plus le relever par suite de l'afflux des soldats turcs, et un combat s'engagea. Outré de cette perfidie, un Français se rendit à la poudrière et y mit le feu : une explosion se produisit, qui incendia un certain nombre de bâtiments et obstrua la porte ; Radjab pacha y trouva la mort, ainsi que de nombreux Français. De la garnison française de trois cents hommes, cent soldats seulement survécurent, qui furent faits prisonniers.

Cet incident causa une grosse émotion aux Français dès qu'il fut connu du général Kléber. Des plénipotentiaires avaient été échangés, deux efendis de la part du grand vizir, et, du côté français, le général Desaix, celui qui commandait en Haute Égypte, et Poussielgue, administrateur des finances[1] de la République française, qui contrôlait les registres de l'impôt foncier et le budget du pays. Les Égyptiens le nommaient le vizir, c'est-à-dire le vizir de la République française, et c'est par ce qualificatif qu'il était surtout connu. Ces deux plénipotentiaires participaient à la rédaction des articles du traité de paix, et les négociations duraient depuis quatre mois : elles venaient de se terminer et avaient été signées par le grand vizir et le ministre des Affaires étrangères turc, et contresignées par le général Smith, amiral de la flotte anglaise, car ce dernier se trouvait à cette date auprès de Son Excellence le grand vizir et avait offert ses bons offices pour la conclusion de la paix entre le grand vizir et le général en chef de l'armée française. Après

[1] Ce titre est rendu par l'expression *moudabbir el-houdoud,* que Deny traduit «régulateur des limites» (Deny, p. 137-138).

Desgranges y a vu un «directeur des frontières» (p. 140), le «commissaire pour la délimitation des frontières» (p. 151-152).

Djabarti commente la formule par *rouznamédji* (III, p. 28 ; voir : *Bibliothèque des arabisants,* II, p. 16-18 ; *Encyclopédie,* III, p. 234). Les traducteurs l'ont omise ou ne l'ont pas comprise : texte, III, p. 12, 28, 83, 154, 185 ; trad., VI, p. 25-26, 61, 91, 291 ; VII, p. 27 (directeur des affaires criminelles). Elle devient une fois *moudabbir el-djoumhour* (IV, p. 192 ; trad., IX, p. 54 : sauté). Voir Ali pacha, VIII, p. 93 et Ghorbal, *Misr,* p. 2 (*moudir*).

Djabarti qualifie aussi Poussielgue de *raïs el-kouttab* où les traducteurs ont vu un «secrétaire en chef» et un «intendant» (III, p. 83, 90 ; trad., VI, p. 160, 190 ; Ali pacha, XIV, p. 46).

passe de Damiette. Parmi les prisonniers se trouvait un officier supérieur de la vénerie impériale, qui mourut quelques jours plus tard. Les Français lui firent des funérailles solennelles, et la population défila en tête de son cercueil, suivant la coutume française en pareille occurrence. Telle fut l'affaire de Damiette sous le commandement du général Verdier [1].

Des messages successifs firent connaître l'arrivée à Damas d'une armée considérable commandée par le grand vizir : ce dernier avait envoyé des ordonnances l'une après l'autre en Égypte, se basant sur ce fait que le général en chef Bonaparte lui avait adressé des propositions de paix par l'entremise de Moustafa pacha. Le général Kléber était resté en relations avec le grand vizir, suivant les instructions qu'il avait reçues de Bonaparte. Cette correspondance se poursuivit pendant trois mois, de djoumada I à radjab (octobre-décembre 1799), entre les deux parties, toujours par le truchement de Moustafa pacha. Ces projets d'accord furent connus dans toute la Syrie et l'Égypte, et ne furent pas ignorés des armées musulmane et française.

Les troupes ottomanes arrivèrent sous les murs de la forteresse d'el-Arich, commandée par le général [2] Cazals : les Turcs engagèrent des pourparlers avec les Français de cette garnison et leur dirent : « La paix est signée entre nous.» Ils inspirèrent confiance à certains Français et quelques fraternisations se produisirent. Le général Cazals conçut l'idée d'offrir un banquet dans la forteresse au commandant en chef Radjab pacha. Il l'invita donc un jour avec dix officiers, mais celui-ci, qui avait une arrière-pensée, (65) fit à ses troupes la recommandation suivante : « Lorsque s'ouvrira la porte du fort et que je serai entré, pénétrez à ma suite et, par ce stratagème, nous le prendrons.» Ce fut ce qui se passa. Quand Radjab entra, les troupes se précipitèrent à la porte du fort. Or il y avait en avant de la porte un pont-levis au-dessus

---

[1] Dans le texte : Desaix.

[2] On a déjà fait observer que pour notre auteur tous les commandants de corps sont appelés généraux (Guémard, *Les auxiliaires de Bonaparte, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* IX, p. 6, n. 2).

J'ai utilisé ce récit (Bouchard, *La chute d'el-Arich,* p. 148 ; voir Ali pacha, XIV, p. 46).

spécialement le pays : il leur promit de maintenir la paix tant que seraient respectées les lois de la République française. Tous défilèrent devant lui, intimidés, dans une attitude humble et craintive, tant son maintien leur en imposait. Ce général avait en effet un aspect redoutable, nous l'avons dit, par sa haute stature et sa voix forte [1].

Le départ du général Bonaparte avait eu lieu le 25 rabi' II 1214 [2] (24 septembre 1799), et le général Kléber était arrivé au Caire le 1er djoumada I (1er octobre 1799 [3]). Il n'y eut aucun trouble pendant la période de son commandement, car Kléber était naturellement pondéré, aimait l'ordre et le calme ; d'autre part, il était respecté dans le pays.

Avant de quitter Damiette, le général Kléber avait désigné pour le remplacer le général Verdier. C'est alors qu'arriva la flotte ottomane qui avait amené à Aboukir les forces de Moustafa pacha : elle était retournée en Turquie pour prendre une nouvelle armée. Elle mouilla dans la passe de Damiette et les troupes débarquèrent au plus vite vers minuit. De Lesbé on communiqua le fait au général Verdier, qui, (64) en pleine nuit, rassembla cinq cents soldats et emmena quelques canons : avant le lever du soleil, cette troupe se trouvait sur la plage face à l'ennemi. La lutte commença aussitôt entre les Français et les Ottomans, lesquels étaient au nombre de trois mille hommes : ce fut un choc très violent, qui aboutit à la déroute des Turcs. Les uns refluèrent dans la mer, d'autres furent tués, et l'on fit trois cents prisonniers ; la bataille n'avait duré que deux heures. C'est en vain que des vaisseaux anglais lançaient des boulets sur l'armée française pour lui faire rompre le combat. Les prisonniers furent ramenés à Damiette, où se déroulèrent de grandes réjouissances pour célébrer cette victoire. La nouvelle en fut communiquée au général Kléber. Au bout de deux jours, la flotte quittait la

---

[1] De la Jonquière a fait état de ce texte (V, p. 656).

En regard de ce portrait, il convient de citer celui d'un Français contemporain : « Kléber était grand et bel homme ; il avait une tournure militaire imposante ; sa figure était noble et fière, ses yeux vifs et perçants ; ses traits inspiraient le respect. Sa voix était sonore ; son caractère tout à la fois violent et réfléchi » (DE LA JONQUIÈRE, V, p. 655 ; voir : *Histoire scientifique,* VI, p. 320).

[2] Voir ci-dessus, p. 80, n. 1.

[3] Kléber arriva au Caire le 31 août (DE LA JONQUIÈRE, V, p. 643).

nos richesses et de nos moyens d'existence, aussi bien et même mieux que nous l'étions au temps du grand général en chef. Nous vous conseillons, peuple, de ne point obéir aux fauteurs de révolte, d'abandonner les dissensions et la désobéissance, et de vous conformer aux ordres du Créateur des êtres. Salut!

Signé :

Le pauvre Khalil efendi Bekri, syndic des chérifs;
Le pauvre Abd-Allah Charkaoui, président du divan;
Le pauvre Mohammed Mohdi, secrétaire général du divan;
Le pauvre Moustafa Saoui, chaféite;
Le pauvre Solaiman Fayoumi, malékite;
(63) Le saiyid Ahmed Mahrouki;
Le pauvre Ali katkhoda Madjarli, doyen des janissaires;
Le pauvre Yousouf, officier d'état-major du corps des fusiliers;
Loutf-Allah Misri;
Yousouf Farahat;
Djabran Sakroudj;
Wolmar [1];
Baudeuf;
Zoul-Fikar [2] katkhoda, commissaire des musulmans.

«Vu et approuvé : le délégué français, Gloutier [3].
«Imprimé à l'imprimerie franco-arabe en la ville du Caire la bien gardée.»

Après communication de cette ordonnance, le général en chef Kléber reçut les félicitations des membres du divan, auxquels il recommanda

---

[1] Cf. Politis, *L'Hellénisme et l'Égypte moderne*, I, p. 148; Keimer, *Certains voyageurs, Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XXXI, p. 142-145, 150-152.

[2] Cf. de la Jonquière, IV, p. 63, n. 2; V, p. 146; Douin, *Égypte de 1802*, p. 19.

[3] Voir *Histoire scientifique*, VII, p. 471; Martin, I, p. 268; de la Jonquière, III, p. 480, n. 1; Rousseau, p. 241; Guémard, *Histoire et bibliographie*, p. 16, 34, 57.

On rencontre d'autres noms de ce divan : Djabarti, III, p. 37; trad., VI, p. 78; *Histoire scientifique*, IV, p. 201-202.

Kléber en organisera un troisième après la reprise du Caire : Djabarti, III, p. 137; trad., VI, p. 259-260; Rigault, p. 156.

il devrait continuer les opérations pour poursuivre les buts de cette guerre.

Dès qu'il eut pris connaissance de ces instructions, le général Kléber quitta en toute hâte Damiette et gagna le Caire. L'affliction était générale parmi les Français lorsqu'ils apprirent le départ de Bonaparte, car les troupes l'adoraient à la façon dont un homme adore une femme, et ils avaient foi en son étoile. Ce dernier avait laissé des lettres particulières, par lesquelles il promettait l'envoi de renforts. Dès son installation dans la capitale, le général Kléber réunit un grand conseil de guerre, auquel il convoqua tous les généraux, (62) les commandants et autres officiers, ainsi que les troupes, pour leur lire le message du général en chef Bonaparte : tous pleuraient, y compris le général Kléber. Ce dernier reçut ensuite les félicitations à l'occasion de sa nomination au commandement en chef, et des salves d'artillerie furent tirées.

Le lendemain, le divan fut réuni : on y avait convié les ulémas, l'agha des janissaires, le gouverneur de la ville, le prévôt des marchés, les colonels de la milice, tous les magistrats, les officiers de la prévôté, pour leur lire le document suivant :

« De la part de l'assemblée du divan particulier à toutes les provinces de l'Égypte, du sud et du nord, à tout le peuple en général, que Dieu lui soit favorable, amen !

« Nous vous annonçons que le commandant en chef Dugua, lieutenant du commandement dans la ville du Caire la bien gardée, a écrit une lettre au divan pour l'informer que le grand général en chef Bonaparte, commandant des troupes françaises, était parti pour la France. Le but de son voyage est de procurer le repos à toutes les provinces de l'Égypte ; de plus, il a reçu de la République française l'ordre de se hâter de revenir, parce que son absence durait depuis longtemps. Le commandant en chef Dugua nous fait savoir que le grand général en chef, avant de s'embarquer, a choisi pour le remplacer un homme intelligent, d'un jugement parfait, rempli d'affection et de mansuétude envers le peuple, et qu'il l'a nommé général en chef des armées françaises : c'est un excellent administrateur. Le commandant intérimaire nous annonce également que nous pouvons toujours être aussi tranquilles au sujet de la conservation de notre religion, de notre honneur, de nos marchandises, de

Après ces démarches, soit au milieu du mois de rabiʿ II 1214[1], Bonaparte quitta le Caire, escorté par environ trois cents cavaliers du corps de ses Guides en uniforme vert, prétextant une inspection (61) de la province de Menoufieh. Il arriva ainsi à Alexandrie, accompagné des généraux Murat, commandant de la province de Kalioubieh, Alexandre Berthier, son chef d'état-major, ainsi que de quelques commandants et autres officiers. Cinq jours plus tard, il donna à Alexandrie un grand banquet en l'honneur de l'amiral anglais, qui stationnait dans la rade d'Alexandrie, et il lui offrit de riches cadeaux[2]. Il avait fait équiper dans le plus grand secret trois vaisseaux chargés de vivres et de munitions : il s'embarqua de nuit et les vaisseaux prirent aussitôt le large. Le lendemain matin, les Anglais apprirent la nouvelle et mirent sur-le-champ à la voile pour le poursuivre. Les vaisseaux français parvinrent en Sicile.

De là le général en chef réussit à arriver en France. Au moment où il avait pris la décision de partir, le général en chef avait écrit au général Kléber, gouverneur de Damiette, pour lui remettre le commandement des troupes françaises après son départ. C'était un officier de valeur, très compétent en matière militaire. Bonaparte lui laissa des instructions nettes et complètes sur la conduite à tenir en son absence ; il le prévint qu'il avait entamé des pourparlers de paix avec le gouvernement ottoman, par l'intermédiaire de Moustafa pacha, prisonnier au Caire, qu'il avait en outre écrit au grand vizir pour lui proposer un accommodement en vue de l'évacuation. Il lui enjoignait de patienter pendant quatre mois : passé ce délai, s'il n'avait pas reçu de renforts de France, Kléber aurait la faculté de conclure un traité de paix générale, dans des conditions réservées à son propre jugement, stipulant toutefois que les Français évacueraient l'Égypte avec les honneurs de la guerre, sains et saufs, et emporteraient leur butin. Mais au cas où il recevrait des secours de Bonaparte, après son départ d'Égypte ou après son arrivée en France,

---

[1] Bonaparte quitta le Caire le 18 août 1799, qui correspond au 16 rabiʿ I.

[2] Cette assertion se rattache sans doute aux rumeurs qui coururent alors d'une connivence de Bonaparte avec les Anglais (Martin, I, p. 396 ; *Histoire scientifique,* VI, p. 270 ; de la Jonquière, V, p. 591-592 ; Douin, *Le retour de Bonaparte, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XXIII, p. 186 seq. ; Haidar Chihab, II, p. 281).

Le 12 [1] rabi' I (14 août 1799), on célébra l'anniversaire de la naissance du Prophète avec une pompe plus solennelle qu'il n'était d'usage sous les Mamlouks. D'ailleurs les Français commémoraient avec éclat les fastes de l'islam, les fêtes, les anniversaires de naissances et la crue du Nil, avec accompagnement de salves d'artillerie et de feu d'artifice, ce qui n'avait jamais eu lieu sous l'islam. Ils agissaient ainsi pour s'attirer la sympathie des Égyptiens. Mais, comme nous venons de le dire, ceux-ci étaient méfiants. Pourtant un très grand nombre de Français professaient l'islam en public, apprenaient l'arabe et étudiaient les ouvrages arabes et le Coran. Leurs maisons étaient peuplées de femmes musulmanes, notamment des esclaves blanches que les Mamlouks avaient eu à leur service, et d'une grande quantité de négresses. Ils les habillaient à l'européenne, leur permettaient de monter à cheval et de circuler en ville à visage découvert, en un mot, laissaient une liberté absolue aux femmes et aux jeunes filles : les femmes pouvaient sortir de leurs maisons, car le peuple français a des manières toutes spéciales de s'entretenir, de se divertir et de se conduire avec les femmes, différentes en tout cas de celles des autres nations du monde.

Après son retour de l'affaire d'Alexandrie, le général en chef demeura au Caire jusqu'au mois de rabi' II de l'année 1214 (septembre 1799). Moustafa pacha et ses officiers avaient été consignés dans un local approprié [2] : on leur avait assigné des rations et des soldes. Par son entremise on entra en communication avec le gouvernement ottoman. En effet, à cette époque même on apprenait le départ de Stamboul du grand vizir Yousouf pacha : il assumait le commandement d'une grande armée destinée à envahir l'Égypte. Moustafa pacha fut donc prié d'écrire une seconde lettre à Son Excellence le grand vizir en vue d'entamer des pourparlers de paix et des négociations pour la remise de l'Égypte au gouvernement ottoman. Ces documents furent portés par des officiers de Moustafa pacha : le grand vizir se trouvait alors sur la route d'Alep.

---

[1] Dans le texte on lit par erreur le 25 (voir DE LA JONQUIÈRE, V, p. 553).

[2] Moustafa pacha fut interné à Guizeh dans l'ancien palais de Mourad bey (DARESSY, *Moustapha pacha, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XI, p. 55).

mal l'avait emporté sur le bien. Pour ces motifs Othman hodja, ancien gouverneur de Rosette, a eu la tête tranchée.

« Conforme à l'original et signé par le gouverneur de Rosette, Valentin.

« Imprimé à l'imprimerie franco-arabe de la ville du Caire la bien gardée. »

Les troupes françaises revinrent ensuite au Caire célébrer leur grande victoire. Le général en chef rentra, ramenant Moustafa pacha Keusè, son fils et quelques officiers de son état-major. Les Égyptiens furent très affligés de la défaite de cette flotte.

Le général Bonaparte ne l'ignora pas, et lorsque les ulémas vinrent le féliciter de son retour, il leur dit [1] :

— J'avais cru, Égyptiens, que vous m'aimiez, que vous étiez heureux de mes succès et attristés de mes revers. Or je vois tout le contraire. Je vous ai témoigné une entière affection, je vous ai affirmé que j'aimais le Prophète Mahomet, ce qui de ma part était logique puisqu'il fut un grand guerrier comme moi et qu'il bénéficia de nombreuses conquêtes. Il a dirigé vingt expéditions ; or moi aussi j'ai commandé des campagnes et j'en ferai beaucoup d'autres dans l'avenir, vous le verrez et vous en entendrez parler. Sous la domination des Français vous adoptez une attitude de méfiance et de contrainte. Un jour viendra où vous déterrerez les ossements des Français pour les arroser de vos larmes.

A plusieurs reprises le général avait tenu de semblables propos. Durant tout le temps de son séjour en Égypte, soit par la parole, soit par des proclamations qu'on affichait dans les marchés de la ville, pour que les passants puissent les lire, Bonaparte affirma son amour pour l'islam, promettant de fonder une mosquée qui porterait son nom et assurant la communauté musulmane de sa bienveillance. Mais les Égyptiens n'avaient pas l'esprit tranquille : « Tout cela n'est que ruse et tromperie, disaient-ils, c'est fait pour nous amadouer. Bonaparte n'est qu'un chrétien, fils de chrétien. »

---

[1] Voir à ce sujet DE LA JONQUIÈRE, V, p. 538 ; DEHÉRAIN, p. 445-446 ; CHAUVIN, p. 20-21 ; HAIDAR CHIHAB, II, p. 278-279.

Rosette, où il fut promené ignominieusement durant trois jours. Enfin il fut condamné à mort par jugement du tribunal religieux de Rosette [1].

« Copie de la sentence rendue conformément au droit canon par les juges du tribunal de Rosette, — que sa gloire soit éternelle ! — contre Othman hodja, et remise au général commandant la ville, en date du 24 du mois de thermidor an VII de la République française, soit le 8 du mois de rabi' I de l'année 1214 (10 août 1799).

« Sur l'ordre écrit d'informer et d'enquêter sur les agissements d'Othman hodja le Crétois, Nous constatons que le mal l'emporte sur le bien. En conséquence, et en présence de Son excellence notre seigneur le cheikh el-islam, le savant, le pieux, le chérif Ahmed Hafnaoui [2], mufti hanéfite ; du syndic des chérifs, l'honorable et considérable chérif Badaoui ; du modèle des personnalités, le pèlerin Ahmed agha Silahdar ; de l'honorable Ali Djaouich katkhoda ; du modèle des négociants Ahmed Chahhal ; de l'honorable Sélim agha ; de l'honorable Ibrahim Djammal ; du chérif Ibrahim Sa'id ; de l'honorable Mohammed Farim ; du pèlerin (59) Bach Saliman ; et aussi en présence de plusieurs autres musulmans, ont comparu Ramadan Hammouda, Moustafa Djabbar, Ahmed Djaouich Abd-Allah, le pèlerin Hasan Aboudjouri, le pèlerin Badaoui Mikral, Ali Bouzdadeh, Badaoui Diyab et Hasan Arab. Il résulte de leurs dépositions et de leurs témoignages que le susdit Othman hodja les avait tyrannisés d'une manière violente en les faisant battre et mettre en prison sans en avoir le droit, qu'il s'était approprié leurs biens et s'était rendu coupable d'autres injustices. Alors on demanda à tous les musulmans présents à ce tribunal si Othman hodja avait commis plus de mauvaises actions que de bonnes, et ils répondirent unanimement que le

---

[1] Cf. de la Jonquière, V, p. 471 ; Daressy, *Moustapha pacha, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XI, p. 53 ; Djabarti, III, p. 75, 78 ; trad., VI, p. 145, 150 ; Haidar Chihab, II, p. 279-280.

[2] Un certain nombre des personnalités de Rosette citées ici comparaîtront comme témoins au mariage de Menou. Fait curieux, le mufti hanéfite n'y figurera pas (Ali Bahgat, *Contrat de mariage du général Menou, Bulletin de l'Institut égyptien,* 1898, p. 224, 227, 231-232).

il amenait avec lui son fils et tous ceux qui se trouvaient dans la tente. Le général en chef l'accueillit avec beaucoup d'égards, lui donna un foulard de prix, avec lequel il banda son doigt blessé et lui témoigna toutes sortes de bontés. Lorsque les combats furent terminés, une partie des captifs fut envoyée à Alexandrie et une autre sur le Caire.

Le général Dugua, remplaçant du général en chef au Caire, fit part aux membres du divan de la défaite d'une flotte ottomane venue de Stamboul à Alexandrie, ainsi que de la reprise du fort d'Aboukir. Un message, dont voici le texte, fut affiché dans les rues du Caire :

« Après vous avoir offert mes salutations et tous les vœux que je forme pour vous, je vous annonce que j'ai appris d'une manière certaine que l'armée française s'est emparée de la forteresse d'Aboukir le 14 du mois de thermidor, qui répond à la fin du mois de safar de l'année 1214 (1er août 1799). Nos troupes ont fait trois mille prisonniers, au nombre desquels se trouve Moustafa pacha et son fils. Cet événement a eu pour résultat l'entière destruction des quinze mille hommes que la flotte avait amenés à Aboukir, sans qu'un seul ait pu échapper. Je vous engage, (58) au nom du général en chef Bonaparte, à faire connaître sur-le-champ cette nouvelle à tout le monde indistinctement et de la répandre dans les provinces de l'Égypte, car elle doit causer de la joie et du plaisir. Je vous enjoins également de me faire savoir aussitôt que possible que vous avez divulgué cet événement avec toute la rapidité voulue. Sachez en outre que Son Excellence le général en chef Bonaparte sera bientôt de retour parmi vous. Que Dieu vous conserve ! Salut !

« Écrit le 22 du mois de thermidor de l'an VII correspondant au 7 du mois de rabi' I de l'année 1214 (9 août 1799).

Le pauvre cheikh Abd-Allah Charkaoui, président du divan.

Le pauvre cheikh Mohammed Mohdi, secrétaire général du divan. »

Othman hodja commandait le fort d'Aboukir, que les Français assiégèrent pendant quatre jours : les bombes réussirent à faire une brèche et causèrent des pertes sérieuses à la garnison. Othman hodja fut donc contraint de se rendre : fait prisonnier, il fut enchaîné et conduit à

« Sur vous soient le salut, la miséricorde et les bénédictions de Dieu !

« Écrit à Rahmanieh, le dimanche 17 safar 1214 (21 juillet 1799). »

L'intention de Bonaparte, par cette proclamation, était d'endormir le pays et de couper court à toute maladresse. Néanmoins les musulmans surent parfaitement que les termes de cette lettre étaient mensongers et ils ne doutèrent pas que la flotte fût ottomane, car les ordonnances de Moustafa pacha et d'Othman hodja avaient été répandues dans toute l'Égypte. En résumé, Bonaparte poursuivit sa route et arriva à Aboukir, où il passa l'armée en revue : il réunit les généraux pour aviser aux meilleurs moyens de combattre l'ennemi. « Notre armée, déclara le général Murat, se compose surtout de fantassins, et s'ils chargent contre ces retranchements, ils seront écrasés par la grosse artillerie. (57) Si tu le permets, général, je vais partir en avant avec mes cavaliers et l'infanterie me suivra. Je m'élancerai sur les retranchements, m'exposant au tir des canons, qui atteindront surtout nos chevaux en laissant les hommes indemnes. Nous foncerons alors sur leurs canons, nous les prendrons, et il sera possible de s'emparer des retranchements. Par ce stratagème nous vaincrons. » Ce plan fut adopté par le général en chef : « Ta proposition est très sensée, général. Nous allons opérer ainsi. » Les corps de l'armée furent disposés de cette manière. La cavalerie de Murat chargea et ses chevaux furent décimés par l'artillerie, puis les fantassins s'élancèrent sur les retranchements, se rendirent maîtres des canons et les retournèrent contre l'ennemi. Le camp ottoman était ainsi cerné. Un vif combat s'engagea. Ce fut une mêlée horrible : les Turcs se jetaient dans les flots et se noyaient, certains purent nager et regagner leurs vaisseaux ; en dehors des tués, il y eut huit cents prisonniers [1]. Un soldat se précipita sur la tente de Moustafa pacha et s'apprêtait à le tuer lorsqu'on lui dit que c'était le commandant en chef de la flotte : il lui avait déjà coupé un doigt d'un coup de sabre, mais dès qu'il l'identifia, il le conduisit au général en chef auquel il expliqua l'incident ;

[1] Cf. Ali pacha, X, p. 14-15 ; Haidar Chihab, II, p. 276-278.

l'opinion des corrupteurs qui lui donnent des associés. Il savait déjà, dans sa science éternelle, par ses décrets justes et ses dispositions sereines, qu'il me donnait cette contrée. Il avait décidé et ordonné ma présence en Égypte pour faire cesser l'anarchie qui régnait dans les affaires, détruire tous les genres de tyrannie, mettre à la place la justice, la tranquillité et réorganiser l'État.

« (56) La preuve de sa toute-puissance et de son unité éternelle, c'est qu'il ne donne pas à ceux qui croient à la trinité une force pareille à la nôtre, car ils n'ont pu accomplir ce que nous avons fait. Pour nous, nous croyons à l'unité de Dieu, nous reconnaissons qu'il est le glorieux, le puissant, le fort, le vainqueur, celui qui dirige les êtres et dont la science embrasse la terre et les cieux, qui prend en mains le sort des créatures. Or tout cela est écrit dans les versets du Coran et dans les Livres révélés. Sachez que si des musulmans accompagnent ces mécréants, ils seront l'objet de la colère divine à cause de leur opposition aux recommandations du Prophète, — sur lui soient bénédiction et salut de la façon la plus parfaite ! — et à cause de leur accord avec les maudits infidèles, car les ennemis de l'islam ne sauraient contribuer à sa gloire. Malheur à quiconque serait secondé par les ennemis de Dieu ! Il est inconcevable qu'aidé par les infidèles, il reçoive l'assistance de Dieu. La destinée les pousse vers leur perte et leur destruction, d'une manière honteuse et humiliante. Comment est-il permis à un musulman de s'embarquer sur un vaisseau où flotte l'étendard de la croix et puisse entendre tous les jours des paroles de blasphème et de mépris envers Dieu, l'unique, le seul, l'éternel? Un musulman qui consentirait à se trouver dans une pareille situation serait, sans aucun doute, plus coupable qu'un infidèle, plongé dans l'erreur dès l'origine.

« Membres du divan, nous désirons que vous répandiez ces nouvelles dans tous les services de l'Égypte, afin d'empêcher les fauteurs de corruption de semer la discorde parmi le peuple des provinces et des villes. Car le pays où se commettraient des désordres serait doublement châtié et puni. Conseillez donc aux Égyptiens de s'abstenir de mauvaises actions, de peur que nous ne leur fassions éprouver les maux que nous avons fait subir aux habitants de Damanhour et autres lieux, punis à cause de leur coupable conduite.

partie de notre armée sur la montagne de Terraneh [1] et qu'ensuite nous nous sommes rendus dans la province de Béhéra pour procurer le repos au pauvre peuple et punir les ennemis qui nous font la guerre. Nous sommes arrivés en bonne santé à Rahmanieh et nous avons accordé un pardon général à tous les habitants de la Béhéra ; aussi sont-ils dans un calme absolu et un bonheur parfait. Maintenant les troubles ont cessé et la pacification est rétablie.

« Aujourd'hui nous vous annonçons qu'il est arrivé quatre-vingts bâtiments, tant grands que petits. Ils ont paru devant Alexandrie avec l'intention d'y entrer, mais la grande quantité de bombes et de boulets qu'on a lancés sur eux les en a empêchés ; en conséquence ils sont partis et sont allés mouiller en rade d'Aboukir, où ils ont commencé leur débarquement. Je ne me suis pas opposé à leur descente, parce que mon intention est de fondre sur eux lorsqu'ils seront tous à terre, d'exterminer ceux qui ne se soumettront pas et de laisser la vie aux autres. Je vous les conduirai prisonniers sous bonne garde afin que cet événement fasse une grande sensation dans la ville du Caire.

« Ceux qui montent cette flotte ne sont venus ici que dans l'espoir de se réunir aux Mamlouks et aux Arabes pour piller et ruiner le pays. Ce sont en grande partie des Russes d'Europe qui abhorrent ouvertement et traitent en ennemis ceux qui croient à l'unité de Dieu et ont foi en son Prophète. Ils détestent l'islam, n'ont aucun respect pour le Coran et d'après leur croyance entachée d'infidélité, ils reconnaissent trois dieux et prétendent que le vrai Dieu est le troisième de cette trinité. Mais combien Dieu n'est-il pas au-dessus de toute association ! Ils verront bientôt que la trinité ne donne pas la force et que le grand nombre des dieux n'est d'aucune utilité, puisque c'est une illusion. C'est Dieu l'unique qui donne la victoire à celui qui croit à son unité : il est le clément, le miséricordieux, c'est lui qui aide, il est secourable, il donne de la force aux justes qui croient en son unité, il détruit et anéantit

---

[1] Terraneh fut en effet la première étape (DE LA JONQUIÈRE, V, p. 336-337). Il faut donc corriger l'énigmatique « Tonna » de Desgranges (p. 137).

On lit ce document dans DJABARTI, III, p. 75-76 ; trad., VI, p. 146-147 ; HAIDAR CHIHAB, II, p. 275-276 ; CHAUVIN, *La Légende égyptienne de Bonaparte,* p. 18-20.

des vaisseaux qui la composaient. Les Turcs avaient attaqué et pris la forteresse d'Aboukir, gardée par une centaine de soldats. Bonaparte prenait son repas au moment où ces nouvelles lui parvenaient : il se leva précipitamment de table et fit prévenir tous les généraux de division, dont le général Murat, ce guerrier intrépide. Puis il partit pour Alexandrie à l'insu de la population. Arrivé à Rosette, il envoya des instructions à Damiette pour le général Kléber, lequel achemina son corps d'armée sur Alexandrie par la route de Borollos [1].

Ainsi la flotte ottomane avait paru devant Aboukir et enlevé le fort, après avoir exterminé une partie de la garnison et fait prisonniers les survivants : un petit nombre avait réussi à s'échapper. L'armée ottomane s'installa sur la plage et éleva des retranchements défendus par quatre-vingts canons lourds : il y avait bien là vingt-cinq mille hommes, commandés par le général Moustafa pacha Keusè, accompagné de son fils et d'Othman hodja le Crétois [2], ancien Douanier de Rosette pour le compte de Mourad bey. Dès leur débarquement, les Turcs envoyèrent dans toutes les régions de l'Égypte des firmans incitant la population à se soulever contre les Français ; ils firent venir quelques cheikhs bédouins, les revêtirent de pelisses et leur firent des promesses alléchantes. Finalement ils s'établirent solidement devant Alexandrie. Aussi lorsque Bonaparte arriva à Rahmanieh, près de Rosette, il adressa au divan du Caire la proclamation suivante :

« Il n'y a de divinité qu'Allah ; Mahomet est l'Envoyé de Dieu, que Dieu lui accorde bénédiction et salut ! Voici ce que nous faisons savoir à l'assemblée du divan du Caire, (55) dont les membres ont été choisis parmi les meilleurs, les plus sages et les plus prudents, que le salut, la miséricorde et les bénédictions de Dieu soient sur eux ! Amen !

« Après vous avoir présenté nos nombreuses salutations et exprimé notre désir de vous revoir bientôt, nous vous annonçons, membres honorables et considérés du divan, que nous avons fait camper une

---

[1] Voir de la Jonquière, V, p. 327. — [2] Voir Martin, I, p. 178.

dites pas que la révolte est un moyen de glorifier la parole de Dieu : puisse-t-il vous préserver d'une pareille croyance ! La rébellion ne peut amener que l'anéantissement total, le carnage, l'avilissement de la nation du Prophète, sur lui soit le salut !

« Les Mamlouks et les Arabes ne cherchent qu'à vous séduire et à vous égarer pour vous faire du tort et vous piller. Lorsqu'ils étaient ici et qu'ils ont vu les Français s'avancer, n'ont-ils pas pris la fuite, comme autrefois les troupes du Diable ?

« Le général en chef [1], à son arrivée au Caire, a déclaré à tous les membres du divan, petits et grands, qu'il aimait la religion de l'islam, honorait le Prophète, — sur lui soit le salut ! — respectait le Coran, en faisait une lecture approfondie chaque jour. Il a ordonné de maintenir les rites observés dans les mosquées, a maintenu les revenus des wakfs sultaniens, a conservé les institutions des milices et a mis tous ses soins au ravitaillement de la population. Considérez donc ces faveurs et ces avantages qu'il vous a accordés par amour de notre Prophète, la plus noble des créatures. Il nous a fait savoir qu'il bâtirait au Caire une grande mosquée qui n'aura point d'égale au monde, puis qu'il se convertirait à la religion du Prophète l'Élu, pour lui soient les plus ferventes prières et le salut ! »

Le saiyid Khalil Bekri, syndic des chérifs.
Le pauvre Abd-Allah Charkaoui, président du divan.
Le pauvre Mohamed Mohdi, secrétaire général.
Le pauvre Moustafa Saoui, garde des sceaux.
Le pauvre Solaiman Fayoumi, garde des sceaux.
(54) Ali kyahya, doyen des janissaires.
Yousouf, officier d'état-major du corps des fusiliers.
Le saiyid Ahmed Mahrouki.

« Imprimé à l'Imprimerie franco-arabe en la ville du Caire la bien gardée. »

Sur ces entrefaites arriva d'Alexandrie un courrier monté sur dromadaire, apportant une lettre adressée au général en chef Bonaparte, dans laquelle on lui annonçait l'arrivée de la flotte ottomane, ainsi que le nombre

---

[1] Chauvin, *La Légende égyptienne de Bonaparte*, p. 18.

détruisit cette forteresse formidable, dont il ne reste plus pierre sur pierre, au point que l'on peut dire : Ici il y avait une ville. Depuis vingt ans Djezzar travaillait à la consolider et pour ces fortifications il avait tyrannisé des populations entières. Ainsi finissent les édifices fondés par les tyrans.

« Lorsque les troupes que ce pacha avait fait venir de tous côtés marchèrent contre le général en chef, elles furent toujours honteusement défaites. Maintenant leur trace a disparu, comme si la foudre du ciel était tombée sur elles. En vérité les Syriens confirmeront mes paroles.

« Cependant deux motifs engagèrent le général à retourner vers l'Égypte la bien gardée : le premier était la promesse qu'il nous avait faite de revenir parmi nous dans quatre mois, et, pour l'homme d'honneur, toute promesse est une dette ; le second fut la nouvelle qui lui parvint que certains hommes corrompus, Mamlouks et Arabes, cherchaient pendant son absence à fomenter des troubles et des séditions dans les villes et les provinces d'Égypte. Mais à son arrivée, ils se sont dissipés, tels les nuages au milieu du jour quand le soleil resplendit. Il emploiera soir et matin son zèle éminent et ses hautes qualités à faire cesser les maux et les injustices qui pèsent sur le peuple. Il est dévoué au Caire et à l'Égypte d'une façon qui tient du prodige et ne songe qu'au bonheur du peuple. Il veut l'amélioration du cours du Nil et de l'agriculture, (53) il y consacrera ses pensées et ses soins attentifs ; il sera bienveillant envers les gens bons et soumis ; il désire enfin faire fleurir les arts et l'industrie.

« Il a ramené de Syrie des prisonniers de distinction et d'autres de moindre importance, des canons et des drapeaux pris dans les combats contre l'ennemi. Deux fois malheur à ses ennemis, et tout le bien désirable à ceux qui l'aiment !

« Serviteurs de Dieu, soumettez-vous à ses jugements divins et agréez ses décrets, car il est le maître de la terre. Acceptez ses décisions, car le pouvoir lui appartient et il le donne à qui bon lui semble parmi ses créatures. Voilà ce qu'est la foi en Dieu. Ne soyez pas l'occasion de l'effusion de votre propre sang et du déshonneur de vos femmes ; ne soyez pas cause du meurtre de vos enfants et du pillage de vos biens. N'écoutez pas les propos de ces Mamlouks menteurs et poltrons. Ne

crièrent : Sauve qui peut ! Ils avaient en effet essuyé des pertes considérables : ils étaient environ trois mille. Les Français prirent le fort d'el-Arich et s'emparèrent des approvisionnements de Djezzar.

« Puis le général marcha sur Gaza, dont la garnison se sauva comme des oiseaux ou des souris qui essaient d'échapper au chat. En entrant dans cette ville fortifiée, il fit publier une amnistie générale pour les habitants, rétablit le culte musulman, et traita avec distinction les ulémas, les commerçants et les notables. De là il se transporta à Ramleh (52), où se trouvaient déposées des provisions de biscuit, de riz et d'orge ; il y trouva aussi plus de deux mille outres pour le transport de l'eau, que Djezzar avait fait préparer pour son passage en Égypte : mais le destin lui fut contraire.

« Le général en chef se rendit ensuite à Jaffa, qu'il assiégea pendant trois jours. Il s'en empara ainsi que de toutes les provisions que Djezzar y avait accumulées. Les habitants de cette ville, aveuglés par leur méchanceté, repoussèrent le pardon qu'il leur offrait et, méconnaissant ses bienfaits, ne voulurent pas se ranger sous sa protection. C'est alors qu'outré de colère et usant de sa force et de sa puissance, il ordonna de les passer au fil de l'épée. En conséquence, après la démolition des remparts, plus de quatre mille de ces malheureux furent exterminés. Cet événement fut l'ouvrage de Dieu, lui qui dit aux choses : *Soyez, et elles sont* [1]. Cependant il traita honorablement les Égyptiens qui se trouvaient dans la ville, leur fit donner des vivres et des vêtements, et les fit conduire sur des bâtiments, avec des gardes pour les protéger des Arabes, non sans les avoir comblés de cadeaux. Il y avait dans Jaffa plus de cinq mille hommes de troupes de Djezzar ; ils périrent tous, et bien peu se sont sauvés par la fuite.

« L'armée française se dirigea ensuite sur la montagne de Naplouse : là, les troupes de Djezzar furent défaites de nouveau, dans un endroit nommé Kakoun, et cinq villages de ce district furent livrés aux flammes. Ce que Dieu a décrété arrive infailliblement : gloire à celui qui détient tout pouvoir, le vivant, l'immuable.

« Le général en chef abattit enfin les murs de Saint-Jean-d'Acre et

---

[1] *Coran*, II, 111.

(51) « Nous avons appris qu'Elfi était allé dans la Charkieh, suivi de mauvais sujets des tribus arabes de Bali et d'Ayayideh, de vils fauteurs de troubles, qui ne cherchaient qu'à semer le désordre et à piller les biens des musulmans, mais *ton Seigneur est sans cesse en observation*[1]. Ils fabriquent, pour les fellahs, des lettres fausses et tendancieuses dans lesquelles ils prétendent que les armées du sultan sont en route ; la vérité est que rien n'annonce leur approche et que cette nouvelle est sans fondement, qu'on n'en trouve même pas trace. Ils n'ont qu'un désir : causer du tort aux personnes ou aux biens. C'est ainsi qu'agissait Ibrahim bey à Gaza lorsqu'il envoyait des firmans remplis de mensonges et de faits controuvés, en les mettant sur le compte du sultan. Les campagnards, faibles d'esprit, y ajoutaient foi, sans mesurer les conséquences ; ils sont tombés dans le malheur. Les peuples de la Haute Égypte ont chassé les Mamlouks de leur pays ; ils les redoutaient pour eux-mêmes, leurs femmes et leurs enfants, car avec le criminel on arrête aussi les voisins. Dieu réserve sa punition aux tyrans, et nous voulons nous mettre à l'abri de la colère du Dieu vengeur.

« Les habitants de la Haute Égypte ont agi en cela avec plus de discernement que ceux du Delta, parce qu'ils ont tenu compte de cette sage opinion.

« Nous vous annonçons aussi qu'Ahmed pacha, surnommé Djezzar, le *Boucher,* à cause de la grande quantité de personnes qu'il a fait périr, sans distinction des bons et des méchants, avait rassemblé des bandes nombreuses de l'armée ottomane, de Mamlouks, d'Arabes, du bas peuple des tribus. Son intention était de s'emparer du Caire et des provinces de l'Égypte. Tous ces hommes ne se sont réunis sous ses drapeaux que pour se livrer au pillage et déshonorer les femmes. Mais les arrêts du ciel ne leur ont pas été favorables. Dieu fait ce qu'il veut et réserve à son choix ses faveurs cachées ; la parole doit être conforme à la pureté de l'intention.

« Djezzar avait envoyé une partie de ses troupes au fort d'el-Arich, dans le but de prendre Katieh. Mais Son Excellence le général en chef de l'armée française mit en déroute les soldats de Djezzar et ceux-ci

[1] *Coran,* LXXXIX, 13.

« Donner un conseil est un acte religieux.

« Le Très-Haut dit dans le Coran, dont les sentences ne sont pas ambiguës : *Ne marchez point sur les traces de Satan*. Il dit encore : *N'obéissez pas à ceux qui se livrent aux excès, qui répandent la corruption sur la terre et ne l'améliorent pas* [1]. Le sage doit prévenir le mal avant qu'il n'arrive. Peuple musulman, n'écoutez pas les imposteurs, pour ne pas avoir à vous repentir de vos actes.

« Le commandant des troupes françaises, Son Excellence le général Bonaparte, l'ami de la nation musulmane, est arrivé dans la ville du Caire la bien gardée et la bien défendue. Il avait campé avec son armée à Adilieh, après avoir échappé aux dangers et aux maladies, en rendant grâce à Dieu et en reconnaissant l'unité de ce Seigneur très savant. Il est entré au Caire par la porte Bab el-Nasr le vendredi 10 du mois de moharram sacré de l'année 1214 de l'hégire de Mahomet — sur lui soit le salut ! — (14 juin 1799), avec un cortège immense et magnifique, dans une pompe pleine de grandeur et de majesté. Outre un nombre considérable de troupes, on voyait à sa suite les ulémas d'el-Azhar, les seigneurs de la famille de Ouafa et de Bekri, les chefs des confréries Ananieh, Damourdachieh, Ahmedieh, Khodairieh, Rifa'ieh, Kadirieh, les sept colonels des corps de la milice sultanienne, les chefs de service des bureaux administratifs et les principaux commerçants du Caire. Ce fut un jour mémorable et splendide et jamais l'on n'avait vu jadis pareille solennité. Tous les habitants du Caire sortirent à sa rencontre et reconnurent que c'était bien le général en chef lui-même, Bonaparte en personne. Il leur a montré que des mensonges avaient été proférés sur son compte. Dieu a rempli son cœur de sentiments favorables à l'Islam et a jeté sur lui des regards de bonté.

« Ceux qui avaient répandu de fausses nouvelles sur lui sont de vils Arabes et des Mamlouks qu'il a forcés de prendre la fuite. Leur dessein, en propageant ces mensonges, était de faire massacrer le peuple, d'anéantir la nation musulmane et de faire vider les caisses de l'État, car ils sont les ennemis de la tranquillité publique. Mais Dieu a détruit leur puissance à cause de la violence de leur tyrannie, et sa justice s'appesantit, terrible.

---

[1] *Coran*, II, 163 ; XXVI, 151-152.

— Puisses-tu conserver la vie! répondirent les assistants. Tu es vraiment Bonaparte en personne.

Le général passa ensuite dans son cabinet particulier et montra aux conseillers un message : «Voici, leur dit-il, un texte français que je vous prie de traduire en arabe. Il sera imprimé et affiché dans les rues du Caire, pour que toute la ville sache que Bonaparte est en bonne santé, qu'il n'est point mort, qu'il est parfaitement en vie, qu'il vient de conquérir de nouvelles contrées et de remporter de nombreuses victoires.» Les membres du divan prirent le document et souhaitèrent à Bonaparte le succès de sa glorieuse mission. Par leurs soins, il fut traduit en arabe, imprimé et affiché dans les rues du Caire pour informer la population que Bonaparte n'était pas mort et qu'il venait de remporter d'éclatantes victoires. C'était de cette façon qu'il communiquait les nouvelles dont il désirait la diffusion parmi tous les habitants de l'Égypte : on traduisait ses proclamations en arabe, on les faisait imprimer et distribuer aux chefs de quartiers, par les soins desquels elles étaient apposées sur les murs.

Le général avait apporté de Paris et de Rome des caractères typographiques, qui permettaient des impressions en cinq langues, arabe, française, italienne, grecque et syriaque. En Égypte, on fit fondre des matrices de caractères de style persan pour imprimer des livres et documents turcs. Bonaparte avait amené avec lui des spécialistes de Rome qui savaient employer ces caractères.

La proclamation dont nous venons de parler fut donc imprimée et placardée dans les rues après son retour de Syrie. En voici le texte [1] :

(50) République française.

«De la part de l'assemblée du divan particulier de la ville du Caire la bien gardée aux habitants des provinces de Charkieh, de Gharbieh, de Menoufieh, de Kalioubieh, de Guizeh et de la Béhéra.

---

[1] «Cette proclamation, d'un style assez curieux, existe, aux Archives de la Guerre, en placard, non daté, imprimé au Caire» (de la Jonquière, IV, p. 627, n. 1). On en trouve une traduction dans Martin, I, p. 322 ; *Histoire scientifique*, VI, p. 9. Voir : Djabarti, III, p. 70-72 ; trad., VI, p. 136-139 ; Haidar Chihab, II, p. 269-272.

quittant Jaffa, les Français emmenèrent les blessés et les malades : chacun d'eux fut attaché sur une civière, que quatre prisonniers portaient sur leurs épaules ; le convoi d'invalides ouvrait la marche. Au moment du départ de Jaffa, Bonaparte fit arrêter le saiyid Yahya, mufti de la ville, Gumuch Hosein et Djoum'a Manakhili, ainsi que trois négociants de Jaffa, pour leur imposer une amende ; devant leur refus, il les garda prisonniers. A Gaza, le général en chef prit ses dernières dispositions. Le commandant de la ville, avant de partir, condamna aussi à une contribution cinq commerçants, lesquels furent emmenés prisonniers parce qu'ils n'avaient pas pu s'acquitter sur l'heure. A el-Arich, on laissa tous les malades, puis l'armée poursuivit son chemin jusqu'à Katieh, précédée des prisonniers ottomans à pied. Des habitants de Safed avaient suivi l'armée française. Le général Bonaparte tint là un conseil de guerre : le général Kléber reçut l'ordre de conduire sa division à Damiette avec ce groupe de Safed, et Bonaparte partit pour le Caire. Cette retraite avait duré quatorze jours, dans des conditions extrêmement pénibles, avec des privations de toutes sortes ; l'armée française avait perdu cinq mille hommes, tués au siège de Saint-Jean-d'Acre, victimes de la peste ou morts de maladies.

(49) L'armée française, en tête de laquelle chevauchait le général Bonaparte, fit son entrée au Caire le 10 moharram 1214 (14 juin 1799). Ce fut une manifestation triomphale à laquelle participèrent tous les notables de la capitale, les ulémas, les négociants, les cheikhs, les colonels des corps de la milice, en général toute la population, ainsi que la garnison française de la ville, venue à la rencontre de cette armée. Ce fut un cortège somptueux, de quoi provoquer la jalousie d'un lion.

Après sa réinstallation, Bonaparte réunit l'assemblée générale du divan :

— J'ai appris, déclara-t-il, que des ennemis avaient répandu le bruit de ma mort [1] ; regardez-moi bien et assurez-vous que je suis réellement Bonaparte.

---

[1] Le général Dugua avait informé Bonaparte que ce bruit courait en Égypte (DE LA JONQUIÈRE, V, p. 45 ; DJABARTI, III, p. 72 ; trad., VI, p. 139).

Sur cette entrée triomphale, voir DE LA JONQUIÈRE, IV, p. 625-626.

Boutros Bockty [1], syrien d'origine, était né en Égypte et avait été élevé en France. Ces lettres rendaient compte de l'inconcevable anarchie qui accablait la France depuis son départ, elles annonçaient que l'empereur d'Autriche, à l'instigation du tsar de Russie, avait de nouveau déclaré la guerre, qu'il avait mobilisé des troupes considérables, à l'aide desquelles les territoires naguère conquis par les Français avaient été repris. L'Italie s'était encore une fois soulevée et avait chassé les garnisons françaises. S'il ne revenait pas bientôt, et il y avait urgence, la France allait être envahie. C'étaient les Anglais qui excitaient les deux empereurs, ainsi que le gouvernement ottoman.

Dans l'intervalle, les Français avaient intercepté un vaisseau ottoman, où ils saisirent une correspondance. Des Grecs qui se trouvaient à bord firent connaître qu'une escadre ottomane, forte de cent quatre-vingts voiles, cinglait vers Alexandrie.

(48) Les nouvelles de Paris, les informations des Grecs et la longueur du siège de Saint-Jean-d'Acre inquiétèrent terriblement le général en chef. Dans la nuit du 11 dhoul-hidjdja de l'année 1213 (16 mai 1799), il donna les ordres de repli, et le lendemain de bonne heure, toute l'armée française arrivait à Haïfa. On y incendia d'immenses dépôts de coton appartenant à Djezzar. De Haïfa elle alla passer la nuit à Tantourah, puis parvint à Jaffa : elle emporta les approvisionnements qu'elle y avait entreposés, mais l'on enterra les canons dans les sables. Les quatorze mille fusils pris aux Ottomans furent jetés à la mer. Le stationnaire ottoman, vaisseau de fort tonnage, fut incendié, ainsi que deux autres bâtiments qui étaient mouillés dans le port : les deux cent soixante-dix hommes d'équipage du navire turc furent conduits en captivité. En

[1] Voir sur cet individu mystérieux : DE LA JONQUIÈRE, V, p. 22, n. 2, 666-668. C'est probablement le « Barbaki » de l'*Histoire scientifique,* VI, p. 260.

C'est par ce dernier détail que l'on comprend la réflexion de Maxime Du Camp (*Souvenirs d'un demi-siècle,* II, p. 282, n. 1) : « Le général était fils de ce Bourbaki, capitaine d'une felouque grecque, qui partit de Marseille pour aller en Égypte porter à Bonaparte la lettre par laquelle Joseph, futur roi de Naples et d'Espagne, l'engageait à rentrer en France et à s'emparer d'un pouvoir que le Directoire avait avili. »

méfaits. Vous voyez bien que personne n'est venu à votre secours depuis votre arrivée en ces contrées. Tant que nous serons là, nous interdirons à quiconque de vos compatriotes de venir à votre aide. Vous êtes condamnés à mourir ici, si vous continuez à obéir à vos chefs rebelles. Si vous tenez à la vie, exigez la fin de cette guerre et n'écoutez plus les ordres de votre général en chef qui commande à tous ces officiers félons. Si vous réussissez à vous soustraire à l'obéissance de vos généraux, nous vous rapatrierons en toute sécurité.»

Tel était le message que les Anglais faisaient répandre en avant des lignes françaises au moment des assauts. Cela les impressionnait vivement, car ils constataient que c'était pure vérité : chaque fois que les Anglais pouvaient se mettre en travers de leur route, les Français n'avaient aucun succès.

(47) Les Français persistèrent à combattre et à monter à l'assaut jusqu'à l'épuisement : leurs pertes avaient été d'environ trois mille cinq cents soldats. Le général Kléber reçut enfin les instructions suivantes : «L'assaut dirigé par le général Kléber sera le dernier.» Les troupes se précipitèrent donc contre les remparts et une mêlée d'une violence inouïe s'engagea, de quoi faire blanchir la chevelure des petits enfants. Les Français réussirent à franchir l'enceinte et parvinrent jusqu'à la grande mosquée; mais ils virent que les marchés, les rues et les ruelles étaient protégés par des murs; on tirait sur eux du haut des terrasses, on leur jetait des projectiles divers, on les arrosait de linges saturés de poix et de goudron auxquels on avait mis le feu. Les soldats français ne purent tenir en ville et battirent en retraite. L'armée des assiégés fit d'ailleurs des sorties et, de leur côté, les Anglais agissant de même, allèrent attaquer les Français sur la plage. Les Anglais eurent à déplorer la mort d'un de leurs commandants, un neveu du général Smith, perte qui les affigea énormément. Le camp des Français fut cette nuit-là soumis à un bombardement intense. Les Français étaient restés devant Saint-Jean-d'Acre soixante jours.

Dans la dernière période du siège, au mois de dhoul-ka'da de l'année 1213 (mai 1799), un petit brick était arrivé de France à Alexandrie, ayant à bord une personne venant de Paris, qui apportait des dépêches écrites par des amis de Bonaparte. Cet homme, nommé

les rangs des artilleurs pour leur indiquer les points où ils devaient diriger le tir des canons et des mortiers, car telle était sa fonction. Il n'avait plus qu'une jambe et un bras. Sa blessure enfla rapidement par l'action du soleil, mais un autre boulet l'atteignit en pleine poitrine et le tua. La mort d'un homme de cette trempe fut une perte pour la République française.

On eut aussi à déplorer la mort de l'interprète du général en chef, Venture[1], lequel connaissait l'arabe et bien d'autres langues : il périt de maladie.

Les blessés français étaient envoyés à Chafa-Amr, à Haïfa et au couvent de Saint-Elie au Carmel : ils furent très nombreux. Ils étaient soignés par les chirurgiens : (46) ceux qui mouraient étaient enterrés sur place ; les blessés guéris étaient renvoyés au camp ; les amputés étaient concentrés à Tantourah, d'où ils étaient évacués par mer sur des barques à Jaffa et de là sur des corvettes jusqu'à Damiette.

C'est alors que la peste éclata à Jaffa, causant des ravages parmi la population et les Français.

Nous avons relaté les multiples assauts livrés à Saint-Jean-d'Acre. Au cours de l'un des derniers, les Français trouvèrent des proclamations affichées aux portes de la ville et des remparts, tandis que d'autres étaient lancées en avant des lignes. Ces avis étaient rédigés en français. En voici le texte, d'inspiration anglaise[2] :

« Français, on vous a induits en erreur et surpris votre bonne foi. On vous a précipité dans un abîme de dangers en vous faisant miroiter la conquête de ce territoire et en vous laissant croire que vous recevriez des renforts de votre pays. Vous obéissez à des officiers qui sont des généraux rebelles, exilés par la République française en ces régions lointaines pour qu'ils y périssent et pour se mettre à l'abri de leurs

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 68 ; trad., VI, p. 132 ; *Histoire scientifique*, V, p. 328 ; Dehérain, p. 421 ; Guémard, *Histoire et bibliographie*, p. 18-19.

[2] Voir le texte authentique dans Martin, I, p. 310 ; *Histoire scientifique*, V, p. 392 ; de la Jonquière, IV, p. 515, 527, 529 ; Dehérain, p. 423-424. — Voir Ghorbal, p. 88-89 ; Charles-Roux, *L'Angleterre et l'Expédition française*, I, p. 213 ; II, p. 20.

Djezzar gouvernait la ville, il avait construit des redoutes, des bastions, des forts, installé de l'artillerie, empilé des munitions : la ville était devenue ainsi une citadelle inexpugnable. Sa résistance s'augmentait du fait de la présence de vaisseaux anglais dans son port. Dans les moments où les Français partaient à l'escalade, ils étaient foudroyés par (45) les boulets et les bombes qui partaient des bastions, des forts, des remparts et des vaisseaux anglais. C'est pourquoi les assauts répétés, que les Français livrèrent et qui les menèrent jusqu'aux remparts, furent toujours repoussés par des volées de mitraille, qui arrêtaient les assaillants et leur causaient des pertes terribles. C'est ainsi que fut tué le général Bon. Ce vaillant guerrier, renommé par ses actions d'éclat sur les champs de bataille, était court et corpulent, avec une poitrine proéminente comme une cuirasse, et il avait sur la poitrine une veine saillante de la grosseur d'un orteil. Ce général avait escaladé le rempart en un point où les balles ne pouvaient le toucher : on lui jeta de grosses pierres, dont l'une l'atteignant à la tête le fit dégringoler. Ses hommes l'emportèrent, mais il mourut en route [1]. Le brave général du génie Caffarelli, dit Jambe-de-bois [2], reçut un boulet à l'épaule : il tomba et fut emporté. Les chirurgiens commençaient à le panser lorsqu'il leur dit :

— Cette blessure mettra-t-elle longtemps à guérir?

— Assez longtemps, lui fut-il répondu.

— En ce cas, je préfère me lever au plus vite me battre pour l'amour de la République.

— Il faut donc amputer le bras.

— Alors, faites, que je puisse au plus tôt reprendre mon service.

Ils l'amputèrent et, deux jours plus tard, on le voyait s'affairer devant

---

[1] Le général Bon, qui aurait été blessé d'une balle au bas-ventre, est mort le premier jour de la retraite, à Athlit, où l'armée arriva le 21 mai 1799, vers midi (*Histoire scientifique,* V, p. 388 ; de la Jonquière, IV, p. 525, 549, 595, n. 1 ; Haidar Chihab, II, p. 266).

[2] Voir sur Caffarelli : Djabarti, III, p. 30, 58, 68 ; trad., VI, p. 65-66, 118, 133-134 ; Dehérain, p. 421 ; Guémard, *Histoire et bibliographie critique,* p. 12-14 ; Haidar Chihab, II, p. 265.

et le général Murat regagna le camp français de Saint-Jean-d'Acre.

Peu après ce fut le tour de la ville de Tibériade, pleine des troupes de Djezzar. Le général (44) Junot [1], accompagné des fils de Daher Omar, les nommés Abbas et Salih, y partit à la tête de trois cents cavaliers. Lorsque ceux-ci arrivèrent à Chagarah, les deux mille hommes de la garnison de Tibériade sortirent pour les attaquer. Dès qu'il en fut certain le général Junot se prépara à combattre et, à la suite d'une violente bataille, il culbuta les forces ennemies. Ce guerrier intrépide s'était battu avec un cavalier du corps des Délis et lui avait asséné sur les épaules un tel coup de sabre qu'il l'avait coupé en deux, sur son cheval. Le corps de cavalerie français continua à exterminer les fuyards, affolés et exténués : ceux-ci, dépassant le village de Loubia, ne s'arrêtèrent qu'à Tibériade, où ils purent fermer l'œil pour la première fois. Le lendemain, de bonne heure, les troupes de Djezzar se sauvaient à Damas, tant la peur les dominait encore. La nouvelle en parvint le surlendemain au général Junot, lequel, apprenant ainsi que la garnison de Tibériade avait abandonné cette ville, s'empressa de l'occuper sans coup férir : il fit main basse sur les magasins de vivres qui s'y trouvaient, soit mille charges de blé, six cents de maïs, quatre cents d'orge, et une petite quantité de vieux cuivre. Il envoya un bordereau détaillé au général Bonaparte, et ce dernier donna l'ordre de faire moudre le blé et le maïs et d'en expédier la farine à l'armée. Le général en chef avait installé son camp face à Saint-Jean-d'Acre, à Abou Otba, où des maçons avaient construit vingt fours, ce qui permettait de pétrir et de cuire le pain sur place, de distribuer aux troupes les rations habituelles; ce fut pour elles une bénédiction, car elles avaient manqué de leur pain national.

Les jours passaient, les Français continuaient le siège de Saint-Jean-d'Acre et, malgré de nombreux assauts et de sanglants combats, ils n'avaient obtenu aucun résultat. Ils commençaient à s'épuiser sous les murs de cette cité inaccessible. Depuis vingt-cinq ans qu'Ahmed pacha

---

[1] C'est à cause de son manuscrit que Desgranges a été amené à voir ici le général Menou (de même dans Haidar Chihab, II, p. 263, 265). Cf. Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* IX, p. 7.

de la ville de Safed. Celui-ci réunit une cinquantaine d'hommes et se mit en route : à son approche, la population chassa la garnison de Djezzar qui occupait la forteresse et la lui livra, parce qu'il était un de leurs concitoyens et non un étranger.

Cinq jours plus tard, il était attaqué par une armée de (43) deux mille cavaliers, venant de Damas, commandée par un certain Ibn Akil, laquelle, après avoir passé par le Pont de Banat Yakoub, arriva à Safed : elle pénétra en ville, pilla le quartier juif et quelques demeures particulières, et mit le siège devant la citadelle. Comme Moustafa Béchir ne disposait pas d'une troupe importante pour se défendre, il s'enferma avec ses cinquante hommes dans la citadelle. Les combats commencèrent et les troupes de Damas livrèrent un assaut général, d'une rare violence : les assaillants furent accueillis par un feu d'enfer qui leur causa des pertes sensibles. Un des défenseurs, se laissant glisser par une fenêtre, s'élança sur les assaillants et, se précipitant sur un porte-étendard, le tua et lui enleva son drapeau : il revint vers la citadelle où ses camarades le hissèrent à l'aide d'une corde. Lorsque Bonaparte fut au courant des mouvements de cette armée, il envoya le général Murat à la tête de cinq cents cavaliers : celui-ci se dirigea en toute hâte vers Safed. Les troupes de Syrie n'attendirent pas l'arrivée des Français, abandonnèrent Safed et battirent en retraite vers le Pont de Banat-Yakoub. Arrivé à Safed, le général Murat s'enquit de l'armée de Syrie et, comme on l'informait qu'elle était partie en direction du Pont de Banat-Yakoub, il y courut, mais il n'y trouva personne, l'armée ayant regagné la banlieue de Damas. Le général s'établit au Pont de Banat-Yakoub. Moustafa Béchir sortit de la citadelle, toujours aux mains de sa garnison, et emmena au camp du général en chef l'homme qui avait pris un drapeau pour lui signaler cet acte de bravoure. Il fut introduit chez le général Bonaparte, qu'il salua et à qui il conta l'histoire en présentant l'homme et le drapeau que celui-ci avait conquis avec tant de vaillance. Bonaparte fit allouer à cet homme trente écus de gratification. Moustafa Béchir reçut l'ordre de former un corps des paysans de la région, qui recevraient une solde : celui-ci repartit pour la montagne de Tor Chiha, où il recruta trente hommes auxquels il promit une paie de trente pièces d'argent. Il les emmena au Pont de Banat-Yakoub, dont ils assumèrent la garde,

Nazareth et logea dans le couvent des Francs : il y était arrivé dans l'après-midi, y prit un repas que lui offrit le prieur du couvent, et au coucher du soleil se remit en route pour regagner (42) le camp de Saint-Jean-d'Acre, qu'il atteignit à la quatrième heure de la nuit. Le général Kléber était resté sur place.

Tout l'ensemble de la Syrie, jusqu'à Alep même, était terrorisé, et la population, s'attendant à la chute de Saint-Jean-d'Acre, se disposait à faire sa soumission sans combattre.

Le général Bonaparte reçut alors la visite d'Abbas, fils de Daher Omar [1], l'ancien gouverneur de Saint-Jean-d'Acre avant Djezzar. Sa situation était devenue misérable et il errait de localité en localité, mendiant et vivant de la libéralité des cheikhs. Le général en chef le gratifia d'une pelisse, lui donna un sabre, une paire de pistolets, un uniforme, et lui fit verser mille deux cents écus de France. Par ordonnance, il le nomma cheikh des cheikhs du district de Safed. Quelque temps après il accueillit les cheikhs métoualis, exilés depuis vingt-deux ans par Djezzar et qui erraient aussi dans les montagnes et les déserts : le général en chef Bonaparte leur fit un accueil convenable, les revêtit de robes d'honneur et leur rendit l'autorité dont avaient joui leurs ancêtres dans le pays. Ils repartirent aussitôt et prirent possession de Tyr, des forteresses de Tebnin et de Hounin dans la montagne, ainsi que tous les châteaux de la contrée des Métoualis. Dès qu'ils furent installés, ces cheikhs invitèrent toutes les villes à ravitailler le camp des Français de tout ce dont ils avaient besoin, moutons, bœufs et pain, menaçant d'incendier les villages qui s'abstiendraient : de toutes parts arrivèrent des approvisionnements.

Le général en chef Bonaparte se fit amener un homme de la montagne de Tor Chiha, nommé Moustafa Béchir, qu'il revêtit d'une pelisse de fourrure : il lui donna l'ordre de rassembler des paysans et de s'emparer

---

[1] Cf. Volney, II, p. 84 et suiv.; Martin, I, p. 117, 118, 120, 121, 125; Djabarti, I, p. 413; II, p. 20; trad., III, p. 213, 214, 274; *Histoire scientifique*, II, p. 492, 499, 502, 504, 509; Hammer, XVI, p. 148, 150; Marcel, p. 231, 233, 236-238, 241, 242; Bréhier, p. 9-11; Charles-Roux, *Origines*, p. 73; Dehérain, p. 131, 132, 139, 140; *Précis*, III, p. 45-47.

chacun et la troisième de cinq cents. Il prit lui-même le commandement de l'un des groupes de mille hommes, avec une pièce d'artillerie. Le second corps de mille hommes devait suivre de loin, si bien que lorsque le premier arriva aux deux tiers de la vallée, le second n'avait accompli que le tiers du chemin. Le troisième, de cinq cents hommes, avec deux canons, avait reçu l'ordre de marcher au combat d'un autre côté, de façon à couper la retraite aux troupes musulmanes. Les différents corps se dirigèrent sur l'armée ottomane. Lorsque les Ottomans les découvrirent, ils furent pris de panique. Un commandant français fit tirer un coup de canon, signal auquel répondit Bonaparte par un autre coup, au moment où il se trouvait aux deux tiers de la vallée. Les Ottomans, affolés, commencèrent à prendre la fuite : voyant la déroute le commandant tira un second coup de canon, et ce fut une débandade générale ; les Ottomans s'éparpillaient de tous côtés, dans les montagnes et les vallées. Les Français qui assistaient de loin à la chose s'en réjouirent et poussèrent des éclats de rire, car il est dans les habitudes des Français, quand l'armée ennemie est battue, de la laisser fuir sans la poursuivre.

Après cette défaite de l'ennemi, le général Bonaparte alla rejoindre le général Kléber ; les deux généraux se jetèrent dans les bras l'un de l'autre et exprimèrent par des paroles joyeuses leur contentement. Or à ce moment arrivèrent les cinq cents soldats qui avaient été lancés sur le camp des Mamlouks : ils l'avaient entièrement pillé et en rapportaient un butin invraisemblable, des chameaux et des tentes. Ce fut encore une explosion de joie. Les Français passèrent la nuit dans la vallée. Le lendemain matin, cinq cents hommes furent envoyés à Genin, un des chefs-lieux de la montagne de Naplouse : la localité fut pillée et incendiée, avec d'autant plus de facilité qu'elle était vide d'habitants. Bonaparte ordonna au général Kléber d'aller saccager Taïbeh et d'en rapporter des moutons, des bœufs et des céréales, pour ravitailler la troupe. La raison en était que les cheikhs de cette ville n'étaient pas venus au devant de Bonaparte solliciter une sauvegarde. Bonaparte fit aussi brûler le village de Nourès, ainsi qu'un haut lieu nommé Ouazr[1]. Puis il alla à

---

[1] Je n'ai pas identifié cette localité : faut-il lire Ouarez, qui correspondrait au Houarez de la relation du lieutenant Laval? (Wiet, *Deux Mémoires*, p. 185.)

se montait à près de trente mille hommes, était donc venu camper sur le territoire de Mardj Ibn Amir. Dès qu'il en fut informé, le général Kléber marcha contre eux avec ses quinze cents soldats. Lorsque les Ottomans virent approcher les Français, ils allèrent de l'avant et s'installèrent en un point nommé Fouleh, où ils tentèrent d'encercler la troupe française. Le général Kléber divisa son armée en quatre corps, dont chacun fut muni de quatre pièces d'artillerie. C'est alors que l'ensemble des troupes syriennes passa à l'attaque et la bataille commença. Lorsque la population de Nazareth s'aperçut que le général Kléber était en très mauvaise posture, elle envoya prévenir le général Bonaparte. Ce dernier manda immédiatement le général Leturcq et lui donna l'ordre de rassembler en toute hâte trois mille hommes. En un clin d'œil cette troupe fut prête et se mit en route avec quatre canons. Elle arriva au vallon d'Obellin. Trois heures après leur départ, dans l'après-midi, le général Bonaparte prit son dîner, puis se mit en route dans la nuit avec deux cents cavaliers et rejoignit le gros de la colonne ; tous continuèrent à marcher et parvinrent à minuit à Bir el-Bedaouieh, puits où l'eau était abondante. Ils décidèrent de faire halte en cet endroit, mais comme ils n'avaient rien à manger, ils envoyèrent chercher des vivres dans la localité qui était en face d'eux, Safoureh : ils en rapportèrent du beurre, des bœufs et d'autres victuailles. Le lendemain, au matin, l'armée leva le camp et, prenant la route appelée el-Ghaba[1], parvint dans les parages de Mardj Ibn Amir et campa dans une localité nommée Sammouni. Elle chemina quelque temps dans cette région. Le général en chef Bonaparte[2] était grimpé sur un mamelon d'où il dominait la vallée et il aperçut le général Kléber, entouré de troupes ennemies, qui soutenait un violent combat. Bonaparte descendit aussitôt de la colline. Il avait identifié le camp des Mamlouks sur une autre montagne, appelée le Djebel el-Leggoun : ceux-ci avaient déposé en ce lieu toutes leurs subsistances. Or les Mamlouks combattaient dans la vallée à deux heures de là. Bonaparte détacha cinq cents soldats pour attaquer (41) ce camp, puis il divisa le reste de sa troupe en trois colonnes, deux de mille hommes

[1] A moins que l'on ne doive traduire : « la route forestière. »
[2] De la Jonquière a fait état de ce récit (IV, p. 423).

il ne cessait de témoigner aux Anglais des sentiments d'amitié à cause de leur ennemi commun. Dès qu'il avait eu connaissance du départ d'Égypte pour la Syrie du général Bonaparte, le général Smith avait concentré sa flotte à Saint-Jean-d'Acre. Il fit construire en ville des batteries et des centres de résistance nouveaux. Les Français, ayant dû emprunter la voie de terre, n'avaient pu emmener avec eux leurs canons lourds et n'étaient pourvus que d'artillerie légère : en effet la distance avait été trop longue, et la route d'Égypte à Gaza était particulièrement difficile à cause de l'abondance des sables et du manque d'eau. Aussi Bonaparte avait-il fait charger ses canons de siège, ses munitions et ses bombes de gros calibre sur trois bâtiments qui partirent de Damiette, mais ceux-ci avaient été arraisonnés par des vaisseaux anglais, qui s'en étaient emparés comme prise de guerre. Tel fut le premier obstacle des Français, dont l'énergie s'émoussa, et telle fut la principale raison pour laquelle la ville de Saint-Jean-d'Acre ne fut pas prise. Mais tous ces faits ne se sont déroulés que pour accomplir la volonté de Dieu.

Les Français étaient donc partis de Haïfa : ils arrivèrent en un point nommé le sanctuaire d'Abou Otba[1], en face de Saint-Jean-d'Acre, où ils établirent leur camp. Ils envoyèrent des émissaires à tous les cheikhs de la région en les priant de venir le trouver. Tous obtempérèrent, notamment les cheikhs de Chafa-Amr, de Nazareth et d'Obellin : le général Bonaparte leur promit toute sécurité, garantit leurs biens et les renvoya chez eux. Les généraux Kléber et Junot furent dirigés sur Nazareth, et un commandant fut désigné pour gouverner Chafa-Amr.

Voici maintenant les détails du siège de Saint-Jean-d'Acre par les Français depuis le 5 chaoual 1213 (12 mars 1799). Peu de temps après son installation à Nazareth, le général Kléber (40) apprit qu'à Mardj Ibn Amir s'étaient concentrées des troupes en provenance de Damas, composées de Haouaras, de Maghrébins, de Syriens et de janissaires ; il y avait aussi des Mamlouks d'Égypte, des Arabes bédouins et toute la population de la montagne de Naplouse. Ce contingent, qui

[1] Probablement l'endroit où campa plus tard Ibrahim pacha, orthographié Abou Hattabeh dans Weygand, II, p. 17, 25 ; Douin, *Conquête de la Syrie,* p. 121.

Enfin le carnage fut interrompu par ordre. Une garnison fut laissée dans la place et l'armée poursuivit sa route vers Saint-Jean-d'Acre pour aller combattre Djezzar, en empruntant le chemin de la montagne. Or les habitants de Naplouse et les troupes de Djezzar s'étaient embusqués dans une vallée sur le territoire de Kakoun, et, à l'arrivée des Français dans la plaine, un détachement d'environ cinq cents hommes fit des évolutions à l'entrée de la vallée ; c'était un piège pour attirer les Français en plaine et les massacrer. Mais le général en chef ne fut pas dupe de ce stratagème et divisa son armée en trois colonnes : deux gravirent les crêtes dominant cette vallée, et le troisième s'y engagea. Après des décharges d'artillerie, les soldats français dévalèrent des pentes et chargèrent les troupes musulmanes auxquelles ils tuèrent quatre cents hommes. Se voyant sur le point d'être cernées, les troupes musulmanes se débandèrent. Les Français, délivrés de toute inquiétude, continuèrent leur avance et passèrent la nuit en un point nommé Oyoun el-Asaouir ; le lendemain, ils arrivèrent au débouché du Ouadi el-Mélik, appelé aussi Mardj Ibn Amir [1].

Djezzar, à la nouvelle de leur approche, fit retirer les munitions entreposées à Haïfa et ramena en arrière les troupes qui s'y trouvaient. Lorsque les Français arrivèrent devant cette place, les habitants apportèrent les clefs des forts et de la ville au général en chef, qui les prit et accorda à la population toute sécurité : celle-ci ne fut donc pas molestée. Les Français, en entrant dans Haïfa, trouvèrent une petite embarcation montée par des Anglais : ils l'entourèrent par surprise et firent prisonniers les vingt hommes d'équipage.

Nous avons montré plus haut comment les Anglais avaient bloqué les embouchures du Nil. Le commandant (39) en chef anglais était le général Smith : c'était un homme d'une habileté consommée, un vaillant marin, d'une compétence universelle. Cet officier avait pendant tout ce temps passé ses jours et ses nuits à méditer sur les moyens de contrarier les efforts de ses ennemis les Français. Il était souvent venu à Saint-Jean-d'Acre pour conférer avec Ahmed pacha Djezzar : quant à ce dernier,

---

[1] Il sera question de ce point lors de la première campagne en Syrie d'Ibrahim pacha (Rustum, I, p. 175-176).

retour à leurs demeures. Le peuple du Caire s'était rendu en foule pour les voir : or, comme ils étaient juchés sur des ânes et que leurs uniformes étaient en loques, ces deux kachefs eurent honte de se donner en spectacle et en pleurèrent de rage. L'un d'eux, Ahmed kachef, en fut tellement impressionné qu'il mourut trois jours plus tard [1].

Après la capture de la forteresse d'el-Arich, l'armée française, laissant une garnison dans ce fort, poursuivit sa marche vers Gaza. Cette ville était occupée par un détachement de l'armée d'Ahmed pacha Djezzar, lequel abandonna la ville sans combat dès que les troupes françaises furent en vue. Les Français occupèrent Gaza et partirent dès le lendemain sur Jaffa. Or les soldats de la garnison d'el-Arich, à qui le général Bonaparte avait laissé la vie en leur faisant promettre de ne plus se battre, s'étaient joints à la garnison de Gaza, puis avec elle avaient reflué sur Jaffa. Ils fermèrent les portes de la ville, que les Français investirent, en attendant le général en chef. Il arriva quatre jours plus tard, s'informa du nombre des soldats défendant la ville et apprit qu'ils étaient environ huit mille. Il les somma à deux reprises de se rendre, mais les assiégés massacrèrent les parlementaires, à la suite de quoi le général en chef ordonna de bombarder la ville. Le feu commença à 3 heures du jour et se prolongea jusqu'à 9, et une brèche fut ouverte dans les remparts du côté du quartier des chrétiens. Le général en chef donna l'ordre d'assaut et les Français se précipitèrent d'un seul élan. Quel moment terrible et épouvantable ! Ils pénétrèrent dans la ville, où ils massacrèrent les troupes de la garnison et la population, pillèrent les maisons, s'emparèrent des femmes, violèrent les jeunes filles et égorgèrent les enfants : (38) Jaffa donna alors le spectacle de scènes d'horreur indescriptibles. C'était la nuit de la Fête de la rupture du jeûne (8 mars 1799). Les survivants furent amenés le lendemain au général en chef, qui ordonna de les exterminer, à l'exception de quelques Damasquins, Alépins, Arabes bédouins et Égyptiens ; tout le reste fut passé par les armes. Le pillage se prolongea pendant trois jours dans cette ville, qu'on abandonna comme une charogne d'âne.

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 46 ; trad., VI, p. 97 ; Haidar Chihab, II, p. 255.

Le général en chef somma la garnison de se rendre et, sur son refus, fit canonner la forteresse : celle-ci, qui avait des canons et une provision de poudre, riposta en tirant sur le camp des Français. Le siège se prolongea huit jours, puis les assiégés, manquant de poudre et de vivres, demandèrent à capituler : des parlementaires furent envoyés au général en chef Bonaparte pour demander l'aman, qui leur fut accordé sous condition qu'ils partiraient sans armes. Cette proposition ne fut pas acceptée et les parlementaires revinrent dans le fort. Les hostilités reprirent. Deux jours plus tard, Kasim bey, l'émir des deux mers[1], apporta de Gaza des approvisionnements à la forteresse. Il se tapit à une certaine distance, de façon à échapper à l'attention des Français ; il voulait profiter de l'obscurité de la nuit pour pénétrer dans la forteresse. Mais les Français, ayant découvert le détachement, se préparèrent à lui barrer la route ; ils l'attaquèrent pendant la nuit ; Kasim bey fut tué, ainsi qu'un certain nombre de kachefs et de mamlouks ; le reste prit la fuite et les Français recueillirent les chameaux et les vivres. Devant cet événement, les assiégés perdirent tout espoir et furent saisis de frayeur, mais ils ne pouvaient se résoudre à quitter la forteresse sans emporter leurs armes. Au quatorzième jour, ils tenaient toujours. Le général Bonaparte leur fit dire : «Livrez-moi la forteresse et conservez vos armes.» Le général jugeait qu'il ne pouvait ni prolonger ce siège (37) ni s'enfoncer en Syrie en laissant cette forteresse derrière lui. A la suite de cette garantie, les assiégés sortirent ; ils furent accueillis par le général en chef avec les honneurs de la guerre et purent partir où ils voulurent. Ahmed kachef et Ibrahim kachef sollicitèrent pour eux et une vingtaine d'hommes de leur suite l'autorisation d'aller retrouver leurs familles au Caire : cette permission leur fut accordée et ils furent mis en route sous la protection d'une escorte. Arrivés au Caire, ils furent conduits au général Dugua, qui leur ménagea un excellent accueil et les présenta au préfet, lequel à son tour se montra très conciliant et leur facilita le

[1] Dans ce manuscrit et celui de Desgranges (p. 78), ainsi que dans Haidar Chihab (II, p. 255) : Kasim bey le Moscovite. Or les autres documents précisent qu'il s'agit bien de Kasim bey émir des deux mers (Djabarti, III, p. 46 ; trad., VI, p. 96 ; Ali pacha, XIV, p. 45 ; de la Jonquière, IV, p. 167).

deux adversaires firent preuve d'une ardeur égale jusqu'au 5 ramadan de l'année 1213 (10 février 1799). C'est alors que le général Bonaparte fit partir son armée du Caire en direction d'el-Arich : elle comptait douze mille soldats, l'élite de son armée. Avant de quitter la capitale, il avait réuni les ulémas et les notables pour leur faire ses dernières recommandations sur la sécurité de la ville :

— J'ai fait choix comme intérimaire du général Dugua. Le général Destaing sera le préfet du Caire. Je leur ai donné l'ordre, au cas où, pendant mon absence, se produirait le moindre mouvement d'insubordination, comme cela a déjà eu lieu, de faire tirer tous les forts sur la cité, d'y mettre le feu et de passer tous les habitants au fil de l'épée.

— Général, répondirent les ulémas et les notables, nous sommes responsables sur nos têtes de tout événement de ce genre. Tu peux t'en aller tranquille et avoir l'esprit en repos à ce sujet.

Le général prit congé d'eux et partit. L'armée l'avait devancé sur la route de Syrie. Elle était commandée par ce grand chef, incomparable au combat, le général Kléber, le second en grade après Bonaparte ; il se trouvait alors à Damiette. Lors de la proclamation de la République qui suivit l'exécution du roi (36), il avait été, disait-on, le premier général en chef pendant les guerres européennes : c'était un homme d'une haute stature et d'une belle prestance, qui avait une voix de tonnerre. Cet officier partit en avant-garde et arriva à Katieh : de là les troupes se dirigèrent sur la forteresse d'el-Arich, mais elles s'égarèrent pendant trois jours, épuisèrent leurs approvisionnements et furent réduites à égorger les chevaux et les chameaux pour se nourrir ; finalement, elles trouvèrent la bonne route et parvinrent à el-Arich. Or un détachement s'en approchait à ce moment même apportant des subsistances au fort d'el-Arich. Lorsque le chef de ce convoi aperçut les troupes françaises, il prit la fuite en abandonnant sur place ces provisions, dont les Français s'emparèrent avec la plus grande joie, ce qui leur permit de boire et de manger. Le général Bonaparte arriva le quatrième jour et l'armée fut au complet devant le fort. La garnison était d'environ cinq cents hommes, et l'on y comptait Ahmed kachef le Grand, ancien mamlouk d'Othman bey Achkar, et son collègue Ibrahim kachef le Nègre ; il y avait encore d'autres mamlouks, des Seymens et des Arabes.

— J'ai à mon bord un ambassadeur du Gouvernement français qui demande à te voir.

— Quelles sont les personnes qui l'accompagnent?

— Il y a son interprète et deux négociants de ses amis, des Arabes.

— Fais descendre immédiatement du brigantin ces commerçants avec leurs effets. Puis transfère ce mécréant et son interprète sur une corvette et intime-lui l'ordre de retourner à son point de départ. S'il ne s'en va pas sur l'heure, je mettrai le feu à sa corvette.

Djezzar écumait de colère en disant ces mots. Le commandant revint informer le Français de cette décision, le fit embarquer sur une des corvettes libres et lui déclara : « Fais mettre à la voile sans délai.» Puis, s'adressant aux négociants : « Prenez vos effets, car je dois vous placer à la disposition de Son Excellence notre maître.» Le Français rentra donc à Damiette avec son drogman et les deux négociants restèrent à Saint-Jean-d'Acre. Ils furent immédiatement mis en prison : l'un d'eux se nommait Antoine Zogheb et l'autre, Hanna Atiya; tous deux furent mis à mort plus tard, sur l'ordre d'Ahmed pacha dans des circonstances que nous relaterons. Le général Beauvoisins, après avoir touché Damiette, rentra au Caire pour instruire le général en chef Bonaparte de ce qu'il avait vu. Le général en chef ne put maîtriser un violent courroux et, dès cet instant, il commença des préparatifs, rassembla des munitions et des approvisionnements, en un mot, prit tous les dispositifs voulus pour une invasion de la Syrie (35). Deux raisons avaient milité pour qu'Ahmed pacha Djezzar ne reçût pas cet ambassadeur : à ce moment même arrivaient au pacha des instructions du Gouvernement ottoman, l'invitant à se mettre en campagne contre les Français, nous l'avons noté au début de cet ouvrage; en second lieu, il n'y avait pas longtemps que le pacha avait expulsé de Saint-Jean-d'Acre le consul de France et avait décidé qu'aucun Français ne pourrait résider dans la ville; ce fut même, avait-on dit, un des motifs retenus par les Français pour descendre en Égypte.

Les Français mirent donc en train leur mobilisation et, de son côté, Ahmed pacha Djezzar, à la suite du renvoi de l'ambassadeur, ne resta pas inactif : il recruta des soldats, installa des tours de guet et envoya des hommes, des canons et des boulets à Jaffa et à Gaza, voire jusque dans la citadelle d'el-Arich, sur les confins de l'Égypte. Les

du reste du pays. On vit surgir dans les parages d'Alexandrie un maghrébin, le cheikh Mohammed [1], qui se prétendait descendant d'un sultan du Maghreb. Il se croyait doué de facultés surnaturelles et se voua à la guerre, après avoir rassemblé des bandes d'Arabes, de fellahs et de Maghrébins. Les Français se mirent à sa poursuite et, après une série de rencontres, accablèrent ses forces, qui se dissipèrent dans le désert : la région fut ainsi pacifiée.

A la fin du mois de safar (août 1798), au cours duquel il avait occupé le Caire, le général Bonaparte envoya une lettre à Ahmed pacha Djezzar par l'entremise d'un messager français nommé Beauvoisins [2], qui exerçait les fonctions de juge au Caire depuis l'occupation. Cet émissaire de Bonaparte se mit donc en route pour Saint-Jean-d'Acre. Il s'arrêta à Damiette pour conférer avec le général Vial, gouverneur de la ville : or il y avait alors à Damiette un brigantin appartenant à Ahmed pacha. Son commandant avait jeté l'ancre dans ce port avant l'arrivée des Français et n'avait pas eu l'autorisation de franchir la passe. Le général Vial fit venir ce commandant et lui ordonna d'appareiller : « Prends les dispositions voulues pour assurer la cargaison de ton bateau comme tu l'entends, car tu vas recevoir à ton bord le général Beauvoisins (34), qui est envoyé à Ahmed pacha Djezzar par le Gouvernement français pour conclure une alliance. » Ces ordres furent exécutés et le général Beauvoisins s'embarqua sur ce navire accompagné d'un interprète et de deux négociants de ses amis qu'il avait emmenés du Caire. Ils avaient emporté une abondante provision de riz. Ils partirent et mouillèrent dans le port de Saint-Jean-d'Acre, Djezzar fut tout heureux de voir revenir son brigantin. Le commandant Aidarousi descendit à terre et apporta au pacha une lettre du général Beauvoisins exposant les raisons de son voyage et exprimant le désir de recevoir audience. Son Excellence le pacha accueillit le commandant en lui disant :

— Qu'est-ce que cette lettre?

[1] La révolte de Mohammed Mahdi n'est pas placée à sa date, ce qui a lieu dans l'autre version (Desgranges, p. 134; de la Jonquière, V, p. 65; Ali pacha, XI, p. 24; Haidar Chihab, II, p. 273-274).

[2] Cf. Charles-Roux, *L'Angleterre et l'Expédition française*, I, p. 135.

exceptionnelle : solides comme des rocs, ils ne tenaient pas à la vie et bravaient la mort de sang-froid ; surtout depuis qu'ils se savaient isolés en Égypte, ils étaient décidés à se battre. En fait ils ne cédèrent pas un pouce de terrain et furent constamment victorieux. On peut dire que pendant leur présence en Égypte les Français ne passèrent pas un seul jour sans être obligés de lutter. Après l'engagement de Minieh, ce fut celui d'el-Lahoun, puis les batailles se succédèrent sans interruption, causant des pertes effroyables aux Mamlouks, aux Arabes et aux fellahs : Mourad bey en fut réduit à se réfugier à Assouan, à quarante jours du Caire. Le général Desaix se consacra dès lors à la pacification et à l'organisation de la Haute Égypte, avec une intelligence, un sens administratif, une finesse, un courage, un zèle et une magnanimité admirables, si bien que la Haute Égypte fut mieux gouvernée que le Delta.

C'est à cette époque que les chérifs de la Mecque, émus de la perte de l'Égypte, commencèrent à s'agiter. Le mouvement fut dirigé par un chérif très riche, appelé le cheikh Mohammed Guilani. Il vint de la Mecque en Haute Égypte à la tête de huit mille Mecquois environ et réussit à soulever les habitants de cette région. Cet homme prétendait
(33) posséder des pouvoirs surnaturels : il lui suffisait, disait-il, de lancer du sable au visage des infidèles pour les aveugler. Il avait donc réuni une foule immense des gens de la Haute Égypte, mais le général Desaix, apprenant cette concentratrion, partit à l'attaque et les mit en déroute : Mohammed Guilani fut tué et les survivants se dispersèrent. Toutefois un nouveau rassemblement se produisit, qui fut encore anéanti, et le brave Desaix poursuivit ses luttes incessantes contre les Mamlouks et les Arabes, les fellahs et les chérifs de la Mecque. Toute la Haute Égypte fut dès lors matée et obligée de se soumettre : les Français édifièrent des forteresses, des tours, des fortins et des centres de résistance. C'est ainsi qu'ils construisirent à Kéneh et à Kosseir des citadelles imposantes ; à Assiout, une citadelle et des centres de résistance ; à Beni Souef, une citadelle, des tours et des centres de résistance ; et à Minieh, une citadelle, des tours, des fortins et des redoutes, Tous ces points d'appui furent pourvus de canons et de bombes.

Laissons maintenant la Haute Égypte pour examiner la situation

le décès d'Ismaïl bey [1]. Ils avaient accepté une invitation de Mourad bey, avaient eu une entrevue avec lui et avaient conclu avec lui une alliance, sanctionnée par la récitation de la *Fatiha*. Ils groupaient ainsi près de vingt mille combattants. Une bataille s'engagea qui se termina par une victoire française. Les Mamlouks, battus, s'enfuirent : ils n'avaient pas pu résister au feu roulant des Français et à leurs méthodes de guerre impitoyables. En effet, ceux-ci possédaient toutes les ressources de l'art militaire, dont les Mamlouks et les Arabes n'avaient pas la moindre idée : ces derniers étaient des cavaliers qui ne savaient manier que le sabre et la lance, tandis que les Français utilisaient les armes à feu d'une façon extraordinaire. De plus, c'étaient des soldats d'une bravoure

---

85, 86, 91, 98, 145, 146, 151, 159 ; VI, p. 93, 135, 175, 180, 185, 188, 189, 198, 199, 318-320 ; VIII, p. 62 ; Desgranges, p. 200 ; *Histoire scientifique,* II, p. 494, 501, 510, 511, 515, 516 ; III, p. 499, 512, 514 ; IV, p. 432 ; V, p. 56-58, 60, 61 ; VI, p. 44, 48, 67, 69 ; VII, p. 399, 440, 452 ; Marcel, p. 234, 237, 242, 243, 245, 246 ; de la Jonquière, III, p. 364, 514, 515, 517, 520, 525, 526, 531, 537, 543, 544, 551, 553, 586, 587, 591, 594, 607-609, 611, 617, 619, 620, 625, 627, 629, 631, 634, 636, 637, 639, 645, 650, 652-654, 657, 660, 669, 680 ; V, p. 89, 275, 285, 293, 294, 299, 502, 507, 525, 536 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 218 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 266 ; Dehérain, p. 57, 146, 378, 382, 385, 488 ; Haidar Chihab, II, p. 322 ; *Description,* XV, p. 351, 355, 356.

[1] Ismaïl bey était mort de la peste en 1205/1791 (Martin, I, p. 123, 126 ; Djabarti, I, p. 206, 251, 258, 308, 351, 366, 371, 382, 413 ; II, p. 2, 3, 9-15, 20-24, 31-35, 51, 58, 59, 61, 83, 115, 117, 120, 122, 123, 130, 131, 133, 137, 139-141, 143-146, 151-155, 157-164, 172, 173, 175-180, 182, 183, 188-194, 219, 220 ; trad., II, p. 151, 218, 236 ; III, p. 12, 52, 93, 120, 131, 159, 213, 232-234, 248-251, 253-262, 274, 275 ; IV, p. 5-8, 11-14, 37, 40, 43, 44, 62, 79, 80, 82, 85, 86, 127, 206, 214, 222, 226-228, 246-248, 253-256, 263, 270, 273-275, 281, 286-288 ; V, p. 5-9, 11, 13, 15-18, 20-26, 28, 32, 33, 36-38, 53, 56, 60, 62, 64, 66, 67, 70-74, 76, 78, 84-86, 88-92, 96, 98, 142-146 ; *Histoire scientifique,* II, p. 494, 501, 503, 509-511, 515, 516 ; Marcel, p. 236, 241, 243, 246 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 78, 170, 172, 217, 218, 221-224, 246, 247 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 57, 77, 79, 91, 107, 135, 197-199, 232, 233, 258, 265, 284, 289, 293, 295-297, 319, 320 ; Dehérain, p. 62, 141, 143, 146-149, 193, 195 ; *Précis,* III, p. 46, 48, 49 ; *Description,* XV, p. 354, 356, 361-362.

coupa en Haute Égypte des bois d'acacia et de sycomore, espèces dont l'Égypte est très riche. Le vin fut très cher, au point qu'on le vendit huit piastres grecques le bocal. Le raki fut d'une consommation courante, puisqu'on le fabriquait dans le pays même.

Nous avons dit que le général en chef Bonaparte avait réparti les provinces entre les généraux. Il avait envoyé le général Desaix en Haute Égypte, d'abord pour poursuivre Mourad bey et ses troupes, en second lieu, pour surveiller et apaiser les révoltes de la région. Cet officier était extrêmement doué pour les opérations militaires ; c'était un tacticien éprouvé. Il était parti, nous l'avons dit, en Haute Égypte, à la tête de quatre mille soldats. Il avait emmené avec lui un secrétaire copte nommé le sieur [1] Jacob le Copte, originaire de Haute Égypte, où il avait été intendant des biens de Solaiman bey. Cet homme était très courageux, nous aurons l'occasion de le rappeler. (32) Le général Desaix arriva à Minieh, à deux jours du Caire, et c'est en ce point qu'il se trouva aux prises avec les forces de Mourad bey. Depuis sa retraite du Caire, Mourad bey avait rassemblé des contingents considérables, bédouins, fellahs, ainsi que les anciens mamlouks dispersés en Haute Égypte. D'autre part la ville d'Esneh, dans le sud de la Haute Égypte, était occupée par le banneret Othman bey Hasan et par son collègue Hasan bey Djeddaoui [2], autrefois exilés du Caire par Mourad bey et Ibrahim bey après

---

[1] Je traduis ainsi le mot *mou'allim* (Deny, p. 103).

On lit dans le *Journal* de Belliard : « Quelques Arabes se sont battus avec Mou'allim Jacob, Copte qui suit la division et qui est on ne peut plus utile au général Desaix. Ce Copte était autrefois l'intendant de Solaiman bey, il joue maintenant un grand rôle dans le pays ; les habitants le regardent comme le Grand Sultan, et notre division, formant l'armée de la Haute Égypte, passe pour l'armée de Mou'allim Jacob » (de la Jonquière, III, p. 510 ; cf. Haidar Chihab, II, p. 247).

[2] Sur les péripéties de la carrière de Hasan Djeddaoui, voir : Martin, I, p. 117, 123, 126, 127, 348, 364, 404 ; II, p. 94 ; Djabarti, II, p. 115, 117, 122, 123, 130, 132-134, 139-141, 145, 146, 156, 159, 164, 189, 191, 194, 220, 223, 227, 306, 351 ; III, p. 11, 12, 14, 15, 21-24, 37, 38, 44, 70, 83, 91, 94, 96, 98, 104, 115, 117, 130-133, 140, 143, 155, 159, 171, 191, 194, 220, 227 ; IV, p. 29 ; trad., III, p. 8, 92, 253, 254, 256, 259, 261 ; IV, p. 5, 8-14, 40, 42, 127, 206, 214, 226-228, 246, 247, 249-251, 253-255, 270, 272, 273, 275, 279, 286, 288 ; V, p. 15-17, 25, 38,

essayé de s'en emparer, mais ils n'y avaient jamais réussi ; la dernière tentative était celle du roi de France Louis, celui qui avait subi la défaite (31) de Mansourah, comme cela ressort des chroniques. Le séjour des Français au Caire était donc insupportable, surtout lorsque les Égyptiens voyaient leurs femmes et leurs filles circuler dans les rues à visage découvert, qu'elles paraissaient être en public la propriété des Français, qu'elles les accompagnaient dans les rues, qu'elles cohabitaient avec eux[1]. Devant ces faits, les musulmans mouraient de honte. Il leur suffisait de voir les cabarets qui avaient été ouverts dans tous les marchés du Caire, même dans certaines mosquées[2]. Ce spectacle rendait l'atmosphère irrespirable pour les musulmans et à chaque instant ils souhaitaient la mort. Au fond, l'occupation française améliora la situation morale de la basse classe, des revendeurs, portefaix, artisans, âniers, palefreniers, proxénètes, prostituées : en somme la lie de la population était à l'aise, parce qu'elle profitait de la liberté[3]. Mais l'élite et la classe moyenne éprouvèrent des ennuis de toutes sortes, parce que les importations et les exportations étaient suspendues. Il faut toutefois convenir que ce grand pays, non seulement ne manqua de rien, mais qu'il trouva toujours de quoi se suffire. Les vivres diminuaient de prix : les céréales et le riz furent très abondants, si bien que les tarifs ne cessèrent de baisser, et même plus qu'à l'ordinaire. Habituellement le bois à brûler était importé d'Asie mineure, pourtant il ne fit pas défaut : on

---

[1] Voir Rigault, p. 16-17 ; Ghorbal, p. 74.

[2] On pourrait croire à une exagération, mais une complainte locale dit bien : وِيسكنوا فى كل مسجد خمّار « Ils établirent dans chaque mosquée un cabaret ». (Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XVIII, p. 222). Costa parle de *karkhaneh*, qu'il faut traduire par « tripot, maison de prostitution », sans lui donner la signification plus innocente de « fabrique ».

Voir la curieuse anecdote contée dans Jouannin et Van Gaver, p. 43.

[3] Comparer une boutade de Menou : « Tout le monde était fort content, excepté les riches, qui perdent de leur influence » (de la Jonquière, II, p. 518, note).

Il convient de citer ici les réflexions de Djabarti sur les Anglais et les Français : « Les Français ne pratiquent aucune religion, mais prêchent la liberté et l'égalité, tandis que les Anglais sont des chrétiens très attachés à leur croyance : or vous n'ignorez pas la haine mutuelle des religions » (Djabarti, IV, p. 49 ; trad., VIII, p. 104 ; cf. Bréhier, p. 39 ; Ghorbal, p. 250).

d'el-Ghorayb [1] ; le second sur le Kôm el-Akareb [2], au delà de Nasrieh ; le troisième dans la mosquée de Daher Baibars [3], hors du Bab el-Nasr ; le quatrième sur la butte du Kantarat el-Limoun [4], en dehors de l'Ezbékieh ; le cinquième sur la butte proche de Ridouanieh, en dehors de l'Ezbékieh [5]. Ceci par mesure de précaution, pour se préserver de nouveaux troubles. Au fond, les Français craignaient autant une révolte de la ville qu'une attaque venant de l'extérieur et ils pensaient que leurs forces seraient suffisantes pour tenir tête aux ennemis du dehors pourvu qu'ils fussent assurés de la neutralité de la population. C'est pourquoi ils avaient construit ces forts autour de la ville. En outre, ils amélioraient continuellement leur position défensive par de nouveaux bâtiments dans la Citadelle. Chaque jour on y entreposait des matières combustibles, des barriques d'huile, des canons, des boulets et des bombes : le peuple se rendait compte qu'en cas d'émeute la ville serait brûlée. Malgré tout, la population escomptait toujours qu'un appui leur viendrait de l'extérieur, car il lui était très pénible d'endurer cette occupation étrangère dans un pays qui avait toujours appartenu aux musulmans depuis la mission du Prophète. Autrefois les Francs avaient

---

[1] Le fort Dupuy, situé à l'est d'el-Azhar au bout de l'artère qui part du Mouski en direction de l'Est (*Histoire scientifique,* IV, p. 204 ; DE LA JONQUIÈRE, III, p. 290) ; GUÉMARD, *Inscriptions françaises de l'enceinte du Caire,* p. 9.

[2] Le fort de l'Institut, situé tout près de l'emplacement actuel de l'Institut français d'Archéologie orientale (*Histoire scientifique,* IV, p. 204 ; DE LA JONQUIÈRE, III, p. 291 ; GEISS, *Un rapprochement historique, Bulletin de l'Institut égyptien,* 1910, p. 74-75 ; DARESSY, *Moustapha pacha, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XI, p. 69, n. 1 ; DJABARTI, III, p. 34 ; trad., VI, p. 71).

Le terrain fut nivelé par ordre d'Ibrahim pacha en 1245/1829 (SAMI PACHA, II, p. 361).

[3] Le fort Sulkowski (*Histoire scientifique,* IV, p. 203 ; DE LA JONQUIÈRE, III, p. 290 ; DJABARTI, III, p. 33-34 ; trad., VI, p. 71 ; ALI PACHA, V, p. 43 ; GUÉMARD, *Inscriptions,* p. 9).

[4] Le fort Camin, à peu près sur l'emplacement de la Gare centrale du Caire (*Histoire scientifique,* IV, p. 203 ; DE LA JONQUIÈRE, III, p. 290-291). Ce fort n'était pas achevé en janvier 1799 (DE LA JONQUIÈRE, IV, p. 93).

[5] Le fort Conroux, au sud du précédent, à peu près à l'emplacement de la Direction des téléphones (*Histoire scientifique,* IV, p. 204-205).

spontanément obligeant envers ceux qui avaient recours à lui. Ce cheikh se dérangea donc en personne pour aller chez le général en chef.

— De toute ma vie, lui dit-il, je n'ai jamais sollicité l'audience d'aucun personnage en place, d'aucun tyran, et si je viens chez toi aujourd'hui, c'est pour te demander le service personnel d'enlever les troupes d'el-Azhar : je t'en serai infiniment reconnaissant et ferai des vœux pour toi.

Le général en chef se déclara satisfait et ordonna l'évacuation d'el-Azhar. Le cinquième jour, il fit (30) proclamer le pardon et l'amnistie : tel fut le dénouement de cette seconde conquête de la ville. Toutefois des perquisitions furent effectuées pour retrouver le cheikh qui avait lancé les premiers appels : il fut appréhendé et exécuté, ainsi que de nombreux individus dont la participation fut avérée. Les Français se réinstallèrent et firent la paix avec la population, mais ils nourrirent contre elle désormais des sentiments d'hostilité et n'oublièrent pas cette perfidie. Ils avaient perdu confiance, car ils se sentaient peu nombreux et savaient qu'ils ne recevraient pas de renforts : ils étaient destinés à toujours diminuer, à ne jamais s'accroître. Il ne leur resta plus qu'à faire appel à l'égalité et à la fraternité : ils témoignèrent à la population des sentiments d'amitié pour s'attirer leur affection. Mais c'était faire fi de la nature humaine.

C'est alors qu'entra en scène le général du génie Caffarelli, un homme incomparable, un vrai savant, qui n'avait qu'une jambe, l'autre étant coupée à la hauteur de la cuisse et remplacée par une jambe de bois, aussi l'avait-on surnommé Jambe-de-bois. Cet officier commença à aménager des fortins sur les collines de décombres qui s'élèvent autour du Caire [1]. Un fort fut installé sur une butte derrière el-Azhar, le fort

---

[1] L'arrêté de Bonaparte est daté du 8 octobre 1798 (DE LA JONQUIÈRE, III, p. 58 ; DEHÉRAIN, p. 332, 350).

L'arrêté signale encore le fort Mireur, au sud-ouest de la mosquée d'Ibn Touloun.

Costa (p. 14) mentionne encore deux autres forts : celui de l'Ezbékieh, qui était le quartier général ; celui proche du Bab el-Nasr, qui était le fort Venoux, à l'est, ou le fort Grézieux, au Nord. — Cf. HAIDAR CHIHAB, II, p. 250-251.

armes, et qui ignoraient tout, vu qu'ils ne comprenaient pas l'arabe, et l'on ne compte pas ceux qui périrent de la sorte. Puis les musulmans se portèrent dans le quartier grec de Gaouanieh où se trouvait le couvent des moines du Sinaï; ils tuèrent les hommes qui leur tombaient sous la main, et enlevèrent les femmes et les jeunes filles, qu'ils mirent en vente, après avoir pillé toutes les maisons [1]. Ce fut une journée horrible. Le général en chef se trouvait alors à Guizeh : il arriva au plus vite et disposa les troupes autour de la ville. Une bataille s'engagea avec les mutins, qui dura quatre jours : finalement les Français furent victorieux et pénétrèrent dans la mosquée el-Azhar [2]. Ils envahirent donc cette vaste mosquée, où la population avait entassé des dépôts, la livrèrent au pillage, massacrèrent les occupants et attachèrent leurs chevaux à l'intérieur de l'édifice. Puis ils firent tomber les barricades l'une après l'autre, tandis que les habitants se réfugiaient dans les maisons. Enfin les Français furent maîtres de la ville comme auparavant.

Les ulémas se rendirent auprès du général en chef, pour le supplier de faire retirer ses troupes d'el-Azhar. Le général refusa et leur adressa de sévères reproches [3], cependant que ceux-ci lui affirmaient avoir tout ignoré. Le général estima impossible d'accéder à leurs demandes et les ulémas repartirent. Plus tard, ils lui députèrent le cheikh Mohammed Gauhari [4], un savant de grande valeur, un homme religieux et pieux, qui, durant sa vie, n'avait jamais approché les hommes au pouvoir, n'avait jamais accepté ni pots-de-vin ni cadeaux d'aucun fonctionnaire au temps des Mamlouks. Au contraire, il s'était toujours montré

---

[1] Cf. Politis, *L'Hellénisme et l'Égypte moderne*, p. 107, 146.

[2] Cf. Ali pacha, IV, p. 34-35.

[3] Costa (p. 13) fait tenir à Bonaparte le curieux discours suivant : « Vous ne manquez pas d'audace, lâches gredins, à solliciter cette entrevue? Croyez-vous donc que l'incident soit clos? Détrompez-vous. Comme punition, vous verserez pour mes cuisines deux millions d'écus. » Et l'auteur ajoute : « Il les fit saigner sous la courbache. »

[4] Cet homme estimable mourut en 1215/1800 (Djabarti, III, p. 164; trad., VI, p. 308-312; Sami pacha, II, p. 155).

Il fut mis à l'amende par Kléber lors de la seconde révolte du Caire (Djabarti, III, p. 107-108; trad., VI, p. 206, 210).

La population du Caire avait vu que les habitants de Mansourah s'étaient insurgés contre les Français et qu'ils avaient exterminé presque sans opposition la garnison de leur cité. Ceux de Damiette avaient agi de même et il ne leur était rien arrivé. Aussi les Cairotes organisèrent-ils le complot dont nous allons parler. Un beau jour, le dimanche 20 rabiʿ II[1] (1er octobre 1798), un quelconque cheikh d'el-Azhar se mit à parcourir les rues en criant : « Que tous ceux qui croient à l'unité de Dieu se rendent à la mosquée el-Azhar. C'est aujourd'hui le jour de combattre les infidèles. » Or tandis que la plupart des habitants étaient au courant, les Français vivaient dans l'insouciance. En un instant toute la ville fut en ébullition et la nouvelle en parvint au gouverneur, le général Dupuy. C'était un homme très dur. Il se leva d'un bond :

— Que se passe-t-il?

— C'est un soulèvement des gueux[2] de la ville, rassemblés dans les quartiers du Khan Khalili et de Nahhasin.

Il partit sur-le-champ, suivi seulement de cinq cavaliers ; son but était de se rendre compte des faits et de calmer cette effervescence. Il passa au Khan Khalili et vit des gens du peuple et des ouvriers qui élevaient des barricades : (29) un janissaire déboucha soudain d'un coude de la rue et lui asséna sur l'échine un coup de matraque[3]. Le général tomba de cheval : ses hommes le transportèrent à l'ancien quartier des Francs, mais il expira en route. Il fut enterré dans le jardin de l'Ezbékieh. Dès cet instant l'insurrection se propagea : on se précipitait sur les Français et sur les chrétiens qu'on rencontrait, pour les massacrer. On assassina d'abord les nombreux Français qui se promenaient sans

---

[1] Djabarti (III, p. 25 ; trad., VI, p. 54-55) place l'insurrection du Caire à la date du 10 djoumada Ier (20 octobre), ce qui correspond à un jour près (21) et se trouve conforme au manuscrit Desgranges (p. 66 ; cf. Skalkowski, p. xxxiii ; Haidar Chihab, II, p. 248-251).

[2] *Djouʿaidiya* : Djabarti, I, p. 11, 42 ; II, p. 42, 115 ; Dozy, I, p. 197-198 ; Ali pacha, V, p. 105 ; VIII, p. 92, 93 ; Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XVIII, p. 220 ; Bocthor, I, p. 397 ; II, p. 160.

[3] Costa parle d'un coup de « lance », d'accord avec les rapports français (Costa, p. 12 ; de la Jonquière, III, p. 279, 285).

instructions en Égypte aux cheikhs des bédouins et des fellahs, pour les exciter à se révolter contre les infidèles, tout en les assurant qu'il allait envoyer des renforts. De leur côté, les Mamlouks réfugiés en Syrie écrivaient dans le même sens aux Égyptiens et leur annonçaient leur venue prochaine. Ces messages impressionnaient vivement les populations, qui commencèrent à se soulever contre les Français, d'autant plus que les Anglais avaient bloqué les ports à la manière dont les Anglais savent le faire, et le peuple avait ainsi la certitude que les Français avaient perdu tout espoir de recevoir du secours de leur pays. On entendait dire couramment : « Nous n'avons qu'à les combattre, à leur tenir tête, nous finirons bien par en être délivrés, car ce qui ne s'accroît pas diminue. » Ces suppositions n'étaient pas vaines ; les Français avaient eu de lourdes pertes depuis les trois mois qu'ils avaient débarqué en Égypte. Au premier abord, les Français s'imaginaient être encore à Paris, et ils se promenaient toujours (28) en ville sans armes. Les prostituées étaient nombreuses au Caire et elles attiraient les Français dans des demeures particulières et les assassinaient, d'où des pertes très sensibles. Les Français avaient créé un service de la poste, au moyen de vaguemestres français qui transportaient les correspondances du Caire à Rosette, à Damiette et vers d'autres chefs-lieux. Chaque bateau postal emmenait au moins vingt Français : les bateliers faisaient échouer ces bateaux postaux sur les berges, où surgissaient bédouins et fellahs, prévenus par ces marins. Les courriers étaient attaqués et mis à mort : ce fut encore une source de pertes. Par ailleurs, le climat de l'Égypte ne convenait pas au tempérament des Français : un grand nombre d'entre eux furent frappés de cécité [1] ; beaucoup d'autres furent atteints de maladies vénériennes, consécutives à la débauche, car elles étaient endémiques au Caire, à cause du grand nombre des femmes de mauvaise vie, et les Français étaient très libertins [2]. Telles étaient les principales raisons de l'affaiblissement des Français.

---

[1] Voir Trécourt, *Mémoire sur l'Égypte*, p. 39 et suiv.

[2] Voir Desgranges, p. 111 ; de la Jonquière, V, p. 232.

Les Mamlouks comptaient bien sur les maladies pour être débarrassés des Français (Dehérain, p. 260).

Djezzar le condamna néanmoins à la pendaison[1].

(27) Mis au courant de cette double fuite, le général en chef manda un certain Moustafa agha, ancien mamlouk d'Abd el-Rahman agha, contemporain d'Ali bey. Cet Abd el-Rahman, renommé pour sa finesse politique, avait joui d'une certaine influence, et Moustafa était alors son mamlouk. Le général en chef le revêtit d'une pelisse et en fit l'agha des janissaires[2] :

— J'ai entendu parler, lui déclara le général, des actes de ton ancien maître, mon désir est de te fournir l'occasion de lui ressembler.

Moustafa baisa la main du général avant de prendre congé. Cet homme servit loyalement les Français dans ses fonctions. Animé d'une haine farouche contre les Mamlouks du parti de Mohammed bey Aboul-Dhahab, il en fit mettre à mort un certain nombre, pour venger la mémoire d'Abd el-Rahman[3], assassiné par Mourad bey : il s'agissait donc pour lui de liquider une vieille querelle entre les partis d'Ali bey et de Mohammed bey Aboul-Dhahab.

A la suite de l'incendie de la flotte française, les Anglais bloquèrent les ports d'Alexandrie et de Damiette, et interdirent tout contact avec l'extérieur : un oiseau n'aurait pas pu passer. Sur ces entrefaites, Djezzar reçut des ordres du sultan l'invitant à combattre les Français : ce dernier était nommé gouverneur de l'Égypte et généralissime des troupes qu'il pourrait lever en Égypte, à Damas, à Sidon, ainsi que dans les régions avoisinantes. Le sultan promettait d'équiper une escadre et une armée pour marcher sur l'Égypte et la délivrer des mains des infidèles. La puissance de Djezzar s'en accrut. Continuellement il adressait des

---

[1] Cf. Haidar Chihab, II, p. 253.

[2] Ce Moustafa resta agha des janissaires jusqu'à son assassinat lors de la seconde révolte du Caire sous Kléber : il fut dévoué aux Français (voir plus loin, p. 86 du texte ; Djabarti, III, p. 24 ; trad., VI, p. 54 ; Haidar Chihab, II, p. 251).

Une confusion pourrait s'opérer avec le dignitaire qui fut investi des fonctions d'émir du pèlerinage, Moustafa kyahya, dont l'existence fut assez mouvementée (Djabarti, III, p. 21, 28, 29, 43, 53, 56 ; trad., VI, p. 47, 61, 62, 107-109, 113 ; *Histoire scientifique*, V, p. 108 ; de la Jonquière, II, p. 539 ; III, p. 8 ; IV, p. 134, 171, n. 2, 175-176, 435-436 ; V, p. 40, 41, 44).

[3] Cf. Djabarti, II, p. 36-37 ; trad., IV, p. 36-40.

Parmi les mesures adoptées par le général en chef au Caire, il y eut la nomination de Mohammed kyahya l'Islamisé aux fonctions d'agha des janissaires [1]. D'autre part, au moment du départ du vizir et du banneret Ibrahim bey à la tête des Mamlouks, l'ancien adjoint de Mohammed pacha [2] était resté à la Citadelle ; il avait été alors présenté au général en chef par le drogman du consul et il avait gagné de ce fait beaucoup de considération.

— Pour quelle raison, lui avait dit le général en chef, Son Excellence le vizir a-t-il suivi les Mamlouks ? Nous ne sommes venus ici qu'en complet accord avec Sa Majesté le sultan. Nous avons les mêmes intérêts que vous. Écris-lui de revenir, et il jouira dans ses fonctions du pouvoir et du prestige qu'il détenait dans le passé. En tout cas, en ce qui te concerne, tu as été assez fin et intelligent pour rester. S'il plaît à Dieu, il ne t'arrivera plus rien que d'heureux. Tu es désormais l'émir du pèlerinage.

Et Bonaparte le revêtit d'une magnifique pelisse de zibeline, en lui disant :

— Dès maintenant occupe-toi de tous les préparatifs du pèlerinage.

Le lieutenant du pacha le quitta rassuré : il était toutefois extrêmement étonné de recevoir une faveur au moment où il était suspect. Cette situation se prolongea pendant une vingtaine de jours, et il en profita pour avoir des conciliabules fréquents avec Mohammed kyahya l'Islamisé. Un beau matin, ils montèrent à cheval et se sauvèrent tous deux sur la route de Gaza. Mohammed kyahya ne s'arrêta pas là et poussa jusqu'à Saint-Jean-d'Acre pour se concerter avec Ahmed pacha Djezzar.

— C'est toi, lui dit le pacha, qui étais l'agha des janissaires en Égypte sous les Français.

— Oui, sans doute, mais je viens de m'échapper pour me réfugier auprès de toi.

---

[1] Voir Djabarti, III, p. 11, 24 ; trad., VI, p. 23, 54 ; Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* IX, p. 2.

[2] Si le précédent pacha ne se nommait pas *Mohammed* Békir, il s'agit probablement de Mohammed Izzet pacha, qui fut gouverneur de l'Égypte de 1203 à 1209/1791-1794.

Les Français furent ainsi amenés à combattre dans toutes les provinces de l'Égypte, et acculés à une politique d'incendies et de pillages.

Le général Murat assumait la défense de la Kalioubieh : on le surnommait Mourad bey le Français, et c'est d'ailleurs de cette façon qu'il signait sa correspondance. Ce général était très célèbre par sa vaillance : jeune encore, il avait belle figure. Il extermina un nombre considérable de Bédouins, mais à peine avait-il quitté sa province qu'une autre révolte surgissait. Le général Lanusse mit la Menoufieh en état de défense ; c'était également un homme d'un grand courage : il réussit aussi à tenir convenablement la Menoufieh, qui, toutefois, ne restait calme que lorsqu'il était présent.

Dès que le général Dugua eut achevé la pacification de Mansourah, il organisa une expédition par terre et par eau contre le district de Menzaleh. Il eut comme adversaire un cheikh bédouin appartenant aux nombreuses tribus rebelles, contre lesquelles il eut à soutenir plusieurs combats : finalement les Bédouins durent s'enfuir, et le général Dugua pénétra à Menzaleh. Le cheikh du district, Hasan Toubar [1], n'avait pas attendu son arrivée pour prendre le large et se réfugier auprès d'Ahmed pacha Djezzar. Les Français avaient occupé Menzaleh sans résistance, car la localité s'était rendue. Les Français saisirent les embarcations qui servaient aux riverains du lac pour transporter le produit de leur pêche à Damiette. Voici ce qu'avait imaginé de faire Hasan Toubar : si des troupes arrivaient en provenance de Gaza, de nombreuses bandes pourraient être rassemblées à Menzaleh, gagner (26) Damiette à l'aide de ces barques et se rendre maîtresses de la ville. C'est pourquoi les Français avaient fait tous leurs efforts pour s'emparer de Menzaleh et avaient confisqué cette flottille, de crainte d'une pareille utilisation. Ces barques du lac se trouvaient à la plage de Matarieh ; elles dépassaient cinq cents bâtiments. Dès lors le commandant de Damiette vécut en sécurité [2].

---

[1] Ultérieurement l'intéressé servit loyalement les Français (DE LA JONQUIÈRE, V, p. 236-237 ; ROUSSEAU, p. 22-24, 98, 112, 123, 146, 163, 169, 180, 186, 193, 297, 301, 318-319 ; RIGAULT, p. 144). Son fils montra aussi de l'attachement aux Français (DOUIN, *Égypte de 1802*, p. 20).

[2] Cf. ALI PACHA, XV, p. 78.

venues se faire battre en ce point par l'armée musulmane, et le souvenir en fut perpétué par le nom donné à la ville, Mansourah (la Victorieuse). Un complot fut donc ourdi pour exterminer les militaires français. Un beau jour la population se rua sur les cantonnements français, et un combat s'engagea : contraints de sortir de la ville, les Français furent assaillis par une multitude de Bédouins et de fellahs, en tout plus de dix mille individus. La bataille se prolongea acharnée, et aboutit au massacre des Français jusqu'au dernier, car ils avaient manqué de poudre et de cartouches : mais ils avaient tué près de cinq cents personnes, de l'aveu même de la population de Mansourah. Cette nouvelle parvint au général en chef Bonaparte, qui envoya à Mansourah le général Dugua à la tête de trois mille hommes : ce dernier avait reçu l'ordre, conformément à la loi française de représailles, de réduire la ville en cendres et d'en passer tous les habitants au fil de l'épée. A l'approche du général Dugua, la population de Mansourah se rendit à sa rencontre pour se mettre sous sa protection, et un grand nombre de gens attestèrent qu'elle n'avait en rien participé aux incidents, que les troubles avaient été causés par quelques voyous [1] (25) et les habitants de la banlieue. Le général Dugua accepta leurs déclarations et s'en remit à la décision du général en chef au Caire, tout en conseillant la clémence : en effet, la loi du peuple français précise qu'on ne peut prononcer aucune condamnation à mort sans une enquête approfondie, une preuve formelle et des témoignages. Une amnistie s'imposait dès lors. Les Français ne cachaient d'ailleurs pas qu'il serait impolitique de détruire une telle ville puisqu'ils avaient l'intention de s'installer définitivement. On se contenta d'exiger le prix du sang et d'imposer une amende de deux cent mille écus de France en compensation de la mort de cent trente Français.

C'est à ce moment qu'éclata l'insurrection de la Charkieh et de la région du lac Menzaleh. Le pacha Ahmed Djezzar n'avait jamais cessé d'envoyer des proclamations, par l'entremise de Hasan Toubar, cheikh du district de Menzaleh, pour exciter toute la région à la révolte.

---

[1] *Falati* : voir Djabarti, IV, p. 85 ; Bocthor, I, p. 129 (au féminin, «carogne»), 354 («fieffé») ; II, p. 62 (au féminin, «femme de mauvaise vie»), 178 («polisson») ; Dozy, II, p. 276.

Ils pleuraient et se lamentaient, suppliant le général de ne pas partir [1], mais plutôt d'informer le Caire et d'attendre une réponse.

— Je serais déshonoré aux yeux de la République, dit le général, si je ne poursuivais pas immédiatement ces paysans barbares pour leur trancher la tête. Mais votre émotion me laisse perplexe et, pour vous rassurer, je vais demander des renforts à Mansourah.

(24) Il envoya un message au général Dugua, commandant de la place de Mansourah, qui lui envoya cent soldats. Dès leur arrivée, le général Vial partit à la tête d'un détachement de deux cent cinquante hommes. Il trouva un grand rassemblement à Choarah, qui se dispersa après un violent bombardement. Les Français pénétrèrent dans le village, saccagèrent toutes les maisons et incendièrent celle du cheikh de cette bourgade, un certain Ahmed Abou Dibs : ils rentrèrent à Damiette pour fêter l'événement par des réjouissances.

Tels furent les mouvements insurrectionnels de Damiette et de Choarah. Nous avons précisé que le général Vial, gouverneur de Damiette, avait autorité sur Mansourah : il avait envoyé dans cette localité une compagnie de cent trente soldats, sous les ordres d'un commandant. La population leur manifesta sa haine : elle fut enhardie par la faiblesse de cette garnison, par la situation de ce chef-lieu, entouré de nombreux villages de fellahs et d'Arabes rebelles, et par l'afflux en ville chaque jeudi d'un grand concours de peuple pour le marché hebdomadaire. Les Égyptiens ne pouvaient absolument pas supporter les Français, à cause des divergences de religion, de langage et de costume, sans compter qu'une vieille inimitié existait entre les Français et les Égyptiens depuis l'époque du sultan Daher Baibars [2]. Les troupes du roi de France Louis étaient

---

[1] Quelques mois plus tard, les habitants de Damiette suppliaient Kléber de laisser une garnison en ville (DE LA JONQUIÈRE, IV, p. 120).

[2] Ce n'est qu'un morceau de bravoure; Nicolas va le répéter plus loin (p. 30-31 du texte). Sans avoir connu ce texte, un historien français s'inspirera de la même idée : «Le fait le plus grave avait été le massacre de la garnison de Mansourah où la haine des infidèles ne paraissait pas éteinte depuis saint Louis» (Jacques BAINVILLE, in *Précis,* III, p. 146).

La fameuse Maison de saint Louis a vu le jour au milieu du XIX[e] siècle (MAKRIZI, éd. Wiet, IV, p. 67, n. 12).

de Lesbé : cette flottille franchit la passe et se dirigea sur la Syrie.

Au lever du soleil, le général Vial apprit à Damiette que Hassouna, cheikh du village de Lesbé, avait fait égorger les Français de la localité, sans exception. Il s'y rendit aussitôt, mais trouva ce village abandonné. Il interrogea quelques secrétaires coptes qui étaient encore là :

— Seigneur, lui répondirent ceux-ci, après le massacre, le cheikh sut que (23) les Français de Damiette étaient indemnes et que leur situation était excellente. Il a au plus vite rassemblé sa famille et les habitants du village, et tous se sont embarqués sur des corvettes.

Le général ordonna d'incendier sa demeure ainsi que celles des personnes qui s'étaient enfuies : ces maisons furent au préalable livrées au pillage.

C'est alors que les Français commencèrent à fortifier Lesbé : ils l'entourèrent de murailles et de retranchements, et y bâtirent un fortin, qui devait servir de centre de résistance. Puis le général Vial revint à Damiette.

Telle fut l'affaire de Lesbé. Le général Vial se résolut ensuite à exercer des représailles contre Choarah, où s'étaient concentrés les fellahs. Avant tout, il installa sur un bateau les malades et les aveugles de son détachement en traitement à l'hôpital, tandis qu'il entreposait sur un autre navire ses effets et ses bagages. Il prenait ces précautions avant d'aller attaquer Choarah parce qu'il redoutait un échec et tremblait à l'idée que la population de Damiette ne mît à mort ces éclopés pour piller leurs effets. Il avait d'autant plus de raisons d'avoir peur que les bandes ennemies étaient très nombreuses, tandis que son contingent ne comprenait guère plus de deux cents hommes, sans compter les indisponibles dont nous venons de parler. Les chrétiens furent inquiets et allèrent trouver le général :

— Général, lui dirent-ils, tu as l'intention de rentrer au Caire, et tu nous jettes en pâture à ces démons sans pitié ni discernement. Ils sont convaincus que nous sommes des vôtres, des gens de votre race, puisque vous êtes chrétiens comme nous. Voilà pourquoi nous avons peur, et notre émoi est justifié : aucun de nous ne restera vivant, parce que les musulmans ont sur nous cette opinion bien ancrée et qu'ils ne la discutent plus.

jour, il ne restait plus en ville aucun fellah : les assaillants s'étaient repliés sur le village de Choarah, à une heure au sud de Damiette. Ce fut toutefois une nuit affreuse pour les chrétiens de Damiette, qui précisément étaient groupés dans le quartier des okelles au bord du Nil, où se tenaient les Français. Les fellahs vociféraient : « Allah, Allah, sus aux chrétiens, sus aux Français ! nous allons vous égorger tous cette nuit, nous enlèverons vos femmes et nous pillerons vos richesses. » Ces menaces retentissaient aux oreilles des chrétiens et de leurs familles, leur causant une terreur indescriptible. Mais, dans sa sagesse profonde, Dieu, — que son autorité soit exaltée ! — abandonna ces manants et contrecarra leurs projets : ils durent rebrousser chemin, vaincus et désappointés.

Or, le lendemain matin, un dimanche, avant le lever du soleil, une vieille musulmane, qui se rendait de Damiette à Lesbé [1], à l'embouchure du Nil, raconta à la population de cette localité que les Français en séjour à Damiette, ainsi que tous les chrétiens, avaient été assassinés, sans aucune exception. Là-dessus, les habitants de Lesbé et de la région de l'embouchure du fleuve, leur cheikh en tête, fondirent sur les cinq Français qui étaient à Lesbé et les égorgèrent. Puis ils partirent assiéger la garnison d'environ vingt soldats qui occupait un fort à l'ouest, mais ceux-ci fermèrent les portes du fortin et repoussèrent leurs assaillants par une décharge d'artillerie. Toute la bande de fellahs se retira à Lesbé. Une heure plus tard, on apprit à Lesbé que la foule qui s'était précipitée à l'attaque de Damiette n'avait pas réussi et avait dû rebrousser chemin, et que les Français et les chrétiens étaient indemnes. Dès qu'il connut cette nouvelle, le cheikh de Lesbé, Hassouna, fut saisi de crainte et regretta sa conduite. Affolé, il rassembla sa famille et s'embarqua sur des corvettes [2], suivi de toute la population

---

[1] Au cours de cette traduction, je me suis conformé à l'orthographe des rapports de l'Expédition française.

Lesbé est la déformation d'el-Ezbeh. Les arabisants comprendront qu'à cause de son manuscrit, Desgranges ait été amené à lire Kourba et Gourba ; mais l'on trouve Euzbé dans un autre passage (Desgranges, p. 35, 56, 205, 236, mais voir p. 132). Cf. Haidar Chihab, II, p. 243.

[2] *Nakira* : cf. Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français,* XX, p. 77, 209 ; Kindermann, *Schiff im Arabischen,* p. 106.

impression sur la population du Caire, car l'intéressé était un descendant du prophète : dès lors les Français perdirent l'affection des musulmans, qui n'entretinrent plus contre eux que des sentiments d'hostilité.

C'est au cours du mois de rabiʿ Ier de l'année 1213 (septembre 1798) qu'éclata la grande insurrection de Damiette [1]. Le cheikh Hasan Toubar, cheikh du district de Menzaleh, était venu à Damiette faire sa soumission au général Vial, qui l'avait gratifié d'une pelisse. Ce dernier reçut des instructions d'Ahmed pacha Djezzar [2], qui se trouvait dans la ville de Saint-Jean-d'Acre : elles lui prescrivaient, moyennant de belles promesses, d'exciter la population à combattre les Français ; des lettres d'Ibrahim bey dans le même sens lui étaient également parvenues. Hasan se souleva ouvertement contre les Français, entraînant tous les habitants des régions avoisinant le port de Damiette. Leur but était d'attaquer la ville de Damiette et d'y exterminer tous les Français de la garnison. En pleine nuit, les habitants de Menzaleh, de Fareskour, de Choarah, de toute la région du lac, fondirent sur Damiette, dont les habitants avaient été prévenus du complot ; il s'agissait d'un rassemblement d'environ huit mille hommes. Les troupes françaises étaient cantonnées dans les okelles [3] du bord du Nil. Par un assaut général, ces fellahs se précipitèrent sur les Français, et un violent combat s'engagea. Les Français ripostèrent par un feu d'enfer, qui brisa l'élan de leurs agresseurs ; ceux-ci perdirent une vingtaine de tués au premier contact et reculèrent en désordre. Au cours de cette irruption, ils avaient vivement pressé les habitants de Damiette de se joindre à eux, mais ceux-ci ne bougèrent pas, restant dans l'expectative pour voir si les fellahs réussiraient dans leur entreprise. Lorsqu'ils virent refluer cette horde qui ne pouvait même pas soutenir le combat, alors que les Français tenaient ferme, (22) ils jugèrent plus prudent de se confiner chez eux. Au lever du

[1] Cf. Ali pacha, XI, p. 51-52.

[2] Sur les débuts d'Ahmed Djezzar, voir : Martin, I, p. 125 ; Djabarti, I, p. 306, 307, 334, 335 ; II, p. 107, 134, 239 ; trad., III, p. 8-11, 52, 53 ; IV, p. 186, 257 ; V, p. 179 ; *Histoire scientifique,* II, p. 493-494 ; V, p. 226-241 ; Marcel, p. 231, 234 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 245, 328 ; Dehérain, p. 50 ; *Précis,* III, p. 44 ; et l'ouvrage essentiel d'Édouard Lockroy, *Ahmed le boucher.*

[3] Selon Costa, les Syriens qui les occupaient faisaient des parties de cartes.

butin provenant de Rome la grande et de Malte. En effet, l'armée française qui avait envahi l'Égypte était celle-là même qui avait conquis l'Italie, Rome et Malte, et avait pillé ces contrées. L'incendie de ce vaisseau se vit à deux journées de distance : il dura quatre jours et les flammes persistaient même sous l'eau. Les Français du Caire, consternés de cette nouvelle, furent envahis d'un immense chagrin, car ils perdaient tout espoir de recevoir des renforts de leur patrie. Un individu ayant communiqué le fait autour de lui, Bonaparte le fit appréhender : il voulait le faire exécuter, mais, sur une intervention, il le remit en liberté après lui avoir infligé une amende de six cents écus de France. D'ailleurs l'ordre fut donné par le général en chef d'imposer la même peine à tous ceux qui parleraient publiquement de cet événement [1]. Tel fut l'incendie de la flotte, au cours duquel six mille marins trouvèrent la mort [2].

Après la prise d'Alexandrie par les Français, le général en chef avait convoqué le saiyid Mohammed Koraim, l'avait revêtu d'une pelisse et lui avait fait don d'un sabre richement décoré ; il le confirma alors dans la charge de gouverneur de la ville, qu'il occupait (21) au temps des Mamlouks. C'était un homme dévoué à Mourad bey ; aussi écrivit-il à ce dernier pour l'encourager à combattre les Français, en lui promettant de trahir la confiance de la garnison française d'Alexandrie. Le général en chef se fit envoyer Mohammed Koraim, qui fut traité sans égards et livré au gouverneur du Caire. Soumis à un interrogatoire, Koraim nia tout, mais on lui opposa ses lettres. Il fut condamné à mort, pour trahison envers la République et fusillé [3]. Cette exécution fit une pénible

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 15 ; trad., VI, p. 32-33 ; Ali pacha, X, p. 13-14 ; Haidar Chihab, II, p. 234-235.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 20 ; trad., VI, p. 44.

[3] L'odyssée de Mohammed Koraim n'est pas aussi simple que le dit Nicolas. Mohammed Koraim fut arrêté le 20 juillet 1798, conduit sur un vaisseau dans la rade d'Alexandrie et transféré trois jours plus tard sur l'*Orient* à Aboukir. Il fut condamné par ordre du 30 juillet à verser une amende : il avait été débarqué la veille et conduit à Rosette. Le 4 août il fut dirigé sur le Caire, où il fut incarcéré le 15. Il fut condamné à mort le 5 septembre et fusillé le surlendemain (Djabarti, III, p. 62-63 ; trad., VI, p. 124 ; Skalkowski, p. xxxii, 25-26 ; de la Jonquière, II, p. 226-228, 256, 309, 316, 319, 389, 439, 440, 445, 446, 448, 451, 452, 461, 500 ; III, p. 9-10 ; Haidar Chihab, II, p. 238).

de Jérusalem : il y gagna une grave maladie qui le mena au tombeau[1]. Tel fut d'ailleurs le sort de ceux qui cherchèrent refuge en Syrie ; ils subirent toutes sortes d'avanies par suite du mépris que leur témoignèrent les habitants de cette région.

Le vizir se rendit en Turquie d'Europe.

Ibrahim bey et sa suite restèrent à Gaza et dans d'autres localités syriennes. Telle fut la destinée des Mamlouks qui étaient partis en Syrie.

Ainsi dans ce même mois de safar, les troupes françaises avaient débarqué de leurs navires sur la plage d'Alexandrie et avaient pris le Caire. Le général en chef Bonaparte donna les instructions suivantes à l'amiral :

— (20) Le séjour de la flotte ici n'est pas sans danger. Mets à la voile et rentre en France.

— Ce n'est pas ton affaire, mais la mienne, répondit l'amiral. Tu es le commandant des troupes de terre et tu peux les conduire à ta guise, mais je prétends diriger mes vaisseaux à ma manière[2].

— Tu connais la meilleure façon de t'en tirer, conclut Bonaparte.

Or la flotte se composait de vingt-trois navires, tant navires de l'État que vaisseaux de guerre. Parmi ces derniers on comptait un navire de haut bord, appelé *Moitié-du-monde,* vaisseau fameux, armé de cent quatre-vingts canons et portant trois mille hommes d'équipage. L'escadre se trouvait donc mouillée dans le chenal lorsque la flotte anglaise vint fondre sur elle et l'attaqua à coups de boulets et de bombes. Un terrible combat s'engagea qui dura vingt-quatre heures : la flotte anglaise fut victorieuse, et le grand navire *Moitié-du-monde* devint la proie des flammes. Il coula, ensevelissant ses richesses formidables, car on y avait laissé le

---

[1] Cf. Haidar Chihab, II, p. 237 ; Djabarti, III, p. 66, 195-196 ; trad., VI, p. 130-131 ; VII, p. 53-55. Djabarti signale que la dépouille de Salih bey fut ramenée trois ans plus tard pour être inhumée au Caire et il fait cette réflexion cruelle : « C'est un fait extraordinaire. De toute antiquité les pèlerins se faisaient enterrer près des Lieux-Saints, berceau des Prophètes et des Saints. Si ce dernier ne le fit pas, c'est probablement pour ne pas souiller la terre sacrée. »

Selon M. J. Savant, qui ne donne pas sa source, Salih bey aurait été empoisonné par Djezzar (*Les mamelouks de Napoléon,* p. 141-142, 334).

[2] Voir une sortie de l'amiral Brueys : de la Jonquière, II, p. 425, n. 1. Costa qualifie Brueys de « traître », ce qui force la note (Costa, p. 9).

par devers lui trois cents hommes destinés à l'occupation de Damiette. Il fit venir le cheikh du district de Menzaleh, le cheikh Hasan Toubar, qui fut revêtu d'une pelisse ; le cheikh du village de Choarah, proche de Damiette, reçut également une pelisse et retourna dans sa bourgade. Toute la contrée s'était ainsi rangée sous la loi des Français.

Le général Murat se rendit dans la Kalioubieh. Le général Lanusse alla dans la Menoufieh, qui se soumit également.

Nous avons laissé le général en chef Bonaparte au moment où il créait le Divan administratif et le tribunal de commerce. Il manda Mohammed kyahya l'Islamisé, dont nous avons (19) parlé précédemment, et le nomma agha des janissaires, avec pleins pouvoirs en ville. Un officier de la milice, appartenant à une vieille famille, fut nommé prévôt des marchés. Un second, du nom d'Ali agha, fut nommé gouverneur du Caire. En remplacement du saiyid Omar Makram, en fuite, le cheikh Khalil Bekri avait été nommé syndic des chérifs [1].

Le général en chef Bonaparte fit partir un corps de troupes en direction de Belbeis à la poursuite d'Ibrahim bey et de sa suite. Les adversaires se rencontrèrent près de Salheyeh : un combat se déroula, avec des pertes des deux côtés, à l'issue duquel le vizir et Ibrahim bey emmenèrent leur monde vers Gaza. Le général en chef Bonaparte revint au Caire [2].

C'est au cours de ce mois que l'émir du pèlerinage, le banneret Salih bey, alors à la Mecque, apprit l'entrée des Français en Égypte. Il fut consterné de leurs succès. Les pèlerins, également affolés, se résolurent pour la plupart à prendre la route de Syrie. Salih bey suivit une autre voie et alla à Jérusalem, en passant par Gaza, et c'est dans le Haram de Jérusalem qu'il déposa le mahmal sacré. Lorsque les habitants le virent arriver, ils se mirent à l'insulter, lui criant en pleine figure : « Allez-vous en d'ici, maudits qui avez livré un territoire d'islam aux infidèles. C'est vous qui, par vos exactions, avez causé la ruine de l'Égypte et de la Syrie. » Le bey, frappé de désespoir par les malheurs de sa patrie, par la ruine de sa famille, la perte de sa Maison, de ses biens et de sa fortune, se trouva de surcroît très affecté des insultes de la population

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 15 ; trad., VI, p. 34.

[2] Cf. Djabarti, III, p. 14 ; trad., VI, p. 31-32 ; Ali pacha, XIV, p. 99-100.

alloua des terrains et des maisons mis sous séquestre comme faisant partie des avoirs des Mamlouks [1].

Peu après, le consul Carlo Rossetti, dont nous avons parlé, fut convoqué [2] : il fut chargé de proposer à Mourad bey, s'il consentait à reconnaître l'autorité de la République française, le gouvernement de Guirgueh et des territoires au sud de cette ville [3]. Il serait traité à l'avenir comme les autres Français et les combats lui seraient ainsi épargnés. Le consul se rendit auprès de Mourad bey et lui remit une lettre en ce sens, dont il lui fit la traduction [4]. En réponse à cette offre, Mourad bey déclara : « Nous ne pouvons pas accepter. Dis au général Bonaparte de rassembler ses troupes et de repartir à Alexandrie. Nous lui paierons dix mille bourses pour qu'il regagne son pays. » Le consul jouissait d'une très grande faveur auprès de Mourad bey, et, comme il lui avait prêté une somme d'argent, il fut, comme de juste, reçu très cordialement et fut gratifié de céréales et de cadeaux divers. Il rapporta la réponse que nous venons de mentionner. A cette nouvelle, Bonaparte désigna le général Desaix, que nous avons nommé ci-dessus, qui partit en Haute Égypte à la tête d'un détachement pour combattre Mourad bey.

Durant le mois de safar également, le général Vial se mit en route sur Damiette : la ville lui fut livrée par les ulémas venus au devant de lui. Ce général s'installa de sa personne à Damiette, laissant à Mansourah une garnison de cent trente hommes avec un commandant, et conservant

---

[1] Sur cet emprunt, voir : Djabarti, III, p. 12-13 ; trad., VI, p. 27-28 ; de la Jonquière, II, p. 292-293 ; III, p. 39, 690.

[2] Sur cette mission de Rossetti, voir : de la Jonquière, II, p. 474 ; Charles-Roux, *Autour d'une route*, p. 141 ; Haidar Chihab, II, p. 234 ; Ghorbal, p. 52.

[3] Cela résultait de données historiques, car le bey de Guirgueh avait pris depuis longtemps de l'importance (Dehérain, p. 70-71 ; *Précis*, III, p. 35, 37, 75 ; Guémard, p. 59).

Cette solution, préconisée déjà en 1180/1766 (Djabarti, I, p. 256-257 ; trad., II, p. 231), fut proposée en 1203/1789 par le capitan pacha Hasan (Djabarti, II, p. 173-174 ; trad., V, p. 55-57, 59 ; Dehérain, p. 146). Ce fut la base de l'accord Kléber-Mourad bey, et les Anglais l'envisagèrent pour résoudre la crise entre les Mamlouks et les Ottomans, en 1216/1801-1802 (*Histoire de la Nation égyptienne*, VI, p. 6, 9).

[4] Cf. de la Jonquière, V, p. 394.

le premier dans la ville, après sa victoire sur les Mamlouks. Le général Menou fut envoyé à Rosette : j'aurai à en reparler.

Les grands ulémas du Caire et deux grands négociants, en tout huit personnes, formèrent ce qu'on appela le Divan, qui eut un centre de réunion spécial, pour recevoir les doléances des habitants de la ville. Il leur fut adjoint un Français, chargé de rédiger les décisions prises et de les transmettre au général en chef. En voici les noms : le saiyid Khalil Bekri, syndic des chérifs ; le cheikh Abd-Allah Charkaoui, président du Divan ; le cheikh Mohammed Mohdi, secrétaire général ; les cheikhs Moustafa Saoui et Solaiman Fayoumi, gardes des sceaux ; Ali kyahya, doyen des janissaires ; Yousouf, officier d'état-major du corps des fusiliers ; le saiyid Ahmed Mahrouki [1]. Ces huit personnes furent nommées membres du Divan particulier et reçurent un traitement mensuel [2].

Un autre conseil [3], composé de sept négociants, fut également constitué sous le nom de tribunal de commerce : présidé par un commerçant français, il eut à connaître des procès des détaillants, des commerçants inscrits au divan [4] et des affaires du même genre.

Sur ces entrefaites, les négociants musulmans des épices furent invités à verser deux cent mille écus de France ; la même somme fut exigée des membres de la communauté copte, qui exerçaient les fonctions d'intendants et de comptables dans les provinces ; les commerçants syriens se virent imputer cent mille écus. L'ensemble de ces prélèvements se monta donc à cinq cent mille écus. (18) Les Coptes furent avisés que cette somme leur serait remboursée sur le montant de l'impôt foncier ; les négociants en épices la récupèreraient sur le produit des douanes sur le café à l'importation ; quant aux commerçants syriens, on leur

---

[1] Le saiyid Ahmed Mahrouki revenait du pèlerinage (Djabarti, III, p. 14 ; trad., VI, p. 30).

[2] Sur les divers divans, voir : Djabarti, III, p. 11, 37, 138 ; trad., VI, p. 23, 78, 261 ; *Histoire scientifique,* III, p. 217 ; Ali pacha, VIII, p. 92 ; de la Jonquière, II, p. 283, note ; Dehérain, p. 341.

[3] Sur ce tribunal de commerce, voir : Djabarti, III, p. 19 ; trad., VI, p. 42-43 ; Haidar Chihab, II, p. 229.

[4] Je pense qu'il s'agit des négociants inscrits au divan du café (Desgranges, p. 31 ; Haidar Chihab, II, p. 229).

promesse d'amnistie. Les notables du Caire allèrent à Guizeh rendre hommage au général en chef Bonaparte. Le mardi 10 Safar (24 juillet), Bonaparte fit son entrée et choisit comme résidence le palais de Mohammed bey Elfi, sur l'étang de l'Ezbékieh, où des délégations se succédèrent pour le saluer. La capitale se remplissait de militaires français. Les demeures des Mamlouks furent livrées au pillage pendant trois jours environ, après quoi le général en chef donna l'ordre de cesser.

Ensuite un crieur public fit savoir que toute la population devait porter la cocarde française [1].

Tels furent les événements qui marquèrent l'entrée des Français au Caire.

Le vizir, Ibrahim bey et les Mamlouks de leur suite s'étaient retirés à Belbeis, sur la route de Gaza. Mourad bey avait emmené ses troupes en Haute Égypte. La nuit même du départ d'Ibrahim bey, une foule considérable de Cairotes s'étaient enfuis de la ville. Ce fut le cas du cheikh el-Sadat, lequel ayant été détroussé par des Arabes revint le lendemain. Le saiyid Omar Makram, syndic des chérifs, partagea le même sort, ainsi que de nombreux habitants du Caire : les Arabes les dévalisèrent, quand ils ne les massacrèrent pas ; certains rebroussèrent chemin ou se perdirent dans le désert, d'autres enfin s'éparpillèrent dans des localités diverses.

(17) Après avoir achevé son installation au Caire, le général en chef Bonaparte répartit les généraux dans les provinces de l'Égypte, leur donnant comme instructions de brûler tout village rebelle, conformément à la proclamation imprimée qui avait été envoyée d'Alexandrie et qui avait été distribuée dans tout l'Orient. Le général Desaix, administrateur distingué, fut expédié à la tête d'une troupe en Haute Égypte. Le général Murat alla dans la Kalioubieh ; le général Vial, à Damiette ; le général Dugua, à Mansourah ; le général Lanusse [2] dans la Menoufieh. Le général Dupuy fut nommé gouverneur du Caire, parce qu'il était rentré

---

[1] Cf. Djabarti, III, p. 3 ; trad., VI, p. 8.

[2] C'est à tort que Desgranges nomme ici le général Lannes, il s'agit bien de Lanusse. A vrai dire celui-ci ne fut appelé au commandement de Menouf que le 20 août 1798, mais il avait été précédé par le général Zayonchek (de la Jonquière, II, p. 302, 383, 552).

Assistait également à cette réunion un individu du nom de Mohammed kyahya, d'origine arménienne, qui s'était converti à l'islam en Égypte : nous le retrouverons. Après de longs palabres, une députation d'ulémas, accompagnée de ce Mohammed Kyahya et des deux Français, se rendit à Boulak, et, à l'aide d'une petite barque, passa sur l'autre rive du fleuve. C'était le dimanche à la fin de la journée : la délégation fut reçue par le général Dupuy, car le commandant en chef Bonaparte était allé à Guizeh, où il s'était installé dans le palais de Mourad bey.

Mohammed kyahya et le Français Clouet se rendirent donc auprès du général Dupuy. Les cheikhs étaient restés à Boulak. Le général Dupuy les interrogea sur la situation du Caire et voulut savoir quels étaient les chefs restés dans la capitale.

— Les chefs ont disparu, répondirent-ils. Nous représentons les grands ulémas et les habitants de la cité, qui n'ont pas la possibilité de vous résister. Prenez possession de la ville, mais nous vous demandons de ne faire aucun mal à la population.

— (16) Cette grâce vous est accordée, puisque l'opposition a été inexistante : la vie de ceux qui mettent bas les armes sera respectée. Allez rassurer les cheikhs et faites-nous envoyer des bacs[1] pour que l'armée puisse entrer à Boulak.

La délégation repartit de suite pour informer les ulémas de ce qu'ils avaient vu de leurs yeux et leur dirent : « Le général Dupuy réclame des barques. » Des mariniers furent réquisitionnés sur-le-champ pour transporter l'armée, ce qui fut ponctuellement exécuté. Le général Dupuy arriva avec cent soldats à Boulak, où il prit contact avec les ulémas. Ceux-ci dirigèrent le cortège, précédés de porteurs de torches, car la nuit était tombée. La troupe défila sabre au clair, tandis qu'un héraut criait : « Habitants, paix et sécurité ! » Le général descendit dans la demeure d'Ibrahim bey le Jeune[2], où il passa la nuit ; il envoya aussitôt une section prendre possession de la Citadelle. Le lendemain lundi 9 Safar (23 juillet), un héraut parcourut la ville pour renouveler la

---

[1] *Maʿaddiya* : Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XX, p. 76.

[2] Cette maison se trouvait au sud de la Citadelle, au nord de la rue actuelle Nour el-Zalam, soit au coin sud-est du quartier d'Hilmieh.

terreur indescriptible ! (15) La population vécut dans l'angoisse, affolée par le vacarme infernal d'un tir incessant et tonitruant. L'armée française comprenait trente mille hommes, et la fusillade et la canonnade continuelles avaient terrorisé la capitale.

Le vizir et le banneret Ibrahim bey furent vivement impressionnés par l'horreur de cette bataille et par la puissance de l'artillerie : voyant que la plupart des gens se jetaient dans le Nil, ils quittèrent Boulak pour rentrer en ville.

Puis emmenant leur famille et emportant de l'argent et quelques objets légers, ils sortirent de la capitale. La population de Boulak se réfugia également en ville : les gens sanglotaient, se frappaient le visage en hurlant : « Malheur à nous ! Nous voici maintenant prisonniers des Français. » Réellement l'instant était tragique et il y avait de quoi faire blanchir en un clin d'œil les cheveux des enfants à la mamelle. Lorsque les cheikhs et les ulémas de la capitale se rendirent compte de la situation, assurés d'une catastrophe épouvantable à la suite de la fuite des chefs, ils furent saisis de terreur. Ils craignaient que les Français ne mettent le feu à la ville et n'en massacrent les habitants, ou que tout au moins ils n'exerçent des violences sur la population. Ils se réunirent dès le lendemain et proposèrent de demander quartier : cette solution leur paraissait préférable, puisque les militaires avaient fui et qu'il ne restait plus dans les demeures de la ville que les résidents et leur famille. Ils firent venir sur-le-champ les Européens qui avaient été enfermés à la Citadelle pour s'entretenir avec eux de la question. Il y avait parmi eux le négociant Baudeuf [1] et le médecin Clouet [2] : c'étaient deux Français.

---

[1] Sur Baudeuf, voir : Martin, I, p. 195-197, 205, 207, 254 ; *Histoire scientifique*, II, p. 517 ; III, p. 191, 210, 217, 229 ; IV, p. 162-164, 202 ; Marcel, p. 249 ; Charles-Roux, *Origines*, p. 283 ; Dehérain, p. 267.

Il se cache sous l'orthographe Boudani dans Djabarti, III, p. 37 ; trad., VI, p. 78 (Bandeny).

Nous retrouverons sa signature comme membre du grand divan et il fut nommé par Kléber secrétaire d'une commission chargée de faire connaître l'état de l'Égypte (*Courrier de l'Égypte*, n°s 23, 24, 47). Je dois ces dernières références à la gracieuse obligeance de M. Maurice Chevalier.

[2] Costa (p. 7) donne ici Charlot, شارلو .

parvint en ville. Puis l'avis prévalut de se rapprocher de la capitale et les troupes quittèrent Djisr el-Asouad pour prendre position à Embabeh, en face de Boulak, où elles commencèrent à établir des batteries. Ibrahim bey restait à Boulak avec son armée, tandis que les forces de Mourad bey se trouvaient à Embabeh ; tous deux étaient placés vis-à-vis l'un de l'autre et séparés par le Nil ; ils avaient calculé que si les Français s'avançaient par le fleuve, Ibrahim s'opposerait à eux et que, s'ils venaient par la route de terre, ce serait Mourad bey qui marcherait à leur rencontre.

Voici ce qui se passa [1] : le samedi 7 safar (21 juillet), dans l'après-midi, l'armée française se présenta par la route de terre et découvrit les Mamlouks. Les tambours battirent la charge : le général Dupuy, guerrier valeureux, du courage de mille braves à lui seul en un jour de bataille, s'élança à l'attaque et fonça sur les troupes mamloukes. Celles-ci chargèrent à leur tour, après avoir fait feu de leurs pièces d'artillerie, et ce fut une mêlée farouche. La victoire des Français fut favorisée par un vent violent qui frappait les Mamlouks en plein visage. Mais ces derniers ne purent surtout résister aux rafales de projectiles qui s'abattirent sur eux. Les Mamlouks n'avaient utilisé leur artillerie qu'une seule fois, à l'aide de quatre-vingts pièces, car leurs servants avaient reçu une pluie de boulets. Les Français attaquèrent les épaulements et s'en rendirent maîtres, puis ils foudroyèrent les troupes mamloukes à l'aide de leurs propres canons, retournés contre l'ennemi. Les Mamlouks étaient ainsi acculés au Nil, par la manœuvre française, le banneret Ayyoub bey le Jeune [2], defterdar en fonction au Caire, fut tué, culbuté sous les pieds des chevaux, et son corps ne fut pas retrouvé. Ibrahim bey le Jeune [3] se jeta dans le Nil et se noya. Un marin l'avait assommé à coups de perche [4] en lui criant : « C'est vous, tyrans, qui êtes responsables de ce malheur. » Quant au banneret Mourad bey, il prit la fuite avec le reste des beys et passa à Guizeh, sa résidence habituelle, puis ayant brûlé un grand bateau qu'il avait là, il s'enfonça en Haute Égypte. Ses troupes se débandèrent. Le combat n'avait pas duré plus de deux heures. Mais quelles heures de

[1] Cf. Ali pacha, VIII, p. 89-91 ; Haidar Chihab, II, p. 226-227.
[2] Cf. Djabarti, III, p. 66 ; trad., VI, p. 129-130.
[3] Cf. Djabarti, III, p. 63-64, 198 ; trad., VI, p. 124-126 ; VII, p. 60.
[4] *Madra* : Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XX, p. 71.

avant le gouvernement d'Ali bey le Grand [1] : c'était un personnage important, plein de qualités, de mœurs paisibles, vénéré par le peuple à cause de ses libéralités et de son caractère agréable. Nous aurons à en reparler.

Le banneret Mourad bey emmena ses escadrons sans désemparer jusqu'à Rahmaniyeh, où il se heurta aux divisions françaises, qui s'avançaient comme un fleuve impétueux, comme un torrent déchaîné. Il avait envoyé ses munitions, par la voie du Nil, sur des dhahabiehs [2] montées par des Grecs et des Crétois, pendant qu'il acheminait son armée par la route de terre. Arrivés à Rahmaniyeh, les Mamlouks aperçurent les galiotes françaises au milieu du Nil, qui soutenaient avec les dhahabiehs un combat d'artillerie. Une bombe partie d'une galiote tomba sur la dhahabieh qui portait les munitions : ce bateau prit feu ainsi que les dhahabiehs environnantes. Puis l'incendie gagna la terre et, se communiquant aux munitions qui s'y trouvaient déposées, les consuma également. Ce fut un moment de frayeur intense : l'explosion fit (14) voler les hommes en l'air comme des oiseaux [3]. Les troupes de terre, à cette vue, levèrent le camp et battirent en retraite, dispersées à coups de boulets et de mitraille. Elles ne cessèrent de reculer à toute allure et ne s'arrêtèrent pour camper qu'à Djisr el-Asouad [4], à une demi-journée du Caire. C'est à ce moment que la nouvelle de cette défaite

[1] Ali bey gouverna l'Égypte d'une manière presque indépendante de 1177/1763 à 1187/1773 (Volney, I, p. 104-130 ; Martin, I, p. 116-121 ; Djabarti, I, p. 206, 207, 250-259, 304-309, 317, 318, 334-337, 344, 349, 350, 364-368, 371, 376, 380-384, 417, 418 ; II, p. 7, 8, 36-38, 58, 91 ; trad., II, p. 151, 152, 214, 216, 218-228, 230-238, 306, 307 ; III, p. 5, 7-16, 29, 31-34, 51-55, 58-60, 74-76, 87-93, 115-120, 123-125, 130-132, 144, 145, 152-163, 224-227, 244-246 ; IV, p. 36, 38, 40, 42, 43, 80, 244 ; *Histoire scientifique,* II, p. 491-509 ; Hammer, XVI, p. 148-150, 157-160 ; Marcel, p. 222, 228-241 ; Bréhier, p. 5-11 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 43, 53, 72-75 ; *Encyclopédie,* I, p. 293-294 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 20-22, 30-35, 38, 40, 107 ; Dehérain, p. 33, 70, 92, 122-137, 162, 163, 186 ; *Précis,* III, p. 42-48, 74, 76, 78, 82, 189-190 ; Guémard, p. 10 ; Sabry, p. 20-21).

[2] Sur *dhahabieh,* voir Colin, *Bulletin de l'Institut français,* XX, p. 77-78.

[3] Costa (p. 6) note ici une crise d'hilarité parmi les soldats français, comme Nicolas la signalera au moment de la bataille du mont Thabor (plus loin, p. 41 du texte).

[4] A hauteur des Barrages (Ali pacha, VII, p. 85 ; X, p. 95 ; Marcel, p. 244).

au lieu dit Hilli[1]. Toute la population prit les armes et se prépara à combattre dans la voie de Dieu pour repousser les infidèles.

Cependant les chrétiens étaient en proie aux plus vives alarmes, menacés de mort et de pillage par les musulmans. «Maudits soyez-vous, leur disait-on, votre dernière heure est arrivée : il est maintenant permis de vous tuer et de piller vos biens.» C'était une effroyable détresse pour eux, qu'un feu dévorant entourait. Mais la miséricorde de Dieu, — que sa grandeur soit glorifiée! — toucha et attendrit pour eux le cœur du vizir et du cheikh el-béled. Chaque jour, ils envoyaient au domicile des chrétiens Sélim[2], l'agha des janissaires, pour les rassurer sur la conservation de leur vie et de leurs propriétés : ils firent en outre proclamer dans toute la ville la défense de les inquiéter et de les molester[3].

Tous les Européens, sans exception, furent appréhendés et incarcérés à la Citadelle. On interna ainsi une vingtaine d'individus, Français, Autrichiens et Vénitiens. Dans le nombre figurait le grand consul Carlo Rossetti[4], d'origine vénitienne, depuis longtemps consul d'Autriche au Caire. Il y avait plus de trente-cinq ans qu'il résidait en Égypte, bien

---

[1] Il s'agit d'un palais situé au Nord et tout près de Boulak, dont l'emplacement est maintenant englobé dans la ville du Caire. «Le château qu'on m'a indiqué, à une lieue de Boulak dans les terres, n'est plus qu'un amas de pierres; et c'est en ce lieu que les beys, véritables dominateurs et tyrans de l'Égypte, vont recevoir le nouveau pacha pour l'aller consigner au palais de la citadelle» (*La contemporaine en Égypte,* III, p. 358 et p. 382 : «les plaines de Helle et Boulak»).

Ce nom est souvent estropié ou sauté dans la traduction de Djabarti (I, p. 53, 54, 126, 128, 383; II, p. 150; III, p. 29, 188, 299; trad., I, p. 128, Kasre el Houla, 131, un riche cadeau, 290, El Helli, 295, Kasr el Heli; III, p. 162, Kasr el Hely; V, p. 26, *non traduit;* VI, p. 62, Hilli; VII, p. 33, El Helly, 83, 314, *non traduit;* voir : Ali pacha, X, p. 30; XII, p. 135; Sami pacha, II, p. 122).

[2] Ce Sélim était en fonctions depuis 1199/1785 (Djabarti, II, p. 93, 102, 103, 106, 107, 109, 195; trad., IV, p. 149, 151, 171, 175, 181, 186, 190; V, p. 100).

[3] Voir Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte,* IX, p. 10.

[4] Sur Carlo Rossetti, voir Martin, I, p. 192; *Histoire scientifique,* II, p. 501; III, p. 187; Marcel, p. 235; Bréhier, p. 7; Charles-Roux, *Origines,* p. 171, 217; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 30-32, 140-143, 153, 157, 158, 171, 285; Guémard, p. 65; Volney, I, p. 181; *Précis,* III, p. 86.

possesseur de gloire et grandeur.» Ce point de vue fut combattu par le maître et saiyid Omar Makram, syndic des chérifs, par Ayyoub bey le Jeune le Defterdar, par d'autres beys, par des kachefs subalternes, des ulémas et des particuliers de moindre envergure. Finalement Son Excellence le vizir et le cheikh el-béled, estimant que cette opinion était néfaste, n'adoptèrent pas une mesure aussi grave [1]. En conclusion, le conseil arrêta que l'émir Mourad bey, avec tous les beys, dirigerait un important contingent à la rencontre des Français à Damanhour. Son Excellence le vizir Békir pacha et le cheikh el-béled Ibrahim bey camperaient à Boulak avec le reste de l'armée.

Le vendredi, après la prière, le banneret Mourad bey partit en direction de Rahmanieh au-devant des troupes françaises, accompagné des autres beys, des kachefs, de toute leur cavalerie [2], des sept corps de la milice avec leurs colonels, des aghas et des Arabes bédouins : l'ensemble atteignait plus de vingt mille hommes.

Telles furent les dispositions prises par le banneret Mourad bey. De leur côté, le vizir du (13) sultan et le banneret Ibrahim bey, avec sa Maison [3], réunirent le reste des troupes et allèrent s'installer à Boulak,

---

[1] Cf. Politis, *L'hellénisme et l'Égypte moderne*, I, p. 115.

[2] Nous prenons ici le mot *sarradj* dans son acception de « simple mamlouk » (Colin, *Notes de dialectologie, Bulletin de l'Institut français*, XVII, p. 203).

Mais *sarradj* a aussi la signification d'écuyer, et encore une « espèce de domestiques à cheval qui portent les ordres des beys et remplissent les fonctions d'huissiers » (Volney, I, p. 153 ; de la Jonquière, II, p. 578 ; J. Savant, *Les mamelouks de Napoléon*, p. 17, 28).

Voir à leur sujet cette curieuse déclaration d'un officier : « Ce sont pour les musulmans les pires créatures de Dieu et les plus nuisibles ; la plupart sont des chrétiens qui font semblant d'être musulmans. En étant à notre service, ils font subir les plus grands dommages aux musulmans » (Djabarti, II, p. 36-37 ; trad., IV, p. 38-39). D'autre part, Niebuhr écrivait (*Voyage en Arabie*, I, p. 165) : « C'est une espèce de Sergents au service des Beys, et ils aiment à se donner un air d'importance aux yeux du peuple, surtout quand ils peuvent insulter un Juif ou un Chrétien. »

[3] J'adopte cette expression pour désigner les mamlouks d'un bey ; on disait aussi « famille » dans les milieux européens de l'époque (Volney, I, p. 104, 139 ; Bréhier, p. 13 ; Dehérain, p. 52, 75 ; J. Savant, *op. cit.*, p. 24).

certaine (12) influence. Ils commencèrent par s'entretenir de l'irruption des Français dans le pays. Le banneret Mourad bey, informé des mauvaises dispositions de la Sublime Porte à son égard, apostropha le vizir en plein conseil :

— Les Français, dit-il, n'ont pu venir dans ce pays qu'avec le consentement de la Sublime Porte, et nécessairement toi, le vizir, tu dois avoir eu connaissance de leurs projets. Le destin nous aidera contre vous et contre eux.

— Tu n'as pas le droit, répondit le vizir, de tenir un pareil langage. La Sublime Porte n'a pas pu permettre aux Français d'envahir un territoire musulman. Repoussez de telles paroles, soyez courageux et droits, levez-vous comme des braves que vous êtes, préparez-vous à combattre et à résister par la force, puis remettez-vous en à Dieu.

L'on discuta ensuite du sort des Européens présents au Caire : « Il est juste et conforme à l'usage, déclara le vizir, de les incarcérer à la Citadelle, eux et leurs familles. Il faudra ensuite perquisitionner chez l'ensemble des chrétiens pour chercher les armes qu'ils détiennent. » Certains beys et ulémas ajoutèrent : « Il faut exterminer tous les chrétiens avant de marcher contre ces infidèles. » Mais le vizir, appuyé par le cheikh el-béled Ibrahim bey, s'y opposa en disant : « Il n'est pas possible de suivre ces directives, car ces chrétiens sont des sujets de notre souverain le sultan,

---

huissiers à verge ; — p. 189 ; trad., II, p. 116 ; — p. 255 ; trad., II, p. 228 : les officiers à verge ; — p. 256 ; trad., III, p. 229 ; — II, p. 93 ; trad., IV, p. 151 : les chefs des odjaks ; — p. 135 ; trad., IV, p. 260). — Voir Kremer, II, p. 20 ; Fagnan, p. 118 ; on retrouvera la formule plus loin p. 62, 128 du texte.

Il résulte d'un autre passage de Djabarti (II, p. 25 ; trad., IV, p. 15 : les principaux chefs militaires) qu'il s'agit des aghas des corps de la milice. Une fois, ce sont ces officiers qui vont prévenir le pacha d'Égypte de sa déposition (II, p. 59 ; trad., IV, p. 80 : non traduit).

Djabarti (IV, p. 127 ; trad., VIII, p. 286) signale un *moukaddam bi-oukkaz*, traduit par « un garde portant un bâton ».

On voit le substitut du cadi inspecter les marchés en compagnie d'un cavas qui porte un sac rempli de ces cannes, *akakiz* (Djabarti, I, p. 103 ; trad., I, p. 210).

On a noté que certains officiers de justice portaient une canne (Dozy, I, p. 48).

C'est en tenant compte des considérations précédentes que j'ai pensé par hypothèse aux officiers de la prévôté.

Fayoumi[1], le cheikh Moustafa Saoui[2], le cheikh Arichi[3], le cheikh Amir[4], et le saiyid Omar Makram[5], syndic des chérifs. Quant aux cheikhs d'un rang inférieur, ils étaient très nombreux.

Ces neuf cheikhs, accompagnés des beys que nous venons d'énumérer, se rendirent donc avec le vizir au palais de Kasr-el-Aini, où se tint un grand conseil, auquel assistèrent les sept colonels de la milice, les kachefs[6] supérieurs et subalternes les lieutenants-colonels, les commandants, les officiers de la prévôté[7], enfin des particuliers disposant d'une

---

p. 107, 109, 134, 137, 138, 152, 182 ; IV, p. 233-234 ; VI, p. 205-207, 211, 253, 254, 259, 261, 287; VII, p. 21 ; Marcel, p. 244-245 ; Mengin, I, p. 332-336, 383, 395, 432 ; II, p. 14, 59 ; *Histoire scientifique,* II, p. 513 ; VIII, p. 83 ; Rigault, p. 156 ; Dehérain, p. 352-354 ; Douin, *Égypte de 1802,* p. 16).

[1] Solaiman Fayoumi fut le cheikh du riouak des étudiants du Fayoum à el-Azhar ; c'était un savant très estimé, qui mourut en 1224/1809 (Djabarti, II, p. 152 ; III, p. 48, 53, 109, 137, 152, 153 ; IV, p. 105-107 ; trad., V, p. 6 ; VI, p. 101, 108, 211, 259, 287-289 ; Mengin, I, p. 176, 340 ; *Histoire scientifique,* V, p. 109-111 ; VIII, p. 79, 83 ; IX, p. 235, 365 ; Rigault, p. 149, 151, 156 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 12, 27, 37, 59, 63, 67, 112, 138).

[2] Moustafa Saoui, savant distingué (Djabarti, II, p. 108 ; IV, p. 187).

[3] Il s'agit du cheikh Ahmed Arichi, qui fut grand cadi pendant l'occupation française ; il mourut en 1218/1803 (Djabarti, III, p. 53, 115, 116, 139, 144, 289 ; trad., VI, p. 108, 221, 222, 264, 272 ; VII, p. 290-292 ; *C. I. A., Égypte,* I, n° 4 ; Marcel, p. 244, 245).

[4] Le cheikh Amir, professeur et écrivain, mort en 1232/1817 (Djabarti, I, p. 419 ; II, p. 60, 108, 157, 158, 177, 192, 226, 258 ; III, p. 109, 137, 176, 182, 278 ; IV, p. 284 ; trad., III, p. 228 ; IV, p. 83, 188 ; V, p. 19, 21, 65, 92, 156, 210 ; VI, p. 211, 259 ; VII, p. 5-6, 21 ; IX, p. 256 ; *Histoire scientifique,* VIII, p. 83 ; Rigault, p. 156).

[5] Le saiyid Omar Makram n'avait pas alors l'importance qu'il prendra plus tard (Djabarti, II, p. 193, 225 ; trad., V, p. 94, 95, 155).

Le manuscrit Desgranges cite aussi neuf cheikhs : il faut probablement lire « Arichi » au lieu d'« Arabi »? Le cheikh Amir est remplacé par Mohammed Gauhari, que nous retrouverons plus loin.

[6] Voir Deny, p. 25.

[7] L'expression *arbab el-akakiz,* les *autorités portant le bâton* (Cardin, p. 7), se retrouve dans Djabarti (I, p. 100 ; trad., I, p. 232 : les officiers des différents corps ; p. 152 ; trad., II, p. 26 : les officiers ; — p. 188 ; trad., II, p. 108 : les

Mourad bey le Jeune [1], Mohammed bey Mabdoul [2], Othman bey Taouil [3]. Quant à Salih bey [4], il accomplissait son pèlerinage à la Mecque. Tels étaient les noms des vingt-quatre beys en fonctions. Un certain nombre de grands ulémas se trouvaient alors au Caire : le vénérable maître le cheikh Abd-Allah Charkaoui [5], le cheikh Sadat [6], le cheikh Khalil Bekri [7], le cheikh Mohammed Mohdi [8], le cheikh Solaiman

---

[1] Mourad le Jeune, nommé bey en 1205/1791, sera tué dans le guet-apens organisé par les Turcs à Aboukir en 1216/1801 (Djabarti, I, p. 414 ; III, p. 189, 201, 218 ; trad., III, p. 218 ; VII, p. 36, 70, 102 ; Desgranges, p. 224 ; Mengin, I, p. 13, 15 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 403).

[2] Mohammed bey Mabdoul, nommé bey en 1192/1778 (Djabarti, II, p. 52, 117, 118, 139, 140, 178, 194 ; trad., IV, p. 64, 212, 217, 270, 273 ; V, p. 68, 98).

[3] Othman bey Taouil semble n'être connu que de Nicolas (voir Desgranges, p. 200) et de Haidar Chihab (II, p. 225), lequel place sa mort en 1215/1800 (p. 322).

D'après un autre passage de Haidar Chihab (I, p. 151), cet Othman Taouil aurait succédé à Ismaïl bey en 1205 en qualité de cheikh el-béled : en ce cas, il conviendrait de l'identifier avec Othman bey Tobal de Djabarti (II, p. 191 ; trad., V, p. 91 ; *Description,* XII, p. 50).

[4] Salih bey fut promu en 1212/1797 : il était émir du pèlerinage (Martin, I, p. 178).

[5] Abd-Allah Charkaoui était recteur d'el-Azhar depuis l'année 1208/1794 ; il fut président du divan institué par Bonaparte ; il mourut en 1227/1812 (Djabarti, II, p. 61 ; III, p. 109, 116, 134, 137, 138, 152 ; IV, p. 19, 159-165 ; trad., IV, p. 88 ; V, p. 209-210 ; VI, p. 221, 222, 253, 259, 261, 287 ; VIII, p. 359-372 ; Mengin, I, p. 142, 149, 158, 161, 163, 168, 172, 173, 185, 189, 217, 220, 241, 323, 334, 358, 366 ; *Histoire scientifique,* VIII, p. 83, IX, p. 213, 248, 365, 408 ; Rigault, p. 151, 156 ; Ali pacha, XIII, p. 63-65 ; Douin, *Mohamed Aly, pacha du Caire,* p. 19, 159).

[6] Le cheikh Sadat était supérieur des descendants du cheikh Ouafa depuis 1182/1768 (Djabarti, II, p. 9, 18, 51, 54, 79, 108, 118, 120, 138, 139, 175, 258 ; trad., III, p. 248-249, 270 ; IV, p. 62, 70, 116, 186, 188, 215, 216, 222, 266, 269 ; V, p. 61, 210 ; Marcel, p. 245).

[7] Khalil Bekri, supérieur des descendants d'Abou Bekr depuis 1208/1794 (Djabarti, II, p. 252, 258 ; trad., V, p. 201, 210).

[8] Le cheikh Mohdi était un professeur, qui devint un des membres les plus influents du divan institué par Bonaparte. Il fut l'ami de l'orientaliste Marcel qui publia des *Contes* sous son nom. Il mourut en 1230/1815 (Djabarti, trad., III,

Bardisi[1], Mohammed bey Manfoukh[2], Kasim bey Abou Seif[3], Kasim bey[4], émir des deux mers[5], Kasim bey le Moscovite[6], Ibrahim bey le Jeune[7],

(1) Othman bey Bardisi, nommé bey en 1210/1795 (Djabarti, IV, p. 42 ; trad. VIII, p. 89).

(2) Mohammed bey Manfoukh n'est pas cité avant l'expédition française.

(3) Kasim Abou Seif, nommé bey en 1201/1787, continua la lutte contre les Français, puis ne joua plus un très grand rôle ; il mourut en 1216/1801 (Djabarti, II, p. 115, 122, 140 ; III, p. 207, 210, 218, 219 ; trad., IV, p. 207, 226, 273 ; VII, p. 84, 88, 91, 103-105 ; Desgranges, p. 200 ; de la Jonquière, III, p. 611 ; V, p. 42 ; Dehérain, p. 382 ; Douin et Fawtier-Jones, *Politique mameluke,* I, p. 403 ; Haidar Chihab, II, p. 322.

(4) Ce Kasim bey semble inconnu avant que les chroniques ne parlent de sa mort (voir plus loin p. 36 du texte).

(5) La lecture de ce titre semble assurée par un texte français, un rapport du général Reynier, qui donne *émir el-bahr* (de la Jonquière, III, p. 167), ce qui permettrait de corriger *amin el-bahrein,* qu'on rencontre toujours dans Djabarti.

Il ressort d'un passage ultérieur qu'il s'agit d'une sorte d'intendant des subsistances, qui avait sous son autorité les ports de Boulak et du Vieux-Caire, ainsi que tous les magasins de vente des céréales (plus loin p. 155 du texte, où on lit *amin*).

Tout naturellement les Français confièrent ce poste à un de leurs compatriotes dès leur installation au Caire (Djabarti, III, p. 12 ; trad., VI, p. 25).

On lit dans Djabarti et dans Ali pacha : *amin el-bahrein* (I, p. 54, 116, 119, 135, 171 ; II, p. 10, 21, 92-93 ; III, p. 12, 265 ; trad., I, p. 131, 268 : commandant des deux mers ; 272, 312 ; II, p. 67 ; III, p. 251 ; non traduit ; IV, p. 146, 149 ; VI, p. 25 : douane ; VII, p. 225 : directeur de la navigation ; Ali pacha, III, p. 111 ; XIV, p. 45 ; XVIII, p. 33 ; Ghorbal, *Mohammad Ali,* p. 43).

Le manuscrit Desgranges fournit *amir el-bahr,* que le traducteur rend par « intendant de la marine » (Desgranges, p. 23, 200 ; Haidar Chihab, II, p. 322).

(6) Kasim le Moscovite, nommé bey en 1197/1783, tint la campagne contre les Français ; mort de la peste en Syrie en 1215/1800 (Djabarti, I, p. 414 ; II, p. 73, 195 ; III, p. 174 ; trad., III, p. 218 ; IV, p. 105 ; V, p. 99 ; VI, p. 326 ; de la Jonquière, V, p. 288, 303 ; Ali pacha, II, p. 41).

(7) Ibrahim bey le Jeune, nommé bey en 1192/1778 (Djabarti, I, p. 414 ; II, p. 23, 25, 73, 80-83, 92, 104, 158, 172, 175, 195, 227 ; III, p. 63 ; trad., III, p. 218 ; IV, p. 12, 15, 104, 105, 118, 119, 123, 124, 126, 147, 177 ; V, p. 21, 55, 62, 99-101, 158 ; VI, p. 63 ; Marcel, p. 243 ; Ali pacha, II, p. 41).

bey Charkaoui[1], Ayyoub bey le jeune[2], Sélim bey Abou Diyab[3], Ahmed bey Kilardji[4], Othman bey Achkar[5], Rachouan bey[6], Marzouk bey[7], Mohammed bey Elfi[8], Othman bey Tanbourdji[9], Othman bey

[1] Othman bey Charkaoui, nommé après 1189/1175; combattit les Français en Haute Égypte; fut blessé et passa pour avoir été tué; rentra au Caire sous Kléber avec l'avant-garde turque; repartit en Syrie, où il mourut de la peste en 1215/1800 (Martin, I, p. 364; Desgranges, p. 199-200; Djabarti, I, p. 414; II, p. 2, 73, 74, 75, 79-81, 83, 93, 102-104, 110, 111, 118, 158, 172, 173, 195, 227, 239, 258; III, p. 63, 74, 75, 92, 172; trad., III, p. 218, 231; IV, p. 104-108, 116, 117, 119, 123, 124, 126, 149, 172, 176, 192, 197, 215; V, p. 21, 55, 99, 159, 179, 180, 209; VI, p. 125, 143, 144, 175, 322; *Histoire scientifique*, V, p. 73; de la Jonquière, III, p. 591, 611, 619, 635, 656; V, p. 89, 259, 298, 299, 303, 308, 331, 334, 492, 558; Marcel, p. 243; Haidar Chihab, II, p. 322).

[2] Ayyoub bey le Jeune, nommé bey en 1189/1775 (Djabarti, I, p. 414; II, p. 2, 73, 74, 79-82, 92, 111-113, 118, 130, 140, 143, 158, 173, 175, 176, 195, 200, 202, 203, 240, 258; trad., III, p. 218, 231; IV, p. 104-107, 116, 118, 119, 123, 144, 148, 196, 199, 201, 215, 246, 273, 279; V, p. 21, 52, 55, 62, 64, 99, 111, 116, 181, 209, 210; Marcel, p. 243).

[3] Sélim bey Abou Diyab, nommé bey après 1189/1175 (Djabarti, I, p. 414; trad., III, p. 218).

[4] Ahmed bey Kilardji, nommé avant 1189/1775 (Djabarti, I, p. 414; II, p. 2, 10-12, 14, 22, 92, 102, 104, 105, 195; trad., II, p. 217, 231, 251, 252, 254, 259; IV, p. 9, 146, 172, 176, 179; V, p. 99).

[5] Othman bey Achkar, nommé bey en 1192/1778 (Djabarti, II, p. 59, 60, 73, 74, 80, 82, 92, 110, 140, 143, 175, 195, 196, 250; trad., IV, p. 82, 104-106, 118, 125, 148, 192, 273, 279; V, p. 99-102, 197).

[6] Rachouan bey est peu connu. Il semble avoir combattu aux côtés de Mourad bey; il succombera au massacre des mamlouks de 1226/1811 (Cardin, p. 74, 155; Djabarti, IV, p. 131; trad., VIII, p. 295; Desgranges, p. 200; de la Jonquière, III, p. 611, 637-639, 656; V, p. 506; Dehérain, p. 382). L'identification faite dans Douin et Fawtier-Jones (*Politique mameluke*, I, p. 403) est erronée.

[7] Marzouk bey, fils d'Ibrahim bey le Grand, fut nommé bey en bas âge (Djabarti, II, p. 80, 83, 84, 117, 118, 195; trad., IV, p. 120, 127, 130, 213, 215; V, p. 99).

[8] Mohammed bey Elfi, nommé bey en 1192/1778 ou en 1198/1784 (Djabarti, II, p. 82, 83, 110, 111, 172, 195, 226, 250, 258; trad., IV, p. 120, 126, 192, 197; V, p. 55, 99, 157, 197, 209; Marcel, p. 247; *Hist. scient.*, II, p. 517).

[9] Othman bey Tanbourdji, nommé bey en 1197/1783 (Djabarti, II, p. 111, 140, 146, 182, 195; trad., IV, p. 196, 273, 287; V, p. 75, 99-101; Charles-Roux, *Autour d'une route*, p. 252; Dehérain, p. 67).

bey [1], Moustafa bey [2], Ayyoub bey le Grand [3], Solaiman bey [4], Othman

79, 91, 117, 135, 140, 171, 172, 182, 184, 185, 189, 192-199, 232, 233, 237, 242, 251, 252, 261, 262, 263, 266, 289-291, 293, 294, 318-320, 323, 334, 338, 340 ; *Encyclopédie,* II, p. 463 ; Dehérain, p. 34, 62, 75, 81, 86, 92, 138, 140-149, 193-195, 208, 210-212, 216 ; *Précis,* III, p. 48-50, 132, 190-191).

[1] Mourad bey le Grand, nommé bey en 1182/1768 (Martin, I, p. 121-127, 131, 182 ; Djabarti, I, p. 345, 349, 413, 414 ; II, p. 2, 3, 8-11, 13, 14, 19, 21-24, 36-38, 51, 58, 59, 61, 72-74, 79-84, 92, 93, 102-115, 117, 132, 134, 146, 156, 158, 161, 169, 176, 192, 195, 196, 219, 225, 226, 229, 230, 249, 251, 257, 259 ; trad., III, p. 76, 88, 213, 216, 217, 231-234, 246, 249-251, 253, 254, 257, 259, 270, 271 ; IV, p. 5, 6, 8, 10, 11, 14, 37, 38, 40, 41, 62-64, 68, 69, 81, 82, 86, 100-105, 107, 108, 115-127, 130, 146, 148-150, 170-173, 176, 180, 181, 184-187, 191-193, 195-198, 200, 203-205, 207, 213, 251, 266, 287 ; V, p. 15, 16, 20, 21, 31, 49, 64, 93, 99, 100, 102, 144, 155, 156, 178-181, 194, 200, 208-211 ; *Histoire scientifique,* II, p. 494, 507-518 ; III, p. 146 ; Marcel, p. 231, 238, 242-250 ; Ryme, p. 28 ; Bréhier, p. 11, 12, 21 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 73, 75, 78, 108, 148-150, 154, 155, 164, 218-221, 238, 246, 247, 260-263, 266, 267, 270, 283-287, 291 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 57, 117, 140, 171, 172, 176, 181, 182, 184, 186, 188, 189, 192-199, 214, 232, 233, 237, 242, 251, 252, 261-263, 266, 269, 289, 291, 293, 318-320, 323, 334, 338, 340 ; Dehérain, p. 34, 67, 72, 75, 76, 81-83, 86-92, 135, 140-151, 193, 194, 208, 210, 211, 213-216 ; *Précis,* III, p. 48-50, 75, 89, 132, 190-191 ; Carré, *Voyageurs,* I, p. 114-115).

[2] Moustafa bey le Grand, nommé bey en 1185/1771. On définit mal son rôle après l'occupation française ; il se trouve au Caire pendant la révolte contre Kléber ; il meurt en 1215/1800 (Djabarti, I, p. 366, 414 ; II, p. 2, 10, 14, 21, 22, 73, 74, 79-82, 92-94, 102, 110, 172, 192, 195, 201, 203 ; III, p. 93, 96, 173 ; trad., III, p. 120, 217, 231, 251, 259 ; IV, p. 6, 8-9, 104, 107, 116, 117, 119, 120, 123-125, 147, 152, 170, 171, 193 ; V, p. 55, 99, 111, 116 ; VI, p. 178, 322-323 ; Desgranges, p. 199 ; Haidar Chihab, II, p. 322).

[3] Ayyoub bey le Grand, nommé bey en 1189/1775, disgrâcié et renommé en 1192/1778, mourut en 1215/1800 (Djabarti, I, p. 414 ; II, p. 2, 23, 32, 72, 92, 111-113, 115, 123, 143, 193 ; III, p. 172 ; trad., III, p. 218, 231 ; IV, p. 11, 148, 199, 201, 207, 230, 272, 279 ; V, p. 96 ; VI, p. 322 ; Desgranges, p. 199 ; Ali pacha, II, p. 123).

[4] Solaiman bey, nommé en 1191/1777 (Djabarti, I, p. 414 ; II, p. 73, 74, 80-83, 92, 93, 158, 175, 195 ; trad., III, p. 218 ; IV, p. 104, 105, 108, 118, 119, 121, 124, 126, 127, 147-149 ; V, p. 21, 62, 99 ; Marcel, p. 243).

Tels furent les événements d'Alexandrie et de Rosette. Nous avons rapporté que le saiyid Mohammed Koraim, dès le débarquement des troupes françaises sous les murs d'Alexandrie, avait annoncé la chose au banneret Mourad bey : dans cette seule nuit, il avait envoyé treize estafettes. Quelle journée terrible, quelle heure grave aux moments de l'arrivée de ces courriers, surtout lorsque l'un d'eux propagea cette affreuse nouvelle, cet événement tragique! La ville du Caire fut remuée d'un seul élan. Les beys, les administrateurs, les ulémas, les cheikhs et le peuple sortirent de chez eux. Le vizir [1] descendit de la Citadelle, appelé au divan à Kasr-el-Aini [2], où se rendirent tous les beys présents au Caire, soit : le cheikh el-beled [3] Ibrahim bey [4], Mourad

---

[1] Le pacha d'Égypte portait officiellement ce titre de «vizir» (Deny, p. 48, 52).

[2] Le palais de Kasr el-Aïni, situé à l'emplacement actuel de l'hôpital du même nom, existait depuis longtemps. Le pacha y logeait avant de prendre possession de la Citadelle, et c'était là qu'il se retirait en quittant ses fonctions. On y réunissait, comme on le voit ici, les conseils des beys, des officiers de la milice et des cheikhs (Djabarti, I, p. 45, 179 ; II, p. 15, 25, 72, 74, 101, 159, 163, 164, 251, 262 ; trad., I, p. 108 ; II, p. 87 ; III, p. 15, 101, 105, 169 ; V, p. 26, 37-39, 199-200, 218).

[3] Sur cette fonction, voir : Hammer, XVI, p. 148 ; Marcel, p. 225, 227 ; Bréhier, p. 3 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 49 ; Dehérain, p. 70 ; *Précis,* III, p. 42 ; *Histoire scientifique,* II, p. 472 ; *Description,* XV, p. 323.

[4] Ibrahim bey le Grand avait été nommé bey en 1182/1768 (Martin, I, p. 122-127, 131, 182 ; Djabarti, I, p. 317, 413, 414 ; II, p. 2, 3, 8-11, 14, 19, 21-24, 36-38, 51, 53, 59, 60, 72-74, 79-84, 92, 93, 102-114, 116-118, 120, 121, 132, 134, 139, 146, 155, 156, 158, 161, 169, 175, 176, 192, 194-196, 225, 227, 239, 240, 250, 251, 258, 259, 262 ; trad., III, p. 145, 213, 217, 231, 232, 234, 246, 248-251, 253, 254, 259, 271 ; IV, p. 5, 7, 8, 10, 11, 13, 37, 41, 43, 62, 67-69, 81, 82, 85, 101, 104, 105, 107, 108, 115-121, 124, 125, 127, 130, 146-150, 170, 171, 174, 175, 177, 181, 184, 186, 189, 191, 192, 195, 196, 198-200, 203, 204, 206, 213-215, 222-224, 251, 256, 269, 287 ; V, p. 15, 16, 21, 31, 60-62, 64, 93, 98, 99, 102, 156-159, 178, 180, 197, 200, 209-211, 217 ; *Histoire scientifique,* II, p. 494, 507, 509-513 ; III, p. 146 ; Marcel, p. 231, 238, 242-250 ; Ryme, p. 28 ; Bréhier, p. 11, 12, 21 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 73, 75, 78, 108, 149, 150, 154, 155, 164, 179, 218-221, 238, 246, 247, 260-263, 266, 267, 270, 283-287, 291 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 57, 77,

« Mais malheur, malheur à ceux qui se joindront aux Mamlouks et les aideront à nous faire la guerre. Il n'y aura pour eux aucune voie de salut et leurs traces seront effacées.

(10) ARTICLE PREMIER.

« Tous les villages situés dans un rayon de trois heures des endroits où passera l'armée française enverront des délégués pour faire connaître au général commandant les troupes qu'ils sont dans l'obéissance, et le prévenir qu'ils ont arboré le drapeau français qui est blanc, bleu et rouge.

ARTICLE 2.

« Tout village qui prendra les armes contre l'armée française sera brûlé.

ARTICLE 3.

« Tout village qui se sera soumis à l'armée française mettra avec le pavillon français celui du sultan ottoman, notre ami, que Dieu protège sa durée !

ARTICLE 4.

« Dans chaque localité, les cheikhs feront mettre les scellés sur les biens, maisons et propriétés, qui appartiennent aux Mamlouks, et apporteront le plus grand soin à ce que rien ne soit détourné.

ARTICLE 5.

« Les cheikhs, les cadis, les imams continueront les fonctions de leurs places. Chaque habitant restera chez lui tranquille. Les prières auront lieu dans les mosquées comme à l'ordinaire. Tous les Égyptiens remercieront Dieu de la destruction du gouvernement des Mamlouks ; ils diront à haute voix : (11) « Que Dieu conserve la gloire du sultan « ottoman ! Que Dieu conserve la gloire de l'armée française ! Que Dieu « maudisse les Mamlouks et rende heureux le sort de la nation « égyptienne ! »

« Écrit au quartier général d'Alexandrie le 13 messidor de l'an VI de la République française (1er juillet 1798), ou fin moharram 1213 de l'hégire. »

« Autrefois il y avait en Égypte de grandes villes, de grands canaux, un commerce considérable, qui n'ont cessé d'exister que par l'avarice et la tyrannie des Mamlouks.

« Cadis, cheikhs, imams, tchorbadjis et notables du pays, dites au peuple que les Français sont aussi de vrais musulmans. Ce qui le prouve, c'est qu'ils ont été à Rome la grande et ont détruit le trône du Pape [1], qui excitait sans cesse les chrétiens à faire la guerre aux musulmans ; qu'ils sont allés à l'île de Malte et en ont chassé les chevaliers, qui s'imaginaient que Dieu voulait qu'ils fissent la guerre aux musulmans ; qu'en outre les Français se sont montrés dans tous les temps les amis particuliers de Sa Majesté le sultan ottoman et les ennemis de ses ennemis, que Dieu fasse durer sa royauté ! Les Mamlouks, au contraire, se sont toujours abstenus de lui obéir ; ils ne se conforment jamais à ses ordres et ne suivent que leurs caprices.

« Heureux, oui heureux, les Égyptiens qui s'uniront promptement avec nous. Ils prospèreront dans leur fortune et leur rang. Heureux ceux qui resteront dans leurs demeures, sans pencher vers l'un des deux partis qui se font la guerre. Lorsqu'ils nous connaîtront davantage, ils se hâteront de venir à nous de tout leur cœur.

---

[1] « En présence de ce texte, il importe peu de rappeler que, plus tard, le silence s'était fait autour des actes religieux de Bonaparte en Égypte, soit qu'il eût donné ses ordres à ce sujet, soit que l'on comprît spontanément que ces souvenirs, peu favorables à sa nouvelle politique, devaient lui être désagréables. C'est ainsi que de Sacy n'osa pas publier dans sa *Chrestomathie arabe* le texte de la proclamation d'Alexandrie. Lors de la première édition de la *Chrestomathie*, dit-il, j'avais fait imprimer la traduction arabe de cette pièce dans le premier volume ; mais quand il fut question d'en imprimer le texte français dans le troisième volume, je craignis qu'on ne me sût mauvais gré de remettre sous les yeux du public cette proclamation où le chef de l'armée française se vantait d'avoir détruit le Pape : c'était en effet l'époque où, ses principes changeant avec les vues de son ambition, il venait de conclure un concordat avec le Souverain Pontife. Je supprimai donc la feuille du texte arabe où elle se trouvait, et j'y substituai une autre pièce. J'ai cru devoir rétablir, dans cette seconde édition, cette pièce qui mérite, par sa singularité et par son style hautain et dérisoire, d'être conservée à la postérité. » (Chauvin, *La légende égyptienne de Bonaparte*, p. 36-37.)

au Caire un manifeste imprimé pour exposer les raisons de sa présence. En voici le texte [1] :

« Au nom de Dieu, clément et miséricordieux. Il n'y a de divinité qu'Allah ; il n'a point de fils et règne sans associé.

« Au nom de la République française, fondée sur la liberté et l'égalité, le général en chef des armées françaises, Bonaparte, fait savoir à toute la population de l'Égypte que depuis assez longtemps, les beys qui gouvernent l'Égypte insultent à la nation française et couvrent ses négociants d'avanies : l'heure de leur châtiment est arrivée.

« Depuis trop longtemps ce ramassis d'esclaves achetés dans le Caucase et la Géorgie tyrannise la plus belle partie du globe. Mais Dieu tout-puissant, maître de l'univers, a ordonné que leur empire finît.

« Peuple de l'Égypte, on vous dira que je viens pour détruire votre religion ; c'est un mensonge évident, ne le croyez pas. Répondez aux imposteurs que je viens vous restituer vos droits à l'encontre des usurpateurs, que j'adore Dieu plus que ne le font les Mamlouks, et que je respecte son prophète Mahomet et l'admirable Coran.

« Dites-leur que tous les hommes sont égaux devant Dieu ; l'intelligence, les vertus et la science mettent seules de la différence entre eux.

(9) « Or quelle intelligence, quelles vertus, quelles connaissances distinguent les Mamlouks, pour qu'ils aient exclusivement tout ce qui rend la vie douce ?

« Partout où se trouve une terre fertile, elle appartient aux Mamlouks ; les plus belles esclaves, les plus beaux chevaux, les plus belles maisons, tout cela appartient aux Mamlouks.

« Si la terre d'Égypte est leur ferme, qu'ils montrent le bail que Dieu leur en a fait. Mais Dieu est juste et miséricordieux pour le peuple. Avec son aide, aucun Égyptien ne sera désormais exclu des grandes charges et tous pourront parvenir aux dignités les plus élevées ; les plus intelligents, les plus vertueux, les plus savants dirigeront les affaires. Par ce moyen, le peuple sera heureux.

---

[1] Voir Haidar Chihab, II, p. 222-224 ; Chauvin, *La légende égyptienne de Bonaparte,* p. 11-13.

la situation et se résolut à calmer l'effervescence. Il déclara donc à la population : « Donnez-leur leur consul, je prends sur moi la responsabilité de cette mesure. » On livra le consul, qui s'embarqua et partit sur le vaisseau. Avant même le coucher du soleil, la flotte se présenta au grand complet dans la rade : il y avait là, d'après les chiffres officiels, trois cent quatre-vingts navires à voiles.

Les habitants d'Alexandrie, en regardant l'horizon, ne voyaient plus la mer, mais seulement le ciel et des vaisseaux : ils furent saisis d'épouvante à un point inimaginable. Devant ces transes soudaines de la population, un conseil fut immédiatement convoqué, à l'issue duquel le saiyid Mohammed Koraim envoya au Caire, à l'émir banneret Mourad bey, le message suivant [1] :

« Seigneur, la flotte qui vient de paraître est immense ; on n'en peut apercevoir ni le commencement ni la fin. Pour l'amour de Dieu et de son prophète, envoyez-nous des combattants. »

La population d'Alexandrie passa la nuit dans une terreur inconcevable. Le lendemain, aux premières lueurs du jour, l'on vit sur la plage l'armée française, en nombre considérable, sur le pied de guerre, qui marchait vers la ville pour monter à l'assaut. Les Alexandrins se crurent perdus, car il n'y avait en tout et pour tout qu'un seul baril de poudre dans la citadelle d'Alexandrie, qui était la clef de l'Égypte.

A la suite d'un assaut général, les troupes françaises se rendirent maîtresses de la ville. Les habitants eurent environ quarante tués, et les Français subirent moins de pertes. Le général Kléber fut blessé.

(8) Le lendemain, une proclamation du général Bonaparte, commandant en chef des troupes françaises, promit de faire grâce et garantit la population contre toute atteinte. Sans délai, les armées françaises partirent en direction du Caire, par les routes de Damanhour et de Rosette. Rosette fut occupée sans aucune difficulté, car les habitants vinrent au devant des Français et leur livrèrent la ville, qui ne pouvait supporter un siège.

Après la prise d'Alexandrie, le général en chef Bonaparte avait envoyé

---

[1] Cf. Marcel, p. 250 ; Haidar Chihab, II, p. 221-222.

et le gouvernement de la ville, se rendit à leur rencontre pour s'informer du motif de leur présence [1] :

— Nous sommes venus dans ces parages, lui dirent-ils, à la recherche de la flotte de nos ennemis les Français. Nous avons appris qu'elle avait fait voile vers cette contrée dans le dessein de s'en emparer, et nous sommes là pour les en empêcher et leur résister. Nous avons l'intention de mouiller ici pour les attendre.

Le saiyid Mohamed Koraim crut à une fourberie des Anglais, et pensa qu'ils voulaient lui tendre un piège :

— Il n'est pas possible, leur dit-il, que les Français viennent dans notre pays ; ils n'ont rien à y faire et nous ne sommes pas en guerre avec eux. Je ne puis donc ajouter foi à vos déclarations. En tout cas, vous ne pouvez séjourner sur nos côtes et nous n'avons aucune raison plausible de vous y autoriser. Faites de l'eau et des vivres, si vous en avez besoin, mais partez. Si vraiment les Français, comme vous le prétendez, songent à envahir notre pays, nous saurons contrecarrer leur entreprise.

— Vous ne croyez pas à nos affirmations, répliquèrent les Anglais, vous allez voir ce qui va vous arriver et vous vous repentirez d'avoir refusé notre concours.

(7) Là-dessus ils prirent le large. Le saiyid Mohamed Koraim rentra chez lui et s'empressa d'instruire le banneret Mourad bey au Caire. La nouvelle se répandit dans cette ville dès que cet officier fut au courant, et elle causa une vive émotion et une grande inquiétude parmi la population.

Mais laissons ces répercussions dans la capitale et revenons au fil de notre récit. Le lendemain du départ des vaisseaux anglais, dans l'après-midi, on aperçut des navires français : l'un d'eux se détacha et s'engagea dans le chenal. Son commandant descendit à terre et réclama le consul de France, qui se trouvait alors à Alexandrie. A cette nouvelle, la terreur se répandit dans la ville. On assembla un conseil, où l'on arrêta de ne pas laisser partir le consul. Or le commandant du stationnaire turc, constatant le grand nombre des navires au large, mesura la gravité de

---

[1] Voir sur cet incident : Djabarti, III, p. 2-3, 169-170 ; trad., VI, p. 6, 317 ; Haidar Chihab, II, p. 220-221.

les richesses du Pape, puis laissèrent sur place un détachement français. Ils revinrent enfin à Paris : cette conflagration européenne avait duré six ans, et la plupart des pays que nous avons mentionnés restèrent soumis à l'obéissance des Français.

C'est alors qu'ils équipèrent une escadre considérable : personne ne fut à même de savoir la destination de cette flotte avant que les préparatifs n'en fussent achevés. Elle était formée de trois cent quatre-vingts bâtiments, montés par trente mille simples soldats et vingt-trois mille gradés et non-combattants, généraux, commandants, officiers, commissaires, secrétaires, femmes, enfants, marins, en tout cinquante-trois mille individus. Le commandant en chef était le général (6) Bonaparte, âgé d'environ trente ans : c'était un homme d'une bravoure exceptionnelle, toujours heureux dans les combats, qui venait de conquérir l'Italie, Venise et bien d'autres contrées.

Lorsque la flotte fut prête, elle mit à la voile à Toulon et, poursuivant sa route, parvint à l'île de Malte, qu'elle emporta d'assaut. On a dit que cette conquête avait été due à la trahison des chevaliers français qui se trouvaient dans l'île[1]. Les Français débarquèrent donc dans l'île de Malte, qui était très riche : ils en retirèrent un butin appréciable, et abolirent l'ordre des chevaliers envoyés par les rois de l'Europe. Ils y installèrent une garnison de six mille Français, qui furent remplacés par autant de Maltais. Ils libérèrent les prisonniers musulmans de diverses régions qui y étaient enfermés et les renvoyèrent dans leur pays d'origine.

Quittant l'île de Malte, ils voguèrent sur Alexandrie et l'Égypte.

Avant leur arrivée, le 13 moharram 1213 (27 juin 1798), on avait vu paraître devant Alexandrie quelque douze bâtiments de la flotte anglaise, et un détachement était descendu à terre. Le saiyid Mohammed Koraim, Douanier[2] de la ville, qui exerçait alors la présidence du divan

---

[1] Voir Wiet, *Deux mémoires,* p. 44.

[2] « L'homme qui exerce ces fonctions est tout à la fois contrôleur et fermier général » (Volney, I, p. 202 ; voir : Dozy, II, p. 528 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 4, 67, 104, 205).

Sur cet incident, voir : Djabarti, III, p. 169-170 ; trad., VI, p. 317.

Les rois d'Europe, à la réception de cet ultimatum, se disposèrent à la lutte : « Nous devons attaquer ce peuple révolté et rebelle, dirent-ils, nous ferons disparaître son nom dans le monde, de peur que les autres nations, devenant révolutionnaires à son exemple, ne se soulèvent contre leurs rois et ne les mettent à mort. » Les souverains mobilisèrent donc leurs troupes contre la République française. Le premier qui déclara la guerre aux Français fut l'empereur d'Autriche, suivi par l'Espagne, (5) l'Angleterre, la Hollande[1] et les princes d'Italie. En général, tous les pays de l'Europe se dressèrent contre la République française, qui se trouva ainsi privée de l'amitié et de l'alliance de l'ensemble des nations européennes.

Cependant la France, plus peuplée qu'aucun autre pays, devant cette coalition des peuples de l'Europe, se réunit en un seul parti, enrôla les jeunes gens à partir de l'âge de sept ans, et fit le serment de soutenir la lutte contre tous ses adversaires. Ses armées sortirent, commencèrent par assiéger successivement les villes et assaillir les royaumes, les uns après les autres. Les Français bousculèrent les armées ennemies en plusieurs batailles, s'emparèrent de vastes territoires et firent tomber de nombreuses forteresses. Ils envahirent l'Italie, qu'ils occupèrent en partie, et franchirent la frontière de l'Autriche. Après la conquête de plusieurs villes et citadelles autrichiennes, le général en chef des armées françaises, Bonaparte, conclut la paix avec l'empereur d'Autriche.

Bonaparte passa ensuite d'Autriche en Italie ; il se dirigea vers Venise, où il fit une entrée imposante. Cette ville était la vierge des vierges, car aucun ennemi n'avait violé ses murailles et ne l'avait prise depuis l'époque de sa fondation et de l'établissement de sa République. Les troupes françaises y accédèrent, supprimèrent son gouvernement, livrèrent la cité au pillage, s'emparèrent de ses trésors, ainsi que des îles de sa dépendance, puis en remirent le territoire à l'empereur d'Autriche. De là ils marchèrent sur Rome la grande, qu'ils enlevèrent ; ils déposèrent le Pape, qui fut contraint de quitter sa capitale ; ils firent main basse sur

---

[1] *Falamank* désigne aussi bien la Flandre que la Hollande (Bocthor, I, p. 358, 405 ; Samy bey, *Kamous el-a'lam,* V, p. 3423).

du peuple. Il ne s'est enfui que pour se réfugier auprès de l'Empereur, frère de sa femme, afin de lui demander du secours contre nous. Qu'il soit légalement condamné à mort, ainsi que la reine, cause de la conduite du roi et source de nos malheurs.»

(4) On fit comparaître sans délai devant le peuple le roi, son épouse et ses enfants, et tous furent exécutés publiquement. Ce fut à Paris un événement douloureusement ressenti par les princes, les nobles et les aristocrates, partisans du roi, et d'ailleurs un certain nombre de dignitaires de la cour, amis du roi, furent aussi mis à mort. Pour le peuple de France, ce fut une grande fête, et il fut décidé que cette journée serait solennisée pour commémorer la mort du roi et l'avènement de la République. Les Français célébrèrent donc l'anniversaire de ce jour, dont ils firent le point de départ de l'ère républicaine : ils changèrent les anciens mois chrétiens, créèrent des mois nouveaux, auxquels ils donnèrent des noms différents. Ils conservèrent les mois de trente jours, mais la semaine passa à dix jours, contrairement à l'usage : ils agirent ainsi pour bouleverser les vieilles habitudes.

Ils chassèrent les moines de leurs couvents, et les prêtres des églises ; les monastères et les églises furent d'ailleurs fermés. Le royaume de France fut dès lors la proie d'insurrections violentes, et le pays offrit le spectacle de dévastations considérables. Le clan du roi fut réduit à un nombre infime de partisans : la République devint forte, à mesure que disparaissaient les monarchistes, décimés par de très nombreuses exécutions. Plusieurs incidents se déroulèrent encore à Paris, qui précipitèrent le déclin des royalistes, comme nous venons de le dire, et l'accroissement de puissance des républicains.

La République notifia son existence à l'Empire ottoman et envoya un ambassadeur à Constantinople, où la nouvelle fut accueillie favorablement.

Les Français adressèrent des messages dans le même sens à tous les rois de l'Europe, pour les mettre au courant. Voici quelle était la teneur de ces lettres :

« Tous ceux qui reconnaîtront notre République seront nos amis, et ceux qui ne la reconnaîtront pas, nos ennemis. Que ces derniers se préparent à la guerre, car notre République est prête à combattre le monde entier.»

tandis que le reste de la population vivait dans l'humiliation et le mépris. C'est pourquoi le peuple français se révolta, s'écriant d'une voix unanime : « Nous n'aurons point de cesse que nous n'obtenions l'abdication du roi et l'établissement de la République. » Une immense manifestation se déroula dans la ville de Paris, qui affola le roi et les principaux personnages de sa cour, princes et nobles. Les insurgés pénétrèrent auprès du monarque et lui firent comprendre leurs intentions : le roi ne devait plus pouvoir donner un ordre ni prendre une décision par lui seul, mais la marche des affaires et l'administration du royaume dépendraient des représentants du peuple, réunis en assemblée, le roi garderait l'initiative, mais ses projets seraient soumis à l'approbation de ces députés. Par ce moyen la situation du royaume pourrait être améliorée. Tels étaient les vœux du peuple de France, qui furent déférés à l'agrément du roi. Ce dernier, devant une résolution aussi farouche, exprimée avec brutalité, fut saisi d'une extrême frayeur et déclara : « Je me soumets à tout ce que vous croirez convenable, car moi aussi je désire la prospérité, le bon ordre et le bien-être de ce royaume. » — « Si tu es réellement dans les sentiments que tu manifestes, répliquèrent les délégués, appose ta signature aux conditions suivantes. » Cette convention prévoyait l'établissement de la République et l'abolition du pouvoir absolu du roi. Le monarque signa sur-le-champ le texte qu'on lui présentait, et le peuple manifesta une grande liesse d'avoir fait sanctionner ses volontés. Quelques jours plus tard, le roi se disposa à prendre la fuite. Il sortit de Paris, pendant la nuit, accompagné de quelques amis et de personnes sûres, pour se soustraire au pouvoir du peuple : il comptait se rendre en Autriche [1], auprès de l'Empereur, frère de son épouse. Dès que les représentants du peuple apprirent la chose, ils mirent tout en œuvre pour faire arrêter le roi : celui-ci fut rejoint, appréhendé et ramené de force à Paris avec toutes les marques du mépris. Ces événements devaient provoquer le soulèvement général du peuple français. La foule s'assembla, hurlant à grands cris : « Que le roi soit mis à mort selon les lois de la République, attendu qu'il a violé les promesses faites aux représentants

[1] C'est par erreur que Desgranges parle ici de l'Allemagne et, plus loin, de l'empereur d'Allemagne, car son texte donne bien l'Autriche.

incidents qui surgirent entre ces Turcs et la puissance des Mamlouks de la Maison de Mohammed Aboul-Dhahab[1], à la suite de leur prise de possession du Caire. La force et le secours, conclurons-nous, résident en Dieu.

* * *

Au nom de Dieu, éternel, perpétuel, clément et miséricordieux. C'est à lui que nous demandons assistance et nous commençons, avec l'appui efficace de la Providence, à exposer l'histoire de l'avènement de la République française dans le monde, consécutif à l'exécution du roi de France, à partir de l'année chrétienne 1792, qui correspond à l'année 1207 de l'hégire islamique.

Nous disons donc, avec l'aide divine :

En cette année, toute la population du royaume de France se souleva : (3) l'émeute était dirigée contre le roi, les princes et les nobles. Le peuple exigeait un ordre différent et une nouvelle constitution, pour supprimer l'état de choses existant sous la royauté. Il affirmait dans ses prétentions que le pouvoir absolu du roi avait causé d'affreux désastres dans le royaume, que les princes et les nobles jouissaient de tous les biens,

---

[1] Dans le texte : « des mamlouks mohammédiens », ce qui n'a pas été traduit par Desgranges.

En effet, tous les beys mentionnés au début de cet ouvrage avaient été promus par Mohammed bey Aboul-Dhahab, bey depuis 1178/1764, mort en 1189/1775 (cf. Martin, I, p. 117-122 ; Djabarti, I, p. 252-256, 258, 305-308, 317, 318, 335, 336, 344, 349, 351. 364-366, 371, 373, 376, 377, 381, 382, 385, 409, 413, 414, 417-420 ; II, p. 17, 19-21, 36-38, 58, 81, 165, 199, 219 ; trad., II, p. 219, 221, 224-227, 231, 236 ; III, p. 5, 6, 8-10, 13, 31-33, 53-55, 57-59, 75, 76, 88, 91, 92, 115-120, 131, 132, 136, 137, 144, 145, 156, 158, 159, 165, 204, 205, 213-217, 224-231, 266, 267, 271, 272, 274-275 ; IV, p. 36-40, 42, 80, 144-145 ; V, p. 41-42, 108, 143 ; *Histoire scientifique,* II, p. 494, 496, 497, 500, 502-509 ; Marcel, p. 230-232, 234-239, 241, 242 ; Bréhier, p. 8-11 ; Charles-Roux, *Origines,* p. 53, 54, 60, 73, 75 ; Charles-Roux, *Autour d'une route,* p. 35-38, 40, 45, 48, 49, 57,107 ; Dehérain, p. 33, 67, 92, 126, 127, 130, 132-140, 192, 193 ; *Précis,* III, p. 44-48, 78, 105, 112, 114, 190 ; Samy bey, *Kamous el-a'lam,* I, p. 717 ; Sabry, p. 20-21 ; *Description,* XV, p. 346-354).

contrées. Depuis que la toute-puissance divine a permis l'avènement de la République française[1], la France fut le théâtre de désordres, qui s'étendirent aux autres nations européennes, gagnèrent toutes leurs capitales, aboutirent enfin à l'exécution du roi de France et à la ruine de ce pays. Nous insisterons donc sur l'expansion de l'influence des Français, et sur (2) les succès qui suivirent leurs revers, grâce à l'apparition d'un être incomparable, le commandant de leurs troupes, le vaillant héros, doué d'une énergie formidable, le général Bonaparte.

Nous décrirons ensuite les combats qui se déroulèrent dans nos contrées, avec leur cortège de maux et de débâcles, la façon dont les Français subjuguèrent ce pays dès leur arrivée, enfin les grandes victoires qu'ils y remportèrent. Nous parlerons de leur randonnée prodigieuse de l'Occident à l'Orient, plus prompte que l'éclair, de leur occupation de l'île de Malte, effectuée avec l'impétuosité de la foudre, de la prise d'Alexandrie et de leur conquête de toute l'Égypte. Nous ferons le récit de leur installation, après leurs rencontres avec les Mamlouks[2], de l'expédition de Syrie, du siège de la place forte de Saint-Jean-d'Acre, de leur retour en Égypte, en somme de tous les événements de cette époque. Nous relaterons leurs opérations contre les deux grandes puissances, l'Angleterre et l'Empire ottoman, les batailles navales et terrestres, la résistance acharnée des Français aux corps expéditionnaires de l'Empire ottoman, leur capitulation et leur départ de l'Égypte après des combats continuels et des dangers extraordinaires. Leur occupation du Caire[3] avait duré trois années entières, depuis le mois de moharram 1213 (juillet 1798) jusqu'au mois de safar 1216 (juin 1801). L'ensemble de ces faits constitue la plus merveilleuse des épopées.

Cet ouvrage contiendra en outre le récit de l'entrée des troupes ottomanes après la sortie des forces françaises et la chronologie des

---

[1] *Al-machikhat al-fransaouya*, c'est l'expression officielle, telle qu'on la lit dans une inscription du Nilomètre (*C. I. A., Égypte*, I, n° 4).

[2] *Al-Ghouzz al-mamalik*. — *Ghouzz* s'applique aux mamlouks d'origine turque : Colin, *Notes de dialectologie arabe, Bulletin de l'Institut français*, XVIII, p. 208 ; Guémard, p. 58 ; *Description*, XV, p. 323.

[3] *Kinana*, surnom de la ville du Caire (Colin, *loc. cit.*, p. 216).

(1) PRÉFACE DE L'OUVRAGE.

Louange à Dieu vivant, immuable, immortel, éternel, durable, perpétuel, le très haut Seigneur, sublime, fort, créateur, puissant, omnipotent, glorieux, superbe, clément, miséricordieux, sage ordonnateur, seul et unique. Il n'y a pas d'autre seigneur que lui, et lui seul doit être adoré. Il a créé les cieux, les a ornés d'astres errants et d'étoiles brillantes. Par sa sagesse profonde et sa puissance efficiente il a étalé la terre avec art et solidité. Il a façonné l'homme et l'a rendu maître de tout ce qu'il avait créé en ce bas-monde. Il l'a doué de l'essence d'un esprit supérieur et d'une intelligence admirable, lui a ordonné de se conduire suivant la justice, d'observer les lois, d'aimer sincèrement son prochain et de s'abstenir de discordes.

Nous rendrons à Dieu — qu'il soit glorifié et que son autorité soit exaltée ! — une louange digne de sa majestueuse grandeur, tant que se lèvera l'astre des nuits et que brillera le flambeau du jour.

Voici ce que déclare le faible esclave, auteur de cet ouvrage, la plus méprisable des créatures de Dieu et bien indigne de signer son œuvre, avec l'espoir d'obtenir le pardon de celui qui détient toute souveraineté.

Nos ancêtres ont eu l'habitude de composer des livres et des brochures sur les événements universels et les vicissitudes d'un caractère général dont ils ont été témoins, tels que les révolutions dans les gouvernements, les incidents les plus notoires des terribles guerres, ainsi que les catastrophes effrayantes et les épouvantables malheurs qui en sont inséparables. Il nous est donc permis, pour l'utilité des lecteurs, d'exposer dans cet ouvrage l'évolution que la main du destin a fait subir à nos

Rec. de firmans = Haim Nahoum, *Recueil de firmans impériaux adressés aux valis et aux khédives d'Égypte,* Le Caire 1934.

Rigault = *Le général Abdallah Menou et la dernière phase de l'expédition d'Égypte,* Paris 1911.

Rousseau = *Kléber et Menou en Égypte,* Paris 1900.

Rustum = *A calendar of State papers from the Royal Archives of Egypt relating the Affairs of Syria,* 4 vol., Beyrouth 1940-1943.

Ryme = *Égypte, sous la domination française,* coll. l'Univers, Paris 1848.

Sabry = *L'empire égyptien sous Mohamed-Ali,* Paris 1930.

Sami pacha = *Takouim el-Nil,* vol. 2, Le Caire 1928.

Sammarco, *Regno* = *Il regno di Mohamed Ali nei documenti diplomatici italiani inediti,* vol. I, VIII-X, Le Caire et Rome 1930-1932.

Savant, *Les mamelouks de Napoléon* = Paris 1949.

Skalkowski = *Les Polonais en Égypte,* Cracovie 1910.

Trécourt, *Mémoires sur l'Égypte* = Édités et annotés par G. Wiet, Le Caire 1942.

Vollers = *Beiträge,* in *Zeitschrift d. deutsch. morgenland. Gesellschaft,* L et LI.

Volney = *Voyage en Syrie et en Égypte,* 2 vol., Paris 1787.

Weygand = *Histoire militaire de Mohammed Aly,* 2 vol., Paris 1936.

Wiet, *Deux mémoires* = *Deux mémoires inédits sur l'expédition d'Égypte,* Le Caire 1941.

GUÉMARD = *Les réformes en Égypte,* Le Caire 1938.

—— *Aventuriers* = *Aventuriers mameluks d'Égypte,* Le Caire, s. d.

—— *Histoire et bibliographie* = *Histoire et bibliographie critique de la commission de sciences et arts et de l'Institut d'Égypte,* Le Caire 1936.

—— *Inscriptions françaises de l'enceinte du Caire,* Paris 1929.

HAMMER = *Histoire de l'Empire ottoman,* traduction Hellert, 18 vol., Paris 1835-1846.

Histoire de la nation égyptienne = Vol. VI, *L'Égypte de 1801 à 1882,* par F. Charles-Roux, Paris 1936.

Histoire scientifique = REYBAUD et autres, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte,* 10 vol., Paris 1830-1836.

DE LA JONQUIÈRE = *L'expédition d'Égypte,* 5 vol., Paris 1899-1907.

JOUANNIN et VAN GAVER = *Turquie,* collection l'Univers, Paris 1840.

JUCHEREAU DE SAINT-DENYS = *Histoire de l'Empire ottoman depuis 1792 jusqu'à 1844,* 4 vol., Paris 1844.

KINDERMANN, *Schiff im Arabischen* = Zwickau 1934.

KREMER = *Beitrage zur arabischen Lexikographie,* tirage à part de Sitzb. de l'Acad. de Vienne 1883-1884.

MARCEL = *Égypte, depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination française,* coll. l'Univers, Paris 1848.

MARTIN = *Histoire de l'expédition française en Égypte,* 2 vol., Paris 1815.

MENGIN = *Histoire de l'Égypte sous le gouvernement de Mohammed Ali,* 2 vol., Paris 1823.

Mille et une Nuits = Le Caire 1321 H. (les citations se réfèrent aux numéros des nuits).

MOURIEZ = *Histoire de Méhémet-Ali,* 5 vol., Paris 1855-1857.

NALLINO = *L'arabo parlato in Egitto,* Milan 1900.

NIEBUHR, *Voyage en Arabie* = 2 vol., Amsterdam 1776-1780.

PATON = *A history of the Egyptian revolution,* 2 vol., Londres 1863.

PLANAT = *Histoire de la régénération de l'Égypte,* Paris 1830.

POLITIS, *Conflit* = *Le conflit turco-égyptien de 1838-1841,* Le Caire 1931.

—— *L'hellénisme et l'Égypte moderne* = 2 vol., Le Caire.

Précis = *Précis de l'histoire d'Égypte,* par divers historiens, 4 vol., Le Caire 1932-1935.

P(RISSE) et H(AMONT) = *Égypte, sous la domination de Méhémet Aly,* coll. l'Univers, Paris 1848.

Puckler MUSKAU = *Egypt under Mehemet Ali,* 2 vol., Londres 1845.

RABINO, *Le monastère de Sainte-Catherine* = Le Caire 1938.

Dehérain = *L'Égypte turque, Histoire de la nation égyptienne,* vol. V, Paris 1934.
Deny = *Sommaire des archives turques du Caire,* Le Caire 1930.
Description de l'Égypte = 2e éd., Paris 1821-1829.
Desgranges = *Histoire de l'expédition des Français en Égypte par Nakoula el-Turk,* Paris 1839.
Djabarti = *Adjaïb el-Athar,* 4 vol., Boulak 1297 H = Traduction française, 9 vol., Le Caire 1888-1896.
Douin, *Conquête de la Syrie* = Le Caire 1931.
—— *Égypte de 1802* = *L'Égypte de 1802 à 1804,* Le Caire 1925.
—— *Égypte de 1828* = *L'Égypte de 1828 à 1830,* Le Caire 1935.
—— *Expédition d'Alger* = *Mohamed Aly et l'expédition d'Alger,* Le Caire 1930.
—— *Mission de Boislecomte* = *La mission du baron de Boislecomte. L'Égypte et la Syrie en 1833,* Le Caire 1927.
—— *Mohamed Aly, pacha du Caire* = Le Caire 1926.
—— *Paix de Kutahia* = Le Caire 1931.
—— *Politique mameluke* = Le Caire 1930.
Douin et Fawtier-Jones, *Campagne de 1807* = *L'Angleterre et l'Égypte : La campagne de 1807,* Le Caire 1926.
—— *Politique mameluke* = *L'Angleterre et l'Égypte. La politique mameluke,* Le Caire 1929.
Dozy = *Supplément aux dictionnaires arabes,* 2e éd., Leyde-Paris 1927.
Driault, *Égypte et Europe* = 5 vol., Le Caire 1930-1934.
—— *Expédition de Crète* = *L'expédition de Crète et de Morée,* Le Caire 1930.
—— *Formation de l'empire* = *La formation de l'empire de Mohamed Aly,* Le Caire 1928.
—— *Mohamed Aly et Napoléon* = Le Caire 1925.
Durand-Viel = *Les campagnes navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim,* 2 vol., Paris 1937.
Encyclopédie = *Encyclopédie de l'Islam,* 4 vol. et Supplément, Leyde-Paris 1913-1938.
Fagnan = *Additions aux dictionnaires arabes,* Alger-Paris 1923.
Forbin = *Voyage dans le Levant en 1817 et 1818,* Paris 1819.
Ghorbal = *The beginnings of the Egyptian Question and the rise of Mohamed Ali,* Londres 1928.
—— *Misr* = *Misr inda mafrik el-turuk,* tirage à part de *Madjallat kulliyat el-adab,* t. IV, Le Caire 1938.
—— *Mohammed Ali* = *Mohammed Ali el-Kabir,* Le Caire 1948.
Gouin = *L'Égypte au XIXe siècle,* Paris 1844.

INDEX BIBLIOGRAPHIQUE.

Ali pacha = Ali pacha Moubarek, *El-Khitat el-Taufikiya,* 20 vol., Boulak 1306 H.

Archives russes. — Voir Cattaui, *Archives russes.*

Auriant, *Aventuriers = Aventuriers et originaux,* Paris 1934.

Balboni = *Gli Italiani nella civiltà egiziana del secolo xix,* Alexandrie 1906.

Barbier de Meynard = *Dictionnaire turc-français,* Paris, 2 vol., 1881-1886.

Bibliothèque des Arabisants = Bibliothèque des Arabisants français, 2 vol., Le Caire 1905-1923.

Bocthor = *Dictionnaire français-arabe,* revu et augmenté par A. Caussin de Perceval, 2 vol., Paris 1829.

Bouchard, *La chute d'el-Arich = Journal historique, La chute d'el-Arich,* préfacé et annoté par G. Wiet, Le Caire 1945.

Bréhier = *L'Égypte de 1789 à 1900,* Paris 1901.

Brunot, *Notes lexicologiques = Notes lexicologiques sur le vocabulaire maritime de Rabat et Salé,* Paris 1920.

Cardin = *Journal d'Abdurrahman Gabarti,* Paris 1838.

Carré, *Voyageurs = Voyageurs et écrivains français en Égypte,* 2 vol., Le Caire 1932.

Cattaui, *Archives russes = Le règne de Mohamed Aly d'après les archives russes,* 3 vol., Le Caire 1931-1936.

Charles-Roux, *Autour d'une route = Autour d'une route. L'Angleterre, l'isthme de Suez et l'Égypte au xviii^e^ siècle,* Paris 1922.

—— *L'Angleterre et l'Expédition française* = 2 vol., Le Caire 1925.

—— *Origines = Les origines de l'expédition d'Égypte,* Paris 1910.

Chauvin, *La légende égyptienne de Bonaparte* = Mons 1902.

C. I. A., Égypte = Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, Égypte,* Le Caire, Paris 1903.

La contemporaine en Égypte = Ida Saint-Elme, *La contemporaine en Égypte,* 6 vol., Paris 1831.

Costa = *Histoire de l'expédition française en Égypte,* manuscrit arabe, fonds Teymour 1505, Bibliothèque nationale du Caire.

aux Français. A lire attentivement le texte que nous publions, on verra que le fait n'est pas exact : Nicolas admire le courage militaire, dans quelque camp qu'il le trouve, aussi bien chez les Français que chez les Mamlouks. Tout au plus peut-on dire qu'il n'aime pas les Turcs.

Dans sa *Littérature arabe au XIXᵉ siècle*[1], le P. Cheikho mentionne Nicolas Turc comme un poète estimé et ajoute qu'il est l'auteur d'une Histoire de Napoléon depuis la mort de Louis XVI jusqu'à la mort de l'empereur en 1821. Cet ouvrage, qu'il dit être long d'environ 450 pages, serait rédigé avec impartialité et bon goût, mais le P. Cheikho donne une autre précision malheureuse, c'est que la première partie en a été publiée par Desgranges. Jamais on ne fera croire que le texte publié par Desgranges soit une histoire de Napoléon, c'est le récit de l'expédition française en Égypte.

De même enfin il conviendra d'être prudent en ce qui concerne une biographie d'Ahmed Djezzar, qui se trouve dans la collection de l'Université Saint-Joseph à Beyrouth. Je cite le P. Cheikho lui-même[2] : «Son nom n'est indiqué nulle part. A notre avis, elle serait du fameux Nicolas Turc.»

---

[1] *La littérature arabe au XIXᵉ siècle,* en arabe, 2ᵉ éd., p. 23-24. Voir Bich Farès, *Yaoum fi khizanat Isa Iskander Malouf,* extrait du *Moktataf,* 1942, p. 7.

[2] Cheikho, *Manuscrits historiques, Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth,* VI, p. 240-241.

par Djezzar causa le malheur d'un de ses frères habitant Saint-Jean-d'Acre.

« Après le départ des Français, Mou'allim Nicolas retourna à Dair el-Kamar et se livra de nouveau à la poésie. Devenu aveugle sur la fin de ses jours, sa fille Ouarda écrivait sous sa dictée les vers qu'il composait.

« L'ouvrage dont la traduction suit n'est que le résumé de sa correspondance, qu'il s'est plu à rédiger en prose rimée. »

Gabriel Guémard a connu les deux versions de Nicolas Turc. Il en donne l'appréciation suivante : « Très favorable aux Français, comme nombre de Levantins du temps, auteur d'une ode dithyrambique à Bonaparte, le secrétaire, ou plutôt l'espion de l'émir Béchir, ne remarque, au sujet de nos savants, que leur installation dans les palais des beys en fuite, cite nominativement le seul Caffarelli. D'une incroyable naïveté, il ne voit dans le 18 brumaire qu'une émeute de mamlouks, mais dépeint quelques-uns des Orientaux, notamment les Syriens, qui servirent dans notre armée comme auxiliaires ou dans notre état-major comme interprètes, nous révélant en particulier un certain Petro Saferlu, ignoré par ailleurs. » (1)

Cet individu n'est pas un inconnu, mais il convient de corriger le texte arabe, ce qui n'offre d'ailleurs aucune difficulté. Nous lisons (2) : الرجل السافرلى المدعو باترو وهذا الذى كان يدعونه اهل مصر فريد الزمان. Ne nous occupons pas du nom propre, qui est erroné, mais السافرلى devient facilement الساقزلى et il faut lire فرط الرمان au lieu de فريد الزمان. L'homme qui est Sakizli (originaire de Chio), au lieu de Saferlu, qui porte le surnom de *Fart el-Roumman*, « Grain de grenade », n'est autre que le trop fameux Barthélemy : cette solution n'est fantasmagorique que pour les non-arabisants.

L'Ode à Bonaparte a été souvent publiée (3) : c'est une pièce de circonstance et l'on se base sur elle pour affirmer que Nicolas est très favorable

---

(1) Guémard, *Histoire et bibliographie,* p. 111-112.

(2) Desgranges, p. 64 du texte arabe.

(3) Chauvin, *La légende égyptienne de Bonaparte,* p. 43 et la note 1 ; Haidar Chihab, II, p. 341-342 ; Jehan d'Ivray, *Bonaparte et l'Égypte* (signalé dans Munier, *Tables de la Description de l'Égypte,* p. 315, n° 201).

M. Costi K. Zurayk veut bien m'écrire qu'un manuscrit du *Divan* de Nicolas Turc se trouve à la Bibliothèque de l'Université américaine de Beyrouth.

On ne sait pas grand'chose de Nicolas Turc et les seuls renseignements que nous possédions ont été publiés par Desgranges, qui les tenait de l'intéressé, et par Cardin, « Nicolas Turc, nous dit le premier, fils de Yousouf Turc, était de la religion catholique grecque. Il naquit dans l'année 1763 à Dair el-Kamar, en Syrie, où je l'ai connu, et y termina sa carrière en 1828. Sa famille est originaire de Constantinople, comme il nous l'apprend lui-même au sujet d'une ode qu'il a composée en l'honneur de Bonaparte, et dont M. Marcel, ancien directeur de l'Imprimerie nationale, a donné une traduction avec un *fac-simile* lithographié d'après l'écriture de l'auteur. On lit en tête de cette ode : Nicolas Turc, fils de Yousouf Turc, Constantinopolitain d'origine, a composé cette pièce de vers.

« Nicolas Turc était au service de l'émir Béchir, chef des Druses. Ce prince l'ayant envoyé en Égypte vers l'époque de notre expédition, il s'y trouva les trois années pendant lesquelles nos armées occupèrent cette province, et c'est là qu'il réunit les matériaux qui lui servirent ensuite à écrire son histoire.»[1]

Cardin ajoute des détails nouveaux, peu importants d'ailleurs. « Mou'allim Nicolas le Turc naquit à Dair el-Kamar, dans la montagne des Druses, en 1763, et y mourut en 1828. Ses ancêtres, Grecs de Constantinople, étaient venus habiter la montagne et y avaient embrassé la religion catholique.

« Mou'allim Nicolas était un poète très estimé de la cour de l'émir Béchir, le prince des Druses : il n'en recevait pas, il est vrai, d'appointements fixes, mais l'émir pourvoyait généreusement à l'entretien de sa famille.

« L'expédition française pouvait influer beaucoup sur le sort des Druses qui se prétendent originaires français. Il était donc de la plus haute importance pour le chef de cette nation belliqueuse d'être bien informé des événements de l'Égypte. Mou'allim Nicolas reçut en conséquence l'ordre d'aller s'établir à Damiette, point excellent d'observation entre l'Égypte et la Syrie. Une lettre de Mou'allim Nicolas interceptée

---

[1] Voir aussi Chauvin, *La légende égyptienne de Bonaparte*, p. 13 ; Guémard, p. 11, 69 ; Guémard, *Auxiliaires, Bulletin de l'Institut d'Égypte*, IX, p. 2.

L'OUVRAGE ET L'AUTEUR.

Le manuscrit arabe publié et traduit dans ce volume a été acquis en 1948 au Caire par la Bibliothèque privée de Sa Majestée le roi Farouk, et je prie respectueusement Sa Majesté de vouloir bien trouver ici l'expression de ma profonde gratitude pour m'avoir autorisé à l'éditer.

Ce manuscrit contient 259 pages d'une écriture ferme et régulière, qui se gâte un peu vers la fin.

Il ne possède aucun titre et ne mentionne pas le nom de l'auteur. C'est par la traduction de Cardin [1] que j'ai pu identifier l'œuvre, comme étant l'histoire de Nicolas Turc, tout au moins l'une de ses deux versions, l'autre ayant été éditée et traduite par Desgranges [2].

Le texte arabe est donc entièrement inédit et, puisque Cardin a arrêté sa traduction aux événements du mois qui suit l'évacuation française, la fin de cette œuvre est complètement inconnue. Cette partie nous mène jusqu'en août 1804 et nous procure ainsi des renseignements sur les débuts de Mohammed Ali : au rebours de Djabarti, Nicolas Turc se montre à son égard clairvoyant et bienveillant, ce qui, pour l'histoire de l'Égypte, présente un intérêt considérable.

Le travail que je publie comporte l'édition du texte, rédigé dans une langue qui méprise les règles de la grammaire, tout en visant à l'effet par des périodes de prose rimée : le mieux était de publier le manuscrit tel qu'il est, sans effectuer aucune correction. La traduction que j'en donne est confrontée dans les notes avec les autres documents connus. Je l'accompagne d'un lexique des nombreux vocables étrangers utilisés à cette époque.

---

[1] Publiée à la fin du *Journal d'Abdurrahman Gabarti,* avec une pagination spéciale (69 pages), Paris 1838.

[2] *Histoire de l'expédition des Français en Égypte par Nakoula el-Turk,* Paris 1839.

PUBLICATIONS DE LA BIBLIOTHÈQUE PRIVÉE
DE S. M. FAROUK Ier, ROI D'ÉGYPTE

2

NICOLAS TURC

CHRONIQUE D'ÉGYPTE
1798-1804

ÉDITÉE ET TRADUITE
PAR
GASTON WIET

LE CAIRE
IMPRIMERIE DE L'INSTITUT FRANÇAIS D'ARCHÉOLOGIE ORIENTALE
1950

NICOLAS TURC

CHRONIQUE D'ÉGYPTE
1798-1804

DATE DUE

